

حُبُّ تَحْتَ ظِلَالِ النَّبِقِ

فَرِيَادُ إِبْرَاهِيمَ

الكتاب: حُبُّ تَحْتَ ظِلَالِ النَّبِق (رواية)

المؤلف: فرياد إبراهيم

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٨

رقم الإيداع: ١٤٠٨٥ / ٢٠١٧

الترقيم الدولي: 8 - 287 - 493 - 977 - 978 - I. S. B. N.

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٢٧ ش الثلاثين، برج الشانزليزيه، زهراء العادي، القاهرة

☎ فاكس: ٢٧٢٣٨٠٠٤ (٠٢)، ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل

أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت

إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر



حُبُّ تَحْتَ ظِلَالِ النَّبِقِ

رواية

فرياد إبراهيم

obeyikan.com

القسم الأول

الأصدقاء الأربعة

obeyikan.com

كان فرهاد وعدنان غارقين في حديث بدا شيقاً، ولم يلاحظا والدهما إلا بعد ما نادى العم بطرس، الذي هرع إليه ووقف أمامه كالجندي في انتظار الأوامر من القائد، وكان لصوت الوالد الأمر ووقوف العم بطرس أمامه يد على صدر منحنيًا انحناءً قليلة أبلغ الأثر على الأخوين.

- أمرك أبندي - يقصد أفندي - به كم.
سمعه يقول..

كان العم بطرس فراش المدرسة ومنظفها وحارسها، يلفظ الحرف (ف) كالحرف الأول في الكلمة الانجليزية pen، ولم يفهم فرهاد ولا عدنان ما كان العجوز يعنيه بلفظة به كم، سيدي.. ولم يكن بمقدورهما كذلك إيجاد تفسير للقيام المفاجئ للفراشين لدى ظهور المدير والانحناء، ولكن الشيء الذي أدركاه تمامًا هو أن مام عم، بطرس البيت؛ كان غير مام بطرس المدرسة، وذلك ما أدخل شيئًا من الرهبة في قلبي الطفلين، محتها حركة الأفندي الذي وضع في يد العجوز الصفارة، والذي بدوره نفخ فيها بكل ما أوتي من قوة؛ انعكس بطنه من شدتها.

لم تمض لحظة إلا واندفع التلاميذ وعددهم ٦٠ طالب؛ واحد واحد، وتحت إشراف المراقب اليومي إلى صفوفهم، أمّا الأخوان اللذان لم يعر والدهما أي اهتمام لوجودهما في المدرسة ولليوم الأول؛ فقد قادهما العم بطرس وبكل رفق وكلام لين إلى صفيهما، فدخل فرهاد إلى الصف الذي عُلق على بابهِ لوحة قهوائية كُتب فوقها بالخط العريض الصف الثالث، ودخل أخوه الصف الثاني.

جلس فرهاد على إحدى الكراسي الخشبية الفارغة، في وسط الغرفة الحجرية المطلية جدرانها بالملاط الأبيض، وشعر من أول وهلة بالوحدة بين الوجوه العشرة الجديدة عليه، كان مراقب الصف - وكان ولدًا ذا هيكل وبنية قوية وهذه كانت إحدى شروط المراقب الناجح - يقف أمام السبورة قائمًا بواجبه في مراقبة وضبط الصف والنظام بانتظار دخول المعلم، وكلما سمع صوتًا عاليًا أو حركة غير لائقة من أحد الطلاب، والذين كانوا مزيجًا من أهل البلدة نفسها؛ أي حرير والقرى المجاورة؛ سارع المراقب الذي كانوا يسمونه كامو - مختصر كامران - بإسكاته بالقول

والإشارة فوراً، وإذا لم تكن هذه كافية لردعه، عمد إلى وسيلة أخرى أشد، متوعداً الطالب المشاكس بالشكاية عليه لدى المدير، وكان ذلك غالباً إنذار كافي لإعادة الهدوء.

ما كادت عينا كامو الحادثين لتفارقان الضيف الجديد، كان فرهاد طوال جلوسه الانعزالي متلفاً بوجهه جهة النافذة عن شماله، حيث القشلة، مخفر الشرطة، وبابها الحديدي المزنجر الضخم والحراس الواقفين على طرفيه كالصنم.

مضى خمس دقائق في انتظار المعلم والذي جاء مسرعاً، وفي اللحظة التي وضع فيها المعلم قدميه داخل الصف؛ ضرب كامو بقدمه اليمنى بكل قوة على الأرض مؤدياً التحية العسكرية ثم هتف بأعلى صوته "قيام" فقام الكل، ووقف المعلم منتصباً أمام الطلاب وخلفه السبورة السوداء، أجال بعينه الصغيرتين في أرجاء الغرفة وحيطانها الحجرية، وواصل ذلك حتى وقعت عيناه على فرهاد، وعندها بدأ بمناداة الأسماء لضبط الغياب.

همس الطالب الذي كان يجلس وراءه في أذنه أن هذا اسمه ماموستا فيصل، ثم همس نفس الولد في أذنه مرة أخرى أن الطلاب يكتونه باسم ماموستا فاصوليا وذلك لصغر حجمه وصلابته، أمّا فرهاد فقد تظاهر وكأنه لم يسمع شيء، وبدلاً من ذلك فقد استغل انشغال المعلم بضبط الأسماء والتأكد من وجود الطباشير والممسحة في الصف والإيعاز بفتح الكتب؛ ليلقي نظرة فاحصة على زملائه الجدد، فوجد من بينهم ثلاث بنات جالسات أمامه، إحداهن كانت بملابس القرويات الشعبية، أمّا الأخريات فقد كن يرتدين فساتين طويلة سميكة، ويضعن فوق رؤوسهن أغطية من القماش الملون الرقيق، بحيث لم يجد فرهاد صعوبة في معرفة لون وتسريحة الشعر المخفي تحتها.

المعلم فيصل كان يسكن في قرية مجاورة وكان يأتي للمدرسة - رآه فرهاد مرتين- يشق طريقه عبر الحقول والكتبان والأشواك، لذلك اعتاد على أن يطوي كم بنطلونه الأخضر الباهت ويحشره تحت جواربيه حشراً، الأمر الذي جعل المنطقة ما فوق الجواريب تنتفخ كمنطاد الأطفال وخاصة عند هبوب رياح، وغالباً ما كان يقف بهذه الشاكلة أمام الطلاب، وويل لمن انفتق فمه عن ابتسامة.

كان المعروف عنه أنه كان مناوئاً للعائلة المالكة البائدة، وأنه كان يفضل الكنية التي ألحقت به على اسمه فيصل، لأن الملك نفسه كان اسمه الملك فيصل، ولم يُخَفِ كذلك مناصرته وتأييده المطلق للشيعوية التي كانت في تلك الأيام موضة العصر، وقد جهر مرات ومرات أمام الملأ:

- أنا شيوعي، مؤمن بالزعيم عبد الكريم قاسم، الذي قضى على الملكية الباغية، هو باني مجدنا وحامينا من الاستعمار والإمبريالية.

وكان المروي عنه أنه كان يحتفظ في بيته دائماً باسطوانات لأغاني المطربة اللامعة مائدة نزهت، وغالباً سُمع وهو يندندن بأغانيها في المدرسة والأماكن العامة، وخاصة أغنياتها التي كانت شائعة جداً وهي أغنية أم الفستان الأحمر، اللون المتميز للحزب الشيوعي.

اعتدل ماموستا فيصل في وقفته أمام الصف وبدأ الدرس بالترحاب بفرهاد وتقديمه للصف:

- فرهاد اسمه، وهو ابن مدير المدرسة الجديد الأستاذ عمر أفندي.

حينها استدارت الوجوه مندهشة دفعة واحدة إلى حيث جلس فرهاد ثابتاً دون حراك، وسلطت الأعين جميعاً عليه، فلم يتمالك نفسه حيال النظرات الفضولية النافذة الفاحصة فخفض رأسه خجلاً، وظل هكذا إلى أن ارتفع صوت ماموستا فيصل الجمهوري الهادر الذي رفع يده هاتفاً مخاطباً إياهم بلهجة حازمة بالانتباه والالتفات إليه..

أخرج بعدها خارطة كبيرة ملونة من داخل الخزان الحديدي القائم في الزاوية قرب النافذة وعلقها على مسمار مدقوق في اللوحة، ثم رجع إلى الخزان نفسه وأخرج عصا قصيرة لينة من خشب الجوز الطري، الذي كان العم بطرس يجلبه من الجبل بانتظام، ورجع إلى حيث كان واقفاً وهو يهز بالعصا في يده اليمنى إلى الأمام وإلى الخلف بالتعاقب، أجال بعيونه الصغيرة الحادة كعيون البوم على الوجوه الصامتة أمامه، ثم مال بجسمه قليلاً بحيث صار بوضعية جانبية تمكنه من رؤية الخارطة والطلاب في آن واحد، وبدأ بإلقاء الدرس بجد وحماس وبهدوء والكل آذان صاغية، وبوجود العصا فالآذان صارت أصغى، بدأ الدرس بغرز رأس العصا على نقطة معينة من الخارطة:

- هنا... انظروا... هنا...

لم يكمل عبارته إذ وثب بخفة إلى النافذة المشبكة وهو يشير بطرف العصا الصغيرة إلى خارج الصف، إلى البعيد إلى حيث يمتد الجبل الأسود، ثم عاد وبنفس السرعة إلى السبورة - لوحة الكتابة بالطبشور- ووضع طرف العود مرة ثانية على نفس النقطة وخاطب الطلاب بلهجة خطابية حماسية:

- هنا مجدنا، هنا بدأت حركتنا القومية الحقيقية، هذا الكهف الذي أشرت إليه وأنتم تعرفون أين يقع؟ هناك على تلکم المدرجات البسيطة ومن على صخور جبلنا الأشم صدر شعاع لماع أضاء سماؤنا برهة ثم انطفأت أمام نفخات الأعداء السامة الهوجاء، من هناك حكمت أميرتنا الجميلة الشجاعة خانزاد سوران وحمت ديارنا من هجمات التتار العثمانيين.

كان لصوته المتهدج الجهوري أثراً عميقاً في نفوس التلاميذ دائماً وفرهاد بالذات خصوصاً، إذ لم يرَ في سنتيه الدراسيتين الماضيتين أبداً معلماً يستخدم كهف كائن في جبل ممتد على طول البلدة والمدرسة كوسيلة إيضاح... سار المعلم إلى جوار النافذة من جديد وهو يمد العصا باتجاه الجبل هاتفاً:

- اسمعوا ولا تنسوا الاسم... إنها خانزادی سوران، فخر الكرد، وانظروا... هناك قاتلت أميرتنا الجميلة الشجاعة خانزاد برجال قليلين جيش الغزاة العثمانيين، وتمكنت من قهرهم، وذلك لأن معاقلم كانت حصينة وحصون قلوبهم كانت متينة، مالهم لهم وما لنا لنا، لهم ملكهم ومملكتهم ولنا ملكنا ومملكتنا فلم التعدي؟.

توقف المعلم خافضاً رأسه وشرع بفرك راحتي يديه ببعض ليظهر اغتباطه، ثم عاد إلى حماسه في مخاطبة الجبل:

- شكراً لكم يا جبالنا السماء، يا جبالنا الشامخات فلولاكم ولولا حماكم لكان الآن من المنقرضين، لكانا قد انقرضنا كما انقرض الديناصور.

سكت قليلاً عن الكلام وكأنه بذلك أراد اختبار وقع كلامه في نفوس الأطفال، بعدها وجه سؤالاً:

- من يعرف منكم ما هو الديناصور؟

جال بنظره في الوجوه الواجمة المنقبضة والحيرة تعلوها والبعض منهم أخذ يحك جلدة رأسه.

- اسمعوا إدار، صاح المعلم لما لم يجد يدًا مرفوعة، الديناصورات كانت كائنات قديمة جدًا ولكنها انقرضت، ولا تنسوا أن كلمة انقرض تعني هلكت فنيته، أي لم يبقَ منهم أحد.

الرؤوس أمامه أخذت تطأطي وتتهتز هزًا خفيفًا متلاحقة أي فهمنا، وهنا وجه سؤالاً اختباريًا:

- لقد انقرضت، وتعرفون الآن ما معنى انقرضت... ولذلك بودي أن أسألكم سؤالاً آخر مهم؛ ثرى هل رأى أحد منكم ديناصوراً؟

ومرة أخرى طففت الوجوه تنظر إلى الوجوه في حيرة، والشفاه تتحرك بالتساؤل وهم يتشاورون ورؤوسهم تتناطح برفق منحنية، بعد مضي دقيقة أعاد المعلم نفس السؤال فمدت الأصابع نحو الشفاه من جديد وحدثت المفاجأة، فقد تجرأ كامو أخيراً وبعد طول تردد أن يجربّ حظه باعتباره المراقب والقُدوة:

- أظن أنني قد رأيته في مكان ما... أين؟ أين؟ لا أدري بالضبط... نعم، أنا رأيته، رأيته هناك عند التل يخرج من ثغرة صغيرة مستديرة في الأرض، شيء أصفر بذيل معقوف في نهايته إبرة يلدغ بها كل من يمد له يده، وعند الزحف يرفع ذيله فوق ظهره.

انفجر ماموستا فيصل ضاحكاً بعد ما انتهى كامو من تقديم شرحه للفظه ديناصور، فانطلق الصف بعده في نوبة من ضحك متواصل لم ينقطع إلا بعد أن صاح المعلم بلهجة امرأة:

- باسسسس! سكوت.

رمى بعد ذلك كامو بنظرة هي أقرب إلى الإشفاق منه إلى الاستحسان، ورغم ذلك لم يشأ إفشاله فقال مشجعاً:

- كانت محاولة جيدة على أي حال.

ثم أجال بعينه على الوجوه وهو يهز رأسه بحركة دالة عن عدم الرضا، وقال بعد أن نظف حنجرته بقوة:

- يبدو لي أنكم لم تفهموا شيئاً مما قلت وقدّمت من درس، فما يصفه كامو العزيز ما هو إلا العقرب وهذا ليس منقرضاً لأنه موجود، المنقرض يعني غير موجود، أفهمتم؟

ومن غير توقع أشار إلى فرهاد متسائلاً:

- هل رأيت عقرباً، يا ابن مديرنا العزيز؟

قام فرهاد للفور احتراماً وأجاب بخجل:

- نعم ماموستا، أستاذ، ولقد قتلت اثنتين منها مساء أمس في البيت.

انتفض المعلم للجواب وهتف مصفقاً مخاطباً وهو يشير بسبابته إلى فرهاد:

- برافو... آفرين! وهذا دليل قاطع أن العقارب لم تنقرض، وإنما الديناصورات هي التي انقرضت، حالها حال العائلة المالكة التي انقرضت بفضل زعيمنا الأوحـد.

ثم وجه السؤال التالي:

- من يستطيع وصف شعوره وهو يتلقى خبر الانقلاب وانحلال العائلة المالكة الفاسدة؟

ساد الصمت المطلق، فألقى المعلم السؤال بصيغة أخرى، إذ آنس حيرة وخيبة ظاهرة على الوجوه:

- أنا أعني شعوركم. إحساسكم في تلك اللحظة التي سمعتم بهذا الخبر، هل فرحتم؟ وهذا ما أتوقعه منكم.. هل حزنتم؟ كلا وألف كلا، الكل شعر بالسعادة الغامرة.

الأسئلة رد عليها إذن هو بنفسه، فتنفس الأطفال الصعداء.. ولم يكتف المعلم بهذا القدر كما توقعت القلوب الصغيرة، إذ ارتفع صدى سؤاله المكرر:

- أنا أفصحت عن شعوري الشخصي بالغبطة، فمن هو الذكي بينكم وينهض ليصف تجربته، شعوره الشخصي، أو العائلي، في اللحظة التي أذيع فيها بيان الانقلاب المبارك؟

فرهاد كان من ضمن الطلاب الذين قد أغراهم السؤال وكان يبدو راغباً في المساهمة الثانية بعد أن تمت الأولى بنجاح، وكذلك كان هناك شعوراً خفياً يجول في خاطره وهو أنه ابن مدير المدرسة الذي يتوقع منه التميز والتفوق والمبادرة، وقد سمع ذلك أكثر من مرة من أبيه... ارتفعت يده الصغيرة من جديد، فارتفع صراخ المعلم الصغير من جديد:

- فرهاد للمرة ثانية؟ أحقاً؟ إذن تفضل.. تفضل يا ابن مديرنا الذكي.

نهض فرهاد وقد زال شعوره بالخلج قليلاً هذه المرة والعيون مسلطة عليه، وبدأ بسرد قصته على الصف وعيناه تحدقان بالسبورة:

- في اللحظة التي أذاع الراديو الخبر كنت مريضاً جداً، انتابتني حمى شديدة الليلة الفائتة، وكان بابا يمسك بيده السرنج لزرقى إبرة ضد الالتهاب، فعندما سمع والدي بالخبر وقعت السرنجة من يده على الأرض وانكسرت...

دوت موجة أخرى من اللغط داخل الصف، ولم تتوقف إلا بعدما أنذرهم المعلم بالانتباه، ثم سأل فرهاد الذي لبث واقفاً:

- قل لي هل تعلم لماذا وقعت الإبرة من يده؟

فأجاب فرهاد وقد تشجع لاهتمام زملائه بجوابه:

- لا أتذكر تماماً؛ كان أبي يرفع صوت الراديو وكان هناك العشرات من الجيران ومن أهل القرية مجتمعين وراء سياج بيتنا للاستماع إلى الخبر، لأن بابا كان له راديو ولا أحد سواه.

- أكان والدك حزيناً أو فرحاً لدى سماعه الخبر؟

تسائل المعلم بفضولية وتحفظ قليل..

- كان فرحاً وكان يردد الحمد لله، الحمد لله.

لم يتمالك المعلم الملقب بالفاصوليا نفسه من شدة الانفعال فهتف بصوت متهدج:

- أرايتم يا أعزائي الطلبة؟ إن مديرنا الحبيب نفسه مع الثورة، مع الزعيم، ضد الاستبداد.. استبداد وفساد العائلة المالكة الفاسدة، أو لم تسمعوا كيف فر نوري السعيد خوفاً من انتقام الشعب وهو متنكر بزي النساء البدويات.

لم يرفع عينيه الصغيرتين المدورتين كعيون الدجاج الداجن من الصبي، والسبب أنه أراد معرفة المزيد عن هذا الطفل الموهبة، فسأله مستظلاً:

- وماذا حصل بعد ذلك، أي ماذا فعل أبوك، جناب المدير، بعد أن وقعت السرنجة من يده؟ أعني هل زرقك إبرة أخيراً؟

جفل فرهاد للسؤال وانتابه بغتة شعور أنه ألقى عبئاً على عاتقه في إظهار نفسه، فلم يكن مستعداً تماماً لهذا السؤال، ففرك رأسه محاولاً تذكر المشهد وهو ينظر إلى الأرض، أمهله المعلم دقيقة كانت كافية له، إذ رفع رأسه بغتة وألقى جوابه وعلى وجهه شبه ابتسامة:

- أظن أن أبي كان مبتهجاً جداً لدرجة أنه نسي أن يلتقط السرنجة من على الأرض، وكانت أمي تبكي فهرع إليها.

- تبكي؟ ولم؟ وعلام؟!

صاح المعلم في وجه فرهاد في نبرة معاتبة، وجاء الجواب من فرهاد الذي بدا في ذلك الدرس سيد الموقف بلا منازع:

- لأنها كانت تحب الملك، كانت تبكي وتقول لقد قتل الكفار الملك الملاك، لقد كان طفلاً صغيراً.. قتلوه ظلماً.

- وا حسرتاه على أمك، كيف تأتى لها وأن ترى ما رأت عن العائلة الفاسدة؟!

ومن غير انتظار رده لاحقه بسؤال مباشر:

- وأنت كيف كان شعورك شخصياً؟

قال ذلك مؤكداً على كلمة شخصياً..

- أنا ضحكت..

أجاب فرهاد ببرود وقد بدا متزناً مسيطراً على أعصابه تماماً، وكأنه قد اعتاد وبسرعة فائقة على استقبال النظرات الفضولية.. وثب المعلم من مكانه جذلاً فاقترب من فرهاد حتى كادت أرنبتا أنفيهما تتلاصقان، وأعرب له عن مشاعره بصوت حاكى الفحيح:

- كنت إذن مثلي وفرحت بزوال الفساد، ماذا تقول؟ كنت تكره العائلة المالكة؟ فقد كانت فاسدة.. علمت ذلك؟

لم يدر فرهاد ماذا تعني كلمتي فساد وفاسدة، ورغم هذا الإيهام حاول جهد الإمكان إتمام سعادة المعلم فلم يمنعه جهل المعنى عن الإفصاح عن رأي مناسب، فقال وقد ارتسمت على فمه ابتسامة الواصل من نفسه:

- أنا فرحت جداً لأن الإبرة كانت طويلة وحادة، ولولا مقتل الملك لكانت الإبرة قتلتني.

كانت هناك فسحة أمدها عشر دقائق تتخلل الحصص للراحة، ولكن الفرحة الكبرى تمت بحلول الفرصة الثالثة دائماً، إذ خرج الأطفال من الجنسين وبايعاز من المعلمين صفًا صفًا إلى الردهة، والتي كانت عبارة عن ممر طويل وعريض وقد وضعت في نهايته صناديق من الخشب، رصفت بعضها فوق بعض بعناية، ووراءها كان يقف مام العم بطرس، فرّاش المدرسة العجوز متأهبًا، وإلى جانبه وقف زميله الفراش الثاني عم حمزة خلف رجل (قدر) كبير يتصاعد من فوقه البخار، وكان هذا الأخير يمسك بملقعة هائلة في يده، التفت فرهاد وكان ترتيبه الثاني في الطابور إلى ما حوله ووراءه، فرأى أن أخاه كان يقف في مؤخرة الطابور الذي وقف هو فيه، وبينما هم في الانتظار حاول معلم عدنان تقديمه إلى ما وراء أخيه ولكن يداً أوقفته، التفت المعلم فوجد نفسه وجهًا لوجه مع وجه المدير الكالغ المنقبض، الذي أكد له باللسان وبحركة السبابة العصبية له أنه لا يجوز معاملة ابنه معاملة خاصة، وقال وهو ينقل الطرف في الوجوه المتسائلة المندهشة: - أرجوكم زملائي، عاملوا أبنائي كبقية الطلاب.

لم يكتفِ سعادة المدير بذلك، بل أخذ بيد فرهاد وسحبه - وسط اندهاش العيون المترقبة - بهدوء ورفق إلى نهاية الصف، وفي لحظة ما وجد فرهاد نفسه يقف أخيرًا، ورأى الكل كيف احمر وجهه وكيف زفر عمر أفندي، مدير المدرسة الجديد، زفرة ظفر وارتياح.

دام ارتباك فرهاد طويلاً ولم يرجع إلى طبيعته المرححة إلا بعد أن التفتت الفتاة التي كانت تقف مباشرة أمامه في الصف الطويل إلى الورااء مرحبة به مبتسمة له، كان للفتاة شعر أسود قصير مسترسل تمتد في وسطه تجعيدة واحدة، وتحت هذا الشعر لاحت رقبتها المرمرية الطويلة الناصعة البياض التي لم يشهد فرهاد لها مثيلاً إلا في حليب الماعز الذي كان يجلبه لهم العم بطرس من القرية، لو كان الخميني هو الذي أجبر على التقهقر إلى الورااء من قبل أبيه كما حصل له لمسح على لحيته وغمغم: الخير فيما وقع... أي قال نفس القولة التي قالها في اليوم الذي فرضت الحرب عليه ضد العراق: "الخير فيما وقع".

شاهد فرهاد والده يشرف بدقة على عملية التوزيع، وكان يركز نظره بالأخص على يدي العم حمزة ليتأكد أنه قد أعطى كلاً حصته دون زيادة أو نقصان، ورأى أن كل طالب بعد نيل حصته سار بها إلى ركن أو زاوية أو جوار نافذة كي يتناول وجبته بهدوء، ومنهم من اكتفى بوضع طعامه في حقيبته ثم نزل إلى الساحة للعب.

وفي لحظة ما لمح فرهاد المعلم فيصل يقترب من المصطفين ويهمس في أذن كل منهم كلمات ثم يبتعد ليعود ويفعل نفس الشيء مع تلميذ آخر، وعندما جاء دوره واستلم حصته أقبل عليه هذا المعلم وهمس في أذنه اليمنى:

- هذا كله من فضل الثورة والأب الكريم الزعيم عبد الكريم.

ومن بعيد تبين لفرهاد وجه والده الذي انكمشت أساريره المقطب جبينه لهذه الفعالية الفردية من لدن معلم في داخل المدرسة، ولم يقف المعلم عند هذا بل التفت إلى القس الذي كان يقف بين المعلمين الستة والذي كان يأتي كل يوم أحد لإلقاء درس الدين على الطلاب المسيحيين وخاطبه بكل احترام وهو يقصد المعلمين أيضاً:

- بفضل الزعيم الأواحد زاد البسكويت والتمر والحليب في الأسواق.

فرد عليه القس النحيل المتلحف بالسواد كلياً وعلى شفثيه ابتسامة ساخرة:

- وبفضله أيضاً زادت العقارب والأفاعي سيدي الماموستا.

رأى الكل كيف تجهم وجه المعلم فيصل حال سماعه للرد اللاذع من رجل دين، وشاهد وسمع الكل كيف عبّر المدير عن سخطه قائلاً وبكل رصانة ووضوح:

- إن المدرسة منبر علم لا ساحة سياسة.

* * *

التقى فرهاد بالفتاة وابن الفراش بنيامين وأخاه بعد انتهاء الدوام، مضوا إلى الساحة قبل العودة إلى البيت، وهناك قدمت الفتاة نفسها وبكل لباقة وأدب وهي تمد يدها العاجية اللون:

- اسمي كاترين، كاترين كه ككه... أنا معك في نفس الصف.

فهز بنيامين رأسه المفطح المسطح وقال مضيقاً:

- كاترين وأنا نساكن في نفس الحي المسيحي في الطرف الآخر من البلدة وراء المرعى.

مدّت كاترين يدها اليمنى إلى فرهاد فشدد عليها برفق ثم سحب يده بسرعة، نقلت الفتاة عينيها السوداوان بين الأخوين، وقالت وهي تشير بيدها إلى البعيد:

- أنا وبنيامين ندرس معًا كل يوم ونلعب معًا هناك عند أشجار النبق وعند التلال المجاورة.

هز بنيامين رأسه مرة أخرى مؤكدًا صحة ما تفوهت به كاترين، وأضاف قائلاً وهو يرمق الفتاة بعينين صغيرتين مدورتين لماعتين كدعبلتين:

- وكاترين هي أحسن طالبة في درس الحساب، وهي تعينني في حل بعض المسائل. ونحن كلانا نحب الرياضة، هل تحبان الركض والقفز كما نحبها نحن؟

قال ذلك وقد علت شفثيه الضفدعيتين ابتسامة تتم عن صداقة ونية صادقة واستعداد تام لتقديم كل عون يحتاجه أبناء المدير، تمامًا كما يفعل أبوه... تبادل الأخوان النظرات فيما بينهما، فبدا وكأنهما متفقان في الرأي، أجابا بصوت واحد:

- بلى، ونحن كذلك نحب ما تحبّون.

انشرح وجه كاترين الصبوح للرد الإيجابي واحمر خذاها، وزادت شفثاها وبالأخص السفلى امتلاءً..

- إذن سنذهب ونلعب معًا وندرس معًا إن شئت.

قالت كاترين معربة عن سرورها البالغ، ثم أشارت إلى عدنان مخاطبة فرهاد:

- هذا أخوك.. إنه يشبهك، يبدو أنه الأخ الأصغر، فإنك أكبر جسمًا منه..

وأضاف بنيامين:

- أنهما لا يخافان من العقارب.

بعد انقضاء نصف ساعة من الدردشة تفرق الجمع، سار الأخوان جنبًا لجنب باتجاه البيت، سالكين الطريق الترابي الخلفي، وإذا بصوت غليظ أبج يناديهما من الخلف، التفتا وكانت المفاجأة كبيرة، لمحا والدهما الذي ظلّا كل الظن أنه قد غادر المدرسة إلى البيت واقفًا على مدرج الباب الخلفي محاطًا بهيئة المعلمين وورائهما الفراشين، وكان الصوت هو صوت العجوز، تجمدا مكانهما في انتظار الإيعاز التالي، وجاءهما على الفور، كانت حركة يد عمر أفندي كافية للولدين للركض إليه، ومن بعيد وصلت إليهم الإشارة التالية: عدنان يعود إلى البيت.

استمر فرهاد بالاندفاع باتجاه المدرج وعندما بلغه وقف تحته بلا حراك مطرقاً لا يجرؤ على رفع طرفه، كان الوجوم بادياً على وجه عمر أفندي، وبدا للناظر المتفحص أن تقاسيم وجهه قد انقبضت درجة إضافية لحظة وصول فرهاد، فأوجس الصبي خيفة، زادت دقات قلبه سرعة، فهل اقترب ذنباً دون أن يعلم... وظل هكذا إلى أن نطق المدير وأخذ يلقي خطاباً بينما الأمعاء تقرقر من الجوع:

- تعلمون أننا الآن في عهد وجيل جديد، جيل التقدم والحرية والديمقراطية، وليس هناك بعد مجال أبداً للأوتوقراطية والفردية والمصلحة الشخصية والنفاق والرياء، وأن الكل الآن مساو في الحقوق والواجبات، لا فرق بين ابني وابن فراش المدرسة ولا بين ابن المدير والكناس... التفرقة والتمييز وما إلى ذلك من مساوئ الأخلاق إنما هي من مخلفات العهد البائد فيجب القضاء على هذه الظاهرة دون رحمة ودون أدنى تردد.

ثم أجال على الوجوه نظره ليسبر وقع كلامه عليها ولم يجد إلا الدهشة والإعجاب في العيون، ونظرات مبهمة تبادلها الجمع فيما بينهم متسائلين عن المرام من هذه المقدمة، ووسط غمغمة المعلمين وهمماتهم انبرى المعلم فيصل الذي بدا أنه قد راقه الحديث كثيراً فهتف بصوته الجهوري:

- كلامك يقطر عسلاً يا جناب المدير... رأيكم كراي.

وهو لا يزال واقفا كالصنم في حضرة أبيه ود فرهاد لو وجّه أبوه سؤاله - أي سؤال كان - إليه ثم سمح له بعد ذلك بالانصراف، ولكنه لم يوجه سؤالاً له، بل نقل بصره إلى الفراشين يرميهما بنظرة لا تخلو من تأنيب، ثم دفع صدره إلى الأمام ونظر إلى ساعة جيبه المعلقة على جيب سترته الأمامي واستطرد قائلاً:

- اليوم سأقوم بالقاء أول درس عليكما في المساواة.

قال ذلك وأوماً إلى ابنه بذقنه وأشار إليه بسبابته أمراً إياه أن يفتح حقيبته، وفعل فرهاد ذلك بيدين مرتجفتين، يدي لص ضُبط بالجرم المشهود، والعيون جاحظة شاخصة والأعناق ممتدة إلى الحقيبة الجوزية اللماعة لترى ماذا يختبئ في طياتها، أشار المدير إلى ابنه الذي شحب وجهه شحوب الأموات أن يتنحى جانباً، وأشار للفراش العم حمزة أن يفتح الحقيبة ويلقي ما بها على الأرض، ففعل بيدين مرتجفتين وقد اصفر وجهه هو كذلك، وما هي لحظة إلا والكتب واللوازم المدرسية

لفرهاد منثورة متفرقة على الأرض.. عندها انحنى المدير ليلتقط علبتى تمر وعلبتى بسكويت من ثنايا الكتب، اعتدل بعدها يحمل بيديه المعروقتين العلبتين رافعاً إياهما في الوجوه الناضرة، وبدأ ينتقل بنظره الثاقب من وجه إلى وجه إلى أن رست عيناه الزرقاوان على ابنه فأمره بالانصراف، وبعد انصرافه خاطب الفراش مام مابير بصوت جهوري ثابت رصين:

- من الآن فصاعداً ستكون حصة ابني كحصة بنيامين ابن العم بطرس.

أجاب الفراش وهو يقف وقفة الجندي:

- نعم، أملك مطاع.

ثم جعل يشرح لزملائه تفاصيل ما حدث.

- إن هذا الرجل أراد أن يبرهن ولائه وإخلاصه لمدير المدرسة، فوضع وأمام أنظاره علبتين إضافيتين من الغذاء في حقيبة ابنه، ولم أشأ أن أتطرق إلى الموضوع أثناء الدرس.

في اللحظة ذاتها علا صوت العم حمزة الملقب بـ "حمزة أبو العيون الحمر" الصوت الحاد النسائي بالهتاف وهو يلوح بالملقعة الهائلة في يده:
- يحيا المدير الحق والأصيل، إنه أفضل بكثير من المدير السابق.

لم يلبس الهتاف الرئان هذا القسما المتصلبة للمدير، فتقدم إلى الفراش بثبات حتى كاد يلتصق به، وقال بلهجة هي مزيج من الجد والهزل:

- ليس في الأمر من جديد، فقد كنت طوال الوقت تفضل المدير السابق في حضرته على المدير الذي سبقه وعندما غاب فأنا الأفضل في غيبته، أيا ترى من هو السعيد الحظ الذي سيحظى بفضلك في المرة القادمة في غيابي؟

سكون من المدير وازدرداد ريق من الفراش، قال عمر أفندي بعده:

- عم، الحقيقة أنني فقدت الثقة فيك قليلاً.. أما ترى أن الفراش الذي سيخلفك في العمل سيكون أفضل منك بكثير وأجدر؟!

تراجع العم حمزة إلى الوراء مذعوراً، مضت دقيقة لم يُبد فيها حراكاً بالرغم من الفرصة التي منحها له المدير للدفاع عن موقفه، ولم يتكلم إلا بعدما بدأ المدير بمصافحة المعلمين وهو يتهيأ لمغادرة المدرسة، وعندما وصل الدور إليه لمصافحته قال بشجاعة وصراحة وبصوت عال ولفظ واضح:

- سيدي المدير؛ أحلف لكم أن المدير السابق كان يوعز لي كل شهر بحمل صندوق كامل من حصص الأطفال إلى بيته.

استعاذ عمر أفندي بربه من الشيطان الرجيم ثم رفع يده النحيلة إلى السماء وقال بصوت ممزوج بالحزم والحزن معًا:

- إن ما تقوله هو أمر خطير، تحتاج إلى إثبات وإلى وجع دماغ وربما تقضي بالمحصلة إلى اتهام بريء، وحتى لو كان ما تقول حقيقة فأنا لست مسؤولاً عن أفعال الآخرين ولا عن معاقبتهم، ما دمت كنت غائبًا ولم أرَ ولم أسمع، ولو كنت حريصًا على رزق هؤلاء الطلبة المساكين لكان لك أن تقدم شكوى ولو سرًا ضده، وبعد كل ذلك أعود وأقول ليس لنا القدرة ولا الحق في مجازاته، الله وحده له الحق والقدرة، وأعلم أن هناك من بين الطلبة يتامى كثيرون، وأعلم أن الله جل شأنه يقول في محكم كتابه الكريم: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا) وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا).
- آمنت بالله.

تمتم الفرائش (خادم/ منظم المدرسة) من تحت شواربه المفتولة ولم يزد شيئًا.

بعد ظهر ذاك اليوم الصعب كان لفرهاد عوض في لقاء سهل وممتع مع الفتاة، قالت الفتاة لفرهاد وهما يسيران جنبًا إلى جنب في ساحة المدرسة الخلفية المكسوة بالحصى والحجارة الصغيرة:

- أنت مسلم وأنا مسيحية، ولكننا أخوة.. ألسنا كذلك؟

فأجابها فرهاد وقد تشجع دون أن ينظر إلى وجهها المتورد تحت شمس نيسان الدافئ:

- لا فرق... فقد كان نصف أصدقائي في القرية التي كنا نقيم فيها فهله، آثوريون، مسيحيون.

فضحكت ضحكة مرحة قصيرة:

- لو أردت سنخرج معًا إلى هناك.. عند النبق والتلال وسفح الجبل ونلعب.

قالت كذلك مشيرة بيد ناعمة رقيقة إلى ما خلف البناية الحجرية للمدرسة وقصدت بذلك الجبل والتلال والطبيعة.

أعلن فرهاد استعداداه الفوري قائلاً:

- حسنًا وسيأتي معي أخي الصغير.. ما من مانع؟

- وسيأتي بنيامين معنا كذلك.

قالت كاترين بصوت شبه هامس واضعة يدها في يده.. سارا معًا حتى تجاوزا حدود الساحة وهناك أخرج فرهاد يده من يدها بكل رفق، استأنفا مسيرهما بالاستدارة حول المبنى حتى بلغا الشارع المار أمام المدرسة، ومن هناك لاحت الطبيعة لهما بكل بهائها وجمالها والربيع بأحلى حلتها ودفئها وزينتها، وعند باب المدرسة الحديدي قال فرهاد لها قبل الافتراق:

- هناك سأراك، إلى اللقاء.

١٩٥٩ حرير

هبت رياح باردة على البلدة قادمة من جياي رهش، خفيفة ولكن قوية نسبياً؛ على مسكن عمر أفندي والمدرسة، كونهما منفتحين على الطبيعة ولا مباني تقف دونهما، تراقص لها وبها أشجار الصفصاف وأشجار البلوط والنبق وأحراش الجبال وأعشابها وأزاهيرها، متأرجحة يمنة ويسرة ابتهاجاً، فهي تزيج عنها كل خريف ثوباً بالياً لتكسوها بالمقابل كل ربيع ثوباً جديداً مزركشاً وملوناً بكل الألوان الخلابه، ولم يكن النحل والنمل أقل بهجة وسرور من الشجر، فحلق النحل فوق مروج الزهر يازأ أزيزاً متهادياً متوثباً من زهرة إلى زهرة، منتفعة بالدفعة القوية التي تلقاها من الرياح ليجنى قوته وما تجود بها الطبيعة في الربيع، كي يجود هو بدوره إلى بني البشر بقوت ودون منة.

وانطلق النمل يدب دبيباً على الأرض، وهو لحظة ديبه في ثنايا التراب ومن حوله الزهور والنحل يرسل آيات الشكر والثناء لهما، فكل ذرة رحيق تقع من تحت أرجل النحل، وكل هبة ريح تجلب معها شيء من أريج الجبل ورائحة النبق الطري، لتذكره أن زمن الربيع آت وبكل حلتته وزينته وعنفوانه.. فالربيع الذي يعني لنا الجمال يعني لهم الحياة، والستر والقوت والنماء، والدفع الذي يخدرنا، ينعشهم ويعيشهم..

وكما أن الطبيعة تجود على كل البشر دون تمييز بخيرها؛ فهي كذلك لا تميز بين حشرة وحشرة ولا دويبة من دويبة في العطاء بل تهب عطائها لكل دون تمييز أو تحيز، وكما أن من البشر من يجازي حسنة الربيع بحسنة مثلها؛ ويزداد دفناً بدفنه وطيبة قلب بطيبة قلبه، فيندفع كاندفاع الرياح وكسيل أمطار الربيع المرافق للبرق والرعد، ليبترسم في وجه كل من يقابله سواء من كان جاثياً على قارعة طريق أو رابضاً على القمم، وليفتح ذراعيه لكل من لا يجد ذراعاً يستقبله ويتلقاه بقلب ملئه الدفء والحنان، فيزداد ويزدان ما حوله رونقاً وبهاء.

وهناك من البشر من يتخذ من نفس الطبيعة والجمال والدفء ذريعة للكسل والتواني؛ وبدلاً أن يفتح ذراعيه للريح ولرحيق وأريج القداح من البرتقال والليمون وعبق

الأوراق الطرية والأغصان المولودة حديثاً من شجر النبق وشجرة البلوط والجوز واللوز، يشرع في فتح فكيه ليلفظ السم بدل العسل، ولا يتوانى لحظة في عض اليد التي امتدت لنواله وسعت لإسعاده.. وأمثال هؤلاء قليل نذير، كالعقارب مقارنة بالنحل والماعز، ونادرة كندرة الضباع والذئاب والثعالب والخروف مقارنة بالدجاج والديكة والفج والحمام.

والربيع للکرد لا يعني الخلاص من جبروت البرد وقساوته فحسب؛ وإنما يعني الخلاص من الجور والظلم الاجتماعي والعنصري الذي لحق به عبر قرون من نضاله العادل للبقاء راسخاً سامحاً عالياً رغم الأعاصير التي جاءت لتجرفه أو تقتلعه من الجذور.

فآذار بحق هو شهر الكرد، والأحق تسمية هذه القومية بقومية آذار أو شعب آذار، وعلى مر العصور وفي كل ربيع وفي هذا الشهر بالذات؛ ثار الكرد وتمرد وطُرد وعانى وهزم وانتصر ودمر، ثم نما وانتعش وأرسل جنوره بل وأعرق في الأرض من جديد.

وكلما أتت شلة وأعلنت أن لها القيادة وبيدها صارت مقاليد أمور البلد؛ هش الكرد وبش، ربما قد هل أخيراً هلال الكرد، ليخيب ظنه في كل مرة، وألسن الحال تقول: ما أشبه الليلة بالبارحة.. ولكن الطبيعة كانت دائماً هي الأرحم، الرياح والجبال كانت ولا تزال هي المأوى والملاذ الآمن، حينما يكون رجاء الاحتماء ببني البشر غير قابل للتحقيق.

وكان يوماً رائعاً حقاً من أيام الربيع، والشمس ترسل أشعتها الذهبية من وراء الجبل الأسود وتنشرها على الأطراف دون تمييز عنصري أو اجتماعي، ومن هنا تتجلى الحقيقة الناصعة والنظرية القائلة إن الطبيعة هي كأي أم تعامل أبناءها بالعدالة الغريزية، وهي أصفى وأنقى أنواع العدالة الاجتماعية، لأنها نابعة من نية صافية لا يشوبها غرض مادي أو نفعي أي هي على النقيض تماماً من العدالة البشرية التي تشوبها ملوثات الرياء والزيف والتمييز الظاهر والخفي.

احتضنت أشعة الشمس مسكن فرهاد عمر وبنيامين بطرس وكاترين كه ككه على السواء، ولفت الرياح نفسها حقولهم ودجاجاتهم ونوافذ دورهم، في أحضانها عبق الأريج المنبعث من الهضاب المحاذية للجبل، ومرت نفس قطعان الماعز والخراف

أمام عتبات بيوتهم وأزقتهم المفروشة بالطين والتراب ذات الرائحة الساحرة، والموسيقى التي يعزفها في أذانهم وقع حوافر الماشية، هي نفسها التي دغدغت قلب فرهاد وعدنان وبنيامين وكاترين وكل الأطفال الذين كانوا يلعبون في الأزقة وعند المراعي والجداول والسواقي، بحثًا عن مفاجئة سارة أو غير سارة يفاجئون بها أمهاتهم اللواتي كن يجثمن على أعتاب المنازل ومداخل البيوت ويتناقلن بينهن آخر أخبار حيهن، بينما كانت أيديهن تُلقى بالنبق اللين الطازج الطري في داخل أفواه اشتاقت إلى سنة الكلام، ونسيت فرض المضغ الجيد، فنزلت النبقات غالبًا على حالها عند القطف، وانحدرت بنواتها إلى الأجواف.

الطريق المار أمام منزل عمر أفندي كان شارعًا بالمعنى المتعارف عليه، ولكنه كان شارعًا شبه خالي من السيارات لحسن حظ الأطفال وخاصة أطفال الأفندي، كانت تمر في كل ساعة تقريبًا سيارة من نوع دوج موديل الخمسينات ذاهبة إلى المدينة، مارة خلال شقلاوة، أو آتية منها في طريقها إلى شلال كلي علي بك وقرية ديانا.

والشارع كان مبلطًا بإسفلت خفيف، وقد انتشرت فيه الحفر والثقوب الصغيرة هنا وهناك في كل مكان، وكانت المدرسة الابتدائية الوحيدة في البلدة.. وعلى صخرة أمام الباب المشبك بالسلك المطاوع؛ جلست دادة بلهفة ورغبة في انتظار ولديها في أول يوم لهما في المدرسة بعد انتقالهما.. أول سؤال تلقاه فرهاد وأخوه عدنان من أمهما لدى عودتهما من المدرسة وهما لم يكادا بعد قد اجتازا عتبة الباب كان:

- كيف رأيتما المدرسة؟

فطفقا يشرحان وبكل حماس معًا وبكل تفصيل كل ما سمعاه وشاهداه ذلك اليوم في المدرسة، حول الدروس الغربية والمعلم فيصل والإبرة المنقذة والبسكويت والتمر المحشو بالجوز واللوز، والعلب التي دخلت هبة من الفراش إلى حقيبة فرهاد بصورة غير قانونية دون علمهم، والحليب الباوذر والطابور الطويل أمام العم بطرس وكاترين وبنيامين والنبق.

أصغت دادة بكل انتباه واهتمام وشوق لكل ما حدثاها به، وفرحت لكل لذلك عدا قصة التمر المعاد إلى اللعب، فإنها لم ترتح لها، فتساءلت معترضة هاتفة ساخطة:

- الأفندي؟ يا للهول! يا للصلف والشدة!

كانت دادة جميلة في ذلك اليوم الربيعي الجميل تزدهي في فستانها الطويل ذي اللون الأخضر الفاتح المنمّم بالنقوش والرسوم ذات الأحجام والألوان المختلفة المتداخلة، وقد لفت على رأسها وحول عنقها خماراً أبيض شفاف، ولم يستطع فرهاد إخفاء إعجابه بها، فقال لها وهو يتفحصها بنظرة شاملة:
- دادة أنتِ اليوم جميلة، الأميرة جميلة..

وفي غرفة الجلوس؛ الصالة، انهمك الأولاد في تفريغ ما في حقائبهم من لوازم مدرسية وما تبقى من حصة الغذاء، وما أشد سعادتهما وهما يتصفحان الكتب الجديدة اللماعة ذات الرائحة الخاصة، رائحة اسمها الجدة!

في العصر أعدت دادة السماور في (الطارمة) الباحة الأمامية للمنزل، ودعت الأفندي والعم بطرس من الحديقة الخلفية، ونادت ابنيها من حجرتها فوق.. جاء الرجلان بلا تأخير فاتخذ مام بطرس مجلسه كعادته في الزاوية البعيدة على الحافة طويًا ساقه اليمنى تحت فخذ، طارحًا الأخرى تتدلى لأسفل بحيث بات قدمه يحتك بالزهور والحشائش الطويلة النابتة تحته بحركاته الموكية المتواصلة.

وجلس الأفندي وهو يهف بسيدارته (نوع من القبعات المستطيلة الشكل ضيقة) وجهه المبلل بالعرق، عن يمين دادة على الحصيرة الملونة الوردية، أمّا الأخوان فقد قبعًا جنبًا لجنب على خرقة من اللباد الغليظ - وبمحض اختياهما - في الطرف المقابل للعم بطرس صامتين.

كان يومًا مشمسًا دافئًا... أدارت دادة الحنفية الصغيرة للسماور الفضي اللون إلى جهة اليسار، فخرج الماء منه بتدفق قليل وبفقااعات كثيرة تمتع برؤيتها عدنان كثيرًا وهو يضرب بطرف مرفقه ساعد أخيه كي يجلب انتباهه.

كانت دادة تجلس وراء الـ (سماور)، وعلى جانبها صفت أكواب الشاي على طبق عريض، أصغت الأذان إلى أزيز الماء وهو يدور في جوف الجهاز العجيب والذي تضطرم فيه الجذوات الهادئات في انتظار قصير، لم يلبث حتى استحال أزيز الماء غليانًا، أخذت دادة إبريق الخزف وأخذت من علبة الشاي مقدار وألقته في الإبريق ثم دفعته إلى تحت فوهة السماور، وأدار مفتاحها في رفق، جرى في الإبريق بعض هذا الماء المغلي والمضطرب، ثم أدارت المفتاح من تحت الآداة فانقطع جريان الماء، ثم ردت على الإبريق غطاءه ثم هزته هزًا رقيقًا، ثم انتظرت بهذا الشاي ثواني، فملأت الأكواب من الإبريق إلى أنصافها من الشاي، ثم قربتها واحد واحد إلى ما تحت فوهة السماور لتكمل النصف الثاني بالماء، كي تخفف من حرته وشدته.

العم بطرس كان أول من استلم كوبه بيده المرتعشتين، ابتسم لدادة وهي تبتسم له وعيناها المائيتان زادتًا صفاء قائلة بصوتها الرخيم:

- خذها "منقار الحجل" يا عم بطرس.

بعدها ناولت أعضاء أسرتها كل منهم كوبه، والذي تناوله منها مشكوراً مغتبطاً، وها هي الملاعق الصغار تدار فيها، رفع كل منهم كوبه إلى فمه يجر الشاي منه بشفاهه جرّاً قصيراً.. شاي دادة جميلة كان أشبه في اللون بلون منقار هذا الطائر الجبلي الجميل، فأطلقت عليه هذا الاسم؛ أي منقار القبجة.

استقام العم بطرس وهو يمسح شفاهه اليابسة بظهر راحته وقال لدادة بلهجته المعتادة المشوبة بلكنة خاصة:

- أشكرك جميلة هانم؛ حقاً إن لونه يشبه منقار الحجل الذي وقع في شبكي عند النبع الأسبوع الفائت.

غمز فرهاد لعدنان وقد راقّت لهما حكاية الحجل (القبج) والشباك وهو يشير بسبابته خفية إلى حذاء العم بطرس، كان شكله ومنظره غريباً جداً، فقد بدا لهما أنه كان مصنوعاً من الأقمشة والأخشاب، وقد لفت المنظر كذلك أنظار دادة وبابا اللذين تبادلوا دورهما النظرات الغامضة، في حين كان العجوز منحنيّاً ينظر إلى الأرض ليرتشف شايه ببطء ولذة، غير مدرك بما حدث وبما جرى من تبادل نظرات الحيرة والبسمات الملغزة، فوضع نفسه وبدون قصد في مرمى ترائق النظرات بدون يد تصد أو عين تنتظر لتكف وتنبه أو تحول، فصار في موضع يراه الكل وهو لا يرى أحد.

هز العجوز رأسه الضخم الصندوقي الشكل هزّاً خفيفاً لكن كافياً لردع وتحويل الأعين عنه، خلا الجو من كل صوت إلا من صوت جر الشاي إلى الأجواف، وبعدهما فرغت الأكواب عادت دادة جميلة إلى توزيع الشاي للمرة الثانية، فناولت أولاً زوجها هذه المرة قدحه بيده، فتناولها عنها شاكراً بيد في حين امتدت يده الأخرى وبحركة شبه لا إرادية إلى تحت الحصيرة يتفحصها ملياً.

رأته دادة وأحست بيده تحتها فلم تستغرب الأمر، فقد صار هذا دأبه، فمذ بدأ يشعر بوجود هذه الدويبات المؤذية؛ اعتاد أن يفتش ويتفحص كل بقعة وزاوية وركن وثرع في البيت في كل حركاته وسكناته، ولما رآه أبناؤه هكذا أخذوا يحاكونه ويفعلون كما يفعل، وما هي إلا لحظات؛ ودبت الحركة في الأيدي كلها عدا يدي العجوز، كان يشرب ويتلذذ ويمصمص بشفتيه ولا يرفع رأسه.

كان القلق بادياً على وجه فرهاد الابن البكر للأفندي، تحرك في قلبه مزيج من الأحاسيس، ولكن إحساسه بالقلق كان غامراً، في ذلك اليوم بالذات تأكد له بما لا يقبل الشك أن الأمر خطير للغاية، وأنه هناك سبب خاص لتصرف بابا غير المألوف والخارق للعادة، فقد سمع بابا الليلة الفائتة يقول هامساً لدادة:

- يجب الحذر وتفحص كل شيء وكل زاوية كل ركن، ويجب أن يكون هناك إضاءة كافية في الغرف، فهذه الدويبات الصفراء تدب وتخب في الظلام، يجب أن نوصي ولدنا بعدم المشي حافيان، ولا يشترط أن يعرفا لماذا، فعلينا ألا نفسد عليهما سعادتهما في البيت الجديد.

ضحك فرهاد في قرارة نفسه لهذه التوصية الرشيدة من أبيه لأمه، ألم يقتل هو وأخاه حتى الآن أكثر من ست دويبات منها دون خوف أو خشية، أمّا اليوم فقد دخل الرعب حقيقة في قلبه، الخطر أكبر مما ظن هو.

فقال دادة معقبة:

- البارحة فقط سحقت بقدمي هاتين "وهي تشير بذقنها إلى قدميها الصغيرتين المتواريتين في جورب بني غامق" ثلاثة منها في الزاوية الأخيرة من المطبخ، وقبلها سحقت اثنتين في يوم واحد في غرفة الأطفال، أنا أخاف أن يصيبهما مكروه يا أفندي.

لا يزال يطن في أذنيه تأوه دادة وتنهاتها الحارة:

- أرى أن الفرع قد تضاعل بسبب هذا الشيء اللعين.

ثم جاء اطمئنان بابا لها كالمخدر:

- لا تيأسي ولا تستسلمي بسهولة.. فإن لكل مشكلة حل.

ارتشف العم بطرس والأفندي الكوب الثاني من الشاي، أخرج بعده كل واحد منهما علبته من التبغ، ولف كل واحد منهما سيجارة، والصمت لا يزال سيد الموقف، رأى عدنان السيجارة في يد أبيه فهرع إليه زاحقاً على ركبتيه ليشعل له السيجارة كعادته بالقداحة الفضية التي كان بابا يضعها بجانبه، وجعل يتتبع بعينه الشهاولين الدخان الأزرق المتصاعد من فم أبيه ومنخريه بفضول متناهي وتسلية، لم يملك إلا أن يبدى إعجابه، فقال له وهو يشير برأس سبابته الدقيقة إلى سيجارته:

- إن رائحة تبغك أحسن من رائحة تبغ العم بطرس.

مزق بذلك حاجز الصمت... رmqه العم بطرس وسط ضحكات دادة الحادة وفرهاد بنظرة عتب بريئة، فاكتفى أن يبتسم نصف ابتسامة قائلاً له:

- لكني لست بأكله كما ترى... الدخان دخان مهما كان مصدره، وهو كريحه دائماً سواء كان ذا رائحة زكية أو كريهة.

أجاب الأفندي وهو ينفخ في بايب (مدخنة خاصة من الشجر) غليونه الطويل البني اللون قائلاً بهزاء ودعابة، وهو يرمق مام بطرس بطرف عينه الزرقاء:

- إنه من نوع خاص وذو نكهة خاصة، كما ترون إنه من أخي الذي يجلبه لي كل عام من القرية هناك ما وراء الجبل.

ثم التفت إلى العجوز يقول له مازحاً:

- أعتقد أن تبغي أقل ضرراً من تبغك.

أما دادة فكانت لها نظرتها المتميزة، بادرت تقول محتجة متأففة وهي ترص الأقداح النظيفة في الصينية الكبيرة التي طبعت في وسطها صورة طاووس بألوانه الزاهية:

- كله سواء... لا شيء غير الضرر للقلب والمحفظة... التترك هو الأفضل...

قالت ذلك ثم رmqت زوجها لتقرأ أثر كلماتها فيه، ولكن الأفندي كما كان يبدو يفكر في شيء آخر في تلك اللحظة، فبعد صمت طويل نسبياً رفع رأسه مخاطباً العجوز:

- شد ما يلقفني هو هذه الثقوب الصغيرة في البيت، أرى أن التخلص منها بـردمها له الأولوية في العمل.

أجاب العجوز وهو يقذف سيلاً من الدخان خارج منخريه، كذاك الذي تقذفه أنابيب النفايات لسيارة الشاحنة التي تمر أمام المدرسة مرة أو مرتين في الشهر، قائلاً بحركة تنم عن بساطة المسألة:

- بسيطة، سيتم ما أمرت به في أقرب وقت.

لوحـت دادة بيدها تنبه زوجها وتذكره بأمر مهم مغيرة مجرى الحديث:

- أفندي... هل نسيت ما أصابك البارحة؟

قالت كذلك وهي ترمي زوجها بنظرة منبهة ثم قامت تحمل السماور لنقلها إلى المطبخ، تبعها الصبيان وانطلقا إلى الحديقة الصغيرة أمام الباحة يلعبان.. ضرب الأفندي بـراحة يده على جبينه المقطب وهو يهتف مخاطباً زوجته قبل أن تلج الباب:

- حسناً ما ذكرتيني به...

ثم وكأنه يكلم نفسه:

- وكيف نسيت ذلك؟! -

ولم يتردد لحظة إذ وثب من مجلسه واستقام ومضى إلى الداخل وعاد بعلة دوائه المؤلف، وهناك تربع في جلسته على الأريكة وجاءت دادة له بالماء المتلج، ومن هناك على عشب الحديقة كانت نظرات عيني عدنان الواسعتين الشهاولين مصوبتين نحو يدي أبيه وهو يخرج أدوات صنع كبسولته، فتح الأفندي الكيس المحتوي على الكنين وعلبة السجائر، واقترب عدنان وعلى أثره فرهاد من حافة الطارمة (الفناء المسقوف) المرتفعة بدرجتين عن الأرض، بسط الأفندي ورق لف السجائر البفرة على راحته المتبسة، ثم دس يده في الكيس وأخرج منه مادة رمادية اللون يمسكها بين طرف سبابته وإبهامه شبيهة بالغبار المتصاعد من مجمرة دادة عند صنع الكباب، تأمل عدنان المنظر بشغف في حين كان فرهاد يتبادل حديثاً هامساً مع العجوز.

تابع عدنان يدي بابا وهو يرخي إصبعيه عن المسحوق ويدعها تقع على ورق السجائر الرقيق "بفرة" ثم يقوم بلف الورقة بكل تأني وانتباه لئلا بطيئاً أنيقاً من جميع أطرافها، حتى اتخذت شكل كبسولة دواء، في لحظة ما رفع بابا عينيه عن الورق فالتقتا بعيني عدنان اللتين كانتا تلمعان كعيني القط، وكأنه عرف مغزى حركة أبيه، وثب منطلقاً إلى الداخل وعاد بعد أقل من نصف دقيقة وهو يمسك بيده قدح ماء وذهب ليقف بين يدي أبيه بكل أدب واحترام، تناول الأفندي منه القدح بصمت، ولمعت عيناه لهذه البديهة والمبادرة من صبي لم يتجاوز بعد السنة الثامنة من العمر، بعد أن تمّ له كل شيء ألقى الكبسولة في فمه وأتبعها بكأس الماء، بعد أن استقرت الكبسولة في جوفه أشار إلى عدنان أن يتقدم ويجلس على فخذه ففعل.

سأله وهو يُشير إلى الكيس الأبيض الصغير:

- هل تعرف ما يحتويه هذا؟ -

تردد عدنان قليلاً وأتاح بذلك فرصة لأخيه ليحاول الإجابة، فأشار إليه أفندي أن ينتظر، حك عدنان رأسه قليلاً ثم قال بحياء وخوف:

- تاء، إنه بسبب (حمى).. حمى إنه يصيبك بالليل وعرق كثير... كثير.. كثير..

- أصبت وأحسنت يا ولدي...

هتف الأفندي بصوته الجهوري ثم التفت إلى فرهاد الذي كان مستغرقاً في حديث شيق مع العجوز فاستأذن العجوز ووجه السؤال إلى ابنه:

- أخبرني أخاك السبب في تناولني هذا الدواء، فهل تعرف أنت ما كانت تحوي الكبسولة؟

لم يتوان فرهاد لحظة وأجاب:

- كُنِين.

سمعت دادة من الداخل ما جرى بالتفصيل، فجاءت وضمت ابنيها إليها معاً إلى صدرها المترب بتراب الأثاث، وعلى شفتيها الرقيقتين الورديتين ترقص ابتسامة فخر واعتزاز، ولسانها يتحرك ببطء غير منظور في دعاء وثناء خاشع للبارئ الواهب لهذه الهبة السماوية المتمثلة في أحسن ولدين في الدنيا كلها.

في اليوم التالي عاد العم بطرس بعد المدرسة وفي يده عصا ذات فلقتين من أحد طرفيها، جاء ليباشر المهمة التي أوكلها إياه الأفندي؛ بردم وملء الثقوب والثغور في البيت، يعاونه في ذلك دادة جميلة وفرهاد وعدنان بقدر ما سمحت لهما طاقتهما وطاوعتهما أيديهما الصغيرة، وقد ارتدى هو وأخيه حذاء من الجلد سميك وتحت إشراف دادة التي تفحصت داخل بطانة كل فردة بدكها بعنف على أرض الغرفة الصلبة بصورة متكررة، لفنت العصا نظر فرهاد وأعجب بها أشد الإعجاب فأخذ يتناولها ويقلبها بين يديه ويتأملها بعينه طوال الوقت.

عاد الأفندي بعد الظهر وشاهد ما تم من العمل، وقد ردمت الثقوب وسدت الثغور بعناية بالملاط، فأبدى إعجابه العميق وسروره وامتدانه، دعا العم بطرس إلى غرفة الجلوس وجلس كل منهما في كرسي، تساءل عن سر وجود هذه الدويبات وبكثرة في البيت فاجاب العجوز بكل برود:

- أبندي...إنها الرطوبة المفرطة في الهواء والجبل والتلال والطبيعة والسهول المحيطة حيث مزارع الأرز الشاسعة، وأنت لا ريب تعلم أن حقول الأرز تغمر دائماً بالماء ويصبح مأواها الراكد بيئة ملائمة صالحة لنشوء ونمو الحشرات الضارة، مثل العقارب والأفاعي وخاصة في الصيف.

لعق فمه اليباس بطرف لسانه ونظر بعينين كعيون البوم إلى الأفندي، ثم خلع طاقيته من على رأسه يهف بها على وجهه المتعرق وأردف:

- والمشكلة الأكبر هي البعوض.

انتابت الأفندي رعشة خفيفة عند ذكر البعوض، بل حمى خفيفة، فبلغ القلق به مبلغاً إلى درجة أنه مد يده إلى علبة الكنين التي كان يحتفظ بها في جيب سترته الداخلية ليتأكد من وجود السلاح المضاد للبعوض بداخلها، وقد سمعت دادة كل ذلك وهي تطبق بيدها على فمها منتقلة ببصرها من فرهاد إلى عدنان، اللذان كان يبدو عليهما علامات وحركات تنم عن عدم اكتراثهما بما قد قاله العجوز، وخلال الحديث تحولت عصا العم بطرس إلى أداة لهو ولعب يتقاذفها الأخوان فيما بينهما.

وفي الطارمة - فناء الدار الأمامي المسقف - قال العجوز وهو يهيم بالخروج للحقل مشيراً بيده اليمنى وبارتعاش ضئيل إلى التلال والهضاب وأشجار النبق كثيفة الأغصان والأوراق:

- لا أريد أن أفزعكم؛ ولكن أود أن تكونوا على بينة من الأمر ودراية، هناك تخرج العقارب من الثغور من باطن الأرض، وبعض هذه سوداء وهي الأخطر.

تبادلت دادة والأفندي النظرات، وقد رأى الأفندي أن وجه دادة الأبيض قد تحول إلى أصفر باهت وفي عيونها المائية اللوزية الشكل بريق غريب وهلع وريبة، وثمة سؤال واحد كان يدور في خاطريهما: هل خطوا رحالهم أخيراً في مكان غير آمن بعدما ظنوا كل الظن أنهم أخيراً أدركوا المرام بالسكن في هذه الدار التي بالمقارنة مع القديمة كانت قصراً منيقاً.

أحس العجوز بوقع كلامه عليهم فحاول التهدئة:

- كانت العقارب في مجملها تخرج من هذه الشقوق والثغور، وقد زالت الآن بسدها، فألمي كبير أن ذلك سيسهم في طمأننتكم وراحة بالكم وعمق نومكم ونجاتكم من الكوابيس.

ران الصمت لحظة ثم استطرد وهو يبلل بطرف لسانه العريض بباطن شفته العليا المتبيسة:

- أفضل طريقة هي الوقاية، وهناك طريقة أخرى وهي استعمال المبيدات، لكن هذه المبيدات غير آمنة وخاصة للعوائل التي لها أطفال، إن بعض الأطفال قد أصابهم إسهال وقيء لأسابيع بعد ما تم رش بيوتهم بهذه المبيدات ذات مرة.

ساد الصمت لحظة ثم قال العجوز وقد أدرك ما كان يجول في خواطر سامعيه:

- لحسن الحظ ألا وجود للأفاعي في الشتاء الطويل، والعقارب ليست بهذه الخطورة.

كان العجوز يجد نفسه في ازدواجية التعامل مع الوضع، تهدئة وفي نفس الوقت تبصير بالحقيقة المفزعة المقلقة.

وقبل خروجه رmq العم بطرس الأفندي بنظرة ذات مغزى:

- سأنزل للحقل لزرع الشتلات الجديدة، ومن ثم التأكد من الحركة غير العادية التي أحسست بها مساء البارحة داخل خطوط البامية.

أنصت إليه الأفندي باهتمام دون رد ولا تعليق ثم شيعه بناظريه وهو ينطلق إلى الحقل مطأطئ مثيراً للغبار حوله بالشيء العريض الطويل المدور الذي كان قد يطلق عليه اسم حذاء، ومعطفه الطويل الذي كان كما اعترف بنفسه يوماً قد جمع أشناته من بقايا اللباد في بيته، وكان يمسك بقبعته المتهرئة فوق رأسه بيده بقوة بسبب الرياح، والقبعة كان قد صنعها هو بنفسه من القش فبدت أشبه ما يكون بعش اللقلق.

بعد أن توارى العجوز وراء المنعطف المفضي إلى الحقل؛ مد الأفندي يده إلى جيب صغير في جاكنته فوق الصدر، وأخرج منه ساعته المتدلية من طرف حزام رفيع مثبت فوق الجيب بواسطة إبرة معقوفة، نظر إليها ملياً ثم أعادها إلى موضعها وقد زادت أساريير وجهه المنقبض أصلاً انقباضاً وجبينه المقطب تقطباً، وبحركة مقصودة خفض بصره ليتفحص ملياً بدلته الرصاصية المقلمة القديمة ذات الخطوط السوداء، بدا وكأنه يحس بتراخي بنطلونه فأمسك بالحزام من الوسط ليسحبه بقوة إلى الأعلى حتى وصل إلى ما فوق سرتيه، ثم التفت إلى دادة التي لم تنزل تقف وراءه مهمومة قلقلة تحت تأثير المعلومات الجديدة التي سمعتها للتو من العجوز الطيب، فقال لها بنبرة تنم على العجل:

- علي بالإسراع في التوجه إلى النادي، نادي الموظفين والمعلمين، لي هناك موعد مهم مع مدير الناحية، فقد أرسل أحدهم إلي يبلغني أنه يرغب في التعرف علي، وسأعود قبيل المغرب إن شاء الله.

انطلق الأفندي إلى الشارع، في حين تحولت ملامح دادة في تلك اللحظة وهي تشيعه من الفرع إلى السخط على بدلته، فبنظرها لم تكن موضة قديمة فحسب؛ بل كانت قديمة بدا عليها إمارات الكبر والعجز، وقد أبدت أكثر من مرة انتقادها للبدلة وبخاصة أكمام البنطلون، فقد كانا مطويين طيتين بعرض بضعة سنتيمترات مخيطتين بخيط دقيق ظاهر للعيان فأضفت منظرًا نشارًا إلى البدلة.

أطلقت زفرة حارة ثم جعلت تنادي عدنان الذي كان يلعب في الشارع مع فرهاد؛ طالبة منه أن يرافقها إلى السوق، ودعت فرهاد للبقاء مع العم بطرس، ومن مكانه هز فرهاد رأسه بالإيجاب دون أن يتوقف عن لهوه ولعبه المفضل الذي بدأ يمارسها بشغف في الأيام الأخيرة، كان يقذف بالعصا إلى الأعلى، يرفع رأسه إلى أعلى وهو

يركض بسرعة إلى الأمام كي يقف في الموضع الذي يتوقع أن ترجع العصا إليه
كي يتلقفها قبل أن ترتطم بالإسفلت، وأحياناً كان يدعها تقع لترتطم بالإسفلت فكانت
تحدث صوتاً غريباً أعجب به، ليعود فيلتقطها بشغف ليعيد الكرة من جديد.

ظل فرهاد وحده في الدار بعد أن ذهب العجوز إلى الحقل للعمل، فدفعه الفضول أن يذهب هو أيضاً إلى هناك لقضاء الوقت والتسلية.

هناك من بعيد رآه خلف خطوط البامية وعباد الشمس يحرق الأرض وهو يتصبب عرقاً، وقد ازداد وجهه الأحمر احمراراً تحت الشمس الدافئة، وبهدوء وصمت تام مضى نحوه وجلس على صخرة كبيرة قرب السياج الشائك، حيث ترقد عصا العجوز ذات الفلقتين، تأمل الطبيعة حوله وطيور السنونو التي كانت تنطلق فوقه بسرعة ورشاقة السهام، تبعث صوتاً حاداً خارقاً.

أخذ يستنشق من رائحة الطبيعة والتربة الرطبة التي قلبت مساحة العجوز أسافلها أعاليها، ثم نظر إلى قدمي العجوز وهما تدقان خشبة المسحاة بقوة نادرة أدهشته، ولكن المشهد الذي أدهشه أكثر من أي شيء كان دائماً حذاء العجوز، فظل يتساءل وبإلحاح كيف باستطاعة هذا الشيء المصنوع من الخرق والجلد اليابس البالي والخشب؛ أن يتحمل كل هذه الضربات العنيفة التي كان العجوز يوجهها على الخشبة العارضة المثبتة مباشرة فوق رأس المسحاة الحديدية المثلثة والمحددة، والتي كانت تشكل مع اليد الخشبية الطويلة المثبتة عليها شكلاً كالصليب الذي رآه على أبواب وحيطان الكنائس وعلى صدر كاترين كه ككه، ومع كل ضربة حذاء كان يصدر من العجوز صوت مكتوم متتابع هم... هم....

لم ينتبه العجوز إلى وجوده إلا بعدما توقف فجأة عن العمل مجيلاً النظر بعيونه الصغيرة الغائرة في محجريهما إلى ما حوله، وعندما وقعت عيناه عليه همهم قائلاً له:

- من؟ فرهاد! لقد أفزعتني بالمفاجأة.

تساءل وهو يسترد أنفاسه، ثم قال بابتسامة تنم عن سذاجة مفرطة:

- لم أتوقع وجودك هنا أبداً!

اكتفى فرهاد أن يرد على تحيته بابتسامة كشفت عن أسنانه الصغيرة المتراسة المتألثة كاللؤلؤ.

لم يلتقط العجوز الابتسامة لأنه كان قد صوب بصره إلى بقعة من الأرض بين خطوط البامية وعباد الشمس، حيث الحشائش الطويلة العالية تصل إلى عنق الأقراص الصفراء الصغيرة لشجيرات عباد الشمس المتراسة في صف مستقيم طويل بمحاذاة سياج منخفض من الأسلاك الشائكة، توقف العجوز عن كل حركة، الأمر الذي ألقى الرعب في قلب فرهاد الذي كان يمسك العصا بيده، حدجه العم بطرس بنظرة قلق مشيراً إليه ألا يتحرك من مكانه.

رأى الصبي أنه قد ركز عينيه على نقطة ما خلف بقعة كثيفة من الحشائش والأشواك في نهاية خطوط البامية حيث تلتقي بخطوط الباذنجان، رآه ينحني ثم يمد يده إليه فأدرك من فوره ماذا يبغي، فأسرع ووضع العصا في يده وهو يرتعش ارتعاشاً، رآه يغرز رأس العصا في داخل الأعشاب والأشواك الكثيفة محرّكاً رأسه ورأسها يميناً وشمالاً بحثاً عن شيء.. وفجأة تراءت لفرهاد حركة ضئيلة كالتّي يصدر من احتكاك شيتين أملسين فيما وراء البقعة التي كان العجوز ينقب فيها، وسمع العجوز وهو يهتمهم بسخط:

- يا للملعون... أين ذهب؟

أعاد العجوز محاولاته بعزم لا يتزعزع، وما هي إلا لحظة حتى رأى فرهاد أن أسارير العجوز قد انفجرت عن ابتسامة الرضا والفرج، وبكل هدوء أخذ العجوز بالتقدم سائراً على طرف حذائه العجيب، وصل إلى مسامعها حسيب شيء يحتك بالأرض داخل حقل الطماطم، فهرع العجوز إلى مصدر الصوت بخفة الغزال، وكاد أن ينقلب على بطنه عندما تعلق حذائه الخشبي بالأشواك، وقف هناك يتأمل ملياً وهو يهز رأسه ويغمغم "وجدته"، ثم أخذ بإزاحة الوريقات والأغصان التي تعترض سبيل عصاه، وفجأة هتف العجوز بحماس وسرور:

- ها هي اللعنة، وجدتها.

هوت عصاه مرة تلو المرة وتوالت الضربات المتفرقة بصورة ليست عشوائية بل موجهة محكّكة مدبرة، ومن هناك خطى الصبي بضعة خطوات إلى الأمام ليرى بوضوح جسم الأفعى يرتفع ثم يهوى، وتوالت الضربات بلا هوادة حتى أدرك العجوز ألا حراك في فريسته، وحينها توقف العجوز ليتأمل ويتأكد من الانتصار، فقتل الأفاعي والحيّات كانت بمثابة الحرب على عدو مبين شرس، بالنسبة له.

اقترب فرهاد خطوات أخرى جريئة إلى الأمام، وقد تحول العجوز في عينيه في تلك اللحظة من إنسان وديع لين؛ إلى وحش كاسر لا يرحم عدوه، التفت العجوز وراءه ملوحًا بعصاه، فارتاع بقرب الصبي عنه الذي مدّ عنقه يتفحص رأس الأفعى الصغير المسحوق عن كئيب...

- خلاص؟

همس متسائلاً وهو يرفع بصره نحو العجوز، فرد عليه العجوز بهمس مقابل وهو يتنفس بصوت:

- انظر إلى الخطوة الأخيرة في قتل الأفاعي والحيات.

غرز العجوز طرف العصا على عنق الأفعى عند مقدمة الرأس حاشراً إياه بين الفلقتين ضاغطاً عليه بكل قوة، ثم لواه إلى جهة اليسار واليمين بالتناوب وبلا توقف أو هوادة، حتى انقطع الرأس عن الجسد.

- الآن لك أن تقول خلاص، يا فرهاد.

قال العجوز وهو يضحك بملء شذقيه، ثم انحنى وأمسك بذيل الفريسة ليرفعها إلى وجه فرهاد الذي لم يبذُ الخوف عليه بل المرح، كان جسد الأفعى رمادياً منقطاً بنقاط سوداء اللون من جهة الظهر، أبيض اللون من ناحية البطن، ولم يتعد طولها المتر.. وran الصمت دقيقة ينقل فيها فرهاد بصره حائراً بين العجوز والأفعى، حتى أشار العجوز له أن يتبعه إلى البيت.

كانت دادة قد عادت مع عدنان للتو من السوق بعدما اشترت بعض حاجيات البيت، وعندما لمحت الصيد الرهيب بيد العجوز أمام البوابة جحظت عيناها وبرزتا وامتدت يدها اليمنى بحركة لا إرادية آلية تطبق على فمها؛ لتكتم صرخة معبرة عن كلمة: لا! وهي تتراجع إلى الوراء، ثم أعقبتها بصرخة ثانية: لا، حين مد عدنان يده كي يلمس الجسد الأملس ويتحسس.

قدم العجوز اعتذاره لزوجته مديرة، بعدها دلف إلى داخل البيت بعد أن استأذن منها، ولم يلبث أن خرج يحمل كيساً من القنب وقال لدادة دون أن ينظر إليها كعادته:

- لا تقلقي جميلة هانم، سأقوم بدفنه في العراء بعدما أنهى عملي في الحقل.

قال ذلك وألقى الجسد الأملس على عجل في جوف الكيس، مخففاً بذلك من روع دادة التي كانت في حالة لا تُحسد عليها، إذ تملكتها الحيرة والفرع الشديدين، فاكتفت

بالاستماع بعد أن فقدت القوة في الكلام... وهما واقفان أمام البوابة الحديدية بادر بطمأنتها:

- والآن بإمكان الأولاد التحرك واللعب والنزول إلى الحقل بدون خوف.

صمت العجوز لحظة ينظر إلى البعيد ثم استطرد في حديثه قائلاً بلهجة المطمئن:

- كانت هي الحية الوحيدة هذه السنة، قلما رأيت حية في الحقل، فلا داعي للقلق يا جميلة هانم.

هزت دادة رأسها تحت الغطاء الأبيض العريض وقالت بصوت أبح وهي تزدد ريقها:

- كنت أتساءل ماذا كان سيحدث لو ظهرت الأفعى لأحدهما هناك دون وجودك؟.

وأشارت إلى ولديها وهما يلعبان ويطفران في مرعى المطران كالخرافان.

أما العجوز فكان مأخوذاً في التماذي والإطناب في الحديث عن الحيات لا يضاهيه في هذا إلا دادة إذا ما دار حديثها حول الكباب والسماور، فاستطرد وقد ازداد تقوس ظهره تقوساً وفتحاً منخريه اتساعاً:

- ليست كل الحيات سامة؛ بل إن بعضها أصدقاء ينفعون في إبادة الأعداء، واعلمي جميلة هانم أنني قد لدغتنى بعض الحيات عندما كنت شاباً.

وأضاف وهو يعبر الممر باتجاه الباب السلكي قائلاً:

- نحن عائلة توارثنا قتل الأفاعي والحيات أباً عن جد، وقد تكونت لدينا وبمرور الزمن مناعة ضد سمومها.

توقف في منتصف الطريق المفضي إلى الباب وتوقفت دادة وراءه فإذا به يضحك ضحكة هستيرية اهتزت لها ملابسها الرثة، ثم مد يده إلى أسفل بستكه (الدراعة) السميك المصنوع من اللباد فأمسك بطرفها وحاشية القميص الباهت المصفر تحتها بيده، طاوياً إياهما معاً إلى أعلى، وذلك ليكشف عن آثار جروح قديمة قد تم التأمها منذ زمن بعيد، رأت دادة خطوطاً وردية وحمراء عميقة على الجلد وأخاديد غير منتظمة في الجانب الأيمن فوق منطقة الخاصرة والورك.

بعدما تأكد أن الهانم جميلة رأت ما أرادها أن ترى؛ أسرع الخطى مختلاً بخفة الشباب، ولما يزل بستكه (دراعة) يهتز من الوراء، الهزات المتعاقبة هذه كانت دلالة على أنه كان يضحك.

شيعته دادة وهي تقف بجانب الصخرة التي سماها الأولاد صخرة دادة، لاعتياها الجلوس عليها.

ابتعد سالگا مسلگا وعرًا ضيقًا متاخماً للمرعى في اتجاه البيوت ذي الأبواب الفضية من الطرف المسيحي المقابل، ومن مكانها وحيثما وقفت تهادى إلى أذنيها صوته الغليظ وهو يدندن بمقاطع من أغنية شعبية كردية معروفة لدى الكبير والصغير:

- زلفه كه ت ماره له سه ر جاوي ره شت

كى ده ويرى ده ست به رى بو رووى كه شت

(ذؤابة شعرك ثعبان أسود فوق عيونك السوداء

فويلي إن مددت يدًا إلى وجهك الوضاء؟)

كانت الساعة تقترب من الرابعة عصرًا عندما وصلت كاترين بنيامين للقاء فرهاد وعدنان؛ فوجداهما أمام البيت، وكانت دادة جالسة على الصخرة (صخرة دادة) أمام الباب الصغير المشبك للسياح، وهي تضع ذقنها بين راحتي يديها تنظر إلى الأرض، مسترجعة كل ما سمعته من العم بطرس.

هبّت نسمة باردة من الجبل الأسود فهبت دادة جميلة وسحبت شالها المطوق لعنقها ونشرته لتغطي به كتفيها، وقد جذب الشال الأخضر هذا انتباه كل من رآه، بسبب كبر حجمه من جهة؛ وبسبب أنواع وأشكال الزخارف والرسوم والنقوش المطرزة عليه من جهة أخرى، وكذلك بسبب الزهور الصفراء الصغيرة المنقوشة عليه بعناية وأناقة بالغتين تجذب الناظر، ثم جذبت طرفي السترة القديمة الرجالية التي كانت ترتديها فوق زيها التقليدي الكردي إلى أسفل وعقدت الأزرار.

لم تكن متنبهة إلى ما كان يجري حولها طوال الوقت، ولم تسمع صراخ عدنان وهو يحتج ضد قرار أخيه أنه هو الفائز في ركض المائة متر على الشارع المار أمام المدرسة، ولا إلى إصرار فرهاد أنه كان فعلاً متقدماً عليه بمسافة قليلة لم ينتبه عدنان لها.

وفي غمرة اللعب وسورته لاح لفرهاد التفاتة إلى دادة فوجدها مهمومة؛ فأرسل إشارة بيده لأصحابه فتوقفوا عن اللعب وساروا إلى حيث كانت تجلس جميلة هانم، ووقفوا أمامها بلا صوت ولا حركة وبكل احترام.

أحست بقدمهم من لهاتهم ووقع أحذيتهم المطاطية بإسفلت الشارع، رفعت دادة رأسها ببطء شديد كمن تستفيق من نوم عميق، مستقبلة إياهم بابتسامة عذبة مشوبة بحزن دفين، اقترب الابن الأكبر منها فجعل يخاطبها وقدم إليها أصحابه الجدد، فقالت بهدوء متناه:

- أعرف أن هذا هو بنيامين بطرس، ومن تكون هذه الجميلة؟

مشيرة إلى كاترين كه ككه...

- إنها كاترين، زميلتنا في المدرسة، هي وأنا نجلس في الصف نفسه.

أجاب فرهاد بولع مبتسمًا بلطافة بالغة.. فمدت دادة يدها وتناولت الفتاة بين يديها الصغيرتين مشددة عليها بحرارة فبادرتها بالقول وعلى شفافها الرقيقة ابتسامة عذبة هادئة:

- كاترين، اسم جميل لفتاة جميلة جدًا.

تورد وجه الفتاة من الإطراء فانسحبت قليلاً إلى الوراء وعينيها السوداوان تنظران إلى الأرض، ورأت بزاوية عينيها أن العيون كلها صوبت عليها وهي الجديدة بينهم... رفعت دادة يدها إلى رأس الفتاة التي انحنت لها، فجعلت تمسح على شعرها الأملس الكثيف وقالت مداعبة:

- يا لجمال شعرك ويا لجمال عينيك ويا لجمال فستانك، إنه يلائم تمامًا بشرتك البياض، أسود على أبيض.

احمرّ وجه كاترين وهي ما تزال ترنو إلى الأرض وتعبث بالتراب بطرف حذاءها على حافة الطريق، وأنقذ حرجها صوت دادة الأبح الناعم:

- كاترين، كاترين أنا سعيدة جدًا بلقائك ومعرفة بنت جميلة عاقلة مثلك، لقد نورت المكان، أنت الفراشة البيضاء في الحقل.

ثم وهي تحرك راحة يدها اليمنى إلى الشارع:

- والآن هبوا وعودوا للعب يا أطفال.

كان فرهاد أول المنطلقين، وما هي إلا لحظة حتى عَجَّ الشارع بضجيجهم وصراخهم وضحكاتهم على الشارع الخالي إلا قليلاً من السيارات، كان الركض السريع والقفز بالحبل والقفز العريض والقفز العالي على مرعى المطران وجاو قوجاني، Hide and seek، والعدو مع القفز والجسم من القدمين إلى الخاصرة في داخل أكياس القنب الكبيرة والتي كانت تستعمل لحفظ الحنطة والشعير والتي جلبها بنيامين معه من البيت من الألعاب الشعبية آنذاك..

وكانت هذه الفعاليات هي نفسها التي كانت تقدم وتعرض للمشاهدين أثناء الاستعراض السنوي للمدارس والتي كانت تقام في قضاء راوندوز وتشارك فيه مدارس النواحي والقرى المجاورة، وكان تهافت الأولاد لهذه الألعاب له فائدة مزدوجة؛ متعة واستعداد وتدريب عفوي في الوقت ذاته، كانت عيون دادة المائيتين تنتقل إليهم بين الحين والحين بينما تقوم بيدها بانتزاع الأعشاب الضارة والأشواك

من حول الصخرة المقعد الأزلي لها، وكانت تبتسم رغم الفرع الذي لم يزل مستوليًا عليها.

لعب ولهو متواصل حتى كُلت أقدامهم وتعبت أرجلهم وأقدامهم وخُرسَتْ/ بُحَّت أحبال أصواتهم من الصراخ، ولما نفذت طاقات أبدانهم النفاذ التام؛ قفلوا عائدين إلى حيث صخرة دادة الخالية، كانت قد اختفت، فتفرق الجمع، عاد عدنان بصحبة بنيامين إلى البيت تاركين فرهاد مع كاترين حيثما شاءا وكما شاءا، وفقا لحظات على الممشى يتابعانها بأنظارهما وهما يمضيان مسرعين إلى نهاية الشارع، ومنها ينعطfan نحو اليمين سالكين الطريق الترابي، وهناك واصلا سيرهما حتى أتيا الصخرة التوأم حيث شجرة شاتوو - التوت الشامي - المثقلة بأغصانها وأوراقها وثمرها، والملقية بظلالها الظليل فوق الصخرة وعلى ما حولها بصورة دائرية، منظر التفاف الشجرة وتكورها حول الصخرة كان يبدو من بعيد وكأنها أمّ تحتضن وترضع وليدها وتحميها من شر الأشرار، وهناك التفتا فوق أبصارهما على الصديقين في الممشى فلوح بعضهم لبعض وحينها دخلا البيت.

جلس فرهاد وكاترين متلاصقين، بدت كاترين لفرهاد في فستانها الأسود القصير وبساقها المرمريتين وكتفها العاجيتين؛ كأنها حورية البحر التي قرأ قصة عنها في كتاب قديم لأبيه أخرجه من مكتبته.. دام سكونهما قليلاً فيما العيون تلاقت بحذر وخجل في أول لقاء لهما بعد التعارف في المدرسة، صمت اللسان، والعين هي التي حكّت ودرت وتكلمت، والشيء الذي لفت نظر الصبي كثيراً كان شفتها السفلى؛ فقد كانت الشفة السفلى لكاترين مكتنزة وأشد حمرة من الشفة العليا، الأمر الذي جعله يمعن النظر فيها، رست عيناه الواسعتان الشهلوان على هذه الشفة السفلى المتميزة، مطيلاً النظر الثابت النافذ فيها، حتى أحست الفتاة بذلك فأصابها شيء من الارتباك وتساءلت بدافع الفضول بشيء من التلعثم:

- ماذا ترى هناك؟ أجمال أم قبح؟

أصاب فرهاد ارتباك شديد فلم ينبس، وخفض رأسه ينظر إلى العشب تحته، وعندما رفع بصره أخيراً كانت كاترين تحمق في ساعة يدها الصغيرة الذهبية، وبغته وثبت واقفة فانتفخ من جرائها فستانها فقالت دون أن تنظر إليه:

- علي الانصراف الآن.

ودون إرادة منه تحولت عيناه مرة أخرى إلى شفتيها وقال كالمذنب:

- أود أن أقول شيئاً لك... لكن... لا ليس الآن... ليس الآن.. المرة القادمة.

كاترين قد أدركت ما كان يجول في خاطر زميلها في تلك اللحظة فقالت:

- أعلم أنها شفتي السفلى التي راعت انتباهك... أليس كذلك يا فرهاد؟

لم يجب فرهاد بل طأطأ برأسه مبتعداً بكتفه قليلاً عنها، فكر لحظة قبل أن يتكلم، وعندما فتح فاه بدأ يتحدث عن موضوع آخر له علاقة بالمدرسة.. تحدثا حول المدرسة إلى أن بدأت الشمس بالغروب من الجهة المقابلة للجبل الأسود، فزاد الجبل الأسود سواداً، وهبت ريح قوية عليهما فدفعت شعريهما إلى الوراء، كان ذلك بمثابة صافرة الحصص المدرسية؛ انتهى الوقت فعودا، أخذا بالانحدار في نفس الطريق الترابي الملتوي مدبرين والذي صعدا فيه مقبلين، وعند البيت الحجري تفرقا، وبقي فرهاد مكانه، بينما واصلت هي مسيرها، رآها تعرج قبالة أجمة أشجار أسيندار (الصفصاف) الباسقات صوب اليسار، سالكة ممراً ضيقاً بمحاذاة مرعى المطران، وفي منتصف الطريق حانت لها التفاتة ولوحت له بيدها ثم مدت يدها مشيرة إلى الطرف الآخر ما وراء مرعى المطران من الحي المسيحي وهتفت:

- تلك هي دارنا.. الباب الفضي.. إنه يلمع نهائياً في الشمس.

* * *

في الليل وكالعادة جلست دادة على كرسي حديدي بين السريرين، وقدميها في بووت (حذاء طويل)، وسردت حكاية كعادتها على ابنيها، كانت قد سحبت الأسرة أثناء النهار بعيداً قليلاً عن الجدران، جلست ولم تبرح الغرفة حتى تأكدت أنهما قد غرقا في نوم عميق بعد نهار سعيد مفعم بالحيوية والنشاط، حينها قامت وبكل هدوء وأناة بجذب ورفع حواشي الأغشية والألحفة وطرحتها وسط الأسرة، ثم خرجت وعادت بعد لحظة وبيدها علبة صغيرة، فقامت بتزييت أرجل السريرين بحيث صارتا لزجتين تماماً تنزلق منها الدويبات الصفر لو حاولت الانقضاض والناس نيام، وبعدما انتهت من هذا الإجراء الوقائي الدفاعي انتابها شعور بالراحة، فمضت إلى غرفة الجلوس لتجلس بجانب الأفندي مرتاحة ولكن مرتاعة بعض الشيء، وهو في ملابس نومه الروب الأخضر الفاتح، وهناك وعلى ضوء فانوس ضئيل معلق على

الجدار قربت شفتيها اليابستين من أذنه المشعرّ هامسة في خشوع، ترجت أن تدعو
لهما الباري أن يحفظهما من كل سوء... أجابها بنفس النبرة مطمئناً:
- لقد قرأت للتو آية الكرسي وسورة الضحى عليهما، وهذه كفيلة لدفع كل شر وأذى
عنهما.

كان قد مضى عامان على بداية سكن عمر أفندي وعائلته في ناحية حرير؛ عندما استيقظ فرهاد من نومته ذات صباح جميل مشرق من أيام الخريف، وأغنية مائدة نزعت التي تغني بأمجاد الزعيم الأوحى والفسان الأحمر كانت تنساب إليه من راديو الأفندي الكبير من غرفة الجلوس، كانت الأغنية ذات شعبية كبيرة حتى في الوسط الكردي، وذلك لأن الزعيم كان مسامحاً وليناً مع كل طبقات الشعب وأقلياته وقومياته دون تمييز، والعلم العراقي ذات الألوان الثلاثة: الأسود والأبيض والأخضر وفي وسطه النجمة الحمراء ذات الثمانية أسنان المحيطة بالدائرة الصفراء لم يزل يرفرف على سطح بناية المدرسة.

فرك صاحبنا عينيه وهو يردد كلمة واحدة: حلم... حلم.. جلس على السرير وهو شارد يحلق في دهل في أرضية الغرفة من الإسمنت الأملس، وحينما رفع رأسه وجد دادة تقف بجواره بجانب السرير والتي بادرت به بوجه منشرح قائلة بصوت ناعم:

- صباح الخير فرهاد، كابوس أم حلم؟

- دادة لقد رأيت أفعى في الحلم.

قال فرهاد بصوت أبهى وهو يُلقى نظرة خاطفة إلى سرير أخيه الذي كان يقوم بالحركة الأخيرة لهجر النوم الطويل بعد ليل طويل.

همست دادة بالقرب من أذنه اليسرى:

- وهل قتلتها؟

أوماً فرهاد بنعم وهو يتنأب، ثم أردف قائلاً بكسل ملحوظ:

- لقد سحقته رأسها كما فعل العم بطرس.

جلست دادة بجانبه على الكرسي الحديدي، حك فرهاد رأسه وهو يسحب جسمه ويدفع الوسادة برأسه إلى الوراء، حيث المسند الحديدي المشبك في الطرف النهائي، وقال بنبرة تنم عن فخر واعتداد بالنفس:

- لقد سحقته رأسها بعصا العم بطرس.

ربت دادة على كتفه إعجابًا وحبًا ولم تنبس، رفع رأسه الأملس إليها فقال مستفسرًا
وعلى وجهه إمارات الجذ:

- وإن لم أقتلها، فماذا كان سيحدث؟

مسحت دادة على رأس ابنها الأملس برفق وقالت متجاهلة سؤاله:
- الأفعى عدو، فمن قتل أفعى فكأنما قد قتل عدو له، هكذا يقول التفسير كما شرح
لي الأفندي.

في نفس اللحظة فتح عدنان عينيه ببطء شديد ليقع نظره مباشرة على أمه وأخيه،
فافترقت شفتاه عن ابتسامة خجولة..

- صباح الخير عدناني الصغير..

قالت دادة ونحت نحوه وطبعت قبلة على كِلا خديه، ثم جلست بجانبه على حافة
السريр، لفظت اسم ابنها مع إلحاق ياء التملك.. فقد كانت دادة تجد لذة في نطق
اسميها بهذه الطريقة الفريدة.

نهض عدنان من الفراش واتخذ مجلسه بجانب دادة وهو يرفل في منامته المقلمة
باللون الأحمر الفاتح واللون الأبيض، نفس لون منامة أخيه، أول ما شد انتباهه كان
اشتات جثة صفراء ملقاة في الزاوية البعيدة خلف الباب فهرع إليها، ورأى فرهاد
ذلك ففعل ما فعل، انحنيا وجعلا يتفحصان الجذع الباقي من الجثة والأجزاء
المقطوعة وعلى الأخص الكلابتين والذيل.

انحنى دادة وشرعت بتقديم تقريرها:

- قتلتها عند صلاة الفجر، كانت تحاول تسلق حذائك يا فرهاد، لقد نسيت أن تضعها
في الدولاب الخاص كعادتك، تصور لو لم أقتله ولبست الحذاء دون أن تقلب وتفتش
البطانة!!

استقامت دادة وتنهدت وعلى وجهها علامات الفزع الشديد، وأخذت كعادتها تشكو
وتندب حظها الذي جاء بها إلى مكان بلا أمان، ران الصمت لحظة والوجوم على
الوجوه، تقدم بعدها عدنان إلى دادة وهي تتراجع مع فرهاد إلى حيث السريرين
وقال لها بحماس بالغ بصوت أكبر من عمره:

- لقد رأيت حلمًا هذه الليلة، دادة.

- أنت أيضاً؟ أحمد الله لو كان حلمك خالياً من الحيات والأفاعي.

- لم أرَ حية؛ قال عدنان وهو يبتسم بخبث ثم استدرك، ولكني رأيت عقرب.

قال وهو يلوح بيده الصغيرة السمراء وبحماس متزايد، ثم ألقى بنفسه على سريرته بخفة الأرنب، وفعل فرهاد نفس الشيء، تناطحا قليلاً برأسيهما، نظرت إليهما دادة بمزيج من الغبطة والخوف، وقالت بنبرة حزينة عميقة تحاشت الإفصاح عما جاش به صدرها إشفافاً من تكدير صفوها وقنعت بأن تقول:

- أخاك رأى في منامه حية وأنت رأيت عقرب!

صحح عدنان قائلاً بثقة:

- بل ثلاثة عقارب.

وانفرج ركنها فيه عن ابتسامة ظفر، كاشفاً عن أسنانه الصغيرة الناصعة تتخللها ثلاث فجوات لثلاثة أسنان، بدت من حمرة اللثة حولها أنها وقعت حديثاً، ثم وهو يُشير بيده اليمنى إلى الحقل:

- قتلت أحدها في الحقل هناك، وواحدة عند النبق بعيداً بالقرب من الجبل، وكان بنيامين معي طيلة الوقت، وفجأة ظهر أبي ووضع يده على كتفي وقال لي: بارك الله، ثم أعطاني ساعة جديدة مكافأة.

سرد عدنان رغم صغر سنه حلمه بطريقة مشوقة، استعمل خلالها نفس الأسلوب والتكتيك الذي كانت دادة تستعين به في سبيل إضافة عنصر الإثارة والتشويق إلى حكاياتها لهم.

لم تملك دادة إلا أن تتصنع ابتسامة واهية وأرهفت السمع، حيث أحست أن صوت راديو بابا قد توقف وسمعت بدلاً منه صوت حممته وغمغمته وهو ينظف حنجرته في غرفة الجلوس، ثم وقع أقدامه في الردهة، ثم صرير الباب الخارجي وهو يغلق، فاستنتجت من كل ذلك أن وقت المدرسة قد حان؛ حينها وبإشارة منها نهض الأخوان من مكانهما ووضع كل منهما ذراعاً على كتفها، قالت لهما بصوت مخنوق:

- وددت لو حلمتم حلماً أحسن من هذا يناسب عمريكما.

وتمتعت وهي تتحسر: يبدو أن موضوع العقارب قد استولى على عقولكما وكأنه صار بديلاً عن دروسكما، وصار حديثكم يجري على العقارب بدلاً من دروسكم ومستقبلكم.. قلق دادة كان أعمق مما يتصوره أحد، فبعد السعادة والفرح بالنجاة من بيت طين عتيق في القرية وجدت نفسها تتوق رغماً عنها إلى نفس المكان الذي هجرته مسرورة، فهل حطت فعلاً رحالها في وادٍ غير ذي زرع؟، لاحظ الولدان وجوم وإمارات الحزن على وجه أمهما، فحاولا تسليتها في ذلك الصباح الباكر حيث كان أمامهما نصف ساعة قبل للتوجه إلى المدرسة.

- أنا لا أخاف من العقارب، دادة.

قال عدنان وهو يُلقي بنفسه على كلتا يديه مستنداً عليهما، بينما رفع رجله إلى الأعلى بانحناءة إلى الوراء من وسط ظهره، ليتخذ شكلاً يُشبه تماماً ميلان ذيل العقرب، وجعل يسير هكذا في الغرفة وسط دهشة فرهاد ودادة التي كتمت صرخة: - ما هذا الذي تفعله يا ولد؟!

بعد مسيرة دقيقتين هكذا جيئةً وذهاباً في الصالة - غرفة الجلوس- ترك عدنان رجله يسقطان على الأرض، ليعود وينتصب قائماً عليهما ليتخذ شكله الآدمي، وقال وهو يلهث:

- إنني أجيد التحول إلى عقرب متى ما أشاء، لقد رأيتما بأعينكما.

حركت دادة لهما يدها أن كفى، وقالت فجأة بلهجة أمرّة جاهدة تُغير الموضوع: - حان وقت الذهاب إلى المدرسة، سأضع في حقيبة كل منكما أستوركه به نير- فطيرة بالجين الأبيض - لذيذة أعدتها عند الفجر، بعد صلاة الفجر كي تتناولوها في المدرسة.

في المساء وبعد أن حل الظلام؛ زارهم فراش المدرسة العم بطرس الذي جاء للاطمئنان على دادة جميلة، ومن ثم القيام بجولة تفتيشية في أرجاء البيت لمسحها وردم ما تبقى من الثغور والشقوق حيثما كانت، وبعد أن أنهى مهمته وقعت عيناه الصغيرتان على صورة كبيرة أبيض أسود للأفندي على الحائط، دفعه الفضول أن يسأل عن عمر الصورة، فقصت دادة جميلة عليه تاريخ الصورة، وكيف وصلت

إلى يديها، ولكنها سردها بأسلوب شيق لتناسب أعمار الطفلين، وقد فطن العجوز لذلك:

- هناك.. ما وراء الجبل هناك قريتان تحت سفح الجبل، تبعد إحداها مسافة خمسة أميال عن الأخرى، كنت لم أزل طفلة أعيش مع والدي، وكانت قريتنا تزخر بالعقارب، ولهذا السبب اكتسبت خبرة في قتلها وكيفية حماية أنفسنا منها، وهناك في القرية المقابلة كان أبوكما ملا عمر، كما اعتاد الناس تسميته، يعيش مع خاله ملا قادر.. كان يتيماً، وكان يتلقى دروسه في الجامع على يد خاله، وعندما جاء لخطبتي كان عمري ستة عشر عاماً، ولأنه كان فقيهاً ذا خلق رفيع؛ وافق أبي مباشرة على تزويجي إياه دون الأخذ برأيي، وتم عقد القران من قبل أن نرى بعضنا البعض، وبعد أيام أرسل الأفندي زوجة خاله إليّ كي تصف له عند عودتها أية فتاة طلب، وناولتني صورته هذه.

وأشارت دادة إلى الجدار أمامها:
- تلك كانت الصورة.

وثب الولدان فوراً من مكانهما منطلقين إلى الحائط وراحا يتأملان ويتفحصان الصورة التي كانت معلقة هناك طوال الوقت ولم تسترعا انتباههما إلا اليوم: بابا شاب نحيف يرتدي بنطلوناً أسود باهت أو ظهر هكذا على الصورة، وقد كان طرفاه عند أسفل الساقين ملفوفين بإحكام حولهما على شكل جورب طويل، وعيناه ينبعث عنهما شعاع باهت، لا أبيض ولا أسود، بحيث يمكن الرائي من الحكم على أن لونهما أزرق صاف.

سكتت دادة وهي تبتسم للوجوه الثلاثة قائلة:
- هل أعجبكم القصة؟

أخذ العجوز يصفق بكلتا يديه وهو يهتف بصوته الغليظ ويمسح على أنفه العريض:
- لقد أعجبنتي جداً.

ثم مال إليها وقال بصوت خافت هامس كحفيف الأفعى:
- ولكنني أخشى أن القصة أرعبتهما.

وأشار إلى الولدين، والولدان كانا في تلك الأثناء ملتفين حول أمهما يلتمسان منها إسماعهم حكاية جديدة إذ لم تعجبهم تلك.

أخذ العجوز يضحك ضحكة ارتجت لها المنضدة الخشبية في وسط الغرفة، كاشفًا عن أسنان؛ ويا لها من أسنان، ولو وقعت عينا الطفلين على نابيه الطويلين لما ناما ليلتهما من الفزع، لكن العجوز كان لا يرغب في إيذاء أحد فكان أسرع من أن يلاحظه الطفلين، فأطلق ضحكته الرهيبة بعد أن رفع يديه الغليظتين أمام فمه.

بعدها غادر البيت مودعًا وداعيًا لهم بالخير، وبعدما غادر العجوز رافقت دادة ابنيها إلى الفراش، وقصت عليهما قصة مه روكه وبزنوكه (الخروف والماعز)، ولما أتمت القصة تتأهب فرهاد ورمقها بنظرة غريبة، إذ بدا أنه كان لا يزال تحت تأثير قصتها الأولى فسأل بنبرة جادة كما يفعل الكبار:

- ولو كان بابا قبيحًا ويصلي؟ فماذا كنت ستفعلين؟

أطلقت دادة زفرة حارة وهي تضع يدًا على يد في حضنها، وتأففت ملتاعة لحقيقة أنها أفصحت عن حقيقة يجب إخفائها عن الأطفال، فأسرعت بالتصحيح والترقيع وإلقاء الضوء على الشطر الآخر من القصة:

- أبوك لم يكن معروفًا بإيمانه العميق وعقيدته الراسخة ومواظبته على الصلاة والصوم فحسب، بل كان معروفًا باستقامته وصدقه وأمانته لحسن حظي، عرفت فتيات أجبرن على الزواج من رجال من طينة مختلفة تمامًا، وبعضهن ممن رفضن الزواج استخدم الرجال معهن العنف كوسيلة للتأديب كما يفعل بطلاب المدارس المشاكسين، وبعضهن تزوجن قسرًا من رجال كانوا أكبر عمرًا من آبائهن.

وسكتت دادة ثم تنهدت ووضعت راحتها على رأس عدنان الضيق المفترش في تلك اللحظة فخذها، ثم وهي تمسح برأس أناملها الدقيقة المصبوغة بالحناء على رأسه وجهت كلامها إلى الولد الآخر النبيه الذي هز أعماقها تلك الليلة:

- لا تفكر بهذا الموضوع ابني، فأنت أصغر من أن تفهم هذه المسائل، ولسوف تعلم يومًا ما معنى ذلك كله.

نفذت حزمة قوية وهّاجة من أشعة شمس الظهيرة إلى فضاء الصالة - غرفة الجلوس - وذراتها المتصاعدة ترقص رقصها الصامت داخل حزمة الضوء أمام العيون الستة، كان فرهاد مستلقيًا على الأريكة ذات الغطاء الأحمر، وجدها فارغة فألقى بنفسه عليها محاكاة لأبيه، وشرع يستحضر صورتين استولتا على عقله وخياله؛ صورة الفتاة التي أعجب بها أيما إعجاب، وصورة عصا العجوز التي نهشت رأس الأفعى.

أمّا عدنان فقد كان يحدق في صورة بابا طوال الوقت، وقد عبر أكثر من مرة لأخيه عن شوقه لسماع حكايات دادة حتى ولو لم يكن البطل هو ديو، المارد.. كان يتخيل أحيانًا أن المارد لم يكن إلا أبوه والذي دلف منزل دادة واختطف الطفلة دادة في القرية، أمّا دادة فكانت تقوم بأعمال البيت الروتينية؛ مسح الأثاث وتنظيف ما علق بالأرضية من بقايا طعام الليلة الفائتة، وكان بابا في غرفته للراحة بعد يوم من العمل المتواصل في المدرسة والبيت.

في تلك الأثناء كان هناك قرع على الباب، فهرعت دادة في ملابس العمل إلى الباب الخارجي وعادت بعد دقيقة تركض إلى حيث فرهاد هاتفة تُخفي يديها خلفها:
- فرهاد لك عندي مفاجأة.

انتفض فرهاد للنبا، وكان عدنان متمددًا على ظهره وسط الغرفة طارحًا رجليه على كرسي أمامه مغمض العينين، وكأنه لم يكن مولعًا بالمفاجآت فلم يرفع رأسه ليرى ماذا يجري خلفه، كان ابنها ينظر بعينين تدوران في محجريهما كالطاحونة فأظهرت الشيء الذي كانت تخفيه وراءها، وكانت عبارة عن عصا، مبتسمة جذلة قالت له وهي تمد العصا إليه:

- كان الطارق عم بطرس وقال إنها هدية لفرهاد.

هتف فرهاد بصوت عالي من الفرحة وهو يمسك بالعصا وهو يكاد لا يصدق ما يرى، صيحة فرهاد نبهت عدنان الذي نهض قائمًا على عجل واقترب منه ليشاركه في تأمل العصا الجميلة الجديدة وقلباها بين أيديهما، فوجدا أنه هناك كلمات محفورة على مقبضها وهي: فرهاد، الشجاع، حرير ١٩٦١.. ظلا يتلاعبان بها ودادة تراقب

بمرح ودهشة وهي ترى فرهاد يقلد العجوز في طريقة قتله للأفعى وبصورة متقنة، ولكنها تركت الغرفة فجأة على عجل إلى غرفة الوالدين لتصلي الظهر في وقت متأخر، كادت أن تصطدم بالأفندي لدى الباب وهو يخرج، وتبعها عدنان وعلى إثره فرهاد والعصا بيده، كان عدنان يجد متعة غريبة في مشاهدة دادة تصلي، ومراقبتها بدقة والإنصات إليها وهي تقرأ الفاتحة بصوت مسموع خافت، وكان غالبًا ما يصحح الحرفين: عين (ع) والحاء (ح) لها بعد أن تتم الصلاة، لأن دادة - مثل أية مسلمة لغتها الأم غير اللغة العربية - تجد صعوبة في نطق الحرفين بالصورة المطلوبة.

- قولي الحمد لله لا العمد لله... قولي رب العالمين ولا رب الحالمين دادة.

فكانت دادة ترد عليه بنبرة تحدي:

- ابني، لم يكن أبي عربيًا ولا أُمِّي عربية، عليكم الافتخار بي وأنا أؤدي صلاتي بلغة لا أفهم كلمة واحدة منها.

تقوم وتلف السجادة وملامح وجهها الطويل المنقبض لا تزال تنم عن تحدي وإصرار، وتقول ويديها على خاصرتيها وشفتيها ملتويتان:

- أرني فتاة أو سيدة عربية واحدة تؤدي صلاتها أو تقرأ الفاتحة باللغة الكردية!

فلا يبقى للولدين شيئًا جديدًا للدفاع عن موقفهما فيلتزمان جانب الصمت وهما واجمان.

بعد الصلاة دعاهم الأفندي للتحدث معهم، فعادوا للجلوس في الطارمة (الباحة)، اتخذ الأفندي مجلسه على الكنبه كعادته ومن حوله أسرته الصغيرة وهو يحرك خرزات سبخته الطويلة بين إبهامه وسبابته بصمت، ويحرك فمه بهمس غير مسموع، أجال لحظة بعينه الزرقاوين الصافيين في الوجوه وعلى وجهه علامة قلق خفي ثم وجه كلامه لدادة:

- أخاف اليوم أكثر من أي وقت مضى.

جفلت دادة وتساءلت على الفور:

- وعلام خوفك، أفندي؟

نظرت إلى زوجها مستطلعة، عرف ما أرادت وقال ردًا:

- ما أخاف منه لا صلة له بالدوبيات المقرزة تلك، لكن...

سكت وهو يستجمع أفكاره.. كانت دادة قد لاحظت أن الأفندي قبل أن تنتابه نوبة حمى الملاريا الحادة الأخيرة؛ كان يغرق في التفكير لآماد طويلة، وعلى وجهه توتر وقلق طوال الوقت.

أطلق الأفندي زفرة قصيرة وهو يمسح بضعة قطرات من العرق من على جبينه ثم قال بصوت مفعم بالهم:

- إن مصدر قلقي اليوم هو السياسة.. هناك معلمان في المدرسة أحدهما شيوعي يؤيد الزعيم في كل شيء حتى في سياسته القمعية تجاه الكرد، والآخر كذلك شيوعي ولكنه على العكس من الأول يعارض هذه السياسة..

توقف الأفندي لحظة ثم استطرد قائلاً مخاطباً دادة:

- ونحن وكل الأكراد الخيرين نقف ضد هذه السياسة، شيء بديهي، ولكن المشكلة أنهما أصبحا يخلقان في الآونة الأخيرة مشكلة كبيرة للمدرسة بسبب مناقشاتهما الحادة التي تصل أحياناً إلى حد استعمال الكلام غير اللائق بالمدرسة والتربية، والأنكى أن الأول يستغل غيابي عند مرضي فيقوم بتحريك بعض الطلاب بإطلاق شعارات معادية للاستعمار والإمبريالية الأمريكية، علماً بأن هؤلاء المحرضين ليس لهم علم البتة بمعنى الكلمتين: أي الاستعمار والإمبريالية، فعلى سبيل المثال...

التفت الأفندي إلى جهة فرهاد الذي كان يلوح بالعصا بالتناوب مع أخيه وسأله:

- اسمعت بكلمة الاستعمار أو الإمبريالية، وهل تعرف ماذا تعنيان؟

تفاجأ الولد للسؤال وكانت مفاجأة أبيه أكبر، إذ كان رده سريعاً عفويّاً ولا يخلو من صواب في نظر أبيه:

- نعم سمعت ذلك من ماموستا مرتين ولا أعرف ما معناهما، ولكن يبدو لي أنهما كلمتان قذرتان؛ لأنني أرى أنه كلما نطق بهما يرتفع أنفه إلى أعلى ويلوي فمه إلى جانب ويقول ففففف، تماماً كما أفعل أنا عندما أدخل في غرفة المرافق الصحية في المدرسة.

صفق الوالدان للجواب إعجاباً، ولكن سرعان ما عاد الأفندي إلى قلقه السابق وأردف قائلاً:

- هذه الفعاليات السياسية في مدرسة ابتدائية ممنوعة، الدرس شيء، العلم شيء، والسياسة شيء آخر.

صمت لحظة طويلة وهو يُلقي نظرة خاطفة تفحصية على دادة التي تورد خذاها وصارا مثل وردة الأشرفي المزروعة في الحديقة، علت شفثيه ابتسامة كالحة وقال في سخط:

- والشيء الذي يزيد همي هو عودة نوبة الملاريا في هذا الوقت الحرج بالذات. استقام في مجلسه وأخذ يتنفس من فيه بصوت، وفجأة وكأنه تذكر شيئاً قد خطط له مسبقاً فقال مشيراً إلى دادة:

- اذهبي عني مع فرهاد وقولي للعم بطرس أن يبلغ معاوني بزيارتي وفي الحال لأوكله وأكلفه مهمة حفظ الأمن ومنع حدوث أي قلاقل، وبذلك أصبح متحرراً من المسؤولية إذا حصل شيء مغل بالنظام، لا سمح الله، داخل المدرسة. ذهبت دادة وحدها في طلب العم بطرس، ولم تأخذ فرهاد معها ترفقاً به، لأنها وجدت عند مدرج الباب بنيامين وكاترين يقفان بكل وجل وأدب واحترام وصمت في انتظار خروج فرهاد وعدنان.

سار الصبية بسرعة شديدة باتجاه غابة أشجار النبق، وقد حمل فرهاد عصاه بيده، وعدنان قارورة نفط لكنه لم يخبر أحداً من رفقاءه عن محتواها، كانت كلمات أمه لا تزال ترن في أذنه وهو يمشي متأخراً بمتراً واحداً عن الجماعة:

- هناك نوعان من العقارب؛ أسود وأصفر، العقارب السوداء توجد في البراري وهي الأخطر.

كانت المساحة التي تشغلها أشجار النبق واسعة عرضاً وطولاً، تمتد على طول التلال والكثبان الممتدة على طول ومحاذاة سفح الجبل الأسود، والمنطقة كانت في مجملها أكثر ارتفاعاً قليلاً عن الأراضي المجاورة، وبخاصة البقعة التي قامت فيها المدرسة ودار المدير، والأرض كانت مستوية تكاد تخلو من التعاريج، ما عدا شقوق وأخاديد منتشرة هنا وهناك، أما أشجار النبق فهي متوسطة الارتفاع لكنها كثيفة ممثلة ومتشابكة الأغصان والأوراق، ومتداخلة أي متقاربة جداً من بعضها.

أما ثمر النبق فهو بيضاوي الشكل، تتراص حباته على شكل عناقيد، وهي بحجم حبة الحمص أو أكبر منها قليلاً، لينة الملمس وحامضي المذاق قبل النضج، أي إبان الربيع، وتتخذ الثمرة الشكل الكروي النهائي لها في الصيف، وحينها تصير الثمرة صلبة وأكثر حلاوة، والثمرة في كل مراحلها لها لذة خاصة بها، ولذلك فهي تؤكل على مدار السنة، حتى في الشتاء؛ لأن معظم الأهالي يقومون بجمع النبق اليابس في الصيف للاستهلاك في غير مواسمه، والنبق كان يستعمل من قبل بعض الأهالي لمنفعة دوائية أحياناً، فاستعمل لمكافحة الإمساك وتخفيف الآلام الناجمة عن مغص الأمعاء والكلية، وكذلك ثبت أنه كان فعالاً لتخفيف حدة السعال بعد نفعه في الماء المغلي وإخراجه بعد نصف ساعة وعصره وشرب السائل بعد إخراج القشور والنوى الصلبة من العصارة السائلة.

بلغ الأطفال بأحذيتهم العالية القوية وملابس اللعب أول شجرة نبق بعد مسيرة قرابة عشرين ساعة من بيت الأفندي، ولكنهم لم يتوقفوا عند هذا الحد، بل توغلوا إلى الأعماق، وفي نقطة المركز للغابة توقفوا عند شجرة عدوها كبراهما، أطولها

وأعرضها جذعاً، هناك سأل فرهاد كاترين وقد مدّ الجميع الأعناق ورفعوا الرؤوس إلى الأعلى:

- هل تتجراين على تسلق هذه الشجرة؟

وقبل أن يتلقى الجواب على سؤاله ألقى بالعصا على الأرض تحت قدميه، وقفز إلى الأعلى بقوة، وتمّ له النجاح بعد المحاولة الثانية لإمساك الغصن الذي عدّ الأضخم والأقرب إلى يديه، وأخذ يتدلى منها لدقائق معدودة، ثم سحب جسده إلى الأعلى بكل قوة ليجلس على الغصن، تاركاً لرجليه حرية التأرجح للأمام والخلف، ومن أسفل حاولت كاترين فعل نفس الشيء، وبدا الأمر عليها يسيراً لأن يد فرهاد الممدودة كانت خير سند لها، نظرا إلى الأسفل فلم يريا لصديقيهما أثراً، رفعاً أعينهما إلى البعيد فترأى لهما عدنان وبنيامين وهما يقفان جنباً إلى جنب على بقعة شبه خالية من الشجر عارية تقريباً من الحشائش، كان عدنان ينظر إلى الأرض وكأنه يبحث عن شيء وقع منه، وبدا وبنيامين وكأنه يحاكيه في ذلك رغم كونه أكبر عمراً منه بسنتين تقريباً.

تسلق فرهاد إلى الغصن التالي فوقهما تتبعه الفتاة، وهناك صارت عناقيد النبق في متناول أيديهما، ناعمة طرية، وطفقا يجنيان ثم يلقيان الحبات البيضاوية الصغيرة الناعمة، الحبة تلو الأخرى في فيهما، ثم يطرحان النوى خارجاً كالرذاذ، حتى إذا أتيا على ما جاد به الغصن القريب تحولا إلى البعيد، ليجردوه مما تدلت منه من الثمر، وهكذا دواليك.

كانت كاترين تلبس فستاناً أحمر اللون، قطعة واحدة تمتد حتى ركبتيهما، كان الثوب ضيقاً من أعلى ومفتوحاً من الأسفل، وعند مهب كل نسمة هواء كانت الفتحة تتوسع وتنفتح كالمظلة، وكانت كتفيها الناصعتي البياض لافتتين للأنظار، وكانت مرتدية فوق الفستان بلوزة صوفية خفيفة كحلية اللون، ألفته على الأرض قبل تسلق الشجرة، أما حول عنقها فقد وضعت شالاً أخضر فاتح مرصع برسوم أزهار متعددة الألوان.

ألقت كاترين حفنة من النبق في فيها الصغير، وبدأت بمضغها بنهم وهي تقول لفرهاد الذي كان بدوره يلوك بفيه لوفاً عجبياً:

- لذيذ، وحامض حلو.

لم يعلق فرهاد فقد لفت انتباهه في تلك اللحظة منظر أخيه الذي كان في تلك اللحظة يقوم على البعد بحركات غريبة في أرض جرداء محصورة بين الأشجار والتلال المتاخمة، فوكز صاحبته التي وجهت بصرها صوب المكان، رأياه منحنيًا على ركبته اليمنى التي غرزها في الأرض ماسكًا بيد كيسًا من البلاستيك يلمع، وباليدي الأخرى عودة، وهو يتفحص الأرض بدقة وعناية ويجيل ببصره بسرعة إلى ما حوله، سأل فرهاد كاترين من على غصن متين وهو يحرك برجليه يمنة ويسرة كرقاص الساعة:

- ترى ماذا عساه يفعل بالكيس والعودة (قضيب من خشب)؟

لم تنتبه الصبية لتساؤل صاحبها الصبي، فقد كانت في تلك اللحظة تنظر إلى أسفل، حيث الهواء بدأ يتحرك ويدفع أهداب فستانها الواسع المنفوش والتي سميت: كلوشة إلى أعلى، أمسكت بحاشية الفستان برؤوس أناملها الدقيقة ثم عادت تنظر أمامها حيث الظلال وأشعة الشمس التي تراقصت أمامهما بأشكال مختلفة كلما هبت نسمة هواء أو هبة ريح، أمال فرهاد بوجهه إليها فرأى علامة استفهام على عينيها الواسعتين فاستطلع يسألها:

- ماذا بك كاتي؟

وردها جاء على هيئة سؤال:

- وماذا لو خرجت إلينا حية الآن؟ هذا ما يقلقني.

- ساقتلها بهذه.

هتف فرهاد وهو يشير إلى العصا الرائدة بجوار بلوزة الفتاة على الأرض.

- بل سنتعاون في قتلها معًا.

قالت كاترين محمقة بعيونها السود الخمرية في عيني الولد العسلتين الشهلادين وكأنها تتحداه.

اندesh فرهاد لسرعة الفتاة في الجواب ولشجاعتها، وأحس من جراء ذلك بقليل من خيبة الرجاء، ألقى بحفنة أخرى من النبق في فيه، التقت إليها فالتقت عيناها من جديد والريح تعبت بشعره الأسود الكثيف وتنفذ طرفي سترته المفتوحة الرمانية إلى الوراء، سألها للتأكيد:

- أحمًا؟ هل تجدين في نفسك الجرأة؟

- نعم.. وبالتأكيد.

أومات وقد زادت شفتاها اكتنازاً وحمرة.

شعر فرهاد بهزة خفيفة تعتريه لم يعرف كنهها ولا مصدرها أو مبعثها، وكأنها أحست به فأثرت السكون، تورد الوجهان للحظة لأن زمن التقاء العينين كان محض ومضة.. عدلت وسوت فستانها ثم أخذت ترنو بحدة إلى حيث وقف الولدان الآخران، عدنان وبنيامين، وهما لا يزالان يتفحصان الأرض تفحصاً ثم استطردت تحكي قصتها:

- أنا أعيش مع زرداك (زوجة الأب)، والدتي ماتت من مرض عضال وبعدها والدي بعام في حادث سيارة، ومنذ وفاته وقعت في عناية زوجة أبي، لقد كانت قاسية جداً في البداية وكانت تضربني بلا سبب ولكنها الآن أصبحت عجوزة وطيبة. سكنت كاترين قليلاً انتزعت خلالها عنقود آخر من النبق كان متدلي وراء رقبتها طوال الوقت دون أن تنتبه إليه، ثم واصلت حديثها:

- هي وأنا قتلنا أفاعي كثيرة عند ماء النهر والنبع، كنت أخاف أول الأمر، ولكن خوفي خفّ في المرة الثانية، ولكن الخوف لم يزل زوالاً نهائياً.. اعتدت على رؤيتها ولكنني مع ذلك أخاف منها، أتقرز منها، إنها مخيفة.

تنفس الولد الصعداء وقال والنوى البيضاء الصغيرة تتدفق كرهاذ نافورة الماء من فمه الصغير:

- وهي أعداؤنا يجب قتلها.

هزت كاترين رأسها هزاً خفيفاً مصدقة ثم قالت وقد وقعت حزمة من شمس العصر على وجهها الأبيض الممتلئ:

- أُمي تقول إن قتلها إثم إذا مرت في سبيلها بسلام دون السعي لإيذاء الغير، القتل جائز فقط في موقف الدفاع عن النفس.

في تلك الأثناء لاح لهما الصديقان الآخران وهما يتقدمان ناحيتهما ببطء، لم ينتهما ذلك عن تحقيق مأربهما فشرعا ينزعان العناقيد الصغيرة من أغصانها الفجة ليملئاً بها وبسرعة فائقة جيوب بنطالهما وليلقيا البعض منها على الأرض، ليقفزا بعدها إلى الأرض استعداداً لملاقاتهما.

وصل عدنان يتبعه بنيامين راكضين لاهشين مختلفين في الرأي:

بنيامين:

- أنا الأول.

عدنان:

- لا، أنا الأول.

وتدخل فرهاد لحسم الموقف:

- التعادل إذن فقد وصلتما معاً بنفس الوقت.

ثم نقل عينيه بين الجمع وقال مخاطباً إياهم كما يفعل السيد المسود:

- اسمعوا، الآن تبدأ مسابقة أخرى، نركض معاً جميعاً إلى حد باوانا (مرعى)

المطران، هيا.

- هيا....

انطلقت السيقان قبل الأفواه بسرعة البرق، يتقدمهم بنيامين ووراءه عدنان بنصف خطوة، ولكن ثمة منظر ما أوقفهم جميعاً، فعند المثلث القائم بين رأس الطريق الترابي المنحدر وحافة المرعى ومفرق الطرق الثلاثة؛ ترائى مظهر غريب لم يألفه الأخوان، أوقفهم المنظر واعترض طريقهم كما يفعل الحجر المتدحرج من الجبل.

رجل كهل يتوسط رجلين أصغر سناً منه، للرجل المسن لحية طويلة بيضاء كثة تتدلى فوق صدره، وعلى أنفه تركب نظارة بيضاء ذات أطر حلبيبة اللون، يرفل في رداء أبيض يقق، يضع طاقية ضخمة بيضاء على رأسه الأبيض، يستند في مشيته المتباطئة على عكاز أبيض اللون، يرتدي حذاء أبيض طويل يمتد إلى منتصف ساقه، فبدا بمجمله أشبه بكتلة ثلج تدحرجت من الجبل بسرعة فائقة، ولدى بلوغها الأرض المستوية خفت من سرعتها وصارت تدب دبيباً إلى الأمام.

بهر الصبيان للمشهد وأطالوا النظر إليه وهم وقوفاً على حافة مفرق الطرق الثلاثة، ومن هناك غمرت كاترين بمرفقها برفق ساعد فرهاد وهمست في أذنه:

- إنه المطران عمانوئيل.

وتساءل فرهاد مقطباً:

- وما المطران؟

أجابت كاترين وأفاضت وهي تلحظ بطرف عينها بنيامين وعدنان ينطلقان بالركض باتجاه الشارع:

- إنه إنسان مهم جدًا في الكنيسة وعند الناس، وهو يحب الأطفال ويبتسم في وجوههم ويكلمهم، وقد تحدثت معي يومًا بالقرب من بيتنا عندما وقعت الكرة على رأسه وهو يمرّ على الطريق أمامنا، فابتسم لي ولم يغضب وأمسك بيد أمي حين أرادت ضربني، وترجّى منها أن تكفّ عن الصراخ في وجهي.

أنصت فرهاد إلى حكاية كاترين بشغف بالغ وهو يطالع بعينه الموكب الثلاثي يمر أمامهما إلى أن انعطف إلى جهة اليسار، وحين أعاد نظره إلى حيث كانا يقفان التفت حوله فإذا به لا يرى أثرًا لا لأخيه ولا لبنيامين.

- ها هما.

هتفت الفتاة وهي تنظر وتشير إلى بعيد، كانا قابعين أمام الباب مسندين ظهريهما إليه مادين رجليهما إلى الأمام، وكانا يلهثان.. قالت كاترين بعدما أدارت وجهها إلى زميلها الملازم لها:

- أمي تقول إنه غني جدًا ويملك تراكتورين وحاصدتين وأملاك كثيرة أخرى...

أثار هذا فضول فرهاد فأخذ يتساءل:

- وهل يساعد الفقراء بماله؟

أخرجت كاترين حفنة صغيرة من النبق وألقته بسرعة في فيها ثم قالت:

- أمي تقول إن الفقراء كثيرون، وكثير منهم يقفون ببابه يوميًا وخاصة عند موسم الحصاد.. أمّا هو، تقول أمي، فيقوم بمساعدة البعض منهم فقط ويرد على توسّلات الطرف الآخر بهكذا طريقة: كان المحصول هذه السنة رديئًا فتعالوا السنة المقبلة لعل الله يجعل الموسم القادم أفضل وأكثر إنتاجًا.

قال فرهاد وهو ينتزع حشرة طائفة وقعت على أمّ رأسه البيضاوي الطويل:

- ولكن والدي يقول إن رجل الدين الصالح الحقيقي يجب أن يعطي نصف كسوته من الخبز إلى الجائع والفقير.

- أي نعم.

لم يأتِ هذا التأكيد من أحد من المتحدثين وإنما جاء من الجانب الآخر، من عدنان بالتحديد الذي عاد لينصت إليهما بفضول، كان يقف وبينما زجاجة النفط التي فرغ منها النصف، ويقذف باليد اليسرى حفنة من النبق في فيه وقد تلتخ سرواله المقلم ببقع نفط سوداء، أمّا بنيامين فقد كان ينظر ويسمع ويضحك كعادته وقلما يشارك في إبداء رأيه، فقد كان اعتاد أن يضيف صوته إلى الصوت الغالب في أية مناقشة.

التقت كاترين بخفة لتقع عيناها على عدنان تتفحصانه وهي تحاول أن تغالب روعها بعدما جفلت لحضوره المفاجئ، وقالت مخاطبة الجمع:

- لا.. لا، إن المطران هذا يحتفظ بالخبز كله لنفسه، هذا ما يقوله جيراننا، وما يهبه للفقير ما هو إلا فضلة، وبدلاً من أن يرميها في صفيحة القمامة يلقيها على أول محتاج يصل داره.

وبينما كان الثلث الأخير من قرص الشمس الأحمر يرسل خطوطاً طويلة من أشعة حمراء أشبه بحراب منصوبة إلى الأعلى مؤذنة بالفراق والوداع إلى يوم التلاق، كانت الأرجل الثمانية المنهكة تخطو بخطى واسعة إلى حيث الباب الصغير ذي الأسلاك المشبكة لدار الأفندي، الوجوه تنتظر إلى الأمام، والأصوات عالية والهوامت مرفوعة، والصخب يملأ الفضاء، وصوت عدنان كان الأعلى وصوت كاترين كان الأكثر حدة.

أما فرهاد فكان يسير دونهم وببطء وصمت مطبق، يبدو أنه لم يزل تحت تأثير مشهد المطران الأبيض، وغشى دخیلته إحساس برهبة وخوف مبهم.

في ظهيرة يوم ما خرج عدنان الذي بلغ من العمر تسع سنوات وحده إلى حدائق النبق ومعه كيس والمواد التي يحتاجها، وكان قد قتل خلال فترة قصيرة من الزمن عشرة عقارب في البيت، فاكسب الخبرة بالمران في قتلها، وقد استعمل النفط الأبيض في إبادة العقارب، ثم ابتكر طريقة أخرى لم يشأ أن يطلع أحد عليها، وبعد فترة استطاع إيجاد مادة أخرى فعالة لم يخبر بها أحد أيضاً.

وها هو اليوم يقوم بتطبيق الفكرة عملياً وميدانياً، أخذ يتوغل إلى أعماق غابة النبق وهو يشق طريقه بصعوبة خلال الأغصان المتشابكة والأشواك والنباتات البرية الخشنة المتشابكة ذات الرؤوس الدبوسية، بلا خوف ولا وجل أو وساوس من وجود أفاعي كامنة مختبئة تحت الأعشاب، أو بين طيات الصخور النائية المنتشرة في كل مكان، ومضى في سبيله لا يلوي على شيء حتى أتى سفوح التلال المنخفضة المناخمة للجبل العملاق.

كان يبدو على ملامح وجهه الإصرار والتحدي، وأكثر من مرة ردد مع نفسه أنه يجد لذة في قتلها، في قتل عدو كدر صفو حياة أمه، والتي أصيبت بخيبة أمل شديدة من جرائها في البيت الجديد، مراراً سمعها تصعد الزفرات الحارة إلى السماء، وقد سمعها يوماً تقول لوالده أن يفكر جدياً في إيجاد بيت آخر للسكن فيه، لأنها تخاف على أولادها هنا.

بدأ عدنان مهمته بالبحث عن الثغور والثقوب في الأرض ثم صب النفط فيها، وقد أمسك بيده اليسرى عودة (قضيبي) من خشب قصير، حادة في نهايتها مدببة، لسحق الدويبة السوداء متى ما خرجت، ولم يفلح في إخراج واحدة في المحاولات الأولى، وبدلاً من العقارب خرجت منها حشرات أخرى مثل النمل والخنافس ودويبات أخرى لم يعرف لها مسمى.

وفي إحداها خرجت فأرة، مما دعا بعدنان الوثوب إلى الوراء بكل ما أوتي من قوة وهو جالس القرفصاء ليقع بعنف على مؤخرته، وبعد تكرار المحاولات خرج من إحدى الثقوب الغريبة الشكل عقرب أسود صغير، فسحقه بغرز النهاية الحادة للعود بقوة في نقطة التقاء ذيله بجذعه، حتى تقطع الذيل وانفصل من الجذع، ووقع على

الأرض، فلما تمّ له ذلك تفرغ للكلابتين الأماميتين فقطعهما من الأساس، وفعل نفس الشيء مع الثقوب التي كانت بنفس الشكل، وتمّ له بنجاح ساحق سحق ثلاثة عقارب أخرى وكلها كانت سوداء بلون النبيذ الذي رأى العم بطرس يوماً يحتسيها بنهم تحت إحدى الأشجار.

إذن دادة كانت على حق؛ قال في نفسه.. إنها في مجملها سوداء اللون هنا، واستطاع خلال مدة قصيرة أن يميز الفتحات الخاصة بالعقارب عن باقي أنواع وأشكال الثقوب والجحور والثغور والفتحات والشقوق المنتشرة هنا وهناك، وقارنها بالأخريات فلاحظ الفرق بدقة، فسجل كل ذلك في ذاكرته، وضع أشلاء العقارب الأربعة في جيب سرواله ثم عاد قافلاً إلى البيت في وقت متأخر من العصر، وكم كانت دهشة وهلع دادة كبيرة حين وقع بصرها واستمعت إلى قصة ابنها الطفل، ضمته بحرارة وشوق إليها وقالت له بلهجة مشوبة بالفخر والعتب:

- يا بطل... كيف تم لك ذلك؟ وكيف تجاسرت وخرجت وحدك! لا يجوز أن تفعل ذلك بمفردك، أنا أخاف عليك..

فردّ عدنان وهو يسحب نفسه ببطء من بين ذراعي أمه غير مبالي أو مكترث لتحذيراتها:

- أصبحت لي الآن مقدرة على إخراج العقارب من جحورها تحت الأرض وبت أعرف أي الثقوب مفضلة لديها للسكن.. فأشكالها مختلفة.

- كيف؟ ماذا تقصد بـ (مختلفة)؟

تساءلت دادة وهي تتراجع إلى الوراء وقد زاد هلعها لطفلها وهو يتكلم بلهجة خبير واثق من نفسه.

- إنه سر.. لن أقوله لأحد.

حينها شهقت دادة بالضحك أولاً، ثم أعقبتها ببكاء صامت..

في نفس الوقت الذي كان عدنان في مهمته السرية العلنية في منطقة النبق كان فرهاد عند العم بطرس في الحقل وبيده العصا وقد شكره قلبياً على الهدية الثمينة، فمنذ اليوم الذي قتل العجوز الأفعى في الحديقة استقرت في ذهن فرهاد فكرة، خاطرة، حلم لذيذ: هل تحل اللحظة التي سيشترك فيها الشيخ المسن هذه المرة في قتل حية تخرج لهما، وفي الوقت الذي كان العجوز يتصبب عرقاً في الحرث

والزرع والتعديل والتنظيف كان فرهاد يقف في الطرف الآخر من حقل شجيرات عباد الشمس يحاول محاكاته في كيفية قتله للأفعى؛ غرز طرف العصا ذي الفلقتين بكل ما أوتي من قوة وبأس في الأرض، ثم أدار العصا بكل قوة إلى جهة اليمين ضاغطاً عليها بكل ثقله، وكرر ذلك مرتين أخريين، ثم أدارها في المرة الأخيرة نحو اليسار بقوة أكبر، وحينها فقدت الحية القدرة على الحركة.

رفع فرهاد رأس العصا بكل رفق ثم هوى بها على رأس الحية وكرر ذلك على غرار ما فعل العجوز، وبعد أن أصبحت الحشرة جثة هامدة غرز بكعب قدمه في رأسها، ثم دار عليها عدة دورات سحاً ودهساً حتى سواها مع الأرض، وأخيراً انحنى عليها والتقطها من ذيلها والفرع لم يفارق محياه، ومن مكانه رفعها وهتف بالعجوز الذي كان في تلك الأثناء جالساً مسنداً ظهره إلى شجيرة رمان منخفضة في ركن من الحقل منهمكاً منكباً على لف سيجارة، التفت العجوز جافلاً إلى مصدر الصوت، فلم يصدق ما رأى وهو يقوم من مكانه على عجل متمسك فاعر الفاه، انعقد لسانه ولكن تعابير وجهه العريض وشى بحروفه وكلماته:

- أنت أصغر من هذا يا ولد!!

* * *

وفي الليل تركت دادة الأفندي في غرفة الجلوس وحده ومشت مع ابنيها إلى غرفة نومهما الملاصقة، وبعد أن اتخذت التدابير الروتينية للوقاية والاحتماء من العقارب؛ جلست على كرسي خشبي بين سريريها في منتصف الغرفة كعادتها، وسردت عليهما باختصار قصة/ ملحمة انتصار كاوه الحداد على مصاص الدماء الطاغية الضحاك:

"يُحكى أنه كان في قديم الزمان ملك طاغية اسمه "الضحاك"، حكم إمبراطورية مترامية الأطراف في بلاد ما بين النهرين وكردستان وإيران، تسلط هذا الملك على شعب آمن سكن المنطقة اسمه الكرد، أصيب الملك العجوز بداء نصحه الطبيب بالدواء، وكان دواءه أكل دماغ شابين من الكرد كل يوم، وكان جلاده يأخذ شابين، فيذبجهما ليقدم أدمغتهما دواء وشفاء للطاغية الظالم، وخلال أعوام طويلة فقد الكثير من الرجال أطفالهم، وكان رجل كردي يعمل حداد اسمه "كاوه" له سبعة أطفال، وفقد ستة من أطفاله، وجاء دور السابع، فأخذ الجنود لذبحه، فلم يكن من الأب

الحداد إلا أن أخذ مطرقة الحديدية الثقيلة، وتوجه إلى قصر الطاغية الضحاك وهوى على رأسه بمطرقة وأرداه قتيلاً، حدث ذلك في عام ٦١٢ قبل الميلاد، وهي المناسبة الوطنية عند الكرد والفرس بالاحتفال بعيد يُسمى "عيد نوروز" الذي يصادف ٢١ آذار من كل عام، حيث تُشعل النيران على قمم الجبال احتفالاً بالنصر كما نفعل نحن اليوم في آذار من كل عام".

- يا لها من قصة ممتعة دادة!

صاح الولدان بفرح غامر وطلب عدنان منها أن تقص عليهما أخرى، أمّا فرهاد فقد غلبه النعاس بسرعة تلك الليلة..

- ما بالك؟ أراك متعباً غير متحمس هذه الليلة لسماع المزيد مني، ما بك؟

خاطبت دادة جميلة فرهاد وهي تضع يدها على رأسه الأملس، أراد أن يخبرها بقصته، وأنه سحق رأس ضحاك من نوع آخر بالعصا هذا اليوم، لكنه غيّر رأيه كونه عالمًا إن عرفت أمه بالأمر فإنها لن تغمض لها عين لليلي طويلة.

بعدما أدركهما النوم العميق، تسللت دادة جميلة بكل هدوء إلى خارج الغرفة، وفي طريقها وعند نقطة التقاء الخشبة التحتية للباب بالأرض شاهدت الشيء الأصفر المقيت، كما شاءت تسميتها، تدبّ ببطء متناه داخل شقوق الخشبة، فسحقها بحذاءها برشاقة وحماسة ومقت، ولدى الأفندي شكت حالها من جديد: إلى متى؟ هل من حل أو خلاص؟!

انقضى عامان وقد اتخذت المدرسة خلال هذه الفترة إجراءات عملية لإبادة العقارب، حيث زادت شكاوى ومخاوف الأطفال وأولياء أمورهم، وكان الأفندي بحرصه البالغ في طليعة الذين سعوا في وضع حد لانتشار هذه الدويبات المخيفة في المدرسة، وفي الواقع لم يكن حرصه على مكافحة العقارب أقل درجة وحدة من حرصه على مكافحة السياسة ومنعها من الدخول إلى حرم مدرسته.

كانت قد جرت مناوشات ومناقشات وخصام شديد بين جدران غرفة المعلمين زمن مقتل الزعيم الأوحى عبد الكريم قاسم في شباط نفس العام، أي ١٩٦٣، وسمع الأفندي يوماً من وراء الحائط في الردهة المعلم فيصل يشن حرباً كلامية شعواء ضد المعلم مربيين الذي كان يسخر من الزعيم بعد سقوطه بقوله: ماكو زعيم إلا كريم، فردّ عليه ماموستا فيصل هكذا:

- هذا هو دأبكم وديدنكم أيها اللينينيون، يبدو أنك أنت كذلك قد بدلت موديل سيارتك يا مربيين، شأنك شأن أصحابك وأقرانك الانتهازيين..

وحينما علا صياح المعلم مربيين الذي قد بلغ الغضب به مبلغاً وجد أنه لا مناص من التدخل، فدخل وبعنف وهدد المعلمين أن هذا آخر إنذار لهما، وإن لم يُجدي هذا معهم فسوف يقوم بنقلهما إلى قرية نائية، ومنذ تلك اللحظة هدأت العاصفة السياسية في المدرسة ليتفرغ بعدها الجميع للعدو الآخر الذي بات يقض مضاجع الجميع على السواء.

كان شتاء قارصاً تلك السنة حيث اكتسى الجبل الأسود بثوب أبيض من قمته إلى أخصم قدميه حيث تمتدّ التلال المتعاقبة، مشهد البياض العام الذي غطى كل مكان ذكر فرهاد الذي كان يحسن الربط والتشبيه بين الأشياء والظواهر مباشرة بمشهد المطران الأبيض، وبدأت أشجار النبق للناظر من المدرسة ومن بيت الأفندي في بزتها ولونها ومظهرها الجديد كأنها رؤوس عجائز دب فيهن الشيب مبكراً.

وكان على دادة أن تستعين بالأفندي وولديها من أجل إخراج قطع الحطب للمدفأة والتي رصفت فوق بعضها في الباحة الخلفية، الباحة التي كانت طيلة فصل الربيع

والصيف مرتعاً لشرب الشاي، منقار القبج، المعد بعناية بيد دادة، وكانت المدافئ تُرسل سحباً من الدخان الأسود فوق سطوح المنازل، وبالرغم من كون الشتاء عادة هو فصل غير محبّب لدى أهل القرى إلا أن أهل هذه الناحية (القصة) أحبه وتغنوا طول عمره، وذلك لأن الحشرات المقيمة كانت تقل وأحياناً إلى حد الاختفاء في ذلك الفصل، لتعود وتنتعش وتتكاثر في الربيع والصيف خاصة، وأحب فرهاد وعدنان هذا الشتاء وعدّوه شتاءً متميزاً، وذلك لأن دادة قد سردت عليهم حكايات وقصص جديدة مشوقة جداً لم يسمعوها من قبل.

وحينما انقضى الشتاء كان لعائلة الأفندي والأهلين موعد آخر جديد مع قدوم فصل الربيع الجميل، بدأت الثلوج تذوب تحت وطأة الشمس الدافئة والرياح العاصفة والكاشطة والنسمات الكاسحة ذات الأريج والنفحات الساحرة، وأبدت الأشجار زيتها وأخرجت حلّتها الجديدة ونفخت الروح في براعمها وأغصانها الفجة، واحتضن الجبل الأسود التلال وأشجار النبق الخضراء بعدما هدّ وألقى بكسوته البيضاء اللماعة، ليعود ويتخذ الأخضر لنفسه بديلاً ككساء، أما القمة حيث لا طير يصل ولا كائن حيّ يمر فقد احتفظت ببياضها الثلجي وبدأت بشكلها المستدير المكور للناظر من بعيد وفي باحة الأفندي خاصة وكأنها عمامة شيخ لقت حول رأس أشيب، وتحتها جسد الشيخ وهو متلقّع بجبة خضراء كعادة السادة والأولياء.

وكل حدث اندست إشاعات ومبالغات كثيرة في القصص التي كانت تُروى حول العقارب والحيات، والتي كانت تنزاح من الجبل والتلال أيام الدفء والحر؛ إلى حيث الماء والسواقي ومياه المجاري في الأحياء السكنية وأمام البيوت طالبة البرد والماء والطعام، وقد شوهه بالفعل أفعى بالقرب من البئر الأرتوازي في الطرف الشمالي من البلدة حيث كان الأهالي يجلبون منها الماء للشرب والطبخ والاستحمام.

في ظهيرة يوم من أيام شهر مايس نزلت دادة للحقل لتشاهد بعينيها ما زرع لها العم بطرس من خضر لذلك الموسم، ونزل معها عدنان، أما الأفندي فقد فضل البقاء في الطارمة مستلقياً على ظهره على الأريكة، متأملاً جمال الطبيعة والنبق ومستنشقاً النسمة الساحرة والدخان المتسرب من سيجارته وتبغّه البوندار.

أما فرهاد فقد تأخر قليلاً عن اللحاق بالركب، فقد كان إزاء مشكلة صغيرة، فبعد عودته من المدرسة وقد وصل هذه السنة إلى الصف الأخير في دراسته الابتدائية لم

يعثر على مفتاح حقيبتة، فبحث عنه في كل مكان ابتداءً بجيوبه وانتهاءً بجيوب أخيه، وجده أخيراً في جيب أخيه، وأدرك حينها أنه هو الذي سلم أخاه المفتاح في الفرصة/ الفسحة قبل مادة الرياضة والفقر خشية الضياع، ولشد دهشته أنه وجد في جيب أخيه بجانب المفتاح حفنة من تبغ والده المتميز في اللون والرائحة، وبعض وريقات من أوراق السجائر الشفافة الرقيقة جداً والتي كانت تسمى بالـ (بافرا)، ولم يجد تفسيراً لوجود هذه الأشياء الغريبة في جيب أخيه والتي لم تكن له صلة بها من قريب أو بعيد، "ربما حدث ذلك عن طريق الخطأ"؛ تمتم أخيراً.

بعدما أفرغ فرهاد حقيبتة من محتواها انطلق يعدو كالغزال، ومن الباب الخلفي لا الأمامي ليتجنب عيون والده الزرقاوين السماويتين الحادثتين وتكشيرته المتميزة، ولم يكن بعد قد بلغ الخط الأول من شجيرات الباذنجان القصيرة البدينة حتى لاح له غطاء رأس دادة الأبيض الرقيق، ورأس عدنان الضيق الصغير وبريق شعره الأبعد في الشمس، ومن بعيد لاح له قبعة العجوز المتهرئة منحنيًا كعادته، إذ قلما رآه أحد بكامل استقامته حتى ولو لم يكن يعمل، ولم يكد يفتح فمه بالتحية حتى ارتفع صياح امرأة تعدو على الشارع باتجاههم من بعيد، فاستدارات الأعناق والوجوه إليها جميعاً، كانت تركض وتصرخ في اتجاههم وتنادي العم بطرس، اندفع فرهاد وعدنان إليها فالتقيا بها على حافة الحقل، فقالت وهي تلهث وترتجف خوفاً:

- أين عم بطرس؟ النجدة.. أعتقد أن هناك حية داخل وكر الدجاج.. فزع الأولاد لا يوصف وهم في طريقهم إلى هنا.

كان العم بطرس سعيداً لزيارة الهانم زوجة المدير للحقل وينتهي لاستقبالها استقبالاً حافلاً، ولكن صراخ المرأة واستغاثتها أفسدا عليه هذه المناسبة، فهب لنجدة السيّدة، ترك المحراث وألقى بـ (بستك)، درّاعة من اللباد، على التراب المحروث الرطب والتقط عصاه من الأرض واستأذن من دادة ثم انطلق مع السيدة والتي بدت في هيئتها وملبسها امرأة غير قروية بل من أهل المدن، وكان من المعروف أن القرويات لم يكن يستنجدن بأحد في مثل هذه الحالات لأنهن كن يتولين أمر قتل الأفاعي بأنفسهن، وانطلق فرهاد في أثره غير مبال لصياح دادة بالرجوع.

مضت ساعتان على غياب العجوز وفرهاد، وقلق دادة وبابا في ازدياد، وهدد بابا أن فرهاد سوف يتلقى علة حارة وضربات موجعة من عودة التأديب على مؤخرته

بعد عودته، وعادا أخيراً فأسرع العم بطرس وأخذ بيد الأفندي متضرعاً يريد تقبيلها لأن يغفر لفرهاد طيشه ونزقه هذه المرة.

فلم يجد بابا بداً من الأذعان لإلتماس العجوز، ولكن نظراته النارية ظلت تلاحق فرهاد طوال فترة سرد العجوز حكاية الحية التي قتلها بمساعدة ابنه البكر: - بطل.. ابنكما بطل..

كان لاعتراف العم بطرس بما جرى مذاق آخر في في والدين القلقين، فقد أعلم العم بطرس قبيل المساء في الطارمة، الباحة الأمامية، الأفندي وزوجته وبحضور الولدين ما جرى في بيت المرأة المستغيثة، صبت له دادة أولاً قدحاً من شاي ده ندوكى كه و(منقار القبج)، فاستلمه منها شاكرًا ثانيًا قدمه اليمنى تحت فخذ الأيسر، وبعد أن ارتشف أول رشفة من الشاي تحدث بعم رطب مخاطبًا إياهما:

- عندما غرزت رأس العصا في عنق الحية الرقطاء كان فرهاد سريعاً وشجاعاً، واقترب رغم تحذيري إياه فانتزع العصا من يدي وأتم هو بنفسه العملية باللوي والضغط حتى قطع الرأس عن الجسد.

انتقلت العيون كلها ورست على فرهاد الذي شعر بفرح غامر، بل فرحتين؛ الأولى مشاركته في قتل أفعى، بالإضافة إلى عفو وغفران من والد لم يقبل وبأي شكل من الأشكال خروج أحد ابنه عن أوامره ونواهيه.

- يا قاتل الحية.

هتف الأفندي مماًزحاً ومداعباً فرهاد، وهو يحاول تهدئة روعه وفزعه من عقاب كان قبل قليل مرتقباً متوقعاً، وقالت دادة القابعة وراء السماور والمتألقة بملابسها الكردية التقليدية المزركشة ذات الألوان الزاهية الفضية والذهبية الوهاجة البراقة وهي تلحظ سكون عدنان المطلق بجانب أخيه:

- ولعلمكم، فلقد عاد عدنان البارحة وفي جعبته أشلاء لأربعة عقارب سوداء صاها وسحقها من تحت التلال، إنه بطل كأخيه.

أشعل الأفندي لنفسه سيجارة جاهزة وناول إحداها إلى العجوز، بعدها أشار إلى عدنان ليقترّب منه ففعل راضياً سعيداً، فضمه إليه ثم هده ثم نفخ في (دار جكاره) (غليون طويل مصنوع من غصن شجر جبلي خاص) والذي كان ذا لون كستنائي

غامق، ثم رفع رأسه وأدار به مجيلاً النظر بالوجه من حوله وهتف بصوت
جهوري غير مألوف:
- عدنان قاتل العقارب.

في عصر متأخر من نفس اليوم جاءت كاترين وهي ترتدي الفستان الأحمر نفسه والبلوزة الصوفية الخفيفة الكحلية ذاتها، تلفّ عنقها العاجي الطويل بالشال الأخضر الفاتح المرصع برسوم أزهار زاهية، والتقت فرهاد عند البوابة السلكية المنخفضة، كان مرعى المطران الأبيض يغصّ بقطعان الماشية بعد عودتها من رحلة طويلة إلى الأودية والهضاب المحيطة بالقرية، تلقاها فرهاد بالترحاب وبفرح غامر، وبعد أن شدّ على يدها البيضاء الناعمة الرطبة قال لها وعلى وجهه ابتسامة ذات مغزى:

- انتظري لحظة عندي لك مفاجأة.

اختفى لحظة وراء بعض الحشائش وأحراش الخشخاش العالية، ثم ظهر مرة ثانية وهو يلوح بعصاه رافعاً طرفها المعقوف إلى الأعلى وهو يهتف:

- بهذه سحقت رأس أفعى اليوم مع العم بطرس.

كان يرتدي سروالاً ضيقاً أحمر اللون، أشبه بملابس الجمناستيك، مع حذاء من المطاط السميك، امتد حتى غطى ما فوق كوعيه، ولوحظ ارتفاع مفاجئ ملحوظ في قامته الرفيعة.

فغر فمها وظلت صامته بلا حراك تنقل بعينيها بين عيون فرهاد والعصا التي رفعها، بعد لحظات طفقاً يمشيان إلى نهاية الشارع ومنها انحرفاً إلى اليمين سالكين الطريق الصاعد المفضي إلى الصخرة التوأم تحت شجرة شاتوو، التوت الشامي، وما هي دقائق إلا وبلغاها، وعندها قعدا على الصخرة كتفاً لكتف، وخصراً لخصر، وما انفك فرهاد يلوح بالعصا تارةً، وغارزاً طرفها المعقوف في التراب الأحمر تحت قدميه تارةً أخرى، الجو الربيعي الدافئ والنسيم العليل يداعب وجهيهما المتوردين، وفي السماء سحب متفرقة، ثمّة راع يسرح ماشيته بعيداً، وثغاء الأغنام يتعالى من خلفهم في مرعى المطران، وتيس يثب على عزة بالقرب من الراعي الذي ينظر إلى بعيد، وهبات الهواء المعبأ بعبير العشب البري تعبث بشعريهما الكث الأسود.

ساد صمت قصير بعده قالت له كاترين باستحياء:

- أمي تقول أنت ولد عاقل.

احمر وجه فرهاد فقال بعد أن تغلب على خجله بصعوبة:

- وأمي تقول أنت فتاة جميلة مهذبة، وهي تحبك جدًا.

فوضعت يدها الناعمة الصغيرة في يده وبكل هدوء قربت رأسها من رأسه تهمس في أذنه بصوت لا يكاد يسمع:

- أنا أريد أن نكون أصدقاء، فهل تود أن تكون صديقي؟

ازداد وجه فرهاد تورّدًا، فأجاب محرّكًا رأسه بالإيجاب ولم ينبس.. ورأت كاترين التي بدا أنها أكثر جرأة علامات الخجل على وجه صديقها الجديد، فحاولت وبوسائلها البدائية مساعدته في تجاوز الارتباك، فقالت وهي تضغط بخفة على يده الرطبة:

- أُمّي تقول إنها سوف تصلي لي في الكنيسة كي أنجح هذه السنة، فأنا ضعيفة في مادتين، وأرى مادة قواعد اللغة العربية أصعبها.

خرج فرهاد عن صمته وقال وقد راق له الموضوع تمامًا:

- أنا أحب هذه المادة، وسأساعدك في الدرس لو أردت، ولكنني أكره درس الحساب، الرياضيات، ودرجاتي منخفضة فيها.

فقالت كاترين:

- وأنا سأساعدك في درس الرياضيات، فهذه أسهل درس عندي.

وقالت وهي تزدداد التصاقًا به:

- لا أدري ما هذا الشعور الغريب الذي ينتابني كلما جلست إلى جانبك، أحيانًا أقول لنفسني حبذا لو كنا نسكن معًا تحت سقف واحد.

وران الصمت لحظة أدركت كاترين أن فرهاد يستعد لقول شيء، حيث إنه نظف حنجرته قليلًا، فأطلقها غاضبًا الطرف:

- ولكنك مسيحية وأنا مسلم.

احمر وجه الفتاة وصار كلون ثوبها، ولكنها سرعان ما تماكنت نفسها وقالت بصراحة وشجاعة وبلا تردد:

- وما الفرق؟ الدين للكبار لا لنا نحن، فنحن أطفال، الله يحبنا حتى ونحن لا نصلي، وهو يستجيب دعاءنا حتى ولو لم نصل، نحن لا نسرق ولا نعتدي على أحد كما يفعل الكبار...

شمّ فرهاد في تفسير فئاته للدين عبثًا خاصًا كشذا الياسمين وأريج زهر كنير الأصفر، الذي كان يملأ الأرجاء، فقطب وكأني به يعاود عبثًا اجترار كلماتها.

* * *

في طريق العودة إلى البيت، وبالتحديد عند المنحدر التالي للصخرة التوأم قالت كاترين:

- لقد اشترت لي عمتي بدلة جديدة لرأس السنة الميلادية وهي ذات لون أحمر، دائمًا، فهي تفضل هذا اللون لأنها تحب الشيوعيين.

فرهاد انشרכת أساريير وجهه لما سمع وكأنه كان في انتظار ذلك فبادرها بالقول:
- واشترت لي أمي بدلة جديدة لعيد الأضحى..

فتساءلت كاترين بعذوبة:

- وما لونها؟

أجاب فرهاد وقد زال توتره تمامًا:

- بلون عينيك.

في ظهيرة اليوم التالي وبعد العودة من المدرسة وتناول الطعام مضى عمر أفندي إلى غرفته، وفتح الخزانة التي كان يحفظ فيها تبغته وكنينه، وعاد إلى المطبخ حيث دادة جميلة تغسل الصحون وشكى إليها تناقص مقدار الكنين في الكيس بدرجة عالية، وسألها فيما لو كانت لديها أي تفسير لاختفاء هذه المادة الغالية والحيوية ضد الملاريا.

وكان فرهاد واقفاً هناك أمام نافذة الغرفة الصغيرة المشرفة على الحديقة الخلفية بالقرب من أدوات خبز دادة، يتأمل أخاه وهو يساعد العم بطرس وبنيامين في ذرّ السماد الذي جلبه العجوز من أصحاب المواشي بين صفوف النباتات والخضروات التي ارتفع عودها من جديد.

اقترب من مصدر الصوت فسمع شكوى والده وسمع دادة تجيب بالنفي القاطع، مؤكدة له أنها هي كذلك لاحظت تناقص مسحوق الغسيل، التايد، الذائع الصيت، لديها، وأرته العلبة الصفراء والتي كتب عليها بالخط العريض تايد الناصع البياض وهي تقول لاوية شفتيها الرقيقتين الورديتين بحيث اتخذتا بهذه الوضعية صورة قوس:

- لقد فرغت إلى النصف في يوم واحد وهذه الكمية تكفيني لأسبوع.

هز الأفندي رأسه وهو يتمتم في سخط ودهشة مع نفسه:

- إنه لغز... لغز محير.

وفي اللحظة ذاتها كان هناك طرق على الباب خفيف، فنادى الأفندي فرهاد الذي هرع إلى الخارج ليعود مهرولاً إليه:

- هناك رجل يسأل عنك.

وثب الأفندي من مكانه وأحكم غلق زر بنيقة قميصه المكوى جيداً، وبعد أن تمخط في منديله الرطب انطلق لاستقبال الطارق ليعود بعد دقيقة على عجل.. دخل غرفة الوالدين وفي أثره زوجته، فقال لها هو يخرج البدلة الجديدة والوحيدة التي لديه من الخزان الخشبي:

- الجناب العالي مدير الناحية أرسل في طلبي في الحال.

ساعدته دادة في ارتداء ملابسه وترتيب وتحسين هندامه، وقص بعض الشعيرات الناتئة من رأسه من تحت طربوشه المستطيل الأسود المعروف بالـ (سيداره)، وشواربه المسطحة القصيرة، وأزالت بعض الشعيرات من على أذنيه الكبيرتين وهي تتأفف بحرقة:

- حبذا لو انتقل هذا الشعر من أذناك إلى رأسك يا أفندي.

وبينما الأفندي يستعد للخروج كان هناك طرق آخر أخف على الباب، فأسرع إليه فرهاد ففتحه، ليرى نفسه يقف وجهًا لوجه مع كاترين، كانت ترفل في فستانها الأحمر كلوشة، عبّر عن فرحته بمجيئها وأشار إليها بالدخول، فتبعته إلى الباحة الأمامية، وهناك وقفا يتطلعان إلى المرعى الفسيح أمامهما، وتقافز الماعز والخرفان على البساط الأخضر المنبسط أمامهما بمرح وحيوية ونشاط، وثغائها يملأ المكان، ظلا يتطلعان إلى المشهد الجميل بلا صوت ولا حركة حتى مر بهما الأفندي في طريقه إلى لقاء مدير الناحية، تفوح منه رائحة ماء الكولونيا الحاد، لوح الأفندي بيده النحيلة لها وهتف لها بصوت عال عجل:

- مرحبا كاترين... كاترين كه كه..

شعرت الفتاة بخجل شديد مما دعاها إلى خفض رأسها حياء، وردت على تحية مديرها بهمس مسموع..

شيعاه بنظرهما حتى وطئت قدماه أرض الإسفلت وهناك أخرج ساعته من جيب صدر سترته المثبتة بإبرة فوقها وهو يسارع الخطى على الإسفلت؛ سالگا الاتجاه الموصل إلى نادي الموظفين والسوق، وظلا هكذا ينظران إلى أن توارى الأفندي ما وراء أجمة شجر الـ (أسبيندار) السامقة الشامخة المتمايلة بفعل رياح بدأت تهفّ بخفة لدى مرور سعادة المدير.

وبينما هما في طريقهما إلى غابة النبق وصلت إلى أسماعهما أصوات حيوانات وطيور باختلاف أنواعها، أرهاقا السمع فإذا هي آتية من جهة الحقل الخلفي، مما حملهما إلى الاستدارة دورة كاملة والعودة إلى البيت، وقفا على تخوم المنصة المتاخمة للباحة الخلفية، تحت عريشة العنب يتأملان ويتفحصان ما يجري بالضبط، ومن هناك أخذوا يجيلان النظر في المساحة الواسعة التي تحتلها الحديقة الخلفية وقد

طالت سيقان النباتات والخضروات وأشجار الرّمان المتفرقة المنتشرة على طول حافات الحقل، والتي تنوس ذؤاباتنا المثقلة المحملة بالثمر الصلب المكور أمام هبات الريح.

وما كانت دهشتها كبيرة بعد أن تبين لهما أن مصدر كل هذه الأصوات الغريبة المتعددة وأصل كل هذا الضجيج؛ لم يكن سوى ذاك الصبي اليانع اليافع الأسمر ذو الشعر القصير المجعد عدنان، في بنطال مقلّم بالي وقميص بلون التراب، كان عدنان يقف وجهًا لوجه مع دادة تحت شجرة الرمان، يدير رأسه في جميع الاتجاهات، وهو يقبض بيديه على رمانة، يديرها مترامًا مع دوران رأسه الصغير ووجهه الطويل الضيق، كان يحرك فمه ويديه في حركات متميزة غير مألوفة لتنظيم وتوليد هذه الأصوات، وتتعالى ضحكات دادة الحادة رغم بحة صوتهما الرخيم، بينما كان العم بطرس وبنيامين يقومان بنشر السماد بواسطة خاكه ناس، المسحاة على خطوط الطماطم والبادنجان، وهما يهزان من بعيد برأسيهما ويبتسمان تحت شاربيهما لهذا الولد العجيب، وكانت دادة تحمل بيدها اليمنى مقصًا صغيرًا للتقليم، فألقت به على الأرض وأخذت تصفق بيديها وتضحك بابتهاج وهي تضرب بكفيها على فخذيها بحماس منقطع النظير، غير مصدقة أذنيها بما سمعتا، ولا عينيها بما رأتا.

ومن على شرفة الباحة وتحت سقيفة الكرم حيث خصصت دادة ركنًا للمخبز وكزت الصديقة ذراع صديقه برفق وهو يمدّ يده إلى أعلى لينتزع حبّتي حصرم ويقدمها هدية حامضية لها، لتتقابل أعينهما في كلمات غير مسموعة مشتركة، وليصوغا سؤالاً مشتركًا محيرًا:

- أمّا سمعنا هذه الأصوات الغريبة عينا عند النبق؟

* * *

لم يلبثا طويلاً في مكانهما، فانطلقا دون إخبار ولا علم أحد نحو فضاء بساتين النبق الواسعة الكثيفة، كاترين في فستانها الأحمر وفرهاد في بنطلونه الرصاصي اللون وقميصه الأبيض وسترته النيلية، وهو يحمل عصاه تحت إبطه كما كان العم بطرس يفعل في جولاته.

سارا صامتتين كتفًا بكتف على الطريق الترابي الضيق الملتوي بمحاذاة مرعى المطران والمفضية إلى النبق، والتلال ومن ورائهما الجبل وظلاهما يسبقانها بميلان خفيف إلى اليمين، وحينما لاح لهما الصخرة التوأم خرق فرهاد جدار الصمت قائلاً وهو يلحظ الفتاة بنظرات خاطفة:

- لدي إحساس أنك لست على ما يرام تمامًا هذا اليوم؛ فما بالك يا كاتي؟

أجابت كاترين وهي تنظر إلى البعيد مستبدلة الوجوم بالابتسامة:

- إن عمّتي شيوعية، وهي الآن وبعد مقتل الزعيم تخاف على نفسها، البارحة جاءت لزيارتنا آتية من المدينة لتعود في نفس اليوم، وقد قدمت لي هدايا اشترتها من سوق المدينة.

تساءل فرهاد وهو يتمايل في مشيته ملتقطاً بعينه الثاقبتين صورة جانبية لصديقه:

- ماذا قلت؟ شيوعية؟ لقد سمعت والذي يقول يوماً إن الشيوعيين ينكرون الله ويكرهونه، أنا لا أحبهم.

فقالت كاترين وهي تضع يداً على كتف فرهاد:

- أُمي كذلك لا تحبهم كثيراً على العكس من عمّتي، فعمّتي تقول إن الشيوعية خير للبشرية وبديل من الأديان التي لا خير فيها بل فيها ضرر.

صمتت كاترين لحظة ثم استطردت:

- تقول أُمي إن الدين مثل الخمر، مفقد للعقل ومخدّر للجسم.

بدرت حركة مفاجئة من فرهاد شبه اعتراضية وقال وهو يحرك ويلوح دائماً بيديه بحماس عند الكلام:

- كفار، إنهم كفّار، يقول والذي.

- وهذا ما تقول أُمي.

قالت كاترين ثم استدركت:

- ولكنها تخاف جداً وتقول لو أن الحكومة الجديدة التي اغتالت الزعيم عرفت أنها - أي عمّتي - شيوعية؛ لزجوها في السجن.

فرهاد طأطأ برأسه موافقاً إياها الرأي:

- كما أنهم أخذوا ماموستا عادل معلم النشيد، قالوا إنه أحمر أصلي...

توقف لحظة وهو يتفحص بدلتها الحمراء الفضفاضة وتساءل بعجب:

- وأنت؟ ألا تخافين وأنت مرتدية هذه الملابس الحمراء؟

أجابت كاترين بثقة:

- كلا، فنحن لا نخاف، فنحن أطفال ولا نعرف ما معنى هذه الأشياء بعد، نحن نعرف فقط جدول الضرب والقسمة وحفظ النصوص العربية الصعبة، وحل الواجبات المنزلية.

مرت لحظات من الصمت لا يسمع فيها سوى هسيس منبعث من احتكاك الأحذية بالعشب والشوك، بدا فرهاد مأخوذاً بالموضوع على عكس كاترين التي تشاغلت بالقفز إلى أعلى بكلتا ساقيها الطويلتين وبرشاقة، فقال وهو ينظر إلى ما بين قدميه شأن من يبحث عن شيء ضاع منه:

- يقول والدي إن الأمريكيان هم الذين كانوا وراء مقتل الزعيم.

سكت مستذكراً كلام أبيه ثم واصل النقل:

- ويقول إنها أصلاً حربٌ بين روسيا وأمريكا، لا بين العراقيين.

ثم:

- وأن أمريكا هي الحية.

توقفت الفتاة عند هذا الحد من القفز والرقص وفستانها الكلوشة أخذ بالانتفاخ أثر هبة هواء بارد معبق برائحة الكنير، وأخذت تنظر في عيني فرهاد الواسعتين الشهلاوين لحظة قصيرة ارتاع لها فرهاد، ثم جعلت تربت بباطن يدها اليمنى على جبينه العريض بخفة ومرح وتحيط بذراعها الأيسر عنقه تضمه إليها ضمة جانبية قوية، نظرت إلى وجهه من تحت إبطها وقالت معقبة:

- وأن روسيا هي العقرب!

وبغثة بدأ رذاذ قوي من المطر يضرب على رأسيهما، فاندفعا تحت شجرة متوسطة الحجم، مد فرهاد طرفه إلى السماء من تحت الشجرة ورأى من خلال ثناياها كتل سوداء هائلة من الغيوم تتحرك بسرعة إلى ما وراء الجبل، وتتوارى وراءها تاركة فراغاً لكتل أخرى جبارة من السحاب الأبيض الشفاف لتحل محلها، لم تدم الزحّة أكثر من دقيقتين.

استأنفا مسيرهما يشقان طريقهما قدماً إلى النبقة الكبيرة أو النبقة الأمّ كما أحبا تسميتها، وهناك جلسا وسط الحشيش العالي والزهور الصفراء الرقيقة الناعمة الطويلة السيقان الطرية الفجة، كنير التي اتخذت من الحشائش والأعشاب فراشاً لها ومسنداً تزحف وتبسط غصيناتها الغضة الحاملة لزهورها الصفراء الفاقعة المتمددة فوقها، حالها كحال الصديقين الصغيرين اللذين أسندا ظهريهما إلى جذع الشجرة الضخم والكتف يلامس الكتف والخصر يحتك بالخصر.

وهناك أخذ فرهاد يقتلع حفنة من الحشيش من الأرض المنقع بقطرات المطر، متأملاً وجه صاحبتة، وهي بدورها استدارت لتجلس بميلان كي ترى صاحبها ويراهما بوضوح، اقتلع فرهاد قبضة أخرى من العشب وألقى بها أمامه بعيداً، وقامت الفتاة بالمثل، وعندما تلامست أيديهما فوق العشب الطري سحبت الفتاة يدها بسرعة وهي تتأوه، ثم مدت رجليها أمامها إلى أقصى حد، وفعل هو كما فعلت، أدارت الفتاة وجهها نحوه وتأملت عينيه برهة ثم قالت بهمس:

- لك عيان جميلتان.

اضطرب قلب فرهاد جرّاء ذلك الإطراء المفاجئ خجلاً، ولكن ذلك لم يمنع أن يردّ الثناء مضاعفاً ولكن بتلعثم قليل ولكنة:

- وعيناك أجمل.

ضحكت الفتاة بصوت عالي عذب، فازاحت الضحكة برزخ الخجل والاستحياء بينهما، فأضاف فرهاد:

- ما أشبه شفتيك وخاصة السفلى بطماطم العم بطرس!

- وماذا بعد؟

سألت الفتاة وهي تتخلل شعر الفتى بأطراف أناملها الناعمة..

- نعم.. تذكرت، لك مشية القبع.

- أعني ما تقول؟ تساءلت كاترين بفضول.

- نعم.. بالتأكيد.

أجاب فرهاد وأضاف:

- في البداية لم أنتبه لذلك، ولكنني لاحظت ذلك بعد أن بدأنا بالارتياح إلى هذا المكان، ولم أتجرأ بمصارحتك حينئذ بذلك.

- کاترین که و.

نطق فرهاد بالکردية.

- کاترین قَبَجَة.

لفظتها الفتاة بالعربية.

أصبح فرهاد وبمرور الزمن ميّالاً شغوفاً بمادة التاريخ في المدرسة، والسبب يعود إلى المعلم فيصل الملقب ماموستا فاصوليا وأسلوبه الشيق في طرح وشرح المادة؛ وهذه السنة أي ١٩٦٣ بلغ فرهاد المرحلة الأخيرة ومعه كاترين، التي كانت تجلس على نفس الرحلة/ المقعد الخشبي لشخصين.

أما عدنان وبنيامين فكانا يتأخران عنهما بسنة، فقد رسب بنيامين، رغم كونه الأكبر عمراً، العام الدراسي المنصرم فلحق به عدنان.

بدأ الشتاء مبكراً هذا العام، ولم يكد الخريف يبلغ أسبوعه الثالث حتى بدأت الثلوج تتساقط، تتساقط كالقطن المندوف من السماء، وفي اليوم الثالث من الثلج والصقيع المستمر أصبح الجبل الأسود أبيض من فوق إلى تحت، وفي الصباح كانت الغيوم تكسوه بحيث صار يرى وكأنه جزء لا يفصله شيء عن السماء، وتصاعدت حدة الرياح، وانحنت ذؤابات الأشجار وأشجار النبق حتى كادت تتوحد مع جذوعها، وقد عرت الأشجار من الأغصان والأوراق تماماً، وبدلاً منها اكتست حلة بيضاء كالتي كانت ترتديها دادة حينما كانت تفتش سجادتها للصلاة وتقف خاشعة أمام ربها راضية مطمئنة.

معظم الناس ارتدوا المعاطف الفرو الطويلة، والكثير منهم لفوا أعناقهم بشالات صوفية ثقيلة.. وأوقد الحطب في المدافئ وارتفعت أعمدة الدخان الأسود على سطوح بعض المنازل، والأبيض فوق بعضها الآخر، حسب الحطب والأخشاب المستعملة، وكذلك اضطربت النيران في المواقد داخل صفوف المدرسة والتي رفر فوقها علم آخر مختلف تماماً عن سابقه، ولكن الثلج غير ملامحه تماماً فبدأ وكأنه صفحة ورق لم يمسه قلم أو يد.

في كل صف انتصب موقد حطب في الزاوية اليمنى من الفسحة التي كان المعلم يقف فيها عادةً، ووضعت تحت مراقبة المراقب في فترات الاستراحة، وتدافع طلاب الصف السادس الأخير كباقي الصفوف حول الموقد، ومدت الأيدي المرتجفة فوقها، والفوز للأقوى، ومدارة الطالبات الثلاثة لم تغب عن بال الفتيان، لا إظهاراً لعطف فحسب؛ بل هكذا اقتضى العرف، الشعار الأبدي كان متجذراً في العروق،

وفقاً بالقوارير، شبهت الفتيات كما في قول الرسول العربي بالقوارير القابلة للعطب، وكان لفرهاد، ابن المدير، حصة الأسد في النيل من دفء الموقد الجبار، ولكنه تنازل بالقسط الأعظم منها لصديقه، التي بدأ يدللها باسم كاتي كاتي أو كاترين كه .

حالما دخل المعلم فيصل تفرّق الجمع وعادت لتحتل مقاعدها صامتة خاشعة، وصاح المراقب كامو صيحته المألوفة:
- قيام.

كامو كان قد اشتد عوده ونمت شواربه، وبدت طلائع لحيته بالظهور، وارتفعت قامته بحيث علا على المعلم بعشرة سنتيمترات على أقل تقدير، أحس فرهاد أن الأرض قد اهتزت تحت قدميه عندما ضرب بحذائه الصلب، البوسطال العسكري كما شاء لزملائه تسميته، أرض الصف الإسمنت.. أجال المعلم بعينه الصغيرتين الثاقبتين الغائرتين على الطلبة الذين كان عددهم بعدد الأصابع لحظات طويلة، ثم تمت بطرف لسانه بصوت كالهمس:
- جلوس.

بعدها ألقى المعلم نظرة كالحة من خلال النافذة إلى الخارج ولم يكدر شيئاً، ولم يلبث أن عاد ببصره إلى الصف، سار إلى المدفأة فأخذ يفرك يديه بقوة فوق فوهة الموقد وهو يجيل النظر في الحضور منحنياً بنظرة فاحصة دون أن ينبس ببنت شفة، كان منظره يوحي أنه في حال عدّ للحضور، بعدها ثبت عينيها الحماوين على كامو الذي كان جالساً وكعادة المراقبين في الخط الأخير، فأدرك كامو ما كان معلمه يبغيه من وراء النظرة فنهض وفسّر:

- عبد الحميد لم يأتِ إلى المدرسة، إنه مصاب بالنكاف، رأيت خده اليمنى منتفخاً كالبطيخة، أخذه أبوه إلى المستوصف الصحي هذا الصباح.

وبدون أي تعليق استدار المعلم وقد توارى كم بنطاله القديم الباهت اللون داخل جواربيه العتيقة، الأمر الذي أحدث انتقاعاً واضحاً في البنطلون عند نقطة التقاء البنطلون بالجوارب، كان يحشر طرف بنطلونه عادة في داخل جواربه حتى في عزّ الصيف، فلم يكن المنظر إذن بمستغرب على الطلبة، ولكنهم فطنوا إلى أمر جديد ذلك اليوم الشتوي القارس؛ وهو أن المعلم كان قد ارتدى سروالاً داخلياً تحت

بنطاله، ودليلهم وحجتهم في ذلك أن الانتفاخ الحاصل هناك كان ضعف ما اعتادت عليه عيونهم.

وبعدما فرغ من الفك والعد؛ أسرع المعلم نحو الخزان الحديدي القائم في الزاوية فيما يلي النافذة على يمينه، فأخرج قطعتين من الطباشير؛ أبيض وأحمر، ثم عاد ليسحب بانفعال الخارطة نفسها التي اعتاد استعمالها كلما دعت الحاجة إلى إلقاء درس في التاريخ بالاستعانة بالجغرافيا، فلم يكن غريباً إذن أن أطلق بعض زملائه وأصدقائه عليه لقب الرجل الجيوتاريخي! كانت الخارطة خارطة شمال العراق، رسمت السهول عليها باللون الأخضر الفاتح والداكن بحسب عمق وكثافة الغابات والنباتات، ولوّنت المنطقة الجبلية منها باللون القهوائي الداكن والفتح بحسب وعورة المكان وارتفاع الجبال، وقد رسم المعلم وبالطباشير الأبيض دائرة قطرها سنتيمتر واحد حول نقطة معينة في وسط المنطقة، الدائرة هذه ظلت قائمة مذ كان الصديقان في المرحلة الثالثة.

كان فرهاد يدرك كما أدرك الكثير أن معلمه للتاريخ كان شديد التعلق بقوميته الكردية، شأنه شأن الكثير ومن ضمنهم أبوه، فلم تكن إذن مفاجأة أنه كتب بالخط العريض على السبورة: "خانزاد أميرة سوران رمز الشجاعة وتحرر المرأة الكردية".

فقد اعتاد المعلم المحب لقومه وأرضه أن يخصص الدرس الأول من كل يوم بإلقاء محاضرة حول تاريخ وماضي ونضال الكرد، لنيل حقوقه القومية المشروعة وبناء كيانه وتحقيق استقلاله، ولهذا السبب حاز على لقب عاشق كردستان بجداره، اللقب الذي اغتبط به بقدر ما اغتاظ للآخر، أي الفاصوليا الذي لصق به، كما أدعى، من قبل أعداء الكرد.

بعد حممة قصيرة استدار المعلم نصف دورة، ووجه سؤالاً تعجيزياً ليغدو بالمحصلة هو نفسه المجيب:

- هل تدرون من كان مؤسس إمارة سوران؟

سأل ذلك وهو يشير إلى جهة الجبال من خلال النافذة المغلفة بالضباب، لم يرفع أحد من الطلبة يده فأجاب بنفسه:

- مؤسسه كان رجل اسمه كولوس.

- وأتعرّفون لماذا لقب بهذا الاسم؟

- بالطبع لا تعرفون.. لأنه كان أدرّد، أي لم يوجد سنّ في فيه.

ثم فتح فمه تمامًا كاشفًا بذلك عن كل أسنانه وقد اصفر نصفها، ثم غمغم من بين ثنايا نواجذه:

- أنا الآن وسيلة إيضاح لكم، انظروا في فمي؛ بعضها قد وقعت وأكثرها ثابتة لا تزال هناك، أمّا كولوس هذا فلم يملك في فمه سنًا واحدًا.

ثم:

- أتعلمون لماذا سميت الإمارة بهذا الاسم؟

- لأن الصخور التي كانت تحيط بإحدى قلاع الإمارة والتي صارت نواة للإمارة كانت حمراء.

- أوجد منكم من يفطن إلى معنى تنصيب امرأة على رأس الإمارة؟

هنا أجال النظر في الوجوه الصامتة حتى استقرت عينيه هنيهة على وجه فرهاد الذي كان جالسًا في الوسط أمام كامو، مباشرة كتفًا بكتف مع كاترين، وكان مأخوذ جدًّا بالقصة المشوقة، وبين الفينة والفينة حانت منه التفاتة جانبية لتلتقي عيناه عيني كاترين بصمت.

بدا أن ماموستا فيصل كان يتوقع مشاركة قصيرة من فرهاد كالمرّة السابقة، ولما لم يجد تجاوبًا من ناحيته عاد إلى الموضوع:

- إن ذلك يعني أن الشعب الكردي قد أعطى كل التقدير والاحترام للمرأة، وعدّها مساوية للرجل، ولم ينظر إليها أنها ناقصة عقل أو دين كما عاملت شعوب أخرى مجاورة لنا نسائها.

أجال الماموستا ببصره على الجالسين وبمدى الوجوم والسكوت المطبق الذي ساد الصف استطاع أن يحكم أن كلامه كان له أثر ووقع إيجابي على مستمعيه، فافترقت أسنانه الصفراء عن ابتسامة صفراء.. خرقت حزمة ضوء ضيقة النافذة مستهدفة رأسه الصغير، الشمس كانت في حالة صراع مع السحب البيضاء المثقلة والمنبئة بمزيد من الثلوج، أمال برأسه خارج دائرة الضوء بخفة ثم وجه سؤالاً آخر:

- أيعرف أحدكم ماذا كان يفعل العرب بالبنات في الجاهلية؟

مجيلاً بطرفه في الوجوه الواجمة، فأنس حركة من ناحية فرهاد وهذا ما كان يتوقعه فمد له يده إيذاناً:

- تفضل فرهاد ابن عمر أفندي.

نهض فرهاد قائماً وتحدث بقليل من الانفعال:

- إنهم كانوا يدفنونهم أحياء.

حالما سمع المعلم الجواب انتفض من مكانه هاتفاً:

- أحسنت، أحسنت! عافية! أفرين (عشت)

اتجهت الأنظار جميعاً إلى فرهاد الذي بدوره تلقى الاستحسان الوحيد الذي سره كثيراً، أحس بأن يد كاترين تربت على يده برفق، وصوتها الرخيم يهمس في أذنه بعذوبة ناي الرعاة ونعومة صوف الخرفان:

- أنى لك هذه المعلومة؟

- من والدي..

أجاب بهمس ثانياً شفتيه في اتجاهها دون أن يلتفت.

وهناك في الزاوية رفع أحد الطلاب يده بقليل من التردد، فأشار إليه المعلم بالقيام، فقام وعلق على ردّ فرهاد دون أن يرفع رأسه:

- كان ذلك في الجاهلية وقبل ظهور النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولكن عندما جاء الرسول الأكرم محمد (ص) قضى على وأد البنات، هذا ما علمناه معلم الدين.

سكت المعلم لحظة يبحث عن رد مناسب لمساهمة هذا الطالب الذي كان مؤدباً وديناً جداً، وبعد أن استقر رأيه على رد مناسب علق قائلاً:

- أنت اسمك محمد أليس كذلك؟ أو لم تعرف أن شخصاً بهذا الاسم كان سبباً لسقوط هذه الإمارة؟

ارتبك التلميذ محمد واحمر وجهه، ولاحظ المعلم ذلك فحاول التخفيف عنه، فلجأ إلى ملاطفته مخاطباً إياه:

- جوابك كان صحيحاً يا محمد وشكراً.

ثم حول نظره إلى الأجساد الباردة والوجوه الشاحبة التي استدارت في اتجاه الطالب النحيف الطويل الشاحب، وطلب منهم بصيغة أمره النظر إليه، ففعلوا للفور، فقال مخاطبًا إياهم بلهجة رصينة جادة:

- أبنائي، أنا لست عنصرًا، ولكنني أنا شخصيًا لم اسم أحد من أبنائي الاثني عشر محمدًا، أنت اسمك محمد أليس كذلك؟ أو لم تعرف أن شخصًا بهذا الاسم كان سببًا لسقوط هذه الإمارة؟

ثم ركز عينيه اللامعتين الصغيرتين كعيني قط في الظلام وواصل إلقاء درسه الخاص:

- ولا شيء من مشتقات محمد: لا محمد لا حميد، لا محمود ولا حامد ولا حمدي ولاحمود ولا حمو ولاحمد ولا أحمد... أنا سميت أبنائي بأسماء كردية فقط.

صمت لحظة وأخذ يرمق الطلاب بنظر حاد مشددًا من نبرته فقال بلهجة رصينة:

- انتبهوا جيدًا إلى أسماء أولادي لأن لي سؤال يتعلق بها، أسماء أبنائي هي: زاكروز، سفين، ميديا، زوزك، هندرين، كاوه، خانزاد، سوران، بوتان، اردلان، نوروز، بابان.

توقف يسترد أنفاسه لحظة وقد بلغ به الحماس والانفعال مبلغًا كبيرًا، بعدها وجه سؤاله المرتقب:

- يا طلبتي الأعزاء اعلموا أن بعضًا من أبنائي الذين ذكرت أسمائهم يحملون أسماء ولايات كردية نشأت قديمًا، هل فيكم من يميزها ويذكر لنا ما هي هذه الإمارات... سأعيد الأسماء.

وأعادها حقًا.. منح المعلم دقيقتين للطلاب للتفكير قبل الإجابة، دبّت أثنائها ضجة ولغط التشاور والتساؤل بينهم، كل اختار شريكه للبحث، وبعد انتهاء الوقت صاح بهم متسائلًا:

- كفى! من منكم...؟

- بابان.

أجاب أحدهم والذي عدّه فرهاد منافسه.

- أحسنت! أفرين!

هتف المعلم مصفحًا من شدة الفرح، ورأى أيادي أخرى مرفوعة.

- كاترين.

- سوران وبوتان.

- آفرين كاترين كه كه !

فابتسمت كاترين ثم مالت على أذن صاحبها وهمست:

- شكرًا فرهاد للمساعدة.. آفرين.

- محسن.

صاح المعلم.

- أردلان.

- أحسنت!

- آفرين!

- آفرين!

كرّر المعلم لفظة آفرين مرتين لأن الأول كان اسمًا لإحدى التلميذات التي قدّمت الجواب الصحيح فحصلت على كلمة الاستحسان آفرين، فهذه اللفظة إنما هي اسم علم وصفة في نفس الوقت.

ولو هلة الرياح نفذت إلى حجرة الصف؛ فاهتزت لها الستائر الباهتة المصفرة، الصوبة، المدفأة الحديدية، خفتت نارها وخفّ أزيزها وحسيسها وبهتت صفرة لهيبها، الأبدان انكمشت، والأذهان شحذت كره أخرى أمام التحدي الجديد بحثًا عن أسماء الولايات الغابرة المضمحلة.. كل شيء هامد بارد ما عدا روح المعلم الثائر، وكأن روحه صارت مدفأة بلا حطب.. وانتقل من مكانه فارغًا يديه فوق غطاء المدفأة المستدير شبه البارد وعاد إلى درسه الطويل:

- أعرف أنكم مثلي تشعرون بالبرد، بل أكثر مني لأنكم جالسون لا تتحركون، ولكن عليكم أن تعرفوا أن هناك أناس في هذا العالم لا تشتعل في بيوتهم نار وفي درجة حرارة تحت الصفر.

فغرت الأفواه من الدهشة والشفقة، أمّا المعلم فقد أخذ يتمتم بصوت هامس وكأنه يحدث نفسه:

- يبدو أن العالم قد انقسم بعد الحرب العالمية الأخيرة إلى قسمين: قسم يعيش في برد بلا تدفئة والقسم الآخر في برد مع تدفئة، وهذا التمييز كان سيقضى عليه من قبل...

توقف المعلم عند هذا الحد ولم يزد خوفاً من ذكر كلمة الشيوعية...
- ويلك..

حدث نفسه محذراً إياها من مغبة اللعب بالنار، حول المعلم بنظره إلى أرضية الغرف للحظات ثم رفع رأسه وقد رأى أن الملل قد بدأ يتسرب إلى النفوس، وأصوات التثاؤب تتصاعد حدها بالتدريج، رفع يده داعياً الصمت وعاد يتحدث بصوت منخفض هذه المرة وبهدوء، متجنباً إثارة وإتاعب الطلاب:

- وقبل أن أختتم الدرس علي أن أذكركم يا أولادي بحقيقة مرّة جدّاً في تاريخ الكرد؛ ألا وهو أننا كنا دائماً ضحايا التآمر من قبل القوميات المجاورة والقوى الكبرى التي لم تقب بوعودها لنا.

ثم:

- سؤالي الأخير هو: أندرون سبب سقوط إمارة سوران؟
وأجاب بنفسه:

- هذا ما سنتكلم عنه بالتفصيل في الدرس القادم، ولكن هذا لا يمنعي أن أختصر النهاية المأساوية للإمارة، وسبب النكسات كان دائماً ولا يزال المكائد والمؤامرات التي حيكت ضدّنا وغالباً تحت اسم وغطاء الإسلام.

ورمق الطلبة بنظرة نارية مستعرة وهو يستجمع أفكاره تمهيداً لشرح مقتضب، نظف حلقه ونحنح قليلاً بصوته، ثم قال بصوت غليظ آت لا منه ولكن من التاريخ الجغرافي، وشرع يقصّ قصته الحزينة تتخللها التآوهات والآهات مشحونة بالتثاؤبات:

- فعلى سبيل المثال لا الحصر وفي سنة ١٨٣٨ شنّ العثمانيون الأتراك هجوماً على الإمارة وقبولوا بدفاع باسل من قبل أبطالنا السورانيين، ولكن عمد الوالي العثماني إلى الحيلة والخداع، فبعث رسالة إلى الأمير السوراني والذي كان اسمه محمد ودعاه إلى الكف عن إراقة دماء المسلمين، فرفض أميرنا العرض ورفض وعود الوالي العثماني وكل إغراءاته بتنصيبه والياً وأميراً لأمراء سوران... ولكن

ويا للأسف والغباء والجهل أصدر مفتي الإمارة الملا، واسمه محمد كذلك؛ أصدر فتوى معلناً فيها أن كل من يحارب جيش الخليفة غير مؤمن، أي كافر...

عند هذه النقطة رفع المعلم يده وصفق براحة يده على جبينه في البقعة الخالية من الشعر بقوة محدثاً صوتاً أشبه ما يكون بانفجار نفاخة باللونة هواء، وكاد أن يوجه صفة أخرى إلى نفسه لولا أن اخترق هدير صافرة العم بطرس الجدران والأبواب، وكان للمعلم الكلمة الأخيرة لدى الباب:

- نحن الكرد سكناً ونسكن، عشنا ونعيش على هذه التربة قبل محمد والمسيح، بل وقبل ظهور الأنبياء والرسل، ومع ذلك فنحن الأمة الوحيدة في العالم التي لا تزال لا تملك لا كيان ولا وطن مستقل بها.. لا حدود ولا علم.. واحسرتها!!

قال هذا واندفع كالشواظ إلى خارج الصف.. وعلى أرض الممر وفي لجة ضجيج وصياح المخلوقات المتحررة من قيودها للتو، وبفضل صافرة العجوز التي أحبها الطلبة حب عبادة، سمعه فرهاد وكاترين يتأفف ويتبرّم مخاطباً نفسه ومن حوله:

- ولا يرغب عن بالكم أن أبا الأنبياء إبراهيم كان كردياً وعاش في سهول شهرزور...

كان لقاء الأفندي بمدير الناحية لقاءً طارئاً، نتج عن خطة عمل وبرنامج شامل ومخطط من أجل إيجاد وسيلة لمكافحة العقارب التي بدأت تقض مضاجع الأهلين، فبعد أسبوع من الزيارة الرسمية أوعز معاونه أن يقوم بجمع الطلاب في الساحة الخلفية للمدرسة، وتمّ التجمع في القاعة الباردة إلى حد التجمد.

وقف الطلاب صفّاً صفّاً وأمامهم المشرفون، النواظذ الستة كانت شبه معتمة بسبب الظلام الناتج عن الضباب، والماء المتجمد الملتصق بالزجاج، لاحظ فرهاد من بين ما لاحظ أن صورة الزعيم قد اختفت ليحل محلها صورة العقيد في زيّه العسكري ونياشينه وضحكته المكشورة عن أنيابه المعروفة بها، وقد علقت على الجدار المقابل لوقوف الطلبة والمعلمين.

وقف الأفندي بمواجهتهم؛ أي مديراً ظهره لصورة الرئيس الجديد، وبجانبه كان يقف مساعده ماموستا زوزك الملقب بالجليل زوزك نسبة إلى صلابته، بدا وجهه داكناً مصفراً متعباً، لا جديد في هيئة المدير، سترته الرصاصية المقلمة فوقها معطفه القهوائي الطويل، بروز طفيف في الجيب الصغير على صدر معطفه، حيث ترقد ساعته الكبيرة البيضاء ذات العقارب السوداء والمتدلّية من نهاية شريط أصفر باهت، وحذاؤه الأسود، الشيء الوحيد الذي كان يتناسب وينسجم مع صلته المخفية تحت سيارته السوداء فكان يلمع حتى في ظلام كهذا.

أخرج المدير منديله ومسح أنفه الطويل به، ثم اعتذر متكلّفاً بالابتسامة، وكذا هنا لم يحدث شيء جديد، فالمنديل والأفندي كانا رفيقين لا يفترقان صيف شتاء، داعبه زملاؤه المقربون يوماً بالقول إن أنفه يطر حتى في الصيف، أمّا عن وقفته فحدث ولا حرج، يقف على ساقين هزيلين منفرجين فوقهما يقوم جذع مدفوع دفعاً إلى الأمام، عيونه الزرقاء الصافية تلمع تحت حاجبين سوداوين كثيفين، وأذناه الكبيرتان اللتان شُبّهتا في حينه بأذني الزعيم بدا أكثر بروزاً من تحت السيادة الضاغطة من الجانبين، أمّا شارباه فاحتفظتا بشكلهما المخروطي القصير، ولم تخلُ يميناه من عصا التأديب كلما وجد نفسه يحدث تلميذاً أو يُلقى محاضرة في الآداب العامة والتصرف

السليم، ورغم ذلك فهو لم يركن إلى استخدامها كأداة للعقاب ضد تلميذ إلا في الحالات المستعصية التي لم ينفع في معالجتها الكلام والنصائح.

العيون شاخصة والأذان مصغية تترقب بحذر ما سيخرج من فمه من إرشادات وتعليمات، وبعد أن شاور ساعته المضاهية للبوصلة رفع المدير رأسه مجيلاً بصره على الوجوه، كانت هناك بعض المهمات المتقطعة، وإشارة من يد المعاون قضت على آخر همسة من جهة الطلبة، فساد جو عام من الهدوء التام على المكان.

ومن مكانه استوى عمر أفندي واستقام، نظف حنجرته وبدأ خطابه الموجز بصوت أشبه بصوت خطيب الجامع وأسلوب وأداء وإنشاء مشابه:

- زملائي المعلمين، أعزائي الطلبة.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أمّا بعد؛ فنحن بصدد إقامة سباق لإبادة العقارب التي تضاعفت في الآونة الأخيرة، وبدأت تُقلق العوائل وتخيف الأطفال، إنها ستكون مسابقة رمزية استعراضية وفيها متعة، إن هذه الدوبيات التي تهددنا فهي كالضحّاك الرهيب، فلنتعاون نحن الكرد جميعاً للقضاء عليه، ولذلك قررت هيئة المدرسة إقامة السباق الاستعراضي والتي سيحمل اسم حملة مكافحة العقارب ١٩٦٣ في يوم نوروز القادم، أي بعد حوالي شهر واحد من الآن، وحينها ستخرج الحشرات من جحورها تبتغي الدفء والازد.

توقف المدير لدقيقة لأن أصوات السعال بدأت تعلو على صوته، فلم تتوقف الأصوات إلا بعد أن لوح المعاون بيده مشيراً لهم بالانتباه، فاستأنف المدير خطابه وقد انقبضت أسارير وجهه بعض الشيء:

- الجو بارد والقاعة باردة لذلك سوف أختصر الكلام، ماذا كنت بصدد قوله؟ ماذا؟ ماذا؟ أي نعم.. أود أن أنبهكم أنّ اللعبة لن تكون سهلة، فينبغي علينا إذن الحيطة والحذر والاستعداد والتهيئة اللازمة، قبل أيام أبلغني سعادة مدير الناحية أنه سيوزع بتزويد كل مشارك في الحملة بأحذية واقية طويلة من المطاط القوي، وقفازات اليد، وملابس خاصة من النوع السميك كالذي يستعمله رجال الإطفاء.

توقف المدير لحظة، أخرج منديله بسرعة خاطفة من جيب معطفه الكبير ليمسح به قطرتي ماء من تحت أنفه الكبير، الحركة شجعت المعلمين والطلاب ليقوموا بالمثل وكأنني بهم قد فطنوا للتوّ أن لهم أيضاً أنوفاً تستقر فوق شفاههم، والتي فقدت القدرة أنياً على الحركة جزئياً بسبب البرد الذي بدأ يشتد بسبب توقف الثلج من الهطول

وهبوب رياح باردة قوية، أحدثت صفيراً حاداً بمرورها على زجاجات النوافذ الثلاثة للقاعة.

كان كل مشرف يقف أمام صفه، فوقف مربين أمام الصف الخامس وفيصل أمام السادس وحنا أمام الرابع وهكذا مع بقية الصفوف، الجلبة المنبعثة من الصف السادس كانت أعلاها حدّة، أضطر المعلم فيصل إلى الاستدارة ليرمي طلبته بنظرة حادة صادرة من عينيّن حمراوين، وللحال كفّ الجميع عن الفك والمسح والدردشة.. ارتفع صوت المدير بنبرة أعلى هذه المرّة:

- أعود وأقول إن الحملة ما هي إلا جزء من النشاط والعمل العام الذي ستباشر به دائرة الزراعة في نفس اليوم، وذلك برش المبيدات فيما وراء الحزام الممتد على طول بساتين النبق وبمحاذاة الجبل والتلال والأراضي المجاورة، وسوف نبثّغ العوائل بعدم رعي مواشيههم في تلك الربوع حتى يأتيهم بلاغ رسمي من قبل الدائرة يسمح لهم بذلك، ولهم التوجه إلى المناطق الأخرى للرعي وخاصة الجنوبية والغربية، أما أنتم يا طلبتنا الأعزاء فسوف تخرجون في ذلك اليوم العظيم مثنيّ، أي اثنين اثنين، وسنختار نحن هيئة الإدارة المتسابقين، وسيقوم المتسابق المختار بنفسه باختيار مساعد أو معاون له، وسيزودكم العم بطرس...

أشار إلى العم بطرس الذي كان يقف مصادفة وراء الصف الذي كان يقف فيه عدنان، وقد بدا العجوز بصورة غريبة ذاك اليوم، فلم يكن يرى من وجهه سوى أنفه الأفطس، ومن يده سوى إبهامه الأيمن الملتوي، ومن حذائه سوى الحديدة الأمامية المدورة التي سماها بالدعامية (واقية حديدية للسيارة) والتي قال عنها يوماً لفرهاد إنه يحتفظ بها منذ زمن خدمته العسكرية في الحرب العالمية الأولى، طأطأ العجوز برأسه إزاء أوامر مديره، واضعاً يده على صدره وهو يقول بتكرار واحترام بالغ: أمرك أبندي.. لفظ كلماته بصوت أشبه بصوت النائم الحالم بجدر من القرنبيط الحار في هذا اليوم السيبيري - نسبة إلى سيبريا.

استأنف المدير كلامه مختتماً خطابه:

- وسنزود في ذلك اليوم كل طالب بـ (ته نه كه) - صفيحة معدنية - وزجاجة نفط أبيض وملقط وقضيب حديدي حاد، وأنبهكم مرة أخرى أن اللعبة خطيرة وعليكم

إذن تبليغ المعلم أو الفراش حال خروج الدويبة المقززة... وابتعدوا عنها قليلاً وعرقلوا مسيرتها وذلك بحصرها بين فكي الكماشة.

ساد السكون لحظة بدا فيها المدير يتهياً لإلقاء كلمة الختام المفاجئة للجميع، رمى بنظرة شاملة على الجمع، نظف حنجرته، وهتف بصوت قوي غير مألوف اندفع معه صدره إلى الأمام:

- أمامنا وقت كاف للتهيؤ للسباق؛ ولذلك قررت تمديد عطلة نصف السنة أسبوع واحد، فتصير أسبوعين بدلاً من أسبوع واحد، وأود أن أخبركم أن العطلة ستبدأ بعد نهاية هذا الأسبوع، والسلام.

علا تصفيق حار وهدير الطلبة وضحكاتهم تعبيراً عن الفرح بالسباق وبالحملة، ساد الهرج والمرج من جديد، الحضور تهباً لمغادرة المكان تنتظر إشارة من المدير أو معاون، في تلك الأثناء التفت عدنان إلى العجوز الذي اقترب منه مستفسراً ماذا يريد، قرب هذا فمه من أذنه، هز العجوز رأسه ثم استقام بعد انحنائه لعدنان الصغير فهتف فجأة بصوته الجهوري ارتجت له القاعة، التفت الجمع إليه مندهشين مستطلعين، اقترب العجوز من الأفندي بحذر ونقل إليه رسالة عدنان الشفهية، فأشار عليه هذا أن يتقدم إلى وسط القاعة وينقل إلى الجمع ما لديه من أخبار، ففعل العجوز وقال مخاطباً الطلبة:

- إن عدنان يقول إن لديه فكرة وخطة أفضل لمكافحة العقارب وقتلها؛ يقول عدنان إن استعمال النفط وحده يخرج العقرب من الجحر حياً، أمّا مزجه بمسحوق (الكوينين) وهو دواء ضد الملاريا مع مسحوق الغسيل تايد؛ كفيلاً بسحب الدويبة دائخاً مخدراً مسموماً فيموت بعد الخروج بثوان قليلة.

اختفى عدنان لدى ذكر كلمة (كينين) والده و(تايد) أمه، الأمر الذي دفع بفرهاد أن يبحث عنه، تعاونه في ذلك كاترين بعد انفضاض الاجتماع في كل مكان، ولكن دون جدوى.

* * *

بعد انتهاء الدوام الرسمي وعودة الأب والطفلين من المدرسة هرع عدنان إلى غرفته وأغلق الباب عليه، ومن وراء الباب وقف بابا ودادة يستلطفانه..

- لك مكافأة يا عدنان.

هتف الأفندي من وراء الباب كي يهدأ من روع ابنه ويحفزه على الخروج، وترجته دادة بصوت حنون:

- افتح الباب كي أدخل وأجلب لك هديتك، والدك جرّب فكرتك فوجدها ممتازة!
انصاع عدنان لتوسلات دادة المتكررة، فخرج أخيراً يجرّ قدميه وراءه ويحتمي خلف أمه، كان الأب قد عاد إلى الصالة فاستقبل ابنه بالترحاب والبشاشة تطفح على وجهه:

- اجلس ابني أنا فخور بك، فقد أوعزت للمعاون أن يقوم بتعميم فكرتك رغم كونها غير قابلة للتطبيق على النطاق الواسع عملياً.

سكت الأفندي لحظة ناقلاً نظره بين وجه دادة الصبوح ووجه ابنه المنقبض، ثم استقرت عينيه على ابنه الذي كان يزدرد ريقه متوجساً، وقال مخاطباً إياه مصطنعاً ابتسامة باهتة:

- لي لك سؤال قبل أن أدعك تنصرف؛ كيف توصلت إلى فكرة الكنين، أما علمت أن هذا دوائي وقد تناقص بسرعة، وهل تعلم أن هذه المادة غالية؟

دخل فرهاد في تلك الأثناء آتياً من الحديقة متأبطاً عصاه، وقف في المدخل يشاهد ما يحدث بصمت، أخذت دادة يد عدنان في يدها وضمته إليها وهي تهتف مداعبة إياه:

- يا بطلي الصغير!

ومن تحت إبط أمه قدّم الصغير قصة الكنين:

- تذوقت يوماً بطرف لساني ذرّات من الكنين فلسعت مرارته وحدّته لساني، كنت قد سمعتك يوماً تقول إنها تقتل الميكروبات في الجسم، فقلت في نفسي فلربما تقتل هذه العقارب أيضاً..

ضحك الأفندي ضحكة تدمعت عيناه على أثرها، وضربت دادة بكفها على فخذه من العجب، انها لم تتوقع عملاً من هذا القبيل لصبي لم يتجاوز بعد عامه الحادي عشر، وتواصل ضحك الأفندي حتى غدا غير قادر على الوقوف فهوى على مقعد خلفه.. وبعد أن غادرته النوبة التفت إلى ابنه الصغير قائلاً:

- ولكن أتدري كم هو غال الكنين؟

أعاد هذا السؤال أكثر من مرّة، فرد عليه ابنه بالقول محتّمياً خلف ظهر أمه:
- سمعت هذا من بنيامين وفكرت وبحثت فوجدت بديلاً لها وهو (التنثريوك) وقد
جربناها في المرّة الثانية أنا وبنيامين.

جفل الأفندي ودادة جميلة لذكر هذه الكلمة، أخذته سورة غضب عارم، فهتف
صارخاً بوجه عدنان الطويل والذي زاد طوله تحت قلنسوته الصوفية الرمادية
الطويلة، صرخة ارتجّ لها بدنه النحيل:

- ماذا قلت؟ تنثريوك؟ تنثريوك؟ أتعلم أن هذا المحلول يستعمل لتعقيم الجروح.

أجاب عدنان بثقة ورأسه تحت حماية أمه فتتمّم وهو لا يكاد يُفصّح:

- نعم أعرف، لكنه تبين لي أنه أقوى مفعولاً من الكنين.

انقضى الوقت المحدد؛ وانقضى بقضائه الشتاء وتحول اللون الأبيض ولون الطين إلى جميع الألوان التي يضمها قوس قزح في سماء المساء، وبدأت الحملة في اليوم الأول من شهر الربيع؛ أي في ٢١ آذار، حيث يحتفل الشعب الكردي كل عام بأول يوم من العام الجديد، وذلك بإقامة النيران على المرتفعات تقليدًا وذكرى لانتصار الشعب على الطاغية الضحاك قبل ميلاد المسيح بمئات السنين.

في صباح ذاك اليوم جاءت كاترين بمصاحبة بنيامين، وألفيا فرهاد وعدنان لدى الباب، واتجه الأربعة معًا إلى المدرسة حيث ازدانت بالديكورات والألوان الزاهية، اجتمع الطلبة في هذا اليوم الخاص المتميز عن نوروز الأعوام السابقة أمام المدرسة بحضور أولياء أمورهم.. وقد ارتدى غالبية أولياء الطلبة من الآباء الزي الكردي التقليدي، كورته ك وشلوار أو رانك وجوغل، وجواريب صوف طويلة مزركشة وملونة تمتد حتى الركبة فوق شلوار، سروال، وذلك على غرار ما كان يفعله المناضلون البشمركة لدى صولاتهم وجولاتهم على الأعداء، ونضالهم من أجل حقوقهم القومية طوال عقود من الزمن.

أمّا الأمهات فكن يرتدين الزي الكردي التقليدي الملون المزركش، ويتألف الزي النسائي التقليدي من غطاء الرأس وثوب طويل غير شفاف، تحته ثوب أقل طولاً يسمى (كراس)، ويخفي هذا بدوره سروالاً فضفاضاً، وقد شدّت بعضهن إلى مقدمة نصفها السفلي قطعة قماشية بطول ثوبها تسمى (چاروك).. وقد أضرمت النيران في المرتفعات منذ الليل الفائت ولم يزل الدخان يتصاعد من فوق المباني وفوق المدرسة.

كانت دادة قد هيأت ملابس اليوم الجديد وملابس الحملة لأولادها كسائر الأمهات منذ الأسبوع الأول من شهر آذار، وكان هناك متطوعين لتقديم خدماتهم، وقد وضعت منضدة كبيرة أمام بوابة المدرسة، صفت عليها الكؤوس ذوات الأحجام المتساوية، ما عدا ثلاثة منها كانت أكبر حجمًا وأجمل منظرًا والتي رصت في الوسط.

وهناك وقف الطلبة في صف واحد كل صف وراء مشرفه بانتظار إشارة الأفندي لشن القتال، أخرج المدير الذي كان يقف بين مصراعي البوابة الكبيرة ساعته من جيب سترته الرصاصية ونظر إليها هنيهة مقطباً، ثم رفع رأسه مجيلاً النظر أعلى الوجوه المتفرسة فيه، ثم تكلم مخاطباً الحضور باختصار مفيد:

- أعزائي الطلبة حان الوقت لشن الحملة المقدسة، ولكن قبل ذلك أود أن أنصحكم وأحذركم ألا يبتعد أحدكم من مشرفه، وكما قلت لكم... والحمد لله أن المواد التي تستعمل الآن هي أكثر أماناً وفعالية، بعدما أجرينا عليها التجارب فكانت في مجملها ناجحة جداً، ولم نجد بأساً في الاستفادة من فكرة عدنان بإضافة بعض المواد المعقمة والتي زودتنا دائرة الصحة ببعض منها مشكورة، سيروا إلى الأمام في حفظ الله ورعايته ووفقكم الله.

حينها بدأ الجمع بالانطلاق مثنى؛ كل شريكين معاً ومن ورائهم الرجال، وانسحبت جموع النساء لإعداد الطعام، وامتأل الفضاء بالأغاني الكردية الشعبية المسجلة على اسطوانات كبيرة تدور على جهاز مسجل بحجم جهاز التلفاز الحالي، وكان النشيد القومي الأكثر شعبية على كل لسان ويسمع في كل مكان، الصوت الهادر المنبعث من دول وزرورنا، الطبل والمزمار، والتي أدت على إيقاعها الرجال والنساء رقصاتها الشعبية ره شبلك وشايي ارتجت من جرائها الأرجاء، ومن خلال مكبرات الصوت دوى صوت الشعب الكردي في نشيدها القومي المعروف الأكثر شيوعاً وشعبية؛ معبراً عن آلام وآمال الكرد:

(ئه م روزى سالى تازيه يه نوروزه هاته وه....)

(هذا اليوم هو يوم نوروز قد عاد من جديد ليمأ القلوب بهجة وسروراً... إنه لعيد عريق للكرد، وقد عاد بكل عنفوانه وجلب معه بركاته بالنماء والرخاء).

كان يوماً رائعاً.. الشمس قرص من لهب تحلق فوق الجبل الأشم، تبعث الدفء في القلوب والبهاء والرونق في الوجوه والنشاط في الأجسام، وباستثناء بعض الكتل المتفرقة من الغيوم البيضاء الصغيرة فقد كانت السماء صافية تماماً زرقاء كعيون الأفندي والبحر.

ظل المدير واقفاً في مكانه يراقب ويترقب أمام البوابة الحديدية، التي كان يفخر بها لأنها صنعت بإيعاز منه بعد مشاورات ومداولات طويلة مع الجهات المعنية، كانت

جالبة للأنظار بسبب ضخامتها والألوان والزخارف المرسومة والمنقوشة على مصراعيها، فقد كانت مطلية باللون الفضي ورسمت في وسطها صورة كبيرة لتلميذ في أحد المصراعين والحقيبة في المصراع الآخر، وفوق كل ذلك رسمت صورة طائر بلونين: أخضر وأحمر أشبه بالبيغاء، يمد منقاره للتلميذ وكأنه يجاهد في انتزاع القلم من الولد بمنقاره المقوس، والولد في موقف مقاومة مجاهدًا في سبيل الوصول إلى الحقيقة... وأكثر من مرة خاطب المدير طلبته بهذا عبارة: كونوا طالبي العلم كهذين على سواء؛ تتنافسون وتسعون في سبيل اقتناء العلم، العلم أقوى سلاح، والشعب العالم والذي سلاحه الورق والقلم؛ لمستغن عن البندقية وحتى العلم.

توغل الحشد إلى عمق بساتين النبق، حين وصوله مركز الدائرة الغابة تفرق الجمع لينتشر في الأطراف والنواحي البعيدة، ومن ضمنها الطرقات والممرات، وتراجعوا إلى مرعى المطران والبيوت القائمة المتاخمة له، وامتدت حتى تخوم التلال.

النبق كان لا يزال طريقًا ناعمًا في باكورته، وكانت العناقيد تتدلى إلى أسفل بحيث كانت تعرقل أحيانًا مسيرة الحشد الزاحف بلا هوداة إلى الأمام، وكلما فرغت زجاجة من المحلول عاد أحد الشريكين ليملأها من جديد من عند الفراشين اللذين كانا يقفان وراء صفائح النفط والمواد المبيدة فوق المنعطف المرتفع على رأس الطريق الترابي.

بعد ما يقارب النصف ساعة؛ وصل أول خبر إلى الأفندي من الجبهة جاء به المراسل شمو، مفاده أن المشرفون قد استعانوا أكثر من مرة بعدنان لمعرفة الشكل المميز لجحور العقارب، فكان وصفه صائبًا إلى حد قلما وقع خطأ في صب المحلول القاتل في حفرة لم يتواجد فيها عقرب.. وإذ ذاك نفخ الأفندي في غليونه المتميز مفتخرًا مزهواً كالطاووس بذيله.

وكاد النهار ينتصف حين وصلت النسوة أمام المدرسة، في انتظار الإشارة لفرش السفرة (الخوان) ووضع الطعام، وكانت دادة أشدهنّ تحمسًا للأمر، وكانت ترتدي أجمل زي لها وقلاحتها الذهبية تتدلى على صدرها، وعلى رأسها الغطاء البنفسجي المرصع بالزهور الزاهية والنقوش والшал الحريري الفاخر الأخضر الملتف حول

عنقها الطويل الأبيض، فبدت هكذا وكأنها أميرة يانعة ضالة باحثة في مرعى المطران عن أمير.

وما يجدر ذكره أن ملابس النسوة المسيحيات كانت تختلف عن ملابس المسلمات؛ فكان لهن زيّهن الخاص بهن، فمعظهن كن يرتدين أثوابًا لم تكن بالطول الذي يصل إلى حد الركبتين كما كان الحال مع المسلمات، وكن حاسرات الرأس، ورغم ذلك لم يكن التمييز بين الصنفين بالأمر اليسير، وذلك لأن بعض النسوة من الطرف هذا كن يرتدين نفس الطراز ونفس الموديل والألوان من الطرف ذاك، ورغم ذلك لم يجد الناظر إلهين بدّة صعوبة في التمييز، فالعلامة المميزة كانت تبدو واضحة خاصة في وجوههن، حيث كانت وجوه المسيحيين أكثر حمرة، وشعرهن أقل دكنة، يميل إلى الحمرة الفاتحة أو الصفرة، وقد عزا الأفندي سبب حمرة خدودهن تلك إلى الشراب والنبذ الذي كنّ يرتشفنه بلا هوادة أو حياء على حدّ تعبيره.

وبغثة نادى منادٍ أنه لا يجوز لأولياء الطلبة بالتواجد في منطقة الحملة، فعاد الرجال والنساء إلى الخط الخلفي، وأخذوا بالجلوس على طرفي الشارع بين الحشيش والزهور والخشخاش والكنير ذات الأريج المخدّر الهادئ، يتبادلون الأحاديث ويدخنون السجائر ويذكر كل منهم أمجاده وبطولاته.

وهناك على الساحة بدأت البقع الداكنة تملأ المكان، وصوت المسجل الهادر يصل جميع الأذان حتى ارتفع أصدائها خلال أشجار النبق، وطفق عمر أفندي يقرأ آية الكرسي متابعًا سير الأحداث من بعد، في حين دام شمو في حركاته المكوكية لنقل آخر المستجدات.

وفي غابة النبق كان فرهاد يتقدم كاترين قليلاً وقد تجاوزا الخط الأحمر المرسوم، حيث وصلا إلى منطقة سلاسل الصخور المتاخمة للتلال، أمّا عدنان فكان الأسعد والأكثر حظًا ولم يكلفه البحث مجهودًا كبيرًا، فكان يعثر على الحفر بسهولة الخبير فيشير إلى بنيامين بصب المحلول فيها لتدب الدويبة بعد ثوان خارجًا تترنج وكأنها قد تجرعت العرق الذي كان يصنعه العم بطرس بيده والذي كانت نسبة الكحول فيه ٦٠ %، ولم تمض ثوان قليلة من الحركة الجانبية والدوران اليائس حول ذيلها المرفوع حتى كانت الدويبة قد فقدت القدرة على كل حركة وصارت جثة هامدة، فيتلقفها بنيامين بالملقط ويلقيها في الصفيحة المعدنية.

ودام الشطر الأول من الحملة حتى الساعة الثانية عشرة عندها جاء شمو بالخبر الجديد: إن سيادة المدير يقول إنه قد حانت فترة الاستراحة.. وما هي إلا دقائق حتى بدأت طلائع الطلبة بالظهور ليرصوا الصفائح بانتظام على طول الشارع في الطرف المقابل للمنضدة والكؤوس، كل ذلك تحت إشراف المعلمين الذين تناولوا فطائرهم وهم وقوف.

بعد ذلك هرع الكل إلى حيث يجلس أبويه أو واحد منهما، فما هي ثوان حتى غصّ جانباً الشارع بالضجيج والصخب والصياح والأغاني، كل تلميذ يشرح لأبويه ما فعل وكما اصطاد.

وجلس عدنان إلى جانب دادة واضعاً رأسه على فخذها يتأمل السماء، بدا كما لم تكن لديه رغبة في الكلام، وقد كان مرهقاً وصوته أبحاً لأنه بجانب مهمته قد مارس هوايته الأخرى وهو تقليد أصوات الطيور والحيوانات، ولم يتوقف عن ذلك إلا عندما أحس في لحظة ما أنه كان مطوقاً من قبل الكادر المشرف على سير العمليات، الذين أسرعوا إلى مصدر الصوت مأخوذين مندهشين متسائلين: كيف يتأتى لعم واحد صنع كل هذه النغمات والذبذبات المختلفة المعقدة، ولحظتئذ أحس عدنان بخجل شديد وسارع بالاختباء وراء شجرة أم النبق.

أمّا بنيامين وابتسامته الضفدعية التي لم تفارقه لحظة؛ اتخذ مكانه بجانب عدنان ولم يتجرأ بالاستلقاء كما فعل الآخرون إلا بعدما أشارت إليه دادة بالسماح، وقد كانت دادة تعامله كابن لها، وتحثه على أن لا يتردد في طلب كل ما يريده ويحتاجه، مسكين من لا أم له، يتيم من لا أم له، سمعها عدنان مراراً تغمغم مع نفسها.

ووصل فرهاد مع كاترين أخيراً وهما يلهثان في اللحظة التي كاد صبر دادة ينفذ لتأخرهم، فعانقته أمه بحرارة متحسسة العرق الملتصق بجسده اللدن براحة يدها، فتشعر بنوع من القشعريرة مبعثها الفخار، ثم التفتت إلى كاترين وقربتها منها لتطبع قبلة على وجنتها الحمراء الساخنة.

استلقى فرهاد على ظهره وفعلت كاتي نفس الشيء بعد الاستئذان من دادة التي قابلتهما بابتسامة عذبة مبدية عن أسنان ناصعة، وبينما هما مستقلقان أمامها على العشب الكثيف هكذا؛ اختلست دادة النظر فيهما ولاحظت أن ركبتهما التصقت بركبة ابنها وكتفها بكتفه، وبين شقي البلوزة الوردية التي كانت ترتديها فوق قميصها

الأحمر لمحت الأخدود الضئيل الحليبي اللون ممتدًا بين نهديها البيضويتين المرتفعتين تحت البلوزة بمقدار بيضة الدجاج، ثم انتقلت عيناها الشهلاوان إلى خدّ ابنها البكر، وتحديدًا شعيرات شاربيه الناعمة الصفراء.. إنه كبر، قالت في نفسها، ولسوف يكبر بسرعة ووتيرة أكبر بصحبة هذه الفتاة الفاتنة، رفعت حينها رأسها إلى السماء الصافية تحمد الله للنعمة.

وها هم المشاركون يفترشون العشب حول قطع النايلون الشفافة الكبيرة التي فرشت على الأرض المرصوفة بشتى أصناف الطعام التي قدمتها أمهات الطلبة، ولم يدم جلوسهم طويلاً حيث خرقت صافرة العم بطرس حجاب الصوت، وبدأ الشوط الثاني من المعركة.. وغاب المراسل شموّ زمناً ثم عاد قبل الثالثة ظهراً بربع ساعة ليبلغ الأفندي أن سعادة مدير الناحية سيصل إلى بناية المدرسة في غضون نصف ساعة.

قارب الوقت الساعة الرابعة، وكانت بعض الغيوم المتفرقة قد تكومت وتراكمت واتحدت بسرعة مبشرة ومنذرة بسقوط زخات مطر.. والمطر ونوروز متلازمان، فكلاهما رمز للخير والحياة الجديدة.

الملابس ذهبت نظيفة وعادت قذرة، الوجوه سارت إلى ميدان المعركة منشرحة لتعود منقبضة، والشعر ذهب منسرحاً بشكل جذاب مرتب؛ ليعود أشعث مغبر مترب، والأأيادي البيضاء عادت سوداء بفعل المحلول العدناني الذي فتك بالأعداء السود والصفير.

وقبالة المدرسة كانت الصفائح المعدنية التي احتوت الأشلاء تلمع مرصوصة وموضوعة بشكل أنيق، وقد تم ذلك خاصة تحت إشراف ماموستا فيصل الذي لم يفتأ يلقي دروساً عن ملاحم الكرد البطولية عبر الأزمان طوال المسير الجماعي للطلبة في بستان النبق الذي استحال ذلك اليوم إلى ساحة المعركة القومية الشريفة للذود عن حياض الوطن.. واكتظ الطرف الجنوبي من الشارع بالنساء في حليهن وزينتتهن وأجمل ملابسهن، والطرف الشمالي بالرجال.

كانت هناك لجنة تحكيم مكونة من أربعة أشخاص اتخذت مكانها خلف المنضدة المعدة لهم بجوار المنضدة المرصوصة عليها الكؤوس.. وعندما وصل موكب مدير الناحية بدأ الكل بالتصفيق والنساء بالزغاريد.

وارتفع صوت النشيد القومي الكردي من الاسطوانة الدائرية المدارة على الجهاز المسجل الضخم: أي رقيب هه ر ماوه قومي كرد زبان... يا أيها العدو المتربص بنا اعلم أن الكرد باق وحيّ ولسوف لن يززع بنيانه مدافع الزمن.

استقبل مدير المدرسة أي الشخص الثاني في الناحية مدير الناحية بالمصافحة والابتساماة الدبلوماسية حسب الأصول، هو أولاً، يتبعه المعلمون وسط تصفيق الحاضرين الحار وصخبهم، وبعد أن اتخذ سعادته مكانه وراء المنضدة الكبيرة حيث الكؤوس والميكروفون، رفع يده البيضاء الصغيرة الناعمة كيد النساء إلى أعلى محيياً المصفقين من تحت نظاراته السوداء.

لم يمض وقت طويل حتى ترائى للناظرين تقدم موكب المطران الأبيض والذي أضاف بياضاً على بياض لأنه كان يحمل في يده حقيبة بيضاء، فتهاشم بعض الحاضرين بأنها تحتوي على خواتم وجواهر نفيسة نادرة كان يحملها معه أينما حل وارتحل، وكان يسير ببطء شديد وبعرج خفيف بين اثنين من مرافقيه، وقد حلف أحد من الناظرين لمحدثه أنه كان يتكلف العرج وبأنه إنما يفعل ذلك لجلب الأنظار إلى نفسه، وجلب عطف واحترام الناس البسطاء له..

وبعد رجل الدين المسيحي الأول؛ وصل الرجل الإسلامي الأول في شخص إمام الجامع الصغير الكائن في أقصى الجنوب من البلدة، وقد كان مرتدياً جبة جديدة، بدت كبيرة عليه، فقد لاحظته الجمهور يتلأأ عدة مرات في مشيته وهو يدوس على حاشية ردائه الطويل، حتى كادت عمامته البيضاء المكورة ككرة اللهانة وقبة الجامع تسقط على الأرض في إحدى المرات، لولا أن تدارك في اللحظة الأخيرة وأطبق بيده على عنق تلميذ فقيه له شاب ومرافق له في هذه المناسبات؛ ليشده شداً هائلاً حتى كاد أن يخنقه.. كان منظرًا رائعاً للمعلم فيصل المنتصب أمام طلاب صفه وهو يشاهد الملا من بعيد ويضحك بسخرية وبصوت مسموع تحت شاربهِ القيطاني الرفيع، ويهمس مع نفسه وبعض الواقفين بالقرب منه: ملا سكران يترنح! ورغم ذلك استأنف الأمام الكهل سيره وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه الضيق الداكن ذي التجاعيد العريضة.

تبعه في الوصول مأمور القشلة، مركز الشرطة، ثم المضمّد الصحي ومن ثم موظفو الدوائر الأخرى القليلة، عدا موظفي الزراعة حيث كانوا لا يزالون يواصلون مهمتهم في رش المبيدات في الأماكن المحددة لهم خارج نطاق فعالية الطلبة، وكانت مهمتهم تنحصر بالدرجة الأولى في إبادة بعوض الملاريا في المياه الراكدة حول الناحية.

هدأ الصخب حينما أعلن مقدم الحفل أن سعادة المدير سوف يقوم بتوزيع الجوائز على الفائزين وكل المشاركين، وكان العد يجري بإفراغ كل صفيحة من العقارب التي أُلقيت فيها على المنضدة من قبل هيئة الحكم ومن ثم يتم عدها بالملقط، ثم يسجل على البطاقة البيضاء الملصقة على الكؤوس عدد العقارب التي قام الطالب

بقتلها تحت الاسم المسجل على نفس البطاقة، استغرق العد عشرة دقائق كاملة؛ أعلن بعده مقدم الحفل أنه قد تم العد وسوف يباشر بتلاوة الأسماء.

علا الصخب والهرج والمرج مرة أخرى بين الجمهور حين بدأ المذيع الذي كان فمه أطول من أنفه جرّاء المهنة، بتلاوة الأسماء: اسم الثنائي الفائز الأول: عدنان وبنيامين عدد العقارب ستة وثمانين.

جفل مدير الناحية لهذا العدد الهائل وراح يتأمل الجثث الهامدة المطروحة على المنضدة المجاورة للمنضدة التي رصت عليها الكؤوس، وارتسم على وجهه الأبيض الرقيق وذقنه الحاد المدبب علامة استفهام كبيرة، مما حدا بالمعلم سمعان المشرف على صفّ عدنان الخالي رأسه من كل شعر كالقرع أن يتقدم من سعادته مفسراً:

- لقد ابتكر ابن المدير الصغير عدنان طريقة جديدة للقضاء على هذه الدوبيات الرهيبة، وذلك بمزج النفط بمادتين آخرين..

هنا توقف المعلم سمعان عن الكلام مشيراً إلى العم بطرس الذي كان يقف وراء الطلبة، هرع العجوز بسرعة وفي يده زجاجة فيها نموذج من المحلول الفاتك، وقد تلكأ مرتين على كم بنظونه المتهرئ والذي كان قد نزل إلى الأسفل قليلاً لأن الحزام الممسك به قد انقطع أثناء الغارة، فاضطر إلى شده بغصن لين رفيع من النبق.

علت ضحكة قوية قصيرة من وسط الناظرين لتتنصب العيون بعد ذلك على أيدي سعادته الماسكة بالزجاجة، إذ أخذ يقلبّ القارورة بين يديه الناعمتين الصغيرتين البضتين.

رفع سعادته رأسه إلى السماء بعد تفحص تام لمحتوى الزجاجة وهو في حالة اندهاش عظيم، ليبدى عن عنق ناصع البياض لم يضارعه في ذلك إلا حقيبة المطران، الذي كان يقف بجانب الإمام صامئاً وعلى شفتيه البيضاوين ابتسامة فاترة ساخرة، وكأني به ينوي بذلك الإعلان للعامة أنه غير مبالي لما يجري من أمور الدنيا، شأنه شأن الإمام الذي ما انفكت شفتاه اليابستان تفتران عن كلمات غير مفهومة حتى لأقرب الواقفين إليه.. ومن هناك هتف بعده المذيع في المذيع بصوت خشن:

- ليتقدم الطالبان الفائزان الأولان.

وتقدم المعلم سمعان الأصلع يتبعه عدنان وبنيامين اللذان بلغ الارتباك بهما مبلغًا فقد من جرائه القدرة على النظر فيما حولهما، ووقف الثلاثة أمام حضرته الذي صافحهما بيد وناول بالأخرى الكأس الأكبر إلى عدنان، الذي تناوله بكلتا يديه المرتعشتين، ومن ثم قدم له مطروفاً والذي ناوله بدوره إلى بنيامين الواقف بجانبه كالصنم، والذي لم تفارق الابتسامة الضفدية وجهه العريض رغم حرجه.

اشتد الضخب للمشهد، وعلت زغاريد النساء من الطرف المقابل لفترة ليست بالقصيرة، ثم هدأت الأصوات فجأة؛ إلا صوتًا واحدًا استمر لدقيقة أخرى إضافية، فاشترأبت الأعناق إلى الجهة الصادر منها الصوت، فإذا بدادة جميلة وقد كشفت عن نصف وجهها ليتمكن الناس من التعرف عليها، مفاجرة معلنة أنها هي التي قد أنجبت هذا البطل.

بعد انصراف الثنائي الأول خاطب سعادته الجمهور قائلاً:

- إن ابن المدير العزيز قد سجل أسطورة في هذا اليوم الأغر في تاريخ شعبنا، فشكرًا له ولوالده الذي قدم خدماته الجليلة للمدرسة، والتي صارت بفضلها مدرسة نموذجية.

في تلك الأثناء التفتت أنظار الجمهور إلى مدير المدرسة الذي همس شيئًا في وجه مدير الناحية، الذي هز رأسه بالإيجاب، ومن ثم توجه للجمهور مخاطبًا إياهم:
- إن حضرة مدير المدرسة أبلغني أن هناك طالبًا آخر واسمه بن...

توقف سعادته يحاول استرجاع الاسم لكن دون جدوى، فبادر الأفندي الذي كان يقف بجانبه بتذكيره بالاسم، فعاود الكلام بابتسامة اعتذار:
- اسمه بنيامين وهو بطل مثله.

علا تصفيق طويل جدًا، وعلت زغاريد النسوة الملتحفات المغطيات من المسلمات، ومن المسيحيات المتبرجات الكاشفات عن ركباتهن، ولم تهدأ ولم تخف إلا حينما استأنف المذيع تلاوة البقية من الفائزين:

- توما وكوركيس الثاني عدد العقارب: تسع وخمسين عقرب، خانزاد ومحمد: أربع وأربعين، داود ويوسف: إحدى وثلاثون، ميديا ورونك: ثماني عشرة عقرب... وأخيراً فرهاد وكاترين: أربع عشرة عقرب فقط.

تقدمت كاترين لاستلام كأسها يتبعها فرهاد، كانت شفتيها تلمعان كالطماطم البضة، في ضوء الشمس التي بدأت بالزوال التدريجي خلف الغيوم، السابحة بسرعة في الفضاء الأزرق اللازوردي، لتحجبها تارة وتكشف عنها تارة أخرى، وبدأت للناظرين أنها أجمل فتاة في كل البلدة بلا منازع، وشاهد الناظرون في الوقت نفسه أن الإمام التفت إلى مرافقه بغتة لدى لمحها لسيقان كاترين العارية البيضاء البضة، ليتقدم إلى سعادته مستأذناً بالمغادرة الفورية للمكان، في كثير من خطبه كان يشدد ويؤكد على ضرورة ارتداء الطالبات ملابس طويلة، فلم يبال بكلامه الأفندي رغم كونه هو نفسه متشدد، لكنه لم يرد الضغط ولم تكن هناك مادة في النظام المدرسي تفرض نوعاً معيناً من الملابس.

كانت كاترين ترتدي بلوزة ضيقة صفراء على قميص أخضر فوق فستان ترابي منسجم مع الزمان والمكان، وقد أحسنت الاختيار، أمّا شعرها فقد كان الجزء الوحيد الذي سلم من اللطخ واللطم السوداء الداكنة التي ظهرت على ملابس المشاركين جميعاً دون استثناء، شعرها كانت قد غطته بغلالة سميكة طويلة مدة السباق، وأزاحت الغطاء بعد انتهائه؛ لتكشف عن شعر أسود متموج قليلاً من الوسط قصير، فبدا من تحته عنقها العاجي الطويل، أمّا وجنتاها فقد اتخذتا لوناً برونزياً لماعاً، وهكذا فقد أضفت كاترين بوجودها رقة وعذوبة وطلاوة إضافية إلى الجو العام الرائع الجميل بعيدة وحفله وهوائه...

عروس الحفل! علت أصوات تناديها...

تفرق الحشد بعد انتهاء الحفل، وانعكست أشعة الشمس على الفساتين الكردية المكسوة بالحرشف البراقة للطالبات والوالدات.. واجتمع شمل الأبناء والآباء، واحتضنت الأمهات أولادهن، وهكذا احتضنت دادة ابنيها البطلين وكاترين وبنيامين جميعاً، وبينما هي تحتضن الأطفال مأخوذة بنشوة النصر والفخر؛ أحست بيدين تربتان على ساعدها برفق عن يمينها، التفتت فرأت امرأتين تبتسمان لها بلطف

وارتباك، بادرت إحداهن والتي بدت أكبر سناً وقدمت نفسها بأنها أم كاتي، والثانية بأنها عمة كاتي، وبسبب دقة ملاحظته استطاع فرهاد وهو يتفحص عن جنب المرأتين بأن وجه عمة كاترين كان يشبه وجه المغنية اللامعة مائدة نزهت، ووجه أمها- الـ (زرداك) - وجه زوجة أبيها - كانت منقطة بنقاط سوداء صغيرة شبيهة بالنقاط التي رآها على الأفعى الرقطاء التي قد تعاون مع العم بطرس في قتلها في منزل المرأة الحضرية الهلعة!

وعلى مرعى المطران تعالت أصوات الراقصين على أنغام وإيقاع دول - طبل كبير الحجم مصنوع من جلد رقيق - وزورنا وهي آلة نفخية على شكل بوق، تحت زخات المطر الساقط كالرذاذ المنعش على الرؤوس والوجوه، وأمام الباب المصنوع من السلك المطاوع المشبك افترشت دادة مع المرأتين العشب، ترنو إلى الدبكة وتتحدث إلى المرأتين ومن حولهم الأبطال الأربعة يتخبطون في صخب ولغط ولعب متواصل لا يعرف الملل ولا الكلل، وفي جو معبّق بشذا الكنير ورطوبة المساء والماء وقلب غامر بنشوة السعادة والراحة والمرح يتلاشى الشعور بالزمن، وتتحول النفوس إلى فراشات الحقل المرفرفة فوق الزهور والورود.

وضعت دادة جميلة الكأسين في الخزان الخشبي ذي الواجهة الزجاجية القائم في غرفة الجلوس، وكان كأس عدنان، أي كأس بطولة سباق قتل العقارب أكبر من كأس فرهاد وكاترين بضعة على أقل تقدير، الفرحة كانت غامرة تامة وبخاصة بعد أن صار الأصدقاء الأربعة يشار إليهم بالبنان في المدرسة والشارع.

في اليوم التالي للسباق كان فرهاد على موعد كالعادة مع كاترين، كان الجو رائعاً والبلابل تغرد متنقلة على الأغصان والورود، والنحل مؤزاً محلّقاً فوق الزهور الصفراء والقهوائية الممتدة على طول الممر الممتد بين البابين؛ بوابة البيت وباب الحديقة الأمامية ذي السلك المشبك، وفي الباحة / الطارمة ألفى أباه مستلقياً على أريكته غارقاً في متاهة من الأفكار والوساوس التي ظلت تلازمه منذ نشوب الحرب الكلامية بين معلمي مدرسته، ولم يشأ الصبي أن يراه والده وهو يخرج فصار متأبطاً عصاه على أصابع قدميه المتواريين في حذائه المطاطي الأسود، كان على وشك أن يجتاز منطقة الخطر وإذا بوالده يهتف وراءه، التفت مذعوراً، رفع الأفندي يده ملوحاً تعلق وجهه ابتسامة عريضة، ما بعث السرور في قلب صبي قلما تلقى ابتسامة حقيقية من أب جدي.. سأله ممازحاً:

- ما تلك بيمينك يا موسى؟

تجمد فرهاد مكانه واحتار ما يعني والده بالسؤال، ومضى والده وأكمل الآية:

- قال هي عصاي أتوكأ عليها....

فابتسم فرهاد وهو لا يبدي أية حركة، ومضى أبوه يرميه بسؤال جديد مقتبس من نفس السورة:

- وهل لك فيها مآرب أخرى يا بني؟

وعاد ليجيب هو بنفسه:

- نعم... نعم... يا بني لا شك أن لك فيها مآرب أخرى، ولكن حبذا لو استخدمتها في إسقاط النبق لا في مآرب أخرى.

الآن أدرك فرهاد ما قصد أبوه وراء تلك المداخلة.

تورد وجهه البيضاء الحنطي اللون ولبت خافض الرأس حائراً للحظات معدودات، فلم يتفوه بحرف إلا بعد أن كرّر أبوه عليه السؤال، فلم يجد بداً من أن يبحث عن رد مناسب، وما أن وجده حتى أطلقه متلثماً:

- اطمئن يا بابا، لن استعملها لغرض آخر إلا في حالة الدفاع عن النفس.

سمع صدى تصفيق من هناك فرفع رأسه إليه مذهولاً، لمح في عينيه بريفاً لم يألفه، يبدو أنه أعجب برد ابنه، فقال تحت شواربه المسطحة المخروطية الشكل:

- الله إنك لفتى نابه يا بني، لم أتوقع منك هذا الجواب وهذه الموهبة في تعلم اللغة العربية، لا أدري كيف استطعت استيعاب المعاني ومن ثم استنباط رابط بين كل هذا وذاك، لا أشك أن ما فعلت هذه اللحظة يعجز عنه الرجال وناهيك عن النساء اللواتي لا يجدن سوى الطبخ والغسل.

لم يرد الأب أن يعرقل سيره كثيراً فأشار إليه أن يمضي في سبيله وهو يضحك بأنفه دون فمه، وبعد أن خرج الصبي جاءت دادة فقالت له وهي تقف بين مصراعي الباب مشيرة إلى ابنها:

- لقد كبر، أصبح فتى وسيم، أرأيت ملابسه وهندامه وخطوط شواربه؟

اكتفى الأفندي بابتسامة رضا، ثم مدد رجليه النحيلين أمامه حتى لمسا النهاية القصوى للكنبة، ووضع رأسه على الـ (كوشه) المخدة الصغيرة وأخذ يتنائب لمرتين متتاليتين، فنهزته دادة بالقول:

- نعان طوال الوقت.. ألم أقل لك لا تكثر من شرب ماستاو (خليط من لبن وماء)؟

لم يابه الأفندي لما قالت فأغمض عينيه ولم تمض لحظات حتى وصل شخيره إلى مسمع دادة التي حولت ناظرها إلى البعيد: إلى الأفق والنبق تتابع مسيرة ابنها الحثيثة على المنعطف المفضي إلى الغابة بعينين متضرعتين:

- احفظه يا رب من شر عين الحاسدات والحاسدين.

تحت ظلال النبق التقى بنيامين الذي كان قد سبقه إلى هناك، وفجأة امتلأت الأرجاء في الأرض وفي الفضاء بأصوات الحيوانات والطيور على أشكالها والفضل يعود لعدنان الذي كان يقف على مبعده منهما، فقد مزق صياحه السكون وأجفلت الطيور من أعشاشها فانطلقت محلقة مرفرفة فوق الغصون، ولم يصمد بنيامين طويلاً فأراد

أن يجرب حظه، فانطلق صوته الغليظ في غناء أشبه بطرق الطبول منه من أصوات البشر، فما قد ضجت الطبيعة بالحياة والغناء.

كانت الرائحة النفاذة للمحلول القاتل لا تزال تملأ المكان، وبقع مختلفة الأحجام سوداء وأشلاء من الحشرات والعقارب كانت منتشرة هنا وهناك، والدخان يتصاعد من نيران الليل الفأنت، والدخان يتصاعد من بقايا حطب متفحم هنا وهناك وفوق سياج المدرسة الحجرية.

أما فرهاد فلم يكن منسجماً مع الجو المحيط ولا بأصوات أخيه، كان فكره بعيداً خارج دائرة الطبيعة المحيطة، وعيناه على الطريق، ومن بعيد لاحت له بمشيتها المغربية القبجية، الهواء يهفو بأهداب فستانها الأحمر ويتخلل.. أخذ يحدق بها يتفحص مشيتها تفاصيلها ويتلذذ بها، تبين له وهي تقترب أنها كانت تضع قدمها اليسرى أسرع من اليمنى ومن هنا حدثت العرجة الرائعة الملفتة للنظر، جذابة على الأقل في نظره، وجعلت هي تقترب في خفة وتبخر كأنها نغمة حلوة مجسمة، والتقت الأعين، ومن مكانه داعب منخريه شذا عطر نافذ كأنه أنفاس ملاك، ومن مبعدة عشرة أمتار سلمت بصوت رخيم:

- عيدك مبارك فرهاد.

فرد عليها ماداً لها يده:

- وعيدك أيضاً كاترين.

حينما اقتربت مد يده إليها لسحبها برفق إلى الصخرة، وهناك على الصخرتين التوأم جلسا كئفاً لكثف، قعدا على الصخرة بمواجهة النبق، وثغاء الأغنام تتعالى من خلفهم في مرعى المطران، وثمة راع يسرح أغنامه بعيداً، وكانت تمتد على يمانهما سلسلة من البيوت الحجرية المتراسة من الحي المسيحي، حيث منزل كاتي على طول الجدار الصخري الطبيعي المنخفض الفاصل بينها وبين المرعى.

من فوقهما تنحني أغصان شجرة شاتوو، التوت الشامي، المعروف بحباتها الكبيرة الممتلئة، وهي تنوء بثمارها وزهورها الحمراء، وذؤابات المتدلية الطرية تداعب هامتيهما وتدغدغ كتفيهما ومنكبيهما لدى كل هبة هواء أو هفة نسيم، كانت الصخرة بمثابة مركز الدائرة بين منزليهما، ومن هناك كانت النبقة الأم في مرمى بصرهما

حيث كان تسلسلها السادس في الصف المتعرج من الأشجار، وهناك كانت تجري لقاءاتهم البريئة الصببانية العفوية في الآونة الأخيرة.

ظلا هكذا يتبادلان الحديث حول حدث اليوم الغابر، والكم الهائل من الإطراء والتقريض الذي جاءهما من البعيد والقريب والمعروف والمجهول، وبعد أن ملا القعدة وثبا إلى الأرض واقفين لتجرهما أقدامهما إلى ما تحت النبقة الأم، لم يخف على كليهما أنهما قد بدءا يشعران بإحساس غريب منذ فترة وجيزة تجاه الآخر، شعور خارج ملكاتهما التفسيرية والتحليلية وفوق قدراتهم الذاتية في إدراك كنهه ولا ماهيته.

أمّا ما رأيته العين فكان أشدّ جلاء من المرأة المصقولة، فلم يغيب عن بال الفتى ولا الفتاة أنهما كانا يطيلان النظر في عيون وخدود بعضهما البعض، وأن في قرارة نفس وجسد كل منهما حدثت ثورة بدأت هادئة قبل أسبوع من الآن، ثم هدأت بعد الأحداث الأخيرة المثيرة لتعود الآن وبزخم أقوى من السابق، لم يشك أحد منهما أن علاقتهما كزملاء ترقّت واتخذت لونًا وشكلًا آخر، وأن روح الزمالة الصداقة البريئة بدأت تشوبها نزعة الجسد، وتدب فيها حرارة الدم وتساهم في تسييرها وتحويلها العروق والشرابين والخلايا، سرت الرعدة فيهما كلما مست يداهما.

صار هذا أمرًا واقعيًا ولا عجب فيه، ولكن ما حدث اليوم، في هذا اليوم الربيعي النوروزي الجميل، أصبح يومًا تاريخيًا لهما لو كانا يفقهان، كان الجو لطيفًا تتخلله نسائم ربيعية دافئة منعشة، هالة شعرها الأسود تحرق بقذالتها وعارضيتها وتنوس نوسانًا تموجيًا كلما بدرت منها حركة.

وهناك وتحت النيق الأم مدّت كاترين وبدون أي مقدمات يدها اللدنة لتحيط بذراعها عنق فرهاد الذي شعر بفزع بسبب المفاجأة، ثم أمالت رأسه الأملس من رقبتة بتؤدة ورفق إلى وجهها المتورد وبالتحديد شفيتها الملتهبتين لتطبع وبكل قوة ورشاقة قبلة خاطفة على فم فرهاد، ثم لتلحقها بثانية وثالثة.. وهذه دامت وتواصلت حتى كاد الفتى أن يختنق، وفي الثالثة بالذات أحس فرهاد بأن لعبها (ريقها) قد امتزج بلعابه، وبأن شيء من السائل اللزج كذلك قد بلل وجنتيه وأسفل شفته السفلى، وانحدرت قطيرات منه ببطء حتى وصلت تخوم ذقنه المدبب.

لم يتحرك الفتى لقوة المفاجأة والمباغطة والمهارة في تطبيع القبلية من جانب الفتاة، ولم يملك إلا أن يذعن لهذه اللذة التي كانت تختلف تمام الاختلاف عن كل ما قدمته دادة جميلة من أطباق الطعام الشهي وأصناف الحلويات والعسلات، وبعد القبلية الثالثة أرخت كاترين ذراعها المطوقة لرقبته وهي تتأوه وتتلثث مزحزحة بجسدها المتشنج إلى الوراء، أمّا فرهاد فقد سحب نفسه إلى الوراء قليلاً معتدلاً دائخاً مصفر الوجه محتاراً مذهولاً.

عندما عادت إليه أنفاسه المبهورة أخذ يبتلع ريقه المطعم بنكهة رضابها المعسول؛ كما تمتص النحلة رحيق الورد والبلابل بواكير براعم الياسمين في الحقل الربيعي المعطر، أمّا هي فقد عادت لتستند ظهرها من جديد إلى الشجرة وهي ترتب وتعيد إلى حاله ما اعوج وانحلّ وانفك من العناق والقبل، ظل لثنائي ينظر إلى الأرض تحت قدميه ولم يرفع رأسه إلا بعد أن تناهى إليه صوتها المكبوت المتقطع فالتفت عاجلاً إليها فرأها تنتحب بهدوء، الدموع تنهمر من عينيها الواسعتين اللتين قد شابتها لطح حمراء، فلم يملك إلا أن يسألها وهو يميل بجسده نحوها ويضع يداً مرتجفة على رأسها، ويداً مرتجفة في يدها:

- ما بك يا طائر القبج؟

رفعت كاترين رأسها بمهل وهي تمسح دموعها وقالت بصوت متهدج وزفراتها حارة متصاعدة:

- أمي... أبكي على أمي... أمي الحقيقية، زرداك، زوجة أبي، تعاملني بقسوة وتضربني..

لم يجد فرهاد جواباً أو ردّاً مناسباً، بل ولم يعقل تماماً ما سر بكائها، زرداك؟ أم غير حقيقية؟ قسوة؟ لكن ما ذكرها هذا المشهد الحزين بالقبلية اللذيذة؟ لم تطل حيرته ولا تنهداتها؛ إذ تعالت أصوات الأغنيات وأصوات الحيوانات في تلك الأثناء وطغت على كل صوت، التفتا إلى المصدر فظهر لهما عدنان وبنيامين وهما يسيران بسرعة فائقة تجاههما، مخترقين الأشجار والأغصان الناتئة كالسيف القاطع، فأسرعت كاترين بمسح دموعها بمنديلها الأبيض النظيف، وعدلت من جلستها، ولفت عنقها بالئال الأخضر الغامق.

ومن بعيد صاح عدنان بالصديقين ملوحًا لهما بالانتباه، ولما تبين له أنهما ينظران إليه فعلاً بادر بحركة بهلوانية، ألقى بنفسه على يديه ورمى بقدميه إلى الأعلى متخذًا بذلك شكل عقرب بذيل، وسار هكذا مقلوبًا رأسًا على عقب فأضحك كاترين كثيرًا، أمّا فرهاد فقد برزت عيناه وفغر فاه لما يرى، وبهرت أنفاسه أمام كل هذه المفاجآت، وبدأت الأيادي تصفق بحماس ودهشة أمام هذا المنظر الغريب، مشى عدنان ذهابًا وإيابًا فوق العشب مرتين وهو يصيح من خلال فمه المقلوب من تحت: - أريتكم العقرب بذيل، والآن أريكم إياه بلا ذيل..

ترك قدميه يهبطان إلى الأرض ويداه لا تزالان ثابتتين على الأرض، فانقلب على ظهره دون أن تمس قدماه وظهره الأرض، وسار هكذا مقلوبًا على يديه وقدميه كما يفعل العقرب.. ضج الثلاثة بالضحك واشتد الضحك والتصفيق تبعًا وكان صوت كاترين الأبح يعلو فوق كل صوت.. عادوا في المساء بعد أن كلت أقدامهم وأصابهم الجهد المضني، يتقدمهم عدنان يليه بنيامين ثم الصديقان، ولدى وصولهما إلى باب المدرسة تعانقا مرة أخرى بهدوء وبلا قبل..

- إلى اللقاء كاترين غدًا.

- إلى اللقاء فرهاد.

في الأسبوع الأخير من الصيف وقبل فتح المدارس أبوابها للعام الدراسي الجديد ١٩٦٣ - ١٩٦٤؛ ذهب الأفندي يومًا إلى المدرسة، حيث كانت له زيارة أسبوعية هناك لاستلام الأوراق والمكاتب الرسمية والرد عليها إن وجب، وعاد بوجه عابس إلى البيت فلم يفعل شيئًا ولم يتناول طعامًا حتى وقت متأخر من بعد الظهر.

ظلت دادة طوال النهار تتقرب ماذا سيتمخض عنه هذا التوتر في نفس زوجها، وجاءها الجواب في الليل، إذ أخرج الأفندي بعد نوم الأطفال كتابًا رسميًا من مجرة الخزان الخشبي وألقاه بعنف على المنضدة أمامها، نظر إلى الكتاب باشمزاز ثم قال لها:

- هذا كتاب من مديرية المعارف في المحافظة.

دادة وقفت مشدوهة تنقل بصرها بين وجه الأفندي والكتاب الزاخر بالحروف والإشارات، أمسك الأفندي بالكتاب وقرأ سطرًا واحدًا فقط - بيت القصيد - من المضمون بصوت مرتجف:

- لقد تقرر نقل السيد عمر أفندي مدير مدرسة حرير الابتدائية المختلطة إلى مدرسة نموذجية في مركز لواء أربيل.

ضربت دادة كفا بكف وقد اتسعت حدقتا عينيها وشحب لون خديها، فلم تتمالك وهتفت متسائلة:

- أحقًا ما تقول؟

ولما لم تلق جوابًا منه تمتمت بصوت أشبه بالهمس:

- وما العمل؟ هل يحق لك الاعتراض؟ تعترض؟

أجاب الأفندي بيأس وهو يلقي بنفسه على الأريكة ويخرج سيجارًا ملفوفًا من علته الفضية:

- ليس لي الحق في ذلك فهو أمر وزاري.

- سيموت الأطفال لو سمعوا بالخبر.

قالت دادة هامسة مشيرة بيدها إلى الغرفة التي ينام فيها الطفلان.

استغرق الأفندي في تفكير طويل تائه، سحب مصة طويلة من غليونه الخشبي الطويل ثم نفخ الدخان سحباً أبيض يحوم فوق رأسه، لاحظ إمارت الهم والحزن على وجهها فالتفت إليها قائلاً:

- سنشرح لهما ونطمئنهما أن للمدينة محاسن كثيرة أيضاً... فليس من العسير إقناع الأطفال.

جاهد الأفندي في سبيل طمأنتها في حين كان هو نفسه إلى الاطمئنان والتهدة أحوج.

* * *

سرى الخبر بسرعة كما تسري النار في الهشيم، وقد نزل الخبر على الجميع نزول الكارثة، مرق المدير دون التفات لأحد في أول يوم من العام الدراسي إلى غرفة الإدارة بمصاحبة معاونه وكتب انفكاكه على الفور.

بعدها صافح المعلمين الذين بدا على وجوههم حزن وتأثر بالغ حتى انحدرت الدموع من عيون بعضهم، ومن ضمنهم المعلم فيصل الذي عدّ الأمر خطيراً للغاية، وهمس للمدير خارج غرفة الإدارة إنما كان نقله عملاً منكراً آخر من أعمال الفاشست والشفويين، لا لجرم اقترفه؛ بل لأنه كان مديراً ناجحاً مخلصاً يخدم الناس ويحبهم الناس.

وفي البيت عجزت كاترين عن إيجاد كلمات تعبر عن حزنها، وقضت ذلك اليوم بتمامه مع فرهاد ودادة التي ضمتها إليها بحنان بالغ وهمست في أذنها:

- أنت ابنتي ولا تحزني، فنحن لن ننساك.

كلمات دادة أثارت عواطفها وأفاضت شجنها فأجهشت بالبكاء، وألقت برأسها على صدر دادة، وبصوت تخنقه العبرات أباحت لها بسر حبها لها:

- كنت لي أمّاً حنوناً دادة، أحبك.

ولم تدم العناق، إذ سحبها فرهاد بلطف من على صدر أمه مستأذناً منها، وخرجها هكذا إلى الطبيعة يد بيد وبوجوه كالحة مصفرة، ولم يعودا إلا في موعد الغذاء، عندها قدمت دادة أفضل ما لديها من طعام، وبوجود كاترين أضاف إليه شرائح من لحم الديك الرومي المشوي.

بعد الغذاء خرجت كاترين مع دادة وفرهاد لحني النبق، وعادوا بكيسين مملتين منه، وكان النبق صلباً وقد بقي منه القليل بعد انقضاء فصل الصيف.. وفي المساء تناولت كاترين معهم طعام العشاء وكانت معظم الوقت صامتة حزينة، بائسة ومكتئبة، وبين الفينة والفينة كانت تخرج منديلاً صغيراً من جيب فستانها الطويل الأسود تمسح بها دموعها، وسط همسات الأفندي ودادة وتنهدات فرهاد المخنوقة في حلقه المتضيق، وتحت نظرات عدنان غير المألوفة وغمغات بنيامين غير المفهومة..

في اليوم التالي جاءت أم كاترين وكاترين مع العم بطرس وبنيامين للتعاون في العمل في جمع أثاث البيت وحزم الحقائب ولف السجاجيد والأفرشة، وجرى كل ذلك بصمت شبه تام، وحينها أبدت سستر وردة، عمّة كاترين، كما المعلم فيصل شكوكهما وتفسيراتهما حول دواعي نقل الأفندي المفاجئ.

في اليوم السابق ليوم الرحيل كان للأصدقاء الأربعة آخر لقاء لهم في حرير وفي غابة النبق، البقع السوداء من بقايا الحرب على العقارب كانت لا تزال منتشرة هنا وهناك، لم يذكر أحد منهم شيء حول الحدث التاريخي، فقد نال منهم الحزن على الفراق فلم يحلو لهم اللعب، فاكثفوا بالتسلق على أغصان النبق الأم والجلوس هكذا بصمت بينما الأرجل متدلّية متأرجحة في حركة عصبية مكوكية إلى الأمام وإلى الوراء وإلى الجانبين.

وبعد ساعة بين جلوس وتجوّال صامت بين الأشجار المتعانقة أغصانها؛ انفصل عدنان وبنيامين عن فرهاد وكاترين، حينها أمسك فرهاد بيدها وسحبها بتؤدة إلى حيث تنتصب شجرة أم النبق، وهناك وقفاً هنيئاً أمام الجذع الضخم، في رهبة وهيبة، وما كانت دهشتها حين وقعت عيناها على نقوش محفورة هناك في أصل الشجرة الضخم الصلب.

فأخذت تقرأ بخشوع: كاترين وفرهاد، حرير، ١٩٦٣.. رفعت رأسها تنظر إليه بعيني طائر اغتصب عشه، ظلت لحظات طويلة تحمق بثبات في عينيهِ العسليتين، ولم تتمالك طويلاً فألقت بنفسها على الحروف تقبلها، ثم استقامت وألقت بنفسها بين ذراعيه المفتوحتين.. همست في أذنه:

- متى فعلت هذا؟

- هذا الصباح.

- لن أنساك أبداً حبي الأول..

تنهدت كاترين وهي تضع رأسها على كتفه.. همس في أذنها:

- وأنا كذلك لن أنساك أبداً.

* * *

هبت عاصفة هوجاء على الناحية في ذلك الصباح الباكر في اليوم المحدد لرحيل أسرة الأفندي، واستحال وجه الطبيعة من أخضر إلى أسود جرّاء الإعصار الذي قل نظيره كما سمعت دادة من العم بطرس.

وأمام البيت توقفت سيارة شحن لوري متوسطة الحجم وقد حملت منذ النهار الفائت بالأثاث والأمتعة، وخلفها وقفت سيارة الدوج البيضاء والحمراء العتيقة، وكانت هذه السيارة الوحيدة في البلدة، كان يجلس داخلها قرياقوز الملقب بالدب لضخامته وعظم بطنه؛ ينتظر بفارغ الصبر.

تواصل مجيء جموع المودعين من أولياء الطلبة والموظفين والأهالي حيث كان للأفندي شعبية كبيرة في أوساط البسطاء خاصة، وجاء المطران والإمام الذي كان يمسح عينيه بطرف كم جبته الطويلة، والآغا ومدير الناحية والذي وصل أخيراً، وفي الوقت ذاته سرت إشاعات في أوساط غير رسمية أن مدير الناحية كان هو الذي يقف وراء نقل مديرهم العزيز، لأن شعبية الأفندي كانت تفوق شعبيته.

وقفت دادة أمام الباب المشبك متلفحة بملاءتها السوداء تراقب زوجها وهو يضع قدميه داخل السيارة ثم يتخذ مكانه إلى جانب قرياقوز الدب، حينها صعدت هي وجلست في المقصورة الخلفية بين ابنها اللذان سبقاهما إليها.

انطلقت الشاحنة بسرعة والدوج ببطء شديد تحت عيون وأنظار المودعين، الذين لم يكفوا عن التلويح لهم بأيديهم، ابتعدت السيارة حتى إذا بلغت أجمة أشجار الأسبيندار الباسقة عن يمين الشارع؛ حانت من الأخوين التفاتة أخيرة إلى الورا وشاهدا كاترين تنطلق كالسهم من بين الصفوف تلاحقهم وتلوح لهم بقوة وهي مشمّرة عن فستانها الأبيض، وظلت هكذا إلى أن بلغت أجمة الأشجار بينما كانت السيارة قد تجاوزتها قليلاً، وفجأة خطرت فكرة في بال فرهاد هدية يهديها في آخر

لحظة من حياتهما السعيدة معاً.. لكن ماذا؟ دفتر؟ ألبوم صور يرقد في حقيبته بين رجله؟ قلم في داخل جيبه؟ لا هذا ولا ذاك..

أخيراً وجدها؛ وبسرعة أخرج رأسه من زجاج السيارة عن يساره ومد يده إلى عصاه التي كان أسندها إلى المقعد ملاصقاً لقدمه اليمنى، وفي غفلة أبيه وانشغاله بالكلام مع السائق رمى بها بكل ما أوتي من قوة إلى الوراء حيث كانت الفتاة تقف باكية، فطارت العصا ثم وقعت بقربها مرتطمة بالإسفلت، رآها فرهاد وهو يطل برأسه من نافذة السيارة تتحني وتلتقط العصا من الأرض دون أن ترفع عينيها الدامعتين عن السيارة، وها هي تلوح بالعصا له ثم تقربها من فمها وتطبع ثلاث قبلات خاطفة على طرف العصا العريض حيث نقشت الكلمات الأربعة من دون أن تخفض نظرها عن فرهاد المندفع إلى الأمام، المطل برأسه من خلال نافذة الدوج، وظلت واقفة مطأطأة هكذا إلى أن تورات السيارة وراء أول منعطف.

أعاد رأسه إلى الداخل ليشعر بيد دادة على كتفه، تشده إليها من طرف وتشد أخاه إليها من الطرف الآخر، همست في أذنه دادة قائلة:

- إنها كانت عزيزة عليّ كابنتي، ولكن ينبغي عليك أن تعلم أنه أينما يولي المرء وجهه فسيلاقي الأعداء كما يلاقي الأحباء.

obeyikan.com

القسم الثاني

دادة

obeyikan.com

خرج عمر أفندي بساعة قبل بدء الدوام في اليوم الأول من العام الدراسي الجديد (١٩٦٣ - ١٩٦٤) في البيت الجديد والحي الجديد والبلدة الجديدة.

كان قد مضى أسبوعين منذ انتقالهم إلى بلدة عنكاوة التي تقع في شمال مدينة أربيل، المدينة التاريخية الكبيرة ذات القلعة العريقة المشهورة، انقضى أسبوعان من العمل المتواصل في ترتيب البيت الجديد والتأقلم مع العالم الجديد، أسبوعان من المشاهدة والمراقبة والترقب والاستطلاع؛ شأنهم شأن أي كائن حي يغادر جاره، عشه، جحره، عرينه أو منزله.. كل إنسان مجهول هو حيوان في نظر القادم المجهول قبل أن تألف وتأمين جيرته ويسبر غور وعمق نفسه وسيرته وسريرته، وجوه جديدة مختلفة عما ألفوها قبل الرحيل.

تشابه الوجوه الجديدة مع القديمة لعب دوره في التقارب أو التنافر من أهل الحي الجديد، فكل عجوز قصير القامة، مفلطح الأنف أفطس مقوس الظهر ذي وجه أحمر وفم خال من أسنان إلا من بضعة أنياب، ذو ملابس رث أنسوا إليه وإن كان منظره وهيئته رزياً لأنهم رأوا فيه العم بطرس، وكل ولد قصير ذي فم ضفدعي ورأس مخروطي رأوا فيه بنيامين؛ فأنس الأولاد إليه وصادقاه وعاشراه، وفي كل فتاة جميلة بوجه عاجي ومشية ساحرة وقد رشيق وقوام ممشوق وابتسامة ساحرة تمثلت لهما كاترين.. وهكذا دواليك...

يوماً قال فرهاد لدادة وهما ينظران فوق سطح بيتهم بعيداً حيث ينتصب جبل سفين؛ الجبل الأزرق:

- إن الجبل الأسود كان أصغر وأكثر وداعة من هذا الجبل الأزرق، كان ذاك مثل خروف وهذا كبير ضخم كذب الجبال.

فردت دادة بلا مبالاة:

- لا تغرّك المظاهر، فعسى أن يكون هذا أرحم!

أسبوعان مضيا كساعتين في العمل والملاحظة والمراقبة والتجوال في شوارع البلدة التي تبعد عن مركز المدينة حوالي ستة كم، وسرعان ما تبين لهم أين حطوا

رحالهم، إنهم الآن في بلدة غالبية سكانها من المسيحيين، اندهشت دادة جميلة فعبرت يوماً عن شعورها للأفندي:

- لا أدري هل يحبنا الله أو يكرهنا؛ فأينما حللنا حللنا بين قوم على غير ديننا؛ فه له، أو أثوريين.

وسرعان ما تداركت:

- أعتقد أنه يحبنا، فنحن كمثّل هؤلاء مسالمون لا نبغي الشر بأحد، نتوق مثلهم إلى عيش خال من شجار وقتال وحياة في أمن وسلام، الله قد أنعم علينا إذن، عشنا في ديانا ليولد لنا إبنانا ولينشأ مع المسيحيين، ثم حرير ثم الآن هنا.. لا نبغي ولا نظلم أحد، أليسوا هم كذلك يا أفندي؟

فأجاب الأفندي بامتعاض وقد اعتاد على قول الحق حتى على نفسه:

- أي بلا يا جميلة، إنهم حقاً أناس مسالمون، ومعظمهم مثقفون.

القنوط والحزن الذي حل في قلب الأفندي زال ليحل محله الرضا والفرح، فقد زار عمر أفندي المدرسة في اليوم الثاني من الوصول وتسلم المفتاح وقام بالدور والتسليم مع المدير السابق، وتعارف مع المعلمين العشرة وارتاح للمدرسة النموذجية، وأخذ ولديه معه يوماً إلى هناك فبهروا بضخامتها مقارنة بالقديمة، جذب نظرهم كونها ذات طابقين، والأثاث والكراسي الجديدة والخرائط التي زينت جدرانها العالية والساحة الكبيرة وملعب وأشجار البرتقال حول السور من الداخل فبدت كأنها سياج في سياج.

وهي تقف يوماً بين أشجار البرتقال قالت جميلة بلهفة لزوجها:

- عوضنا الله عن النبق بالبرتقال، فالنبق أرانا الفصول الأربعة، وبفضل أشجار البرتقال ستظل كل أوقاتنا ربيع، فالبرتقال لا يتنازل عن وريقاته مهما كانت العواصف قوية، ولهذا أحبها أكثر من ذلك.

أما فرهاد فقد ظل أياماً يلامس شفتيه بيميناه كمثّل من يبحث عن شيء نفيس فقده بين طياتهما، كان يصعد مع دادة للسطح العريض للدار ومن هناك تشير دادة قائلة:
- ذاك هو الجبل الأزرق، سفين، لا الأسود..

ثم تنظر إلى فرهاد وقد انقبضت أسارير وجهه فتحاول تحويل انتباهه، فتدير رأسها وتشير إلى الطرف المقابل، أي الجنوب، حيث تنبسط حقول القمح والشعير في مساحات مترامية لا حد لها وتقول:

- هناك ستلعبون كما يحلو لكم.

ثم تدفعه برفق إلى الطرف الآخر من السياج وتشير إلى مبنى ذي طابقين عال وتقول:

- تلك هي مدرستك وهناك سيكون لك أصدقاء جدد.. كن على يقين فلا تقلق.

وها بدأ العام الجديد وفتحت المدارس أبوابها من جديد، وخرج الأب المدير من البيت وفي أثره أبنائه التلاميذ، قبل انطلاق ولديها تجاه المدرسة ألبستهما دادة جميلة أفضل وأجمل الملابس، مشطت شعريهما بأناقة، ورشت عليهما أحلى العطور وأزكاها، وجعلت أحذيتيها تلمع في ذلك اليوم الخريفي الدافئ المشمس، ووضعت كيسين صغيرين من النبق والزبيب في جيب سترتيهما، وعلقت عقدة صغيرة من القماش الأخضر سمّتها نوشتي - أدعية - على بطانة سترتيهما وهي تتمتم:

- هذه تفيد لدفع الشر والأذى عنكما، من صنع يد السيّد حسن المباركة.

ثم طلبت من فرهاد أن يقرأ المعوذتين ففعل؛ يشاركه عدنان في التلاوة، بعدها انطلقا إلى الشارع وقفت دادة تشيعاهما بنظرات ملأها الرضا والحمد، ولم يكن الصبيان قد ابتعدا عشرة أمتار عن البوابة الحديدية حتى اندفعت إلى داخل البيت، انتبها لحركتها فالتفتا واقفين وهما ينظران فاغري الفاه، عادت بعد لحظات وهي تحمل في يدها بيضة نية باردة أخرجتها من الثلاجة ونزلت إلى وسط الشارع، وقفت هناك، التفتت يمنة ويسرة ثم رمت بالبيضة بعيداً إلى الطرف المقابل من الشارع العام الذي يمر أمام بابهم، ليرتطم هناك بالأرض وتتفجر ويسيل محتواها الأبيض والبرتقالي على حافة الرصيف.

لم يملك فرهاد إلا أن تساءل من مكانه:

- دادة، عرفنا المعوذة كانت لصد عين الحاسد أمّا البيضة فلم؟

أجابت دادة بصوت منخفض وهي تصوب عينيها الصغيرتين على باب بيت هناك:

- أنت لا تعرف.. هناك تسكن امرأة يقال إن لها عينان تتطايران شرراً من الحسد والغيرة، وهي عاقر لذلك فهي تحسد كل امرأة لها ولد.

ثم صاحبت بهما:

- هيا انطلقا فلترافقكما السلامة.

تابعوا الأخوان مسيرهما والدهشة على وجهيهما، وفي اللحظة ذاتها انفتح باب الجار الملاصق وخرج منه غلامان بعمر فرهاد وعدنان، وعلى أثرهما امرأة سمينة مكورة البدن مستديرة الوجه بطين قصيرة القامة غليظة الشفتين، كانت مفاجأة لدادة، فرغم مرور كل هذا الوقت لم تر ولم تحس بوجودهم في البيت، كانت ترتدي ثوباً قصيراً رمادي اللون يتوارى نصفه الفوقي تحت سترة جوزية اللون قصيرة.

اقتربت المرأة من دادة وقدمت نفسها لها وهي تبتسم بثغر مغلق تقريباً، وقالت بصوت أشبه بأصوت الرجال ولهات مسموع وبعبارات متقطعة:

- أنا اسمي ليلي... كنا في إجازة فلم نتشرف باستقبالكم.. أهلاً وسهلاً بكم... ومرحباً بكم.. لا شك أنكم أنتم جيراننا الجدد.

قالت كذلك وهي تمد يدها البضة بامتداد الشارع مشيرة إلى فرهاد وعدنان اللذين كانا ينعطفان في تلك اللحظة قليلاً نحو اليسار، ثم عادت تنظر إلى دادة تدرس معالم وجهها، ثم قالت باستحياء وتتابع النفس:

- يبدو أن ابني قد سبقاهما بدقة.. لم أنتبه لخروجهما..

لبنّت لحظة مقطبة وكأنها تتذكر شيء، ثم قالت وكأنها تذكرت الشيء:

- إنها ولدائي، أحدهما اسمه عاشور وهو الأكبر والآخر اسمه أمير...

نطقت اسميهما بحلاوة مفرطة وهي تزدد ريقها كطفلة تمص مصاصة بنهم بالغ، جفلت دادة لهذه المفاجأة السعيدة، فاقتربت منها ومدت يدها إلى يد الجارة تشد عليها بحرارة وقدمت نفسها:

- أنا اسمي جميلة، وهذان ولدائي فرهاد وعدنان ووالدهما مدير المدرسة الابتدائية الجديد واسمه عمر أفندي.

بهذه الكلمات قدّمت دادة نفسها وولديها إلى الجارة التي نزلت المدرج الصغير أسفل الباب، لتقف بمواجهة فرجة باب الأفندي، فواجهتها أول ما واجهتها لوحة معلقة فوق الباب الساج فتأملتها ملياً، اللوحة كان الأفندي قد علقها في أول يوم بعد الوصول بناء على رغبة جميلة وهو يضحك ساخرًا، فقد رسمت عليها صورة راحة يد (كفّ) كبيرة متلاصقة الأصابع، في وسطها رسمت صورة عين كبيرة

يمر عبر مركزها خط، وهذه كذلك كانت إحدى مبتكرات النسوة لإعفاء العيون الشريرة.

ابتسمت دادة جميلة وقالت لجارتها:

- أظن أنها فرصة مناسبة كي نجلس معاً عندي في البيت.

أومأت المرأة المدورة تبدي موافقتها وسط استحسان دادة التي ما فتئت تعيد عبارات الترحاب والغبطة بمقدمها.

في تلك الأثناء كانت أسراب الطلبة ماضية قدماً في اتجاه مدارسهم، فقد غصت بهم الأرصفة والشوارع والطرقات، أدهش المنظر فرهاد وعدنان وهما يسيران جنباً إلى جنب بصمت مع زميليهما الغريبيين على الرصيف الممتد بمحاذاة الشارع، تحت المباني والمنازل المتراسة والملتصقة ببعضها، والتي تدلت من فوق أسوارها أغصان البرتقال الخضراء الداكنة، ولاحظ فرهاد من ضمن ما لاحظ أن عاشور وأمير كلاهما كانا يرتديان سترة نيلية جديدة براقة وبنطلون جديد، على عكس ملابسهما القديمة الباهتة اللون.

وبعد مسيرة صامته لمدة عشرة دقائق وقف عاشور أمام باب مبنى ذي سور شاهق، كان يسمع من ورائه ضجيج وصخب عال لا منقطع، وهناك نطق أخيراً بأول كلمة:

- هنا.

وأشار إلى فرهاد قائلاً دون أن ينظر إليه:

- هذه هي مدرستنا نحن الاثنين.

في حين قال أمير لعدنان:

- أنت معي، البناية الملاصقة هي لنا.

انفصل الفريقان لدى الباب، فدخل فرهاد وعاشور إلى المدرسة المتوسطة واستأنف أمير وعدنان المسير إلى نهاية الشارع، ومن هناك ولجا باباً كبيراً علق فوقها بالخط العريض: مدرسة النور النموذجية.

انبهر عدنان لسعة وأناقة المكان من الداخل، والعدد الهائل للطلاب نسبة إلى مدرسته السابقة، أديا تحية الصباح للفراشين الواقفين في الممر الموصل بين البابين

الداخلي والخارجي، ثم واصلا سيرهما حتى وجدا أنفسهما في باحة واسعة تنتهي بفتحة تقضي إلى ممر آخر عريض، والذي كان يفصل الصفوف عن الساحة، توقف عدنان في منتصف الممر وفعل زميله نفس الشيء، وأخذ يجيل النظر مبهوراً في الخرائط والصور الملونة للحيوانات والنباتات والنشرات المدرسية المعلقة على الحيطان على امتداد الممر العريض.

قال أمير لعدنان بعدما توقف في ركن منعزل من الساحة:

- أنا أعرف أن والدك هو مديرنا الجديد، أمّا والدي فهو مدرس في نفس مدرسة أخيك وأخي، لا معلم..

لم ينصت عدنان جدياً إلى ما قاله زميله وجاره، وظل يحرق بالأرجل المتحركة والأيدي اللاعبة والأصوات الهاتفة والصارخة والداعية والمتحدية لحشد الطلبة.

كل ذلك لفت نظره، بل كاد ألا يصدّق عينيه لهذا اللغط والصخب كله، منظر لم يألفه، ولم يتخيله في حياته، وراح يتساءل من أين جاءت كل هذه الكائنات البشرية، وما أثار دهشته وانبهاره أكثر هو أن كل ذلك الضجيج انقطع فجأة وبصورة تامة، واستدارت الرؤوس والعيون تنتظر في كل الاتجاهات فإذا بمعلم أنيق يرتدي بدلة زاهية ورائحة ماء الكولونيا تفوح منه، وقف مترقباً ملوحاً إلى الحشد بالسكون، وقف المعلم هنيهة يتأمل بزهو ما صنعه حضوره المفاجئ في نفوس الطلبة، ولم تدم لحظة إلا وهتف المعلم بصوت أجش:

- اصطفا.. اصطفا.. سيادة المدير الجديد يود أن يتحدث إليكم.

جاء الأفندي مسرعاً إلى الساحة والصمت مطبق، ووقف أمام ستة صفوف من الطلبة فارحاً بين رجليه ودافعاً ب صدره الضئيل إلى الأمام، نظف حنجرته ثم أجال بناظره على الحضور ثم تتحنح قليلاً وقال مخاطباً:

- زملائي المعلمين وأعزائي الطلبة: السلام عليكم، أقول وأدخل إلى الموضوع مباشرة بأنني أعتبر نفسي خادم المدرسة لا سيدها، الكل متساوون، ابني وابن الفراش، ومن يرى في نفسه ميزة بارزة ويرى نفسه فوق مستوى الآخرين فلنسا بمانعيه، ولكن عليه في هذه الحالة أن يُقرن الفعل بالقول، لا يغيب عن بالكم أبداً يا أعزائي الطلبة ويا زملائي المعلمين والعاملين أنني كنت قبل هذا مديراً في مدرسة

بعيدة في قرية، استطعنا مع شحة المواد والصعوبات العديدة أن نحقق أمنيّتنا وهو الحفاظ على مستوى وسمعة المدرسة كمدرسة نموذجية.

وهي الآن والحمد لله تملك سمعة طيبة جداً، وكان ذلك بفضل وتعاون الجميع، سأعِدكم بأنني لن أدخر وسعاً في توفير كل ما تحتاجونه من لوازم وكتب وقرطاسية، فلا داعي لشكري هذا من صلب واجبي، كما درس والانضباط والسعي والاجتهاد وظيفتكم، أعدكم بأنني لن أتوانى لحظة في تطوير المستوى التعليمي للمدرسة، خلال حضوري في الأيام التي سبقت افتتاح المدارس في غضون الأسبوعين المنصرمين لاحظت أن قسماً من المناهج الدراسية لم تعد صالحة للتداول، الكتب التي تعاد توزيعها عليكم بعضها بلا غلاف وبعضها اختفت منها صفحات بكاملها، فسعيت واجتهدت واتصلت بالمدير العام الذي وعدني أن يوعز بتزويد المدرسة بكتب جديدة، وبما أنني شخص لا يأمن بـ (سين وسوف) قررت ألا أفارقه في مكتبه في دائرة المعارف إلا بعد أن يوقع على عرضي وطلبي.

سكت المدير هنا عن الكلام مجيلاً بنظره في الحاضرين فأنس الاهتمام بحديثه على الوجوه، ابتسم وهو يباعد بين قدميه أكثر، الحركة التي أثارت حركة وهمساً في الساحة، وعلت بعض الوجوه ابتسامة باهتة، انتبه إليها ابنه وهو لم ينتبه إليها، أخرج منديله ومسح جبهته المبللة وأنفه ثم رفع رأسه، نظف وحمم بحنجرته ووسّع ابتسامته ثم استطرد مبشراً:

- وكأول خدمة أقدمها لهذه المدرسة؛ هناك اليوم في المخزن كتب جديدة في انتظاركم.. اليوم نقوم بتوزيعها عليكم....

انفجرت الساحة بالتصفيق والهتاف، وراحت جهود المعلم داود كله هباء في إعادة الهدوء إلى النفوس المضطربة من الابتهاج.

في المساء وبعد صلاة المغرب دعا الأب ابنه إليه وخاطبهما برصانة:
- استعدا لسماع درسي الجديد الذي يفوق أهمية على جميع الدروس التي تتلقونها من مدارسكم.

ثم فرش سجادة الصلاة وقال لهما:

- اسمعا وانظرا جيّدًا لتتعلما طريقة الصلاة.

وبعد أن قدم درسًا في الصلاة العملي بدأ بدرس في الوضوء، تبعه بآخر في منقضات الصلاة والوضوء وما إلى ذلك من أمور، وأخيرًا قرأ لهما آية الكرسي وأكد أنّ من يتلو هذه الآية قبل القيام بأي عمل يوفقه الله ويحفظه من كل سوء.

كانت دادة جميلة تنصت إلى الأفندي ودروسه اليومية، وفي نفس الوقت تتأمل بشغف من خلال النافذة المطلّة على الباحة الخلفية ورق العنب المصفر تحت ضوء القمر البدر، وأغصان الكرم المتسلق فوق زجاجة النافذة والتي ما انفكت تحتك بها لدى أقل هبة هواء وفي رأسها فكرة ارتاحت لها: "سوف أقطع الطري والأخضر من الورق منها غداً لأصنع منها ومن الباذنجان والسلق والكوسا والطماطم والفلفل والبصل دولمة، أول دولمة في بيتنا الجديد" ..

ومن هناك ودون أدنى توقع من الأفندي انفجرت جميلة من الضحك وقد تنبّهت لما قاله حول آية الكرسي، فعبس متسائلاً عما أضحكها، فأجابت وابتسامة باهتة هازئة تعلو شفقتها الرقيقتين:

- أمّا كان الأخرى بك أن تبدأ بي وتعلمني سورة قل أحوز- تعني قل أعوذ- القصيرة بدل هذا الكرسيّ الطويل!.

في اليوم التالي خرج الزوجان في جولة في أنحاء البلدة، جولة قصيرة مخططة ومعدة لها سلفاً، وخرج الأولاد للعب مع ولدي الجار، كانت الرغبة في الخروج معاً من الطرفين مع رجحان كفة دادة، والسبب نية دادة في تفصيل بدلة جديدة لزوجها وإجراء تعديل في القديمة.

كان محل الخياط العم يعقوب يقع في نهاية صف طويل من الدكاكين المتواضعة الصغيرة في وسط البلدة حيث كانت تباع الحنطة والشعير بجانب اللحم وأدوات التصليح، ومحل الحلاق ملاصق لمحل النجار ودكان بائع الخضر بجوار بائع المشروبات الكحولية (الروحية).

سمح الأفندي لدادة بارتداء لباسها الكردي التقليدي المتألف من غطاء الرأس وثوب ملون مزركش طويل يمتد حتى القدمين، والذي يخفي بدوره سروالاً فضفاضاً وحزام من القماش يشد في الوسط فوق الخاصرة يشطر الفستان إلى شطرين، انداح أعلاهما وتدلّى، وملأتهما دادة بأشياء نفيسة كأوراق وأقراط وأدعية وعلبة صغيرة فيها ملقط لنزع الشعر ومرآة صغيرة وما شابه.. إذ اعتبرته دادة جميلة موضعاً أميناً لحفظ وإخفاء بعض من مقتنياتها، ثم لفتت نفسها بالعباءة السوداء فنهاها الأفندي قائلاً:

- البسي بدلاً منها سترة طويلة.

وزاد معلقاً بإطناب:

- هناك أناس يمشون في الأسواق بسيقان عارية، هؤلاء يحسبون أنفسهم مودرن ونسائهم متعلمات، أمّا أنت فكفاك حشمة بهذه الملابس، والعرف السائد لا يجوز إهماله ولا إلغاؤه بالمرّة بل يجوز تعديله كي تتلائم وتنسجم مع عاداتنا الموروثة دون إغفال العادات المكتسبة الجديدة، بل من المفضل تبني جزء منها، الصالح لا الطالح، لو بدرجة طفيفة.

ثم وهو يتفحص دادة بدقة وكأنه يقوم بمقارنة ذهنية بينها وبين نساء الحي الجديد؛ فقال مع قليل من التبرم:

- أنا شخصياً لا أرى داع للبس العباءة هنا.

ثم أردف بتعليل:

- فماذا لو رآك الناس بالعباءة وأشاروا إليك بالبنان هامسين: انظروا إلى امرأة الأفندي وهي ترتدي كالقرويات الساذجات البسيطات الجاهلات!

رحبت دادة بالفكرة ووجدت فيها بعض الانفراج والراحة النفسية، فاستعمال العباءة كان يسبب لها ضيقاً نفسياً منذ سكنهم في مسكنهم الجديد، شعرت أحياناً بأن عيون فضولية تراقبها والسنة تتكلم سرّاً عنها، ولكن كل ذلك لم يمنعها عن الإفصاح عن اشمئزازها للطريقة التي كانت بعض النساء يرتدين ثيابهن، فخاطبت زوجها متسائلة:

- أرى نسوة هنا يرتدين من الثوب ما لا يصل إلى ركبتهن! ما اسمه؟

فأجاب الأفندي وعلى وجهه ابتسامة ساخرة:

- ميني جوب، والأنكى أنه عند الجلوس تنسحب التنورة إلى ما فوق الخصر ليكشف عن كل هذا الشحم واللحم.

ارتسم على وجه دادة ابتسامة مأكرة للفظتين الشحم واللحم؛ فوجهت سؤالاً أقرب إلى الاستجواب منه إلى السؤال:

- منذ متى تنظر وراء ظهري إلى سيقان المحرمات؟

تجاهل الأفندي التساؤل كدأبه في مواجهة أسئلة من هذا القبيل، رآها أمراً تافهاً لا يستحق الخوض فيه.

سارا إلى أن دخلا الشارع المفضي إلى السوق؛ وقد أحست دادة أن عيوناً تحلق فيها وأياد تشير إليها من بعض الواقفين والمارة، فباتت تساورها الشكوك فيما ترتديه، وانتبه زوجها للأمر فطمأنها:

- لا تهتمّي وكوني على ثقة أنه أنت هكذا أجملهن جميعاً.

ارتاحت دادة للإطراء فابتسمت له وهي تنظر إليه بطرف عينيها المائيتين اللوزيتين.

الحقيقة أن العيون التي راقبت دادة هنا وهناك والهمسات التي وصلت إلى مسمعها لم تكن بسبب الملابس؛ بل بسبب كون دادة تسير متخلفة عن زوجها بمسافة خطوتين كما اعتادت في محل سكناهم القديم، ولكن أحد منهما لم يفتن إلى ذلك.

دقيقتان لم ينبس أحد منهما بكلمة وهما يتوغلان في عمق سوق الكسبة، أخرج الأفندي سيجارة من علبته المعدنية وأشعلها وشرع ينفخ فيها بنهم.. ثم عاد ليؤكد وجهة نظره:

- هناك جمال يسمى جمال الحشمة والوقار.

تذكرت دادة وهي تسير للمرة الثالثة في كل حياتها خارج أسوار البيت مع الأفندي آخر عبارة إطراء منه، لقد مضى زمن طويل منذ تلك اللحظة الحلوة الجميلة الراقية لنفس دادة جميلة، كانوا يسكنون في قرية ديانا، كانت تجلس في فناء الدار وكان عدنان في حضنها ترضعه وكان هو عائداً للتو من المدرسة والشمس ترسل أشعتها الذهبية وتنير المكان ونصف وجهها، لا تزال كلماته ترن في أذنيها وهو منحني عليهما ترنو وتبتسم في ظفر:

- ما شاء الله! ما شاء الله! لو رآك مجهول لخالك أميرة زوج أمير، ما هذه الصحة والعافية، أعوذ بالله من شر النفاثات في العقد وشر كل حاسد إذا حسد.

ثم مدّ يده إلى ثديها يحصر حلمة ثديها اليمنى بين سبابته وإبهامه برفق وإغراء ضاغطاً تارة ومرخياً إياهما تارة أخرى، ومضى هكذا يفعل حتى جعلها تتأوه ثم تترنح إلى الوراء وقد اعترتها فشريرة لذيدة وسرت في داخلها رعشة مخدرة، لن تنسى ما عاشت كلماته الرقيقة الرومانسية التي لم يجدْ ثغره بمثلها طيلة حياته معها، وهو يحرق في وجهها البرونزي التي لفحته الشمس الحامية ماسحاً بظهر يده المعروقة فوق وجنتيها المتوردتين:

- يا لطرأوة هذا اللحم! هذا اللحم على هذا الوجه الحلو.. إنه مشوي كالكتاب.

وسوف لن تنسى ما حبيت حركته الأخيرة وهو يعض بأسنانه على سبابتها برفق ونهم مصدراً أصواتاً غريبة بفمه شأن من يتذوق أكلاً لذيذاً؛ هممممم، وقد صادف ذاك اليوم؛ اليوم الذي حصل فيه على ترقية وترفع في معاشه الشهري من وزارة التربية، وذلك بعد انتظار وجهد دام خمس سنوات، فسعادته كانت غامرة ونعمه التي أنعمها الله عليه ظاهرة وافرة؛ زوجة شابة ممثلة، ومحفظة نقود ممثلة أيضاً وولدين جميلين معافين.

وحينها نظرت إلى هذا التحول المفاجئ في مزاجه نظرة مشوبة بالشكوك والحدز فيما لو كان جمالها وحسنها هو الباعث لتودده وتحببه إليها بعد انقطاع طويل، أم

كانت الترقية هي التي أذكت حواسه وأشعلت فؤاده وأثارت عواطفه، الرجل الذي عرف عنه بأنه لا يولي أي اعتبار لكل ما له علاقة بالحب، وأنه يعتبر الزواج بعد حب فشلاً ذريعاً واستسلاماً للنزوة صبيانية وحماقة؛ وهذا ما صرح به مراراً.

الحب الوحيد الذي كان يؤمن به هو الحب على طريقة الشعراء الكلاسيكيين، الحب الصوفي، وإن لم يؤمن بالصوفية، حيث رآها ضرباً من الشعوذة والبدعة، الحب الصادق هو حب الله، وما دون هذا الحب هراء وهذر.. كان حافظاً لمئات أبيات الشعر التي حسبها المرء لدى تلاوتها تدور حول الغرام والحب والوصف واللذة الجسدية، ليعود ويخيب ظنهم بابتسامة واهية ليؤكد لهم أن ما سمعوه منه لم يكن إلا وصفاً متواضعاً لذات الخالق أو رسوله الكريم، فرهاد سمعه أكثر من مرة يترنم في المطبخ وهو ينقر بسبابته على حافة المدفأة أمامه بأبيات كهذه:

وأحسن منك لم تر قط عينا
وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبراً من كل عيب
كأنك قد خلقت كما تشاء

خالها فرهاد بادئ الأمر وصفاً لفتاة جميلة ككاترين، ليخيب ظنه أبوه الذي أكد بشدة وبإلحاح أنها في مدح حبيبه سيّد الكائنات وأجمل الخلق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

اللحظات السعيدة هذه كانت تدغدغ نفس جميلة الجميلة، وعواطفها الجياشة من حين إلى آخر، وبالخصوص في الأوقات التي كانت تخرج معه إلى الأماكن العامة، وما أندر وما أنزر ما حصل ذلك؛ كما حصل في هذا اليوم العزيز على قلبها لأن ذلك أشعرها بوجود العلاقة وإن كان وجوداً واهياً، تواصل سيرهما بلا توان حتى نهاية الشارع ومن هناك استدارا قليلاً إلى اليسار، وبقرب باب أول محل توقفت دادة وأوقفت زوجها وهي تومئ إلى داخل المحل بغمزة من عينيها حيث الخياط واقفاً يعمل.

كان الخياط الكهل منهمكاً بكوي الملابس في تلك اللحظة، فاندھشت دادة للطريقة التي كان الماء ينطلق من فمه ليرشه رشاً قوياً على الملابس المفروشة على المنصة الحديدية ذات الأرجل الأربعة الطويلة جداً، قبل أن يمرّر بالمكواة الحديدية الضخمة عليها من أجل تسويتها على أفضل وجه، إذ كان يملأ فمه بالماء أولاً ثم يدفع بالماء بقوة من خلال فتحة فمه، فيتطاير رذاذاً وتتساقط على قطعة اللباس المنبسطة أمامه.

ظلا واقفين ينظران إلى أن انتبه الخياط إليهما فرفع عينيه يرمقهما بعينين حمراوين بسبب النفخ والرش، قال لهما محرگا يده بما يدل على الترحاب البالغ منفرجًا فمه عن ابتسامة عريضة:

- تفضلا، أمر أو خدمة أسديها إليكم؟

قدّم الأفندي نفسه وزوجته إلى الخياط الذي خرج من وراء المنصة وشدد على يده وانحنى لجميلة مرحبًا، لباقة قل نظيرها، رأت دادة.. تبادل الرجلان ابتسامة خاطفة، بعدها قالت دادة التي كانت تحمل في يدها كيس نايلون معتم:

- في داخل هذا الكيس بدلة من نوع موديل قديم، والحقيقة أن كل بدلاته صارت قديمة لا توافق ذوق العصر، فجننا إليك آملين أن تتمكن من إجراء ما تراه ضروريًا من تعديلات وتحسينات.

وأشارت إلى كم البنطلون الذي كان يرتديه الأفندي بطرف سبابتها وهي تقول كالمعاقبة:

- انظر رجاء فكلاهما نفس الطراز.

انحنى الخياط وجعل ينظر بعينين حادتين غائرتين إلى حاشية البنطلون ثم استقام منتصبًا وأبدى رأيه:

- حقًا ما تقولين خوشكه، أختي، سأبذل ما بوسعي لعمل ما أراه مناسبًا.

فرحت دادة بالرد السريع الإيجابي فقالت بلهفة المنتصرة:

- إذن سنأتي غدًا لاسترجاعه فماذا ترى؟

- هذا أمر مستحيل تنفيذه، بل عودا بعد ثلاثة أيام.

ردّ الخياط وتقاسيم وجهه توشي بالجدية.

اعترضت دادة جميلة وتكلفت ابتسامة هي إلى الرجاء أقرب منه إلى الملاطفة وقد أخفت أسنانها الناصعة عن عيون الرجل الغريب بظاهر كفها:

- هذا لا يمكن، فزوجي في عجلة من أمره، فهو يحتاجهما للمدرسة أنت تعرف..

حول الخياط نظره من دادة إلى الأفندي الذي ظل ساكنًا كل الوقت وتحصه بعينيه المنتفختين مليًا، وبغته توسعت حدقتاه وهتف بحماس:

- أظن أنك أنت المدير الجديد، أبندي..

لفظة أبندي ذكرهما بالعم بطرس.

- نعم.

دادة هي التي أجابت وهي تدفع بكتفيها قليلاً إلى الأمام مفتخرة.

- إذن عودا بعد ساعة.

قال الخياط وهو لا يزال تحت تأثير المفاجأة، ثم حول نظره إلى الأفندي وخاطبه بكل احترام واضعاً يده على صدره:

- قد سمعنا عنك قبل أن تصل إلى هنا يا جناب الأفندي.

قطب الأفندي حاجبيه وظهر وجوم على وجهه أحس به الخياط الكهل، فقال له وهو يبتسم ابتسامة العارف الخبير المجرب، وكأنه قد شخّص بحنكته ما كان يختلج في صدر المدير الجديد في تلك اللحظة:

- لا تقلق، أبندي فنحن كالأطباء لا نكشف أسرار مرضانا مهما كان الثمن.

أصيب الأفندي بالذهول لما سمع أولاً، وظل للحظات يسترجع كلمات الخياط ويستنبط معناه، ولم يلبث إلا أن انفجر ضاحكاً وتواصلت قهقهته حتى بعدما استأنفا مسيرهما قدماً على الشارع.. واعتبرت دادة هذه الضحكة أقوى ضحكة للأفندي منذ ولادة عدنان.

لم يدخن بابا سيجارة ذلك المساء لسوء حال معدته، ولم يتكلم كثيراً على غير عادته، بل أطلق العنان لولديه بالكلام حول ما رأيا وما سمعا أثناء النهار، وكانت دادة تواقه إلى معرفة ماذا فعلا عند خروجهما مع ولدي الجارة الجديدة ليلي.

- اليوم فرحنا ولعبنا كثيراً في جولة البرية مع عاشور وأمير، ووجدنا ثقباً كلها للنمل، إلا واحداً كان يشبه جحر العقارب.

قال عدنان وهو يلقي حفنة من النبق اليابس في فمه ورأسه على حضن أمه التي كانت تنصت إليه بلذّة غريبة.

- ولعبنا كيل كيلانى لعبة الرمي بالحجارة على هدف منصوب من الحجارة.

أردف عدنان وهو يرمي بحفنة أخرى من النبق المتبقي من الكيس الذي جمعه دادة مع كاترين في اليوم السابق للرحيل المفاجئ.

- وذهبنا إلى السوق وشاهدنا شايى، دبكة كردية، مع دول وزورنا، الطبل والمزمار.

أضاف فرهاد وهو يرمي بطرفه إلى حضن أمه ورأس عدنان، ثم واصل سرد مغامراتهما وهو يتثائب:

- ولقد رأيناكما عند الخياط.

هز رأسه مندهشاً وامتدت يده بصورة عفوية إلى طاقيّة رأسه الذي سماها فرهاد بالصحن الطائر وأزاحها ليكشف عن اللطخ البرونزية المنتشرة في مقدمة رأسه، أو ما سماه أحدهم يوماً بالبقع الكورباجوفية، سدد نظرات متقدة إلى ابنه وقد زادت الأخاديد على وجهه عمقاً وقال مندداً:

- وأين كنتم مختبئين يا أبا ليس؟

- لما رأيناكما لذنا بالفرار.

أجاب فرهاد وهو يمد يده ويمسك بيد دادة وكأنه يستغيث بها.

وبغته أخرج عدنان رأسه من حضن أمه واستوى قاعداً، ثم مدّ يده نحو أخيه وقال مخاطباً أباه القابع على أريكته الطويلة والملف بجلبابه الأبيض:

- بابا، بابا، رأيت فرهاد يلمس زجاجة داخل محل بيع العرق والبيرة.

جفل بابا للخبر ونظر إلى فرهاد نظرة تهكمية وهو يمضغ بكسرة نان، الخبز الرقاق، فيصدر صوتًا كجعجعة الطحن، كان يحمصه ويحمّره على مدفأة علاء الدين الذائعة الصيت وقتذاك، انتظر حتى ابتلع اللقمة ثم لوى بطرف فمه وزمّ شفته السفلى في حالة من اضطراب ونرفزة ثم نطق هازًا سبابته هازنًا:

- العرق للمجانين والبيرة من الشعير والشعير للحمير.

وطفق يحرك سبابته الصلبة الدقيقة شمالاً ويميئاً كرقاص الساعة مستطرّدًا واعظًا بلهجة حادة جادة:

- أعلم يا ابني يا فرهاد يا أيها الولد العاقل أن الرسول الكريم (ص) نعت الخمر بأنه أم الخبائث، ومن الصحابة من حلف أنه لو وقعت قطرة خمر على إصبعه سيبيتره بترًا.

فرع فرهاد من كلام أبيه، ولكنه أحس في اللحظة ذاتها أن يد دادة التي كانت صامتة مصغية طوال الوقت بدأت تربت على رأسه بقوة وكأنها تطلب منه عدم الخوف، فمدّ هذا بدوره يده إلى رأس أخيه الجالس بمقربة منه على الأرض يدق عليه دقًا خفيًا كمن يجازيه لقاء وشايته، ثم استوى قاعدًا وقال مخاطبًا أباه متملصًا من الاتهام:

- بابا، إن جارنا ماموستا أكرم أبا عاشور يدرسنا اللغة الانجليزية، وماموستا ملا عبد الكريم مدرس الدين قال في الفرصة: إنني أعرف والدك منذ زمن بعيد..

لم ينتبه بابا الأفندي إلى كلمات ابنه الأخيرة لأن يده اليسرى امتدت في تلك اللحظة إلى أعلى بطنه فوق السرّة ضاغطينا عليها وعلامات الانقباض بادية على وجهه المنكمش، وفي اللحظة ذاتها امتدت يده اليمنى إلى داخل جيب دشدشته (جلباب) وأخرج قرصًا من الحبوب أبيض اللون كاللبن، كبير بحجم خاتم زواجه الفضي الذي أحاط خنصره اليمنى، ألقى القرص برفق في فمه ثم جعل يلوكه ويقبله بين فكيه بدوام وهدوء.

في تلك الأثناء كانت الرياح تعبث في الخارج بالأغصان والوريقات الصفراء اليابسة للكرمة المتسلقة فوق زاوية من النافذة لتحدث خرشة وضجيجًا غريبًا باعنا لهواجس خفية غامضة في نفوس الأولاد، ومذكرًا أن الشتاء على الأبواب.. دب

النعاس في العيون والتثاؤب في الفكوك المتحركة، ورست عيون فرهاد على الصورة (الأبيض والأسود) وبالتحديد شفاف كاترين المكتنزة.

أما عدنان فلم تكد صورة والده تفارق مخيلته وهو يهوي في الظلام بالساطور على أصبعه المملطخ بالعرق مصرّراً بأسنانه قذر حرام، نجس حرام، وهناك فوق الخزان بدأت السماور البرونزي تهتز بتزامن وتوافق مع كل هفة هواء من الخارج وما يعقبها من حفيف للأوراق المحتكة بالزجاجة، وهناك على الأريكة وضع الأب الراديو على صدره ومد ساقيه وجعل ينصت لأخر الأخبار من إذاعة لندن ومونت كارلو اللتان كانتا تبثان باللغة العربية.

لم يتخذ البنطلون حتى بعد التعديلات التي أجراها الخياط عليه الصورة والشكل السائغ للذوق العام، فارتأت دادة جميلة تفصيل بدلة جديدة تناسب مقامه كرجل معروف في المحيط؛ والعقبة الوحيدة التي كانت تقف في هذا الطريق كانت التكلفة، ولم يكن لأحد منهما أية فكرة لتخمين الثمن، فذهبا مرة أخرى لاستشارة الخياط الكهل بالأمر، فأطلعهم على الأسعار، وكانت مفاجأة غير سعيدة لهما أن سعر أية بدلة لم تقل عن نصف راتب/ معاش الأفندي الشهري، هذا علماً أن الخياط قد تساهل معهما بشأن السعر آخذاً في الاعتبار مكانة المدير.

وفي الليل حصل نقاش بينهما حول الموضوع.. ارتأى الأفندي دفع الثمن عن طريق أقساط شهرية، فالرجل طيب وسوف لن يمانع، ورفضت دادة الفكرة محتجة بالقول أن الدفع بأقساط لا يليق برجل في منزلته ومكانته في المجتمع.

- لا مناص من الرجوع إلى العقل وترك العاطفة.

قال الأفندي وهو يتهاوى على مقعد في غرفة الجلوس بجانب زوجه.

فلما لم يلق كلامه استحساناً لديها بادرها بالسؤال ببأس وهو ينفض جيوبه الخاوية:

- فمن أين إذن؟ هل غاب عنك أنني أدفع نصف راتبي الشهري كلفة الأقساط الشهرية لهذه الدار؟

مالت دادة بوجهها إليه ونظرت في عينيه الزرقاوين بعمق لبرهة ثم اعتدلت وهي تصعد زفرة حارة، وأخيراً وثبتت من مكانها واقفة وكأنها قد خطرت لها خاطرة وجدت فيها مفتاح الحل، وبحركة خاطفة سريعة مدت يدها اليمنى إلى تحت بلوزتها وأخرجت منها عقدة من القماش، حطتها وأخرجت من طياتها ورقة نقدية من فئة ربع دينار خضراء اللون، وضعتها على المنضدة أمام الأفندي.

بعدها أدخلت يداً في باطن سترتها وأخرجت منها عقدة أخرى فيها ربع دينار آخر، وهناك من جيب معطفها المعلق على الحائط انتزعت عقدة (أنشوطة) أخرى فيها ربع آخر، ومن تحت الحشية المفروشة فوق الأريكة، التي سميت مجازاً بعرش الملك، سحبت ربع دينار آخر.

وهرعت إلى غرفتي نومهما، غرفة الولدين، وعادت بعد لحظات وهي تلوح برقع دينار آخر بيدها، ومدت يداً إلى السماور والتي بدا لونها أكثر دكنة في ضوء المصباح الضئيل ليخرج من تحتها عقدة ورّبع آخر، وانتزعت أوراق نقدية أخرى من فئة الرّبع من تحت المواعين والصحون وتحت الكأس الكبير لعندنان قاتل العقارب، وأخرجت وراء الصور المعلقة على الجدران أرباع في عقد ملفوفة بعناية دون أن يتنبه إليها أحد.

وضعت كل ذلك على المنضدة المستديرة وسط الغرفة، وراحت تجلس إزاءها ملاصقة لزوجها بصمت وهي تلهث من التعب والإثارة، الحركات الموكية هذه والأرباع الطائرة في فضاء الصالة أذهلت الأفندي الذي ظل قابلاً في مجلسه بلا حراك كالمصعوق ينظر ويغمغم ولا يكاد يبين.. ومضت دقيقتان على أقل تقدير قبل أن يستعيد الأفندي توازنه وهدوئه، ازدرد ريقه ثم بادرها بالسؤال بصوت ممزوج من إشفاق وارتياح:

- شيء لا يصدّق! أنى لك هذا يا جميلة؟

أجابته وهي تمسك برأسها بين يديها وقد اصفرّ خدّها اللدن:

- هذه حصيلة توفير سنة، أفندي... أفهم ذلك يا عمر أفندي.. الرّبع دينار كان مبلغاً لا يستهان به في ذلك العهد.

حق بابا بكومة الأوراق النقدية المتجعدة المنكمشة، وشاهدته دادة بيتسم تارة ثم يبيكي تارة أخرى، ثم يلتفت إليها بعيون مبلّلة وهو يتكلف الابتسامة، أنست دادة في يديه الممدودتين رغبة في ضمّها ولكنه لم يفعل، ترقّرت الدموع في عينيه ولكنه مسحها بظاهر يده قبل أن تنحدر، ومن هناك وراء الجدران في الظلام كانت هناك أذنان اثنتان تنتصتان إلى كل ما جرى في تلك اللحظة.

نهضت دادة متكئة بمرفقها على الطاولة / المنضدة الصغيرة بتثاقل واضح، وقفت في وسط الغرفة وألقت نظرة خاطفة من خلال شق الستار الأصفر المزخرف للظلام المطبق في الخارج، ثم رفعت رأسها إلى أعلى بقوة وكأنها تخاطب ربها، وبغثة جعلت تهتف وهي تشير إلى الأفندي مرة ثم إلى الأعلى حيث الأطفال مرة أخرى:

- حياتي فداكم، ليس لي سواكم.

ولفظت العبارة للمرة الثانية ولكن بصوت هامس تنظر في اتجاه الظلام المحقق بالمرمر، كأنها تتاجي ربها وتخطب ولديها:

- حياتي فداكم ليس لي سواكم.

ثم نظرت إلى الأفندي بحدة الذي قد غلب على أمره تمامًا وهي تردد وبشكل هستيري:

- حياتي فداك، ليس لي سواك.

لفظتها بلفظة المفرد هذه المرة، مما أثار في نفس الأفندي أكثر من معنى ودلالة، الحقيقة أنها لم يكن لها سواه في الحياة، لا أب ولا أم، لا أخ، لا جدة ولا جد، لا عمه ولا عم ولا أقرباء تذكر.. كل ما كانت تملك هي أخت مريضة نفسياً كانت تسكن في إحدى أحياء المدينة الشاسعة.

- الآن لك ملابس تليق بمدير مدرسة محترمة.

قالت دادة معبرة عن اغتباطها والتي كانت ترتدي ثوباً وردياً فضفاضاً شفافاً فوق سروال أحمر، ثم ارتسمت ابتسامة صغيرة على ثغرها الدقيق وقالت بفرح غامر:

- وأنا بدوري وبدون أن تدري اشتريت لي ثوباً في سوق الهرج بثمان بخس جداً ولكن بحالة جيدة جداً.. انتظر.

قالت كذلك ثم دلفت إلى ظلام الممر ومضت إلى غرفتهما المشتركة وعادت وببيدها ثوب فضفاض أزرق شفاف، وأخذت تخلع ثوبها الطويل فبدت شبه عارية إلا عن رداؤها الشفاف الأبيض الداخلي، نظرت إلى الأفندي الذي كان يقرأ في الصحيفة الأسبوعية في تلك الأثناء، وراحت تقف قبالة تصفق بيديها كي تجلب انتباهه، فحول نظره إليها وأجفل للتغيير فند عنه ما يشي بالتعجب ثم عاد يقلب صفحات صحيفته.

- انظر أفندي الفرق بين الثوب القديم والجديد.

قالت كذلك وهي تنزع السروال الفضفاض وتلقي نظرة مغرية جائعة على وجه الأفندي الذي رفع رأسه إليها فراها شبه عارية تكشف عن جسد لدن ممتلئ أملس رغم السن، انحنى دادة لتلتقط السروال الجديد ثم رفعت رأسها فإذا بالأفندي قد عاد إلى جريده، وبين الحين والآخر يهز رأسه وتتغير تقاسيم وجهه التي تراوحت وتأرجحت بين الانكماش والانبساط.

- أفندي انظر.

صاحت به مصفرة الوجه.. رفع رأسه إليها وهو يهز الجريدة بين يديه بعصبية ويتأفف فقال بنبرة حانقة:

- اسمعي الخبر العجيب إنهم...

قاطعته دادة معذرة:

- انظر هل ترى هذا الثوب أجمل أو القديم؟

ألقى بنظره خائفة عليها وأجاب وهو يتثائب:

- تعبان ونعسان أكاد لا أرى شيء.

- الجريدة أتعبتك أفندي، لو لم أقطعك لجلست طيلة الليل تقرأ وتستمع إلى الأخبار وتدخن.

حك رأسه تحت طاقيته، شعر من قسمات وجهها أنه أغاظها، وضع الصحيفة على المنضدة أمامه ونهض قائماً يمسك بذيل جلبابه الطويل، تمطى وتثائب مرسلأ صوتاً أشبه بمواء القط البري ثم اقترب منها وألقى نظرة سريعة عليها بينما كانت هي تدور حول نفسها في ثوبها الجديد القديم وقال لها بعدم اكتراث ودمائة الدبلوماسيين:

- اعتقد أن هذا أفضل.

ثم خطا بعد خطوة إلى الأمام باتجاه الممر المظلم فأوقفته متسائلة:

- والسروال؟

حدجها بزاوية عينه تحت نظارته، رفعت هي ذيل الثوب كي يرى بصورة أفضل واقتربت من مصدر المصباح، ودارت دورة أخرى تريد الإفصاح عن انتصارها في شراء ناجح:

- الثوب والسروال الفضفاض كلاهما بربع دينار، أفندي.

ثم التفتت بحركة نصف دائرية أمام الأفندي فإذا هو قد اختفى، نادته بهمس من فتحة المدخل خشية أن توقظ الأولاد، فجاء على أطراف أصابع قدميه يعدو ويضغط على كلماته:

- ماذا تريدان في هذا الليل؟

سحبته من يده إلى حيث صالة الجلوس ونزعت سروالها قائلة وعينها على عين الأفندي بنبرة أشبه إلى الترجي:

- أفندي اللباس وما تحت اللباس ما رأيك بهما؟

غضت طرفها لدى لفظها العبارة الأخيرة خجلاً؛ فأجابها دون أن يرفع نظره عن كتاب رسمي التقطته من مجرة الصندوق الخشبي بجوار جهاز التلفاز:

- أرى أن سروالك كان طويلاً ولكن لا بأس لنا وإمكانيتنا الاقتصادية المتواضعة.

ثم حلق في عينيها اللتان كانت تلمعان في ظل الخزان الطويل رغم الظلمة وقال لها بمرارة:

- آخر خبر سمعته يقول إن سعر السكر قد زاد بمقدار خمسة فلوس للكيلو الواحد، جميلتي جميلة.

ارتاحت إلى كلمة (جميلتي).. فأمسكت بيده تجره إلى الكنبه الطويلة، هد يدها وابتعد عنها، وقف الأفندي في وسط الغرفة وهو في حالة توتر عصبي ونظارتاه مثبتتان على الكتاب الرسمي الذي وضعه فوق المنضدة، ثم رفع رأسه يرمقها بنظرة خاطفة سريعة وقال بمضض:

- إنهم رفضوا طلبي ببناء غرفة كملحق إضافي إلى بناية المدرسة.. إهمال وانعدام الشعور بالمسؤولية من قبل سيادة مدير التربية.

اقترب منها يضع يداً على كتفها العاري ارتعشت لها، وقال وهو يتمتم بعبارات مسعورة:

- هؤلاء يظنون أنني كالمدير السابق أقتنع وسأتنازل لمشيتهم بسهولة.. لا.. لا إنهم مخطئون.. جميلة هل تتذكرين كيف نقلت المعلم المشاغب في حرير وكيف كنت أقوى من كل الإغراءات والضغوطات.

حانت منه نظرة على السروال الراقد على أرض الغرفة، التقطها وقلبها بين يديه لثواني قصيرة ثم ألقاه على أقرب كنبه مجاورة، ثم سألها:

- أهو جديد؟

- ألم أقل لك قديم ورخيص، الثوب والسروال كلاهما برقع دينار.

- حقاً لقد وصل مسمعي شيء من هذا القبيل.. نعم كما تقولين.. العفو.

وجعل ينتائب ويتمطى ويغمغم ويتمايل:

- أشعر بنعاس قاهر؛ ألا ترين أن أفضل دواء للإرهاق هو النوم.

مضى إلى الممر الفاصل مسرعاً، سمعت بعد لحظات وقع أقدامه في الحمام من الركن القصي ثم حسي باب غرفة النوم يغلق بهدوء تام، أما هي فقد لمت ملابسها المبعثرة بيد مرتعشة وشفنتين ملتويتين وعيون تشع خيبة ورجاء ولهات مكتوم، ثم سارت لتقف أمام لوحة الطواف بخشوع ودعاء، ثم أفصحت عن لوايح نفسها المكدود وتمتعت بصوت حزين:

- هل من المعقول أن تسمى أم يتيمة؟ لا أدري تماماً، ولكنني أشعر بأنني يتيمة.

منذ سماعه دادة تلك الليلة تقول لبابا: "ليس لي أحد سواكم" بلهجة ملؤها الإحباط والأسف؛ بدأ فرهاد يشعر تجاهها بعاطفة وحب وحزن لم يشعر بها من قبل، يقابل هذا الشعور بالعطف والإشفاق على أمه؛ شعور بحق مكتوم تجاه والده، مقت مشوب بالحزن له غامض.. وقد ظل تلك الليلة يتقلب في فراشه ساعة كاملة قبل أن يتمكن النوم أخيراً من زيارة جفنيه الثقيلين.

وقد بقي شيء من هذا المقت والحساسية تجاه والده حتى ذلك اليوم الذي ناداه فيه إلى غرفته لأول مرة، وبدون علم أحد، وهو يضغط ويفرك براحتي يديه على أسفل بطنه وقد انقبضت أساريه وامتقع وجهه من الألم قائلاً له:
- ابني إني دعوتك إلى هنا كي أبلغك شيئاً جديداً عليك فكن شجاعاً، فلو مت أنا فاعلم إنك أنت ولي العهد، أي أنت تقوم بتولي المسؤولية بعدي، وتهتم بوالدتك وأخيك.

وقد كان فزرعه عظيماً وقلقه وحيرته لا يوصفان، إذ كيف له أن يصدق أن هذا الضعيف المتمدد أمامه هو المدير الأفندي المهاب جانبه، هل هذا بحق ذلك الجبار الذي أخرج وعلى مرأى ومسمع من عيون الطلبة والمعلمين وعيون كاترين السوداء الناعستين علبة تمر محشو بالجوز واللوز منذ أربعة أعوام مضت.

وها هو الآن وبعد مضي عامين على تلك الليلة ناداه والده بعد اشتداد ألمه مرة أخرى؛ ليكرر على مسمعه نفس النصيحة مضيئاً إليها عبارة: علي بزيارة طبيب في الحال، وكانت دادة قد خرجت للتو مع عدنان للسوق.. جلس فرهاد على طرف الأريكة ملاصقاً لقدمي أبيه المعروقتين، يقابله صورة الطواف في مكة على الجدار، ولأول مرة لاحظ عن كثب أن والده قد ذبل وشحب وهزل، وأن شعر رأسه القليل قد دب فيه الشيب، وعدسات نظاراته الطبية البيضاء زادت سماً، واستدل بكل ذلك أنه قد كبر كما اعترف هو بنفسه وهو لا يزال في سنه الخمسين، أحس فرهاد برغبة غامضة في البكاء، ولفت ذلك نظر أبيه الذي بادر إلى طمأنته بقوله منكلاً ابتسامة شاحبة:

- إنه لأمر هين وسيزول من تلقاء نفسه.

تنفس بعمق وشهق ثم عاد ليقول جاهداً التخفيف من ثقل كلماته المؤلمة على ابنه:
- لم أعن أنني سأموت، بل قلت لو فرضنا... لا.. لا.. تقلق أبداً.. أبداً.. عليك بدروسك فقط، أنا ساكون بخير.

وعندما رأى أن ابنه لا يتحرك؛ تحول الأفندي من ناصح إلى أمر:
- خذ كتابك هذا واقرأ واحفظ واجبك.

ويعود فرهاد إلى المراجعة.. وفي صباح اليوم التالي استيقظت الأسرة للاستعداد للمدرسة؛ بابا من تحت والأخوان من فوق كل في غرفته، وإذا بصوت بابا يتراعى إلى مسمع فرهاد في اللحظة التي وضع فيها قدمه على السلم ناوياً النزول، وكان أبوه يقول شيئاً بخفوت لدادة هامساً، وسمع بالمقابل كلمات مسموعة غير مفهومة من دادة، أثارت الهمسات مخاوفه، فنهض وسار على أطراف أصابعه عبر الممر الضيق بين غرفته وباب السطح، فوقف هناك متكئ على درابزين الدرج يتنصت بقلب مضطرب.. ومن هناك استطاع وبصعوبة أن يسمع بابا يقول لدادة:
- انظري جميلة.. لعلي لم أرَ جيداً.

سمع وقع أقدام دادة لبرهة ثم سكن الصوت، ثم جاء إليه صوتها بوضوح أكثر وبتوتر ولهات خفيف:

- نعم... نعم... إنه كما قلت، يا للهول.. ماذا جرى لك يا أفندي؟ وما عسانا أن نفعل الآن؟!!

امتلاً فرهاد هلعاً وفزعاً، أراد معرفة ما حدث بأي ثمن، حبس أنفاسه وهو يمد بعنقه إلى أبعد مدى ممكن فوق السلم، فسمع دادة تقول على عجل:
- يجب مراجعة الطبيب فوراً، لا ذهاب إلى المدرسة.

وعاد فرهاد إلى غرفته وهو يرتجف، وما زاد من مقدار هلعه أن والديه تعاملوا مع ما حدث بالكتمان والسرية التامة.

ألقي بنفسه على سريره، فلم يكن بوسعه أن يفعل في تلك اللحظة أكثر من هذا، حتى نسي أنه لم يتبق له من الوقت للتوجه إلى المدرسة سوى ربع ساعة، ومن هناك تراعى إلى مسمعه وقع خطوات بابا من جديد ووراء دادة، ثم صوت صرير باب الحمام المميز لدى أهل البيت وهو يغلق، ثم وقع أقدام في الممر، ثم طقطقة الأريكة التي امتد أو مُدّد عليه بابا..

"دادة الآن منكبة على بابا لتعتني به"؛ قال فرهاد في نفسه وفي رأسه تدور فكرة، ظل هكذا لحظات فوق رأس السلم، ثم أخذ يهبط السلم جاهدًا ألا يحدث صوتًا، فنزل وبكل هدوء يمشي على رؤوس أصابعه إلى حيث الحمام، هناك نظر في داخل الحوض الحليبي اللون الذي استحالت حافته من اللون الأبيض إلى بني غامق، فرأى ويا لهول ما رأى، منظرًا رهيبًا كتم من أثره صرخة كادت أن تنطلق من فيه، وبسرعة وخفة فائقة عاد أدراجه وهو يتمتم مع نفسه كالمذهول:

- دم دم، رأيت دمًا.. نعم إنه كان حقًا دمًا!

ولم يتمالك إلا أن يشهق بالبكاء، وبكى كثيرًا صامتًا كذلك تحت لحافه على السرير، ودخل عليه أخوه يترنم بأنشودة مدرسية مألوفة ويشد أزرار قميصه غير داري بما جرى وما حصل، ليصعق لرؤية أخيه الباكي، ولم يتفوه فرهاد أمامه بحرف، وبدلًا من ذلك وثب من سريره وهو لا يزال في منامته المقلمة أبيض وأحمر بالتناوب، وانطلق خارج الغرفة وجعل يهبط السلم مثني وثلاث، يتبعه عدنان الذي كان يردد بنرفزة وفزع:

- ماذا حدث ماذا حدث؟

في الصالة وقف أمام أبيه ووراءه عدنان، وكانت دادة في غرفة الوالدين تنتهياً وتبدل ملابسها لأخذه إلى الطبيب، وانحنى على أبيه باكيًا، ولم تنفعه كلمات بابا المهدئة المطمئنة، فأقبلت دادة بسرعة تصرخ:

- يا حضرة الغوث ماذا دهاك يا ولد؟

وبلسان ثقيل أجاب فرهاد دون أن يرفع رأسه، والدموع انحدرت من عينيه الحمرابين الواسعتين حتى بلغت الشعيرات السوداء الناعمة القصيرة المتاخمة لخط شفته العليا.. نظرت إليه نظرة إشفاق وإحباط وعتب، فقد أدركت أنه كان يتنصت، رفع فرهاد رأسه وجعل ينقل ببصره بين وجه أبيه المصفر كالزعفران ووجه أمه المتورد كوردة محمد، ثم أعلن عما عقد العزم عليه وقال بصوت حزين ونبرة خائفة:

- أنا أذهب مع أبي إلى الطبيب.

كلمات دادة رنّت طوال الطريق إلى عيادة الطبيب في رأس فرهاد وهو جالس جانب أبيه على مقعد ذي نفرين في داخل الباص، وقد زاده ذلك ألماً على ألم، صدى صوتها الأبح الوديع رجع إليه بعد مرور عامين وهي تفصح عن مكنونات صدرها المفعم بالأمني الواهية وضعفها أمام قوة الرجل، كانت الليلة ذاتها التي صعدت فيها إلى غرفته للترفيه عنه في ليلة يصح تسميتها بـ (ليلة ليس لي سواكم).

- أنا ابني لا أستطيع حتى قراءة كلمة واحدة مما يكتبه من الرسائل التي يوجهها إلى جهات لا علم لي أين وأشخاص لا أعرف من، ساعات يقضيها في الكتابة لا أفهم منها سوى أنها للمدرسة ولشؤون تحسين أحوال الطلبة والمعلمين، يقول إنها موجهة إلى المدراء الكبار في المدينة وحتى بعضها إلى العاصمة، إلى الوزير، وأنا كل ما أستطيع عمله هو جلب المكاتيب والتلغرافات له من دائرة البريد مرة في الأسبوع إلى البيت، غير عالمة من أين تأتي ولا إلى أين تذهب كل هذه الأوراق، ألم تر وجهه أحياناً ملطخ تماماً بتلك اللطخ البنفسجية؛ إنها كلها من قلم القوبيا... قلم كوبي استنساخ.

بعد قرابة نصف ساعة من السير وصل الباص إلى موقف في مركز المدينة، نزل عنده الأب المريض والابن المراهق، سارا بعدها ربع ساعة أخرى بين الأزقة الضيقة إلى أن توقفا أمام مبنى ذي طابقين مشرف على زقاق قديم ضيق، وبعد انتظار نصف ساعة أخرى نادى سكرتير الطبيب اسميهما.

كان الدكتور إيشايا مسيحياً في الثلاثينات من عمره، نظيف ومهذب، وكانت هناك إشاعات تقول إن تواضعه وبشاشته وبساطته قد أغاظت زملائه من الأطباء حتي قيل إن قسماً منهم قد بدأ بشن حملة دعائية ضده، ولكن كل ذلك ما زاده إلا شعبية بين أوساط العامة، وتزايد عدد مراجعيه.

صافح الطبيب الوسيم الأب ثم الابن وهو يبتسم مظهرًا أسنانًا بيضاء تلمع كاللؤلؤ، أحس فرهاد بنعومة أصابعه، كانت ناعمة كنعومة أيادي دادة، استمع أولاً بانتباه تام إلى قصة النزف التي قصها عليه الأفندي بالتفصيل، وبعد ذلك ملأ بعض الاستثمارات وأودعها بيد فرهاد طالباً منهما إجراء الفحوصات اللازمة أولاً ثم العودة إليه مع النتائج.

فعلا ما طلب منهما، وعادا إليه بعد ساعة ونصف بعد أن سلما الأوراق إلى السكرتير، فاستقبلهما بنفس الاستقبال الحار.. لا ينسى فرهاد ما حيي كيف راح وجلب نتيجة الفحص المختبري من الغرفة الصغيرة في الزاوية من العيادة بنفسه رغم تواجد السكرتير، وكيف كان لا ينفك يبتسم تحت نظاراته البيضاء وهو يتطلع على نتيجة الفحص.. كيف خاطب بابا مطمئناً إياهما وهو يكتب له حبوب قال إنها حبوب جديدة - سميتدين - تساعد في إبطال مفعول الحموضة والأسيد في داخل المعدة والاثني عشري، وكيف نصحه ووصاه بصوت رخم ولسان لين وابتسامة عريضة:

- كاكه عمر.. إن الذي حصل كان جراء خدش إحدى الأوعية الدموية الشعرية، كما أظهرت الفحوصات والتحليل والأشعة، ويظهر أن لديك فقر دم خفيف من جراء النزف، عليك بتناول الأطعمة الخفيفة هذه الأيام مثل: حساء لحم متكون من مزيج ضأن طازج أو دجاج مع الخضروات الطازجة، ولا تنس أن تتناول الكبد يومياً لو أمكن ولكن هذا بعد أن تتحسن صحتك وتزول الآلام، فهو مصدر غني بالحديد..

بعد ذلك التفت إليه أي فرهاد وهو يضحك:

- كاكه فرهاد أنت ولد عاقل وتخدم والدك حسناً ما تفعل.

أول رجل يناديه بلفظة كاكه احتراماً، ورافقهم إلى الباب الخارجي وهناك مد يده لمصافحتهم للمرة الثانية، ومن بعيد شاهده يلوح لهما عبر النافذة وهو يستقبل المراجع الجديد.

في الطريق إلى موقف الباص وهم يشقون طريقهم في زحمة الحشود المتحركة من كل الاتجاهات قال الأفندي لابنه:

- لم أجد في حياتي طبيباً متواضعاً كهذا حفظه الله من كل سوء، أخشى عليه من هؤلاء الأطباء المتكبرين والمغرورين، أغلب هؤلاء الأطباء حادوا عن مهمتهم الإنسانية، ومعظمهم متغطرسون عبس لا يبتسمون بوجه مريض ولا حتى لا يتكلمون ولا يقومون احتراماً للمرضى ولا يمدون أيديهم للمصافحة استنكافاً واستكباراً، أما حين يأتي دور استلام الدنانير فيمدون إليهم كلتا اليدين، العلة الكبرى هي أنهم يحسبون أنفسهم فوق البشر.

وهناك عند موقف الباص في طريق العودة؛ عاد الأفندي إلى كيل المديح والثناء على الدكتور إيشايا ونطق كلمته المشهورة التي لن ينساها فرهاد طيلة حياته:
- لو كان هذا هو المسيح لآمن به جميع الناس!.

الجيران الأربعة؛ الثنائي فرهاد وعاشور والثنائي عدنان وأمير زملاء المدرسة الابتدائية والمتوسطة صاروا الآن زملاء في المرحلة الإعدادية، والفرق كان شاسعاً بين الثنائي الأول والثاني من حيث الهدف من خروجهما المنتظم في الظهر من البيت.

فقد دأب فرهاد وعاشور على ملاحقة الفتيات، يرتديان أجمل ما لديهما من ملابس، وأكثرها أناقة وموضة في ذلك العهد، ملابس ضيقة وكانت في معظمها عبارة عن قمصان ضيقة تلتصق بالجلد التصاقاً وبنطلونات سوداء وزرقاء كاوبوي/ جينز ضيقة، وتركب على الأنوف نظارات سود سميكة أو بنية قهوائية.. وكان ذلك يحدث يومياً، إلى أن أعلن عاشور لفرهاد يوماً أنه قد وجد فتاة تحبه ويحبها، وعلى أثر ذلك تقلصت مرّات خروجه معه من كل يوم إلى مرة في الأسبوع.

أما بالنسبة لعدنان وأمير فكان لهما كذلك هوايتهما المشتركة؛ ألا وهي صيد العصافير بالمصيدة، والركض وكرة القدم في الشارع وفعاليات الساحة والميدان، وقد أثبت عدنان أنه مرواغ ماهر وسريع.

أما أحب هواية إلى قلب أمير فكانت لعبة المقصلة التي صنعها لإعدام السحالي، فقد أعلن بعد اكتشاف الآلة الرهيبة؛ إنما هي على غرار المقصلة التي صنعها ثوار الثورة الفرنسية لإعدام الأميرة ماري أنطوانيت، ولم تكن القصة بغريبة على عدنان، فقد كانت مادة الثورة الفرنسية تغطي القسم الأكبر من كتاب تاريخ أوروبا المتداولة في الصفوف المتقدمة.

أما عدنان فقد مارس هوياته القديمة؛ صيد العقارب في البرية والخلاء الشاسع الممتد إلى ما لا نهاية، ابتداء من سياج حديقتهم الخلفية وانتهاء بالتلال الغربية حيث مغرب الشمس.

وعودة إلى الطاقم الأول في الرفاقة والصداقة والمغامرة الغرامية؛ فقد وقع فرهاد السنة الماضية في حب الجارة المواجهة لدارهم، شبيب بها وقضى ساعات طوال قابعاً خلف ستارة غرفته يترصد خروجها من البيت ودخولها، كلف ببشرتها العاجية

وأسهدده وجهها الصبح، وقد مضت أسابيع على هذه الشاكلة حتى جاء اليوم الذي خيبت والدتها آماله وأحببت أحلامه، فقد نادته في ظهيرة يوم وأخبرته أن ابنتها متعلقة بفتى آخر غيره، لذا فإنه لمن الأفضل له الكف عن ملاحقته لها.

ورغم ذلك فقد استمر فرهاد في محاولاته اليائسة في استمالتها بكتابة رسالة مفتوحة إليها، وكلف عدنان برمي المظروف إلى خلف الباب في اللحظة التي يشير هو إليه بذلك، وقفا كلاهما ينتظران وراء ستائر الغرفة العلوية، وحالما لمحا الفتاة قادمة من بعيد لكز فرهاد أخاه الذي انطلق كالريح العاصف حاملاً الرسالة ونفذ ما طلب منه أخوه الأكبر، ولسوء طالعه فقد حدث سوء في التقدير فلم تقع الرسالة في يد الفتاة ولكن في يد أمها، فأسرعت الأم تخبر أبويه فعلة ابنهم قائلة بالحرف الواحد:

- إنني لا أرى في الأمر ما يشين بل يزين، الحب زينة الحياة في وجهة نظرنا نحن، إنهم شباب، ونحن المسيحيون نعطيهم حرية وفق معاييرنا الخاصة، ولكن العائق الوحيد هو أن ابنتنا مرتبطة بفتى من معارفها، وإلا فلم تكن نمانع أن تتصادق مع ابنكم، ففرهاد ولد مؤدب عاقل محبوب ونحن نعرفه جيداً.

رغم كل هذه الاطمئنانات والتوضيحات قامت القيامة في رأس الأفندي، وانفجر بركان الغضب في قلبه، وكان غضب الأفندي يفوق الوصف، وغيظه متقد إلى درجة اضطر فرهاد بسببه الإقامة لمدة يومين في بيت ابن خالته في المدينة.. وحتى بعد عودته وعفو أبيه عنه بوساطة وشفاعة أمّه؛ ظلت عيون بابا تترقبانه لسنة كاملة، وترصدان كل حركاته، وتحيطان به إحاطة الطوق بالحمامة والسوار بالمعصم.

وعادت الأمور إلى سابق عهدها بين الأب والابن، لم يقترب فرهاد "جريمة حب" ضد أية فتاة أخرى كما شاء والده، ومنذ تلك الحادث اعتاد الأفندي التندر عليه واصفاً إياه بالطويل السيقان، حقاً فلقد طالنا بزمان سريع قياسي، وكان رد فرهاد على مثل هذه الممازحات والمداعبات ساخراً مُراً:

- ما أطال قامتي سوى الطعام المفرط.. الطعام الحلال.

بينما لسان حاله ينطق بالشكوى المبطنة:

- صددتني عن الحب الحرام فمن ذا الذي يصدني عن الأكل الحلال؟!

وكان يحتفظ في خزان ملابسه المغلقة بإحكام بالمفتاح صور خلاعية من المجلات الأجنبية، يتأملها طويلاً بشغف ونهم ويضع شفثيه على شفثي الشقراوات الكاشفات عن البطون والسيقان والأرداف.

وكلما شعر بالجوع أمام الحسناوات القريبات البعيدات سارع إلى دادة ورفع الغطاء من القدر الكبير وأخرج كفتة ليلتهمها بنهم كبير، وكان منظر التهامه للكفتة أشبه بمنظر الضمّ والقبل منها إلى الالتهام.. ولقمته كانت كبيرة جالبة للنظر وكأنني به أنه أراد بذلك أن يسد بها حاجتين معاً وفي آن واحد؛ الجوع الجسدي والجوع الجنسي، ولحسن الحظ كانت كفتة وكباب دادة دائماً تقف منتصبة كجبل جليدي على الطباخ الكهل في المطبخ، وكأنها هي أيضاً بدورها قد استعاضت كذلك بالكباب والكفتة عن ذاك الشيء المحرم عليها هي أيضاً وهي لا تزال شابة ذات ثلاثة وثلاثين ربيعاً.

وفي جولاته مع عاشور كان هذا يقص عليه في بعض الأحيان مغامراته مع الفتيات وأحياناً بالتفصيل، كاشفاً عن أسرار اللذة المحرمة ليزيد دون قصد شعوره بالأسى والحرمان والعجز المطلق.

يقال إن الحاجة تفق الحيلة، والغاية أم الاختراع، وعلى هذا المبدأ استطاع فرهاد أخيراً أن يجد بل يكتشف منفذاً آخر لسبر غور رغباته الزائلة وتهدة عاطفته الجياشة؛ ألا وهو حفظ وسرد الشعر ومحاولة نظمه.

فانكبّ على قراءة وحفظ الشعر، كان يقرأ أحياناً مقاطع من نظم أكبر شعراء الكلاسيك في الغزل الكردي والعربي على عاشور، الذي كان يتكلف الاستماع ويهز رأسه الأشقر ليبيدي إعجابه شارد الذهن، ويحدق بعينيه الخضراوين البراقتين اللمعات في عيون فرهاد العسلتين تعبيراً عن حسن استماعه وإن كان لا يسمع، وفي كثير من الأحيان كانت بتول حبيبة عاشور تناديه من بعيد بعد أن تعتذر منه، فيطأوعها بلا كلل وتأخير ليتركه في قارعة الطريق يلعن حظه العاثر ومبدأ أبيه الصارم.

لم يبد عاشور الذي عثر على الحبيب في عالم الواقع رغبة حقيقية في الرومانتيك والخيال كما كان حال فرهاد، فقد عجز هذا عن البحث عن الحب في الواقع وعلى الأرض، ليعثر عليه أخيراً في بطون الكتب وفي ثنايا وزوايا الغزل العذري والإباحي للشعراء الرومانتيك والكلاسيك على السواء.

وفي لحظة ما أدرك فرهاد عن وعي وقد قارب السابعة عشرة من عمره أنه ورغماً عنه قد صار الأكل هوايته ومتنفسه، مضافة إليه الكتابة وقد لخصها في كلمتين: خويندن وخواردن؛ القراءة والأكل.

أما بشأن الطاقم الثاني؛ عدنان وأمير فقد حدث وبمرور الزمن تحول بسيط في هوايتهما بسبب العمر؛ من الصيد وإعدام الزواحف، إلى الركض والمسابقة مع بعض أقرانهما ورمي الثقل والقفز الطويل والعريض والألعاب الأخرى التي كانت من ضمن فعاليات الاستعراض المدرسي السنوي، أمّا اللعبة المفضلة لديهما فكانت كيل كيلاني، رمي الحجارة، وكانت عبارة عن القذف من بعيد بالحجارة على أهداف من حجارة أكبر حجماً مرصوفة بشكل خط مستقيم ومثبتة في الأرض، فمن أسقط أكبر عدد من الحجارة حصل على نقاط أكثر.

ومن أجل ممارسة هذا اللعبة المفضلة خرجا ذات يوم من البيت ولم يذهبا بعيداً كما كان المعتاد والمألوف.. إذ بقيا طوال الوقت في مرمى بصر فرهاد وعاشور في تجوالهما الدؤوب جيئة وذهاباً في الشارع المكتظ بالمارة والشباب الباحث عن الحب والمتاعب في ذلك اليوم القائظ والعرق يتصبب على الوجوه والمناديل تنتشفه، كل شيء كان عادياً إلا شيء ما لفت انتباههما وهو وجوم الناس من حولهم ومحادثاتهم الهامسة وعيونهم الحمراء، وأصوات الموسيقى الهادرة تملأ كل مكان؛ الله أكبر.. الله فوق المعتدي.

ومضى الوقت على هذا المنوال إلى أن شارف على الغروب، ولاحت الشمس كقرص رقيق نان دادة المحمر على ساج من فوق التلال البعيدة.. عندها رأى فرهاد أن الوقت قد تأخر وعليه أن ينبه أخاه على ذلك، الذي ولشدة حماسه وتعلقه بهذا الصنف من اللعب واللهو فقد الإحساس بالزمن والتعب، فلم يجد بداً من أن يتوجه مع عاشور إلى البقعة التي كانوا اتخذوا منها ملعباً، سالكين الطريق الترابي عبر الأشواك والبراسيم وأحراش الخرنوب والعاقول.

وترامى إليهما صياحهما من بعيد، ونقاشهما ونقارهما وخلافتهما حول من الفائز ومن المصيب ومن الأفضل يمزق غلاف السكون.. وصل فرهاد وعاشور بعد مسيرة عشر دقائق إلى المكان.

كان عبارة عن ساحة مهجورة مستديرة محاطة بصبات كونكريتية لا تزال بعض منها شاخصة ظاهرة، أشبه باستدارة طريق قديم مهجور حيث لا تزال آثار الإسفلت ظاهرة في بعض الحواشي، خاصة وقد زال القار منه وبقي الحصى والحجارة وبقايا الإسمنت المتفتت، وهناك على إحدى هذه اللبانات من الإسمنت كان عدنان جالساً جنباً إلى جنب مع أمير، حيث بدا أنهما في غاية الإرهاق بعد ساعات من الركض والقفز والرمي، ومن بعيد أشار فرهاد إليهما تبعه عاشور أن يتهيئا للعودة إلى البيت وأن يجمعا ما انتثر من متاعهما على الأرض، فلم يستجب لإشارته عدنان وتبعه أمير، وإنما قال بلهجة أقرب إلى التوسل والرجاء منها إلى التحدي أو الإباء، ثم أخذ يشير بانفعال إلى قطعتين من الحجر على الطرف المقابل وقال وهو يلتقط حجراً من الأرض:

- انظر كاكه هذه سوف تحسم الأمور، أمير متقدم علي بواحدة لو أوقعت كليتهما فأنا الفائز وإن أوقعت إحداهما فنحن متعادلون وإن لم أوقع ولا واحدة فهو الفائز فأملنا كاكه أرجوك أمهلنا دقيقتين، فلو فزت عليه فيلزم عليه شراء بطاقات السينما لنا الأربعة جميعاً، هناك يعرض الآن فيلم كاوبوي دبل مسدس جديد أمريكي.
- حسناً.

تمتم فرهاد موافقاً على مضض، وردد زميله الكلمة نفسها إزاء أخيه.. وعادا إلى اللعب، في اللحظة التي رفع فيها عدنان قطعة الحجر الذي كان أكبر بقليل من حجم كرة الغولف ظهر على الساحة فجأة فتیان بعمرهما خلق الملابس والخلفة، وراحا يجلسان على ألواح الإسمنت يتفرجان، لم يطمئن فرهاد لهيئتهما الرزية، وجهاهما ونظراتهما الشيطانية وملابسهما الرثة البالية بعثت في قلبه الريبة والظنون ودفعاه إلى أن يقارن هيئتهما بهيئة وهندام أخيه، الذي كان يرتدي قميصه المفضل الأصفر، فيه مربعات سود وبنطلون بني يشده من الوسط حزام عريض ملفت للنظر، وشاربه الدقيق الذي أسمته دادة قيطان الحذاء لسواده ورقته ودقته، وعيونه الواسعة وتعاريج شعره الأشعث.

من هناك قام الولدان الغريبان يتقدمهما الأكبر وقدم نفسه وأخاه إلى الأصدقاء الأربعة:

- أنا كار دو وهذا أخي سواره.

لم يقدم أحد يده للمصافحة إلا عدنان فرحب بهما خير ترحيب، فعادا القهقري حيث كانا قاعدين، فقعدا على بعض الحجارة خارج دائرة الرمي.. صاح عدنان من وسط الساحة يهيب أصحابه بالانتباه وهو يحمل كرة حجرية كبيرة على راحة يده اليمنى وأخذ يتفحص موضع الصخرة المنتصبة من بين القطعتين اللتين لا تزالان قائمتين بين القطع الواقعة الراقدة المتناثرة بعض فتاتها جراء الضربات السابقة المتتالية، وبعد أن تبين له موضعها جيدًا تراجع بضعة أمتار أخرى إلى الوراء ساحبًا يده الحاملة للحجر إلى الوراء وقدمه الأيسر إلى الأمام، جر نفسًا عميقًا، وبعد أن التفت يمنة ويسرة قذف الكرة الحجرية بكل ما يملك من قوة صوب الصخرة المدببة المنتصبة أمامه عن بعد عشرين مترًا تقريبًا، فأصاب إحدى الحجارتين وأوقعها أرضًا، فعلا التصفيق من الجميع.

- ألا ترى؟ لقد تم التعادل الآن.

- إذن آن الأوان..

قال فرهاد بإلحاح.

- انتظر لحظة.. الآن جاء دور ضربة الفوز.

قاطع عدنان مُلحًا، وأحنى نفسه وهو في حالة هستيرية وراح والتقط الكرة الحجرية من جديد وعلى عجل، ورمها بقوة فاقت المرة الأولى ولكنه لم يفلح في الإصابة هذه المرة، حاد الحجر عن مداره وسقط بعيدًا عن الهدف المنشود تحت ناظري عدنان الخائبة.

- تعادل خير من الفوز.

هتف فرهاد وصفق عاشور له إذ أعجبته الحكمة.. وفي نفس اللحظة بدرت من أحد الشقيين مبادرة استعراضية مباغتة، وكان هذا أضخمهم جميعًا وكان حافي القدمين، فأنحنى والتقط كيسة صخر كبيرة تكثر على سطحها الحفر والمتعرجات وانطلق بها إلى وسط الدائرة وهتف بالكل ووسط اندهاش الكل:

- انظروا إلى قوتي.. أنا الأقوى...

ورمى وطارت الصخرة إلى البعيد لتقع بعد ثوان بالقرب من عدنان الذي كان يقف في الجهة المقابلة والذي كان قد أعجبته الحركة البهلوانية من الولد المجهول والذي خرج من قواعد اللعبة لتصبح رمي إلى هدف إلى رمي بعيد عنه.

والتقط عدنان نفس القطعة الصخرية وانتصب فرمى بها إلى أبعد ما استطاع وسط
دهشة عاشور وفرهاد وأمير الذي انضم إليهما إذ لم ترُقه اللعبة الجديدة، على عكس
أخيه وفرهاد اللذين بدت من محياهما الطلقة أنهما بدءا يميلان قليلاً إلى اللعبة،
كانت رمية عدنان قوية بزّت رمية الشقي، الذي أسرع بدوره وفي حالة متوترة
ليلتقط صخرته للمرة الثالثة وهو يحرق في عين صاحبه الذي جعل يقفز ويطفر
ويثب على خط التماس كعصفور وقع في الماء، وقف الشقي ثابتاً مجيلاً بعيونه
الحرر الشيطانية على الوجوه الناضرة الناضرة للحظات طويلة، وفي عينيه بريق
مزيج من التحدي والشراسة وهو يلهث، ثم رفع يده الممسكة بصخرته إلى أعلى، ثم
سحبها بقوة إلى الوراء، بعدها أطلقها كالقاذفة باعوجاج وميلان شديدين روع
المشاهدين.

كادت الشمس تختفي وراء التلال وكادت حجرة فرهاد تتمزق وتمزق سكون الكون
الآيل إلى الاضمحلال في غياهب الغسق ودوى صراخه الطويل الحاد في الفضاء
الشاسع كما الرعد:

- عدناناااااااااا!! -

كان يوماً من أيام الصيف القائظة حيث راوحت درجات الحرارة بين الأربعين والخمسة والأربعين درجة مئوية، ومنذ تقاعده من الوظيفة لأسباب صحية صارت الطارمة، الباحة الأمامية، للبيت مكان الأفندي المفضل بل مقره شبه الدائم، ومسبحته وجهاز الراديو لا يفارقان مجلسه، وعندما كانت الشمس تقترب من الزوال كان يضع قرآنه في حضنه ويبدأ بالقراءة لما يقارب الساعة من الزمن بعدها يخرج من البيت ليسير ببطء نحو الجامع.

وضع الأفندي (كلاو) طاقية رأسه وهو يرفل في جلبابه الطويل الأبيض، ومد رجليه على الأريكة وسوى وعدل رأسه على المخدة، وجاءت دادة من الداخل في ثوبها الفضفاض الأزرق وقعدت بجانبه، وأخذت تنظر بفرح غامر كعادتها إلى أشجار البرتقال الممتدة في خط مستقيم على طول السور المحيط بالبيت، وثمارها مازالت تتدلى من أغصانها رغم عمليات القطاف المنظمة التي كان يشنها بابا عليها وبدون رحمة وبمعاونة ابنها.. ولم تكن فرحتها بالعنب أقل من فرحتها بالبرتقال؛ فقد نشرت الكرمات الثلاث أوصالها وأغصانها فوق التعريشة الخشبية الممتدة بين البابين الخارجي والداخلي، وملئت مساماتها وفجواتها بالأوراق والغصينات الصلبة المعقدة وعناقيد الأعناب المتدلّية التي لم تتلها يد القطاف بعد.

كان الأخوان قد خرجا منذ ساعة.. لاحظت دادة شحوب وتوتر وانقباض ظاهر على وجه زوجها لم تألفه منذ تحسن صحته بعد العملية الجراحية الناجحة التي أجراها له د. إيشايا قبل عامين من الزمان.

حملت دادة طويلاً في وجهه لأنه كان ومنذ الفجر يدير محول الراديو، صديقه المفضل؛ ينصت بكل انتباه لصوت المذيع الهادر وهو يتلو البيانات الصادرة من مجلس قيادة الثورة، وقد سمعت دادة الموسيقى العسكرية وهي تخبز في المخبز في الفجر، ثم وهي تغسل المواعين، وعندما كانت تحضر الشاي، وحينما انطلقت إلى السوق وعادت بعد نصف ساعة وهي تحمل جذراً كبيراً من ماستي مه رى (لبن الجدي)، وعندما جلبت حساء حاراً لزوجها ووضعتة دون كلام أمامه على المنضدة الصغيرة المتنقلة.

والشيء الوحيد الذي جلب انتباهها كان النشيد الثوري الملازم للانقلابات التي وقعت من قبل، فقد عُرِف نفس النشيد زمن أطاح الزعيم بالملك، ورافق النشيد البيانات العسكرية زمن إطاحة العقيد بالزعيم، والآن ها هو البعث يطيح باللواء عبد الرحمن عارف، والعبارة الوحيدة الجميلة في النشيد لدى جميلة كانت: الله أكبر، الله أكبر، وكذلك كلمة (الله) في عبارة الله فوق المعتدي التالية، وما عدا ذلك فقد اعتبرتها أقل شأنًا من سقوط ورقة من وريقات العنب التي كانت دادة تصنع منها (الدولمة) الشهيرة.

مالت إليه وقالت وهي تحقق في عينيه تحت النظارات:

- يبدو لي أنهم قد قتلوا أحد من جديد.

هذه القطعة الموسيقية وبرغم تردد لفظ الله فيها بكثرة كانت تثير شكوكها لأنها رافقت مقتل الملك والذي بكت لمصرعه طويلًا، لكونه لم يزل مجرد طفل ولأنهم قد قتلوه غدراً، ولأن الملك كان مثلها في السذاجة لم يكن يدرك تمامًا ماذا كان يدور حوله من الأمور.

أخرج الأفندي قرصًا من الأقراص الكبيرة من الأنت أسد، ضد الحموضة، من العلبة التي كانت تحت مخدته ووضعها على لسانه وجعل يمضغه بانفعال بالغ، وبعد أن ابتلع المادة الحليبية قال مخاطبًا دادة بقلق بالغ:

- اليوم هو (١٧) السابع عشر من تموز من عام ١٩٦٨، احفظي هذا التاريخ جيدًا فإنه سيكون يوم نحس وشؤم لجميع العراقيين.

كتمت دادة صرخة بيدها المرتعشة وهي تردد:

- يا ستار يا حافيز، يا حافظ.

التقط الأفندي المهفة من على الأريكة وأخذ يهف بها يمينًا شمالًا، وقال لها بتذمر:

- نار الثورة أشعلت النار في الفضاء أيضًا.

ثم التفت إلى دادة التي طوت القسم السفلي من فستانها إلى ما فوق ركبتها من الحر لتكشف عن ساق بضة وأضاف:

- إن البكر قائد الثورة ربما هو إنسان معتدل، لكن هناك شخص آخر اعتبره كافرًا بكل ما لكلمة كافر من معنى..

سكت الأفندي لحظة وهو يحدق في عيني دادة الفزعتين ثم واصل إبداء آرائه:

- هذا الشاب الطويل، هو عينه الشخص الذي حاول اغتيال الزعيم في نهاية الخمسينات، ويقال هو نفسه كان يقف وراء حادث تحطم طائرة العقيد عبد السلام عارف، وهو الآن كما اسمع يسير جنباً إلى جنب مع رئيس الجمهورية، ولا شك في أنك سوف ترين صورته كثيراً وطويلاً على شاشة التلفاز.

سكت لحظة ثم أردف وهو يبلل شفته السفلى برأس لسانه وعيونه تزداد بروزاً:
- إن اسمه صدام حسين، وهذا الشخص هو نفسه الذي كان يشرف شخصياً على عمليات التصفيات الجسدية لمناوئيه إبان عهد الحرس القومي.

تضاعف قلق ومخاوف دادة أضعافاً مضاعفة وهي تتلقى كل هذه المعلومات الفظيعة دفعة واحدة.. أما الأفندي فلم يكن بأحسن حال منها، إذ أخرج القرص الثاني من الأنث أسد أعقبه بالدواء المهدئ الذي وصفه له د. إيشايا أخيراً، وبعد أن ابتلع القرص بمساعدة الماء الذي جلبته له دادة بسرعة قال وهو يحاول تغيير مجرى الحديث، وليخفف عن دادة:

- ألا ترين أننا لم نشرب الشاي منذ سنين من السماور؟
وكانها كانت تفكر في نفس الشيء، إذ قبل أن يكمل زوجها كلامه كانت دادة قد وصلت إلى المطبخ.

* * *

جهزت دادة السماور بسرعة عجيبة، وها هو الأفندي يرتشف الشاي من نوع دندوكي كغو، منقار القبج/ الحجل، بنهم.. وبعد الرشفة الثانية رفع طرفه إلى أعلى إلى السماء الملتهبة وهو يسحب حاشية جلبابه إلى مستوى ركبتيه كاشفاً عن سيقان هزيلة بيضاء، نافخاً بفمه وهو يهز بمهفته أمام وجهه بحركة مكوكية سريعة.

- أين هما؟

تساءل مشيراً إلى جهة الشارع، أجابت:

- كالعادة لعب ولهو طيلة العطلة الصيفية.

ظهر على وجهه المتجدد ابتسامة أشبه بتكشيرة وقال وهو يربت بلطف على ذراع زوجته:

- أحياناً يحتاج المرء إلى أن يلجأ إلى أسلوب الكذبة البيضاء معهم.

رست عيون بابا لحظة على سيقان دادة البضة البيضاء التي عرتها إلى النصف، ثم رفعهما إلى عينيها المائيتين محدقًا فيهما بدقة، ولكنه سرعان ما أدارهما إلى الجهة المعاكسة لمجلس جميلة.. ارتشف النصف المتبقي من شايه ثم قال موضعًا نظريته الفذة حول الكذب الحلال:

- الكذب حرام، بل أنا شخصيًا اعتبره من الكبائر، ولا يجوز للمؤمن الصالح أن يكذب إلا في مواطن فيها خير الجميع، وفي حالات نزره يسيرة، أنا مثلاً أعتقد لو أنك قلتَ لهما أخبراني بما عندكما وما فعلتما اليوم وأنا كاتمة لسركما ولست بكاشفة إياه حتى لأبيكما فإن ذلك كذب، ولكنها كذبة بيضاء، لأنك سوف تجعليني بالمحصلة أعرف سرهما لأن ذلك في صالحهما وخير للأسرة.

سكت بابا وهو يسترجع أفكاره متأهبا ثم قرب وجهه من دادة وهمس لها:
- الأهم عدم وقوعهما في المعاصي والذنوب، وتنشأتهما نشأتنا الدينية المحافظة، ولهذا السبب علمتهما الصلاة قبل كل شيء.

وقرأ الأفندي الآية الكريمة التي اعتادت سماعها:
(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)
صدق الله العظيم.

تنهدت دادة وهي تردد مع الأفندي العبارة الخاتمة للآية: صدق الله العظيم، والحقيقة أنه كلما ذكر بابا إحدى الآيات القرآنية زادت دادة إعجابًا وانبهارًا به، ليعزز ورغم كل المشاكل المرضية ورغم كل الإهمال لها كزوجة لديها الإيمان المطلق أن وجوده لا يستغنى عنه كعدم استغنائها عن أولادها، أليست هذه الآيات كفيلا بدفع الشر عن ابنها وحفظهم من كل سوء؟

نظرت إلى زوجها الذي أسند رأسه على المخدة ممددًا ساقيه إلى أن التصقتا بفخذ جميلة التي ارتعشت أطرافها، وجدت جميلة نفسها فجأة تميل إلى معانقته وأحست في نفسها برغبة عارمة في ضمه إلى صدرها، فطوال ثلاثة عشر عامًا لم يحدث إلا مرة أو مرتين أن ناما في فراش واحد، مال إليها وهي تمد يدها الناعمة إليه ويلف بذراعها حول رقبته، ثم أخذت تمرر براحة يدها وبتؤدة على الشعرات البيض المتعششة فوق صدره الصلب، والتي كانت تقوم بإزالتها بانتظام بماكينه

الحلاقة، ثم رفعت رأسه تضمه إلى صدرها الناهد تحت ثوبها الأزرق الشفاف، وعند هذا الحد رفع الأفندي رأسه مشيراً بيده ما يدل على فقدان الصبر وهتف:
- بس، تجاوزت الحد، فكّتي عن عبئك الطفولي يا امرأة.. أنت لك يدان من الفولاذ.
قال بابا فوق صدر دادة بعد أن أعادت رأسه مع الطاقية إلى صدرها عنوة..
- وأنت أصابعك عيدان من خشب.
قالت دادة وهي تضحك.

وفجأة وكأنه أحس أنها قد بلغت الحزام الأمني الممنوع تجاوزه أمسك بابا بكل رفق بيد دادة ليدفعها عنه ويزحزحها ببطء على الأريكة وبرفق، وهو يجرّ نفساً طويلاً كمن يتخلص من كابوس ثقيل، أمّا دادة فقد تراجعت إلى الوراء وعادت لتجلس وحدها على كرسي منفرد تحت أغصان الكرمة وهي تنظر إلى الأرض.
ومن جهته استوى الأفندي في مجلسه واعتدل وهو لا يزال يلهث تحت شاربهِ المبلل، وبعد أن ارتشف القليل الباقي من استكان الشاي الثالث رفع رأسه إليها وقال بنبرة وشيت بإحراجهِ:

- سوف يأتي يوم نعود كما كنا أيام الشباب يا حبيبتي.

ولم ترَ عجباً في هذا ولا جده؛ فكل هذه الأعوام وهو يعزف النغمة واللحن نفسه، لحن الحب الذي سوف ينبت ويورق من جديد، وسوف تعود المياه إلى مجاريها وتضمحلّ البرودة والجمود، وهي تدرك علم اليقين أنها سوف لن تعود إلى مجاريها، فما لم تقدر الملاريا من النيل منه استطاعت القرحة المعدية والنزف المتكرر أن ينالا، ومن ثمّ العملية الصعبة المعقدة، ورغم كل ذلك أحست بغبطة وسرور في تقديم كل خدمة لهذا الرجل: فهل لها في حطام الدنيا أحد سواه؟

إن هذا الشعور بالأمر الواقع كان في نفس الوقت خير عاصم لها من زلة القدم، وخاصة في الأوقات التي كانت تشعر برغبة عارمة بحاجتها إلى رجل حقيقي في فراشها، وخاصة وهي ترى كل هذه القبلات والعناق في الشوارع والأزقة - كون البلدة متحررة من قيود التقاليد ولها تقاليدها الخاصة، والتي كانت الإباحة ركن أساسي منها- والقبلات الحارة على شاشة التلفزيون ليلاً في الوقت الذي كان هو في فراشه يغط في نومه والأبناء فوق، وعيونها تنظر وترى، ونفسها تتوق، وجسدها

يرتعث، إلى أن تضيق في حالة من الغيبوبة اللذيذة لتصحو على صوت عدنان فوق
وهو يضحك ويلعب مع أخيه، فتغلق الجهاز وتعود بالله من الشيطان الرجيم.
آية الصلاة التي أعادها الأفندي على مسمع أسرته كانت - كما يبدو - ذات استعمال
وأثر مزدوج: كبح الأبناء وتخدير الأم.

لم يبرح الأفندي منزله هذا اليوم على عكس عادته؛ إذ أنه كان يخرج للصلاة في
الجامع مرة أو مرتين في اليوم، وقضت دادة كذلك معظم الوقت بجانبه تتفحص
ملامح وجهه وهو يصغى بكل جوارحه إلى البيانات العسكرية عسى أن تستدل بها
على ماهية النبأ الذي تلاه المذيع للتو، وفي لحظة ما رفع الأفندي رأسه بعنف من
المذيع بغتة وهو يضرب كفاً بكف ويهتف بعصبية:
- إنهم يعلنون منع التجول ليومين.
- وماذا يعني ذلك؟
تساءلت دادة..

- يعني أنه لا يسمح لأحد من الخروج من بيته، ولو شوهد أحد خارج بيته أُلقي
القبض عليه، إلا في الحالات الطارئة، وعندها يجب استحصال الموافقة من مديرية
الناحية.

هلعت دادة للخبر وأسرت إليه متسائلة:

- وولدينا؟ إنهما...

قطع بابا حديثها وطمانها:

- الأمر ساري المفعول من فجر يوم غد.

كان بابا يتمتع نظره دائماً بالنظر إلى العناقيد المتدلية من خلال أعواد الـ (كه بر-
تعريشة العنب) أمامه والتي كانت بمثابة سقيفة فوق الممر بين البابين، يحسب نفسه
ملكاً في تلك اللحظات التي كانت دادة تضع له نان وماستاو على المنضدة الصغيرة
بجانبه قرب الأريكة، أمّا نظرات دادة فكانت تمتد بعيداً إلى أبعد من البلدة، إلى
التلال المتاخمة لجبل سفين نزولاً إلى مآذن المساجد المنتصبة الشاهقة والحمامات

التي بنت أعشاشها في ثغور تحت مكبرات الصوت وهي في ملابسها الصيفية الخفيفة وقد لفت رأسها وعنقها بغطاء أبيض رقيق.

وكانت المروحة العمودية التي عثرت عليها دادة بعد طول بحث في غرفة الخبز الخارجية تدور بدون توقف من الظهر حتى اللحظة التي قام بابا بعد إتمامه لتلاوة القرآن وخطى إلى داخل البيت استعدادًا لصلاة المغرب، أمّا دادة فقد قامت بحمل السماور ومتعلقاتها إلى الداخل، ثم راحت إلى الحديقة الخلفية وقطفت بعض التينيات من أشجار التين الثلاثة، الفاكهة التي أحبها فوق كل الأنواع، وكانت الشمس تهبط متسارعة من قبة السماء الزرقاء نحو التلال الغربية الصفراء المتلاصقة، ومن هناك سمعت طرقات عنيفة متتالية على الباب الحديدي.

وضعت دادة ما في يدها على الأرض وسارعت هلعة ملتفة حول الحديقة من الداخل نحو الباب، كان الأفندي قد قرأ بسم الله كأول خطوة للوضوء، ومن داخل الحمام ترامى إليه صراخ دادة عند الباب الحديدي:

- ابني! عدنان ابني عدنان! أفندي.. أفندي.. أسرع.. لقد مات.. إنهم قتلوه لقد قتلوه.. مات عدنان، يا إلهي.. يا ويلاه!!

كان رأسه تحت يد فرهاد اليمنى وذراعه تتدليان على ساعدي عاشور وأمير اللذان كانا يمسكان به من تحت إبطه من طرفين، وعيون دادة تتحركان من غير كلام وهي تنظر راکعة إلى المشهد ولا تكاد ترى، كانت رقبتة مثنية على صدره كالمشقوق وعنقه مائلاً نحو اليسار، في فمه المفتوح الأعوج كان يسيل لعابه مُشكلاً خيطاً رقيقاً تحت شفثيه المبللتين وذقنه المترب، شعرات ناعمة متفرقة على صدره كانت قد وجدت طريقها للخروج من خلال قميصه الأصفر ذي المربعات السود الصغيرة.

عيون فرهاد جامدة في محجريهما بلا حراك وقد طارت الحمرة من وجهه والثبات المعروف عنه، وحلت محلها صفرة وشحوب وبرودة الأموات، حاول الأفندي أن ينحني ليساعدهم في حمله إلى الداخل ولكن قدماه خاناه، فانهار تحت ثقل جسده النحيف ليقع على ركبتيه بجانب دادة، حملوه إلى الصالة ويد فرهاد يطبق على رأس أخيه، وهناك في ركن ما مددوه على حشية صغيرة، نظرت دادة ملياً إلى رأسه وشاهدت ما وارته راحة فرهاد كل الوقت، ارتعدت فرائصها لما رأت

وتوسعت حدقتا عينيها.. ثم مدت يداً إليه قاصدة وضع رأسه الصغير في حضنها
فعجزت، وبدلاً من ذلك ترنحت ذات اليمين وذات الشمال لتسقط أخيراً بجانب
الأفندي الذي كان يقوم بإسعافات أولية بسيطة.

أما دادة فقد اضطربت أنفاسها وخارت قواها فسقطت مغشياً عليها.

قاد الأستاذ أكرم أبو عاشور جيرانه بسيارته إلى المستشفى الجمهوري ردهة الطوارئ في مركز المدينة، وكانت عبارة عن مبنى ذي طابقين طليت جدرانها بلون أبيض حليبي من الداخل والخارج، والغرفة التي رقد فيها عدنان كانت تقع في الطابق الثاني، غرفة كبيرة تسع لعشرة مرضى، في حين كان عدنان هو الموجود الوحيد طوال فترة رقاذه ومعالجته، محض صدفة ولكنها كانت صدفة رائعة.

أمام سرير عدنان وقفت أم عاشور بجانب دادة جميلة الجزعة والهلعة، وطالما نطق لسانها بألفاظ لا صلة بينها، دادة جميلة لم تتحمل المشهد فراحت تقف بعيدة عن السرير في إحدى زوايا الصالة تتبعها أم عاشور، التي أمسكت بيدها مرات لا تحصى تمنعها من اللطم والضرب على الخدود مواسية إياها بكل ما حفظت من عبارات المواساة والتحلي بالصبر والجلد، وأمام السرير وقف أبو عاشور كتفًا لكتف مع عمر أفندي، الذي أخذه الضعف مأخذًا فانصرف مهممًا بصلوات وآيات من القرآن يتوسل بها إلى الله.

بان على وجه الأفندي تأثر عميق وحزن شديد، ولكنه لم يذرف دمعة كما أراد وشاء، ولم تنهمر دموعه انهيارًا مثل زوجته، ليتقطر قلبه بين أضلاعه دمًا على ابنه الورع المؤمن الصالح المؤدب المرح، وكم من مرة أفصح لزوج أنه كان ينفس عليها دموعها، الدموع التي خانتها وعصت عليه في أحلك الأوقات وأشد الأزمات، وكأن الدموع فضّلت زيارة المآقي الناعمة البشوشة على المتشنجة الغائرة.

صمت مطبق ساد المكان، في حين ركزت عيون الرجلين المنقبضتان على رأس عدنان الملفوف بشاش أبيض منتفخ قليلاً، فقد وضعت شريحة قطن سميكة مباشرة فوق الحفرة التي تركتها الضربة، كان عدنان متمدّدًا على ظهره في حالة شبه غيبوبة وقد امتدّ ساقاه أحدهما بموازاة الآخر، لا حراك ولا صوت، نقطة دم واحدة نضحت إلى الخارج من مكان الإصابة ولطخت الشاش من الخارج، كان جيب قميصه الأصفر منفوخًا لوجود نسخة صغيرة من القرآن كان يحمله معه دائمًا عند

خروجه من البيت تلبية لرغبة دادة، وتحت السرير رقدت فردة واحدة من حذائه عالي الكعب.

ولم يطل الانتظار كثيراً إذ أقبل الطبيب بسرعة وهو يحمل أشعة إكس سوداء في يده، ووقف أمام السرير بمحاذاة صدر عدنان، ألقى الطبيب البطين القصير أولاً نظرة فاحصة طويلاً وعرضاً على الجسد الهامد أمامه تحت عدسات نظاراته الطبية السمكية، بعدها مدّ يده ليلمس برفق وجه ورأس المصاب، دامت الحركة لهنيئة بينما القلوب الهلعة الفزعة خالتها دهرًا، ثم استوى وهو يلتفت يمينًا ونادى اسمًا فأقبل شاب في الرداء الأبيض ووقف بجانبه، همس شيئاً في أذنه، التفت الشاب على أثره للجماعة وطلب منهم أن يدعوا الطبيب مع المريض لمدة خمس دقائق ففعلوا.

انقضت المدة وعاد الأربعة فدعا الطبيب الأفندي إلى جواره الذي كان لا يزال في جلبابه ففعل، أخذ بيده ومضى به بهدوء إلى زاوية من الغرفة وهناك أخبره بنتيجة التشخيص بصوت هامس:

- من واجبي أن أصارك إذ لا يمكنني ولا يحق لي إخفاء الأمر عليكم طويلاً، اعلم يا سيد أن الأمر خطير للغاية، الإصابة بليغة تهشمت الجمجمة من جرائها، الحجر ترك حفرة في الدماغ لا يعرف إلا الله كم أتلّف من خلايا وأنسجة من تحت.

سكت الطبيب لحظة، فرصة متاحة ليختلس نظرة على المرأتين المتلاصقتين، وأعاد الطبيب نظره إلى الأفندي الذي تسمر من مكانه والشحوب يعلو وجهه وقد فقد القدرة على الوقوف بانتصاب، فاتكأ على الكرسي، وقال له بنبرة أكثر ليناً:

- ومع خطورة الموقف هناك لا يزال أمل، أمل ضئيل، ولكنه أمل، قد يعيش، ادعوا له، الأمر الآن خرج من يدي ووقع في يد الله.

سكت لحظة مفكراً ثم أضاف:

- راقبوه جيداً وانصتوا فإذا نطق بشيء فأمله في النجاة أكبر.

أطلقت دادة صرخة فقد انصتت خفية للطبيب، لطمت خدّها باليد الطليقة، أم عاشور أمسكت بها فاستعانت باليسرى لمواصلة الضرب واللكم، وجرت شعرها وتساقطت خصلات من شعرها الجميل متناثرة على أرضية الغرفة، لتسحقها أقدام الأفندي وهو في اندفاعه الهائل للحيلولة دون نزع المزيد، لم يجد رجاءه نفعاً، أمسك بكلتا يديها يسحبها إليه ولسانه مع ذلك لا يكف عن الدعاء والابتهال، وكانت لهذه الأدعية

والابتهالات تأثير الماء على اللهب، لم تطفئ دادة لكنها خفت من سعي قلبها، قادها إلى حيث كرسي حديدي قرب السرير، أجلسها وأشار إلى أم عاشور لتجلس بجانبها، ثم تفرغ هو لقراءة سور من القرآن والأدعية.

أنصت أبو عاشور الطبيب لدعاء بابا بكل انتباه، حيث كان الأفندي يتلو بصوت عال، فقد اعتادت دادة سماعه في الشدائد، فكلما ألمت بها ملمة أو ساورتها هواجس ومخاوف التجأت إليه ملتزمة:

- هلا قرأت دعاء كاكه شيخ، أمّا ترى أنّ عدنان وفرهاد قد تأخرا من العودة إلى البيت.

أعاد قرائتها مرة ثانية ولكن هذه المرة بصوت مرتفع، فتلا:

(يا غلام، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، واعلم أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن ينفعوك بشيء ما نفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بما كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف).

مضت ساعة ولم يتغير من الأمر شيء، عاد الطبيب وتفحص الرأس المصاب والوجه الممتقع، وسأل الأفندي فيما لو كان المريض بدرت منه أية حركة أو أي صوت فأجابه بالنفي، أخرج ورقة وكتب عليها شيئاً ثم سلمها إلى الأفندي، انتزع أبو عاشور الورقة من يد الأفندي برفق وسار بها إلى الصيدلية.

لدى خروجه من الباب ألقى فتى قابلاً هناك خلف الباب وقد حشر رأسه الأشعث بين ركبتيه، وعينه تنظران بجمود وثبات إلى الأرض أمامه وكأنها تحملقان في لا شيء، انحنى ليراه جيداً.. تأمل وجهه بوجه مقلوب فلم يملك إلا أن يهتف:

- فرهاد؟! ماذا تفعل هنا؟

ربت على كتفه وشجعه على التجلد ثم مضى يطلب الدواء.

في الداخل قام الطبيب بفحص جديد آخر للحالة، جس نبضه وتفحص عينيه والعين اليسرى المنتفخة خاصة، وأوعز إلى المضمّد بوضع كمادات حارة عليها للتخفيف من انتفاخها، فقد عانت العين اليسرى كثيراً من جراء الصدمة فخرجت وبرزت من محجريهما بشكل ملفت للنظر.

استوى الطبيب واعتدل من وقفته والنفوس في ترقب كلمة نجاة، لم يقل شيئاً ولكنه أمسك بيد الأفندي وهو في جلبابه ونعاله ويعرج فقد جاء بدون عكازه، وقاده برفق إلى خارج الغرفة، وهناك وجه الطبيب إليه سؤالاً خافضاً صوته وقد وقع بصره على ابنه القابع هناك:

- هل لك ابن غيره؟

- نعم.. ماذا تقصد بالله عليك، دكتور، قل شيئاً آخر غير هذا، أتوسل إليك.

أطلق الطبيب الكلمة كالرصاصة ثم انطلق بدوره كالرصاصة مغادراً لا يلوي على شيء، الحكم كان جلياً قطعياً، شعر الأفندي بقوته تتخلّى عنه وبرغبة في البكاء ولكن الدموع استعصت عليه.

وعاد إلى الغرفة متجههم الوجه مقطب الحاجبين، فالتمس من جاره أن يعودا إلى البيت، ولكنهما رفضا التماسه بإصرار، ولم ينجح الأفندي إلا بعد المحاولة الثالثة في إقناع أبو عاشور الذي غادر بشرط أن يظل زوجته لمساعدة دادة.

جنّت دادة على ركبتيها إلى جانب السرير مغمضة العينين تتمم بكلمات غير مفهومة مثلاً للنعاسة، وكانت تجول بنظرات حائرة وحواس مغلقة بالهم، وفي غمرة نكدها تذكرت أنها سمعت أم عاشور يوماً تتمم ببعض العبارات الدعائية باللغة الكردية، فعلمت بذهنها، فشرعت تدعو ربها مباشرة وباللغة الكردية: "لو شفي ابني فسوف أصلي لك يا إلهي بدل صلاة واحدة في كل فرض ثلاث صلوات، ولسوف أذبح الذبائح وأوزع اللحوم على الفقراء من أطرافنا... خودايه جم ناوى.. لا أريد أي شيء منك يا ربي عدا عودة ابني إلى الحياة".

وفجأة وفي غمرة حمى التضرع لفرج وخلص تذكرت دادة أن أم عاشور قالت لها يوماً أن نبيهم المسيح كان له القدرة على إحياء الموتى، فمدت عنقها ملتزمة منها ذلك، لم تنفك أم عاشور بالدعاء طوال الوقت على طريقتها الخاصة، وتلبية لدعوتها شبكت الجارة أم عاشور ليلى يديها الممتلأتين ورفعتهما ورأسها إلى السماء مغلقة عينيها محرّكة شفاهها في صلاة صامتة خاشعة مستديمة.. ودام السهر والدعاء والزفرات والآهات والأنات طوال الليل ولم يفتح عدنان فمه ولا عينيّه.

عند الفجر قام الأفندي للصلاة، فقد قضى ليله جالس على الأرض واضعاً رأسه بين ركبتيه، أدار عينيه في الضوء الخافت فوجد المرأتين مستندتين برأسيهما على حافة السرير في شبه إغماءة.

توضأ بماء المغسلة المثبتة على الحائط وراء الباب، ثم بسط شرشفاً نظيفاً جلبه من الخزان الحديدي القائم في إحدى الزوايا، فصلى ودعا وأطال الدعاء والابتهاال والتضرع، ثم قام فلم يفلح، خانتته رجلاه فوقع على الأرض، ثم تشجع واستوى وأسند ظهره إلى الحائط، ولبث هكذا لدقائق بين النوم واليقظة، وفجأة أحس بأنة مكتومة؛ التفت إلى المرأتين فلم يرَ غير جثتين هامدتين، وسمع أنة ثانية ضئيلة فأر هف الحس، أراد أن ينهض فلم يتمكن، من مكانه همس لهما:
- جميلة.. أم عاشور.

ترأى له طيف دادة في الظل، لمح سواد عبااتها، تستقيم بعد الهجوع الطويل وتنتصب نصف انتصاب:
- ما بك أفندي؟

ليلى تفرك عينيها الثقيلتان:

- ما الأمر؟

- انصتي، هل تحسين بأنة من جهة السرير؟

وثبتا إلى قدميهما فرأيا أن رأس عدنان قد مال قليلاً إلى الجهة اليمنى، بصيص من نور ضعيف أضاء أملاً ضئيلاً، كان الولد بلا حراك عدا تنفس غير محسوس..
قربت دادة فمها من رأس ابنها وهمست في أذنه:

- عدنان.. عدنان أسمعني؟

خاب رجاؤها.. تواصل الصمت المطبق والظلام مطبق والحزن المطبق، والأفندي هامد جامد، وأم عاشور تضم جميلة إلى صدرها وعيناها من وراء ظهرها مثبتتان على الساعة التي ترسل أصوات أشبه برذاذ مطر منهمر في ليل مدلهم، في صدرها حسرة لدادة ولنفسها، تسأل في أعماقها هل تجرؤ وتكاشفها أن ما خشي منه الطبيب قد وقع وأن دعائهما لم يلب ولم يسمع هذا المرة؟ أوصتها بالصبر فالفرج قريب بإذن الله.. خرج الأمر من يد البشر.

جثت دادة على ركبتيها بجانب السرير ووضعت مقدمة رأسها على طرف منه، وصعدت حشجرة كحشجرة الموت وهي تنطق ولا تكاد الحروف تنطلق من حنجرتها المتيبسة:

- آه يا رب لا يمكن أن تكون قاسياً بهذه الدرجة معي، أنا، أنا جميلة.. جميلة التي لم تقترف إثماً ولم تؤذ أحد يوماً؛ لا بلسان ولا بيد ولا بقول ولا لفعل، آخ يا رب امحني من هذا الوجود قبل أن تحكم على محوه، هذا الدعاء هو الأخير بين يديك.. وإلا فما نفع الدعاء؟.

رفعت يديها ورأسها إلى السقف متضرعة، وضعت أم عاشور يدها على كتفها وهي تهمس لها:

- إنك تهلكين نفسك هكذا أم فرهاد، المؤمن لا يفقد الصبر ولا إيمانه برحمة ربه في أية حال من الأحوال، فكل ما يقضي به الرب حق، حتى صلب المسيح فيه حكمة ورحمة للناس، فلولا صلبه لما اشتدت سواعد المؤمنين بعقيدته في ترسيخ عقيدته، ولتوانت قلوب أتباعه في اتباعه بعد أن أنسوا منه بعض الكلل والملل والتردد، فالصلب بحد ذاته كان رحمة.. تألفت قلوب الملايين وتوحدت تحت ظلال هذا الصلب المصنوع من خشب رديء.. رديء جداً...

رفعت دادة رأسها من الفراش ووضعتها على صدر أم عاشور العريض، فأخذت هذه تربت على رأسها كما تفعل الأم بطفلتها، وأزاحت دمعيتين كبيرتين من تحت جفنيه، وكتمت شهقة كادت تنطلق من فيها وقد أخذ الحزن منها كل مأخذ، وأخذت تؤدي طقوس طلب الرحمة والرأفة والشفاء والشفاعة من سيدها:

- يا يسوع المسيح... نجني هذه المسكينة فإنها أم قبل كل شيء.. أم مثلي فأنت أدرى بمصائبها وخفف من حماوة الحريق الذي شب في صدرها وكبدها... أو لست القائل: "لَأَنَّهُ تَعَلَّقَ بِي أَنَحِّيهِ.. أَرْقَعُهُ لَأَنَّهُ عَرَفَ اسْمِي.. يَدْعُونِي فَأَسْتَجِبُ لَهُ، مَعَهُ أَنَا فِي الضِّيقِ، أُنْقِذُهُ وَأَمَجِّدُهُ.. مِنْ طُولِ الْأَيَّامِ أَشْبِعُهُ، وَأَرِيهِ خَلَاصِي".

في ظل الصمت والوجوم ترامت إلى أسماعهم تنهيدة عالية وشهقة أعقبها سعال قوي، وأعقب كل ذلك صوت نحيب علا وطغى على المكان، هرعت أم عاشور إلى خارج الغرفة وعادت تمسك بيد فرهاد الذي بدا كالشبح، ألقى بنفسه في أحضان أمه

ودفن رأسه في جحرها، فتح الأب عينيه للأصوات هذه وهو لا يزال مسندًا ظهره إلى الحائط الصلب، وفي حضن أمه بث شكواه:

- أنا السبب دادة وبابا.. أنا السبب...

انحنّت دادة ووضعت رأسه على صدرها تمسح شعره الأملس مسحًا.. قبلت وجنتيه ثم شدته إليها هامسة في أذنه:

- يا وحيدى.

انتفض فرهاد لهذه العبارة وسارع كالمخبول إلى حيث جسد أخيه المسجى بلا روح ولا رواء، وأخذ يصرخ بوجهه:

- عدنان... عدنان... انهض وقل شيئًا يدحض دعاء أمي إنني أنا وحيدها...

ثم ألقى برأسه فوق سرير أخيه وأجهش بالبكاء المرير.

كان ضوء المصباح ضئيلًا ورغم ذلك شاهدت أم عاشور أن خيوطاً فضية تسالت إلى شعر دادة الأسود في ليلة واحدة، قربت دادة رأسها من رأس الأفندي وقالت له بكل ما في جوارحها من إيمان وعقيدة وبنبرة نابعة من القلب صادقة:

- أفندي لا تكف عن قراءة دعاء كاكه شيخ أحمد...

انطلقت شفتاه في تلاوة الدعاء بصوت وخشوع للمرة الثالثة، وساد سكون مطبق الأرجاء، العيون متجهة إلى رأس عدنان وجسده الهامد، ظلوا هكذا لدقائق أيادي متشابكة وعيون مرفوعة إلى أعلى، ثم عادت لتتنظر إلى أرض الواقع.

- وماذا الآن.

تساءل الأفندي وقد افترش الأرض بجانب السرير..

- هل اذهب واستدع الطبيب؟

تساءلت أم عاشور..

- سأذهب أنا.

قال فرهاد وأضاف:

- أبي رأيت الدكتور إيشايا يمر من أمام الباب، هل اذهب وأبحث عنه.

هش الأفندي لما سمع وأشار لابنه أن يفعل وهو يغمغم:

- لو جاء هو لنجا ابني...

ولم يكد فرهاد يتجاوز باب الغرفة إلا ودعته أمه أن ينتظر.. فقد اهتز رأس عدنان اهتزازًا ضئيلًا، احتبست الأنفاس وتسارعت دقات القلوب، تحرك رمش واحد من رموشه، اتسعت الأحداق والأفواه، إصبع واحد من أصابع عدنان دبّت فيه حركة ضئيلة، رفعت دادة رأسه إلى الهواء في حالة خوف ورجاء، صدرت أنة خفيفة من الفم المنكمش، رسمت أم عاشور علامة الصليب على صدرها العريض.. بعد لحظات انطلق فرهاد خارجًا باحثًا عن الطبيب، لينقل الخبر إليه أن أخاه نطق: آه!

القسم الثالث

الأخوان

obeyikan.com

في يوم ما من أيام أيلول من عام ١٩٦٨ و قبل بداية العام الدراسي الجديد بأسبوعين؛ دعا عدنان أخاه إلى غرفته التي انتقلت إلى أقصى ركن في البيت الفسيح بناء على طلبه، وحدّثه ورأسه ونصف جسده موارى تحت البطانية قائلاً بصيغة أمر صادر من الطفل المدلل:

- اشتر لي معطفا قهوائي اللون فاتح، أو أصفر غامق، وبنطلون ضيق طويل سميك، ولا تنس أن تختار لي من الحذاء ما هو صلب من الجلد وكعب عالي، ومن المفضل أن يكون الحذاء من نفس لون المعطف، من النوع الذي يرتديه الكابوي في أفلام الرعاة الأمريكية، تتذكر الفيلم من أجل حفنة من الدولارات؟ الشيء نفسه، نعم أريد الشيء نفسه، أجل... تماماً كما كان البطل يلبس.. ما كان اسمه؟ ذاك الطويل الرفيع النحيل والقوي الشجاع وفي زاوية فمه يتدلى سيجار مكسيكي وعيونه تلمع مثل عيوني تماماً انظر أماً ترى؟ إنها تُشبه عيونك أيضاً.. ألم تلاحظ؟ ولكنه والحق يقال كان أقرب شبهاً مني إليك، نعم انظر إنه يشبهني أكثر لأنني لي نفس النحافة والطول ولحيّتي كلحيّته تميل إلى الصفرة قليلاً، أما ترى بأمر عينيّك؟

ثم حك رأسه كمن فقد شيئاً للحظات، ثم رفع رأسه إلى أخيه يتساءل:

- ما كان اسمه؟ يا ربي لقد نسيت.. اسم جميل وسيم مثله..

ومن موقفه بالباب أنقذ فرهاد حيرته فقال له بابتسامة فاترة:

- كان اسمه كلنت... كلنت أيستود.

لاحظ فرهاد أن لون بشرة أخيه قد صار أدكن مما كان عليه، وكان وجهه محتقناً لكثرة تراكم الدم فيه على أثر رقوده اللا منتهى.

استقام عدنان من فراشه وهو يردد الاسم:

- كلنت، كلنت، نعم كان اسمه كلنت.

ودخلت دادة في ملابس العمل الروتينية؛ ثوب طويل نيلي سميك، وتشد شالاً أبيض عتيقاً حول رأسها.. تقدمت إليه، وقفت أمامه، ابتسمت له وسلمت عليه، ثم انحنت

وقبلت جبينه، ورفع رأسه من المخدة وقبل يدها، جلست برفق بجانبه على طرف السرير.

- ما شاء الله لهذا الولد الوسيم!

قالت وهي تحمق في وجه ابنها مليًا، ومن هناك أدن الديك، صياح حاد متواصل متواتر، عالي الذبذبة.

- دادة

- نعم حبيبي، قل.

- ألا تُخرسين صوت هذا الديك الأرعن، إنه يصم آذاني.

- ابني إن وراء صياحه قصة درامية.

أجابت دادة تحاول الترفيه عنه..

- ما هي؟

رفع رأسه مستطلعًا.. وضعت يدًا على رقبته من الخلف، وفي نفس الوقت تتفحص جبينه المشوه بمرارة وغصة، ثم لبّت مطلبه وحكت له الحكاية:

- تقول الحكاية الشعبية الكردية إن سبب صياح الديك هو أن الديك كان يملك أول وجوده ذيلًا طويلًا زاهي الألوان، استعاره منه أحد الأيام الطاووس ليذهب في أتم زينة إلى بلاد الهند، إلا أن الطاووس ذهب ولم يعد، ومنذ ذلك الحين يتذكر الديك ذيله المسروق فيصيح بعد أن يصعد إلى أعلى مكان، مطالبًا الطاووس بإعادته دون جدوى.

انفرجت أسارير عدنان للحكاية وضم دادة إليه، وارتسمت ابتسامة عريضة على وجه فرهاد الطويل وهو يقف كالطود وسط الباب.. أنست دادة على محيا ابنها ما يوحي بأنه يستزيد، فزادت.. فسألته أولاً:

- هل سمعت بطائر (داركونيره)؟

رفعت طرفها إلى الباب وهي تضع يدًا على طاقة عدنان المزخرفة تربت عليها بخفة وحنان:

- ماذا يسمونه باللغة الفصحى، فرهاد؟

- نقار الخشب.

- نعم أحسنت شكرًا.. نقار الخشب اسمه.. هذا كذلك له حكاية كردية.

- أحمًا؟ أريد أن اسمعها..

فغر فاه بما نم عن توق مُلح، أمًا دادة فغلها صمت قصير، ومن تحت جفونها رمت نظرة خفية على رأس ابنها تحت الطاقية، للحظات استقرت عيناها على الخطوط الحمراء المتوازية التي تحيط على شكل هلال بعينه اليسرى، وسرعان ما حولت طرفها عنه وهي تكبح تنهيدة، تكلفت ابتسامة، تنحنت وأخذت تسرد عليه الحكاية: - يورد القاص الشعبي الكردي حكاية أخرى تفسر سر الصوت السريع للطائر الذي يسمى نقار الخشب وهو يقطع بمنقاره فيقول إن هذا الطائر كان في زمن بعيد شيخًا زاهدًا متعبدًا يذكر اسم الله سبحانه وتعالى بقوله: تاق تاق، أي الله أحد أحد، ثم تحول هذا العابد بقدرة الإله المعبود إلى طائر يذكر الله ذكرًا حسنًا كما كان يفعل وهو شيخ متعبد.

انتفض عدنان من محله وقد أخذه العجب والشوق، وقال ينقل نظره بين أمه وأخيه: - الديك ونقار الخشب... لكن...

سكت لحظة يبحث عن تعقيب على حكاية أمه فوجده وأطلقه: - حسنًا وما بال الحمار ينهق، فهل وراءه قصة كذلك؟

صاح فرهاد به:

- الحمار عاشق غيور مثلك...

- أو مثلك..

هتف عدنان وهو يرميه بنظرات كالشرر.

دافع فرهاد عن موقفه قائلاً:

- أنت غيور على الديك تحسده على زوجاته الأربعين...

غرقت دادة في الضحك، وشبك فرهاد ذراعيه على صدره كالسوبرمان.

- أنا أجمل من الديك..

هتف عدنان ثم قال لأمه:

- هل نذبحه في العيد.

- ألم أقل لك؟ إنك تريد التخلص من منافس.

هتف متحديًا فرهاد، نهرة عدنان بحركة قوية من يده ثم عاد يخاطب أمه مشيرًا إلى أخيه:

- مهما يكن فملاحقة الدجاج خير من ملاحقة الفتيات.

رفعت دادة عينيها المائيتين إلى ابنها البكر بانتظار الجواب، ومسحة من الحزن المبطن تطفو على صفحة وجهها الشاحب، ولكن عدنان لم يدع مجالاً للتعقيب حيث نظر صوب الباب وتساءل بشيء من القلق:

- وأين بابا؟ أراه هذه الأيام منعزلاً.. ما السبب؟

ساد سكون قصير الجو المحيط وتبادل الثلاثة النظرات.. ردد فرهاد استفسار أخيه وزاد عليه في دخيلته: وما باله يقرأ القرآن إلى وقت متأخر من الليل ويقوم الليل إلا نصفه، وما بال شفثيه المزمومتين الرقيقتين الشاحبتين لم تقترا لحظة عن ذكر ذاك الذي في السماء والذي لا حول ولا قوة إلا به على حد زعمه؟

وما أكثر ما صعد هو بنفسه من زفرات وشهقات حارة منذ حدوث النكسة، وهو يلاحظ ويراقب ويدرك كيف تبدل الحال كلياً في أسرته السعيدة، فقد كان لإفراط أبيه في الصلوات وجلوسه في البيت مدة أطول مما اعتاد عليه كل هذه السنين، وقلة خروجه، وتوقف ترده للمقهى الذي كان يرتاده في المدينة بانتظام، وتقليص زيارته للجامع إلى مرة واحدة في اليوم بدلاً من مرتين؛ كل ذلك كان له أثراً سلبياً في نفسه.

لاحظ فرهاد أن أمه كانت تنفس عن نفسها بطريقة مغايرة تماماً، طريقة دنيوية عصرية لائقة بسنّها الذي لم يتجاوز الثالثة والثلاثين، فقد كانت تطيل الجلوس أمام شاشة التلفاز الأسود والأبيض، كانت تجد متعة لا توصف في مشاهدة الأفلام وتجد فيها بديلاً وممتنعاً ونسياناً ومهرباً عن الواقع المر، وتخفيفاً لها من أثر الصدمة، وتبديداً للسحابة السوداء وتشثيتها بالهروب من عالم الواقع إلى عالم الخيال، عالم الأفلام والأحلام.

حزنها على ابنها كان كالجمر المدفون تحت الرماد، وكم من مرة رآها ترتجف وتضطرب أوصالها وتعبر عن هلعها وهي تتذكر تلك الأمسية السوداء من ذلك اليوم الذي حكم الطبيب البدين ذو النظارات البيضاء والرأس المربع على ابنها وعليها بالموت، وكم من مرة أبدت فيها مقتها واشمئزازها للطبيب الذي أعلن وهو بكامل قواه العقلية والفكرية لو أنه بات الليل دون حراك أو كلام... ولم يكن في مقدورها تكلمة ألفاظ الطبيب القاضي بخيار الموت كحقيقة قريبة، فتحجم لذلك عن

ذكر الباقي، وكوسيلة أخرى لكتم وخنق الصوت المخير بين الحياة والموت كانت دادة جميلة تعتمد إلى رفع جهاز التلفزيون إلى درجة أن صوت الجهاز كان يطغى على كل الأصوات في داخلها وفي داخل بيتها برمتها، ليقضي وبالمحصلة على الصوت المكتوم للصخرة القاتلة التي كادت تجعل منها تكلى بابنها وهو ما يزال شاباً لم يبلغ سن الرشد بعد.

وجد فرهاد في مجالستها وموانستها إلى وقت متأخر من الليل لذة ومتنفساً له أيضاً، معاً يتكلمان ومعاً يتبادلان المشاعر والهموم والأحزان، وأحياناً الضحكات المكتومة كصديقان قربهما مصير واحد ومحنة مشتركة.

أما عدنان نفسه فكان يقضي القسط الأكبر من نهاره وليله مستلقياً على ظهره وحده في غرفته، وصوت خافت من أشرطته وأغانيه الحزينة يتسرب إلى الغرف وينساب في أرجاء البيت وحتى إلى آذان بابا وهو في صلاته ودادة في صلواتها، لقد أثر عدنان العزلة عن العالم الخارجي، وحتى ظهوره ودوره كفرد في العائلة قد تقلص إلى حد كبير، فقد تركت الضربة أثراً جسدياً ونفسية وعقلية وجمالية عليه، فالحفرة كانت عميقة في الجانب الأيسر من الرأس، بينة ثرى من بعيد، والعين اليسرى قد أصابها العطب كذلك، فبعد سنة واحدة من يوم النكسة (١٧-٧-١٩٦٨) تم إخراج زائدة لحمية ودم متخثر من تحت العين؛ الأمر الذي سبب تشوهاً إضافياً في وجهه، حيث بدت هذه العين أكثر جحوظاً وبروزاً من الأخرى..

كانت دادة تراقبه بحذر وهو يتأمل نفسه في المرآة لدقائق طويلة يومياً، وقد ارتعبت دادة عندما طالب عدنان يوماً ما بغرفة في الطابق الأرضي لنفسه، فقد كانت أصغر غرفة في المبنى كله وتقع في الركن الأقصى من الدار، وكانت لها نافذة ذات مصراعين تشرف على الحديقة الخلفية، ومع عدم استساغتهم للفكرة لم يشأ أحدهم رفض مطلبه، فوضع له فرهاد سريراً حديدياً ومنضدة وجميع لوازمه الشخصية في الغرفة، بعدما قامت دادة بتنظيفها وتفريغها من الذخيرة والمواد الغذائية التي كانت فيها.

كانت الأغاني الحزينة تبعث في نفوس الثلاثة الصحيحة الكمد والحسرة وتدفع بها إلى البكاء، بما كانت تحمل من أفكار ومضامين سوداوية متشائمة، ومع سوداوية الموسيقى هذه فقد وجد فرهاد متعة غريبة في سماعها، انجذب إلى كلماتها بذوقه

الشعري الذي فطرت نفسه عليه، رغمًا عن حزنه وتألمه للمزاج السوداوي الذي اصطبغت به حياة أخيه، وهو المعروف عنه إلقاء النكات وإجادة محاكاة أصوات الطيور وحركاتها والمرح المؤلف، وود من قرارة نفسه لو فضل أخوه شيئًا أكثر تفاؤلًا من هذا، ولكن هل كانت هناك من قوة قادرة على أن تقول له لا..

من ضمن ما لاحظته وشدّ انتباهه أن أخاه ورغم كونه لم يذق في حياته طعمًا ولا نكهة للحب؛ الحب، حب شاب لفتاة، كان يجد لذة لا توصف في الاستماع إلى هذه الأغاني الغزلية والعشق العذري في مجملها، فكلما مر أمام غرفته الكائنة في طرف الممشى المفضي إلى المطبخ ألقى نظرة خاطفة إلى الداخل من فرجة الباب ليلتقط صورته وهو ينفث في سيجارته الروثمان الغالية ذات النكهة الفوّاحة وبعمق ولهفة ويزفر ويشهق ويهز رأسه هزًا عنيفًا على وقع آلة الكمان ووجهه لا يكاد يميز في وسط سحابة من الدخان الأزرق المتصاعد حلزونيًا فوق رأسه.

وهذا الدخان كان يتسرب إلى غرفة الجلوس وحتى الطارمة (الفناء) وحتى إلى داخل أنف بابا في غرفته، دون أن يبدر منه أي اعتراض يذكر، الأمر الذي حير فرهاد وهو يعلم أن أباه قد أبدى آلاف المرّات تذمره ومنعه القاطع لأولاده من التدخين. ولوح عشرات المرات بعضا التآديب لمن سوّلت له نفسه التقرب من السجائر.. توقفت دادة تفكر حيال تساؤل عدنان المشروع بشأن أبيه، ثم قالت تطمئنّه بما وجدته مناسبًا:

- ماذا أقول لك يا ابني؟ إنه يدعو لنا جميعًا؟ ليس لنا سواه، إن المعجزة التي حدثت بسببك زادت من تقربه وتعلقه بالله الواحد الأحد.

شعر فرهاد في تلك اللحظة أن نفسه تتوق لجرعة مركزة من الوسكي، فأمام هذه الحالة الجديدة والإرهاصات النفسية والظروف الصعبة العصيبة التي مر بها وجد بعد طول ترقب وتردد متنفسه أخيرًا في شرب المشروبات الروحية، ألد أعداء بابا، ولكنه سارع وطمأن دادة بوعده إياها أنه سوف يشرب باعتدال بعد أن سألته يومًا عن سر الرائحة الغريبة المنبعثة من فمه عند عودته من البار، ذلك أغاظها كثيرًا في البداية.

وبعد أيام أخذت تغض النظر عن الشيء المحرم والمجنّن كما كان يروق للمتدينين والمحافظين تسميته؛ إنه أضحى الآن راشدًا قادرًا على التمييز بين الخير والشر،

ورغم كل ذلك فقد أبدت دادة مخاوفها وهواجسها كأية أم تخشى أن يقع ابنها يوماً تحت تأثير الخمر إلى درجة الإدمان، وحينئذ تنطلق الألسنة وتطلق عليه عليه لقب الـ (عارق خور) - شارب الخمر - السيء الصيت جداً.

الواقع أن فرهاد كان يتلذذ بشرب العرق والوسكي رغم مرارتهما، تماماً بالطريقة التي كان أخوه يتمتع بالإنصات إلى صوت الموسيقى المعبرة عن مرارة الحبيب الذي أصابه الحيف والغدر والجفاء من الحبيبة القاسية المغرورة بجمالها الطاووسي، وفي غمرة ذلك وأثناء الشرب وبينما كان مفعول المادة المسكرة يلدغ دماغه كان يتفرغ إلى ذاته ويشرع في تأنيب نفسه المعذبة ليجد في تلك المحاسبة النفسية لذة غريبة، وكان منظر الولد الشقي كاربدو القابض على الكرة الحجرية المتأهب لتوجيه الضربة القاضية وهو في مكانه يتفرج ولا يتحرك أشدها إيلاًماً لنفسه وتقريراً لقلبه، فيكلم نفسه مؤنباً: كان لابد لي من طرده، كل الدلائل كانت تشير أنه شقي مشاكس؛ هيئته، حركاته، صوته.. كل شيء.. ما أنا إلا أخ كبير لم يؤدِ وظيفته بأمانة، بل خان الأمانة التي وعد بها والديه.

إنه حقاً ركض كالريح نحو أخيه وصاح به منبهاً بكل ما أوتي من قوة، ولكن متى؟ بعد أن رأى العبث والجنون في عيني الفتى المجهول دون أن يمسك بيده ويحول بينه وبين قذف الصخرة القاتلة، وعند الكأس الثانية كان طيف والده يتراقص أمام عينيه الناعستين وهو يصرخ بصوته الهادر في وجهه طوال الأسبوع الأول بعد الضربة النكسة: ألم تر؟ أعميت؟ أم تغافلت؟ أهكذا يتصرف الأخ الأكبر؟ لقد خابت آمالنا ورجاؤنا فيك يا ولد يا متقاعس!

أفاق فرهاد من أفكاره المتضاربة على رفرقة ثوب أمه وهي تحيط عدنان بذراعيها القويتين وتطبع قبلة طويلة على جبينه الأسمر، ومد هو يده إليه مصافحاً إياها قائلاً له بلهجة اطمئنان وابتسامة باهتة على شفثيه الرقيقتين:

- سألبي جميع مطالبك.. أنت تؤمر يا ديك.

ثم استدار ووضع قدمًا خارج الباب وقال لأمه قبل أن ينطلق خارجاً يشير إلى الراقد:

- دادة نعاهد عدنان أنه سيحل محل الديك بعد ذبحه في عيد الأضحى، نضعه في القفص الذهبي مع مدام دجاجة.

ثم نقل بصره إلى أخيه فرمّشه بعينه وسأله:
- سيد ديك، قل لي أي الدجاجات تفضل: الشقراوات منهن أو السمراوات؟

في سوق الهرج، أكثر الأسواق الشعبية في المدينة ازدحاماً والتي تقع تحت القلعة التاريخية؛ شق فرهاد طريقه بصعوبة وسط السيل الهادر من الأجسام المتحركة والمواد المعروضة للبيع بألوانها وأشكالها اللامحدودة واللا محصورة، ففي محل ما وضعت الأدوات الكهربائية، بجانبه محل آخر تُعرض فيه الألبسة الشعبية والأدوات المنزلية، وفي الكشك الملاصق كانت رائحة الكباب تملأ المكان ليسيل لعاب المارة، وبملاصقة هذا المحل هناك دكان صغير يبيع صاحبه الساعات بمختلف أشكالها وألوانها وأحجامها..

بجانب هذا رجل منكب على شد خيط (قيطان) حذائه الذي أصلحه له الإسكافي في الغرفة الصغيرة الداكنة الملاصقة، وهناك في صف طويل مستدير من الدكاكين المشابهة للكهوف في ضيقها وظلامها ورطوبتها وضعت الأشرطة الكاسيتات بجانب المسجلات الكهربائية، وهناك وجد فرهاد ضالته المشوذة فاشترى الأشرطة التي طلبها أخوه منه، وحينها أن له أن يعود بهدية تسعد المكروب، وفي ركن من أركان الساحة التي وقف فيها لركوب الباص سمع ولدًا حافيًا يصيح روثمان روثمان عشرة فلوس أقل من سعر السوق، فاشترى منه ثلاثة علب أودعها جيب سترته النيلية، اللون الذي تعلق قلبه به مذ بلغ مسمعه أن طلاب الجامعة يرتدون كزيهم الموحد الرسمي، فلا يفصل بينه وبين أبواب الجامعة سوى عام واحد، ولكن كان عليه أولاً أن يجتهد ويسهر كي يجتاز الامتحان الوزاري.

في طريق العودة وجد فرهاد صعوبة في رؤية ركاب الباص المكتظ؛ لأن الكل كان يدخل كباراً وصغاراً، ولم يكن بوسعهم كذلك رؤية من في الخارج لأن قطرات مطر أيلول المفاجئ من الخارج والأبخرة المتصاعدة مع النَّفَس من الداخل أعتمت الزجاج الجانبي، وحجبت المناظر والصور خارج الباص، فلم يجد بُدًا من غلق عينيه وإطلاق العنان لأفكاره المتبعثرة، فأول مرة بعد النكسة تراءت له صورة غير صورة عدنان ورأسه الأشج المشوه وعينه اليسرى الجاحظة الخارجة من محجرها، في وسط هذا الظلام مد يده إلى شفثيه يتحسسها، صعد آهة عميقة، رفع رأسه يحدج الضباب المحلق وراء زجاج النافذة بشرود، وتساءل في دخيلة نفسه

إلى متى وجب عليه الانتظار قبل أن تأتي اللحظة التي يتلقى فيها قبلة من فتاة لا تقل جمالاً عن كاترين كه ككه.

* * *

هتف عدنان ومعه دادة وفرهاد بعدما انتهى عدنان من ارتداء الملابس التي جلبها له أخوه:

- كلنت كلنت، أنا الآن كلنت استوور..

فقاطعه فرهاد مصححاً له الاسم:

- ايستوود.. قل كلنت ايستوود.

فلم يبال به عدنان وبدأ يدور ويلف حول نفسه أمام المرأة التي وضعتها له دادة وثبتتها له على لوحة كبيرة من الخشب (فاير) أمامه قرب قدمه من السرير.

قال له فرهاد وهو يتأمله متصنعاً ابتسامة عريضة:

- لك ملابس كاوبوي أمريكي ولحية كلنت وعلى رأسك قبعة مكيسكية وسيجار في زاوية فمك ولكن لا يزال ينقصك شيء واحد ألا وهو... أحزر.

لم يكن التحذير على عدنان بالأمر العسير فأخرج يده من تحت حزامه الجلد المتين العريض وحرك يده بالطريقة التي كان كلنت يطلق مسدسه الرفولفر على خصومه دون هوادة، وحينها هتفت دادة قبل فرهاد تكيل له المديح:

- من يقول إنك لا تفهم فهو بنفسه لا يفهم.

* * *

في المساء جلس فرهاد مع أمه أمام جهاز التلفزيون بحثاً عن فيلم شيق فلم يجدوا شيئاً، لا فيلماً ولا برنامجاً ممتعاً، كانت هناك قناتين فقط كلتاها كانتا تبثان صورة الرئيس ونائبه وزياراتهما وجولاتهما على الدوام، هذا ما عدا بعض الصُدف السعيدة في القناة الثانية التي كانت تبث فيلماً أو حلقة من برنامج أو مسلسل مصري بين الحين والآخر، فأمل دادة كان معقوداً إذن على هذه الصدفة، ولما كلت يداها وعيناها من الانتظار ذهبت وأغلقت الجهاز وسط مباركة وتصديق فرهاد وبابا الذي ولشدة اندهاشهما كان يقف في تلك اللحظة لدى الباب المفضي إلى الردهة، والتي تطل عليها باب غرفتهما خلف السلم، يرفل في دشاشته بيده اليمنى، كانت أصابعه تعبت بالسبحة الطويلة ذات ١٠١ خرزة، (حبة) بينما يده اليسرى تقبض

على العكازة، وقد بدا عليه شحوب ملحوظ، وتحت إبطه يحمل المصحف الشريف في غلافه الأخضر الغامق، ومن موقفه بالباب حدج دادة بعينيه اللماعتين في ضوء المصباح الحليبي النيون المثبت في السقف، وقال وعلى وجهه ابتسامة ساخرة لاويًا شفتيه محرّكًا إياهما يمينًا وشمالًا على عادته في مواضع الاستهزاء والانتقاد اللاذع لشخص أو للحكومة:

- حرام.. بعد العناء ذهبت جهودك هباء، لا أفلام ولا برامج، انتظري حتى ينام الناس ويدب في عيون القائد ونائبه النعاس، الكلب وتابعه الكلب، ريثما يظهر فيلمك بعد منتصف الليل.

ثم نقل ببصره بين ابنه وزوجته بشرود فعل من يسترجع أفكاره في موضوع جاد خطير، وقال مقطبًا جبينه:

- عندي خبران؛ أولهما لدادة والثاني لعدنان، وكلاهما يهمان فرهاد على السواء على ما أظن.

وبدأ مخاطبًا ملوحًا بالعصا:

- الخبر الأول: سمعت قبل قليل من هيئة الإذاعة البريطانية أن الحكومة؛ وتحت الضغط الأمريكي؛ تحاول الوصول إلى اتفاق بشأن إيقاف القتال في الجبال، هناك تقارير من مجلة بريطانية تقول إن الحرب العراقية ضد الكرد كلفت ما يقارب ٣٠% ميزانية العراق هذا العام ١٩٦٩، ومن ناحية أخرى أعلن الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون أن الولايات المتحدة عازمة على دعم الأنظمة المؤيدة لبلاده ومن ضمنها إيران، كل هذه العوامل أدت إلى خشية بغداد من تعاضم الدور الإيراني في المنطقة ولذلك تقوم الحكومة العراقية الآن بعرض المفاوضات مع مصطفى البارزاني زعيم الكرد وقائد الحركة الكردية المسلحة من أجل تقوية الجبهة الداخلية وتوحيدها ولو أنيا.

ثم استطرد مزدرئًا ريقه بصعوبة:

- وهناك إشاعات تقول إنه ستبدأ مفاوضات بين الحكومة وبين الكرد، وربما نحصل من جراء ذلك على قليل من الحقوق القومية (خودا كريم) الله كريم.

ثم التفت إلى الردهة مشيرًا بعصاه تجاه غرفة عدنان وقال بصوت مرتفع كدأبه في إبلاغ أمر يخصه في مرحلة ما بعد الضربة النكسة:

- الخبر الثاني يختص بك يا عدنان: يقولون هناك فيلم عصابة/ كابوي شيق يعرض في السينما وسوف أصحابه إلى هناك إذا شاء، فماذا قلت؟.

تريث حابساً أنفاسه لحين يصله الرد عبر الممر.. لم تصدق دادة جميلة بادئ الأمر ما سمعت منه، فطيلة حياته لم تطأ قدماء صالة سينما، بل كان يتقزز حتى من الأفلام التي كانت تعرض من حين إلى حين على شاشة التلفاز، ولم يستلم الرد، فأشارت دادة إليه بحركة يد فهم مغزاها، فما هي إلا لحظة حتى ارتفع صوته الأجش وهو يخاطب ابنه من وراء الباب:

- هل سمعت ابني؟ أنا رأيت اليوم في سوق المدينة رجلاً يشق طريقه في زحمة الناس تلاحقه الأطفال وهو يرفع لافتة رسمت عليها صورة رجلين في ملابس كابوي متقابلين، وكل منهما كان يحمل مسدساً تحت حزامه، وكان الرجل، حامل الدعاية، يصيح بأعلى صوته: أحلى فيلم، إنها قنبلة الموسم.. رنكو لا يتفاهم.

ضج فرهاد وأمه من الضحك للطريقة التي نطق الأفندي عنوان الفيلم، ثم أنصتا ينتظران الجواب بفارغ الصبر، ولم يصدر أي صوت من داخل غرفة عدنان، وفجأة امتلأ الممر وغرفة الجلوس حيث جلس فرهاد وأمه بصوت المطرب الشعبي الرائع حسن زيره ك من خلال المذياع.

كرّر سؤاله مرة أخرى فلم يحصد غير هدير الغناء الصاخب، استدلت دادة من تصرف عدنان ورفع له صوت الراديو أنه لا يرغب الآن في زيارة السينما التي كان مغرمًا بها دومًا، فصاح بالأفندي منادياً.. عاد الأفندي إلى باب الصالة يعرج ويتسائل في استغراب وملامح وجهة متجهمة:

- رنكو... رنكو... يا للاسم الغريب، لعنة الله عليك يا رنكو...

أجال بصره على وجهي زوجته وابنه يهز وجعل يتسائل قائلاً بسخرية لاذعة:

- فيلم اسمه: رنكو لا يتفاهم! عجيبة يا ربي.

ثم التفت إلى ابنه قائلاً:

- ولماذا لا يتفاهمون؟ ولسوف يضطرون أخيراً أن يتفاهموا، كما هو حال رنكو بغداد الآن، وأحيطكم علماً أن الفيلم يعرض في سينما (العجائب).

ومرة أخرى تبادل فرهاد وأمه نظرات العجب والحيرة، حيث إنهما كانا على يقين أن الأفندي لم تطأ قدماه دار سينما في كل حياته، ليفاجئهم اليوم بخبر عزمه على زيارة السينما لمشاهدة فيلم، وأي فيلم؟ لا ديني ولا اجتماعي ولا سياسي ولا حربي.. بابا عازم على مشاهدة فيلم كاوبوي! لا يعقل.

- لن يخرج من جحره سوى الكاوبوي؟

قال دون أن ينظر إلى أحد وكأنه يحدث نفسه، ثم نظر إلى فرهاد وقال له بلهجة أمرة مقطبًا:

- اذهب إليه وأفصح له عن رغبتك أنت بالمجيء أيضًا، وقل له إنه بجانب زيارة السينما سوف نقوم بزيارة لمحطة القطار أيضًا، لأريكم كيف يعمل القطار بالفحم الحجري.

قام فرهاد واتجه صوب الممر الذي انبعث منه موسيقى هادئة هذه المرة، ومن ورائه جاءه صوت أبيه:

- وقل له سنقوم بزيارة القلعة التاريخية أيضًا.

واسترسل وهو ينقل ببصره إلى زوجته التي دب في عينيها النعاس ومضى يُلقِي عليها درسًا أشبه بدرس ماموستا فاصوليا:

- جميلة هل تعلمين أن القلعة هي أقدم قلعة في العالم ما زالت قائمة شاخصة ومعمورة، فالمصادر التاريخية تذكر أن قلعة أربيل هي إحدى أقدم المدن المسكونة في العالم، إذ استمر العيش فيها منذ تشييدها قبل آلاف السنين وحتى الآن، ومرّت بمراحل تاريخية عدة منها السومرية والآكدية والبابلية والآشورية والميدية والفارسية والرومانية والساسانية والإسلامية.

- ماذا... ما... ماذا تقول؟ على مهلك أفندي!! أنا لا أفهمك.

ارتفع صوتها الأبح بالاحتجاج من ركن الغرفة الواقعة في منطقة الظل، وجاءها جوابها من راديو عدنان من البعيد بصوت قارئ الشعر الذائع الصيت المعروف شكر الله بابان:

- به هار بوو فصلي زستانم اكر يارم له كه ل بايه

درويه كه ر كوتويانه به خونجيكي به هار نايه

لو كان الحبيب في رفقتي لكان الوقت ربيعاً رغم أنه شتاء
كذب من قال لا يطل الربيع بمطلع زهرة حمراء
أومأت دادة بذقنها إلى جهة الصوت وقالت وهي تنتهد:
- ما أشدّ عناد وعنت هذا الولد هذه الأيام! إنه يفعل تماماً نقيض ما نطلب منه.

استيقظ فرهاد على صوت والده في ١١ آذار من عام ١٩٧٠، يوم صدور القرار التاريخي الذي اعتبره بابا مشؤوماً؛ بل مؤامرة كبرى، فرك عينيه بكلتا يديه بتثاقل ونظر إلى ما حوله وتذكر شيئان للفور: أنه شرب نصف ربع عرق الليلة البارحة عندما بدأت الإطلاقات النارية احتفالاً بالمناسبة، وأنه قد رأى في منامه حلمًا لذيذاً لم ير مثله منذ سنين؛ منذ اليوم الذي ناداه فيه والده وهو يعظه وينصحه بالحفاظ على منيه، نعم منيه! منيه وخصيتيه.. ولم يذكرهما بابا بالاسم بل اكتفى بالقول البيضتين بين فخذيك.

عانق فتاة جميلة فاهتاجت لها نفسه وشعر بحرارة غريبة تدب في أطرافه وأحشائه، انتابه إحساس لم يخبره من قبل وكاد هيجانه ينفجر على شكل بركان، لولا أن تراءت أمامه صورة في اللحظة الحاسمة؛ صورة والده الذي وقف أمامه بارز الصدر مفتوح الساقين فيما وضع سبابته بصورة عمودية على شفثيه لافظاً هششش! خطر بل خطر مميت... ابتعد إنه أمر مشين وقد يكون فيه حتفك!

فتح عينيه تملؤه الحسرة وخيبة الأمل؛ فإذا بالشمس قد ارتفعت متزامنة مع صوت والده، نظر إلى الساعة المثبتة على الحائط أمامه فإذا عقرب الساعة الصغيرة يقف على رقم ١١.. ومرة أخرى انساب صوت بابا الجمهوري الهادر من خلال فرجة مفتوحة من النافذة إلى فوق:

- اعلمي جميلة اليوم هو الحادي عشر من آذار عام ١٩٧٠، واعلمي كذلك أن هذا التاريخ سوف يتذكره الكرد جيلاً بعد جيل، حيث في مثل هذا اليوم قد عُزَّ بهم مرة أخرى من قبل الحكومة، ودائماً بدعم من القوى الكبرى التي كانت ولا تزال تتخذ الكرد أداة للضغط على الحكومات التي لا تنصاع لأوامرها وتشكل عقبة في وجه تحقيق مآربها وأهدافها.

تبع ذلك لحظة سكون ثم ارتفع إليه صوته مرة أخرى وهو ما يزال في فراشه مهموماً محسوراً:

- حسناً، أنا لا أنكر، العقل السليم لا ينكر الحقيقة المهمة؛ وهي أن وقف إراقة الدماء عمل إنساني وعمل إنساني رائع، ولكن هدنة لمدة ٤ سنوات ولماذا ليست أربعة

أشهر؟! أنا أرى في هذه فرصة ذهبية للحكومة المركزية كي تتمكن من رفع رأسها كالحية واستعادة مرونتها وطاقاتها للعض، بعد أن انهالت الضربات عليها من قبل قوات البشمركة (المقاتلين الفدائيين الكرد) وبعد أن خوت خزيرتها تمامًا.. مفلس قللوش... فكيف يتوقع المرء الخير والصدقة من مفلس أو غريق؟ أنتعجب، غباء؛ إنه غباء محض من جانب قائدة الثورة الكردية وقصر نظر عقيم، خطأ تاريخي لا يغتفر.

فرك عينيه وقام وأغلق الباب ثم عاد إلى فراشه واستسلم لمخيلته وغرق في لجة أفكاره، وفي خضم أفكاره المتلاطمة ارتسمت أمام عينيه عصا مام بطرس! وعقب تلك صورة الفتاة التي أهداها إياها، كاترين كان اسمها.. حلم راح ولن يعود، جسمها الفارع القوي، كم تحسّس موضع قبلتها، وكم راوده خيالها وهي ترسل يديها حول عنقه، وكيف أخذ يحدث في وجهها ببلاهة، وقد اتسعت عيناها! أحسّ أنها لسعته، تداعت إلى مخيلته ذكريات الطفولة واستطرد يلاحق أفكاره المشتتة.

أحس بتعب شديد؛ فقد سهر الليلة الماضية طويلاً، فقد حاول جاهداً أن يضع خطوطاً جديدة تكون نقاط ارتكاز لمسيرة أيامه المقبلة، خاصة ما يخص أخيه ودراسته الجامعية.. وبفتور بالغ أدار رأسه من الوسادة ليواجه ومن مكانه رؤوس أشجار البرتقال والكباد والنومي، الحديقة التي ترحمها الأشجار تعترش في جنباتها الحناء والياسمين وقد ضجت بالحياة والغناء، وقد تفتقت أزهارها البيضاء والصفراء والتي أسمتها دادة بـ (القдах)، والتي كانت تقضى أوقاتها طويلاً تحتها تشم من أريجها البهيج وتستنشق من عطرها الفواح، والكرم (العنبه) وقد عاد إليه اخضراره بعد طول اصفرار؛ فتفتحت أوراقها وانبسبت وانفتحت براعمها وقويت عقد أغصانها وامتدت فروعها وزحفت ذؤاباتها فوق العريشة الخشبية والسياج صعوداً بحذر كالطفل الذي يخطو خطوة الحبو الأولى.

من هناك تراءت له قمة جبل سفين الزرقاء البعيدة، التي بدت ذلك اليوم أكثر صفاء من اليوم الذي قبله، ووصلت أسماعه دون أن يرى صوت أبواق السيارات ومحركاتها على الشارع حاملة المسافرين من وإلى المدينة.. الجو شبه مغيم والشمس ساطعة دافئة، والنسيم عليل يهفو من شق الشباك ويحرك شعر رأسه الذي أخذ لوناً بنياً غامقاً قريباً من السواد وما هو بسواد.

لم يندهش لانعدام غوغاء الطلاب ولا لغط الرجال والنساء في تنقلاتهم الروتينية اليومية، فالمدارس والدوائر قد أغلقت أبوابها بالمناسبة، السبب الذي أدى إلى طغيان صراخ وصياح الباعة المتجولين، بخاصة باعة الخضر وماست مه ر لبن اربيل المعروف.

نهض فرهاد بعد أن أدركه الملل وراح يقف أمام النافذة يتطلع على وجوه المارة، فتبين أن الناس كانوا حقًا في عيد وهرج ومرج وفرح، ملابسهم الجديدة والوجوه الطلقة المبتسمة والمصافحات الودية والعناق الأخوي كل ذلك وأكثر عكس جو من الاحتفال والفرحة والسرور.

مام سيد نفط فروش، بائع النفط، مر كذلك في معطفه الأخضر القصير البالي، فوق ردائه الطويل المشابه للجلباب وما هو بالجلباب، والأخرى تسميته رداء السيد.. كان يلف على رأسه عمامته السوداء وكانت أشبه بالكوفية وما هي بالكوفية، وإنما هي غطاء رأس السيد ليس إلا، وعلى عينيه تركب نظاراته الخضراء الباهتة حيث ظهرت من تحت عدساتها عيناه البارزتان البراقتان القلقتان المضطربتان، معطفه القصير المقلم ذو الخطوط السود والبيض بالتناوب؛ استحال لونه بفعل النفط إلى لون رمادي أو ترابي، وكانت قطعة حذاؤه تدوي في الأرجاء وهي تصطك بإسفلت الشارع باعثة صوتًا أشبه بقرقرة وقع بوسطال الجنود الصلب.

وتذكر لتوه أنه يلزم أن يكون هذا هو نفس الرجل الذي قالت عنه دادة إنه صديق عدنان الذي كان ولا يزال يزوره في كلاوه، خربة، ويرتاده بانتظام منذ تركه للمدرسة قبل سنتين، الشخص الوحيد الذي وضع ثقته فيه بعد الضربة النكسة، كان يثق به ويؤمن بقدرته على الدعاء الصالح المستجاب، فلم يخرج من عزلته إلا لزيارة هذا السيد.

عاد صوت أبيه بعد سكون طويل، هذه المرة عاليًا طاعيًا يبلغ الشارع باعتقاد فرهاد الذي لم يملك إلا أن دقَّ على زجاجة النافذة منبهًا دادة، لم تمض ثانية إلا وخف الصوت، تابع السيد سيره يتبعه فرهاد بعينيه مندهشًا مأخوذًا بخفة حركاته ونشاطه والتفاتاته المتكررة يمنة ويسرة، فملاسه وهيئته وملامح وجهه كانت هيئة ووجه رجل كهل معتل، رأى بعض العجائز في الملابس الكردية يستوقفنه فانهمك معهم في حديث قصير ثم مضى في سبيله، راقبه إلى أن اختفى عن مرمى بصره.

حينها هزّ فرهاد رأسه مغمغماً: نوشتي مقابل مال، الدعاء ورضا الله صاروا بضاعة تباع وتشترى، والبائع السيد نفسه كان في نظره تركيبة غريبة؛ بائع نبط هو نفسه بائع رضا الله وحمائته من شر الأشرار وكيد الكائدين.

قطع أفكاره مرور باص أمامه مزدان بالصور، بخاصة صورة الزعيم الكردي مه لا مصطفى البرزاني في زيّه الكردي التقليدي المتميّز؛ كلاو وه جه مه داني، طاقية تلتف حولها كوفية وردية اللون المزينة بخطوط متشابكة بيض، ورائك وجوغه ل، سترة خاصة وسروال خاص، في وسطه بشدين وهو حزام من القماش الناعم عريض يشد حول الخصر والورك، ويمتد ليغطي نصف البطن، وهذا ما ينفع في وقاية الأحشاء من البرد القارص والصقيع إبان الشتاء في المناطق الجبلية، ومن تحت البشدين برزت يد الخنجر المعقوف، السلاح والزينة.

رؤوس أطلت من نوافذ الحافلة وأطلقت زغاريد حادة طويلة، وتجاوب المتفرجون مع الصورة والمزغردات المطلات برؤوسهن من النوافذ بالتصفيق والهتاف، لاحظ فرهاد من مكانه أن ابتسامة الزعيم الكردي الخالد قد كشفت عن أسنان أمامية ناصعة صغيرة صلبة كصلابة جبال كردستان، أمّا أنفه المعقوف الطويل فهو العلامة المميزة للعرق الكردي الأصيل، أنف البزاة والصقور الأشم.

تتابعت الصور وتلاشت أمام عينيه إلى أن دب فيهم التعب ولم يعد يرى بوضوح، فاستدار وسار نحو الباب، مرق منه ووقف أمام كيسين من القتب مملوءين إلى النصف بالنبق، وضعاً متلاصقين بين الفسحة الفاصلة بين غرفته والغرفة المقابلة الشاغرة التي كانت يوماً تعود لأخيه، فكلما مر بهما تحركت في نفسه ذكريات الطفولة واللعب والنبق وتلك الفتاة الجريئة التي طبعت يوماً ما قبلة طويلة على فمه لترتعش لها أوصاله دون أن يدرك ماذا حل به، وما كان أصل ومصدر الرجة العصبية التي اعترته في تلك اللحظات الحاملة.

ألقي على الكيسين نظرة رثاء واعتزاز في نفس الوقت، ثم انحنى وأمسك بالرأس المغلق لأحدهما وأخذ يحرك الكيس يمنة ويسرة متمتعاً بصوت الخرخشة الخفيفة المنبعثة عن النواة الجافة بداخله، فقد أزال السبع سنوات التي خلت اللحم؛ وأبقت على العظام النخرة من جسد النبقات، كما يفعل تراب القبر بالجسد.

هبط من السلم مسرعاً، "دروسي أولاً وقبل كل شيء"، تتم مع نفسه بشيء من النرفزة، بعدها اتجه إلى اليمين حيث المطبخ وأعد لنفسه طعام الإفطار بينما صوت الراديو يبعث أنغاماً حزينة شجية إلى مسامعه تكاد تفقده شهية الطعام، وعندما أنهى تناول وجبة خفيفة مضى إلى غرفة أخيه، أدخل رأسه من فرجة الباب وحياء تحية الصباح لتقابلته هبة من الدخان الكثيف، فأخذ يطرد السحابة براحة يده من على وجهه وقد انكمشت ملامحه، ومما أثار الشجن في نفسه أنه كان مستلقياً على ظهره ببذلته الكاوبوى وقبعته التي أخفت جبينه وامتدت حتى الحاجبين، فرفع هذا رأسه قليلاً ورد عليه بكلمة واحدة: أهلاً.. ثم عاد إلى وضعه السابق ثالوثه المقدس سكون، استماع إلى موسيقى حزينة، دخان كثيف.

مضى في طريقه وقد انقبضت أساريره، ولكنه سرعان ما بدد سحابة الحزن من على وجهه وهو يكلم نفسه بصوت مسموع: "الجامعة.. العام المقبل سأدخل الجامعة، المستقبل أمامي ولتذهب التعاسة والألم إلى الجحيم، فافرح يا أخي، افرح معي".

مضى إلى الطارمة، الفناء المطل على الحديقة الأمامية، وسلم على والديه اللذين كانا يجلسان على كراسي من المعدن والبلاستيك مقابل الورود والرياحين، فردا التحية بأحسن منها، لاحظ بطرف عينه اليسرى أباه ينظف حنجرته استعداداً لإلقاء خطاب ودرس جديد اضطراري على دادة.. ولدى الباب بلغ مسمعه صوت أبيه الأجنش يقول لأمه:

- والله مشكلة.. سيضيع مستقبله هذا الولد النكد لو سار هكذا وعاند... إنه لا يفعل شيء سوى الوقوف قبالة المرأة لينظر في وجهه الأجعد المتغضن.. أنا أخاف عليه من شيء آخر يا جميلة إن ترك الدراسة.. هاجس.. يا رب أعني.. فماذا نفعل.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

كم كانت سعادة الأبوين عظيمة عندما دخل فرهاد الجامعة في مطلع العام الدراسي ١٩٧٠ - ١٩٧١، فصاح والده بدادة مستبشراً:

- ها قد جاء اليسر بعد العسر؛ الحمد لله.

ورفع الأبوين المصحف الشريف إلى السماء، وأسرعت دادة لترمي بيضة الحقل تجاه بيت المرأة الحسودة ذات العيون الشريرة.. وحكى فرهاد حكاياته حول ما رأى من عجائب وما سمع من غرائب في العاصمة، حيث الجامعات كانت جميعاً قائمة هناك؛ الباصات ذوات الطابقيين والفتيات المرتديات لبنطلون جينز ضيق وقمصان شفافة أثارت اهتمام دادة جداً.. والسماك المسكوف (المشوي) والشط، والبلم، (القوارب الصغيرة)، التي تنقل الناس من شاطئ إلى شاطئ عبر نهر دجلة دون انقطاع، والتمر بأنواعه منثورة ومبعثرة ومكومة أرتالاً كالجبال على العربات في باب المعظم، والرطب (التمر في باكورته) الصلب اللذيذ المنعش المغذي، يباع في صحن مرصوفة فوق العربات الخشبية والذي يقدم مع لبن يسمونه روبه، وما أشباه وما أطيبه، وما أزكى اللون الأصفر الذهبي للرطب يا دادة!

والحديث عن الكص البغدادي (الشاورمة) لا ينفك ينساب على لسانه انسياً، قال لأمه يوماً ساخراً إنه من لحم البعير، وسمعه بابا في سيره الأزلي نحو الحمام للوضوء فنبهه قائلاً مفاخرًا خاشعاً:

- لا تستهزئ يا ولد، واعلم أن لحم الجمال والبعران لهو من أنفس أنواع اللحوم قاطبة على حد قول رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

كانت دادة تنصت له وابتسامة رقيقة حنونة ترسم على شفثيها الرقيقتين، ولحظ فرهاد أن أمه قد صبغت الخيوط البيضاء التي دبّت في شعرها من أثر النكسة، فسر لذلك كثيراً، وأخذ يربت بأصابعه عليه مبدئاً إعجابه بنعومته وجماله وبريقه ولونه البني الفاقع، لون الحنة.

وفي الليل جلسا معاً يقص عليها قصصه المثيرة والعجيبة اللا متناهية في العاصمة، بينما كان أبوه يجلس في خلوته في انتظار دقائق بك بن ثم نشرة الأخبار المفصلة من هيئة الإذاعة البريطانية الـ "بي بي سي".

روى لها وهي تنصت مذهولة أن هناك معلمة محاضرة معجبة به جداً جداً، وهي تدرسه مادة (الرواية) واسمها ست ابتسام، حتى أنها دعتة يوماً إلى غرفتها وقالت له أنه جميل ووسيم، وأنه يملك بشرة رقيقة وعيون خضر واسعة كعيون الأجانب، تقصد الأوربيين، وقامة فارعة كقاماتهم، فأكدت له دادة قائلة مفاخرة وهي تربت بكفها على كتفها:

- لقد أصابت الست.. وهل هناك أجمل منك يا ولدي.

ثم رفعت رأسها تنظر إلى البعيد شابكة يديها في جحرها متممة وفي نبرة صوتها رجاء:

- تمنيت لو عشت طويلاً كي أراك عريساً وأنعم بك زوجاً، وتقر عيني بك وبأطفالك.. أحفادي... يا ولدي.

مال إليها فرهاد وأخذ بيدها يضعها فوق خده، وقال لها بنبرة لا تخلو من عدم الاحتجاج:

- أنت شابة أُمي.. وأنت أصغر من أن تكوني جدة.. أنا لا أقبل.. أظلمك لو تزوجت إذن.

أطلق العبارة الأخيرة مرافقة مع ضحكة طويلة اطمأنت دادة لها وانشرح صدرها، وشاعت البهجة والفخر في الوجه المستطيل الشاحب.. واسترسل ابنها:

- كلانا أصغر أن نكون أباً أو جدة.

ضمها إليه يحيط خصرها بذراعيه الطويلتين، ثم استقام من مجلسه مائلاً إلى أمه هامساً:

- والطالبات دادة.. إنهن يلاحقنني وأنا لا أستجيب لهن ولا التقت إليهن، حتى قال لي بعضهن: إنك لمغرور بجمالك وذكائك..

قاطعت أمه وحركت يدها بما يدل على احتجاجها قائلة:

- بل قل لهن إنك منهنك بدروسك وليس ثمة وقت تنفقه على الحب وشؤونه، وكل شيء بأوانه.

وفي الإجازة التالية جلب فرهاد معه الصور الجماعية مع زملائه تتوسطهم الست ابتسام بابتسامتها العريضة وثغرها الأحمر وفستانها الطويل، أبدت دادة وهي تحمق في وجه المدرسة إعجابها وقالت وهي تربت على كتف فرهاد:

- والله إنها لجميلة، وهي عربية كما أفهم من كلامك فأين لها هذا البياض، والأهم من ذلك هي فتاة محتشمة لا سيقان عارية ولا صدر ناتئ كالرمانة.

ضحك فرهاد لكلمة "الرمانة" ولحركة يدها المعبرة عن الفاكهة، فقد كورت أصابع يدها لتتخذ شكلاً كالرمانة.. وبغته ارتسمت على ملامح وجهها علامات انقباض ظاهر، نظر في عيونها فكانتا رطبتان، تكبت نزعة إلى البكاء، تحاشت الإفصاح عما جاش به صدرها إشفاقاً من تكدير صفوه.

- ماذا بك أمي حبيبتي؟

سألها فرهاد وهو يرمقها بحدة وعتب، ولما آنس منها السكوت، قرب شفتيه من أذنها بحيث لامس شاربه المشدّب بعناية حواشي شالها الأبيض الملفت حول رأسها وأذنيها وهمس فيها:

- كم كنا سنكون سعداء لولا هذه العقبة المستعصية والأزمة المزمنة في جسد هذه الأسرة.

قال كذلك مشيراً إلى ظلام الممر المفضي إلى غرفته، ترك قرار عدنان المفاجئ بعدم رغبته في الدوام وامتناعه عن مواصلة الدراسة أثراً عظيماً على قلوبهم، وعذره وتعليله لقراره هذا كان لها وقعاً أشد على نفوسهم، فقد صرح بكلام لا لبس فيه إنه إنما فعل ذلك لأنه كان سيبدو مضحكاً أمام الطلبة والمدرسين برأسه المشوه وعينه البارزة.. ظلت دادة لا تتحرك كمن أصابه مس، أخذ يدها بين يديه وثبت بصره علي عينيها الغائرتين تهزها برفق قائلاً:

- بالله عليك حبيبتي دادة ما الخطب؟ هل تخفين علي شيئاً؟ أظن كذلك.

التفتت إليه وتفرست في وجهه الطويل الذي استحال احمراره إلى صفرة، والوجوم يخيم على وجهها، ثم اعتذلت وأمسكت بذيل شالها الأبيض تسويه وتعذله وتحكم شده، وصعدت تنهيدة ثم قالت وعينيها مثبتتان على الفراغ:

- ابني أنا قلقة بشأن أخيك... ولكن أرجوك ألا تقلق أنت، لا أريد أن تتلهى عن دروسك مهما كان السبب مهماً...

ولما رأت غشاوة الحزن تغمر وجهه والشحوب يغيم على ملامحه المنشرح، حاولت التنفيس عنه، فقالت بصوت مبجوح وعلى شفيتها ابتسامة كالحة:
- لا شيء يذكر.. مجرد قلق على ما سيتركه تركه للدراسة من أثر على نفسيته، ولكن كل غمرة آيلة إلى زوال لا محالة.

لم تخبره أن عدنان قد وضع البارحة في غيابه وغياب أبيه نصف كيلو ملح في قدر الكفتة؛ اضطرت على أثرها إلى طبخ الأرز بدلاً منها، ولم تقل له إنها ليست المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك، ولم تخبره أن عدنان قد ضايقه صوت الديك فاستشاط غضباً وانطلق يلاحق الديك من نهاية الحديقة إلى نهايتها لخمس دقائق، حتى إذا ما أمسك بها أخيراً جعل يقبض على عنقه بشدة ولولا وصولها في الوقت المناسب لكان قد انتزع رأسه من عنقه، ولم تقل له خبراً مهماً آخر يشيب له الشعر؛ ألا وهو أن اسم أخيه قد تم تسجيله في سجل التجنيد العام في العاصمة وأنهم بانتظار إكماله سنه القانوني كي يقوموا بتسويقه للخدمة الإلزامية في الجيش.

في نهاية العام الدراسي اهتزت العائلة لخبر حمله مختار البلدة إليهم.. الخبر كان مفاده أن عدنان سيساق للخدمة العسكرية بعد أسابيع، فبكت دادة جميلة يشاركها فرهاد بكاء مراً طيلة النهار، ولم تتم الليل إلا قليلاً حتى أصابها الوهن، أما الأب فقد أبدى استحسنانه للأمر، فقد قال الأفندي في جلسته الطارئة مع دادة وفرهاد في تلك الأمسية بالحرف الواحد:

- إن العسكرية خير له، العسكرية تجعله رجلاً وتجعله رجلاً خشناً قوياً معتمداً على نفسه، فلقد أصابه الكسل والورم من كثرة النوم والرقاد وفوق كل ذلك فهو الملام، فدعوه يتقبل نتيجة إهماله وتكاسله بشجاعة.

ألقت عليه دادة نظرة بائسة وتحركت شفاتها للكلام ولكنها لم تنبس.. رأى الأفندي علامات القنوط واليأس في وجوه زوجته وابنه الذي كان طوال الوقت يرمي أمه بنظرات عتب لأنها أخفت عليه بادئ الأمر خبر ورود اسمه في قائمة المرشحين للخدمة تلك السنة، حاول أن يخفف من وطأة نظراتهما الغريبة المعاتبة عليه؛ فقال وقد تورّد وجهه:

- انتظرا لحظة..

ثم مضى إلى غرفته التي بابها يقع تحت السلم وعاد وبيده ورقة كتب عليها بحروف سوداء واضحة كبيرة.

- اسمعا ما يقول التقرير الطبي الذي جاء من مديرية المعارف بحق عدنان..

رفع رأسه ناقلًا بصره بين الوجهين المنقبضين، تتحنج، عدل طاقيته، حرك بعينه دائريًا خلف عدسته السمكية فبدتا كأنهما أربعة أعين تحت عدستين، ثم باعد بين رجليه ودفع ب صدره وبطنه إلى الأمام ثم رفع الورقة أمام عينيه وقال:

- سأقرأ عليكم النقطة الرئيسية التي تمسنا نحن، وأترك ما لا يخصنا من الكتاب.. اسمعا.. إنه يقول وبالحرف الواحد: إنه بعد مضي ما يقارب العامين على إصابته لاحظنا وتأكد لدينا نتيجة الفحص الدقيق والمراقبة الدورية أن الطالب عدنان عمر أفندي قد تحسنت صحته واستعاد القسط الأكبر من عافيته، ولذا نرى أنه بإمكانه استئناف الدراسة وعليه أن يخضع لاختبارات منظمة أثناء سير الدراسة.

ألقي الكتاب الرسمي على منضدة بجواره ثم التفت إليهما قائلاً:

- ها قد تبين لكم أنه هو وحده يتحمل ما آل إليه حاله.. وها هو يجني ما قد جنت يده.

وهذا التصريح بالذنب وإلقاء اللوم على عدنان لم يعجب فرهاد ولم يرض دادة جميلة.. نعم يذكر فرهاد سنة كاملة من الملاحقة والضغط على أخيه من قبل أبيه صباح مساء، ويذكر أنه غالبًا ما كان يستيقظ على صياح أبيه وصراخه وهو يقف خلف باب غرفة ابنه المعوّق يوجه له سيولاً من السباب والشتائم ناعيًا إياه أنه حرمة، امرأة، ويختتم كلامه دائماً بالكلمة الختامية المكررة: عييه، عييه، إنه لعار عليك، ثم يرسله إلى المدرسة تحت التهديد ليذهب صباحًا ليعود بعد بضعة ساعات بدون كتبه وبابا مرتاح البال لا يعرف ما الأمر، ثم يطرق الباب مساء ويفاجأ بابن الجار الذي جاء ليعيد إليه كتبه التي تركها في المدرسة، أمّا عدنان فلم يكن قد حضر حصص الدرس البتة بل استغل فرصة انشغال مراقب الساحة ووثب من على السور العالي للمدرسة بسيقانه الطويلة ليجلس بعدها ساعتين في دار السينما كبديل عن غرفة الصف.

وتثور ثائرة بابا وينفجر غضبًا وينهال عليه تأنيبًا وصراخًا وشتمًا وتنقيصًا حتى تتدخل دادة وتتوسل للكف عنه.

نعم يذكر فرهاد أنه ألقى كل الملامة على نفسه بالذات، وكم كان يتعذب ويتساءل: ولم لا تضع يا أبي قسطاً من الملامة والذنب عليّ أنا، أما لي سهم في شقائه، ألا ترى؟ لولا عدم اكتراثي ولولا كوني كاكه زائفة لما حصل ما حصل، ولما أخفق أخي في الدراسة ويواجه المستقبل المجهول.

بكت دادة كثيراً للخبر ولم تنفعها كلمات ونصائح وكلمات تهدئة من بابا، ولم تقنعها ولم تخفف عن ألمها تعليماته وإيضاحاته أن العسكرية تعني خشونة وانضباط وتعلم الصبر، وأنه سالم غير مسلح، أي لن يحمل سلاحاً ولن يكلفونه بمهام شاقة.

- كل ما هنالك تدريبات عسكرية بسيطة: سير، استدارة، يسار، يمين وآداء التحية للضابط وما شابه فاطمئني من هذه الناحية جميلة، أنا خدمت العلم كذلك مدة شهرين عندما كان عمري ثماني عشرة سنة.

كان يختتم كلامه وهو يبرز صدره إلى الأمام، ثم يبشرها بخبر سعيد:

- وسوف يتعلم القيادة.. وربما تفيده القيادة في إيجاد مهنة بعد اتمامه للخدمة.

كل ذلك لم يجد نفعاً؛ دادة عانت، شهدت، تنهدت آناء النهار وأرقت آناء الليل، وشعرت بوحشة قاتلة وبخاصة في الأيام التي كان فرهاد غائباً، إذ كان فرهاد يعود لزيارة دادة في الثلاثة الأيام الأخيرة من كل شهر، ولم تستعد عافيتها وتوازنها إلا بعد ابتداء العطلة الصيفية، وعودة فرهاد من العاصمة ليقضي عطلة صيفية أمدها شهران ونصف على أقل تقدير.

حال وصوله ألقى سترته النيلية والبنطلون الرصاصي، أي الزي الموحد، الزي الذي أحبه أشد الحب، لأنها كانت مرتبطة بذكريات حلوة، وطواهما بعناية وعلقهما في خزانته بدقة، ريثما تعود السنة الجديدة كي يعود إليهما.

ثم انتزع من العلاقة الحديدية قميصه الأزرق الفاتح والذي كان من نوع رقم سبعة، نسبة إلى البنيفة التي كانت بهذا الشكل، شكل V الحرف الانجليزي وارتداه فوق قميصه الأبيض، وبنطلونه الجينز الأزرق الغامق والذي كان من النوع الذي يطلق عليه جارلستن، موضة الزمان، ثم حذائه عالي الكعب، ونظر إلى نفسه ملياً في المرأة المثبتة على خزانة ملابسه القائمة إزاء الحائط بين الباب وبين الفراش، وجعل يتأمل وجهه بدقة وتأنى وهو يعدل شعرة ناشزة من شاربه النحيل القيطاني ويسوي ما تشعث من شعره الطويل المسترسل.. بعدها خرج باحثاً عن صديق أو

رفيق، والأولوية دائماً كانت لصديقه الأول ابن الجار الطيب أبو عاشور، والذي لسوء حظه بات ملتهداً متشاغلاً عنه كلياً بصديقته بتول.

في ذلك الصيف كان للأثر النفسي البالغ الذي تركته الضربة النكسة وما نتج عنها من إخفاق أخيه في المدرسة دوراً بالغاً في تنمط سلوكه، وتشكيل وسبك انطباعاته وميوله وهواياته والتي لازمته مدى الحياة، فاصطبغت أفعاله وأقواله، وهو الطالب الجامعي الأملعي، بلون آخر أكثر جدية مما اعتاد عليه وعرف عنه من فكاكة وظرف.

وجد نفسه وحيداً بغتة، لا صديق ولا أخ، ما خلا صديقة واحدة وهي أمه، وهذه لا تقي للإلقاء همومه الثقيلة عليها، فانكب على القراءة.. قرأ واعتكف في غرفته، بل غرفتيه فوق، وحشر نفسه بين كتب ومجلدات سميكة، مواد ومواضيع لا تمت باختصاصه في شيء، يدفعه في ذلك حبه في الاستزادة من العلم، حيث عدها أفضل طعام للدماغ والذاكرة وخير بلسم للآلام، وملجأ للهموم وفرار من الملل والضجر، ذهبت أفكاره بعيداً عالياً ليطرق أبواب السماء، ويرفرف فوق بساطين المعرفة بميادينها ومعاريجها، أسرته معاني وأسرار الحياة والموت والأفلاك وما يختفي ورائها من الغموض والألغاز.

ووجده يوماً يجادل ويحاور نفسه ماداً رجليه الطويلتين على سريره الحديدي أمامه: الموت والخوف كلمتان مقبيلتان بالرغم من أنهما مترابطتان ترابطاً جديلاً، الخوف من الموت والموت خوفاً هما إذن طرفان لمعادلة واحدة، جعلت الديانة متينة ومقبولة في نظر العامة، فإيمان وإقرار المرء بوجود الموت والخوف من الموت هما إذن الحافزان القويان اللذان يدفعان بالمرء للالتجاء إلى ربّ السماء عند الشدائد والمحن، فطيلة سني حياته سمع أباه يكرر على مسمعه آلاف من المرات حكمته المفضلة: (رأس الحكمة مخافة الله) حتى أمسى يؤمن أن الخوف من الله هو نفسه الخوف من الموت.

يوماً ما خطر بباله خاطر عجيب أخرجه عن طوره قليلاً، ذهب تفكيره مذهباً خطيراً إذ ادعى يوماً أمام عاشور أنه قد يكون الله هو الموت، والدين هو الخوف من الموت، والله هو صانع الموت.

الحقيقة أن فرهاد وبعد نكسة عدنان صار ينظر إلى الدنيا بمنظار آخر، منظار يمكن تلخيصه بعبارة: (هناك موت) هذا اللغز، تعثرية قشعريرة لذكره، الموت وما هو الموت؟ لم يدرك ما معناه ولا شغل باله به لحظة، ولكنه بعد الضربة صار للمعنى المجرد لكلمة موت دلالة ومضمون: فأخذ يعرف الموت بأنه هو اليد التي ترمي بصخرة ذات نتوءات وتعاريج وحفر تجاه رأس مستطيل ضيق، الحجر يقع على جمجمة، وولد عمره ١٦ سنة يصرخ ويركل بقدميه أأأأأأبييي، بينما يده اليمنى تطبق بقوة على مكان الضربة وتعقبها صرخة مكتومة طويلة أخرى متقطعة، ثم بالمحصلة حفرة بيضاوية الشكل لها ضعف حجم البيضة عرضاً، وعين مشوّهة وحاجب ممزّق وأخاديد متفرقة تمتد إلى الصدغ والخد والجبين، ومن خلال هذه الحقيقة الرهيبة بدأ يفكر بوجود موت، ومن خلال فكرة وجود الموت انقاد إلى فكرة وجود الله.. ترسخت هذه الفكرة في ذهنه حتى ادعى يوماً لصديقه عاشور أن الله هو الموت.

استدارت بعد أن أحست أن يدًا قد وضعت على كتفها من وراء، فإذا هي وجهًا لوجه مع الأفندي الذي تجهم وجهه، وقال لها ببرودة ولكن بنبرة تنم عن حزن عميق:

أصبح فؤاد دادة جميلة فارغًا إن كادت لتبدي به، ومضى عام ونيف فكانت دادة تنتظر قدومهما من الإجازة يد على قلب، وذكريات الأجازات التي سبقت تطوف في مخيلتها، فتسرح عيونها الحزینتین إلى البعيد حيث ولديها.. فتتراءى لها صورة عدنان وهو يقص عليها حكاياته الشیقة في المعسكر.

البیریات الخاکیة التي كان یجلب واحدة منها إضافية في كل إجازة فضلًا عن التي كان یضعها على رأسه بمیلان نحو عينه اليسرى، والصمون (الخبز من الفرن) الأسود الذي كان لصلابته وجفافه یستخدم أحيانًا كسلاح للتقاذف والتراشق بین الجنود المرهقين المتعارکین على كل شيء ولا شيء، واستعمالهم أکوام الصمون التالف أحيانًا كبديل عن الوسادة/ المخذة في أوقات لم یجد المرء ما یضع رأسه فوقه للراحة بعد تدريب شاق لساعات متواصلة تحت حرّ لافع وهجير حارق، وحساء العدس والشاي الذي كانا یطبخان ویهینان في الفجر الباكر والظلام الغامر في مراحل عملاقة، وقوات المغاوير وهم یلاحقون كلبًا، وبعد أن یقع بین أيديهم بعد مشقة ینهشونه بأظافرهم نهشًا وهم یصرخون بأعلى أصواتهم حتى تکاد حناجرهم تتمزق:

- وحوش نحن وحوش.

والضابط یأمر أحد الجنود أن یغرز ثنایاه في الجثة الممزقة مهددًا:

- إن أبیت فعقابك زحف على البطن لمدة نصف ساعة.

وقصة السحالي التي وجدت طریقها إلى الأكل فاعترض بعض الجنود لدى أمر الوحدة، فأصدر هذا بدوره أمرًا یقضي بحرمان كل من یسول له نفسه أن یمتنع أو یتقزز من أكل الطعام فيه السحالي أو الخنافس من حصته من الإعاشة (الغذاء الیومي المخصص له)، وأحلى خبر لدى دادة كان الیوم الذي عاد عدنان من إجازته وهو یهتف إليها فرحان جذل من الباب: "مكافأة"، والمكافأة كانت منحه إجازة أسبوع لأنه قدم لضابط التوجيهات في المعسكر فكرته المجدية في إخراج العقارب من جحورها بأسهل طريقة، في وقت تزايدت فيه حالات الإصابة بلدغات العقارب السوداء في العراق بمعدل إصابة واحدة على الأقل في الیوم الواحد.

أما فرهاد فكانت حكاياته أكثر رومانتيكية ومثيرة من أخيه، إذ كانت الست (الآنسة أو السيدة) ابتسام في السنتين الأخيرتين مادتها، والشخصية الرئيسية في قصصه التي سردها على أمه.

فصوته الهادئ الحنون لا يزال يرن في أذنيها وهو يطوق عنقها بذراعه المكسو بغابة من الشعر الأسود وهو يسرد عليها قصته مع هذه الأستاذة المساعدة في الجامعة:

- دادة هي تدرسنا مادة رواية الشارة القرمزية، أنت لا تفهمين ماذا تعني العبارة، بل أستحي وأنت أُمي أن أفسرها لك، المختصر المفيد إذن هو: ست ابتسام تختار فقرات ومقاطع من الرواية لتقرأها علينا في الصف، ولكن كلما بلغت فقرة فيها وصف لضم وعناق البطل للبطل أو تقبيله لها تتعمد بالقفز والطفرف فوقه لتنتقل وعلى عجل إلى الفقرة التالية وهي تردد العبارة ما لازم ما لازم، أي ليست مُلزمة وغير ذات أهمية، ووجنتيها تحمران كالجزوة في سماورك يا دادة، في يوم ما سألتها يا ستي حرامات (أسفًا) أراك تدرين اللب من الفاكهة اللذيذة وتأخذين بالقشر الذي لا ذوق فيه ولا طعم ولا رواء.

فما هي إلا لحظة حتى انفقت شفتاها عن ضحكة لم نسمعها منها طيلة سنة ونصف وهي المتميزة بين جميع المدرسين بالاستحياء والخجل، وما هي لحظة حتى انفجر التلاميذ تباعًا في ضحكة متواصلة دون أن يعي معظمهم ماذا عنيتُ أنا بهذه المداخلة.

وفي الفسحة نادتنى وقالت لي:

- أعرف أنك حاد الذكاء ونبيه وأنا لست ضد المزاح ولكن جو الصف شيء وخارج الصف شيء آخر، لا تنس أن هناك فتيات محافظات جدًّا داخل صالة المحاضرة، أمّا هنا ونحن الاثنان نقف خارج الغرفة فلك ما تقول ولك مطلق الحرية أن تطرح ما تشاء من الأسئلة.

وفي لحظة الصحو من أحلامها وخيالاتها تعود دادة لتصطدم بالواقع المر، لا عدنان ولا فرهاد ولا زوج يؤنسها في وحشتها، فتلقي نظرة إلى الشارع وكأنها تنتظر معجزة أن تقع فتتشق الأرض ليخرج منها ولدًا في غمضة عين.. ثم أخذت

تتمتم بتضرع: يا رب احفظهما من كيد الكائدين وظلم الظالمين وعين الحساد وألسنة المنافقين.

مضى عام ونصف عندما أخبرها عدنان في إحدى إجازاته أنه سيتم تسريحه قبل موعده بشهرين كونه جندي غير مسلح.. وعدت الأيام والليالي، وكى لا تخطئ العد كانت تقوم برسم علامة ضرب كل صباح على رقم من الأيام المثبتة أرقامها في التقويم المعلق على الحائط في غرفتهما، وعندما قارب الشهران على الانتهاء ذهبت لتقف يوميًا على عتبة الباب في انتظاره، وظهر أخيرًا ولكن بلا بيريه (قبعة الرأس العسكرية) هذه المرة، فكانت هذه أول بشارة لها بالخلاص، انطلقت تنقل الخبر إلى الأفندي هاتفه:

- جاء بلا بيريه.. عاد بلا بيريه...

وعاد قلب دادة جميلة أخيرًا ليمتلئ إلى نصفه بعدما تم تسريح عدنان من الجيش، وبقي النصف الآخر فارغًا إلى أن تخرج الابن الثاني كاكه فرهاد من الجامعة بعده بعامين تقريبًا أي عام ١٩٧٤.

فنقل عدنان أثاثه ومتاعه إلى غرفته في الطابق الثاني كما كانت، وقدم طلب إلى المنشأة العامة للنقل البري للعمل بوظيفة سائق شاحنة، فقد تعلم القيادة بمهارة في الفترة التي قضاها في العسكرية.

وفي حزيران عام ١٩٧٤ تم قطف ثمار الجهود والصبر، وصار يوم حصول فرهاد على ليسانس/ الشهادة الجامعية احتفالاً للأسرة، إذ ارتدت دادة في اليوم التالي أجمل ملابسها الكردية المزركشة، وخرجت من المطبخ بعد أن أعدت بعض الحلويات الخاصة بالمناسبة، وراحت تجلس مستبشرة راضية مطمئنة بين ابنيها في الطارمة (فناء الدار) كأميرة بين أميرين وعيونها ترسوان على الجبل الأزرق الذي بدا أقرب في عينيها السماويتين وأشد زرقة من لون السماء الصافي، وقد توردت وجنتاها.

أما بابا الأفندي فقد ظل مضطجعًا على أريكته في صدر المكان طوال الوقت، مرتديًا منامة جديدة لماعة مقلمة ذات خطوط متوازية بلونين: الأخضر الفاتح والأحمر، لاصقًا الراديو بأذنه، فاغر الفاه صاغر الأذنين، على وجهه انقباض وفي عينيه وميض، يده ممتدة باستقامة إلى الثلاثة، الحركة المعروفة لديهم بأنها الداعية

إلى السكوت المطلق، ذاك كان دأبه متى ما كان هناك خبر مهم على المذيع، وبغثة أبعد الجهاز من أذنه ثم أطبق عليه بكلتا يديه بقوة، ورفع مغناطاً إلى أعلى وطرحه على المنضدة بعصبية وتقزز وهو يصر على أسنانه ويصك فكيه كحجري الرحي، وارتفع هدير صوته:

- إذاعة لندن تقول إن الحكومة العراقية قامت بإلقاء قنابل محرمة على الكرد أمام أنظار العالم الصامت، قنابل الفسفور الحارقة.

ارتعدت دادة للخبر، ومدّ ولداها عنقيهما إلى بابا طلباً للمزيد مما حدث، وفي قلوبهم حسرة أن يحدث لقومهم كل هذا في أسعد يوم لهم.. أما الأفندي فقد نهض قائماً ووقف أمامهم دافعاً صدره إلى الأمام كعادته مباعداً بين ساقيه وأخذ يبين عن وجهة نظره بصوته الجهوري:

- وكما قلت قبل أربعة أعوام، فلقد استعاد الأفعي قوته وحدد أنيابه وصار اليوم يعرض في جسدنا كالمسحور، وهذا هو الخلل الأزلي والأبدي في بنية وتكوين الشعب الكردي البائس، شعب ساذج وزعامة كردية فردية عشائرية ساذجة كشعبه. أراد أن يواصل انتقاداته فإذا بمكبرات الصوت تدوي بالأذان من ثلاث اتجاهات؛ فمضى إلى الحديقة وتوضأ بماء الحنفية المثبتة تحت كول محمدي، وردة محمد، وأدى الصلاة بصحبة عدنان، والمصلّي كان عبارة عن رقعة صغيرة من أرض الحديقة خصصها الأفندي للصلاة بعد أن كساها بطبقة من الحصى والإسمنت، ودخلت دادة تصلي، وتبعها فرهاد على الأثر كي يتجنب نظرات والده التي ألقت شرراً كلما قاموا هم للصلاة وهو قاعد متقاعد، فقد ألح أبوه عليه كثيراً قبل أن يبلغ سن الرشد لكن دون جدوى، إلى أن ملّ ووصل إلى القناعة الكافية أنه قد أفلت من يده وهو صغير فليس بوسعه أن يزعزعه من موقفه الآن وهو رجل بلحية وشوارب، فكفّ عن الإلحاح، ومع ذلك فقد فضّل فرهاد الاختفاء من أمام أعين والده وقت الأذان احتراماً وتجنباً لإثارته.. وبعد الصلاة عادوا إلى مجالسهم.

كعادته فضل الأفندي الاستهلال بموضوع لا تمت بصلة بموضوعه الرئيسي؛ استناداً على مبدأ ابدأ بالهين اليسير ليهون عليك الصعب العسير، فرفع عصاه إلى سقيفة الكرم فوق المدخل حيث عناقيد الحصرم تتدلى منها كحبات القمح الخضراء في باكورة تفتقه، ثم نقل طرف العصا إلى صف طويل من أشجار الحمضيات

المتشابكة أغصانها والمتداخلة أوراقها الداكنة والتي كانت تنوء بثمارها الخضراء الصغيرة البيضاء، كانت تتوسط كل هذه شجرة اليوكالبتوس العالية السامقة ذات الأغصان الطويلة والأوراق المتباعدة على النقيض من أشجار الحمضات، وهناك على غصن عال كان يجثم طائر كوكوختى (الحمام البري أو الفاختة) ذو الريش الرمادي، ثم خفض العصا إلى الركن المصلى البعيد ونزع طاقيته ودس يده في جيب جلبابه وأخرج سبخته الطويلة، وبدأت أصابعه تلعب بالحببات، بقي لحظات بصمت ثم فجأة أجال بصره على الوجوه النازرة وهتف متحمساً مشيراً بطرف العصا إلى الحديقة وركن المصلى:

- هذه هي جنة عدن التي تجري من تحتها الأنهار.. انصتوا للخير الهادئ.

كان الماء يجري حثيثاً بين الأشجار وشجيرات الورود، فقد ترك الأفندي ماسورة / خرطوم الماء مفتوحة تجري جرياً سهلاً بطيئاً فيصدر عن جريانه صوت عذب حلو هادئ.

استقام الأفندي بعد ذلك واعتدل من على كرسيه المصنوع من الألمنيوم وأشرطه متشابكة من البلاستيك متلونة، ثم نظف حنجرته وتمخط في منديله، فقد هفا نسيم دافئ محمل بروائح وأريج الزهور لتدغدغ أنفه الحساس جداً لهذه الروائح، ثم نقل عينيه إلى ابنه ثم رفعهما إلى دادة وهو يشير إليهما قائلاً:

- رجل، معاش، امرأة صالحة.

تنفست دادة الصعداء.. الأمر إذن لم يكن بهذه الخطورة كما ظنت، لقد علمت ما وراء الاجتماع هذا وما مادته وموضوعه، فشاعت البهجة والفخار في الوجه المستطيل الشاحب، وانفرج ركناً فيها عن ابتسامة للكلمات الثلاث، التي سمتها الثالث، فلم تكن الفكرة بخافية أو بجديدة على دادة جميلة، الفكرة هذه كانت تداعب قلبها ورأسها منذ أن بلغ ابنها سن الرشد.. عدل الأفندي من طاقة رأسه وازدرد ريقه الجاف ثم التفت إلى ولديه وقال محرّكاً سبابته الصلبة في وجهي ابنه ما ينم عن توتر شأن من يوعد، لا شأن من يعد:

- بالحرف الواحد أقول لكما قد حان لكما إكمال دينكما.

اهتز الأخوان لعبارة (إكمال دينكما)، وظلت أعينهما تتراوح بين نظرات أبيهما وعيون دادة التي رمشت لهما بعذوبة، فكان للمرمشة تأثير ذر الثلج على اللهب، ثم

ساد صمت طويل مطبق وتصلبت عضلاتهما في انتظار التالي، تتحنح الأفندي ناقلاً طرفه بين هذا وذاك ثم قال وهو يديق بطرف عكازته على أرضية المكان:

- وبمعنى آخر مقتضب ومفيد لقد حان وقت زواجكما، ولات حين زواج.

تبادل الأخوان النظرات بعينين زادت حدقتاهما توسعاً، انتابهما ذهول؛ لا للفكرة بل بسبب مقدم الفكرة.. بابا والزواج؟ الخجل بلغ بهما كلّ مبلغ، فلم يجدا بُدّاً من أن يسلماً أمرهما إلى دادة كعادتهما في مثل هذه المسائل، وقد عرفت دادة بالحدس ما كان الأخوان يريدان بتحول أنظارهما إليها.. الجواب جاء على لسانها إذ ردت على زوجها قائلة:

- وهل هناك مُنية أتمناها أجمل وأعظم من أن أرى ولدي وقد نعمنا ببيت وأهل واستقرار؛ ولكن....

سكنت ثم صعدت تنهيدة، خاطبت الأفندي وهي تبتسم لابنيها:

- أنا فكرت وبحثت لهما عن بنت الحلال في غيابهما، وقد توصلت بعد عام من الاستقصاء والاستطلاع أن المهر غال والذهب لا يشتري، فالناس في رفاهية والكل يتزوج.

ولأول مرة يتدخل فرهاد كأخ أكبر في مثل هذه المسائل التي عدّت من اختصاص الرجال الكبار والآباء، فأدلى بدلوه بالتعقيب والتأكيد على كلام أمه، فقال وصوته لا يخلو من تلثم:

- الزواج صار كأى بضاعة يخضع لقانون العرض والطلب.

قال ذلك ووجهه قد تورّد من الارتباك خشية أنه آذى بمداخلته هذه أبيه.

ولم تصدر عن بابا كلمة استحسان ولا استهجان بل اكتفى بالنظر إلى دادة عساها أن تأتي بكلمة الفصل، فأنت بها حقاً، إذ قالت وهي تنقل النظر بين الرجال الثلاثة:

- رأيي أن نتفق على الادخار وشراء الذهب، لحين تتوفر لدينا القدرة على خوض نزال الزواج والبحث عن بنت الحلال.

- فكرة لا بأس بها حالياً....

رد بابا مقطّباً، وقام بعدها إلى أريكته مادّاً ساقيه النحيلتين المعروقتين العاريتين أمامه.

أما دادة فنهضت وضمت ابنيها بذراعيها إليها وهي تتمتم بصوت مسموع وبريق
العزم والتفاؤل ينور وجهها البريء وعينيها الضيقتين:
- ومع ذلك فسوف لن أكف عن البحث لكما عن بنت الحلال.

في يوم من الأيام وفي الأسبوع الأول من العطلة الصيفية نادى دادة جميلة ابنيها من داخل غرفة الوالدين فأسرعا إليها، كان عدنان عائداً من إجازته الدورية مع الفجر كعادته، كان فرهاد منهمكاً تلك الأيام بتصحيح أوراق الامتحانات لطلبة المرحلة الإعدادية التي قام بتدريسهم للعام السادس على التوالي.

وجدوها منكبة على صندوقها الخشبي الكبير الأخضر؛ والتي كانت قالت عنه إنها حملت فيه جهازها البسيط المتواضع يوم تم عقد قرانها مع الأفندي، ولا تزال تحتفظ بها لأن ذلك في عرفها ومذهبها أبقي لدوام المحبة والتآلف بينهما، فوق أرض الغرفة انبسطت سجادة سميكة فارسية مزركشة، لحظ فرهاد دون أخيه أن الفاصل بين فراش أمه وأبيه تقدر بحوالي ثلاثة أمتار على الأقل، ولكنه سرعان ما تناسى ذلك وراح ينحني كأخيه بجانب أمه ويحديق داخل الصندوق العميق العريق ذي الشكل الغريب المريب، أشارت دادة بعد أن استوت إلى الداخل المظلم للصندوق حيث ترقد عقدتان من القماش مشدودتان بإحكام بجانب صندوقين فضيين صغيرين فقالت وهي تميل إلى هذا تارة وإلى ذاك تارة أخرى تناوبياً:

- هنا ترقد ثمرة أتعابكم.. الذهب جاهز للمهر.

ثم راحت تحلّ العقدة بعد الأخرى وتخرج الحلي قطعة تلو قطعة، وتذكر اسم كل واحدة:

- هذا سوار المعصم، وهذا قرط أذن وهذه قلادة وهذا خاتم...

فقد ألقت وعلى مدار السنين كل مبلغ من المال تلقته منهما في نهاية كل شهر في داخل الصندوقين الصغيرين، وكلما امتلأ صندوق أفرغ ما فيه من نقود وراحت بها إلى سوق المجوهرات والذهب.. وفي نفس الوقت لم تأل دادة جهداً طوال الوقت في البحث عن الفتاة المناسبة لابنها البكر، فوقع بصرها على كثيرات اختارت بينهن أربعة، فبدأت بذكرهن الواحدة تلو الأخرى عليه لتجابه في كل مرة دون أدنى توقع منها بالرفض والصلف من جهة ابنها.

فاضطرت دادة خائبة أن تبدأ حملة جديدة من البحث وتواصل العمل طيلة الصيف، ورغم كل الجهود لم تفلح في إقناع ابنها بالموافقة بالتّي اختارتها له، هذا رغم

قناعتها بأن اللواتي تم اختيارهن من قبلها كن أكثر الفتيات جمالاً وحسباً ونسباً؛ وتواصلت جهودها إلى أن سُمعت دقائق طبول الحرب في بداية شهر آب من عام ١٩٨٠ وحينها صار للزواج شأن آخر مختلف، فالأقبال عليه قل إلى درجة العدم، خوفاً وترقباً.

واشتعلت أوار الحرب وهيأت الملاجئ، وساءت الأحوال، الخوف والحزن صارا سيدا المشاعر والعواطف، وفي الوقت الذي كانت القنابل والصواريخ تقع على المدن والأحياء السكنية كانت النساء والأطفال يهرعون إلى الملاجئ، وكانت دادة تسارع إلى ملجأ جارتها الطيبة ليلي خري، أم عاشور.. لتمكث هناك إلى حين انتهاء الغارة، تتبادلان الأحاديث حول أبنائهما وخاصة حول عاشور الذي دعي إلى خدمة الاحتياط، وبعد انتهاء الغارة كانت تنطلق عائدة إلى حيث الأفندي وخديها يضاهيان الزعفران صفرة، أمّا الأفندي فقد وجد ملجأه تحت السلم/ الدرج وفي رعاية وحماية ربه.

في ظلام الأيام وغياهب الحرب الضروس ومضاعفاتها غير المتوقعة؛ أثر الوالدان التريث في موضوع الزواج لحين وضوح موقف فرهاد من العسكرية التي بدأت تقض مضاجع الآباء والأمهات، أمّا موقف عدنان فكان واضحاً من اليوم الأول، فقد صدر قرار من الحكومة يقضي بأن الخدمة في منشأة النقل البري تعتبر عوضاً وبديلاً عن خدمة الاحتياط.

فانتظرت دادة وكفت عن المحاولة، إلى أن استدعي فرهاد لخدمة الجيش بعد عامين من بدء الحرب أي ١٩٨٢، الأمر الذي كاد أن يقضي على أبويه من الخوف، لولا أن صدر قرار لاحق يقضي بتكليف المدرسين بالتدريب العسكري لمدة شهرين فقط ليعودوا بعدها إلى المدارس، فكان يوماً رائعاً شعرت دادة بفرح غامر وهي ترى ابنها في زمن الحرب بعيدين عن النار، رغم بكائها المتواصل للأخبار التي حملت وصول أول دفعة من شهداء الحرب إلى المدينة، منها شهيد واحد إلى بلدتهم.

وحينها كانت هناك عودة أخرى جديدة إلى موضوع الزواج، وفي هذه المرة كان للأفندي دور رئيسي.. ففي يوم من أيام الجمعة حيث تقل أو تنعدم الغارات الجوية كما كانت الحال عليه في بداية الحرب؛ دعا الأفندي ابنه البكر فرهاد إليه في الصالة (غرفة الجلوس) وكلمه في حضرة دادة كلام رجل لرجل، تفحص شعره

الطويل وملبسه وهندامه الذي رآه غريباً مغالياً فيه في التشبه بالأوربيين ثم قال له محرّكاً سبابته في وجهه بخفة:

- يا بني، اعلم أن الزواج نصف الدين، وأنت قد قاربت الآن عامك الثلاثين من العمر، لو تجاوزت ذلك الحد لصار الناس يتحدثون عنك.

جفل فرهاد للعبارة الأخيرة لأبيه التي رآها غريبة وغير واقعية، فحول نظره نحو دادة التي ردت بدلاً عنه فقالت باقتضاب:

- الزواج ليس بالأمر اليسير فينبغي أن نتروى فيه.

وجد فرهاد في كلمات دادة متنفساً وفرصة سانحة لتقديم مقترحه وآرائه، وبكل احترام كلم والده القابع على أريكته قائلاً:

- بابا استميتك العذر، واسمح لي أن أوضح لحضرتك أن الزواج كما تفضلتم واجب، بل واجب مقدس أيضاً، لكنكم كما رأيتم أن الحرب في بدايتها، وإنني وإن أكن أعفيت من الخدمة فمن ذا الذي سيضمن لي عدم تكليفي بواجب آخر كالجيش الشعبي مثلاً.

بدا أن حججه لم تلقَ ترحيباً من والده الذي رأى ذلك تملصاً ليس إلا، فعاد وكلمه بنبرة شديدة:

- اعلم إنما أنا قد تزوجت وأنا عمري ١٧ سنة، أعني الزواج الأول، ثم إنك إنسان واع وعالم عليك أن تتقي الله.

تشبّث فرهاد بموقفه وقال بأدب جم:

- لا تنس بابا نحن في عام ١٩٨٠!

استشاط أبوه غضباً وانتفض من مكانه يردد في وجه ابنه، فقال له وهو يرمقه بنظرة قاسية:

- لسانك أطول من قذك الفارع وعقلك عقل طفل ساذج.

نفخ طويلاً ثم قال له بنبرة أخف:

- بصفتي والدك أريد أن أطمئن على مستقبلك.

بلل ركناً من فيه ثم عاد مستطرداً:

- الرجل الحقيقي يتزوج حال ما يصبح راشداً ويقبض راتباً يعيش به.

سكت الأفندي ليختار اللفظة المناسبة، فشاور نفسه ثم أردف قائلاً بنبرة هادئة:
- ابني إني أرى أن فيك كل صفات المؤمن الحقيقي الصالح، ولذلك أرى تركك
للصلاة عمل غير لائق بك، ثب إلى ربك فيسهل الله عليك أمورك، صدّقني، واعلم
كذلك فإنك لو أدّرت له ظهره فلن تنل خيرًا ما حييت.

ازدرد فرهاد ريقه وعلت وجهه وجوم وغبرة، وانفرج فمه ليتكلم لكنه لم ينبس لأنه
لم يجد شيئاً أشق على نفسه من النقاش فيه منه في الدين، وبالأخص مع أبيه،
لاحظت دادة تقاوص وجهه فرفعت كفها طالبة الكف عن الخوض في هذا الحديث، ثم
تساءلت بلهجة المتحدية الحذرة:

- وما علاقة هذا بأصل الموضوع؟

فكان رد بابا أسرع مما تتوقع فقال بحدة:

- بالعكس، إنه من صلب الموضوع، فلو كان إيمانه راسخاً لما تلكأ لحظة في إكمال
دينه بالزواج.

في تلك الأثناء ارتفع صوت المكناسة من وراء السياج، كانت ليلى خرى تنظف
الملجأ.. قامت دادة وأغلقت النافذة وعادت وهي تقول:

- لقد اكتظ ملجأهم الليلة الفائتة بأهل الجوار، إذ ليست كل الأسر تملك ملاجئ.

وقبل أن يتسنى للأفندي فتح فمه من جديد قالت مضيفة وهي تشير إلى الحائط
الفاصل بين الجارين:

- سمعت من أم عاشور أن أحد أقربائها أمسكوا بلص يحاول سرقة ماكينة مبردة في
الحديقة، ولكنهم عفا عنه ولم يسلموه للشرطة بعد أن توسل لهم إنه إنما يفعل ذلك
بدافع الفقر، وأن لديه سبعة أطفال.

اختلس فرهاد نظرة متسائلة لأبيه ينتظر تعليقه على الحادث بفضول، فصح توقعه
إذ اعتدل من جلسته ورفع نظاراته درجة إلى أعلى فوق أنفه المعقوف ثم قال بلهجة
أقرب إلى الاستهزاء:

- إنهم مسامحون، نعم.. لكن الأفضل أن تقول إنهم خائفون.

- خائفون؟ ماذا؟

- من أن اللص سيخرج وينتقم منهم.

- احتمال قابل للتصديق.

زفرت دادة بضجر، ثم تثبتت عيناها على ابنها الذي كان ينظر إلى الأرض أمامه شاردًا، ولكنه تنبه إلى العبارة الأخيرة لأبيه فرد عليه بما رآه مناسبًا:

- إنهم ينفرون من الشجار ويكرهون العنف بالفطرة يا أبي.

رمقه أبوه بحدة ومضى في انتقاده:

- والأؤكد أنهم كفار ملحدون.

رغم كونه يخشى فوران والده لم يجد فرهاد بُدًا من قول ما رآه واجبًا فرد بصوت منخفض:

- إنهم بنص القرآن أصحاب رسالة سماوية، ولا تنص أية آية على أنهم كفار.

تشبث أبوه بموقفه وقال وصوته يزداد ارتفاعًا:

- يدعون أن المسيح ابن الله.. أليس هذا كفر؟ ولنا نص صريح في سورة الإخلاص، آية (لم يلد ولم يولد).

طار اللون من وجه الأفندي من الحنق وأراد أن يتكلم، لكنه اكتفى بأن رفق ابنه بنظرة قاسية اهتز لها فرهاد، لكنه سرعان ما عادت إليه شجاعته وتجراً وقال بكل أدب:

- اعتقد أبي العزيز أنه نحن المسلمون نحقد عليهم لمجرد أنه لا وجود لدليل في كتبهم السماوية أن نبيًا يأتي من بعد المسيح اسمه أحمد كما يقول القرآن.

انقبض بابا كمن لدغته عقرب وصاح بوجه ابنه:

- صه.. لا.. لا أريد أن أسمع مثل هذه الترهات بعد اليوم، واخرس لقد تجاوزت حدك.. يا للصفاقة.

خفض فرهاد ببصره أمام العاصفة قبل أن تهب و تأفف أبوه وهو يرميه بنظرة من لهب ويتمتم بعبارات غير مفهومة.. ظل للحظات صامتًا ينظر في شروذ إلى الفراغ، ثم استغفر الله واسترحمه والتفت إلى زوجته قائلاً بمرارة وسخط بالغين:

- ألم أقل إنه اندست أفكار شيطانية في عقله، مسكين مثير للإشفاق.

ثم أخذ يهز رأسه يمينًا وشمالاً لبرهة ليست بالقصيرة، استغفر الله مرة أخرى، بعدها التفت إلى ابنه بمحيا جديد وتقاسيم منفتحة وقال بهدوء متكلف:

- كن رجلاً طيباً وابن ابيك وعد إلى صلاتك، أنت طيب عالم، والله يحبك وأجرك مضاعف، وكن على يقين بأنك ستصل رتبة الكرامة والأولياء عند ربك بسرعة لصفاء سريرتك وعلمك وفقهك.

لم يشأ فرهاد الخوض في جدال عقيم مع والده، وخاصة أنه رآه في تلك اللحظة يضع يده تحت صدره مباشرة تحت عظم القص وقد انقبضت أسارير وجهه انقباضاً ملحوظاً.

مد أباه رجليه أمامه على الكنبه، ولبت لثواني ساكناً لا يُبدي حراكاً عدا عن حركة صدره السريعة ارتفاعاً وانخفاضاً، وتبادلت الأم وابنها النظرات والهمسات، يبدو أنهما تبادلا وجهات نظر متطابقة، إيمائتهما دلت على توافقهما.. التقتا فجأة على حركة الأب الذي اعتدل ليتمدد على جنبه، تتحنح قليلاً ونظف حنجرته، نظر إليهما ثم قال بنبرة مختلفة تماماً عما عهداها منه:

- الحق يقال إنهم قوم مسالمون؛ لا سلاح ولا نقار ولا معارك بين الجار والجار ولا أطفال يحملون المصييدة لكسر نوافذ البيوت، ولا السكاكين تشهر بوجه الخصم أبداً، وهم فوق ذلك يتصفون بالهدوء واللباقة في الكلام وهم بصورة عامة مثقفون، هذا لا يمكن إنكاره.. ولكن ما يجعلني أكرههم أحياناً هو أنهم لا يعيرون أية أهمية للأخلاق ولا للشرف، وهم بالإضافة إلى ذلك يتصفون بالقذارة ولا يغسلون الأيدي بعد الخروج من المرافق..

سكت عن الكلام يبلع ريقه الجاف، انتهزها فرهاد فرصة للتدخل فقال بصوت أشبه بالهمس:

- معذرة أبي لو قلت إنهم.....

كادت تنفلت عبارة من فمه ولكنه أعادها في آخر لحظة، لم يرد المجازفة أكثر.. أما بابا فقد ألهاه انشغاله بتنظيف أنفه عما بدر من ابنه من حركة وألفاظ، أنفه الذي كان يسيل طوال الوقت، وكم كانت دادة تتقزز من منديله الوسخ، وكم مرة شكت لفرهاد: لولاي لأعاد استعمال منديله القذر الممخط المرة تلو المرة دون أن يعير أي اهتمام بما قد يسبب إهماله هذا من أمراض وسوء الصحة وما لذلك من أثر نفسي عليّ وعلى صحتكما أنتما.

رفع الأفندي عمر أفندي رأسه بعد أن وضع منديلَه في جحره وقال يتم كلامه السابق:

- نحن المسلمون لدينا أكبر مطهر وهو: (بسم الله)

تشجع فرهاد باحتفاظ بابا لتوازنه النسبي لحد اللحظة، وعدم انفجاره في بركان غضب فقال معقبًا، عين على أمه وعين على أبيه وشفته تخفيان ورائهما ابتسامة ساخرة:

- أفهم من كلام سيادتكَ أننا نحن المسلمون مستغنون عن استعمال الصابون وكلمة (بسم الله) أفضل ماركة مسجلة؟

نقل عيناه إلى أمه في انتظار هبوب عاصفة، أمّا دادة فقد كانت في وضع لا تحسد عليه، كانت تكبت ضحكة بكل ما أوتيت من قوة كادت أن تختنق من جرائها، وقد لاحظ فرهاد كيف أزرق وجهها الطويل.. ولم تهب عاصفة، فقد كانت دادة أسرع، إذ أرادت أخيرًا أن تدلي بدلوها فقالت وعينها ثابتة على لوحة الطواف التي تلقتها هدية من جارتها أم عاشور:

- لا تسمع ابني إنه كلام من عنده ومن صنعه، فأنا أقرأ (بسم الله) وأغسل يدي بعد كل زيارة للمرافق الصحية والحمام مرتين وبالماء الحار والصابون، وعدنان يفعل كذلك.

تورد وجهها أمام فرهاد للفظتي (المرافق والحمام) فغضت طرفها تنظر في نقوش السجادة الفاخرة، واسترسل الأفندي وكأنه نسي الموضوع الذي دعا إلى هذا الاجتماع، فذكر بدلاً منه قصة (اللس وأم عاشور) فقال وهو يمصمص بشفتيه:

- نعم إنهم مسامحون صحيح ومسالمون؛ ولكن هناك عقدة نفسية يعانون منها وهي...

قطع حديثه يبحث عن الكلمة المناسبة مقتطبا.. وجدها وعاد:

- إنهم مصابون بما يمكن تسميته عقدة اللص.

أهابت به دادة جميلة أن يخفض صوته هامسة:

- هش.. إن الجارة تسمع.

ورمقه فرهاد بنظرة استطلاع وترقب.

- إنهم مصابون بعقدة اللص منذ زمن السيد المسيح عليه السلام، لقد سمعت من خالي مه لا قادر وأنا لم أزل شاباً فقيهاً أن النبي عيسى صُلب مع لصين متزامناً وفي نفس الموضع، فقد عامله الرومان معاملة اللصوص، فجاءتني فكرة منذ تلك الأيام وهي أن المسيحيين يحبون اللصوص لهذا السبب.

صمت الأفندي يستجمع قواه ثم عاد إلى موضوعه الأصيل وقال مخاطباً فرهاد:

- كما قلت لك مراراً واليوم كذلك أن أفكاراً غريبة اندست إلى رأسك يا ولد.

- ماذا تعني أبي؟ أنا لا أفهم تماماً ماذا تقصد.

تساءل فرهاد بمنتهى الأدب، وجاء رد الأفندي سريعاً فقال موضحاً:

- أعني أحب أن أعرف ما أنت بصدد فعله الآن؟ أنا لا أزال لا أفهمك جيداً، أنت ابني ولا أعرفك من أنت، أنت في نظري مجهول، لك عالمك الغامض.

فرقع فرهاد بأصابعه ومد يده ليحك رأسه كما يفعل المحتر، ألقى نظرة إلى البعيد من خلال النافذة فلاح له من بعيد شخصان واقفان خلف مدفعية مضادة للطائرات على بناية عالية، وأحدهما يدير فوهة المدفع في كافة الاتجاهات لاختبار صلاحيته، ثم أعاد بصره إلى الداخل لتستقر على الصورة الأسود والأبيض المثبتة على الحائط هو وكاترين جنباً لجنب يستلمان الكأس من سعادة مدير الناحية، ارتعش قلبه وتمنى لو عاد صغيراً وعاد إلى حيث الصخرة والتوت وحيث الوداعة والبساطة واللعب واللهو بعيداً عن صخب المدينة.

رائحة النبق العذبة الدافئة داعبت أنفه في تلك اللحظة بعد غيبة عقدين، وهو يجلس الآن بمواجهة والده الأفندي الذي يجتهد وكعادته في إبداء وتنفيذ فلسفته في الدنيا والدين، كما أعلنها في ذلك الزمن الغابر وقام بفضحه أمام معلميه وأمر بتفتيش حقيبته وكأنه لص محترف.. ومن أجل ماذا؟ من أجل أن يقال إنه نزيه، مخلص، وفي النهاية انتصر اللص الأكبر عليه ونقله، فمن هو المنتصر ومن هو المهزوم؟ وهو يشعر الآن وكأن أباه قد أخذ جزاءه ثمناً لإيذائه إياه وهو لما يزل طفلاً غراً غريباً، إن والده يحكم الآن عليه بالزواج، في الحرب، النار تحرق الأبيض والأسود والأخضر واليابس؛ ليرضي ربه.. ولماذا لا يرضي ابنه، ولماذا لا يرضي أمه؟ أيقظه صوت أبيه الأجنس من أفكاره إذ ألح عليه بالقول:

- قل لي ماذا تبغي يا شاب، يا مثقف يا واعي، يا عالم؟ فهل أزمعت أن تظل عانسًا بعد أن قررت أن تظل تاركًا للصلاة؟

ارتعد الابن للهجوم المباشر من الأب، فلم يملك إلا أن ضرب طرف حذائه برجل الطبلية بعصبية وهو يمد يداً في عمق الجيب الجانبي لسترته النيلية اللماعة دون سبب أو داع، بينما اليد الأخرى تعبت بشاربه المشدّب ويجر شعيرات منه بلا وعي، التفت إلى أبيه وقال له ما رآه معقولا:

- بابا، أقول لك وبصراحة وهذا آخر ما تسمعه مني، وأرجو المعذرة إن قلت إنك أنت تعلم شيء وأنا أعلم شيء آخر.

وحانت منه نظرة إلى والدته فلمح من أسارير وجهها المنشرح إمارت مناصرتها له ومظاهرتها إياه في الجدل الحالي على الأقل، فزاده ذاك إقداماً وجرأة في التشبث بموقفه إزاء ضغط أبيه، فقال له دون أن يرفع نظره إليه وهو يجتهد في اختيار أرق الألفاظ على قلبه:

- أنا أعرف حق اليقين أن الدولة تشجع الشباب على الزواج، وأنا مبدئي أن أفعل نقيض ما تأمر الحكومة الفاشية به، وبالإضافة إلى ذلك فإن شبح الجيش الشعبي لا يزال محلّقا كما نوهت، ثم..

سكت ولم يزد خوفاً من أن اللفظة التي حبسها وراء شفثيه سيغيظ أباه الذي بدأت يدها تدلكان بطنه فوق السرة.. إنه يتوجع، أبوه لاحظ التردد من ملامح ابنه فأشار إليه أن يكمل فواصل قائلاً:

- ثم أنا رجل أليس كذلك؟ ففي اعتقادي أن الزواج جريمة في زمن الحرب، ومن ثم أليس لي اختيار شريكة حياتي بنفسي؟

اهتز الوالد للثورة الملتهبة بلا سابق إنذار في داخل الابن البكر، فثار رغماً عنه:

- تود أن تختار بنفسك؟ حسناً، ولكن هذا مخالف للعرف المتبع.

ثم وهو ينظر إلى البعيد من خلال النافذة بتيه وشروذ وملامح وجهه تدل على التحسر والتوجع والقنوط:

- أحياناً تراودني فكرة وكأنك قد تزوجت من قلمك وكتبك، ومن ملعقتك، تلتهم الكتب كما تلتهم كفتة أمك التهاماً ولك..

قطع كلامه مفكرًا مترددًا فيما هو بصدد قوله، وأطرق يفكر هنيهة ثم قال بعد أن اتخذ القرار وفي عينيه بريق مزيج من تهكم وسخرية ورعب:

- ولا تنس أن السنة الناس لا ترحم، وهناك همسات في الجو المحيط بنا تقول إن ابنه يرتاد على النادي بانتظام، وأنه عرق خور، سكير، على حين يضرب بأبيك المثل في الأوساط في الورع والتقوى.

سكت لحظة مطرّفًا ثم اختتم بامتعاض:

- ثم أخيرًا ينبغي أن تعلم أن الرجل المؤمن لا يعزف عن الزواج إلا عند الاضطرار.

وكان جواب فرهاد فوراً وذكياً:

- وكما تفضلت ها أنا ذا أعزف عنه أنياً لا نهائياً بل اضطرارياً إذن فأرجو أن تقدر الظروف يا أبي العزيز.

* * *

بعد المناقشة التي عدها الأفندي خاسرة وفاشلة توجهت الأنظار إلى الأخ الأصغر؛ فهذا رأى كمال دينه غاية ما بعدها غاية، ولم يخف موقفه الإيجابي من الزواج كما رأى أبوه، ولكنه لم يكن على علم على الإطلاق ما كان يجري في الخفاء، ففي نفس الليلة انبأت دادة بابا وهي في فراشها أنها قد قامت بمحاولات له سرّاً في وقت متزامن مع بحثها وتنقيبها لفرهاد ففشلت كل محاولاتها، حتى اضطرت إلى الاستعانة بأختها باجي عطية، الأمر الذي يقطع كبدها ويؤلم قلبها، والأنكى أنهم كلهم يأتون بنفس العلل والمبررات فيقولون بالحرف الواحد: إنكم عائلة مرموقة معروفة ونحن نفتخر بالقربة، ولكن ابنكم هذا مصاب بإعاقة، لو كان الطالب ليد ابنتنا أخوه لما ترددنا لحظة.

وأشد من كل ذلك مرارة وثقلًا على قلب دادة أن عدنان دأب في الآونة الأخيرة لدى عودته في كل خميس وجمعة أن يرنو إليها محملاً مخفياً تحت ابتسامته علامة استفهام كبيرة فهمت ما وراءها القصد، صوته يهمس في أذنها: متى أتمم ديني وأين فتاتي؟ فتتشابك يداها في جحرها وتحملق في عينيه التواقيتين المتعبتين من عناء السفر ولم تملك إلا أن تطمئنه بالعبارة ذاتها في كل مرة: إنها قسمة ونصيب، علينا إيثار المهل على العجل يا بني، الله كريم.

أما في قرارة نفسها فهي تلعن الأفواه التي تلوك بتشويه سمعة الناس وتلعن فتنة الأشرار.

نظرة عمر أفندي إلى الأقارب لخصها في هذه الجملة القصيرة: "الأقارب كالعقارب لا تقارب"، ولو سأله أحد ما عن السبب كان تعليله هكذا: إنهم يحسدونك ويطمعون في عرضك وشرفك، ولا يألون جهدًا في الإيقاع بك".

وكانت باجي عطية أخت جميلة من ضمن هذه العقارب التي حذر الأفندي زوجته من التقارب، "حذار حذار لا تحرقك كالنار"، وفي الحقيقة لم تغب عن العقل السليم البون الشاسع بين جميلة وأختها، فجميلة مقارنة بعطية كانت كطفل وديع، يومًا ما سمعها الأفندي تحرض جميلة عليه وتحثها على الثورة وعدم الانصياع له، فطردها على الفور رغم اعتراض دادة، ومع ذلك لم تكف دادة عن زيارتها من حين إلى حين في بيتها المتواضع في أحد أحياء المدينة.

وكان فرهاد ذو علاقة وطيدة زمن الطفولة والمراهقة بابن خالته عثمان، يزوره مع أمه ليسمع ويرى عن كثب قساوة زرباب، زوج الأم؛ معه.. أكثر من مرة أراه الولد آثار الضرب والشج في مناطق مختلفة من جسمه، وانقطعت صلته به، إلا نادرًا مصادفة في السوق، بعد أن شبَّا وبلغا سن البلوغ، وها هي دادة تشعر اليوم بحاجتها الماسة إليها في البحث عن فتاة لعدنان، إذ قد مضى عامان منذ بدأت بالبحث ولم تفلح.

فوجودها في المدينة وسكنها في حي كلهم مسلمون أتاح لها فرص أكبر.. فزارها في بيتها وأخبرتها بالقصة، فأبدت استعدادها المطلق في بذل قصارى جهدها، وبعد أسبوعين زارتها دادة لاستطلاع الأخبار، وكان الخبر مخيبًا للآمال، أخبرتها أختها أن أمهات الفتيات اللواتي قامت بزيارتهم قلن بحق عدنان نفس ما قالتها الأخريات: إنه شبه مجنون، حتى بالغت إحدى الأمهات وجاءت بالبهتان المبين وصارحتها أنه، أي عدنان، وحسب ما تتوفر لديها من معلومات، قد قضى شهورًا في المصححات العقلية.. لم تنم دادة ولا فرهاد ليلتهما، فقد كان فرهاد يتابع الأحداث عن كثب رغم مشاغله وأعماله الكثيرة في البيت والمدرسة.

وفي يوم ما وبعد أن دوت صافرات الإنذار غير المتقطعة تبشر بانتهاء غارة جوية طويلة عنيفة؛ خرجت دادة مبللة العينين من ملجأ الجارة، فقد بكت لبكاء أم عاشور على عاشور الجندي الذي طال غيابه.

فإذا بباجي عطية في ملاءة مغبرة تقف على الطرف الآخر من الشارع تناديها بفزع وهي تلهث منقطعة النفس، بدت أنها قد أسقطت نفسها تحت مدرج البوابة عند حدوث القصف.. فهرعت دادة إليها، فقالت أختها لها مباشرة وبدون مقدمات ودون إضاعة دقيقة:

- أنا على عجل جئت لك بخبر مفرح إن شاء الله

قالت ذلك بحركات سريعة دائرية من عينيها تتم عن طاقة وحيوية غير عادية، وبصوت مطابق تمامًا لصوت دادة، بحيث يخيل إلى السامع أن دادة هي التي تحدثت ولم تكن أختها هي المتحدثة.. أردفت بفرح غامر:

- هناك في الجوار فتاة رائعة الجمال، فاتحتهم بالأمر قالوا لي لا بأس لو رأيناه أولاً.. وخلال حديثي معهم تبين لي أن أباه كان مدرساً لفرهاد وزميل قديم لعمر أفندي اسمه ملا عبد الرحيم.

انفتحت أسارير وجه دادة للخبر فأخذت بيد أختها تشد عليها مباركة جهودها، وأردفت باجي قائلة:

- ولهم ابن استشهد في بداية الحرب، ترتدي الأسرة السواد، وقد ضربنا موعداً للمقابلة.

في اليوم قبل الموعد المضروب ذهب عدنان إلى الحلاق لترتيب شعره ونفشه لتغطية وتمويه الندوب والآثار على الرأس والجبين، وفي اليوم الموعد ارتدى عدنان أجمل ملابسه، ووضعت دادة في جيبه قرآن وعلقت نواشيتي، أدعية، تحت قميصه.

انطلقت سيارة التاكسي التي تقلهم إلى محلة النور سالكة الشارع الستيني المحيط بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم، وكان هناك طريق أكثر اختصاراً ولكن السائق حذر أن هناك حملة جيش شعبي في ذلك الشارع وقد رأى بأم عينيه سيارة لوري من نوع زيل عسكرية غاصّة بالمدينين الذين أخذوا عنوة من الطريق؛ تمهيداً لسوقهم إلى معسكرات التدريب وبعدها إلى جبهة النار.. وقال من ضمن ما قال إنَّ

الرفاق أخذوا عريس انتزعه من أحضان العروس متذرعين ومعتذرين له أن الوطن أهم وأعلى.

بعد مسيرة ما يقارب ربع ساعة انحرفت السيارة عند تقاطع طرق إلى اليسار ثم دخلت شارعًا فرعيًا لتتوغل في أعماق الأحياء السكنية وظلت سائرة هكذا إلى أن توقفت أمام بيت متوسط الحجم، وأمام بابه كانت تقف باجي وهي تنظر بشرود وبعيون مبللة وملامح حزن، استنتجت دادة أنه لا بد أن حصل نقار جديد بينها وبين زوجها بسبب عثمان، ابنها من الزوج الأول.. قالت وهي تتكلف التجلد أن المسكن المشار إليه قريب، فنزلا من التاكسي، سار الثلاثة قدمًا مشيًا على الأقدام على طريق ترابي إلى أن توقفت باجي أمام دار صغيرة ذات طابقين محاطة بسور منخفض ترحف فوقه الورود الوردية ذات العبق البهيج وتتدلى فوقه أغصان البرتقال والرمان التي كانت تنوء بثمارها الناضجة.

لدى الباب وضع عدنان نظارته شبه الشمسية الخضراء الفاتحة على عينيه، شعت عيناه من وراء عدساتها جليًا، وربت على شعره الذي غير الحلاق اتجاهه من اليمين إلى اليسار بحيث يغطي الشعر البقعة المصابة من رأسه بكثافة، وكان في الجملة يتألق في بدلته الرمانية البراقة، وقميصه الأبيض ورباط العنق الأخضر المزركش.. دقت باجي عطية الجرس ففتح الباب بعد أقل من دقيقة عن وجه امرأة بدت في منتصف الحلقة الخامسة، قوية البنية متينة سمراء البشرة متشحة بسواد.

- هذه شكرية خانم (هانم)، أم العروس، وهذه أختي جميلة أم العريس، وهذا عدنان العريس.

قالت باجي مقدمة أختها وابن أختها لربة الدار، التي بادرت تخاطب باجي بابتسامة صغيرة:

- عريس وعروس؟ أظن أنها ألفاظ سابقة لأوانها.

وضحكت النسوة فيما ظل عدنان ساكنًا صامتًا متوترًا ينتظر الإشارة للدخول، وفي الحال ظهرت فتاة جميلة سمراء ممشوقة القوام واسعة العينين ترفل في سواد، فقدمتها باجي إلى دادة وعدنان على عتبة الدار:

- هذه هي مها أخت العروس.

بعد انتهاء مراسيم التقديم والتعارف قادتهم شكرية هانم إلى الهول، غرفة الجلوس، فاتخذ كل مجلسه، وأول ما جلب انتباه الضيوف صورة ملا عبد الرحيم تمثله شاباً تعود إلى أيام المدرسة، وفي الجهة المواجهة لها صورة الشهيد أبيض وأسود وهو يطالعهم بوجهه الضيق النحيل الأسمر الحلو الحزين وعينه السوداوين تماماً كعيون سها.. وكانت التجميعات الثلاثة الطفيفة المتوازية المحيطة كهالة نصف دائرية حول عينه اليمنى مثار انتباه عدنان الذي ظل يحديق فيها طويلاً، وكانت (تفاحة آدم) النائنة في وسط عنقه الطويل وعيونه الواسعة تنتظر بكرب وحزن إلى البعيد بمثابة علامة مميزة، وفي منطقة الظل من الصورة لاحت آثار حروق وندوب منتشرة تمتد بين عينه اليمنى وصدغه.

رحبت ربة البيت بالضيوف ترحيباً حاراً وهي تجيل طرفها في الوجوه الجديدة بتفحص، رست عيناها للحظات على وجه عدنان الذي بادر و غص من طرفه حسب تعاليم أبيه القاضية بتجنب النظر في وجه المرأة الغربية قدر الإمكان، فإن تعذر فلا بأس.

مالت شكرية خانم - هانم - برأسها المتلفع بغطاء أبيض نحو الباب وجعلت تنادي سها؛ فجاءت الفتاة بصينية رصت عليها أكواب القهوة والكعك، فبدأت بالتوزيع والترحيب في آن واحد تساعدها في ذلك أختها، وبعد ما فرغت من ذلك مضت وجلست إلى جانب أمها، وبعد نظرة خاطفة على الوجوه وابتسامة ضيقة جعلت ترنو إلى الأرض وتحرك طرف حذاءها بحركة بدت تلقائية وقد توردت وجنتاها الناصعتي البياض.

أما عدنان فقد اتخذ مجلسه إلى جنب خالته باجي عطية بحيث شكل الضيوف صف ثلاثي مقابل صف ثلاثي من جهة المضيفين، ومن تحت عينيه اختلس نظرة عامة شاملة للفتاة خاطفة سريعة وهو يرفع النظارة من فوق أنفه برهة، ثم يدعها تقع حيث ما كانت تستقر، كما أوعز إليه من جماعة السيدات من أهل بيته.

ثم حول نظره إلى وجه أمه التي كانت في حديث هامس قصير مع أختها، ثم أخذ يجتر الصورة الخاطفة التي التقطتها عيناه من الفتاة.. ملامحها الدقيقة الحزينة، أنفها المستقيم الصغير، عيونها الواسعة السوداء، شعرها الكثيف الأسود الفاحم الطويل، المسترسل تحت غطاء رأسها الأسود، أمّا ساقاها فقد تجاوزتهما عيون عدنان

متعمداً رغم كون الثوب الذي ترتديه كان يمتد إلى قدميها، ورغم ذلك استطاع أن يجزم أن الميزة الغالبة على الفتاة كانت النحافة بشكل ملفت للنظر والحشمة.

استفاق فجأة من أفكاره بعد أن أحس بمرفق خالته يوكزه في جنبه، فرفع رأسه ينظر من خلال النافذة وقد تورّد خده من الانفعال والحرج والقلق إذ وجد نفس وكأنه أمام امتحان عسير.. كررت شكرية خانم الترحيب بهم بعد محادثة قصيرة مع دادة، ثم قالت على سبيل ترطيب الجو وهي تتأفف:

- الناس تنام بتيابها تحسباً للغارات التي تكاثفت هذه الأيام، فصار المرء يتوقع الضربة في أية لحظة.

مجرد تلطيف جو ولكن كلماتها أوحّت في نفس الوقت بالتحذير من إطالة الزيارة، هذا ما استنتجه القوم الزائرون على الأقل، فقد أثارت بكلماتها تساؤلاً في القلوب جميعاً؛ أين سنذهب للاحتماء لو حصلت الغارة في هذه اللحظة؟، امتدت يد باجي إلى القهوة بمهل وعلى أثرها يد دادة وعدنان الذي رفع رأسه بعد الرشقة الأولى لتلتقي عيناه بعيني سها لأول مرة، فسرت في جسده رعدة خفيفة، ولكنه سرعان ما عاد ينظر إلى الأرض وقد تورّد وجهه بحمرة الحياء، ومن هناك توالى أخبار الحرب من قبل النسوة إذ قالت شكرية خانم لدادة:

- قبل يومين وقع صاروخ في حي من الأحياء السكنية في المدينة أصاب شاباً وكان يركض باتجاه ملجأ في الجوار فقطع رأسه من العنق، وظل الشاب يعدو مسافة عشرين متراً بلا رأس أمام أنظار الناس قبل أن يسقط أخيراً في وسط الشارع.

ضربن النسوة كفاً بكف تعبيراً لهن عن تأثرهن بفضاعة المشهد وارتفعت أصوات الاستهجان وصيحات الفزع، في اللحظة ذاتها ضربت باجي عطية بمرفقها على ساعد عدنان وقالت لها هامسة: انظر جيداً، ثم عادت إلى المجلس فخاطبت المضيفة وهي تتأفف:

- أختي هذه ليست بحياة.. ولكن ما العمل؟ نسلم إرادتنا للواحد الأحد.

ثم همست في أذن عدنان:

- ما رأيك؟ أعجبتك؟

فردّ عدنان بكلمة هامسة دون أن يرفع رأسه:

- رائعة!

علت ابتسامة على وجهها الضيق وشفثتها الشاحبتين وقد تنفست الصعداء، وخيل إليها أنها انتهى دورها إلى هذا الحد، إنها رائعة، ظلت ترددها مع نفسها.. كانت عينا دادة تحديقاً طويلاً في صورة الشهيد وأسارير وجهها نمت على حزن ومرارة عميقين، لاحظتها شكرية هانم فبدأت تشرح حادث شهادة ابنها وهي تشير إلى صورته وتتنهد:

- جوانه مرك، لقد قضى في شبابه الباكر.

كان ذكرى الفقد بمثابة ذر الملح على الجرح فانفجرت سها بالبكاء ولم تتمالك، فخرجت من الغرفة مسرعة تتبعها أختها تجر أذيالها، حينها قالت شكرية هانم تخاطب دادة وتشير إلى الجهة التي خرجت سها منها والتي ارتفع صوت نحيبها في الممر:

- علاقتها بأخيها الشهيد كان فوق ما يتصور المرء فهما قبل كل شيء توأمان، فقد أحب المرحوم أن تغسل سها ملابسه العسكرية وتكويها له وتطبخ له من دوننا، وأول ما كان يفعل عند عودته من إجازاته الدورية هو أن يقبض عليها من وسطها ليرفعها كما يرفع ريشة ثم يركبها فوق كتفيه ويجوب بها هكذا كل أرجاء البيت. نظرت لحظة إلى الأرض ثم رفعت رأسها وقالت مخاطبة الثلاثة الضيوف بصوت مريّر:

- في إحدى المعارك أصابت شظية عينه وجبهته فنصحناه ألا يذهب فأبى قائلاً إن لي أخوات، هن شرفي، فسوف يتخذونهما الأوغاد رهينة لو امتنعت عن العودة إلى الجبهة.

ساد الصمت لحظة تستعيد فيها المضيئة الأحداث فقالت وعينيها لا تفارق صورة الشهيد:

- في إجازة أخيرة توصلت إليه أن يبقى، سأخفيك في الجبال، نحن الكرد ما لنا وحرب العرب، لكنه عاند وأعاد نفس علله ومبرراته على أسماعنا.

هنا لم تتمالك دادة فأجهشت بالبكاء بعد أن كانت تمكنت من السيطرة على عواطفها بصورة لا سابقة لها، بكت دادة ولم تبك أم الشهيد.. وخلا جو الغرفة لثوان لا يسمع فيها غير شهقات المنتحبات، الأمر الذي جعل عدنان يسأل نفسه هل هم في مأتم؛ إلا

أن باجي عطية أثبتت عكس ذلك، فبعدما التفتت يمنة ويسرة بحركة مكوكية خاطفة قالت تخاطب أم الفتاة:

- شكرية خانم أنتم تعلمون ما الذي جاء بنا نحن إلى هذا المكان، ونود أن نختصر قبل أن تقع غارة.. فماذا ترون؟

اعتدلت شكرية هانم من جلستها وهي تشير إلى خارج الغرفة فنادت على الأختين بعد أن رشقت عدنان بنظرة خاطفة والذي كانت يده اليمنى في تلك اللحظة تلعب بمسبحته بتوتر وقلق فقالت تنتظر الي الضيفتين بلهجة واثقة:

- لو حدث هذا ولا سمح الله فلنا ملجأ صغير تحت الأرض، ابنتي سها ومها منمكتان منذ البارحة في تنظيفه من الداخل.

وقبل أن تتمم شكرية خانم كلامها ترامى إلى مسامعهم أصوات وصراخ استغاثة، فتحولت الأنظار إلى مصدر الصوت فإذا مها تعدو إلى الصالة وفي أثرها تركض سها ومها تولولان وتصرخان وتشيران إلى الحديقة من خلال الباب:

- وحش، حيوان، ربما جن.

فهب الكل للاستغاثة فطمأنت أم الفتاة ابنتيها قائلة:

- إنها جردان، لقد رأيت واحدة البارحة تثب فوق غطاء الملجأ.

سها خالفت الرأي:

- لا بل إنها حية.

استهزأت بقصتها أمها بحركة فهمت ابنتها مغزاها، في حين غرة بدرت من عدنان حركة سريعة، نزع سترته الرماني ونظاراته وشمر عن ساعديه ثم التفت إلى أم سها قائلاً:

- هل تسمحين؟

وقبل أن ينتظر ردها هرع إلى الملجأ بعدما التقط غصن شجرة من بين الأشجار، العيون تنتظر والأنفاس تتسارع والنبض يتضاعف قوة، والقلوب على الحناجر، الفرع على وجه الفتاتين المتلاصقتين، ودادة بجوار شكرية هانم تنتظر غير مكترثة وكأنها تتفرج على لقطة من مسابقة قتل العقارب مضى على وقوعها أكثر من عقدين من الزمان.

لم يدم وجود عدنان طويلاً في الداخل، فخرج بعد خمس دقائق وقد غطى الغبار وجهه وملابسه وعلى طرف عكازته تتدلى حية سوداء منقطة بنقاط بيض طولها متر وقد سحق رأسها.

تراجع الجمع بعد ما أطلقت الفتاتان صيحة فزع وعجب، أمّا عدنان فشرع في تقديم تقريره وإرشاداته وهو ينحني ويلف الأفعى في قطعة جريدة / صحيفة كما تلف دادة فطيرة جبن أبيض كردي في نان (خبز رقاق)؛ فقال مخاطباً النسوة ناظرًا إلى أمه: - اطمئنوا فقد تفحصت المكان فلم أجد أثر لشقوق ولا لثقوب، كل ما هنالك أن الملجأ يحتاج إلى تنظيف، أمّا الأفعى فيبدو لي أنها جاءت من الخارج من دغل، حقول القمح، فلا تنسوا إحكام السدّ.

وتدخلت دادة وقالت متباهية تمد ساعدها المزدانة بالذهب والأساور إلى ناحية ابنها: - ابني عدنان، إنه في الأساس قاتل العقارب، حائز على كأس بطولة حملة القضاء على العقارب وكان طفلاً في مدرسة ابتدائية، وقد نال مكافأة في أثناء خدمته العسكرية جراء تقديمه خطة لمكافحة العقارب، فقتل أفعى إنما هو خارج اختصاصه.

لدى الباب التقت عينا عدنان العسلتان وعينا سها السوداءوان للمرة الثانية في ذلك الاجتماع السريع، أحس بتسارع ضربات قلبه من بين ضلوعه، وقبل أن يغادر الزوار عاهدتهم شكرية هانم أنها سوف تطلعهم قريباً على ما سيتفقون عليه وحسب ما قضى الاتفاق:

- أمهلونا أسبوعاً واحداً لكي نفكر.

- ألم أقل إنه سيصبح رجلاً، انظروا كم هو مضبوط ونشيط وقوي الإرادة والتحمل، هذه هي من بركات العسكرية، دقيق في مواعيده، شهم وشجاع، وزالت عقده النفسية...

هتف الأفندي وهو يرتشف شايه متربعاً على أريكته الأبدية ويرمق زوجته وابنه البكر بعين يملؤها الفخر والاعتزاز بالنفس وبالقدرات الذاتية، فرد عليه فرهاد بيدي رأيه العنيد:

- البيريه أنفدته، فقد قال لي أخي يوماً إنه أنسب واقى لرأسه ومخفي لعينه، فالعسكرية شاقة لكل إنسان لكنها هانت له بوجود البيريه.

صفق الأب كفاً بكف وهو يهتف:

- بل قل البركة في إيمانه بخالقه ودعائه يا تارك الصلاة.

وقالت دادة وهي ترتدي أجمل ملابسها وحلتها والبشر يطفح فوق خدها المتوردتين في ذلك الصباح الجميل:

- سنتحقق إن كان حقاً كلامك صحيح أفندي.. يكاد قلبي يتفطر في انتظار رد الأسرة.

تبادلت الأعين النظرات في وجل، ورست عينا دادة على نظارات الأفندي طويلاً في تضرع، أدرك الأفندي بالممارسة والخبرة الطويلة ماذا كانت تريد بتلك النظرة فشرع يتلو دعاء كا كه شيخ بصوت منخفض خاشع، وشبكت دادة يديها على حجرها تنصت بخشوع، أمّا فرهاد فكان ينظر إلى البعيد إلى العلو حيث المدفعية المضادة للطائرات وما بعدها الجبل الأزرق.

لم يكن قد مضى على زيارة أهل الفتاة سوى أسبوع واحد حين جاء الرد على لسان شكرية خانم بالرفض دون ذكر الأسباب، ومن أجل التخفيف من أثر الرفض أعلنت أم سها أنه لو كان الابن الأكبر هو الطالب لما ترددت لحظة، عندها شبكت دادة يديها في حجرها فقالت بنبرة مختنقة لفرهاد:

- الأمر واضح؛ إنها تنتشبت بنفس المعاذير والعلل التي قدمتها غيرها من الأمهات من قبل.. لحسن الحظ فقد سافر عدنان هذا اليوم قبل أن يعلم.

قضى فرهاد ليلة صعبة لم ينم فيها إلا في الهزيع الأخير منها، الشعور بالذنب تجدد، هاجسه أن أخاه سيصاب هذه المرة بانهييار عصبي لو كانت هذه رافضة حقًا كذلك.. بات إلى منتصف الليل يتقلب ويقلب الأمور بحثًا عن مخرج من المتاهة الجديدة، وفي الفجر استيقظ وهو منتفخ الأجفان وقد نمت أساريره عن امتعاض بالغ وخرج دون أن يسلم على أمه التي كانت تعجن في المطبخ، وعاد بعد الظهر ونادى أمه من الباب الخشبي الساج:

- تعالي دادة وانظري.

أمسك بيدها ليجذبها برقة إلى البوابة الحديدية وهناك أشار بيده إلى سيارة تويوتا زرقاء فاتحة اللون تقف أمام الباب.

- لمن؟

تساءلت مصعوقة لما ترى عيناها.

- لنا.

أجاب بلطفة المنتصر الظافر.. أطلقت دادة صرخة:

- شيء لا يصدق!

أضاف فرهاد متباهيًا:

- إنها لأخي فكرت بها في البداية فقلت الذهب لا يكفي، النساء مولعات شغوفات بالسيارات الفارهات، وأم سها غير مستثنية بل تؤكد لي إنها متطرفة في حب المال والسيارات الغالية.

- ومن أين لك المال؟

تساءلت دادة مستغربة.

- من رأسي والعقل السليم المقيم فيه، سمعت الخبر من زملائي أنه بالإمكان شراء سيارة بأقساط شهرية.

ثم أضاف وهو يرمش لها بفتنة أثارت فيها قشعريرة غريبة لم تشعر بها منذ ولادة عدنان:

- هذه قوة إضافية لنا ويعزز موقفنا، ولك أن تضيفي جزءاً من نصيبي من الذهب إلى حصته لإغراء شكرية المكثرة وثنيها عن موقفها المتصلب.

ثم بلهجة الواثق:

- غداً سأتولى الأمر بنفسى فماموستا عبد الرحيم صديق أبى، وأنا كنت تلميذاً على يديه.

وواصل قائلاً والأفكار المتزاحمة تتلاطم في رأسه:

- استناداً على كلام عدنان أكاد أجزم أنه متعلق بها وهي لم ترفضه، ولكن يبدو لي أن أمها هي التي لها الكلمة الأولى والأخيرة.

ثم دون أن يدع لأمه مهلة لتمتع عينيها بمنظر السيارة البراق:

- وقف عدنان ليلة البارحة طويلاً أمام المرأة يتأنق في عناية وصبر ويتأمل جسمه ووجهه بنظرة باسمة غامضة.

صمت لحظة يسترد ما حدث ثم أضاف:

- ثم إنه أطل صلاته، وبات يدخل بلا انقطاع إلى ساعة متأخرة من الليل وهو الذي قد لزم جانب الاعتدال منذ انتهاء أزمتة النفسية.

ثم وهو يشير إلى السيارة:

- قال لي عن سها إنها بعينيها السوداوين الساجيتين وحاجبيها المقرونين وأنفها السوي اللطيف وجيدها الطويل وقامتها الهيفاء؛ لشديدة الشبه بنجمة فيلم دو بدن الهندي الذي شاهدناه معاً زمن الطفولة.

ثم أعلن وهو يجذب يد أمه برفق ليقودها إلى الداخل:

- وفي لحظة ما سمعته يتأفف ويتأوه في ضجر مخاطباً إياي في حيرة: أخي إني أراني في كل محاولة أمام امتحان عسير في مادة اللياقة والكفاءة.

عند الظهيرة كلم فرهاد والده عن الفكرة فأبدى استعداده، أما دادة فحدجت زوجها بنظرة عتب وهو يتفحص السيارة ملياً بفمه قبل عينه فقالت له مداعبة:

- هكذا يكون العريس يا زوجي العزيز لا مثلك؛ فقد طلبتني على ظهر حمار ودفعت لأبى نصف دينار نفقة مهري.

أما بابا فقد كان في وادٍ آخر، فأبدى مخاوفه وعلى وجهه قطوب:

- لابد من إنقاذ الولد وإلا أصيب بإحباط شديد، ولعادت إليه الأعراض المرضية النفسية نفسها.

في ظهيرة نفس اليوم اتصل فرهاد بملا عبدالرحيم هاتفياً وأعلمه بنية أبيه ورغبته في زيارتهما له في بيته، فتلقى منه ترحيباً واسعاً. وفي اليوم السابق لعودة عدنان تم عقد اجتماع ثلاثي في مسكن ملا عبد الرحيم.

فحدث اللقاء الحار بين الزميلين بعد انقطاع دام أكثر من عقدين، والذي بدأ بقراءة سورة الفاتحة على روح المرحوم، ثم الاعتذار من لدن الأفندي لعدم علمه بالحادث المفجع، فقبل عذره برحابة صدر، ثم دخل إلى الموضوع مباشرة فخاطب ضيفه وكأنما يعتذر للرفض الذي حصل دون نية أو قصد منه وقال معللاً وبكل لباقة:

- اسمع ماموستا عمر فأنا لا مانع لدي إن كانت الفتاة نفسها لا تمنع، فبنتي فتاة حساسة وتحب كل الناس، لكن الزواج واختيار الزوج كما تعلم شيء معقد ونحن نعطي الفتاة كامل الحرية، نحن المثقفون الواعون لا نضغط ولا نكره الفتيات على الزواج.

ثم عاد وأكد في سياق اعتذاره وترحابه بقدوم الأب والابن فقال مخاطباً إياهما بمرح؛ خاصة بعد أن رأى ابتسامة كالحة تستقر فوق شفاه صاحبه القديم:

- واعلم أنني أفخر بمصاهرتكم، وأعدكم بأنني سوف لن أدخر جهداً في إقناعها، وأنا شخصياً قد سألتها عدة مرات فيما لو هي موافقة أو رغبة فلم تجب بل اكتفت بالبكاء.

ثم وكأنه يعتذر مرة أخرى وبالنيابة وهو يخوض في عمق الأحداث المحيطة المؤثرة:

- بعد استشهاده - وهو يشير إلى الصورة- أصيبت سها بانهيار عصبي شنيع، وعانت من أعراض نفسية ذبلت وهزلت من جرائها، حتى دفع بها الحزن يوماً إلى محاولة قتل النفس، ولولا خوفها من الله لفعلت، أخذناها للطبيب فوصف لها مهدئات.

استمع الأفندي بانتباه تام لكل ما قدمه زميله القديم من إيضاحات ومبررات، بينما ظل فرهاد يسترجع صورة الملا عبد الرحيم في ذهنه حين كان يلقي عليهم درس دين واللغة العربية؛ بدلته القهوائية الباهتة والحزام المشدود فوق السرة فوق قميصه

الأبيض القديم، ثم وهو يمد يده إلى حزامه يرفعه بين الحين والآخر، وتتحرك فتحتا أنفه وتتقلص حدقتاه من وراء نظاراته حينما يعود ليخاطب الطلبة عادة بعبارة: طيب يا إخواني.

بعد أن قدم ملا عبد الرحيم تقريره المفصل مال إلى تلميذه العتيق فقال له مداعبًا:
- يا فرهاد لقد كنت قزمًا في الصف فما صيرك هكذا عملاقًا؟

ضحك فرهاد باقتضاب وهو يجلس بكل أدب ووقار أمام معلمه القديم، وقبل أن يتمكن من فتح فمه علق والده على ملاحظة زميله:
- إطاله الأكل والقراءة، كل الوقت يمد عنقه ورجليه على السرير وأمام عينيه كتاب أو مجلة.

ضحكة قصيرة من الملا بعدها أمال برأسه جهة الباب ونادى ابنته بصوت منخفض يكاد لا يسمعه ضيفاه، ولكن الصوت كان مسموعًا لدى الفتاة التي جاءت وقد زاد تحولها واحمرت عيونها ووقفت مكتئبة بالباب، ولم تتقدم إلا بعد أن أشار إليها أبوها بالجلوس، فجلست على كرسي قرب الباب وعيناها تنظران إلى الأرض، تحركت شفتا الملا عبد الرحيم بالكلام ولكنه لم يتكلم، إذ دخلت أمها بغتة وهي تلهث وتزفر بعصبية ونرفزة فرحبت بالضيوف أولاً وباقتضاب ثم خاطبت الأفندي ويدها على فمها قائلة بلهجة لا تخلو من فظاظة:
- إنها لا تقبل وليست بيدنا حيلة ولسنا بصدد إرغامها.

صعق الأب والابن لهذا الظهور المفاجئ غير المتوقع، ولكن الملا عبد الرحيم سرعان ما هدا من خاطرها إذ رد على زوجته بكل لين قائلاً:
- المجلس مجلس الرجال؛ فهلا تركتينا نتحدث نحن الرجال معًا قليلاً.
فغادرت الغرفة مرغمة ساخطة.

اغتنم الأفندي الفرصة فدخل في الموضوع من غير مقدمات فأمال بنفسه نصف ميلان صوب سها دون أن ينظر إلى وجهها:

- بنتي سها، ابني عدنان إنسان كامل كادح؛ عانى من أثر ضربة على رأسه قبل زمن طويل، ولكن والحمد لله فقد تم شفاؤه شفاء تامًا، وما يقوله الآخرون حول مرضه وعله فمحض هراء، فكلام الناس لا منجى منه حتى للملائكة.

وجاء فرهاد ببينة وشاهد:

- قبل فترة قامت أربعة نساء بزيارة والدتي وهن جميعاً من سكنة الحي الشعبي المجاور للبلدة، فذكرن خصال عنك واخترن أقاويل عن عائلتك لم نقبلها منهن، فطردتهن أُمي.

لم يصدر عن سها طوال الوقت أي صوت ولا حركة بل ظلت تلعب بأناملها بنرفزة وقد استولى عليها الحياء.. حال من ملا عبد الرحيم نظرة إلى فرهاد والذي كان يجلس إلى جانب أبيه على الكنبه الثنائية ويبدو أنه لم يعر اهتماماً إلى النسوة المفتنات، فقال له متسائلاً طارقاً باب شأن آخر:

- نحن نعرف أن العادة تقضي بزواج الابن الأكبر قبل الأصغر، فكيف حصل معكما العكس؟

نظر فرهاد إلى أبيه الذي أشار إليه أن يرد عليه فقال وبصوت منخفض أشبه بهمس وبمنتهى الأدب:

- العلة الوحيدة هي أن موقفي من الخدمة العسكرية لا يزال غير واضح رغم إعفائي.

- وأخوك؟

- أخي يعمل سائقاً للنقل البري، وخدمته هذه بديلة للخدمة في الجيش حسب قرار الدولة.

ساد صمت بدا فيه واضحاً أن المضيف كان يحاول اجتراح ما سمعت أذناه للتو من تلميذه القديم، استغلها فرهاد مناسبة للتحدث إلى سها مباشرة وهو يعتمد رفع صوته كي تسمعه تلك التي تنصت من وراء الجدران:

- لا يخفى عليك أنه يستلم راتباً أكبر من راتبي، حتى أنه اشترى سيارة تيوتا كرونا جديدة وقد سمح لي باستعمالها في غيابه.

وتمتم في نفسه: كذبة بيضاء من أجل شكرية هانم، وحالت منه نظرة إلى الباب ومن خلاله تراءت له أم الفتاة من بعيد وهي تحرك قبضة يدها اليمنى على راحة يدها اليسرى بحركات دائرية سريعة في وجه زوجها كعلامة إنذار ووعيد ورسالة تهديد مفادها: لو لم تصدع بما أمرت بك فالويل لك، أطحنك كما يطحن القمح في المطحنة.

التزمت سها جانب الصمت حيال الأمر، رأت الاستماع خير لها، وكأنها سلبت من حق الكلام والبت في أمر يخصّها هي وحدها دون غيرها.. استوى الأفندي في مجلسه وعدل بنيقته وعقد أزاراً في سترة بدلته الجديدة القديمة اللماعة التي خاطها له الخياط العم يعقوب قبل أكثر من عقدين من الزمن، وأراد أن يتكلم ولكن فرهاد بدأ قبله فواصل ذكر محاسن ومناقب أخيه قائلاً ناقلاً ببصره بين سها وأبيها:

- وفوق ذلك فهو خلق طيب مؤدب دينّ مواظب على الصلاة والصوم يخشى الله مثلك، ومن يقصد إيذائه فهو إمّا كافر أو عديم الوجدان والإنسانية.

وكأنني به قد مس الوتر الحساس بالجملة الأخيرة في نفس البنت، فقامت بتفريغ ما في قلبها من آلام قائلة بصوت أقرب إلى الهمس:

- كما كان الحال مع أخي المرحوم، فقد قالوا عنه إنه مجنون ولم يكن ما حصل له إلا مجرد رجّة خفيفة في الدماغ بسبب الإصابة ليس إلا، فصنعوا من الحبة قبة.

سكنت ثواني وهي تكبت نزوعاً نحو البكاء، عادت بعدها تقول موجهة كلامها إلى الحضور لكنها نظرت إلى أبيها:

- وهل الرصاصة التي أصابت رأس أخي المسكين من إرادته هو أو من إرادة الله؟
اخشوا الله يا عالم...

تفوهت بالعبرة الأخيرة وهي تميل برأسها بحذر نحو الباب فكم كانت دهشتها ورعبها حين رأت أمها تزبد وترعد بعيداً من وراء الباب، وتقوم بحركة المطحنة نفسها التي قامت بها في وجه زوجها.

- ها.. يبدو أنك قبلت؟

سألها أبوها بمنتهى اللطف.

أحنت رأسها بما يدل على: نعم، واغرورقت عيناها الواسعتان بالدموع.

كانت حفلة عقد القران بسيطة؛ اقتصرت على بعض الأقارب والأصدقاء.. "خير البر عاجله"؛ قال الطرفان فتم انتقال العروس إلى بيتها الجديد بعد أسبوع من عقد القران في حفلة متواضعة حضرها الأقارب المقربون والأصدقاء الأعزاء، واحتراماً للشهداء وأخي العروسة الشهيد والجارّة أم عاشور؛ فقد جرت مراسيم الزفة بمجملها صامتة لا صاحبة كما يقضي العرف المتبع، ولكنها لم تخلُ من تبادل

أحاديث ونكات وضحكات وابتسامات، والأنوار الساطعة والملابس الزاهية وفستان العروس الأبيض وبدلة العريس الأنيقة، كاد عدنان ألا يصدق عينيه حين وجد نفسه في البدلة التي سماها بدلة الأفندية، وهو قد اقتصر لبسه طوال الأعوام الماضية على بنطلون ضيق وسترة طويلة عتيقة، وقد بدا دائماً رزي الهيئة.

الطابع المميز للزفة كان الهدوء، ولكن زغرودة ما مزّقت جدار الصمت بغتة، إذ أقبلت ليلي خرى مسرعة من بيتها تشق الزحام وتهلل وتقفز من الفرح، فاندفعت رغم بدانتها كالغزال إلى داخل الصالة - صالة الجلوس - ولم تتوقف إلى أن وقفت وجهاً لوجه مع دادة التي كانت تجلس إلى يمين عدنان، بينما كانت شكرية هانم أم العروس تجلس على يسار ابنتها بوجوم، فتساءلت دادة مستطلعة مستبشرة عن سرّ فرحتها وهي التي لم تتم ليالي بسبب طول غياب عاشور الجندي، فأجابت بعد أن أطلقت زغرودة أخرى وسط اندهاش الحاضرين:

- ابني عاد من الجبهة للتو؛ وقد بتر رجله اليسرى الحمد للرب، فلن يعود إلى الجبهة.

فهنائها دادة وعلا الصخب، كل يقدم تهانيه بالمناسبة السعيدة، وليلى خرى ترد كل ذلك بابتسامة من شفيتها الغليظتين لتضيق عينها درجة إضافية عن المعتاد.. اعتذرت دادة أنها قد بحّ صوتها وإلا لزغردت لها، فكان ذلك بمثابة الضوء الأخضر من دادة حيث دوت الزغاريد والهلاهل من أفواه النسوة كالزوبعة، كن عطشى للهلاهل، أقواها كان مبعثها باجي عطية التي أبدت اعتراضها من البداية من الزفة الصامتة.

سمعت دادة إحدى النساء بعد أن ذهبت أم عاشور تقول لصاحببتها:

- يا لشقاء النفس ويا لقسوة الزمان، قد أتى علينا دهر يعدّ فيه بتر ساق الابن سبباً لسعادة الأم، يبدو أن مبدأ الحياة والموت في أيام الحرب يقضي بأن إنسان بلا أطراف خير من إنسان بلا رأس.

* * *

في الليل وفي هدوء الربيع الدافئ ارتقت العروس والعريس السلم بمصاحبة دادة؛ فقد خصصت الغرفتان بالأعلى للعروس والعريس، أمّا فرهاد فقد كان قد حمل

متاعه ولوازمه ونقلها قبل أيام إلى الغرفة التي أطلق عليها فيما بعد: غرفة النقاهاة
نسبة إلى الفترة التي قضاها أخوه فيها بعد الإصابة بالضربة النكسة.

* * *

بالأعلى؛ انتزعت سها كلاو (طاقية الرأس) من رأسه المستطيلي الشكل، وأزاحت
نظاراته من على أنفه معلنة له بعذوبة:

- عدنان، في عيني أنت أحلى هكذا كما كان أخي.

- هل تحبينني؟

تساءل عدنان وهو يطوق بساعديه المقتولتين خصرها النحيل من تحتها.

- أنا أحبك منذ اليوم الذي قتلت فيه الحية وأبديت شجاعة تضاهي شجاعة وبسالة
أخي.

ثم وهي تطوق عنقه الخشن من فوقه بساعدها الأيمن:

- كان مثلك يتصف بالشجاعة والشهامة والبساطة.

* * *

وبالأسفل؛ كان فرهاد يرى دادة تكثر المشي تحت الدرج منذ وجود العروس في
البيت وتتنصت لكل حركة وهمس وطقطقة سرير تصدر من هناك، وقد احمرت
وجنتاها وتوردت شفثاها، فتعود إلى ذاكرته أيام الجامعة وأستاذة علم النفس تشرح
نظرية بافلوف في الاستجابة الشرطية وقانون الحافز والأثر... إن لم يكن الحال نفسه
مع دادة إذن فلماذا يسيل لعابها لدى كل صرير سرير ينبعث من فوق؟.

* * *

بالأعلى..

سها:

- فكرة رسم الحمامتين على الحائط تدل على الذوق السليم.

- دادة تحسن اختيار الملابس والديكورات.

- وخزان الملابس لونه وشكله غريب؛ كيف عرفت أنني شغوفة بكل غريب شاذ؟.

- لهذا أعجبت بغريب شاذ مثلي.

- لك شخصيته تمامًا.

- أحس وكأني لم أنجح بعد في اختبار اللياقة والكفاءة.
- السجادة إيرانية، إنها فاخرة، ولكن قل لي ما الذي استهواك مني فصرت تتهافت في طلبي دون هوادة؟
- أحببت فيك حزنك ووفائك لأخيك وجمالك الأصيل بلا رتوش تعكس حقيقة نفسك الأصلية العفوية الصافية.
- كم هي جميلة صورة الفراشات الزاهية المرسومة فوقنا على السقف، فهي تجعلني أشعر أن هناك ربيعاً فوق رأسي دائم غير زائل.
- والمرأتان على واجهة صوان الملابس فكرة رائعة.
- والمصباح تصدر ضوءاً خافتاً رائعاً رومانتيكياً.
- هذا من وحي فرهاد فهو رومانسي أصلي، ولكنك لم تذكر شيئا أهم من ذلك.
- ماذا؟
- مد يده إلى جرة خزان حديد أخرج منها رزمة مفاتيح أراها إياها.
- ما هذا؟
- مفتاح السيارة ومفتاح السعادة.

* * *

بالأسفل:

فرهاد وحده في غرفته التي كانت يوماً مستقرا ومقاماً لأخيه.. عازب وحيد يبحث عن كتب قديمة من تحت السرير فيعثر على مخلفات أخيه؛ تعود إلى مراحل مختلفة من عمره.. قبعات، بيريات، نظارات شمسية معطوبة، سجائر، مرايا وكسر (قطع) مرايا بأحجام وأشكال متنوعة، مقصلة ماري أنطوانيت لصديق صباه أمير، ووقع يده على مجموعة من مجلة طبيبك معك المعروفة والمتداولة كثيراً، فيتناولها.. يرى صفحة مطوية يفتح المجلة على تلك الصفحة فتقع عينيه على سؤال يسأل عن السائل المنوي هل هو نجس؟ الجواب: كلا بل هو من أنظف وأنقى أنواع البروتينات، النساء الغربيات يجدن في تناوله لذة وصحة كأي طعام أو شراب.

فهل يختلف رأيه عن رأي الطبيب كثيراً فيما يخص هذه المسائل؟ ألم يوجه أخوه أمس إليه سؤاله قبل الدخلة حول غشاء البكارة، أو لم يجبه جواباً كهذا الوارد في المجلة قائلاً له مستهزئاً:

- العالم في شغل شاغل ومهموم بسبب تمزق غلاف الأوزون ونحن ليس لنا ما يهمننا أو يشغلنا سوى غشاء البكارة.. أفيقوا يا نيام!

ألقي بالمجلة على الأرض الصلبة العارية من كل فرش، ثم أخذ ينظر إلى نفسه في مرآة أخيه التي وضعتها له أمه في زمانه ملاصقاً للجدار تحت النافذة، فلمح مرتاعاً خطوط بيضاء تخللت شعره الذي خفّ قليلاً في مقدمة رأسه وطفق يتساءل جزعاً؛ هل قررت العزوبية مدى الحياة؟ أم هي مجرد مسألة تأجيل إلى حين انتهاء الحرب؟ ومتى تنتهي الحرب وقد مضى على اندلاعها خمسة أعوام؟ ارقد فأنت اليوم مصاب، اقض فترة نقاهتك هنا كما قضاها أخوك من قبل، أنت معوق حرب لم تخضها بعد.. أما للناس حق في أن ينعتوك بـ (عارق خور) سكير؟.

العروسة سها اغتسلت وتنظفت طويلاً في الحمام، واختارت أجمل ملابسها واتخذت زينتها كما هو دأبها صباح كل يوم جمعة، لا لسبب سوى أن عدنان سيعود في هذا اليوم في إجازة نهاية الأسبوع، ولم تعد سها نحيلة كما كانت؛ ولكنها صارت رشيقة مليئة الصدر والوجه والأرداف، وكل من رآها في الشارع مع دادة عبر لها عن جمال العروسة وسعة عينيها: تملك عيون المها، وشعرها يتدلى في ضفيرتين غليظتين طويلتين على ظهرها.

اختارت اللون الرمادي في ملابسها بدل الأسود، وأرسلت شعرها الفاحم في غياب بابا وكاكه على كتفيها وظهرها، تأملت نفسها في المرأة ملياً، ثم راحت وجلست راضية مطمئنة بجوار دادة في الفناء المسقف (الطارمة) وأسندت رأسها إلى كتفها. فجأة لاح لها الأفندي في المصلى وهو يضع رأسه الحاسر تحت الماء المنساب من الصنبور (حنفية)؛ فسارعت في لف رأسها بغطاء أخضر موشى جديد، واعتدلت في جلستها، وأرسلت إليه بأدب جم تحية الصباح، ولم ينتبه بابا لها وظل يرش الورود والرياحين بالماء المتدفق من الصوئدة، خرطوم الماء من المطاط، كان فرحها هذا اليوم فرحتان؛ سيعود وستلقي عليه بخبر العمر.. ثم إنها حامل، ذلك ما أكدته لها طبيبة النساء قبل يومين حينما أخذها كاكه فرهاد بسيارته الجميلة وبصحبة دادة إلى المدينة لهذا الغرض.

جلست ببالغ الصبر تنتظر قدومه في كل لحظة مع شيء من القلق، إذ تأخر وصوله هذه المرة، وقد قارب الوقت الظهر وكان عدنان يظهر عادة قبل الظهر، أبدت قلقها جهراً فطمأنتها دادة قائلة لها:

- توقعي وصوله في أية لحظة.

لم يخرج فرهاد من فراشه ذلك اليوم إلا عندما ارتفع صوت مكبرات الصوت بتلاوة القرآن من الجامع تمهيداً لصلاة الظهر والجمعة، فقام وحلق ذقنه وارتدى سترته النيلية فوق قميصه الأبيض وبنطلونه الأزرق وحذائه الأسود الكبير اللامع،

وسرح شعره ورش ماء الكولونيا على قميصه وشذب الشعرات الناشزة من شاربيه،
وخرج بكامل لياقته إليهم وليخوض معهم دردشته اليومية القصيرة.

أدى تحية الصباح ثم اتخذ مجلسه على الكرسي الألمنيوم في ركن بعيد يلامس كتفه
غصن الكرم الزاحف صاعدًا فوق التعريشة الحامل بباكورة عناقيد الحصرم الدقيقة
والمنتشرة بعرض النافذة، سحب نفسًا عميقًا معبأً بالقَدَّاح والورود والرياحين،
وأجال بنظره في أشجار البرتقال المثقلة بزهورها البيضاء الكثيفة، ورفع رأسه إلى
السماء النيسانية الزرقاء الصافية.. نظر إلى ساعته ثم ألقى نظرة خاطفة على دادة
وسها ثم متم قائلًا:

- لقد تأخر هذه المرة ولكنها ليست الأولى.

ارتاح لانشغال أبيه وتهئية نفسه لآداء صلاة الجمعة في الجامع وإلا للسعت عيناه
تحت نظارته المتسائلة دومًا؛ إلى متى تظل تاركًا للصلاة؟

أما الأفندي فقد كان أكمل عدته للانطلاق في كلاؤه الأبيض ذي الدوائر السوداء،
ومعطفه الطويل وخطوطه الغامقة المتوازية الذي غطى بنظونه الرصاصي إلى ما
فوق الركبة وعكازته، مضى إلى الباب بهدوء تام وقبل أن يصلها التفت إليهم محدقًا
في وجوههم تحت نظارته السمكة التي عكست أشعة الضوء الساطع فقال يودعهم
بصوت أغن:

- خوا حافيز، في أمان الله أترككم.

ثم أغلق الباب وراءه.. حينها قالت دادة تخاطب سها بسرور بالغ:

- إنه ثمل بوجودك يا عروسة، الحظ معك؛ فالأفندي ليس من النوع الذي يرضى
على طباع وخلائق من حوله إلا في حالات استثنائية.. يبدو أنك المستثنية.

ابتسمت سها كاشفة عن أسنان كاللآلئ لكنها سرعان ما مدت ظاهر كفها لتخفيها.

كان نظر فرهاد لا يزال يجول فوق أشجار البرتقال وزهور الأشجار منتشيًا
برائحتها مبهورًا برائحتها حتى دعا في نفسه ألا ينقضي الربيع أبدًا، ولكن في نفس
الوقت أصاخ إلى كلمات أمه فعقب على ذلك بالقول:

- كما تقول دادة وأنا لي نفس الرأي؛ فقد عمرت عروستنا البيت بوجودها ودب فيه
النشاط.

ثم رمى بلحظ خفي على سها فرأها تنصت باهتمام والابتسامة الصغيرة لا تفارق
ثغرها الصغير، وأضاف دون أن ينظر إليها:

- وهو لم ينفك يتحدث عنك معي طوال الشهرين الماضيين وبانتظام بهذه العبارة:
بوجود سها لم أكسب ابنة فحسب بل أخًا اسمه ملا عبد الرحيم.
وحركت سها رأسها ما يدل على الشكر ثم قالت:
- وأبي له نفس الرأي.

تعلمت عيناها الواسعتان بالباب، لاحظ فرهاد وضبطها أكثر من مرة تشاور ساعتها
الذهبية والتي أهداها هو لها بمناسبة الزواج بتقطب، أحست دادة بشعورها
بالانقباض فمالت إليها تمسك يدها وتضعها بين راحتيها تطمئننها بلحظ مرح ولفظ
مشرق بالأمل، ثم قالت لابنها تحاول تغيير سياق الكلام وفي نفس الوقت فتح
موضوع مغلق:

- أتمنى أن أعيش طويلاً لأرى عروسة عريسنا.
وأشارت بسبابتها إلى فرهاد الذي احمر وجهه، انتقلت عينا سها إليه، لم يعلق فرهاد
بل اكتفى بابتسامة كالحة، أمّا دادة فجاءت بما يحرك فؤاده فقالت له وهي تنقل
بصرها بين ابنها والعروس:
- وجدت لك واحدة لو رأيناها لن ترفضها بل تشتري لها أضعاف الذهب الذي في
حوزتك الآن.

بدا فرهاد يميل إلى الموضوع وقد تغلب على ارتبائه فعقب قائلاً:
- وأين وجدتتها؟ في الشماعية؟
- يا لطفائك وحماقتك.

نهرته أمه بلهجة عتب ودلال، ضحكت سها ضحكة طويلة، ولم تنفع معها جهودها
في إيقافها إلا بعد أن قاطعتها دادة بالتساؤل:
- بنت حاجي شوكت؟

انتفض من مجلسه كمن لدغته حية وصاح:
- من؟! تلك الفتاة الدب سميرة! إنها ثلاثة وأنا واحد، ستخنفني في الفراش.
احمر وجه سها كالدّم المراق لهذه العبارة.

- وهناك أخرى.

أضافت دادة:

- جلييلة بنت سامي خياط.

- من تقولين؟

هتف فرهاد يرمق أمه بنظرات حادة وقال محتجاً:

- جلييلة هذه نصف نفر ستختنق في الفراش.

انفجرت سها في نوبة ضحك مستديم.. وواصل فرهاد بلا هوادة:

- يا دادة الله يسلمك أنت تخيريني الآن بين خانق أو مخنوق.

اشتدت نوبة الضحك عند سها وكادت أن تختنق، ذهب فرهاد وجلب لها الماء،

قدمها إلى سها التي نهضت بدورها قائمة قائلة له:

- شكراً كاكه.

والارتباك لا يفارق وجهها، ظلت دادة تبحث في غياهب رأسها عن خيارات أخرى

في تناول اليد، ووجدتها فشنت حملة أخرى مخاطبة ابنها وابتسامة الظفر تطفو

على وجهها الأبيض:

- هناك واحدة أخرى قريبة والأفضل قوله.. صارت من الأقارب؛ احزر يا شاطر.

قالت والتفتت إلى سها التي بدت كأنها هي كذلك تحاول أن تحزر، وحدث فرهاد

فقام وقرب فاه من أذننها بعد أن اعتذر لسها، همس فيها شيئاً وعاد إلى مجلسه،

أومأت دادة متممة:

- أصبت.

ثم بصوت تسمعه سها:

- مها هي المرشحة.. فما رأيك عروسة؟

صعدت سها زفرة خفيفة وفتحت فاهها ولكنها لم تنبس، حدث فرهاد ما أرادت أن

تقول فقال وكأنه يفسر سكوتها:

- ليس كل أم كأمي فاهمي يا أمي.

تبادل الثلاثة النظرات.. وثمة توافقاً زين ملامحهم المنقبضة، سمع فرهاد صوت

صداه في رأس سها:

- آخ يا أمي.. يا عاشقة الذهب والسيارات الفارهة...
- ساد الصمت وكأن ستاراً أسدل على الموضوع فجأة، لكن فرهاد أعاد عجلة الكلام إلى محورها فخطب أمه مسترقاً نظرة سريعة من سها:
- لولا الظروف لما وجدت خيراً منها.
- ثم ثبت نظره على سها لوهلة مضيقاً:
- خاصة انها أخت العروسة.
- شكراً كاكه.
- لفظتها سها وهي تسحب نفساً ببطء، وأردف فرهاد قائلاً:
- لننتظر قليلاً لأفكر بالأمر.
- غرق في تفكير عميق ثم رفع رأسه قائلاً لأمه:
- أنا فكرت جدياً هذه المرة، وبالأخص أن موقعي من الخدمة أصبح أكثر وضوحاً: لن أخدم البتة.
- تهللت أسارير دادة للخبر التي أسرعت بالقول:
- محظوظ الحمد لله... اقرأ المحورتين.
- تعني المعودتين..
- فسر فرهاد لسها التي ظهر تساؤل على وجهها، جاهدت ضحكة ألا تخرج، أحس فرهاد صعوبة موقفها فغير الموضوع قائلاً:
- لا يزال هناك خطر الجيش الشعبي.. لكن لدي فلوس (مال)، الرفاق فاسدين مرتشين جميعاً.. سأشتري حريتي بذهبي.
- أسرعت دادة بالرد:
- الذهب للزوجة لا للرفاق.
- انتقلت العيون إلى سها التي وضعت رأسها بين يديها، فمالت دادة إليها متسائلة:
- ما بك حلوتي.
- رفعت رأسها وقالت بصوت خافت:
- لا شيء دادة، صداع بسيط.

كان هناك شحوبًا ملحوظًا على محيا العروس، فقد انتابها اليوم الماضي نوبات قيء متقطعة، وكان فرهاد يقف طوال اليوم بعد عودته من العمل بجانبها يلبي كل ما تطلب مناصفة مع دادة، فقد كان فرهاد يكن لها إكبارًا ومودة غير عادية منذ الوقفة الشجاعة، الوقفة التي سماها بـ "غير المنسية"، وقفة لا تنسى لأنها ندت عن إنسانية ونضوج ونزعة الخير المتأصل في نفسها والصراحة، قبلت بأخيه رغم كلام الناس، بعد أن رفض طلبه من أكثر من جهة، وتحدثت إرادة أمها التي ما كانت لتقبل مهما كانت المعاذير والضغوط والأسباب لولا الذهب الغزير والسيارة الزرقاء والإغراءات الأخرى كالهدايا الثمينة التي أغدقت الأسرة عليها.

وضعت دادة رأس سها في جحرها وقالت لها مدارية مداعبة:

- ها قد مضى أكثر من شهرين منذ زواجكما لم أر ابني فيهما إلا في صعوده إليك ونزوله من عندك وتحياته العجلى.

ولم تسمح لها مكابدة الدفاع عن نفسها فأجابت نيابة عنها وثغرها تتفتق عن ابتسامة عذبة كماء النبع:

- إنه يحبك ولا ألومه في ذلك.. فإنه لم يتزوج إنسية بل حورية.

رفعت سها رأسها وقد توردت وجنتاها تعلن عن خبر:

- إنه يريد ولدًا واختار من الآن أسو، أفق، اسمًا له.

هتف الابن وأمه بصوت واحد:

- اسم جميل.

رفع فرهاد عينيه إلى السماء، قطع غيوم بيضاء تحجب قرص الشمس تارة وتجلو عنه تارة أخرى، والجندي فوق المبنى العالي يصوب ماسورة المدفعية المضاد للطائرات إلى الغيوم، وصبي في الطرف الآخر من الشارع مقابل النافورة يصوب مصيدته نحو عصافير ثلاثة جاثمة في صف متراصف على سلك الهاتف.

* * *

طال تأخر عدنان عن الوصول؛ فقاد فرهاد السيارة إلى المدينة مستفسرًا وعاد بعد ساعتين حيث كادت الشمس أن تغرب، وأخبرهم أن السائق الذي يعمل معه لم يعد هو كذلك هذه الجمعة، وذلك لأنهم تم تكليفهم بعمل إضافي خدمة للمجهود الحربي.

اطمأنت المرأتين ثم جاء باقتراح:

- أرى أن نجد لأخي مهنة أسهل.

ولكن اعتراض بابا له قضى على الفكرة قبل أن تولد إذ نوه بالخطر:

- وعندها سيجرونه ويلقونه في أتون المعركة.

كان فرهاد حاملاً لخبر شنيع ولكنه انتظر حتى الليل، وبعدما نام بابا وآوت سها إلى فراشها والحسرة تنهش قلبها والأرق يقض مضجعها، قص فرهاد على أمه ما ورده من خبر لدى زيارته لبית السائق، الذي يعمل مع عدنان وعثمان ابن خالته باجي عطية في نفس الشركة ولكن في خطوط متباينة، الخبر كان مفاده أن مشادة كلامية قد وقعت أخيراً بين عثمان وزوج أمه، تطورت واستفحلت إلى حد أن أخرج زوج أمه مسدسه وأطلق ثلاث رصاصات على رأس عثمان فأرداه قتيلاً ولاذ بعدها بالفرار إلى الجبال.

- وللتأكيد الخبر، أضاف فرهاد؛ ذهبت إلى حيهم ونظرت من خلال نافذة السيارة إلى الدار فإذا بلافتة على الحائط كتب عليها: تنعي العائلة فقيدها الراحل المأسوف على شبابه عثمان علي خضر الذي أغتيل برصاصات غادرة صبيحة يوم السابع عشر من نيسان من عام ١٩٨٥... الفاتحة على روح الشهيد.

كادت دادة تطلق صرخة لهول ما حدث لولا أن أطبق فرهاد بيده على فمها ناصحاً لها، مذكراً إياها بالأهم:

- حافظي على هدوءك دادة، نحن بحاجة إلى السيطرة على أعصابنا اليوم أكثر من أي وقت مضى، فاذهبي ونامي والصباح رباح.

أما فرهاد نفسه فلم ينم ليلتئذ، ظل يتقلب في فراشه، صور قديمة ظلت تتراقص وتدور أمام عينيه اليقظتين لم تكن لها علاقة به أو بعدنان، بل بابن خالته عثمان الراحل: يد زرباب، زوج أمه علي، تمسك بفردة حذاء ويرفعها إلى ما فوق رأسه أثناء الأكل بينما يضع بيده الأخرى اللقمة في فم ابنه الحقيقي نوزاد، ليقذفها بعد ذلك في وجه عثمان المسكين الذي ينطلق كالمسحور إلى خارج البيت وهو لا يزال يلوك لقمة حيل بينه وبين مضغها.

خرج فرهاد في عصرية متأخرة من اليوم التالي رغبة منه في التنفيس عن كربتيه؛ تأخر الأخ في العودة، ومقتل ابن خالته الذي كان له بمثابة أخ عزيز، فدار دورة كاملة في أرجاء البلدة فأخذته الدهشة والعجب لوجود هذا الكم الهائل من اللافتات الملصقة على جدران المنازل والمعلقة على طول الشوارع والطرق، وعلى كل لافتة كتبت بالخط العريض عبارة وكل عبارة تحتوي على كلمة شهيد، فتساءل كيف يكون مسيحي شهيداً وهو يقاتل في حرب طرفاه على دين محمد.

بعد أن أتم الدورة عرج إلى أقرب شارع، فسار باتجاه شارع الكنيسة، وكان الشارع الرئيسي في البلدة الصغيرة، وفي أثناء مروره وجب عليه الرد على تحية طلابه وزملائه إذ كان محبوباً وله شعبية من قبل أهل البلدة، وخاصة القسم الشعبي منها، كونه رجل مودرن عصري يشرب ويتمتع بالحياة، وقد عرف بالمدرس الطويل الساقين المرح المتواضع.

سار في الشارع كعادته بسرعة إلى أن بلغ نهايته؛ ومن هناك انعطف إلى شارع فرعي فدخله منطلقاً هذه المرة باتجاه منطقة الحقول والعراء الواقعة في الجهة الشرقية من البلدة، أحس بتعب فجلس على حائط مبنى منخفض في مواجهة حقول القمح والشعير، وجعل ينظر إلى السنابل الحديثة الفجة ذات الرؤوس المدببة الحادة كالإبر، ومن ورائها يمتد الشريط المرتفع الفاصل الممتد على شكل حزام منحني يطوق القرية من جهتها الشرقية، ووراء هذه المرتفعات الاصطناعية لاح لعينيهِ بيت الطين والبستان الذي يكتنفه حيث يسكن الولد آري الملقب بـ (ماست فروش) بائع اللبن مع والديه، وذو الوجه المعروف في الجوار إذ كان يأتيهم كل صباح باكر بلبن البقر الطازج، ومن وراء ذلك لاح له ملامح الـ (كلاوة) خربة السيد الذي كانت النسوة من الحي الإسلامي يزورونه تبرّكاً وطلباً للشفاعة والدعاء، ومن ضمن هؤلاء أخوه.

بعد أن نال قسط من الراحة في ذاك الدفء الربيعي المنعش؛ نهض قائماً ونفض التراب عن ملابسه، وسار سالكاً الطريق الترابي إلى يمينه حتى بلغ نهايته، ومن هناك انحرف بميلان نصف دائري فألقى نظرة على بيوت الطين أصحاب الأغنام

والحليب الطازج حيث بدى قطع من الأغنام يقترب من المكان عائدة من العراء على عجل، فتثير في الجو غباراً وتراباً وتحجب الرؤية عن الناظر وتملأ المكان ضجيجاً بثغائها وجلال الأجراس المعلقة برقابها التي تبشر وتنذر في الوقت ذاته بالعودة المرتقبة، ورغم التراب المتصاعد استطاع أن يتبين بين القطيع ومع رداء الرؤية رؤوساً ثلاثة: رأس إنسان هو الراعي وأذني حمار ولسان كلب لاهت.

ومن هناك انحرف إلى طريق ترابي آخر يكسوه الرمل والحصى، سار إلى أن بلغ النهاية ومن هناك وقف لتتراءى له من بعيد سيارتهم التيوتا كرونا تقف بكل عنفوانها أمام سور دارهم، وزجاجها الأمامي يعكس حزمة من شعاع الشمس الوهاج من بئرة في الوسط، وسلسلة متراسة من أشجار البرتقال واليوكالبتوس الباسقة تلقي بظلالها على الرصيف والشارع، ومن هناك مال إلى الحقول الغربية وتوغل فيها غير عابئ برخاوة التربة والطين والبلل والتي كانت يوماً ما مرتعاً ومسرحاً للعبهم ولهوهم هم الأربعة؛ هو وعدنان وأمير وعاشور.

عاشور الذي فقد ساقاً في حرب لا ناقة له فيها ولا جمل، وفي لحظة ما وفي بقعة ما أدرك أنه صار قريباً من ميدان الرمي للحجارة كيل كيلاني، ومن بعيد لاحت له الحجارة والساحة من الإسمنت التي اختفت معالمها تقريباً تحت الطين والعشب والأشواك، وحولها الـ (بلوكات)، الصبات الكونكريتية المتكسرة المتناثرة بغير انتظام، فهجمت الأحداث عليه من كل جانب صوتاً وصورة.

صرخة منبعثة عن ألم مترافقاً مع حممة الشقي وهو يتراجع إلى الوراء تأهباً للفرار بعد أن فعل فعلته الشنيعة، وصوت ارتطام الحجر برأس أخيه تعقبه صرخات متتالية مكتومة ورجلان ترفسان في الفضاء.. أين أنت الآن يا عدنان؟ بل أين أنت يا عثمان؟ تناجى وتأوه وهو يرفع ببصره إلى الأفق البعيد حيث الشمس تقف بميلان في كبد السماء.

استبدت به الذكريات المرة فحاول النجاة من غمام الأفكار السوداء، وبدون وعي منه استدار دورة كاملة عازماً مغادرة المكان المشؤوم على الفور، عاقد العزم على العودة إلى البيت لينال قسطاً من الراحة ليتهياً بعدها للنادي الليلي الخاص بالموظفين، وبينما هو في طريق العودة غير رأيه، استدار في منتصف الطريق وبدأ يسير من غير هدى إلى حيث ما لا يعلم، ثم أدرك في منتصف الطريق أنه

اتخذ دون وعي منه الطريق المؤدي إلى حقول القمح والشعير من جديد؛ احتار أولاً ثم اتخذ قراره، مضى في سبيله قدماً، مردداً في قرارة نفسه هل هناك أجمل من أن يمتع المرء عينيه في أوقات الغروب بهذه الحقول التي ينحسر عنها أشعة الشمس على مهل، والحزام المرتفع الترابي وما خلفه من العراء والأشجار التي تكتنف البيت الطيني والأبقار السارحة والطبيعة الخلابة للسهول المنبسطة بلا حدود والتلال البعيدة التي يحاذيها، وبينما هو سائر بين سلسلة من البيوت غير مكتملة البناء وأكوام من أكياس الإسمنت والطابوق وركام من الرمل؛ ترمى إلى مسمعه صوت نسائي يناديه من ورائه بنعومة وعذوبة فيما يشبه الهمس:

- فرهاد!

كان الهواء عليلاً محملاً بشذى الأزهار وعبير الورود، ورطوبة المساء المنعشة قد بدأت تلف البيوت، ومواشي القرية في طريق العودة، وكبار السن يتربعون على مصاطبهم الطينية أمام الأبواب، وثمة طيور في السماء تبحث عن مبيتها فوق الأشجار التي بدأت ذواباتها تنحني قليلاً أمام هبات الريح المسائية اللطيفة، والشمس تتدلى للالتحام مع الأفق، صراع الظلمة والنور عادة في كل شروق وكل غروب، والفرق في حال الشروق تكون الغلبة للنور وعند الغروب للظلام.

الصوت المفاجئ أوقفه في مكانه، وزاد في ضربات قلبه، التفت بسرعة غريزية إلى الورا ليجد نفسه في مواجهة امرأة فارعة الطول، شابة ترتدي بلوزة صوفية بيضاء فوق فستان أسود يمتد حتى الركبة ويحيط بعنقها وشاح أخضر خفيف، وهي تقف عن بعد عشرة أمتار منه تساءلت المرأة بهمس:

- هل أنت أستاذ فرهاد؟

فردّ عليها مذهولاً:

- نعم، أنا فرهاد، تفضلي سيدتي.

علت وجهها الصبوح ابتسامة ملغزة وقالت:

- فرهاد... أنت إذن فرهاد، ما أطالك يا زميلي هكذا! لا أبوك ولا أمك كانا بهذا الطول.

سرت الرعدة فيه وتراجع خطوتين إلى الورا ووقف في ظل العمود الكهربائي وهو يتساءل كالمصعوق:

- من أنت وما تريدین؟

فتقدمت السيدة إلى الأمام قليلاً بتبخر ثم توقفت وأخذت تحملق في عيني الشاب الوسيم، الذي وقف كالمحتار يتفحص وجهها المدور وشعرها الفاحم وأنفها المستقيم وشفتيها الحمرابين وجيدها الطويل العاجي.. تسمر في موضعه على حال بين اليقظة والنوم تحت تأثير هذا المخلوق الذي نزل عليه من السماء، والذي زاده حيرة ووحشة أنها نطقت باسمه ثم ها هي تحدّثه بكل ثقة وألفة عن والديه.

حدجها بنظره طويلاً كالمتساءل ولم ينبس، يصيغ إلى ضربات قلبه المتسارعة بين أضلاعه، لم يصدق عينيه لمنظر الشابة التي فاقت كل من رأته عيناه من الفتيات والنساء جمالاً وفتنة وإغراءً، اعتراه ارتباك حتى اختطف لونه، وفجأة وكأنه تذكر شيئاً فتساءل مخاطباً إياها بكل لطف ولباقة:

- ومن أنت؟ قد تكونين أم لتلميذ من تلامذتي؟

فجاء الصوت بنفس البرودة والهدوء وبنبرة أعذب من السمفونية، فجعلت تقترب أكثر في خفة وتبخر كأنها نغمة حلوة مجسمة:

- فرهاد تعقل، فأنا أكثر من ذلك بكثير، أنا أقرب إليك من هذا بكثير.

جفل فرهاد لكلمة تعقل اعتبرها إهانة، وطغت الحيرة على ملامحه المنقبضة، فقد اندهش للجملة الأخيرة، فأخذ يردد كلماتها بطرف شفتيه: أنا أقرب إليك من هذا بكثير؟ وظل يحدج فيها وكله شوق إلى معرفة ماذا ستتمخض عنه هذه المواجهة الغريبة والفريدة من نوعها في كل حياته، وفي هذه الأمسية الربيعية الساحرة بالذات، وبغته استدارت السيدة لتوليه ظهرها ومشت مسافة عشرة أمتار بعيداً عنه ثم استدارت وعادت لتقف حيثما كانت واقفة ثم وجهت سؤالاً لفرهاد:

- هل عرفتني الآن؟

لغز مستعص، المشية تذكره بشيء ليس بغريب، لو كان في رأسه دماغ خال من الهواجس لكان عرف ماهيتها، فجعل يتفحص الوجه بعناية مرة أخرى وهو يضيق بعينه محاولاً تركيز انتباهه، ثم ردد في نفسه: "إن هذا الوجه ليس غريباً علي، إنه يذكرني بوجه مألوف في الماضي ربما تكون إحدى زائرات دادة"، فرنت إليه بابتسامة عذبة دغدغت عوطفه وهيجت مشاعره بجبينها العريض الناصع وحواجبها المزججة، وخديها الممتلئين، وشعرها الكثيف الأسود القصير، كانت هيفاء بضة

ذات قوام رائع، قد ازدهر في بياضها الناصع حمرة اللهب، ذات عينين دعجاوين
أودعهما الله كل آيات الفتك واللفظ التي تتسامى على التعبير.

استقرت عيناه على شفثيها طويلاً إذ أثارت شفثاها في نفسه شعوراً غريباً بالألفة،
كانتا مكتنزتين غامقة الاحمرار.. لمعت في ناظريها وشفثيها الطريتين البضتين
ابتسامة هادئة ملغزة وقالت متسائلة وهي تنبش عينيه بنظراتها النافذة:

- فرهاد هل نسيت النبق؟

فأجابها فرهاد ببساطة المعلم الذي دأبه تصحيح الأخطاء:

- هنا لا يوجد نبق؟ النبق في الجبال.

وبغته بدأ شيء من أعماق الماضي يتحرك ويتقدم تباعاً وبتؤدة إلى الأمام، صور
ولوحات ومشاهد وأحداث تثب إلى رأسه وثباً كثيفاً، هناك باب يفتح عن سر مكتوم
وراءه كنز، أحلف أنني قد رأيت هذا الوجه وهذه المشية ولكن أين ومتى، لم يجد
الجواب حقيقة فترك الكلام للظنون والتأويلات، كانت أصغر ومن يدري لعلها
أكبر، الصوت ربما أكثر رخامة وربما أضخم، لست أدري وكل ما أدري أن لهذه
الصورة الرائعة صلة بالماضي.

استحضرت في مخيلته صور مئات الفتيات قابلهن وعشرات عاشرهن كصديقات،
كجارات، أمهات، زميلات، في الجامعة في المدرسة، في السوق، في الامتحانات
الوزارية، طالبات خصوصيات؛ فلم تتطابق صورتها مع أي منهن في المتنزهات
في الشوارع.. فوجد نفسه يسألها بتلهف:

- أنت أشبه بشادية، كانت إحدى طالباتي في الثانوية وقد ساعدتها كثيراً من أجل
النجاح.

هزت رأسها وشعرها المتموج بالنفي.

- فرهاد عمر! أنا أقرب إليك من هذا بكثير، فيما أظن.

قالت السيدة بصوت خفيض وهي لا تزال واقفة في مكانها في منتصف الشارع قبالة
سور غير مكتمل البناء، ثم همست تعدد مفاتيح الدخول إلى كنهها:

- النبق.

- الجبل الأسود.

- العقارب.

كلماتها وخزته من أعماقة.. اهتز لذكرها، لاحت له قلادة وفي نهايتها صليب تتدلى من جيدها، وعلى حين غرة بدأت ترن في أذنه أصوات غامضة لا يتبينها، وتترأى أمامه صور غير واضحة المعالم.. مناظر كالجبال، كالوديان، وعورة وهضاب ومرتفعات وتلال رمادية متلاصقة، فطفق يردد في نفسه مقطبًا: هذا الوجه يذكرني بالطبيعة والأشجار والطفولة، إنها آتية من أحضان تلال، في مكان بعيد مساكنه من الحجر، قطعها متراسة بشكل هندسي دقيق.. وهناك شخص غريب الأطوار رزي الهيئة له عيون البوم ومنقاره يتحدث عن أشياء غريبة في صخب ولغط، صور أطفال في ألعابهم في ركض وعدوهم وسباقاتهم المثيرة، عناقيد تتدلى من الشجر تحمل ثمرًا ليناً أحمر أو صلباً أصفر، أكياس مملوءة منفوخة، دوبيبات زاحفة، مراجل ضخمة وبخار كثيف يتصاعد كعمود من الدخان فوقها.

وفي غمرة أفكاره المتلاطمة تحولت أمام عينيه الصور من أجناسها إلى أعينها، ومن جملتها إلى مفرداتها، فتولدت من الجبال الشاهقة جبل أسود، وتمخضت من الصخور صخرتين توأمتين متلاصقتين، ومن الشجرة المنكفئة عليهما والمحتضنة لهما توت شامي، ومرعى خصب ترعى فيه الأغنام، وانصهرت الأحجار المتراسة أمام عينيه لتتحول إلى بيت ومدرسة من الحجر، وتبلورت المراجل إلى مراجل حليب.. ثم بدأ العد التنازلي لعملية الهضم الدماغي الذهني وبسرعة هائلة..

الصخب والركض مع القفز في أكياس من القنب الأسمر.

لم تكن هناك ساحة بل شارع من الإسفلت..

على جانب منه مرعى والآخر بوابة مدرسة رسمت عليها صورة طفل يمد يده الصغيرة إلى حقيبة.

الأشجار هي النبق والأعز فيها هي النبقة الأم.

هناك طائر جميل له منقار أحمر كشاي دادة ومشية ساحرة إيقاعية.

والدوبيبات هي العقارب.

عجوز غريب الأطوار وعصا.

ثمة رائحة نפט تملأ الفضاء في يوم سباق.
وتمخضت عن الأغاني كلها أغنية أم الفستان الأحمر.
وانجلت من الطماطم الشفاه المكتنزة.
كان الرجل الغريب الأطوار معلمًا لدرس التاريخ.
والطائر القبح..
والقبة كانت ترتدي فستانًا أحمر.
والقبة تميل وتتمايل على إيقاع أغنية أم الفستان الأحمر لمائدة نزهت.
والقبة تضع قبلات ثلاث متعاقبة على شفثيه هو، هو بالذات.
وغشي عينيه ظلام.
وتتابعت دقات قلبه في قفص صدره المضطرب الصاعد والهابط.
فتح الباب على مصراعيه، حان الولوج إلى المروج.
فلم يملك إلا أن يصرخ صرخة مدوية لينطق اسمها كالرعد المرتد من الماضي
السحيق، وهو يفتح ذراعيه الطويلين ويمد سبابته إلى التمثال الشامخ أمامه:
- كاترين؟! -

سكران بدون كحول عاد فرهاد وكلمات كاترين الأخيرة لا تنزل تجلجل كالجلجل المعلقة من عنق ماعز جبلي: "أراك غداً حبيبي، إن أردت، في بيت عمتي" ..

سار فرهاد مشياً لا وئيداً في اتجاه البيت؛ سالگا كعادته طرقاً فرعية، تحمله رجلان أصابهما الخدر وأخذ منهما الوهن من فرط اللقاء الحلم، فأخذ يسحبهما سحباً وراءه بل سحلها سحلاً تحدوه الآمال المشرقة، وجهها أضاء دنياه نوراً، كانت هي بالذات، نسخة مكبرة.. احتار كيف لم يتعرف عليها بلا تأخير، ثم عزا ذلك إلى ارتبাকে وشعوره بالتعب، صوتها هو هو، ومشيتها هي هي.

نشر الظلام أجنحته فوق الوجود والشوارع تكاد تكون مقفرة، نسمة منعشة محملة بشذى زهور البرتقال والورود والرياحين والعشب والأزهار البرية داعبت منخريه فازداد نشوة فوق نشوة، الشوارع تكاد تكون مقفرة عدا عن بعض العشاق ورواد النادي الغادين والرائحين كالأطياف، وأصواتهم ولغظهم وطريقة مشيتهم المترنحة وعطورهم الفواحة وملابسهم تشي بهم وبما يبتغون.

بعد مسيرة ربع ساعة خرج من منطقة الظلام ودخل في منطقة الظل المنبعث من مصابيح الشوارع، وفي اللحظة التي وضع قدمه على رصيف الشارع المفضي إلى مسكنهم لدى المنعطف إذا بصوت يناديه عن قرب بهمس: أستاذ فرهاد.. التفت جافلاً فإذا رأس مظل من سيارة سوداء كالليل تقف تحت إحدى أعمدة الكهرباء القريبة، تجمد مكانه، تملكه الدهول وارتعدت أوصاله، وما هي لحظة إلا وأطل من زجاج النافذة رأس ضخم مستدير ذو وجه أسمر، وشفتين سمراوين غليظتين، "إنه رفيق حزبي" غمغم مع نفسه مرتعباً، كانت العلامات الفارقة لرفاق الحزب الحاكم السمرة وضخامة الرأس والشفاه الغليظة، هكذا كان الانطباع العام عند الكرد على الأقل، ماذا يبغى منه في هذا الليل؟ حدث نفسه وضربات قلبه المتسارعة تصل أسماعه.. رأى الرفيق يخرج من باب السيارة، يتقدم حثيثاً نحوه، وها هو يقف وجهاً لوجه مع أبغض مخلوقات الكون عنده جميعاً، أحس هذا بفزعه فلم يتأخر فباشر بمطلبه قائلاً:

- أستاذ فرهاد، لقد كلفني الرفيق أمين سر الفرع أن أبلغك أن ابنه حسان ضعيف في مادتك.

تنفس فرهاد الصعداء والشحوب يصبغ وجهه بلون الموت، الرفاق كانوا كالجرذان يخرجون للأحياء فجأة من تحت الأرض، "وساطة إذن"، ردد في نفسه وقد خف صفرة محياه، ولم يكن ليس الأمر بغريب لديه، لم تفته حقيقة أن المدرسين مقدرين ومكرمون قبل فترة الامتحانات لسبب واحد..

أردف الرفيق البطين وهو يلتفت بحركة لا إرادية يمنة ويسرة:
- وسيادته يطلب منكم لو تفضلتم بإلقاء بعض الدروس الخاصة على ابنه في البيت ريثما يتقوى ويحقق النجاح.

وكعادته في مثل هذه المواقف سأله فرهاد قائلاً بعد أن عاد إليه هدوءه كاملاً:
- قل لي بصراحة هل الغاية تدريس وتقوية حقاً أم نجاح؟
تطلع إليه بعينين حمراوين وأجابه دون تأخير كأنه قد اعتاد على السؤال فكان متأهّباً للجواب:

- وهل هناك تقوية وتدريس من قبل جنابكم لا تؤدي إلى نجاح؟
ضحك في سريره.. نعم، الرسالة مفهومة، غمغم في نفسه، ثم وجه إليه سؤاله المألوف:

- ولو قلت اختصاراً أن النجاح مضمون؛ فهل تبقى لهذه الدروس فائدة ترجى؟
الرفيق وهو يبتسم تحت شاربته المجدول بمكر:
- لا أظن.

- وإذا قلت لك إن النجاح غير مضمون؟
سأل فرهاد ولكنه سرعان ما ندم ل طرح السؤال لأنه شمّ فيه رائحة التحدي، والرفاق كان أبغض شيء لديهم التحدي.

امتدت يد الرفيق إلى مسدسه بطريقة عفوية روتينية ثم خفضها متكلّفاً ابتسامة كالحة كشفت عن أسنان مسوسة مصفرة مسودة:
- إذن فلا بد من التدريس الخصوصي، أستاذ فرهاد.

وتلافياً من مجابهة مماثلة أخرى أو زيارة بيت الرفيق الأعلى؛ أثر فرهاد الطريق الأكثر سلامة.

- بشر سيدك بأنني لن أخيب ظنه.

وفي نفسه حسرة، وهمس في سره: "إنهم حتى يسرقون الدرجات"، وهو يضع قدمًا داخل سيارة سوبر تيوتا الفارهة قال الرفيق:

- شكرًا، ولا تنس أن اسمه الكامل هو: حسن فرحان التكريتي.

ردد فرهاد الاسم مع اللقب، ووقف يشيع باللعنات السيارة السوداء التي توارت عن الانظار بسرعة البرق في الظلام، فتمتم بطرف شفتيه المتبستين وقلبه لا يزال ينبض بوتيرة متسارعة: ويلك، قد يكون هذا التكريتي ابن عم صدام حسين التكريتي.. واصل سيره وهو لا يزال يلعن هذا المشهد الكريه الذي حجب عنه المشهد الجميل الذي التقاه تلك الأمسية السعيدة، "كاترين" ردها عدة مرات متلذذاً منتشياً.

في البيت وجد دادة وسها لا تزالان مهمومتين قلقتين، وقد افترشت كل واحدة منهما ذقنها فوق ركبتها في صالة الجلوس تجلسان هكذا في صمت مطبق، فراح وجلس قبالتها وهو إلى الثمالة أقرب منه إلى النباهة.. بدت دادة في عينيه أكبر سنًا في ردائها الأزرق ذي الورود السوداء، فقد دب الشيب في شعرها في الآونة الأخيرة وهي لما تبلغ الخمسين، يبدو أنها تركت عادة صبغه، سلم على زوجة أخيه ثم مضى إلى دادة ولف عنقها بساعده وهو يردد:

- جميلة، جميلة، أميرتي الجميلة.. غداً سأتيك بالخبر اليقين أن عدنان في طريقة إلينا الآن.

قال ذلك وقد لاح على اضطرابه انفراج ونشاط لا سابقة لهما.. في اليوم التالي وبهدوء أخرج السيارة من جراج أبو عاشور، فسار بها إلى المدينة مضطرباً أكثر من مرة إلى تغيير اتجاهه؛ بسبب تجمعات هنا وهناك حيطة وحذرًا من الرفاق وكمائنهم وشراكمهم لاصطياد الرجال للجيش الشعبي، والمُصطاد يجد نفسه عادة أمام خيارات ثلاث: دمك، أموالك، أو عرضك؟، وعاد بعد ساعتين بالخبر المريح:

- وجدت مسكن مدير المنشأة بعد بحث طويل، فقال مؤكدًا إن سبب تأخيرهم عمل إضافي كلفوا به لقاء مكافأة مالية، فانتظروا العودة في الأسبوع القادم.

أنس على وجه السيدتين انفرجاً بعد انقباض، فأضاف إمعاناً منه في الاطمئنان:
- وقد قمت كذلك بزيارة مسكن السائق الذي يعمل معه في نفس الخط وهو زميل لنا
من سنوات المدرسة، فقابلت زوجته التي بدا عليها القلق كذلك، ولكنها أراحت
نفسها بنفس الكلمات التي سمعتها أنا من المدير.

في الليل ظل فرهاد يتقلب في فراشه في غرفة النظافة، فأمامه غد رهيب، اللقيا مع
المعبودة المنتظرة.. فأطلق لخياله الشاعر العنان لاحتواء انبهاره لهذا البزوغ غير
المتوقع لشمسه في مساء المغرب، فها هو يحدث روحه كأنيس مشربه فيعيد ويعدد
محاسنها: صارت امرأة ويا لها من امرأة، هل خلق الله مثيلاً لها في الجمال
والكمال؟ ما أشبهها بالحسنات الغربيات في قامتها الفارعة وقوامها الممشوق
وهندامها وملبسها وبياضها وسيقانها الرشيقة الطويلة الملساء.. أكانت كاترين حقاً؟
كاترين كه و؟ كاترين كه ككه؟ أم حلم عاوده حاملاً إليه طيفها بعد أكثر من عشرين
عاماً؟.

نظر إلى نفسه طويلاً في المرأة يسوي ما تشعث من شعره الكثيف، ثم تتحى مرتاعاً
يتساءل: هل غدوت عدناً آخر؟ وها هو يجتر كلماتها أثناء العناق الحار:
- فرهاد أراك صرت رجلاً وسيماً، فيا لفرحتي بلقائك.

وإذا به وبطريقة عفوية يمد يده إلى شفتيه اللتين لم تتنوقا طعماً لقبله منذ ذلك اليوم
تحت شجرة أم النبق.

ألح عليه النعاس، أغمض عينيه وغطى رأسه لكن النوم لم يطاوعه، وظل طيفها
يراوده في عناد لطيف، سهر تلك الليلة طويلاً، حاول جاهداً أن يضع خطوطاً جديدة
تكون نقاط ارتكاز لمسيرة أيامه المقبلة، وراح يسترجع مشهد اللقاء؛ التفاصيل
الصغيرة منها وقلبه يهفو إلى لقاء قريب حار: "رائحة النبق انبعثت من ثيابها، هل
هناك امرأة لها مشيتها؟ كانت هيفاء بضة ذات قوام، أمّا شفتها السفلى المكتنزة
فكانت هي هي، والتجعيدة - الثنية - الواحدة في وسط شعرها الفاحم الكثيف المسدول
فكانت هي هي، ألم تنزوج؟ لا أعتقد وإلا لما عانقتني معانقة الحبيب للحبيب، أم
تنزجت وهي الآن أرملة لتلحق بآلاف الأرامل اللواتي أنتجتهم الحرب؟ هذه الفكرة
استبعدتها حالاً.

أطلق عنان مخيلته لذكريات الزمن الخالي: بابا يخرج له من تحت السرير صائحاً:
"أنت ناقص خاسر الدين والدنيا يا فرهاد"، وها هي سبافته الصلبة كرأس غصن
التوت البري متجهة إليه.. فصرر على أسنانه يضغط على كل حرف نطق به:
"سوف لن تحول حرب بيني وبينها"..
O
e
i
k
a
h
.
c
o
m

ثم عاد يحدث ويحاور نفسه بلا هوادة تحت طيات اللحاف: "عقدان ونيف في
انتظار عناق ليأتي أخيراً ولكن ممّن؟ من كاترين، قوس قزح طفولتي، ربما منقذتي
من شرودي وملجأ لدوائي في شبابي المعتم هذا؛ رائحة عطرها الفواح طغت على
رائحة إبطها المبلل.. ماذا جاء بها؟ وكيف عرفت بمكاني؟

في الليل وتحت جناح الظلام خرج فرهاد قاصداً الشقة التي وصفها له، سلك الشارع الرئيسي الذي يشق البلدة من الوسط إلى شطرين شبه متساويين؛ حيث تقع على طرفيه المحلات والدكاكين، محلات بيع الأيس كريم والدندورمة اللذيذة والشاورما والفلافل والشربت والبيسي كولا المثلجة، والذي يكتظ نهاراً وحتى ساعة متأخرة من الليل بالمارة بكل صنوفهم للشراء والتمتع بالتجوال والتقاء الأصدقاء والمعارف وتبادل الأحاديث والنكات، ومما زاد من أهمية هذا الشارع كونه يقع في منتصفه على الطرف الغربي منه الكنيسة الكبرى، لذلك سمي بشارع الكنيسة.

حينما ظهر له أن الشارع لا يزال مكتظاً بالناس؛ عرج إلى أول منعطف صادفه في الطريق، مضى يسير على عجل دون هواده فقطع المسافة بزم من قياسي، دخل في نهايته شارعاً آخر فرعي قديم من الإسفلت ظهر فوقه الحصو وتناثرت فيه الحفر، استأنف سيره بمحاذاة سلسلة من البيوت المتلاصقة الصغيرة تطل فوق سورها رؤوس أشجار البرتقال والليمون والحمضيات الأخرى وهي ترفل في بياض الفدّاح، أزهيرها البيضاء كالعرائس..

سار حتى بلغ في منتصف الطريق فسحة صغيرة دائرية الشكل، امتد فوق أرضها فرش من العشب الأخضر الفاقع اللون محفوفة بالزهور والورود المتعددة الألوان والأشكال، وانتصب في وسطها تمثال امرأة من برونز تحمل على كتفها كوزاً من الماء تنوء وتنمايل من تحته، توقف هناك يجيل ببصره ويدور حول نفسه متمتماً: لابد أن تكون الشقة هنا في الجوار، فلم يكد يخطو عشر خطوات إلا وجد نفسه يقف بجوار باب دار مطابق للوصف.

كانت واجهة الطابق العلوي مصبوغة بالأبيض ورسمت عليها صورة جانبية لأحد حواربي السيد المسيح يحمل في يده صليباً فضياً كتلك التي على صدر كاترين، وقد أسدل على المنافذ والباب ستائر من مخمل، وقف يحق بالصورة متأملاً، وتذكر أن أول لقاء بينهما وهما لا يزالان صبية كان في نيسان كذلك، جاءه صدى صوتها

القديم ورجع إليه طيفها الباهر من على الصخرة التوأم، الفتاة النحيلة الطويلة
وفستانها الأحمر:

- أنا أريد أن نكون أصدقاء فهل تودّ أن تكون صديقي؟

وصوته:

- ولكنك مسيحية وأنا مسلم.

هي بعزم:

- وما الفرق؟ الدين للكبار لا لنا.. نحن أطفال.. الله يحبنا.

خفض بصره فوق نظره على صورة لبلبلين متعانقين مرسومين على الباب وقد
تداخل منقارهما على هيئة قبلة، اقشعر جسده للصورة فتساءل بوحى من هذه
عمتها أو الآخرين أو هي من إحدى إبداعاتها هي نفسها؟، خفق قلبه بشدة غير
مألوفة، ولبث طويلاً هكذا بلا حراك، ثم أخيراً مد يده وضغط على زر الجرس
فرجع إليه صدى صوت ضئيل، فزاده ذلك انفعالاً وتتابع ضربات قلبه.

أجال ببصره فلاح له في الطرف المواجه بضع عجائز في مدخل بيت، يتجاذبن
أطراف حديث شيق مثير كما بدا من طريقة تحريك أيديهن دون أن ينتبهن إلى
وجوده، فارتاح لهذا الأمر، نظر إلى ساعته بارتباك فكانت تدور في التاسعة، لم
يطل انتظاره كثيراً إذ جاءه صوتها الناعم العذب من لا مكان:

- ادخل فرهاد الباب مفتوح واصعد السلم رجاء..

دخل بعد أن ردّ الباب وراءه، سار عبر الممر الفاصل بين البابين فهفت نسمة
محملة بشذا القداح - زهر البرتقال- على وجهه، فأخذ نفساً عميقاً ليشعر بنوع من
الخدر والخفة في الرأس، وجد الباب الصغير مفتوحاً فعبّر منه إلى غرفة مظلمة
معبئة برائحة فواحة أشبه بعبق الشراب المعنّق أو عصير العنب.

بلغ السلم ورفع رأسه لحفيف ملابس، اقشعر جسده حين رآها فوق السلم ترنو إليه
بعينين حالمتين نعسانتين، وهي تخطو بقامتها البديعة في الفستان الأسود الضيق
المتلاصق بجسدها الفارع الممتلئ وبلوزة صوفية بيضاء كلون بشرتها.. صعد
السلم أربع أربع وألقى بنفسه بين ذراعيها المفتوحتين، تعانقا للحظات تساءل بعدها
فرهاد بهمس:

- وعمتك؟

- ليست هنا، إنها كثيرة السفر والانتقال.

قالت كذلك وأخذت تتفحص هيئته وملامحه، ولم تتمالك أن هتفت بصوتها الأبح:
- سترة نيلية فوق البنطال الرصاصي، أنت لا تزال تلميذ جامعي في نظري، وأنا أرى هذا الزي أجمل الأزياء؛ إنها على الأقل تذكر بالعلم والوعي والثقافة.

صدرت عنه ضحكة قصيرة، فقال وهو يربت برقة على يدها الناعمة:
- شكرًا لك، فأنا أحب الأزرق، فألواني بسيطة: أزرق فاتح أو رصاصي أو قهوائي فاتح.

كاترين عادت لتحقق في ملابس صاحبها مليًا فقالت:
- في ذلك العهد كذلك رأيتك أكثر من مرة مرتديًا بنطالاً رصاصيًا وقميصًا أبيض وسترة نيلية.

وضعت يده في يديها فسرت رجة كهربائية في أعماقه، وسحبته بهدوء إلى غرفة واسعة نسبيًا والوحيدة على الطابق الثاني كما بدت له، أجلسته على كنبه صغيرة منتصبة بين كرسيين من الألمنيوم اللامع، وظلت هي واقفة للحظات، وقد انبسطت فوق أرضها سجادة مزركشة جديدة، ثمة خزان ملابس عتيق في أحد أركانها، وثمة منصدة خشب تتوسط الغرفة، وفي ركنها البعيد انتصب سرير على أربع قوائم غطي بشرشف وردي نظيف، لمح زجاجات وأقداح نصف مملوءة انبعثت منها رائحة الشراب المحلي، وقدحين ترسبت في قعريهما بقايا الشاي وحليب نيدو ذائع الصيت، ومكعبات سكر في أنية من الفخار نيلية كلون سترة فرهاد الجامعية.

أسرعت كاترين وقد لاحظت نظراته الجائلة وقالت بلهجة المعتذر:
- لا تأخذني، تناولنا بعض الشاي قبل خروجنا اليوم، وبسبب العجلة لم يكن لدينا متسع من الوقت للتنظيف، وأنا عدت قبل قليل.

بادرها فرهاد على الفور:

- لا داعي لهذا الإتيكيت فلست بغريب.

أضافت قائلة بصوت أشبه بتغريد الحجل (القبجة) وهي تباعد بين شفتيها كالرضيع:
- أنا ضيفة مؤقتة هنا.

قالت كذلك واتخذت مجلسها على كرسي قبالتها، فبدت هكذا لعيني فرهاد كأميرة بكل جلالها وباستواءها واستقامتها لا يضاهاها سوى جذع النبق، ولاحت الملاحه الحقة في بشرتها المضئية.

- وماذا بشأنها؟

تساءل فرهاد مستطعاً وهو يرمي ركبتيها العاجيتين بنظرة خاطفة، فأجابته وقد فطنت إلى ارتبائه:

- عمتي؟.. لا تقلق فهي تعرف كل شيء.

استقرت عيناها الخمريتان على صاحبها تتأمله متفحصة إياه من فوق إلى تحت:

- كيف تغيرت يا فرهاد، صرت رجلاً خشناً طول وعرض وشوارب.

- وأنت صرت سيدة حقيقية جذابة.. كاتي الزمن ينضج البشر كما تنضج الشمس الثمر.

قال وهو يتفحص أصابعها البضة فلم ير أثراً لخاتم ولا حلقة، فعلت وجهه علامات الغبطة والراحة، فجعل يتمتم في نفسه رغماً عنه: "حتى لو اندلعت الحرب العالمية فلن توقفني ولن تصدني عن هذه المخلوقة النادرة، لقد اخترت يا بابا فاطمئن والويل لمن يقول لا، لقد أرسلتها لي عناية السماء"، وعاد ليحدق في وجهها وقد لمعت في ناظريها وشفتيها الطريتين البضتين ابتسامة هادئة ملغزة، وقال بعد أن جرّ نفساً طويلاً:

- طيلة الوقت حسبنتني حالماً.

ثم أضاف وهو ينظر جهة النافذة المسدلة عليها الستائر المخملية، وحركات صدره الصاعد والهابط تشي باضطرابه:

- كم كنت أجيل النظر في السنوات الأولى من وصولنا إلى هذا المكان إلى ما وراء الجبل الأزرق، جبل سفين، عسى ولعل أرى صخرة ناتئة تطل من قمة الجبل الأسود وفي أحضانه وكنفه تعيش كاترين زميلتي وصديقتي الأولى.

ثم واصل بعد لحظة انقطاع:

- أم الفستان الأحمر.

- لا تزال تتذكر كل ذلك.

- بعودتك عادت كل الأصوات والصور.

- لقد بكينا لفراقكم طويلاً ولدادة أكثر، هي أمي حتى أن مام بطرس أصيب بمرض نفسي بعد رحيلكم، فكان يذهب كل يوم إلى الجبل دون وعي منه يجلس وحده لساعات شاردًا مكتئبًا يتكلم مع نفسه، وقد شاركنا الخيرون من البلدة نفس الشعور.

- كان يوماً عاصفًا في الخارج وفي قلوبنا زوبعة أشد هيجانًا.

- سبحان الله وكأننا كنا على موعد.

صوتها رجع إليه كالقدر المحتوم: كاترين الطفلة تنتفض من فرط التأثر وتمسح عيونها بسبابتها: أنا.. أبكي على أمي.. أمي الحقيقية.. فقد عاملتني زرداك، زوجة الأب، بقسوة.."، عينه استقرت على شفتها السفلى طويلاً فضحكت كاتي وتساءلت بدلال:

- هل هي كما كانت؟

اعتراه ارتباك ملحوظ لكنه تجاوزه إلى المزاح قائلاً:

- لا.. إنها كانت طماطم فهي الآن موز.

ضحكت ضحكة ساحرة طويلة عالية طغت ذبذباتها على مواء القطط خارج السور، كاشفة عن أسنان تتلألأ كاللآلي، فانسابت موسيقى عذبة داعبت قلبه، نغمة لم يراود مسمعه مثيل لها منذ الرحيل، فقال وهو يتأملها من جديد ملياً:

- صرت حسناء يا فتاتي، لم يطف بخاطري يوماً أن ألقاك مرة أخرى بعد كل هذه السنين يا كاترين، قلت إنها كانت حلماً راح ولن يعد، وها نحن ذا نجد أنفسنا معاً وتحت سقف واحد، يا لمشئنة الأقدار.

أنصتت إليه الحسناء بكل حواسها تتنفس بعمق وصوت، فلم تبدُ أقل انبهاراً وسعادة للمفاجأة.. قالت وهي تمد يدها لتلمس القرط الذهبي المتدلي من أذنها:

- وكنا صبية نبحت عن أوكار الأفاعي على سفح الجبل.

وقال فرهاد وهو يهز رأسه عجباً:

- حسبت انتقال النبق أمراً أهون من انتقال كاترين إلى هنا.

عاد صوتها من الماضي إليه قريباً وكأنه كان بالأمس: "أنا أريد أن نكون أصدقاء فهل تؤد أن تكون صديقي؟".

ثم أخذ يقارن ويوازن بين صورة الماضي والحاضر، كاترين موطن النبق، وكاترين موطن البرتقال، إنها حقًا صورة مكبرة من كاترين ليس إلا، وكأن الخالق رسم لوحة كبيرة لها نقلاً من صورتها الصغيرة القديمة، فأضفى عليها فتنة وإغراء، حتى الصليب المتدلى من عنقها المرمرى بدا في ضعف حجمه.

- أتعجب كيف لم أتعرف عليك للوهلة الأولى.

- كنت مرتبكا هذا هو السبب.

ساد الصمت لحظات كل منهما أخذ ينظر إلى الأرض إلى أن عاد فرهاد ورفع رأسه إليها متسائلاً:

- أتوق جدًّا إلى معرفة السبب الذي أتى بك إلى هنا.

فردت عليها بصوتها الرخيم:

- عمتي هنا.

هز فرهاد رأسه يعيد الماضي وقال متسائلاً:

- وهل تُنسى مائدة نزهت؟

أومأت كاتي بابتسامة إذ تذكرت أن فرهاد قال لها يوماً: ما أشبه عمّتك بالمطربة مائدة نزهت.. ثم قالت له وأفاضت:

- إنها سكنت زمناً في قضاء شقلاوة ثم انتقلت إلى المدينة هنا ثم عادت وسكنت في شقلاوة مرة أخرى ثم عادت إلى المدينة من جديد، ولابن عمّتي ابن يداوم في نفس المدرسة التي تدرس أنت فيها، هو الذي ذكر اسمك لي أسماء مدرسيه ومن ضمنها اسم فرهاد عمر أفندي فذكرتك واشتقت إليك، وقد تم لي زيارتين قبل هذه.

شهقت وقالت بشيء من المرارة:

- كنتم طيلة الوقت بهذا القرب دون أن أدري!

وضعت ساقاً على ساق واستوت في مجلسها فبدت ركبتيها البيضاء الممتلئة، ولأول مرة وقع نظره على خصرها الرشيق والمنطق (الحزام) الأسود البراق العريض المصنوع من الجلد يحيط وسطها وفقاً لموضة الزمن.. حدّق ملياً في وجهها متنهّداً، وكأنما يرثي السنوات التي قضاها بدونها.

مد يده ليتناول يدها في يده لكنه سرعان ما سحبها إليه، وجد أن اللمس سابق لأوانه، اعتدل وقال لها وعينه لا تتفكان تلتهمان عينيها الغزاليتين التهاماً:
- كاتي لم يطف بخاطري يوماً أن ألقاك، كاتي يا صديقة عمري وحياتي، الصدفة قادتك إلي... ويا لهذه الصدفة المباركة يا كاتي.

ردد اسمها متلذذاً كمن له نية في التهام الاسم.. هزت رأسها كمن تتدارك وأوضحت تقول:

- في الحقيقة سأقيم هنا لفترة محددة لأداء دورة تمرير فقد مارست المهنة التي تعلمتها من عمتي بصورة غير رسمية، والقصد من هذه الدورة تأهيلي كمرضة رسمية ذات كفاءة نظرية وعملية أي ما يسمى التطوير والتأهيل وهناك احتمال أن تعقب الدورة النظرية هذه فترة تطبيقية وذلك بالعمل في إحدى المستشفيات للاستفادة واكتساب مزيد من الخبرة العملية في المجال التمريضي.

سكنت عن الحديث لحظة استجمعت فيها أفكارها ثم عادت تقول:
- أعمل ممرضة في المركز الصحي للبلدة الذي انتقل إلى جوار بيتكم الحجري القديم، وأقوم إلى جانب التمريض بعمل القبالة.

لاحظ فرهاد أنها تضع مساحيق قليلة على وجنتيها الممتلئتين ولا أثر لأحمر الشفاه..
- وماذا بشأن مام بطرس وبنيامين؟ سأل فرهاد مستطعاً بشغف.
- مام، عم، بطرس قد بلغ من الكبر عتياً وتوفي في فراشه فجأة وهو لم يزل يتمتع بحيوية نادرة.

نظرت إلى البعيد وهي تمد ساقها أمامها فبدا حذاءها عالي الكعب لامعاً أمام عيني صاحبها، الذي ما لبث أن أحس بالرأس المدبب منه يداعب طرف حذاءه الطويل بصورة عفوية، وواصلت ما كانت بصده:
- وبنيامين، هذا المسكين، لم يلق إلا التعاسة بعد التعاسة.

تنهدت بصوت خافت وقد ظهر بعض التقلص في عضلات وجهها الطري ثم واصلت قصة الصديق الرابع وهي تكبت نزوعاً نحو البكاء:

- لم ينه الدراسة فلما بلغ السن القانونية أدى خدمة العلم وبعد تسرحه وجد عملاً في منشأة بناء الطرق والجسور ثم عمل مدة في التليفونات، حينها طلب يدي فرفضته معذرة، كان أية في الخلق والأدب ولكنه لم يكن له حظ من الوسامة والجمال.

وفي أثناء الحرب الحالية استدعي لخدمة الاحتياط، وكان حينها قد تزوج ورزق بطفلة سميها نبيلة، واستشهد ولما تتجاوز الطفلة أشهر عدة، زوجته الأرملة سونيا تسكن الآن كما كنا في الحي المسيحي وحدها مع ابنتها بمحاذاة المرتفعات الصخرية خلف مرعى المطران.

مناسبة جيدة لفرهاد لتوجيه سؤاله الأهم:

- وأنت تسكنين مع من؟

- وحدي؛ توفيت زرداك قبل عام ونصف العام.

- وأنت.. ألم تتزوجي؟

اهتزت للسؤال المباشر ولكنها استرجعت توازنها بعجل وردت:

- سستمع مني الكثير في الوقت المناسب، فرهاد، إنها حكاية طويلة، وباقتضاب وشمول أقول لك إنه جاء الشاب الوسيم مانوك ابن المطران يوماً إلي يطلب يدي فرفضته، كان ثرياً جداً فخفت أنه سيظن إنه اشتراني لا تزوجني، وخاصة أنني قد أنست في تصرفاته الكبرياء والشيمة الأرستقراطية الجوفاء، ثم جاء آخر ورفضته كذلك بعد ما تبين لي أنه رفيق حزبي الذين أكرههم كرهاً بلا حدود، ثم جاءني آخرون فكان لي في كل رفض سبب معقول وعلة صائبة، أو على أقل تقدير رأيها واقعية ومنطقية.

ساد الصمت برهة فإذا بكاترين وقد انقبضت أسارير وجهها الطلق انقباضاً تقول متسائلة بلهجة الشريك في المحن:

- وصل مسمعي أن عدنان أخوك قد أصيب في رأسه فجزعت له جزعاً شديداً، أحقاً ما يصفون؟

أجاب فرهاد بجزع:

- نعم، حجر أصاب رأسه أثناء اللعب، فعانى وعانينا من أثرها الكثير، ولكن الوضع مستقر الآن والحمد لله.

مسحها مسحاً بعينيهِ التواقيتين؛ صدر ناهد.. عنق عاجي طويل، عيون حور، حواجب مزججة، رموش سوداء طويلة وكأنها خلقت كما تشاء، فتساءل مذهولاً في قرارته: يا ربي كيف تجتمع كل هذه المحاسن والفتن في مخلوقة واحدة؟ أكل هذا

يتوافر في كاترين؟ أيا ليت عاد الزمن وعادت الشفاء لتلتقي.. وعودة إلى عزوبتها
واصلت كاترين:

- جوهر القول فإنه لم يحالفني الحظ حتى الآن، وأنت ألم تتزوج؟
ما كان أحوجه لمثل هذا السؤال وكأنها بلسم لجرحه، فأجاب يسرد قصته بملء قلبه
وإحساسه:

- أراد أهلي أن يختاروا لي شريكة حياتي فرفضت، فوالدي يريد فرض إرادته في
مسألة الزوجة الصالحة، وعاندت أنا وصددته وأصررت على أنني أنا المسؤول في
الاختيار، وفي غمرة النقاش والجدال والإثارة المرافقة لهذا الموضوع الحيوي
الحساس حدث لوالدي نزع معوي نجى منه بأعجوبة، ومنذ ذلك الحين نسعى دائماً
جاهداً في أن لا نثير عاطفته ولا غضبه.

عيناها التقتا أكثر من مرة، النظرات أفصحت عن عواطف ومشاعر متقاربة إن لم
تكن متطابقة.. عينا جائعتان ظامئتان ترومان الري العجل، امتدت يدها اليمنى
بصورة تلقائية إليه فأودعهما بين يديه يفركهما فرغاً خفيفاً، فأحس بنعومة تعادل
نعومة الحرير الطبيعي، وقال وهو يحرق بعمق في عينيها السوداوين:

- إذن كلانا عازبان.

وردت كاتي وهي تشد على يديه:

- هكذا شاء القدر.

ثم استدركت قائلة:

- وصدق لو قلت إنني لا أزال عذراء!

امتد طرفه بصورة عفوية إلى صورة مريم العذراء والطفل في حضنها المعلقة على
الحائط أمامه، ثم انتقل إلى الستائر المخملية النظيفة المسدلة وإلى ضوء الكلوب،
المصباح الكهربائي، الذي يلقي بضوء ضئيل على الأرجاء فيضيف بذلك جواً
رومانسياً مؤثراً على الغرفة، وقال وهو تحت تأثير واضح من اعترافات صديقه
القديمة الجديدة:

- وكأننا كنا على موعد بعد أكثر من عقدين يا حبيبتي..

امتدت اليد اليمنى لفرهاد تلقائياً إلى شفتيه، فتذكرت وذكرته:

- وأزورك علمًا أنه لم تمس شفتي هاتين شفة غير شفاهك منذ أن كنا أطفال.

أخذ فرهاد يدندن مع نفسه كالسكران: هات أيها الساقى... هاتها كؤوسًا مترعة من هذه الراح، لكي أنفض بها من قلبي أحزانه، ولكي أغدو مخمورًا بحرارة لذعها ويسكر مني العقل بنشوتها، أصاغت كاترين السمع بكل جوارحها، ثم أخذت تتمتم شاردة كالمسحورة:

- شاعر أنت، حساس أنت فرهاد كما عهدتك.

النار توقدت واللهب دبب في الأوصال لدى أول لقاء، العرق بدأ يترشح من على جبهته العريضة التي امتد عرضها بفعل زوال بعض الشعر من مقدمة رأسه، ألقت بيدها على كتفه الصلب تجذبه إليها بحنان هامسة له بصوت كالهديل ونغمة أقرب من نجوى الملائكة في الأثير:

- هيا بنا نلعب إذن بمناقيرنا كالبلابل يا فتاي، ألا تعتقد أن ذلك إرادة الرب قبل أن تكون إرادتنا يا حبيبي الأول والأخير؟.

صار رجلاً فارع الطول وسيم الملامح، سمرته داكنة، في عينيه العسليتين تضيق، نظراته حادة، فم تتداخل شفته السفلى قليلاً في العليا حين الانطباق، توسع ضئيل في فتحتي أنفه، بدت عينه اليسرى أقل جحوظاً؛ والسبب هو أن اليمنى ازدادت دكنة وبروزاً نتيجة تعرضه للحر ولفح الهجير طويلاً كسائق نقل بري يجوب البراري والصحاري.

وبسبب سمرة خديه؛ بدت لحيته بلون بني فاقع غامق، في الممر انحنى وقبّل يدي دادة التي جذبتة برفق إلى الداخل وهي تهتف: بشرى سارة، بشرى سارة.. ترك البقجة القماش التي كان يحملها بيده تقع على أرض غرفة الجلوس، بينما اليد الأخرى ما زالت تمسك بقلنسوة رأس سميكة، ونظارات سوداء مضيئة الأطر مذهبة الزوايا خلابة جالبة للنظر تتدلى من رقبته وتستقر على صدره، فاغر الفاه تسأل مع نفسه ماذا تتطوي البشرى من خبر.. زقت إليه أمه خبر حمل سها المؤكد، وأبلغته أن سها هي التي أرادت أن تكون هي المبشرة لا هي تكريماً، قفز ثلاث قفزات ووثب ثلاث مرات يضحك ويصرخ كمن أصابه مس.

قبضت على عنقه الصلب بيد وهزته من منكبه بيدها الأخرى الذي كان يضارع الخشب متانة، وهي ترفع رأسها إلى السماء لترسل بعبارات الشكر والفخر إلى الحي الوهاب، دفعته برقة إلى أولى كنبه في الغرفة، وراحت تنزع حذاءه المترب ذا الكعب العالي والحديدة المثبتة حول حافاته.. بعدها قالت له بلهجة الأمرة:

- أولاً الحمام.. ملابسك في حالة يرثى لها.

ثم أضافت وهي ترمي إليه نظرة عتب:

- أمّا حان أن ترتدي غير هذه الملابس، فلست راعي بقر يا وليدي!

اعترض عدنان قائلاً:

- دعك من هذه الملابس فما هي إلا ملابس عمل وستجدينى مساء بثياب تروقك.

ذهب للحمام ومضت دادة تعد له الطعام المفضل لديه.

عندما عادت سها من مدرستها الفراشة البيضاء كان عدنان يلمع نظافة، يرتدي دشداشة، جلباب أبيض خاص بالصلاة وطاقية رأس بيضاء، وقد مشط شعره الكثيف وحلق ذقنه فبدت سمرته أقل دكنة بعد زوال الغبار والأتربة عنه، فألقت بنفسها بين ذراعيه بعد أن اطمأنت من عدم وجود رجل في الغرفة، أشار إلى بقعة التي طرحها على الأرض هامساً في أذنها:

- فيها ملابس الأطفال.

انحنى جذلة، التقطتها وحلتها.. وعاد فرهاد من المدرسة بعد وصول سها بعشر دقائق فتبادل الأخوان القبلات على الخدود، وعاد بابا من الجامع بعد أن صلى العصر فاجر الفاه ينظر بفمه ويشم به، الفتحة الوحيدة التي سلمت من هجمة الكهولة، فقد قارب السبعين، فانحنى عدنان وقبل يده ولثم هو جبينه وراح يشمه شماً ويغمغم: الحمد لله صاحب المنن فقد أعادك بالسلامة، ثم مضى إلى الأريكة يمسك بيده عدنان ويساعده في الاستلقاء.. وعادت دادة وجلست على طرف الأريكة الكبيرة ذي الغطاء الأحمر، وبدأت تعلن عن مخاوفها وكأنها تتكلم بالنيابة عن الجمع:

- كادت قلوبنا تتفطر لغيابك يا عدنان، أين كنت لقد عذبتنا وأرقتنا لثلاثة أسابيع كنا نعد الدقائق فيها.

جلس عدنان بين أخيه وزوجته فأجاب مطمئناً وباقتضاب:

- ألم تعلموا أن التأخر أمر طبيعي لسائق الشاحنة، ركاب وأكوام بل تلال من الصناديق كانت ولا تزال مكومة على الحدود مع الأردن لا ندري من أين تأتي كل هذه.

لاحظ فرهاد وهو يتفحصه بعناية أن السمرة الداكنة قد أخفت بعض الأخاديد والخدوش والندوب من حول عينه اليسرى والشعر الطويل قد كسا الحفرة، ربت على كتف أخيه وقال وهو يميل إليه متفحصاً:

- لقد تغيرت يا عدو، (أي عدنان)

- أنت كذلك كدت ألا أعرفك.. ماذا جرى لك؟

أبدى إعجابه عدنان ناقلاً بنظراته بين دادة وسها وأبيه الذي وعلى غير عادته فضّل الاستماع على الكلام هذه المرة، ثم أعاد عينيه لتستقران من جديد على أخيه وملبسه البالغ في التأنيق تتفحصه فقال معلقاً بنبرة تنم عن هزل:

- ما بال كل هذه الشياكة؟ ماذا دهاك؟ لم أر لها مثيلاً من قبل، لو كنتَ مراهقاً لجزمت بأنك...

قطع كلامه ولم يزد، وبدلاً دنا منه فهمس في أذنه مواصلاً ما انقطع:

- لجزمت بأنك عاشق.

ثم جعل يطيل النظر في هندامه ويغمغم بصوت مسموع عال وهو يعتمد إثارته وإسخاطه:

- بنطلون جينز جديد، شعر مصفف طويل، وجه يلمع، وعيون تشع كأنها عيون العشاق- نطق هذه الكلمة همساً-، قميص أزرق فاتح رقم سبعة، V، وحذاء جديد وشارب مشذب منظم والكولونيا الفواحة الأصلية لا العادية التي نستعملها نحن الفقراء.

رمشت دادة لهما وقالت بابتسامة مازحة:

- وما يدريك لعله يخفي علينا أمراً ذا شأن، كل ما أعرف عنه أنه يطيل الوقوف أمام المرأة هذه الأيام.

كل هذا وفرهاد ينصت بلا مبالاة وكأنه الأطرش في الزفة، وكان لا بد للحجر أن ينطق ولهذا أوغل عدنان في الإزعاج فقال متابعاً ومعرزاً إدعاء أمه:

- وصارت المرأة له الصديق الصادق، لا شك أن كل من ينام في غرفتي يصاب بداء الشك.

ضجت الصالة بضحكة قوية من أربعة أفواه، أمّا الفم الخامس فقد انفتح كذلك وراح يتطلع الوجوه بابتسامة عريضة عبرت عن استحسانه لنكتة عدنان، فأخذ يهز رأسه إلى الأمام وإلى الوراء مبدئياً هكذا ابتهاجه للفرحة الغامرة، والبقع الرمانية تشع بفعل حزمة من أشعة الشمس نفذت من فتحة الستائر.

ونطق الحجر فرد عليهم باقتضاب أملتة حالته العاطفية، فمذ التقائه بكاترين أخذته أعراض كسرعة النبض والأرق وقلة الشهية والذهول، فقال وهو يحملق بتعمق في وجه أخيه:

- الحمد لله للحية التي قتلتها داخل ملجأهم - وهو يشير إلى سها- ولو كان عقرب لما رضت بك هي بل أختها الصغرى.

ضربة مزدوجة سددها، أثار رعباً في القلوب وضحكة عارمة في الوجوه، لم يزد عدنان وأخذ يربت على كتف أخيه دون وعي، وكان عدنان وسها قد تبادلنا نظرات صامتة طوال الوقت، نظرات معبرة غنية عن التعبير اللفظي، وأكثر من مرة وجد نفسه يحرق في بطنها فلم يلحظ ارتفاعاً ولا أثراً مرئياً يؤيد النبأ العظيم، ولحظته دادة وعرفت ما يكمن وراء نظراته الغريبة فصاحت به بصوت فيه بحة يسيرة:

- تمهل، تمهل وترفق إنه سيرتفع وسترى، إلى حد لو أردت معانقتها بعد أشهر من الآن لوجب عليك أن تمد رأسك مترًا إلى الأمام كي تصل إلى وجهها.

انفجرت الأسرة في ضحك متواصل إلا سها فقد غضت حياء، فطفقت تنتظر إلى الأرض متوردة، وتبدل وجه عدنان فصار يضارع الشوندر حمرة، أما الأفندي فقد رفع عكازته في اتجاه فرهاد هاتفاً بصوت أجش قوي النبرات، أوتار صوت بابا لم تضعف بل زادت قوة بمرور الزمن، وهذا الأمر فطنت إليه دادة قبل أي كائن، فصدر عنه صوت رجالي أجش ليعزف على اسطوانته القديمة:

- وأنت، أنت أيها الأخ الأكبر، ما هو شعورك الآن وما هو أخوك الصغير قد أنتج ذرية؟

اقشعر فرهاد اقشعراراً منكرًا لما سمع، ولكنه لم يجد في غير الصمت المطبق حيلة وملاذ، وهرعت دادة إلى زوجها توكزه في جنبه وتهمس له: إنه ليس بالوقت المناسب الآن، ولكن بابا واصل هجومه بلا هوادة، وكأنني به قد وجد في الاجتماع الشامل للأسرة مناسبة مؤاتية من أجل إحراجة وأنه قد خطط ودبر لهذا سلفاً، فخاطب نجله مقطباً ونبرته تزداد حدة:

- ألا تزال مصرًا لحين انتهاء الحرب؟ يا لسفاهة رأيك، وهبك الله عقلاً ترزق به.

لم تطق دادة سماع أية كلمات جارحة بحق ابنها، فقامت من مجلسها تلهث وتمسح العرق من على جبينها بطرف كم ردائها الطويل المخملي الرماني، ثم اعتدلت ووجهت طرف سبابتها إلى بابا وقالت بصوت مرتفع غير مألوف:

- لا يستمع أحدكم إلى ما يقول، ولا تبالوا به، يبدو أنه بدأ يخرف ويهذي، أنتم يا شباب تمتعوا واضحكوا ما شاء لكم، اليوم احتفال الشباب.

قالت كذلك وهي تشير بسبابتها إلى وسط صدرها، قاصدة بذلك أنها هي كذلك معودة من بين صف الشباب مستثنية زوجها.. ولكن صوتها وكلماتها لم يردعا الأفندي الذي استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ثم نهض قائماً مبعداً بين رجله، بارزاً بصدرة ورمى فرهاد بنظرة خاطفة نارية وجعل يكلمه صائحاً متوعداً وسائر جسده يهتز انفعالاً:

- يا ملحد يا تارك الصلاة، استحي واتخذ من أخاك الأصغر مثلاً يُحتذى.

الوجوم على الوجوه، أرادت سها أن تغادر الصلاة فأعاقها عدنان بجر طرف غطاء رأسها من طرف عضدها برقة متناهية، فجفلت خشية أن ينزاح الغطاء وينقلب حينها بابا عليها.

استسلمت دادة ولم تبد أية مقاومة أخرى، إذ كانت تعرف أن زوجها لو خرج مرة عن طوره فمن الصعب إعادته إلى سابق عهده، فتقلصت ملامح وجهها وعلا الشحوب خديها النديتين المرتفعتين، وجالت عيونها الغائرة الحيرى في فراغ الصلاة بلا مرمى ولا مستقر، وكمحاوله أخيرة لرأب الصدع قالت مهدئة مخاطبة زوجها:

- لقد وجدت له فتاة جميلة وكنت أخفي الخبر عليكم ريثما يعود أخوه.

انتفض الأفندي كمن وخز بإبرة.. وتوسعت حدقتا عيون فرهاد وتبادل عدنان مع سها النظرات التواقة لما يعقب البلاغ الخطير، ارتسم سؤال واحد على الوجوه: من هي هذه المرة البنت الحلال؟ فجاء جوابها وعلى شفتيها الرقيقتين الصغيرتين ابتسامة تنم عن اعتداد بالنفس:

- انها نسرين بنت الحاج عزيز.

رفع بابا رأسه واعتدل من جلسته وبدأ أنه راض تماماً بالاختيار، فالحاج عزيز كان جاره الثري ورفيق دربه في الجامع وصديقه في الملمات، فأعلن عن موافقته ومباركته للفور قائلاً برصانته المعهودة:

- ليس هناك فتاة أليق بابننا وأسرتنا من هذه ومن أسرتها، بأشروا غداً وتقدموا لخطبتها، قبل أن تقع أعين الآخرين عليها.

دادة وهي تنظر جهة فرهاد الذي ظل ساكناً لم يدر بحاله أحد، مفارقة مضحكة مبكية رآها، فبينما هو يعتقد كل الاعتقاد بأنه قد اتخذ قراره بشأن الزواج، فإن

والديه يسعيان في الوقت ذاته إلى تزويجه من فتاة لا يرغب فيها لا من قريب ولا من بعيد.

رأى أن الأمر قد طغى وجاوز الحد، وبما أنه قد طور وبمرور الزمن مناعة ضد الهجمات والغارات المنتظمة من لدن والده، وبالرغم من أنه لم يبدر منه يوماً كلام جارح أو لفظة غير لائقة بحقه؛ إلا أنه في نفس الوقت آمن بحقوق الدفاع عن النفس عند الضرورة القصوى، ومن أجل ألا يقع كلامه ثقیلاً على القلب وخاصة هم في يوم احتفال كما شاءت دادة وصفه، فقد ابتكر وبالخبرة والممارسة طريقة ناجحة تجمع بين الجد والهزل، فقال مخاطباً الثلاثة دون أبيه وهو يتكلف ابتسامة منشريحة: - والحق يقال إنها بنت صالحة ومؤدبة ومهذبة وبنت أكارم، وأنها ثرية جداً، يسيل لها لعاب عشاق المال، ولكنها كما أرى لها عيب تمنعني من التقدم إليها...

انقطع عن الكلام ومدت الأعناق متسائلة بغم واحد:
- وما هو؟

فجاء ردّه ليقع عليهم كالثلج:

- عيبها، نقطة ضعفها، شينها... أنها دويبة، سمينية، تصلح لزوجين معاً.

صعقت دادة للرد السريع وتراجع بابا مذعوراً خائباً إلى الوراء وألقى بنفسه على الأريكة، ولطم رأسه اللماع براحة يده فصدر عنه صوت كانفجار باللونة هواء، وكنتم هناك عدنان ضحكة، تعينه على ذلك سها التي جاهدت من أجل ذلك في إلهائه بأمر آخر، كانت تعلم جيداً مدى علو مكانة بابا عنده، حيث كان يحبه حب عبادة، أما فرهاد فقد قام من مجلسه واستقام وبدا فرعه الفارع كعملاق بين الأقزام، أجال بالوجه دون وجه سها التي غابت لجلب بعض المثلجات فقال بلهجة العازم على أمر خطير:

- عما قريب سأسمعكم قراري، أنا كما قلت إنها شريكة حياتي، أنا حر في اختياري.

شهقت دادة وهي تشبك يداها في حضنها وقالت بهدوء وصوت هامس:

- أمنت بالله، من هذه الناحية فلك الحق كل الحق يا ابني.

وعلى حين غرة استفاق بابا من الصدمة، فقد بدا في شيخوخته أنه كان يحب الكلام من أجل الكلام مهما كانت مادته ومحتواه، ولم يخلُ كلامه في معظم الأحيان من تعليق ساخر أو مفارقة هازئة، فرمق زوجته متسائلاً:

- ماذا يقول هذا الطفل الطويل الساقين، الحاج حاج لقلق!

انتكاسة بابا قبل قليل منع عدنان من الجهر بالضحك إشفافاً به، فما يوقف زمجرة قهقهته هذه المرة؟ ها هي يده تمتد إلى بطنه أولاً ثم ينطلق مسرعاً إلى خارج الصالة تتبعه سها لتتفجر حنجرتة في المطبخ في ضحك غير منقطع، ضحك إلى الهدير والرعء أقرب.

وعادت سها بعد دقائق بأطباق الجلي والكاسترد وجعلت ترصها على المنضدة، إلا حصة بابا فوضعتها على صينية خاصة قبالتها قائلة له منحنية:

- تفضل بابا.

وعاد عدنان إلى مجلسه وقد تورد وجهه وازرورق.. الفرصة سانحة إذن لدادة أن تلهي بابا قليلاً بإحالة كل الأمور إلى الحي الذي لا يموت فقالت مخاطبة إياه:

- إن كل شيء قسمة ونصيب، أفندي، إنه لا زال شاباً يافعاً، أفندي لا تلج عليه أرجوك، كفّ عنه دعه يفرح، نحن والحمد لله بخير.. انظر كيف استحالت الألوان سواداً، فالسواد يحجب حتى نور الشمس، لو بحثت في كل السوق فلن تعثر على ياردة واحدة من اللون الأسود ولا الأبيض، هذا لمجالس الحداد وذاك لصنع الأكفان. واغرورقت عينا دادة بالدموع، الأمر الذي دعا بفرهاد أن يحيط كتفيها بذراعيه يهددها بهدوء ويربت على كتفها، ثم جذبها برفق إلى حيث يجلس أخوه وسها فأجلسها بينهما، أمّا هو فقد انحنى على ركبتيه قبالتها وأخذ يكلمها وأخاه كلاماً واضحاً جاداً صريحاً هامساً:

- مهلاً، مهلاً، سوف تسمعون قريباً من ثغري النبأ السعيد، ولكن عليّ بتدبير وتهيئة بعض الأمور قبل الإعلان والكشف عن ذلك.

بعدما سافر عدنان تهادى الأفندي في إصراره والضغط على فرهاد للزواج من نسرين بنت الحاج عزيز، وكدأبه فقد لجأ في بعض مشاداته الكلامية إلى استخدام عبارات مؤذية جارحة، ليتلقى ابنه الضربات بصبر، ويرد على والده الهرم المريض بأدب جم لا يتجاوز حدود الأدب والنزاهة، فقد كان أبوه مثله الأعلى ومصدر وينبوع علمه ومصدر معلوماته الغزيرة، يكن له إعجاباً.

ولكن هجمات الأفندي كانت مسعورة متلاحقة هذه المرة، وبالنتيجة اضطر فرهاد في بعض هذه المشاهد أن يبيت عند كاترين الليل بطوله، مستمداً منها السند والقوة والحب.. ولم تهدأ فورة وثورة بابا إلا بعد أن جاء سها المخاض.

ارتدى معطفه الفروي الطويل، ولف عنقه بشال صوفي ثقيل ثم خرج يبغي مامان، القابلة، انطلق بالسيارة إلى بيتها، طرق باب البيت فلم يُفتح له، نظر إلى ساعته فكانت تدور حول الثانية عشر، نظر حوله فلم يجد غير الظلام وأصوات محركات سيارات من بعيد.

كانت هناك قابلة واحدة في البلدة اشتهرت بالمهارة والخبرة، كان فرهاد قد ذهب مع دادة إلى مسكنها الواقع في أقصى الشمال من الحي الشعبي وذلك قبيل ميعاد حدوث الولادة بأسبوع، ووعدتهم أنها ستكون مستعدة تمام الاستعداد للمجيء في اليوم الموعد، والآن تبين له أنها لم تبر بوعدها فعاد خائباً، توقف أمام دارهم وفتح شباك السيارة قليلاً فلسعه البرد وأصاغ السمع برهة؛ فأتاه صراخ زوجة أخيه في نوبات متقطعة، يرتفع حيناً وينخفض حيناً.

قرر عدم الدخول بلا جدوى، فخطرت بباله فكرة، انطلق بالسيارة قاصداً المدينة، ولكنه اضطر أن يعود أدراجه، فقد اعترض سبيله أشخاص في ملابس عسكرية في نقطة السيطرة والتفتيش، أمره أن يعود من حيث أتى وأهانوه لأنه لم يكن على علم بمنع التجول المفروض في تلك الليلة.. لم تقد توسلاته، وعند نزوله من السيارة تراءى له شبح دادة من بعيد واقفة أمام بيت الجارة، وبدت من حركات يدها وعبوسها أنها كلت يداها من الطرق، التفتت إليه تلوح بيدها بتوتر بما يعبر عن التساؤل: أين هي؟ اقترب منها قائلاً:

- لم يفتح لي أحد.

- إنها ستموت من الألم.

صاحت دادة والبخار يخرج من فمها من بين ثنايا الشال الملفوف حول عنقها ورأسها، وهي تنتفض كالصفورة في الماء من البرد والفرع.

- آه!

صدر هذا الصوت عن فرهاد وهو يشير إلى أمه أن تسرع إلى سها، أمّا هو فمضى لاستدعاء قابلة أخرى، انطلق بالسيارة على عجل متوجّهاً إلى الحي القديم، وتوقف أمام نفس الباب الذي رسمت عليه صورة البلال العاشقة.

كانت كاترين قد عادت للمرة الثامنة إلى المدينة في غضون الثمانية أشهر الماضية من أجل تكملة دورتها التطبيقية كمرمضة ممارسة في المستشفى العام في المدينة، وأقامت في شقة عمتها، ليقضي معها فرهاد أحلى أيام حياته كلها وبالسرية التامة والحذر، وهناك في الشقة أفهمها فرهاد بخطورة الموقف فلم تتردد لحظة، وقبل الانطلاق قال لها:

- خطرت لي فكرة؛ وهي أن نستغل هذه المناسبة في صالح علاقتنا السرية باتباع مخطط متدرج؛ أولاً تقديم هذه الخدمة لسها، ثانياً التعارف مع أهلي، ثم ثالثاً إطلاع دادة على علاقتنا، والرجاء منها أن تفتح أبي حول الموضوع، فأنا شخصياً لا أود مفاتحته بأي موضوع له شأن وصلة بالزواج، أخاف أن يصب حممه البركانية وبدون سبب على ما حوله.

فأومأت كاترين رأسها متممة كالهمس:

- فكرة ذكية يا حبيبي.

وانطلقت السيارة عائدة، وفي الطريق أعلن لها شكواه قائلاً:

- محتار بين أخ غير موجود وأب شيخ مريض وأم لا ترى أبعد من أنفها.

وأعلنت هي له هواجسها وهمومها غير المعلنة لحد الساعة، فقالت له وهي تصرر على أسنان كالبرد من البرد والقلق:

- وأنا سعيدة متحمسة جداً للقائهم، ولكنني في نفس الوقت أتساءل كيف سيكون رد فعلهم لو عرفوا بعلاقتنا العاطفية؟ ومن ثم علي أن أكاشفك على خبر آخر أهم...

لم تكمل لأن فرهاد خفف من سرعة السيارة، فقد وصلوا في غضون بضع دقائق، توقفت السيارة أمام الباب، كانت كاترين ترتجف، خرجا منها متلفعين بأغظيتيها، دفع فرهاد الباب فقادها إلى الداخل برفق، وأول ما استقبلهما وهما يضعان الخطوة الأولى في داخل البيت كان عويل وصراخ سها المتقطع الحاد.

لم يجدا أحد في غرفة الجلوس، ولم يسمعا سوى أدعية الأفندي وتضرعه وصلواته تنترامى إليهما من وراء السلال، كان يقرأ دعاء مألوف لدى فرهاد وهو: (اللهم يا

قريب الفرج، ويا قاضي الحاجات، ويا مجيب الدعوات، ويا عالي الدرجات، يا الله) سماه في صباه (دعاء نجاح مضمون)، لأن أباه أفهمهم يوماً أن هذا الدعاء يضمن النجاح في الامتحانات.

أمسك بيدها وسارا إلى السلم، ومن هناك عرفت كاترين كيف تدير وتتولى الأمور، وقفت أسفل السلم وهو ورائها، سحبت كم بنطلونها الجينز إلى أسفل، وصعدت بخفة تتدلى حقيبتها السوداء الجلدية من يدها المتوردة، وبقي هو واقفاً تحت، يرتجف وينتفض لكل هبة عويل ترتفع من فوق، هاجس يملأ قلبه؛ بل تسأول مريب ورجاء مشوب باليأس: هل تقع الغارة الجوية قبل الوضع؟ من كل قلبه دعا أن يتقبل هذا الذي في السماء الدعاء رغم ظنونه أن هذا الذي فوق طرشت أذناه عن دوي المدافع وصفارات الإنذار.

اقترب من المدفأة يفرك يديه فوقها، وألقى نظرة من خلال فتحة الستائر إلى الخارج فرأى من خلال الزجاج تحت نور مصباح الشارع أن الثلج قد عاود سقوطه بهدوء وصمت، ومن فوق تعالت وتوالت الصرخات والتأوهات، ترافقها أصوات تردد إيعازات وأوامر ودعوات تنادي إلى الصبر والجلد فقد حانت ساعة الخلاص، ومن حين إلى آخر كانت دادة تطل عليه من الباب متسائلة في دهش والبشاشة لا تفارق وجهها الطويل رغم الإرهاق فتقول:

- أنا أتساءل مع نفسي: أين رأيت هذا الوجه من قبل؟

ثم تبتسم له ابتسامة مأكرة ساخرة سائلة إياه:

- من أين أتيت بهذه المرأة الرائعة يا مريد الحسنات.

في لحظة ما ارتفعت وتيرة الأصوات والجلبة والصخب من فوق، كان صوت كاترين أشبه بصوت دادة فيهما بحّة مليحة، وهي تلقي بإيعازاتها إلى سها: ضغط آخر قوي، نفخة عنيفة، تشجعي يا الله يا الله خلاص، خلاص.. نهض فرهاد قائماً وأسرع يقف تحت السلم يصيح السمع، تواترت الإيعازات وتوالت المحفزات وعبارات التشجيع والتصبر فقد آن الفرج، وتصاعدت نبرة الأفندي الداعية إلى ولادة يسيرة.

نظر فرهاد إلى الساعة المعلقة على الحائط، لم تمض ساعة على وصول كاترين حين بلغت الصيحات أوجها والتأوهات غدت أشبه بصافرة الإنذار، صار فرهاد كله

أذان صاغية، أحس أن لحظة الخلاص أتت، وأصاب توقعه، أعقبت الصرخات المدوية صرخة أخرى من نوع آخر ضئيلة حادة متتالية أشبه بمواء القط، ومن فوق السلم أطلت دادة تبتسم وتمسح العرق المتصبب من جبينها الضيق وتسري إليه لصوتها العذب:

- إنه ولد جميل.. جميل.

وجاء آسو ابن عدنان إلى الوجود؛ بلحمه ودمه والماء والزوجة والحياة والروح والنفس والمشيمة التي قطعها المقص الناصع للمجهولة، وهبطت دادة السلم وهي تلهث، وجاء الأفندي فاغر الفم مسرعاً بعرجه يتنصت من ورائها.

- إنه ولد رائع، لقد رزق أخوك بولد، آسو.

ورفعت يديها إلى السماء خاشعة هامسة:

- حمداً لك يا رب.

ثم أخذت تشق زجاج النافذة بعينيها اللامعتين تلك الليلة لمعاناً لم يألفه فرهاد، وأخذت تردد مع نفسها بصوت مسموع مهموم:

- أين أنت يا عدنان في هذه الليلة المباركة، أين أنت؟

بعدها التفتت إلى فرهاد الذي ظلت عيناه تترقبان إطلالة أو حركة تند من أعلى السلم، رمقت ابنها بعينين غائرتين ثابتتين وقد حل الانشراح محل الانقباض الآني، وأخذت تتساءل حيرى:

- بارك الله فيك ابني وأطال عمرك.. قل لي أين وجدت هذه القابلة، إنني أجزم بأنني لم أجد لها نظيراً لا في المهارة ولا في النظافة.

ثم غضت بصرها تردد مع نفسها تسألها وتضيق عينيها لتركز تفكيرها:

- أين رأيت هذا الوجه وسمعت هذا الصوت يا ترى؟ أين؟ أين؟ يا لروعتها وجمالها وأنوثتها!

ونزلت كاتي أخيراً وأشارت لدادة أن تصعد إليها، كانت لا تزال في غاية لياقتها البدنية والنفسية، وبدون كلام وبهدوء تام سارت إلى المرأة المعلقة المحاذية لصورة الطواف ترتب وتسوي ما تشعث من شعرها، ثم أمسك بها فرهاد من ذراعها وقادها لتغسل يديها في الحمام، وعادت إلى صالة الجلوس وأخذت حقيبتها التي علقها فرهاد في المدخل وارتدت معطفها الصوف الطويل، ثم وقفت أمام دادة التي كانت

قد هبطت السلم للتو لتسمع ما تريد أن تقوله من إرشادات أو توصيات، وما كان شدة دهشة دادة حين انحنى كاترين أمامها، أخذت يدها، قربت شفتيها من يدها وطبعت قبلة طويلة عليها أجفلت لها، إنها لا تذكر متى تلقت آخر قبلة وممن؟ قبلت يد دادة ثم انتصبت قائمة بكل عنفوانها وقوامها الممشوق وهي تمسح وجهها من دموعها بطرف شالها الأبيض ثم همست بشوق وحنان وعمق:

- يا حبيبتي يا دادة.

أخذ فرهاد بيد دادة وجذبها إلى حيث السلم قائلاً لها:

- حبيبتي إنه ليس وقت مناسب للتعارف؛ أسرع إليّ لا يجوز أن تظل وحدها، لحظة وسأتيك مسرعاً.

- والله صحيح..

قالت دادة وصعدت السلم بعد أن ألقت نظرة أخيرة على كاترين التي ظلت تلاحقها بعينين ماؤها الحنان لامرأة كانت يوماً بمثابة أم لها، ومن فوق السلم ارتفع صوتها الرخيم تقول:

- فرهاد يجب أن تدعوها يوماً كي تتغذى عندنا هذه الفتاة الجميلة.

تبادل فرهاد وكاترين نظرات الإشفاق، وعاودت كاترين البكاء، كانا يقفان في زاوية قرب السلم، فأمسك بيدها وسحبها برفق إلى وسط الصالة، وهناك أشار إلى صورة أبيض وأسود على الحائط، فاقتربت منها ووقفت متأملة إياها، فما هي إلا أن نفخت فيها نفخة تعبر عن العجب، الصورة أثارت فيها مشاعر جياشة؛ كاترين الطفلة وفرهاد الطفل يتسلمان كأس مباراة من مدير الناحية، هي الطويلة وهو القصير، الخطوط المتوازية على سروال فرهاد الأحمر والأبيض تظهر بلون أسود وأبيض، وحذاؤه المطاط الطويل يُخفي نصف ساقه، كاترين تتقدمه بنصف خطوة وهي تمد يدها لاستلام الكأس وقد بدا شعرها القصير المتموج من الوسط وشفتاها المليئتان والحافة المدببة لبنيقتها الخضراء المحيطة بجيدها الطويل، وفي الخلفية بدا عدنان وهو يحمل كأساً أكبر من رأسه الصغير وهو يكشر بأسنانه ضاحكاً وخلفه يقف بنيامين منتصباً وبارزاً صدره إلى الأمام والابتسامة الضفدعية تُخفي ملامح وجهه العريض.. همس فرهاد في أذنها:

- هل راقتك الصورة يا عروس الحفل!.

- ما كبرك هكذا يا فرهاد.

- وما كبرك هكذا يا عروس الحفلة والبلدة.

وطفت الذكريات وغلبتها عاطفة جياشة، غص طرفها وأدارت ظهرها له تمسح دموعها بطرف خنصرها الدقيق وهي تردد بصوت تخنقه العبرات:
- لم أكن أتوقع وجود هذه الصورة فأنا لا أملك مثلها، إنها معبرة جدًا، بانوراما حياتنا ولعبنا وصخبنا ودنيانا الخالية من الهموم والمشاكل.

اتجهت نحو الباب، فأخذ بيدها برفق وقادها إلى السيارة، وفي داخل السيارة مال فرهاد بجسده إليها خلف المقود وأحاط خصرها الرشيق بساعده، جذب رأسها إليه، ثم طبع قبلة طويلة على ثغرها توردت لها وجنتاهما وتسارع نبضهما واحتترّ جسديهما رغم الصقيع، سحبت نفسها برقة وخفة من بين ساعديه المفتولتين، فمال إليها يهمس في أذنيها أنه يحبها الآن أكثر من أي وقت مضى، فلم تنطق واكتفت بإيماءة شكر، شغل بعدها محرك السيارة، وقادها على مهل على بساط أبيض من الثلج رقيق هش.

وأمام صورة (البلابل العاشقة) وتحت ضوء مصباح الشارع الذي اكتنفه الضباب والعتمة عبر مرّة أخرى عن شكره لها، وكلاهما يرتجفان من البرد، مسحة حزن عبرت وجهها وعبرت عنها بالقول:

- كم وددت أن أبقى طويلاً معها، حبيبتى دادة لن أنساها ما حييت، لقد علاها الكبر، ربما بسبب ما عانته من حزن لعدنان إثر المصاب الأليم.

سكنت لحظة ثم عادت إلى دادة:

- لم يكن مناسباً هذه المرة.

سكنت لحظة تطبق بشفتها السفلى على العليا ثم حدقت مباشرة في عينيهِ العسليتين ثم ألقت نظرة خاطفة فاحصة يمنية ويسرة ثم قربت وجهها من أذنه وقالت له بصوت لا يكاد يسمع:

- ومن ثم علي أن أخبرك الآن بالشيء الأهم.

- ما هو؟

- أنا حامل.

- ماذا تقولين؟ أطلق السؤال كالسهم.

- أقول أنا حامل وقلقة.

فدنا منها حتى التصق بها فقال لها وهو يقذف البخار في وجهها:

- ماذا ترين؟

- الرأي رأيك.

- قبل كل شيء خطوبة سرية سريعة.

صعد السلم ثلاثاً ثلاثاً حين أخبرته أمه بالنبا السعيد، في غرفتهما حملت سها الطفل ووضعت بين ذراعيه، قرب وجهه منه وطبع قبلة على جبينه الحنطي اللين.

- آه ما أطيب رائحة الطفل، رائحة البراءة.

- ويا لبياض بشرته.

عبر عدنان عن مشاعره في منتهى السعادة والنشوة.

- إن له شبهاً مشتركاً بينه وبين أخيك ولكن الطفل يتغير ويتخذ أشكالاً مختلفة بمرور الزمن.

قالت له سها.. وضعه برفق في الفراش الوردي، ضج بالبكاء يركل بقدميه الصغيرتين، أخرجه أمه من المهد وجلست على طرف الفراش ووضعت في حضنها ثم أخرجت ثديها المنتفخ الممتلئ اللدن تحت أنظار عدنان الذي لم يزل بملابس العمل حاسر الرأس ملطخ الجبين بالعرق المتجفف، ضمت سها الطفل والصقته بصدرها، أمسكت حلمة الثدي بين أصابعها تساعده في التقاط الحلمة، وسرعان ما وجدها فأخذ يمص ويمصمص بفمه الصغير وعدنان ينظر بتشوق وفضول.

جلس بجانبها؛ كانت لا تزال برداء نومها الأبيض الشفاف، يكشف عن جسدها الناصع الممتلئ من دون إفراط، وأخذ يحيط خصرها بذراعيه ويطبع قبلة طويلة على فيها اقتشعر لها سائر جسدها حتى سرت الرعشة إلى جسد عدنان الذي مال إليها وأخذ يحدق في وجهها بعيون جائعة.. تراجعت وقالت:

- أدري ماذا تريد، لن يجوز هذه المرة.

خاب رجاءه فأخذ يتنفس من أنفه بصوت، فقد اعتاد حال عودته وقبل أن يغتسل أن يجامعها، اعتدل وقال لها تضمها إليه جُبناً:

- كم أحبك يا مصدر سروري، لله درك ما أغزر درك حليياً حلالاً وما أعذبك وأحلاك من امرأة عذبة كالماء الزلال.

أخذت تنتظر إليه باشتياق ولوعة وكانت لكلماته تأثيرًا وإثارة لم تقوَ على احتمالها، ربتت على يديه الصلبتين المشعرتين تنفخ في وجهها بلهائها:

- لننتظر، إنه لم يمض على ولادته أسبوع بعد.

زاد منها اقترابًا وبها التصاقًا فقالت له بلهجة أمرة:

- اغتسل أولاً ثم نرى.

هبط وصعد بعد دقائق، ولدى صعوده السلم سمع أصواتًا تتصاعد من الصالة، فلم يشأ أن يتدخل وعاد لى عشه نظيفًا.

- ضعي الطفل أنا لا أتحمل.

قال لها بلهجة إلى الرجاء أقرب منه إلى طلب.

- لا.

- نعم الآن.

- لا.. لا يجوز.

- نعم وحالاً.

ثم أخذ يشرح لها باقتضاب مفيد:

- ثمة طرق أخرى لذلك.. هناك بدائل دائماً، المهم أن تكون طريقة شرعية ونظيفة وحلال.

همست في أذنه وهي تلقي بنفسها عليه ويقعان معاً هكذا على ظهريهما على الفراش:

- لم أرك منذ أسبوعين، وهل أنا أقل رغبة منك فيك..

لمعت شرارة في عينيها ناطقة جلية: وأنا احترق مثلك.

تخلصت من قبضته وانقلبت تستلقي على ظهرها ونهداها اللدنتان المنتفختان المكورتان تنتصبان على صدرها العاجي كتلتين صغيرتين، أو قبتين قدتا من لحم طازج أبيض بلون المرمز، أخذهما بين يديه واخذ يعصرهما عصرًا خرج من حلمتها قطرات من حليب أبيض أقرب إلى الشفافية.

- سأشربك وأشرب حليبك..

لم تدعه ينهي كلامه فجرته إليها بقوة بيديها المرتعشتين، قرصته من فخذيه.. ارتجف.. شدته إليها، وأرسلت يديها حول عنقه، ثم ضغطت بنهديها على صدره.. اعتصرته، وغمرت رأسها في رقبتة، وبدأت تلهث.

مضت ساعة استفاق على صوت أمه تناديه من تحت وهو في حالة خدر ونعاس، فتزحزح من الفراش وقام بنشاط غريب ومضى نحو الباب.

التقط من الأرض عقدة وأعادها إلى سرير الطفل، كانت عبارة عن نوشتي أدعية جلبتها دادة للتبرك ودفع العين، ووضعت نسخة صغيرة من القرآن الذي جلبه معه تحت وسادته، وبعد أن ألقى نظرة أخيرة عليه وعلى زوجته التي كانت تغرق في نوم عميق لذيق لا حسييس ولا رفة رمش، توجه إلى حيث السلم ونزل على أطراف أصابعه.

وهناك ومن تحت السلم استقبلته دادة بالأحضان، وقد ارتدت أجمل ملابسها وبدت شابة جميلة، وتلقته بأجمل العبارات على قلبه:

- مبروك، أنت الآن أب، لك ذرية، ولد صالح نفتخر بك وبه.

- أنت عروس.

أجابها عدنان وانحنى وطبع قبلة على يديها وهي على رأسه، قالت له وهما لا يزالان أسفل السلم:

- كل أولاً بهدوء، وضعت لك الطعام في المطبخ، أذه وكل ما تشتهي، ننتظرك في صالة الجلوس فلي لك مفاجأة بل مفاجآت.

كان يوماً ممطراً يوم عاد عدنان، وقد تأخر أسبوعاً كاملاً عن موعد إجازته المعتادة، بعد أن اغتسل وارتنى ملابساً نظيفة عبارة عن كاوبوي قهوائي كعادته وقميص أصفر غامق؛ ذهب إلى صالة الجلوس حيث كانت بقية الأسرة تجلس في انتظاره، تبادلوا القبلات أولاً ثم جلس عدنان بجانب أخيه على كرسي منفرد، ودادة بجانب الأفندي على الأريكة الحمراء.

- مبروك أبو أسو.

هتف الأفندي بصوته الأجلش منتفخ الأودج مزهواً به كالطاووس بريشه.

- أشكرك بابا كلها من بركاتك.

- بل من بركات من لا شريك له.

قال أبوه يرفع يديه الهزيلتين وعينية إلى السماء.

- الحمد لله كانت ليلة عصبية.

قالت دادة تتحدث عن ليلة الوضع.

ثم أضافت بنبرة مريرة:

- منع التجول، ومامان القابلة أخلفت وعدّها من الطمع، وتلج وصقيع، ولولا تلك

القابلة الإنسانية لجرت الأمور على غير ما نشتهي.

ثم التفتت تكلم فرهاد الذي ظل صامناً بعد مراسيم تقديم التهنة والتقبيل، فقالت له

تريد تحريكه:

- الحمد لله نمنا ليلة هائلة أمس.

رد فرهاد بلا اكتراث:

- خلت من الغارات بفضل سوء رداءة الجو، أهذا ما تقصدين؟

كانت الليلة الماضية ليلة صعبة جداً بالنسبة إليه، يتقلب يفكر يبحث عن مخرج

لمأزقه، لم تجب دادة على سؤاله بعد أن أحست بانقباضه، وبدلاً عادت إلى

موضوعها الذي شغل بالها كل الوقت، فقالت تعقبه بسؤال جديد:

- كانت بغاية الجمال واللفظ والمهارة، لن أنسى كيف أنها انحنى وقبلت يدي

وتقول: حبيبتي دادة، إنها تعرفني، كيف ذلك يا فرهاد؟

لم تتلق ردّاً منه، فأعادت السؤال بصيغة مباشرة وبعناد:

- من هي؟

انتقلت الانظار إلى فرهاد الذي خرج مضطرباً من صمته تحت طائلة النظرات

الفضولية، فقال وهو يشير إلى الصورة أسود وأبيض على الحائط أمامه:

- تلك.

اتجهت الأنظار إلى الصورة واقترب عدنان ودادة يتأملانها ملياً وبدقة كأنما يريانها لأول مرة، وفجأة ارتفع صوت عدنان وبعده دادة:

- لابد أن تكون كاترين؛ فهي الوحيدة الأنثى في الصورة؟!!

هز فرهاد رأسه بالإيجاب دون أن ينبس، تطلعت العيون إليه في دهشة وعقدت المفاجأة الألسن، وامتدت راحة دادة تكتم صرخة، رأى الكل مدى شحوب وجهها رغم الحرارة المنبعثة من المدفأة، ففطن فرهاد إلى ما يكمن وراء ملامحها فتنقل بعينه بين أخيه وسها ثم أعادها إلى أخيه الذي حثه بإشارة من يده أن يوضح ويفصح، فأفصح فرهاد ولكن ببيت من الشعر:

وقد يجمع الله الشيتيتين بعدما يظنّ أن لا تلاقيا
سارعت دادة تسأله وهي تحدجه بارتياح:

- ما... ماذا قلت؟

وبدلاً من أن تلقى تفسيراً من ابنها الأكبر، تلقت تعتيماً من ابنها الأصغر الذي تلا عليها قوله تعالى: أليس الله بقادر على أن يحيي الموتى؟
- أحسن القول.

جاء الصوت من أبيهما هذه المرة فتوجهت الأعين إليه.

طوال الوقت كان الأفندي مستلقياً على ظهره مغمضاً عينيه، لا حركة ولا رمشة عدا عن رفرقة خفيفة على شفتيه كعادته في الدعاء، ولكن صوت تلاوة عدنان العذب للآية القرآنية أفاقته من تأملاته وصلواته، مالت دادة نحو الأفندي فغرزت أنملة في جنبه وقالت بصوت مرتفع:

- أسمعت فرهاد يقول إنّ القابلة التي أشرفت على وضع سها كانت كاترين، كاترين كه ككه.

قطب بابا وغمغم مع نفسه لحظة كما في الحلم.. وساعده عدنان في الاسترجاع:

- في حرير، تلك التلميذة المسيحية، صديقتنا وزميلتنا في اللعب.

فكر الأفندي مقطباً وفجأة رفع يده واستقام وأخذ يتساءل:

- أظنكم تقصدون الفتاة النحيلة الطويلة ذات الفستان الأحمر التي كانت تخرج معكما إلى النبق... كاترين كه ككه... هه..هه... الآن تذكرت.. يوم السباق، كانت شريكة فرهاد وبدلاً من العقرب قاما بقتل حية.

لم يشك فرهاد في قوة ذاكرة أبيه يوماً، فذاكرته كانت خارقة للعادة، يتذكر حين حفظ سورة الحاقة عن ظهر قلب في يوم واحد وهو في سنه السادسة والستين، حين سألته أن يفتح له القرآن على سورة الحاقة وينبئه على أي خطأ أو نسيان، فتلاها وهو مستلق على ظهره على الكنبه في الباحة الأمامية تلاوة صحيحة خالية من أية فلتة أو غلطة.

وأردف بابا مدمدمًا:

- قابلة رائعة ماهرة ووو.. جميلة.

سعل سعالاً خفيفاً ثم ازدرد ريقه ثم أجال النظر مرة أخرى على أفراد أسرته الذين اعتادوا طريقته المألوفة في الكلام؛ يحرك سبابته في كل الاتجاهات، وبعد نحنحة قصيرة شرع بمخاطبتهم بلهجة رصينة وعيناه مصوبتان على الصورة من تحت نظاراته السمكية:

- رغم كون هؤلاء المسيحيين به راز خور- أكلة الخنازير-، عرق خور- شاربى الخمر، مردار خور- آكلي لحم الميت من الحيوان والطير، كاور، كفار، لأنهم حرفوا الكتاب المقدس على أهوائهم وحسب رغباتهم الدنيوية، ومع ذلك فأستطيع أن أجزم بأنه ليس هناك من يفوقهم أو يجاريهم في مهنتين إنسانيتين اثنتين وهما: مهنة الطب والتمريض والخدمات العامة وبخاصة في العمل ك (بوي)، وخدم في الأندية والبارات والمطاعم، فكل المهنيتين تتطلبان صبراً وتواضعاً، وتواضعهم هذا كبرهم في عيني ورفع من شأنهم في قلبي، أمّا نحن فأفتنا الكبرياء ولنا في ذلك خير نموذج، د.إشاياء مثلاً، فهو يتحلى بهاتين الميزتين معاً إضافة إلى الثقافة العامة والمعرفة والإخلاص الشديد.

قام بعد ذلك من موضعه واتجه إلى الممر المفضي إلى غرفته وهو يحك ما تحت عظم القص براحة يده تلاحقه أنظار فرهاد الهلعة.

في ظهيرة اليوم التالي جاءهم الزوار والمهنيين من الأصدقاء وزملاء الأخوين في المدرسة والمنشأة والأقارب القليلون، وأكثرهم كانوا من أهل الأفندي، والقسم الأكبر كانت تسكن في قرى ما وراء الجبل الأسود، فوضع كل زائر مظهرًا بمبلغ نقدي تحت الوسادة الصغيرة للطفل، وقد قام الأفندي ودادة وفرهاد سلفًا بنفس المبادرة التقليدية المتبعة، وبعد تقديم الهدايا والمكوث لدقائق للتحدث صافح الزوار أفراد الأسرة واحد واحد ثم قاموا وغادروا المكان.

وفي وقت متأخر من بعد الظهر رن جرس الباب؛ وذهب فرهاد لفتح الباب بنفسه، وعاد يقدم حساء فارعة القامة مهففة القد يتدلى قرطان من ذهب من تحت أذنها وترتدي فستانًا أسود يمتد حتى الركبة وتضع صليبا على صدرها، ويتمايس على جيدها الطويل شعرها الأسود القصير ذو التجعيدة الواحدة في الوسط، شفاه حمراء من غير أصباغ وخدود متوردة مرتفعة، أنفها المستقيم وجيدها العاجي، آية في الجمال، شاهدها مذهولين وهي تقف بالباب ومن وراءها تقف امرأة كبيرة في السن.

أشرأت الأعناق إليها، وكانت سها قد نزلت بعد أن تم لها تهدئة الطفل الذي ظل يبكي طويلا، فها هي الأصوات انطلقت من حناجرها بنبرة واحدة مبهورة:
- كاترين؟

ابتسمت السيدتان وقامت كاترين بتقديم السيدة المرافقة لها:
- عمتي وردة.. سستر وردة.

انتفضت دادة وهبت تعانقهما وتقبل خدودهما، ثم وقفت تواجه كاتي التي أخرجت منديلا من جيبها تنشف به دموعها فقالت لها بملء الحنان والحب:
- كاترين حبيبتي، إنها لمعجزة أن نلقاتك بعد كل هذا المدة الطويلة، العناية الإلهية جاءت بك.

ثم التقت إلى عمته التي لم تفارق الابتسامة ثغرها الكبير وقالت لها برقة:
- أختي، سستر وردة، كم أنا مسرورة برؤيتكما.. تفضلا بالجلوس.

أسرع عدنان وسها بعد أن استقرت السيدتان في مكانهما بتقديم أنفسهما ومصافحتهما ثم اتخذتا مجلسهما في الصالة بالقرب من دادة، وجلس فرهاد ملاصقا لكاترين.

أجالت كاترين عينيها على الصورة، صورتهم وهم أطفال وأبطال السباق والخزان الخشبي وصورة الأفندي الأسود والأبيض وعينيها الزرقاوين الباهتتين، وكم بطولونه الملفوف حول ساقيه بمتانة، ظهر شابًا بلا نظارات، شاربیه القصيرين المشذبين والمحددين بعناية تحت أنفه المعقوف المحدودب من الوسط، العلامة المميزة للجنس الكردي الجبلي الأصيل.

حملت دادة طويلاً في وجه عمة كاترين، فرأتها لدهشتها امرأة كهلة بشعرها الفضي وعينيها الصغيرتين وفمها المزموم وأنفها المعقوف الدقيق، وفيما هي تتفحص ضيفتها رفعت هذه رأسها فالتقت عيناها، فبدارتها دادة قائلة بتودد مفرط:
- ما عرفتك بادئ الأمر، وردة، سستر وردة، ما كبرك هكذا يا امرأة!

فابتسمت عمة كاترين برقة متناهية وقالت ردًا:

- وما كبرك أنت جميلة خانم هكذا؟ فقد رأيتك آخر مرة وكنت حينها شابة صغيرة.

أجال فرهاد بصره على الوجوه فقال معلقًا على كلمات أمه:

- يقال إن خير مرآة للإنسان وجه صديق تلنقيه بعد فراق طويل.

تصاعدت همهمات تعبر عن الاستحسان، أما دادة فقد ظلت تعلن عن سرورها وسعادتها لرؤيتهما بعد هذا الوقت الطويل بعبارات ملؤها الحنان، وذهبت تجلس لصقًا لكاترين تضم رأسها إلى صدرها، ليدغدغ أنفها عطر شعرها الفواح الهادئ كهوئها فقالت هامسة في أذنها:

- لم أصدق يومًا أن أراك مرة ثانية يا ابنتي، وإذا بك لا طفلة جميلة رشيقة بل امرأة حسناء فاتنة..

أحاطت كاترين خصر دادة بذراعيها بكل حب ومودة، وضغطت برأسها على صدرها بشوق وحنان بالغين، فقالت دادة من فوق رأسها معاتبة ممازحة:

- يا قابلة، طوال الوقت تساءلت من هذه الجميلة الرقيقة.. فيا ظالمة لم لم تكشفني عن نفسك؟

وجاءت بالعلة المنطقية بعد أن اعتذلت في جلستها ورتبت ثيابها:

- المعذرة، في الحقيقة إنني لم أشأ إضاعة الوقت، الحالة استدعت العمل الفوري.

وجاء الأفندي بعد قليل في جلبابه الطويل الأبيض وكلاو رأسه الأبيض متكئ على عكازته، ونعال قدميه تضرب أرضية الغرفة، فسلم على المرأتين واقفاً في وسط الصالة، ومضت كاترين نحوه بعد أن اتخذ مجلسه على الأريكة، أريكة الأفندي الحمراء، وانحنت تقبل يده.. فنظر إليها والابتسامة تشرق في وجهه ولكنه اكتفى بالقول:

- أهلاً بك وسهلاً.

عادت بعدها إلى مجلسها بجانب فرهاد.. كان عدنان يجلس برأس حاسر تحت شعر كث يمتد حتى حاجبيه، فقال لكاترين وهو يضع يداً على كتف زوجته:

- قلت لسها إن هذه المرأة المحببة الحلوة الرقيقة كانت زميلة طفولة لنا، أنا وأخي.

وعبرت سها عن مشاعرها النبيلة تجاه كاترين قائلة بكل احترام:

- أنا لن أنسى فضلك يا سيدتي ما حييت.

أومأت إليها بلطف بالغ ثم قالت لعدنان ممازحة:

- قاتل العقارب، يا بطل، اسمك لا يزال يتردد في أوساط الجيل القديم من زملائنا هناك.

وضع عدنان رجلاً على رجل في بنطلونه الضيق القهوائي الباهت، فرد بالمثل وهو يضحك:

- قاتلة الحية كاترين.

وكانها تذكرت أمراً في الحال فمالت على أذن فرهاد وهمست فيها شيئاً، فهمت دادة

مغزاها وقد رأت عيناها ترسوآن على رأس ابنها عدة مرات فأخذت تشرح لها:

- آثار الضربة باقية واضحة، كانت بشعة في بادئ الأمر، لكن الزمن أخفى بعض الآثار، وعلى العموم ولحسن الحظ والحمد لله فهو يتمتع بصحة وقوة، ها أنت تريه رجلاً فحلاً ما شاء الله ما شاء الله.

وشرعت تدق بطرف إصبع على خشبة الكنبه التي جلست عليها، اعتادت دادة على هذا الطرق بالإصبع وذلك لأجل دفع الشر عن ابنها كما اعتقدت، ابتسمت كاترين وقالت وهي تحديق في عيني عدنان:

- كان أصغرنا وكان أقوانا، يبرزنا جميعاً في الرياضة، وكان يملك مواهب متعددة، شاطر وشجاع..

في تلك اللحظة همست العمة التي اكتفت طوال الوقت بتوزيع الابتسامات والثناء لكل من قدم لها كعكاً أو شراًباً في أذن كاترين، نهضتا قائمتين بعد تلك الهمسة، وانحنيت كاترين والتقطت اللعبة المغلفة التي وضعتها جانباً عند وصولها وقدمتها إلى عدنان تمد له اليد الحاملة للعبة قائلة له بابتسامة تكشف عن أسنان كالشط تنسيقاً واللالئ بريقاً:

- تفضل عدنان هديتك.

تناولها عدنان شاكراً وناولها إلى سها التي عبرت عن جزيل امتنانها.

- افتحها من فضلك.

قالت لها كاترين، ففعلت؛ فضت غلافها ثم أخذت تخرج منها محتوياتها: بنطلون جينز، قميص وردي، قبة كاوبوي، ومسدس ريفولفر.. ولعب أطفال وأشياء أخرى صغيرة لم تمسها.

كانت العيون ترنو إلى سها وهي ترفع القطع؛ الواحدة تلو الأخرى في وجوههم، أمّا كاترين فأشارت إلى عدنان أن يقودها إلى الرضيع ففعل، رافقها إلى الغرفة فوق، وهناك وضعت مطروفاً بريدياً منتفحاً تحت وسادة آسو وطبعت قبلة دافئة على جبينه وتمتمت تقول: ما شاء الله إنه قوي كأبيه وجميل، ثم عادت تهبط السلم يتبعها عدنان.. وذهبت محاولات دادة سدى في إقناعها بالبقاء وتناول الطعام معاً، لكنها اعتذرت قائلة شاكراً:

- لدينا أشغال ومهام كثيرة هذه الأيام، ولادات وتمريض، أعدك أن أزورك متى ما سنحت الفرصة، أمي الحبيبة دادة.

وعند باب الدار تبادل فرهاد وكاترين وعمتها نظرات حذرة وكلمات مقتضبة دون أن يجلبا انتباه أحد، وغادرت كاترين تحت وابل من قبلات دادة جميلة.

أصاب الأفندي التهاب حاد في القصبات الهوائية مصاحبة لآلام معوية؛ اضطر من جرائها التزام الفراش لأسابيع، وكان هذا ما يحدث له في كل شهر شباط، ولكن هذه المرة زاره المرض مبكرًا في كانون الثاني، والسبب يعود إلى البرودة المتطرفة ذلك العام، وكان على فرهاد أن ينتظر لحين انقضاء أزمة أبيه الصحية فلم يكن هناك سبيل في إطلاع بابا على نيته بالزواج من كاترين حتى حلول الربيع حيث استعاد أبوه صحته وعافيته.

في ظهيرة يوم ربيعي جميل ارتدت دادة أجمل ملابسها وأعدت الشاي من السماور بعد انقطاع طويل، وعجنت ستوروكه به نير، فطائر الجبن، وراحت تجلس بجانب زوجها في الحديقة الخلفية على الثيل، العشب المزروع، حيث رصت كراسي زاهية مصنوعة من الألمنيوم والبلاستيك، ناولته قدح الشاي ورغيف من الخبز الرقاق اتباعًا للحمية الغذائية بعد أن حمته على المدفأة النفطية علاء الدين ذات اللهب الأخضر.

ومن جديد هفت النسومات المنعشة القادمة من ناحية الشمال المحملة بشذا العشب والزهر، والرطوبة العطرة برائحة الحقول المحيطة بالبلدة، فبعثت النشاط في الدماء والسرور في القلوب وردّت إلى أشجار البرتقال نضارتها وشبابها، فاكست بجلتها البيضاء من جديد فأورقت خضرًا وأزهرت بيضاء، القدّاح الفوّاح رسولة دادة جميلة للسلام والأمان، وفتقت برد الندى أوائل ورد كنّ أشهرًا ثومًا، وأرسلت الشمس أشعتها الفضية من وراء أشجار الرمان الباسقات التي ارتفعت منتصبة متراسة فوق الأسيجة.. وعندما أنست دادة جميلة من زوجها هدوء بال تام وراحة واستقرار نفسي جلي؛ مالت برأسها عليه وقالت له بصوت خافت ولكن واضح، مهينة لطرح موضوع مؤجل:

- أتدري أن ابننا فرهاد قد عقد العزم جدّيًا على الزواج؟

نظر الأفندي إليها نظرة مريبة، ثم هتف كعادته عند الاستهزاء بكلام يشك في مصداقيته:

- عظيم! ومن تكون هذه المحظوظة التعيسة؟

رمقها بنظرة قاسية ثم قال وبنبرة تنمّ عن اليأس والضجر معًا:
- لقد امتلأت أذني بمثل هذه الوعود، إن وعوده لأشبهه عندي بوعود لجان الوساطة الدولية الساعية لإيقاف الحرب.

بابا كان يرفل في جلبابه الزيتوني ونعاله وسبحته وكلاؤه، غطاء رأسه، الهزال والنحافة باديان عليه، وكان الراديو يقف منتصبًا على المنضدة الصغيرة بجانبه، وبجانبه وضع المصحف الكريم في كيسه الأخضر كعادته بعد تلاوة بعض من السور، وعلى الزاوية القريبة منه من المنضدة انتصب قدح ماستاو وقد انتصف، استوى وألقى نظرة خاطفة على زوجته التي ركنت إلى الصمت بعد الرد العنيف، تتحنح قليلًا وقد تقطب جبينه ثم قال لها مفصّلًا عما يشغله، مشيرًا إلى جهاز المذياع:

- لعنة الله على الأوغاد، الوساطة الجديدة لإيقاف الحرب فشلت هذه المرة كسابقاتها، فشلت لأنه ليست هناك لشياطين الشرق والغرب أية نية في إيقافها، لأن في إطالة الحرب منفعة لهم وذلك من أجل استنفاد الطاقات لكلا البلدين، ومن أجل إلهاء وتحويل أنظار العالم عن القضية الأساسية؛ الشرق الأوسط، فلو استمر وتواصل تناطح الدولتين النفطيتين العملاقتين فإن هذا الأمر سيسهل لهم السيطرة على الخليج والمنطقة ومواردهما برمتها، هذه هي استراتيجية المرأة الماكرة تاتشر والوجه القبيح الأمريكي ريغان راعي البقر الأرعن.

لم تولي دادة أية اهتمام لهذه المسائل التي اعتبرتها مضیعة للجهود، فرفعت يدها ما يدل على اليأس قائلة:

- أفندي، قل خيرًا وتفاءل.

ثم عادت إلى الموضوع قائلة:

- ابننا جاد هذه المرة.

التفت إليها الأفندي فاغر الفاه وراح يتفحص وجهها الشاحب وعينيها الغائرتين وجفنيها المنفختين، فلم يجد غير العزم والتصميم، فقال وهو ينقر بطرف سبابته حافة الطبلية "منضدة صغيرة" ..

- فليأتي إذن كي نتكلم، عسى ولعل..

كان عدنان قد وصل اليوم الماضي في إجازته الدورية منهكاً، أعياء العمل المتواصل، وأول ما وصل تناول ما قدمت وهيأت له يدا سها من طعام، ثم صعد إلى غرفته فوق ولم ينزل كدأبه إلا في قضاء الحاجة والأكل والوضوء، أو لجولات قصيرة داخل البلدة في المساء.. فلم ينزل إلا بعد أن سمع دادة تناديه من تحت الدرج، فنزل في منامته متثاقلاً مُصفرّاً يرفع قدميه ببطء غير معهود، ولدى بلوغه أسفل السلم همست دادة في أذنه وهي ترى الإعياء البادي على وجهه قائلة ناصحة:

- حذار من الإفراط، ولا تهتم كثيراً لكلماته فبعضها جارحة.

فغض عدنان بصره ولم ينبس واكتفى بإيماءة خفيفة، وراح يجلس على كرسي في الحديقة بعد أن استأذن من أبيه، ثم راحت تدعو فرهاد بالحضور فنادتته من وراء الباب فلم تسمع منه رداً، فطرقت بابه فلم يفتح، أدارت المقبض فلم تفلح في إدارته، فعادت إلى حيثما جلست، وقالت لزوجها:

- إنه نائم، فقد عاد البارحة في ساعة متأخرة من الليل، قضى كل النهار في إلقاء دروسه الخصوصية في البيوت في المدينة.

ارتسمت علامة عدم رضا على وجه الأفندي المتقلص، فأضافت دادة مفسرة معللة كعادتها:

- هو لم يجد في نفسه جرأة كافية في مفاتحتك فكلفني أنا.

- لا بأس.

قال الأفندي باقتضاب، ثم التفت إلى عدنان الذي جلس قبالته بصمت حاسر الرأس بلحيته البنية وشاربه الدقيق وشعره الطويل غير الممشط، فبدت حفرة رأسه والخطوط حول عينه بادياً بين ثنايا خصلاته كما كانت بعد الضربة، وقال له مداعباً:

- عريس؛ لا نراك هذه الأيام إلا قليلاً.

فرد عدنان بعد أن حدج والده بنظرة خاطفة:

- متعب بابا، العمل متواصل وشاق هذه الأيام.

أما دادة فعلى وجهها الطويل الأبيض ابتسامة ملغزة فقالت له ممازحة:

- متواصل وشاق خارج البيت ومتواصل وشاق داخله.

ثم وهي تلاحظ حرجه في احمرار وتورد خديه فأخذت تداريه بالقول:
- يجب أن تأكل جيدًا، غداً سأعد لك كفتة، وأذبح لك دجاجة دسمة من دجاجاتنا.
وعودة ممهّدة إلى ما هي بصدد البث عنه سألت عدنان قائلة:
- كاترين تركناها هناك في حرير طفلة وشاهدناها ها هنا شابة ناضجة، فقل لي
كيف وجدتها؟
فأصدر جوابه من غير تردد، قال منتقلاً ببصره بين أبيه وأمه:
- لو سمح لي والدي لأقول إنها رائعة وأنها خير ما رأت عيني خُلُقًا وخلقة وجمالاً
وطيبة.
قطب الأفندي وتوجس خيفة.. قالت دادة متشجعة برأي عدنان:
- امرأة رائعة حقًا، ومتفقة جدًا مثل فرهاد.
زم الأفندي شفثيه الجافتين ورمى زوجه بنظرة نارية من وراء عدساته السمكية ثم
أخذ يتسائل بهيجان ملحوظ:
- قولي لي جميلة بصراحة، ماذا تُخفين وراء المديح هذا؟
كانت عبارة الثناء المزدوجة كافية ووافية واللييب تكفيه إشارة، فعبر الأفندي عن
رفضه المطلق للعرض مباشرة وبحرف واحد وهو:
- لا.
لفظها بحركة بظهر راحته عنيفة كمن يطرد الذباب من على وجهه، فتساءلت دادة
بانزعاج بيّن وهي تنظر إلى عدنان وتخاطب الأفندي:
- ولم لا؟
أجاب بابا ولأول مرة باقتضاب:
- لأنها مسيحية.
- حتى ولو؟
ردت دادة بانفعال وتذمّر، تملك بابا الغضب فصاح بها ملء حنجرته وهو واقف:
- صهي أنت يا جاهلة، إنك لا ترين أبعد من ذراعك.
ثم أخذ يصرخ وغضبه أخذ في ازدياد:
- ابني يتزوج من مسيحية؟ حلم رهيب.

دافعت دادة متفانية:

- إنها امرأة شريفة وصالحة، وهناك مسلمون متزوجون من مسيحيات.

باعد الأفندي بين ساقيه تحت روبه (رداء طويل فوق) الطويل الفستقي اللون وقد تصلبت ملامحه، وأصابه المتخشب تلعب بحبات مسبحة الطويلة بعصبية، فواصل وهو يضغط على كل كلمة يلفظها:

- وهل ضاقت الدنيا ببناات الحلال كي تختاري عرق خور، شاربة خمر، زوجة لـ (عرق خور) مثله؟

قال ذلك والتفت إلى عدنان يسأله وقد علت شفثيه ابتسامة كالحة:

- ها، عدنان ماذا ترى؟

فأجفل عدنان لسؤال أبيه، فالأمر لا يخصه، وفوق ذلك بث الرأي في هذا الموضوع في غاية الخطورة والحساسية، ولكن رغم ذلك لم يشأ أن يخيب أبيه فأجاب قائلاً بأدب جم:

- الرأي ما ترون يا أبتى.

ثم وكأنه يشفق على أخيه:

- لو سمح لي حضرتكم.

سكت كالخائف والتفت إلى أمه التي حثته بومضة من عيونها المائيتين فتشجع فتكلم:

- فرهاد إنسان عاقل كامل، وأرى من الأفضل له؛ لو سمح لي أبي كي أقول بأنه يحق له اختيار الزوجة بنفسه.

كظم بابا غيظه بصعوبة وهو يسمع رأي مخالف لرأيه من عدنان، الابن الذي وضع ثقته فيه كإنسان مؤمن ورع تقي، حيث أكد مراراً وتكراراً:

- لو مت فعدنان هو الذي سيقراً الفاتحة على ضريحي ولا ذلك التارك الصلاة.

ثم قال لعدنان بنبرة أخف حدة:

- ابني عدنان تأمل؛ نحن نود إصلاحه ولن يصلح هذا الموبق إلا امرأة مؤمنة صالحة.

ثم جعل يحرك بسبابته نحو السلم حيث تسكن سها وأضاف مستأنفاً:

- مثل هذه المرأة فوق، بنت حلال - عروستنا المؤمنة - روى سبى بى، بيض الله وجهها، إنها زوجة صالحة لزوج صالح.

تصلبت ملامح دادة فجلست بلا حراك، بينما أخذ عدنان يتثائب بلا صوت، وواصل بابا حملته دون هوادة:

- ضخامة، جسد كبير، دماغ واسع، عقل سليم، وعلم غزير، ولكن رغم كل ذلك، وأأسفاه على هذا، فهناك روح صبيانية لا تزال تعشعش في شخصيته وتحركه.

ثم وهو يلتفت إلى عدنان الذي أثر الصمت وأضاف قائلاً:

- أخوك يملك كل صفات النوايا والعابرة، ولذلك فهو ينظر إلى العالم بمنظار خاص، إن أمثال هؤلاء النوايا يعيشون عالمهم الخاص، فتبدو تصرفاتهم غريبة شاذة تحيد عن المألوف المتعارف عليه وناشزة عن الخط العام.

ثم وهو يزدرد ريقه وأصابه تلعب بحبات سبخته بانفعال:

- إنه بحاجة إلى امرأة تهديه سواء السبيل، تقيم الاعوجاج في سلوكه، وتقربه من المسجد، وتبعده عن النادي وشلة السكارى..

لم تقوَ دادة صبراً على هذا فأخذت تضرب كفاً بكف وهي تهتف قاطعة كلامه:

- أية سكارى؟ إنه لظلم أصلاً أن تدعوه سكيراً، كل ما هنالك هو أنه يزور النادي مرة في الأسبوع.

فلم يلب وجه الأفندي بل لجّ واندفع بتصميم وثبات:

- لعله راغب في امرأة مسيحية، فليبت إذن الليل كله في النادي، ليغمر سمعتنا في الوحل.

وفجأة اعترته حالة هوس ونوبة غضب شديدة، فضرب كفاً على فخذه، صدر عن أثرها صوت كصوت قرع الخشب بالخشب، وتهياً لشن هجمة جديدة لولا أن أشارت إليه دادة جميلة معلنة أن أم عاشور قد عادت من العمل، فالأفضل الجلوس داخل البيت، فمضت إلى الداخل يتبعها عدنان الذي تمنى لو لم يكن عائداً من الإجازة وكان قد وفر على نفسه الحزن والهموم.

ودخل الأفندي وهو يلهث، ووقف تحت صورة الطواف، ووقفت دادة لصق عدنان تحت السلم ينصتان إلى صوت نحيب الطفل الخافت المكتوم مصاحباً لصوت سها الرثان الحاد وهي تهدهد وتلهي الطفل.

كانت صورة الطواف قد علقت في صالة الجلوس في الركن القريب من المدخل المفضي إلى الممر، والذي بدوره يفضي إلى غرفة فرهاد في نهايته، والتي سماها غرفة النقاها، وهناك كان يقف الأفندي عادة إن أراد تعميم خطابه وتوجيهها إلى كل الأطراف بعدالة، ومن هناك مد الأفندي الهائج عنقه إلى الممر فقال بصوت متوسط الارتفاع:

- هلا ظهر ودافع عن نفسه بنفسه في موقعه الهزيل؟

أجابت دادة متنهدة:

- بابه مغلق، يبدو أنه خرج.

كان فرهاد يخرج أحياناً من الباب الصغير الخلفي، بعدما يكون قد أغلق الباب المطل على الممر بالمفتاح، متعللاً بالقول: الوضع الآن يختلف عن السابق فالآن تسكن عندنا غريبة، ولنا خصوصياتنا.

ومن مكانه واقفاً تحت الطواف حيث ملايين الرؤوس منحنية للحجر الأسود، حول نظره نحو عدنان ودادة وهو يشير إلى عدنان الذي وضع قدمًا على أول السلم ينتظر إشارة أو كلمة من بابا: نعم أو لا، فقال وبصوت خائق وقد تكلف الهدوء:

- انظري جميلة، لو كان هذا الولد، ابني عدنان، هو الذي طلب يد هذه المسيحية لفكرت ملياً ولترددت كثيراً ولقلبت الأمر طويلاً قبل اتخاذ قرار بالقبول أو الرفض، فأنا لست في كل الأحوال ضد فكرة الزواج من مسيحية.

ثم برر منطقته بعد أن جمع أفكاره:

- ففي حالة عدنان لحدث العكس، لا هي تجره إلى دينها ودينها وتقاليدها وعرفها وأسلوبها في الحياة بل لحصل العكس: أي هو الذي كان سيجعلها تتبع طريقنا وسلوكنا وعرفنا المتعارف عليه في الحياة.

ثم أعقب وقد نال منه التعب والانفعال كثيراً:

- وليس هذا فحسب، بل وربما لتمكن من التأثير عليها بشخصيته وجعلها تميل إلى ديننا وتنتشر صدرها للإسلام، ولعلها مدت أخيراً سبابتها تقرأ الشهادة، وهذا هو المأمول والمنتظر من زواج مسلم من ذمية.

وقبل أن يتهالك على الكلبة استجمع كل قواه وقال بعد أن ملأ رئتيه بالهواء وجعل يمسك رأسه بيديه من الاضطراب:

- لا، لا، لا، أبدأ، قل لي لانيك إن هذا الزواج لن يتم إلا على جثتي.

ووقع على الكلبة يلهث، فأسرع إليه عدنان قبل دادة، جاهدًا بكل ما أوتي من قوة وخبرة في تهدئته واطمئنانه، يربت تارة على صدر أبيه وتارة يقرأ عليه آيات من القرآن وقد تملكه غم شديد، وفي تلك اللحظة ترامت إلى مسامع دادة وهي تقف في منتصف الغرفة صوت إغلاق بابين: أحدهما جاء من فوق والآخر من تحت، فأخذت تتمتم مع نفسها وهي ترفع عينيها إلى فوق: "وما شأنك أنت يا سها حتى تسترقين السمع؟".

ثم أدارت برأسها تجاه غرفة فرهاد في النهاية البعيدة من الممشى وهمت مع نفسها بادية الهم والحزن:

- لا خاب رجائك ولا طال سهادك يا مسكين يا فرهاد، ألهمك الله الصبر يا بني ما أشد ما قاسيت!

* * *

وهناك سحب فرهاد في ظلمة الغرفة المسدلة الستائر الغطاء على رأسه مدحورًا محسورًا، خسر الجولة وانهمز واستسلمت دادة لإرادة القوة القادرة المستمدة من الرحمن، وحدث نفسه وفي نبرته تحدي وعزم مشوب بحذر وإشفاق: "ارفض يا بابا ما شاء لك الرفض، ارفض على مهلك وبراحتك بابا، فما منعت قد حصل".

ثم وكعادته عاد الوجه الثاني لأبيه إليه فراح يحدث نفسه: "أرثي لحالك يا بابا، ولأحسن أب أنت، ضحيت بنفسك وصحتك وراحتك لنا حتى ضمنت مستقبلنا، وها أنا أشعر بالذنب لكوني قد أتعبتك وأضنيك بشؤني الشخصية ومشاكلي الخاصة، سامحني إن أكن قد خالفت وصيتك، وعصيتك".

أفكار كالأعاصير عصفت في داخله، الماضي ملاذ المرء إن لم يسعفه الحاضر،
وفي حين غرة اتخذت قسّمات وجهه صرامة، وانبعث شعاع غريب من عينيه تحت
ظلمة اللّحاف فجمع قبضته الصلدة ودمدم:
- لا يا أبي، لا يا بابا، أعرف أنه ليس لي مثل ما لنبيك من حق الاختيار، ولكن
هبنّي نمت ليلة واحدة في فراش ماريّا القبطية!.

في اليوم التالي حين أفاق من نومه القصير ظل مستلقياً في فراشه كسولاً اليوم كله، لم يفطر حتى، لم يرد على نداءات أمه المتكررة ليأتي إلى المائدة، ولم ينهض من فراشه إلا عندما أحس بخدر في ساقيه، وبأنه سوف يصيبه الجنون إن ظل هكذا مع أفكاره المتشابكة وذهنه المزدهم ونفسه المثقلة بالهموم، تحير ماذا يفعل وكيف سيواجهها بالرفض والفشل، ولم يجد بُدّاً من أن يقضي ما تبقى من يومه في القراءة والكتابة، فاختار من النصوص أيها أكثر سوداوية، وجعل يترجم بعضاً منها بفكر شارد فخائته الذاكرة، وأحس بجوع شديد تألمت له بطنه، ذهب إلى المطبخ فتناول بعض اللبن مع الخبز، دادة كانت خارجة مع سها وآسو، وبابا كان في غرفته يتابع أخبار آخر هجوم وقع الليلة الماضية على القاطع الشمالي.

ثم عاد إلى غرفته الصغيرة؛ أخرج من أسفل الفراش علبة من الكارتون بها كومة من مسودات الأوراق، وزجاجة صغيرة فيها بقايا من الوسكي من نوع بلاك ليبل، فتجرعه دفعة واحدة، ثم أقحم نفسه في الفراش واستسلم لنوم أشبه بإغماءة، وظل هكذا إلى المساء، فجلبت له دادة الطعام إلى داخل الغرفة وأرادت أن تكلمه فأبدى عدم استعداده في تلك اللحظة.

ظل ملازماً غرفته إلى أن حل الظلام؛ فنظر إلى ساعته فكانت تشير إلى التاسعة، وبتثاقل كبير مضى إلى خزان الملابس الصغير وارتدى ملابسه العادية؛ جينز أزرق قاتم وقميص أبيض فوقه بليزر أزرق فاتح، وقبل أن يضع قدمه في أول خطوة خارج البيت استوقفه صوت أمه، التي شكى عندها كثيراً الليلة الفائتة والتي واسته وطمأنته بكل ما لها من قوة البيان ووسائل الإقناع المتواضعة، شكى لها معارضة وصلابة بابا، شكا دروسه الخاصة وأنها في اضمحلال، إذ لا يرى في نفسه القدرة والنشاط الكافي بسبب إرهاصاته وهمومه الداخلية، وأي أمل بعدها يرتجى وأي حياة دونها تبتغى.

وهناك في وسط البوابة وضعت يدها على عنقه بيد ودغدغته من تحت إبطه باليد الأخرى، ثم جرّت نفساً عميقاً وهتفت:

- الله ما أحلى رائحتك! إنها أحلى من القدّاح.

ثم مالت بنفسها تنتظر في عينيه المحمرّتين المنتفختين الغائرتين من تحت حواشي غطاء رأسها الأبيض الكتان:

- يبدو أن الحلوة في انتظارك، لا تبخل عليها كما....

قطعت كلامها والتفت إلى النافذة وكأن الأفندي قابع فيها، ثم وهي تهده وتفسح له كما تفعل مضيفات الطائرة أمام الركاب وقالت خافضة صوتها إلى حد الهمس:

- لا تعر أهمية كبيرة إلى ما يقوله هذا العجوز، ولا تحزن فإنّ لديك ذهب وافر - الله يعوض لك، أنت شجاع لا تفقد معنوياتك، اذهب وامرح فالحياة لا تستحق كل هذا العناء والتحفظات.

وقف بلا حراك تحت تأثير كلماتها المهدئة وصوتها العذب السماوي، فقال وقد عادت إلى صوته رنته الطبيعية وإلى وجهه شيء من التورد:

- أنا أعتبرك أنت، أنت وحدك فوق كاترين، آخ.. فلولاك لكنت قد عرفت كيف أتصرف.

انحنى وقبل يدها قبل أن ينطلق وهو يردد بابتسامة:

- كاترين أغلى من الذهب.

اقتربت منه وقربت فمها من أذنه:

- وكاترين أغلى من صدام حسين.

أرادت بالعبارة الأخيرة أن تسخر بحملة جمع التبرعات بالذهب والجواهر لصالح المجهود الحربي التي تبنتها الدولة، وطبل وزمر لها إعلام النظام في ذلك العام، وفي نفس الوقت استهزاء بالأغنية الشائعة (صدام زيره - صدام ذهب -) والتي كانت تذاع عبر شاشات التلفاز والبرث الإذاعي كلما ألقى الطاغية خطابًا، وفي كل المناسبات الوطنية.

مال عن الشارع العام في بدايته ودخل طريق فرعي ليتجنب فرع الرفاق المكروهين التي سماهم بالطفيليات، ومضى لا يلوي على شيء حتى وجد نفسه واقفًا قبالة بوابة البلابل العاشقة، وكما كان المتفق؛ أدار مقبض الباب ففتحها ومرق من خلاله ثم ردها وأحكم إغلاقها، حلق حينًا في الظلام ما حوله فلم ير غير عيينين لامعتين لقطة ترنو إليه في ركن من الحديقة الصغيرة المكسوة بالعشب والزهور البرية.

مضى إلى الداخل في ضوء نور باهت إلى أن بلغ السلم، فرقاه برفق وفي منتصف الطريق لفحت خياشيمه رائحة زكية منبعثة من فوق، مضى منتشي بالعطر الفواح إلى أن بلغ رأس السلم وهناك خطى إلى الأمام بضعة خطوات حيث لاحت له غرفة كاترين ببابها المفتوح على مصراع واحد، وفي داخل الغرفة المضاعة بضوء ضئيل استقبلته بعناق حار، ثم أشارت إليه فجلسا كتفاً لكتف على كنبه واحدة، كانت ترفل في فستان قصير شفاف وردي.

ترأعت له سرتها الصغيرة الناصعة تحت ثوبها الفضفاض الرقيق، في وسط بطن ارتفع بعض الارتفاع، كان شعرها لا يزال مبللاً، لم يكن هناك أي أثر للمساحيق ولا أحمر الشفاه، ورغم ذلك بدت الشفاه حمراء كالنبق قبل أوان النضج، والشق الفاصل بين النهدين المرتفعتين لاح كأخدود يجري فيه الماء الزلال بين قبتين من المرمر، وعنقها ويا له من عنق! لا يجاريه فيه إلا الأوز البري، لاحظت شحوبه وخموله وتقاسيمه الحزينة، أدركت بفطنتها أن رغبته قد اصطدمت بصد عنيف من والده، مررت ببطن كفها على وجهه برفق متناه وهمست:

- هيا ولا تستسلم لليأس، كل شيء رهن وقته.

فألقت عليها نظرة متسائلة ولم يقل شيئاً، فأردفت هي:

- لم أسمع قصتك بعد ولكنني أشم من أسارير وجهك وملامحك أنك مضطرب وأنت قد تعرضت لضغوط نفسية في هذه الأيام.

فسارع فرهاد في بث شكواه وشرح ما جرى فقال وهو يمسك بخصلات من شعرها الكثيف القصير ويفركها بين أصابعه برفق، فقال وهو يزداد التصاقاً بها:

- أتدرين ماذا كان رد فعل بابا؟

أجابت للفور:

- من هينتك أجزم بأنه حصل نقار حاد بين الأسرة.

ثم تنهدت بصوت مسموع وأردفت قائلة بصوت أشبه بنشيج:

- إنني مهمومة كذلك، أرى وكأنني قد كتب علي الإخفاق في الزواج فهذه - كما تعلم- ليست الإخفاقة الأولى.

قالت كذلك بصوت أشبه بتأوه وأنين، ثم أحاطت عنقه بذراعها فصدرت عن تلاطم أساورها الذهبية الثلاثة رنة عذبة وطبعت قبلة على خده ثم همست في أذنه فشعر فرهاد بنفسها الحار تلفح صفحة خده:

- أنا أحبك وأنت تحبني - وهذا ما يكفي - ما عدا ذلك فمسائل ثانوية هامشية، أأست ترى ما أرى؟

أجاب للفور وهي ترد القبلة بقبلة:

- سأضحى من أجلك بكل غال ونفيس.

همس في أذنها وهو يحك ويمسح على بطنها بباطن كفه، باسطاً قدميه على البساط المزركش:

- كم عمره؟

- في حدود الثلاثة أشهر.

ثم تداركت قائلة وهي تحقق في عينيه:

- قل أو عمرها.

- ترغبين في بنت؟

صعدت كاتي زفرة حارة ثم شهقت بعمق وهي تحقق إلى الركن المظلم من الغرفة:

- إنه دافع غريزي، أود لو كانت لي طفلة ليست لها زرداك، فمجرد فكرة طفلة بلا زوجة الأب تؤنسني.

نقل فرهاد نظره صوب الباب المفتوح والفسحة المظلمة خلفه وقال بمرارة:

- تراودني فكرة أن نخرج من هذا البلد ونرحل إلى دولة أجنبية فكل جميل ولذيذ غير مرغوب هنا ومرفوض، تصوري أن قتل إنسان أهون من النوم في فراش من تحب وتختار كشريكة حياتك، الزانية تذبج والقاتل يخلو سبيله براءة، ويقال إنه قد غسل العار الذي لحق بالأسرة، لا أدري كيف يبرر الذبح مهما كان السبب؟ هل ترين هذا المكان مناسباً كدار إقامة لي وأنا لا أقوى على ذبح دجاجة؟

فبادرته كاترين بالقول:

- أدري بك، فإنك مرهف الحس، وأعلم أنك لا تؤذي حشرة ولك روح التسامح والغفران مثلي.

وقال فرهاد مندفعاً متحمساً لكلمة (مثلي) التي تلفظت بها:

- وهذا يفسر سرّ وجودي بين ظهرائي قومك وربّك الذي ينعتهم أبي جوراً بعرق خور ومردار خور، أكلي الجيف وشاربي الخمر، فمنذ إقامتي هنا منذ عقدين ونيف لم أسمع بحادث قتل واحد حتى ولا بشجار أو حرب كلامية أو نقار بين الناس، ولا حتى ارتفاع صوت فوق المعتاد لا في البيوت ولا على الطرقات.

صمت قليلاً مفكراً ثم قال:

- أفكر هذه الأيام في الخلاص لكن أُمي وأبي قد بلغ بهما الكبر خاصة أبي وأنا أحبهما فوق ما تتصورين.

فهزت كاترين رأسها مؤكدة:

- ولك الحق فلك أفضل أب وأم، هيهات أن تفكر بمفارقتهم يوماً، أنا أعتبرهما والديّ رغم تحفظات وتصلب موقف أبيك.

ترحزحت قطع سحاب الربيع فكشف عن وجه القمر البدر الثام، نور مضيء نفذ من خلال النافذة، فألقى جواً رومانسياً على ما حولهما بديعاً، وضعت كاتي رأسها على كتفه العريض وهي تتمتم وكأنها مع نفسها:

- الحب ما أحلاه، حبنا من نوع آخر ألا تظن؟ نشأ نشوءاً طبيعياً، نما كما النبات ينمو، خرج من الحبّة والبذرة ثم نشأت منه الجذور والجذع وخرجت منه الساق والأغصان والأوراق، ومرت بمراحل النمو الطبيعية كدورة المياه في الطبيعة.

أحاط فرهاد خصرها بساعده وجذبها إليه برفق، ثم مال إليها ليحديق في عينيها الخمريتين وأنفه يلامس أنفها المستقيم وقال:

- زميلاتي في الدائرة يقلن إن عينيك تشعان نوراً غريباً هذه الأيام لا سابق لنا به، إنه نور العشق، وأنا آنس الآن في عينيك نفس النور.

أشارت إليه بحركة رأس ما يعني؛ تأكد بنفسك واحكم، فحلق في عيونها الحور طويلاً يسبر غورها، وحرارة نفسها العذب تداعب وجهه، ودفع الربيع يبعث فيه نشوة ناعمة، فشعر وكأن شرارة كهربائية تسري في جسده فارتعشت أوصاله، أحاطها بذراعه وأخذ يضغط ب صدره على نهدا فتأوهت وغمرت رأسها في رقبتة، قرب شفثيه الملهتهبتين من شفثيه الطريتين الممثلنتين وأخذ يلثم ثغرها ويمصمص شفثها السفلى بين شفثيه حلم طفولته وشبابه، كانت قبلة طويلة ولم يتوان، ولم

يتحرك ولم يتراخى حتى بادرت هي فسحبت جسدها برفق تدفعه عنها ببديها
القويتين، وقالت وقد تسارعت أنفاسها:

- أحبك اليوم أكثر من أي وقت مضى يا أب طفلي.

عادا يجلسان كما كانا، وضعت رأسها على كتفه وذراعه يكتنف كتفها، بعد لحظة
سوت خلالها شعرها الذي تشعث قال لها ووجهه يزداد تورداً:

- شفاه أحلى وأعذب من رحيق الشهد وعسل النحل، وأطيب مذاقاً من التينة
الصفراء البرية التي ذقناها معاً فوق منحدرات الجبل الأسود.. لا تضاهيها حلاوة
إلا حلاوة النبق إذا أفرط في النضج.

توقف يسترد أنفاسه وقد غرق في لجة الهيام وأخذ يبيث حبه ونجواه ويقرن غرامه
بشكواه فقال بنبرة حازمة:

- شفتاك تغنيني عن الجنة الموعودة من رب أبي، سأغادر فردوساً خالياً من هذه
الشفاه.

وقال وهو يضغط براحته على وسطها الرشيق وأخذ ينطق كلماته بصوت شاعر:
- قرأت وحفظت آلاف من الشعر وخاصة الغزل والرومانتيك وبلغات أربع:
كردية، عربية، انجليزية وفارسية فلم أر وصفاً قابلاً مناسباً لك، فمهما قالوا ونظموا
فيبقى نظمهم ووصفهم دون حقيقتك، أنت قصيدة بوزن وقافية منظومة من غير
تدخل شاعر، لقد خرجت المحبوبة من القصيدة الغزلية كاملة دون رجز، ولن تعود
إليها، أو ليست أنت بنفسك القصيدة قائمة بذاتها بوزنها الطويل وقافيتها النونية؟
ثم جعل يتفحص وجهها وكأنه يراها لأول مرة:

- لا أزال أحسب نفسي في حلم، كاترين كان حلمًا صار حقيقة، إنها تتمدد في
أحضانني.

ثم استرسل في خياله وأنشد يحلق في سماء الغزل الحلال:

- يد عيسى معجزة الشفاء الشافية، لامس المرضى والمجزومين الذين أحبهم
وخاطب الأبكى والأصم فأبرأهم جميعاً، وأنا أمامي عيناك معجزة الأحياء والأبراء،
عيناك سلبتني الإحساس بالزمان والمكان ووحدهما يملكان وسائل مماتي وإحيائي،
زالت بوجودك عندي كل همومي.

ساد سكون أحس فيه فرهاد أن نبض قلب معبودته زاد من خفقانه تحت ساعده ويده المحيطة بخصرها كلما أسمعها شيئاً من ألفاظه الشعرية، سحب من الخيال حلق فوق فضاء الغرفة، لا يسمع فيه غير حسيس الأنفاس، بدده أخيراً صوت فرهاد الشاكي:

- لا أدري ماذا أفعل حيال ذلك، أنا رجل مستقل، معاش، عقل، صحة في حين يعاملني أبي معاملة الطفل.

فقالت وهي تمد يدها البضة إلى ما تحت ملابسه تتحسس بأناملها شعر صدره الغزير الأسود:

- لعل ذلك نتيجة حرصه المفرط، إنكما كلاكما مرهفا الحس.

حدق فرهاد في وجهها يتذوق صفاء ويرتشف من شفتيها ذكريات الصبا واللهو الساذج، فقال بنغمة كصوت الحالم:

- كاتي، لك وجه كالبدر التام بياضاً واستدارة، ما أحوجني الآن إلى بيت الشاعر الضرير أبو علاء المعري: سهيل كوجنة الحب في اللون وقلب المحب في الخفقان.

فقالت كاترين وهي تذوب رقة وعاطفة:

- أحب فيك رومانسينك أكثر من أي شيء، وعاطفتك الجياشة وحنانك وجمال ألفاظك، وأقدر فيك ذوقك لكل جميل، فهو ذوق سليم، ذوق فنان أصيل.

وعاد فرهاد شاكياً والده وكأنه داء بلا دواء:

- أبي رجل عصامي رجعي، الغريب أنه وبالرغم من وعيه وثقافته الواسعة فهو ضعيف واهن أمام التقاليد والعرف السائد، لا يسمح لنفسه ولا لنا من الانحراف قيد أنملة من القيم التي أراها بالية، إنه رجل التناقض: فما أشده وما أنزهه وما أحلمه وما أقساه، وفظاظته عند الغضب وبخاصة حين يرى أحد منا لا يرضخ لإرادته أو يبادر بمجادلته، لينفجر ويلقي بحممه النارية كبالركان، لو رأيت كيف جرّ قميصه حتى انقطعت الأزرار منه وتناثرت على البساط غير مبال لصرخة دادة تريد منعه، فرك فرهاد يديه ثم ألقى برأسه في أحضان كاتي، ثم قال وهو يرفع رأسه من تحت ذقنها:

- لي اعتقادي الخاص في أن الحب الخالص للناس الذين من حولك خير عبادة، اعبد من يحبك يعبدك، ما الحب إلا عبادة متبادلة بين البشر تفوق عبادته للذي في السماء

فهي خالصة من الرياء والزخارف، فهذه خير العبادات، وما عداها فمجرد ترهات وخزعلات.

ومن فوق عينيه تحرك ذقنها الناصع وفمها بدون أن تنبس، ومن تسارع نفسها أدرك أنها تنصت بكل جوارحها، الأمر الذي حدا به إلى طرح نظريته التي حورها فترة نقاهته:

- كاترين، إنني أرى أن أول حب حقيقي نشأ في الجنة بين آدم وحواء، وأول ظلم وعدم عدالة في الحكم وقع في الجنة كذلك، فطرده إجحاف، فما دفع أبو البشر إلى مخالفة أمر الخالق إلا حبه وثقته العمياء بزوجته، بحبيبته، وهذا إثبات محض أن الحب يسمو فوق الدين، أمّا ما يدعيه رجال الدين من أن المتعة حرام والخمر رفس.. فمبعثه ومصدره هو أنهم أنفسهم محرومون من تلك المتع بحكم مراكزهم الاجتماعية، فالدافع هو الحسد والغيرة، فالمعادلة هي؛ ينعم هو ويتمتع، وأنا انظر وأتفرج؟

أفس بنفسها الحار يلفح صفحة خده، فدفن وجهه في صدرها، فانتشى بعبيرها المنبعث من تحت إبطيها، وأسفر اضطرابها عن نفخات حارة نفتتها من ثغرها وهفت على وجهه المحتر، وتاه في خضم الخيال، قربت شفتاها من أذنيه فهمست فيها:

- أجزم أنك قد قرأت وتعلمت كثيرًا هذه السنين.
- علمني العذاب والعزلة، مارست مهنة نبي عاشق لردح من الزمن وهذه تعاليمي.
ربتت يدًا ناعمة على شعره الأملس ثم صعدت شهقة نمت عن حزن عميق فقالت بمزيج من المقت والمرارة:
- ما كان أغنانا عن هؤلاء الرفاق وهذا الحزب المشؤوم، فلولاها لعشنا أسعد خلق الله، الحيرة تلازمي، فحتى هذا اليوم لا أدري من أجل ماذا يقاتلون، وكل هذه الدماء الفتية والهدر المستديم؟

ناداها من تحتها منبهاً وقد تذكر أمراً، فقال معقباً:
- الرفاق يقولون معركتنا معركة من أجل الشرف والكرامة لأنهم مجردون منهما، فكل طرف يقاتل من أجل شيء يفتقده: هؤلاء الرفاق من أجل الشرف ومن يمدهم بالسلاح من أجل النفط.

سحب نفساً طويلاً وأخذ ينظر في ظل المصباح بشرود، وساد الصمت مرة أخرى، مد فرهاد رجليه ووضعت كاتي رأسها على صدره فسحر بعبير عطرها، شرعت أصابعه تمسح على بطنها برفق، واستغرق في تأمل طويل وقد شخص بصره على صورة المسيح ذي العيون الواسعة واللحية السوداء على الحائط فشعر بنوع من الرهبة.

مرت لحظات من الصمت عاد بعدها فرهاد متسائلاً:

- وماذا عسانا أن نصنع الآن؟ فقد تحدثت بخطبتنا رغبة أبي، ولكن أُمي فرحت جداً بعلاقتي معك.

- أُمي حبيبتني دادة..

قالت بحنان بالغ، وأردف مغتاضاً:

- لولاها لشعرت بشجاعة أكبر.

أطرق ثم واصل:

- أتعجب كيف للأديان أن تكون حجر عثرة في طريق الحب، في حين أن الحب هو صانع الدين والأنبياء، حتى النبي؛ الأمنية الوحيدة لأبي أن يراه في المنام ولو لمرة واحدة في حياته؛ قد تزوج من يهودية، خديجة، وهي التي ألهمته بل صنعته.

ثم أفاض وهو ينفخ في سخرية وابتسامة عريضة هازئة تعلو فمه الصغير:

- أبي المؤمن إلى أذنيه يضرب سها زوجة أخي مثلاً للزوجة المثالية، إنها حقاً امرأة طيبة محببة ودودة، أراها صباحاً وهي تضع قدمها على آخر درج من السلم، فتراني داخلاً بغتة عائداً من المدرسة فتمتد يدها تلقائياً إلى غطاء رأسها التي انحرفت قليلاً كي تعدله على عجل، لتستر شعيرات أو ذؤابات برزت من تحته، وهي لا ترفع رأسها إليّ ولا تنتظر في عيني، ملفوفة بالقماش من فوق إلى تحت، أتساءل كيف لا يختنقن تحت طائلة كل هذا الأمتار من القماش، ما أشبهها وأمثالها بكبسولة دواء انتبايوتك، مغلفة خالية من الهواء تماماً.

ضحكت كاتي ثم جذبته إليها وأحاطت عنقه بذراعها، ضغط فرهاد بصدره على نهدها فكادت نبضات قلبه تتحول إلى رنات جرس كنيسة، مرَّغ شفثيه بوجهها، لكنه فوجئ برطوبة الدمع، فتراحى، وغمغم:

- ماذا بك؟

أجابت تجفف دموعها:

- كنت أهفو إلى نتيجة ومآل أفضل من هذا.

وضع رأسها على صدره وربت على شعرها بلطف، فجاءه صوتها الحزين من تحت:

- لم يطف بخاطري يوماً أن ألقاك، ولم يطف في خاطري يوماً أن أهجرك.

أسارير وجهها انقبضت قليلاً قليلاً، واستبدت الحيرة بفرهاد، حيث رآها في بداية هذا اللقاء متفائلة ومنبسطة أكثر رغم علمها بالخبر المخيب، فقد قالت بالحرف الواحد: "أنا أحبك وأنت تحبني وهذا ما يكفي، ما عدا ذلك فمسائل ثانوية هامشية، ألسنت ترى ما أرى؟"؛ فما غير مزاجها بهذه السرعة.

أراد أن يجفف دموعها فبكى وبكى بصوت، واستغرقاً معاً في نحيب طويل صامت، ساد سكون طويل جو الغرفة، بدده صوت كاتي التي نهضت تشد على منديلها المبلل وحدثت في عينيه قائلة بكل هدوء:

- أفضل لو شاورت عمتي بالأمر أولاً، عساها تعينني على إيجاد حل.

ثم أضافت مردفة وقد شابت صوتها أنه:

- فرهاد الأمر أجلّ وأخطر مما تظن.

وختمت كاترين بهذه الكلمات لقائهما هذا، تعانقا طويلاً وصاحب عناقهما نحيب واتفقا على موعد قريب.

* * *

وتلاقيا بعد ثلاثة أيام تحت نفس السقف، وهناك شربا معاً كأساً من النبيذ المحلي المعتق، وبعد العناق والقبل جمعت شتات أفكارها وخاطبت فرهاد بلهجة رصينة:

- لقد أطلعت عمّتي على حبلي وخطوبتنا السرية، وهي الوحيدة التي تعلم ولا يجوز لأحد آخر أن يعلم، فعقدنا معاً جلسة طويلة للتباحث والتشاور، وبعد نقاش ودراسة شاملة للوضع الحالي، أعني وضعكم العائلي ووضعنا، توصلنا إلى حل وسط لما حصل، إنه يبدو بسيطاً وما هو بسيط، لكنه الأفضل كما أرى- أنياً على الأقل.

ازدادت عينيه المتعبتين توسعاً ووجهه المنكمش انكماشاً، فتح فمه ولكنه لم ينبس، خانتته الكلمات.

قالت وهي تزيل شعرة بيضاء متناهية في الصغر من فوق خدّه البارز:
- الحقيقة إنني أشعر وكأنني أصبحت حجر عثرة في طريق حياتكم، فلکم ما تكفيكم
من الهموم، ولقد تمكنت وفي فترة قصيرة أن أدرس وألاحظ وعن كذب كل شيء
عنكم، وهذه المعرفة ساعدتني في اتخاذ قرار عاجل كحل وسط أرجو أن يعجبك،
ألا وهو أنني قررت أن أبتعد عنك لفترة من الزمن، عن حياتك، حياتكم...

قاطعها فرهاد بقوة وهو يتراجع بذهول:

- لا.. لا أريد سماع ذلك، لا أسمع لك.

تناولت يديه وأودعتهما بين راحتيها، والتصقت به وطبعت قبلة خاطفة على أرنبة
أنفه الطويل جاهدة تخفيف وطأة قرارها الثقيل على قلبه، فقالت بلهجة رصينة
وجادة:

- طيلة الأيام الماضية فكرت فيك كثيراً، وتبين لي أنه لا استقلالية لك، أنت في
موقف أضعف من أن تتخذ قرار، يبدو لي أنك واسع الرأي ولك ولع وبلاغة في
الكلام ولكنك قليل الفعل متردد، على النقيض من أخيك فهو قليل الكلام كثير العمل،
وهو شجاع مقدام.

ثم تداركت بعد أن رأت على وجهه الطويل علامات القنوط والحرَج، فقالت مخففة
عبء حكمها السابق:

- أقول وبالأحرى أنك بسبب أبيك لأضعف من اتخاذ قرار حاسم نهائي، ولا أخفي
عليك أنني خائفة، أخاف من غضبه لو علم بالأمر.

وحدّ الصمت روحيهما المعذبة، وابتلت الأهداب بدموعهما، وهما لا يملكان شيئاً إلا
ضربات قلوبهما وتمتمات شفاههما المتباطئة، وأضافت وهي تزداد التصاقاً به
لتطلق رصاصة الرحمة:

- أكملت دورتي التدريبية وإقامتي كمرضة ممارسة - تقريباً - والحقيقة أنني قد
مددت فترة الإقامة هنا بسببك والتي نفذت قبل شهر، بعد أيام سأرجع إلى الشمال،
وحالما يصفو الجو وتؤكد لي أن الأوضاع قد تبدلت سنعود لبعضنا كما كنا وأحسن،
أنا متفائلة فكن متفائلاً مثلي.

حرّك فرهاد يده اليمنى بحركة مكوكية عصبية رافضة هاتفاً:

- فكرة مرفوضة من الأساس، لو فعلت ما قررت فستصبح دنياي إذن أكثر حلقة وظلاماً، عشت بك بأمل، وكنت الأمل، وإذا الأمل زال فمن يضمن لي الحياة، ولسوف يحل الشقاء تارة أخرى محل الصفاء.

فردت ملوحة إلى بطنها قائلة بإشفاق ذاب له قلبه الخفاق:

- إنه في ارتفاع متواصل، إن أول شيء ينبغي علينا التفكير فيه هو تفادي الفضيحة، حفاظاً لسمعتنا نحن الاثنين، ولك أولاً، ولكم ولعمتي، وهذا لا يمكن تحقيقه هنا، أما هناك فالأمر يمكن تبريره بطرق شتى.

ثم ختمت حديثها بكلمة بعثت في قلبه المريض قشعريرة وفي أطرافه رعدة:

- فإن للمرأة في زمن الحرب أكثر من وسيلة لتلافي الخطر في زمن كله خطر، الناس تبحث عن ملاجئ بسبب الحرب، وأنا أتخذ من الحرب ملجأ من الناس.

انقضى شهران منذ اختفاء كاترين، وانتهى العام الدراسي وبدأت العطلة الصيفية فاعتكف فرهاد في غرفته كما فعل عدنان من قبل، فوجد في غرفة النقاهاة سلوكته الوحيدة حيث قضى وقته فيها في قراءة الأشعار ونظمها وخاصة أشعار الغزل، فما حرم منه على الواقع مارسه على الورق، فالورق كان بالنسبة إليه له نفس دور المرأة في حال أخيه، كان بين الحين والحين يتكى على مسند سريره ويطلق لخياله العنان ويتمتم بمرارة: اختفت كاترين بالطريقة التي ظهرت بها، فما أشبهها بزهور الـ (نازناز) تطلع وتورق صباحًا ثم تذبل مساء.

شهران من الشقاء والألم لم يكن أنيسه سوى القلم، والأنيسة الثانية بعد القلم كانت أمه، لم يتدخل بأمور الأسرة وكان الرابط الوحيد بينه وبين العالم الخارجي هو راديو بابا الهادر من غرفة الوالدين، ودقات بك بن يليها الصوت الأجش للمذيع هنا لندن.

- كنت جبائًا، دادة.

اعترف مرارًا لدى دادة كلما دخلت عليه، وتردد دادة مؤكدة:

- بل قل كنت شجاعًا، ولا تنس أنها امرأة ذكية وفية، فأمثالها موضع اعتماد وثقة.

ثم وهي تربت على كتفه:

- سترها وستشبع من رؤيتها والأمل من زواجك منها لا زال قائمًا، فأفة الآفات الاستسلام لليأس.

هذا ما قالته كاتي نفسها في اللقاء الأخير، ثم ترمقه أمه بعينين يفيض منهما اليأس والرجاء ويغمغم وهو يسترجع الماضي القريب:

- كانت واثقة بأن الأمور ستتحسن، ولكنها كانت خائفة أن تصبح سببًا لمشاكل أسرة عانت كثيرًا، وخشيت أن يدب فيها الشقاق بسببها.

وتنطلق صافرات الإنذار فتترامى إليه أصوات وجلبات الثلاثة تحت الدرج وهو غير آبه، وهمسات متبادلة تتحدث عن القصف، فكل يدلي برأيه وتقديره وحده عن الموضوع الذي استهدفته الغارة هذه المرة.

أما هو فيسد أذنيه بالقطن ويسحب البطانية فوق وجهه غير أبه لارتجاج الجدران التي تكتنفه، ثم يغمغم مع نفسه مستشهدًا بقافية من قصيدة أبي الفراس الحمداني الدرامية الغزلية: إذا مت ضمآنًا فلا نزل القطر.. وتحت اللحاف تتراءى أحلامه وآماله وتتراقص الصور المعتمدة والمضيئة، وفي خضم الأفكار السوداوية يواسي نفسه بالتشبث بالآمال الواهية مناجيًا إياها:

- لا سلام بلا حب ولا حب بلا سلام، أنا تحت مرمى مدفعين أرض وسماء، سوف أراك يا كاترين قريبًا لكن مهلاً لنرى كيف تسير الأمور.. إنك أمل حياتي، أنا أعبدك وأحب حتى الصليب التي تحمليته رغم أنني أرى من حمله سفسطة، كنت شمسًا أضاءت دنياي المظلمة، كاترين كنت ماء روى قلبي الظامئ بعد عقدين من الجفاف والقحط والجذب، بلسمًا داوى جروحي، نورًا أضاء دربي المظلم وأخرجني من الظلمات إلى النور.

ثم يعود إلى نفسه المرهقة فيزيدها إرهاقًا بذر الملح على الجرح، فيشرع بمعاينة نفسه وإيلاهما متلذذًا:

- إنها هي الضحية كما أرى والغريب أنها رغم ذلك بدت في تصرفاتها ومعالجتها للأمور وكأنها هي المذنبة.. أنا وعدتها بالزواج بتصميم لا يتزعزع وأنا الذي أعلنت تراجعني غير المباشر على لسان والدي ولست بمراجع حقًا، فأني كائن مترعزع أنا؟ أين إرادتك وشخصيتك ورجولتك يا رجل يا ذا اللب اللبيب؟!

وتحت اللحاف روادته أفكار من وحي ما قرأ:

- المسيح الذي صلب مع لصين صلبا معه وقد دعا للذين صلبوه، أي لقاتليه، معترفًا عنهم ولهم بأنهم قوم لا يفقهون ما يفعلون.

ثم يعود إلى نفسه يخاطبها مؤنبًا:

- الويل لي لو كنت قد تصرفت على هذا المبدأ إذن لصدق قول أبي عليّ، وها أنا كذلك لم أفقه ما فعلت وها هي تغفر عني وتدبر، ولعليّ كنت لصًا وجزائي الصلب أو الرجم ولكنها غفرت لي لمجرد اعترافي لها بقصوري وقلة حيلتي أمام القاضي الذي اسمه عمر أفندي.

قلت بعد اللقاء إن كاترين كانت حلمًا صار حقيقة، وها هي عادت حلمًا وخيالًا، ومضة توهجت أمام عيني لحظة ثم عادت لتسكن من جديد في أحضان الذاكرة والأوهام.

وتوالت الأيام وهو على حاله من الاعتكاف والآنزواء رغم توسلات أمه التي سفحت دموعًا غزيرة له، وسمعتها أكثر من مرة شاكية: ها هو الآن الثاني أصيب في دماغه، أكتب علي أن أكون بلا ابن صحيح؟، لم يكن عدنان أشد حزنًا وقلقًا بما حدث لشقيقه، فرأى أنه لا بد أن يكون له دورًا أقوى مما لعبه طوال محنة أخيه وعزلته، فحاول التخفيف عنه وإعادته إلى طبيعته المعروف عنها بالمرح والمزاح، دق بابه يومًا فلم يفتح له، فاضطر إلى الدخول عنوة، كان قد وصل للتو في إجازة طويلة، مرتديًا بنطلون كاوبوي مشدود من الوسط بحزام جلد عريض سميك، على رأسه استقرت قبعة مكسيكية تبرز من تحت حواشيها العريضة خصلات متربة مغبرة من شعره الأجدد، وأقبل عليه واقفًا بجوار سريره وهو يهف بيديه على وجهه شاكياً:

- الطريق نار عبر الصحراء كأنها صحراء سان فرنسيסקو، يا أخي.

فأخرج فرهاد رأسه من تحت اللحاف ووثب قائمًا لدى لمحاه لوجه أخيه المرح فوقه وملامحه الوديعه، فتعانقا طويلاً وخرجا من الغرفة هكذا متعانقين وعبرا الممر باتجاه الهول (صالة الجلوس) فألفيا سها تقف أسفل السلم في ردائها الرمادي الطويل، تبسم لهما بعيون دامعة وتدعو لهما بالخير والسلامة، وكبتت دادة زغرودة وهي ترنو إليهما من باب المطبخ والسمن يقطر من يديها الملساوين فهتفت من مكانها لفرهاد ممازحة:

- ما أخرجك يا أفعى من جحرك سوى قاتل العقارب المحترف.

وفي وسط الصالة تساءل عدنان بتذمر جلي:

- ماذا جرى لك أخي؟ بل قل لي ماذا حدث لدماغك؟

أجابته فرهاد في وهن:

- كنت في حالة اعتكاف.

- هداك الله إن شاء الله.

دعا له الله عدنان مستبشراً.

- بل أغواني الشيطان، ثم هداني العلم.

ردّ فرهاد بصوت منخفض لم يشأ أن يطلعه على التفاصيل، ولم يطلب منه عدنان ذلك فقد علم من أمه نبذة مختصرة بما حدث من تطورات عاطفية في حياة أخيه، والتي أكدت له بالمقابل أن أخاه لا يحب أن يذاع سره.

وجاء صوت الطفل الباكي من فوق، كانت سها لا تزال تقف تحت السلم تنصت لكلام الرجلين ولأي صوت ينبعث من طفلها، فصعدت السلم بخفة ثم هبطت بعد عشر دقائق تحمل أسو على ذراعيها، ومضت به إلى حيث كان الرجلان يجلسان ويتحدثان، واتخذت مجلسها في الركن القريب من المدخل بعيدة عنهما، وضمت الطفل إليها الذي كان يضرب ويركل برجليه العاريين بلا هوادة وعصبية، بدا قويًا صحيحًا، وكانت مصاصة شفافة صغيرة تنغرز في داخل فمه الصغير، ومن ركني شفتيه كان يترشح سائل لزج مع رغوة قليلة.

وجاءت دادة على عجل وكأنها تحمل خبرًا فيه يقرر مصير العالم، وأطلت بوجهها المتورد وهي تجيل ببصرها على الوجوه الثلاثة:
- لقد أعددت لكم كفتة لذيدة.

فأشار عدنان بيده ما يدل على الاصطبار والتأني وقال لها:
- لا داعي للعجلة، إجازتي طويلة هذه المرة، شهر واحد، مكافأة من الحكومة ترميًا لجهودنا الإضافية.

وقبل أن تعود حيثما كانت غمرت لعدنان غمزة فهم فحواها، فاستدار إلى أخيه قائلاً:

- تشجع؛ أعرف وتعرف أن لكل شخص همومه ومشاكله، ومهما كانت مشاكلك اليوم والتي تراها مستعصية أو معقدة فهي لا شيء، يسير وهين مقارنة بحال الناس من حولك، قل الحمد لله.

لما آنس على وجه أخيه انشراحًا ضئيلاً تشجع وأضاف:

- ما شاء الله أنت مدرس، ولك معاش، وتتمتع بصحة جيدة ومغفو من الخدمة العسكرية، في زمن فيه الموت أقرب إلى البشر من وريد عنقه.

نهض بعدما أتم هذه النصيحة وعانق أخاه عناقًا حارًا وطبع قبلة على كلتا وجنتيه، وفي تلك اللحظة اقتحمت رائحة اللحم المشوي منبعثة من مطبخ دادة أنفيهما، فأخذا يستنشقان معًا الهواء بعمق صائحين:
- الله الله لذيدة.

ثم صافح عدنان أخيه ثم أشار إلى جهة المدخل وهو يقول له كاشفًا عن أسنان أمامية متراسة صغيرة:

- ولا تنسَ أن لك نعمة كبرى أخرى لا تشعر بها، لا يعادلها سوى نعمة كاترين.

فبادره فرهاد بالسؤال بفضول:

- وما تلك؟

تخلل عدنان خصلات شعره الأجد بأنامله يسوي ما تشعث منها، وأجاب أخاه بكلمة وابتسامة:

- كفتة دادة.

ثم تركه وحده يضحك ملء شذقيه، أمسك سها بيد وباليد الأخرى ضم الطفل إلى صدره بحنان بالغ وطبع قبلة طويلة على جبينه، واستنشق رائحة الطفل وشمّه شمًا تحت أنظار فرهاد الذي رفع رأسه ينظر بمزيج من المشاعر، وطفقا يرتقيان السلم كنتفاً لكثف وهما يضحكان باغتنباط ونشوة.

في المساء أخذ عدنان سها وآسو في جولة بالسيارة حول البلدة وعادا عند صلاة العشاء، وكالعادة جلست الأسرة بعد تناول الطعام والصلاة في غرفة الجلوس؛ دادة إلى جانب فرهاد وقبالتهمما جلست سها مع عدنان، أمّا الأفندي فكان مستلقيًا على أريكته الحمراء ينصت فاغر الفاه.. قالت دادة لعدنان بلهجة جادة:

- أخشى عدنان من هذه الرحلات، أسمع أخبار متفرقة هنا وهناك فأشعر بقلق وخوف، أنت سائق منشأة ورحلاتك بعيدة جدًا..

وبثقة رفع عدنان رأسه ولمح بيده في عدم اكتراث وقال مطمئنًا أمه:

- لا خطر علينا البتة، نحن نقوم بعملنا بنقل أكياس وصناديق ولا أعرف حتى محتواها.

ومضي إلى أمه يطوق عنقها ويطبع قبلة على خديها الشاحبين متجاهلاً الفكرة التي طرحها أبوه وقال بعذوبة:

- كانت كفتة لذيدة مذاقها لا يزال تحت لساني.

وداعبه فرهاد معقّباً:

- إذن عليك ألا تغسل أسنانك، واحمل المذاق معك في الشاحنة.

انتهاز الفرصة عدنان فرمقه بنظرة ذات مغزى ثم التفت لأمه مشيراً إلى فرهاد:

- دادة، ابنك الكبير هذا تفوح منه روائح غريبة جديدة هذه الأيام، أمّا شممت؟

صفقت دادة ومضت إلى عدنان تضمه باغتنباط وهتفت بمنتهى الجذل وهي تنظر إلى فرهاد الذي ظلّ جالساً يبتسم تحت شارببيه مغلوباً عليه:

- العشاق يفقدون الشهية للطعام عادة أمّا هو على غير العادة قد زادت شهيته!

ضحك الجميع إلا فرهاد الذي ظل صامتاً ينظر إلى الصورة بنظرات شاردة، وفجأة هرعت دادة إلى المطبخ وهي تولول:

- الشاي نسيته على النار.

ارتقت سها السلم، ونهض عدنان وراح يجلس إلى جانب أخيه، وضع يداً على كتفه ومال إليه قائلاً له بصوت منخفض:

- كاكه في المرة القادمة سأحاول أن أنفك أكثر في شأنك الخاص.. ليس لي أخ سواك، وأنت ليس لك أخ سواي، فسنوح طاقاتنا معاً ونتعاون معاً في حل جميع مشاكلنا.. حسناً؟ اسمع كلامي وإن كنت أنت الأخ الأكبر، فلا تقلق وتجلد وكن مؤمناً بقضاء الله فكل ما يحدث لنا فهو خير لنا وفي صالحنا ولكن نحن لا ندري، يقول الله في محكم كتابه: وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم - صدق الله العظيم.

وضع فرهاد يداً على يد أخيه ونظر إليه بعين ملؤها الحب والإشفاق في آن واحد، وأحنى رأسه مرتين متتاليتين بما يعلن عن استحسانه بما قال أخوه، وأضاف عدنان وهو يدينو أكثر من أخيه وقال هامساً في أذنه:

- ها أنت تراني كيف أكافح وأكدح وأقطع البراري وأولج الليل في النهار قابلاً وراء مقود الشاحنة الطويلة، أقاوم الجوع والعطش والحر، وأحياناً ينقطع طعامي فاضطر أن أظل جائعاً مكتفياً بكسرات من نان دادة بما يسد الرمق.

صمت برهة يستجمع أفكاره ثم أضاف قائلاً وهو يبتسم ابتسامة كالحة:
- الكلام بيني وبينك عملي شاق لكن اعتبره واجباً، تزوجت ولا بد أن أؤمن قوت
طفلي، ولا يهم أية مهنة، المهم هو أن أكتسب منها معيشة أسرتي، وما تبقى أضعه
في يد أمي.

تنهد ونفخ ثم أضاف بنبرة يائسة:
- البحث عن مهنة أخرى أمر بلا جدوى بل مستحيل، فمن ذا الذي يوكل عملاً إلى
شخص لا يملك شهادة مدرسية؟

نظر فرهاد إلى الخطوط المتوازية والتي لفحتها الشمس حول عينه اليسرى،
والحفرة التي اختفت تقريباً تحت طيات شعره الكثيف، والشيء الذي أهمه دائماً كان
عينه، فبرزوها الظاهر خارج محجرها واحمرارها ظل هاجساً جاثماً.
نهض وضمه إليه وهمس في أذنه:

- أنت شجاع وأخ وابن بار لأبويك.. ندعو لك، ولو وجدت عملاً آخر أهون وأسهل
لك سأخبرك، أعاهدك بأنني رغم همومي سأبذل المستحيل في سبيل ذلك.

ثم قبل أن ينهض اختتم بالقول:
- وأعاهدك أيضاً بأنني سأعمل عملاً إضافياً فوق وظيفتي كي أجمع مبلغاً كبيراً من
أجل إقامة مشروع آخر يهكم.
- أي مشروع؟
- سأجعله مفاجأة.

* * *

ردد فرهاد كلماته التي كررها على مسمع أخيه قبل رحيله مراراً وتكراراً
(وإعاهدك أيضاً بأنني سأعمل عملاً إضافياً فوق وظيفتي كي أجمع مبلغاً كبيراً من
أجل إقامة مشروع آخر يهكم).. وأتمّها بعد رحيله تحت لحافه في حلقة الليل:
- بما يكفي لإجراء عملية تجميلية لك.

فمنذ اختفاء كاترين المفاجئ انتعشت في ذاكرته أحداث من أيام النحس وعادت إليه
عقدته القديمة بطاقة وزخم جديدين؛ عقدة الحجر واللامسؤولية كأكبر، منذ حديثه
الأخير مع أخيه ظلت كلماته ترن في رأسه وهو يعلن عن تدمره ولو بشكل غير

مباشر: (البحث عن مهنة أخرى أمر بلا جدوى بل مستحيل، فمن ذا الذي يوكل عملاً إلى شخص لا يملك شهادة مدرسية؟).

اختفى طيف أخيه أمام عينيه فجأة لتحل محله صورة وصوت كاترين التي قالت له في الزيارة الأخيرة: "يبدو لي أنك واسع الرأي وبلغ الكلام، ولكنك قليل الفعل متردد، وأخوك قليل الكلام كثير العمل، وهو شجاع مقدام"، أصابت معبودتي الذكية الهدف هذه المرة أيضاً، سحب نفساً ونفخ نفساً نفخة اهتزت لها بطانة غطائه القديم، ولسان حاله يحدثه: ها هو أخي يخاطر بحياته من أجل كسب قوت أسرته وطفله ومضحياً في سبيل ذلك، أمّا أنا فلا أعرف حتى كم هو عمر نطفتي التي ترقد الآن في رحم مخطوبتي ولا أعرف حتى محل إقامتها.

أوقف فرهاد سيارته تيوتا كورونا أمام باب بيتهم في ظهيرة متأخرة من ذلك اليوم القائظ من شهر تموز اللافع، فألقى النسوة الثلاث دادة، سها وليلى خرى أم عاشور؛ جاثمات على مدارج الباب، تمسك كل واحدة منهن مهفة يدوية تهف بها على وجهها وعنقها لتطرد عنها الحر الشديد.

كانت مداخل البيوت تكتظ بالنساء وخاصة عند انقطاع الكهرباء جراء القصف، ومن أجل قتل الوقت كن يخضن أحاديث ويتبادلن قصصاً من هنا وهناك فيها كثير من المبالغة، وتنتهز بعض النساء الفرصة كي يتبادلن آخر الأخبار عن الحرب نقلاً عن أزواجهن.

خرج من السيارة وأدى التحية بابتسامة عريضة؛ منحنياً لأم عاشور التي كان يجد متعة غريبة في الإنصات إليها، بشعرها السبط القصير وعنقها الضخم القصير وشفاهها الغليظة، ففي وجهها كان شيء يبتسم إلى الناظر دوماً، وزادتها بدانتها ملاحه، البدانة التي لم تزل مدمجة قوية لم يعترها ترهل، وكلما أتى الذكر على أمير صديق عدنان رسمت شارة الصليب على صدرها وافترقت شفاهها الغليظة عن دعاء صامت غليظ، فقد علمت منها شخصياً أنها هربته وباعت السيارة لسد نفقة الهرب، وأنه والحمد لله وصل بسلامة إلى عمه في كندا بعد رحلة خطيرة فيها كثير من المجازفة.

كان يكن لها كل الحب والاحترام لطيبتها وبساطتها ويناديها أمي الثانية، وقد أخبرته يوماً عن صديق الطفولة عاشور بأنه يسكن في شقة مع بتول، وأن أباهما كان أغنى أغنياء البلدة وقد دفع كلفة صنع رجل اصطناعي له.. اتجه نحو الباب ولم يخط خطوة إلى الداخل فإذا بأمه وسها تقفان بوجهه وتعترضان سبيله، وأخذتا تسألانه بـرجاء:

- هل حصلت على خبر عنه.

فقال محتجاً ينتحي جانباً:

- هلا اصطبرتم كي أشرب ماء أولاً، العطش يقتلني.

- اجلس.

أجلسته دادة على إحدى الصبات الكونكريتية بمقربة منهن، وأسرت تدلف إلى البيت وعادت بقدر كبير من الماء المثلج، تناوله منها واجترعه دفعة واحدة، مسح العرق من على جبينه وعنقه بمنديل منقع بالعرق والغبار، وقد فتح من الحر طوق قميصه المبتل فبدت من فتحة فانلته الواسعة خصلات من شعره الأسود، لمحتة سها من هناك فغضت ببصرها متشاغلة باللعب مع الطفل الذي لم يكفّ عن البكاء طوال الليلة الفائتة.

أخذ يرتب شعره الأشعث الذي شابه بعض الشيب، أحس العيون مركزة عليه تطالب بتقرير عما سمع وعما جمع من أخبار من المدينة، لم يرفع رأسه ولم يلتفت؛ إذ كان بحاجة إلى لم جمع أفكاره المشتتة قبل كل شيء ويأخذ قسطاً من الراحة، فقد عاد من المدينة بعد بحث مستديم عن أثر لأخيه الذي طال غيابه هذه المرة فوق كل المرات السابقة التي تأخر فيها، تنفس ملء رئتيه وقال مخاطباً إياهن بامتعاض:

- ألعن هؤلاء الطفيليات، اعترض ثلاثة منهم طريقي وأرادوا أن يقودوني إلى مقر الجيش الشعبي فأعلمتهم أنني معفي بقرار حكومي، لكن أحدهم أصر وأخذ بيدي وقادني إلى غرفة من الصفيح في الجوار، وطلب مني إظهار هويتي ففعلت؛ فقال أنت مخالف وأخذ يختلق الذرائع، في تلك اللحظة تذكرت زميلاً لي حدث له ما حدث لي، فممدت يدي إلى محفظتي فانشرحت سرائره وانشرح صدري.

ثم جعل يتنهد:

- تباً لك من زمن الأمر فيه بيد الحثالي.

ملتفتاً إلى أم عاشور وكأنه يستفسر رأيها، أحنّت أم عاشور رأسها بالإيجاب وهي تلقي بحفنة من خليط من فستق العبيد والزبيب وأشياء أخرى لم يتبينها في فمها المتحرك دوماً، ثم قالت تلوك بلسانها بشيء من التوتر:

- غدر وظلم، كل من له جاه ومال ينجو، ومن ليس له لا هذا ولا ذاك شهيد غصباً.

ثم وهي تتنهد بحسرة وتوقفت لسانها عن الحركة وانقبضت أساريرها، وهي المعروفة بروح المرح حتى قالت دادة عنها إنها لا تفقد روح المرح حتى في أشد الأوقات صعوبة؛ قالت مستقيضة:

- خير دليل على الاستغلال هو أن عدد الجنائز التي تعود إلى هذه القرية ضعف ما تصل إلى المدينة ذات التعداد السكاني الستمائة ألف نسمة.

ثم مدت يدها تلقي بحفنة أخرى مما في جفنتها، وانصبت العيون على فرهاد الذي أخبرهن بما رأى وما سمع في المدينة:

- زرت المنشأة وسمعت منهم ما سمعت في المرة السابقة، قالوا لي: حسب علمنا أنهم كلفوهم بعمل إضافي، وهذا شيء عادي جداً ما داموا يعملون على خط المجهود الحربي.

نظر نظرة خاطفة على الوجوه ثم أضاف:

- ومن بين هؤلاء الذين زرتهم كان منزل السائق الذي اسمه وحيد، الوحيد الذي أعلم بمحل سكنه فقالت لي أمه أنه لم يعد بعد.

ثم نهض ووقف بجانب أمه وأخذ يربت على رأسها برفق وهو يتأفف من القیظ وطمانها قائلاً:

- لا داعي للقلق إذن حبيبي دادة.

كلمات ألقت الراحة في قلب دادة التي أسرعت إلى الداخل وعادت تحمل بيدها قارورة كبيرة من ماستاو تتراقص فيها قطع الثلج العائمة، مسح العرق من على جبينه العريض وأخذ يشرب الشراب الصيفي الممتاز في جرعات متقطعة، وناولته دادة مهفة.

شعر وكأن عبئاً ثقیلاً انزاح من على كاهله، فطيلة الأسبوع المنصرم لم يصل مسمعه سوى كلمة نه هات نه هات، لم يأت، لم يعد، من المرأتين: زوجة أبيه وزوجة أخيه، وقد كان بسبب همومه العاطفية اضطر إلى العودة إلى معاقرة الكأس هرباً من ريقة الذاكرة ومن ألم الحاضر، فأدرك بمرارة أنه لم تنفعه الخمر بل أضرت له لأنها قد أشعلت ذاكرته وأنهضت أحزانه الهاجعة.

وفجأة ارتفع صوت آسو بالبكاء، فراح إليه وأخذه من فراشه الصغير فوق عربة الأطفال قبالة سها التي بدت أكثر انشراحاً، حمله بين يديه يرفعه إلى أعلى ثم يخفضه بالتناوب، وكان ذلك دائماً إجراءً كافياً لتهدئة الصغير، وفي الحقيقة كان الطفل خير عزاء وترويح له في غياب أخيه وكاترين، يتمتع بملاعبته وهدهدته ومناغاته وكأنه هو سعادته الباقية.

حمل فرهاد الطفل أمام نظرات النسوة الفضولية وسار به إلى المنتزه الصغير الذي تقع فيه النافورة ليتفرج على لعب الدعابل هناك، فجلس على مصطبة خشبية حيال الرجال المتحمسين في وسط من اللغط والصخب وأجلس أسو في حضنه ممسكاً به بين يديه، كل ذلك في مرأى من النسوة الثلاثة.

وبغثة انتقل فكره إلى تلك التي نأت عنه لـ (قلة إرادته) كما حكمت عليه، وأخذ يتساءل بمرارة: "أين هي يا ترى؟ وأين ولدي؟"، كان قد مر قبل أيام قلائل أمام شقة البلابل العاشقة كما شاء له تسميتها، وطرق الباب فلم تفتح له عمته فأدرك أنها هي كذلك بدأت تتحاشاه.

* * *

وفي اليوم التالي، الجمعة جلست الأسرة كالعادة في الطارمة، كان الأفندي يسقي الورود والعشب منحنيًا بجسده الضئيل المقوس؛ قابضًا على طرف أنبوب الماء البلاستيك يرش بها ما حوله، فبيعت رائحة ترابية منعشة رطبة في ذلك اليوم الجاف الحار من منتصف تموز، كانت الشمس ترسل أشعتها اللاهبة منذ الصباح الباكر، ومن مكانه شرع بابا في تقديم تقريره الإخباري حول آخر التطورات على الجبهة: - يقال إن الحكومة هي نفسها التي تقوم بقصف المدن كجزء من حملة دعائية يراد بها تشويه سمعة الطرف الآخر؛ أي الإيراني.

وبعد أن أتم تقريره أخذ يمسح العرق من وجهه الشاحب المتغضن العبوس بطرف كم قميصه المترب ثم عاد ليتخذ مجلسه على أريكته، لم يأبه فرهاد كعادته بأخبار أبيه، إذ تعزز لديه شعور بأنه متحمس وينحاز إلى طرف حكومة الملالي؛ لا لشيء إلا لأنه اعتبر صدام كافر وحجج وآيات الله مسلمين، ولو اختلفت آرائه كليًا تقريبًا عن آرائهم في الدين والسياسة ووصفهم بالدجالين.

ربت على ساعد أمه يشير إلى أعلى غصن من شجرة اليوكالبتوس المصفر حيث شرعت طائري كوكوختي/ الحمام البري (الفاخته) تتفخان معًا على أناشيد حب مكتوم، ومن ورائها لاحت لهما السماء المغبرة والشمس الصفراء المستديرة استدارة نان دادة.

كانت سها مرتدية رداءً جديدًا وكانت تلمع من النظافة، عيونها المكحلة على الباب تنرقب وفي نفس الوقت تنصت بشرود وإن تصنعت الاستماع الجيد، وكانت تضع

غطاء رأس جديد من الحرير الأبيض رسمت عليه زهور صغيرة ملونة، وكانت قد هيات الشاي على عجل نزولاً لرغبة دادة التي كانت تتوق جداً لشرب الشاي في مثل هذه الأوقات.

مضت إلى الداخل وعادت تحمل بين يديها صينية رصت عليها أكواب طبعت عليها زخارف مزدانة بالألوان ورسوم الطير، فوزعت الأكواب المترعة ووضعت كوب الأفندي منفرد على منضدته الصغيرة بجانب الأريكة، ثم اعتذرت ومضت إلى داخل البيت للعناية بالطفل الذي اعترته ومنذ الصباح الباكر نوبة بكاء جديدة متواصلة.

قامت دادة ومضت مسرعة إلى الحديقة واقتطفت وردة من كول محمدي ونقعتها في قدحها تبركاً، ظلوا هكذا لدقائق لم يعد يسمع خلالها سوى صوت رشف الشاي وكركرة البسكويت، كسر الصمت دادة بقولها:

- أيا ترى ماذا سيجلب معه هذه المرة؟ بيرية أم مناظر، أم هدية لآسو؟

ثم رفعت نظرها شاخصة إلى الأفق، وجعلت تمتم بكلمات غير مفهومة النقط منها فرهاد كلمة الله ومحمد ويا حافظ، ثم وعلى حين غفلة نهضت من الكرسي وهي تهتف بعزم لتفاجئ الأب والابن:

- إنه في طريقه إلينا، يكاد يصل، اشربوا نخب عودته، اشربوا مع مذاق الورد المباركة.

فرفعت الأيدي بالأقداح وانفرجت الشفاه عن ابتسامات عريضة، ولم تكد الأقداح تبلغ الأفواه حتى خرق مسامعهم طرق خفيف على الباب، فوثبت دادة تعدو إلى الباب ومن ورائها فرهاد وبابا.. فتحت دادة الباب مسرعة مشرقة الوجه؛ فوجدوا أنفسهم واقفين وجهاً لوجه مع المختار مام حبيب، الذي سلم كاشقاً عن فم لا أثر فيه إلا لثلاثة أسنان جانبية مسوسة صفراء، كان يمسك بحقيبة سوداء صغيرة في يده، المعروف عن المختار أنه كان ينقل الأخبار إلى ذوي الجنود المرسلين إلى الجبهة والعاملين في حقل الدفاع المدني والمجهود الحربي، والإبلاغ عن الهاربين والمتخلفين من الخدمة العسكرية..

مدت الأيدي إلى الأفواه واضطربت القلوب وتيبست الحناجر، وتذبذبت الآمال بين خوف ورجاء، أمّا المختار فأخذ يجيل النظر في الوجوه المقطبة المصفرة وهو

يدس يده المتعركة في حقيبته السوداء بحثًا عن شيء، ولم يطل صبر دادة حيث سألته بلهجة المتضرع:

- زرتك قبل أيام فوعدتني أنه سيصل عما قريب، أجنّت بخير عنه؟

أخرج المختار الكهل يده فارغة وقال دون أن ينظر إلى الوجوه:

- جئتم اليوم ببلاغ من الفرع العسكري للحزب مع ملحق تقرير من منشأة النقل البري... خبر...

توقف عن الكلام وبدأ أنه قد غيّر من رأيه فمد يده إلى حقيبته وأخرج صحيفة ورقية كبيرة، مكتوب عليها بحبر أسود وبكلمات مطبعية كبيرة، مد يده الداكنة المسكة بالورقة إلى فرهاد الذي بدا الشحوب واضحًا على ملامحه، لكن الورقة طارت بين اليدين ووقعت بشكل حلزوني على أرض الرصيف.

لم يلق بالاً كبيرًا على الورقة الطائرة واكتفى بالقول: سألتقطها حالاً، ثم أخذ ينقل عينيه الحمازين بين العيون الناضرة الخارجة عن أحداقها والوجوه المترقبة الهلعة، ثم قال بعد برهة مشيرًا إلى البلاغ المستقر على الرصيف:

- لقد بلغت خبر النعي تحريريًا وها أنا أبلغ النبأ شفهيًا مع الاعتذار للخبر المفجع، هذا بيان شهادة ابنكم الذي قضى وهو.....

لم يستطع أن يواصل، وبدلاً من ذلك جعل يتراجع أربع خطوات هلعًا إلى الوراء، لأن الإنسانية التي كانت تقف أمامه قبل لحظات لم تعد دادة لا في الشكل ولا في المضمون، إذ على حين غفلة أخذت عيناها تدوران في محجريهما كرحي مطحنة، واستحال وجهها إلى جذوة متقدة، وتقوس ساعديها مع يديها حتى اتخذتا شكل كلابتين متأهبتين للانقضاض، واستحالت أظافرها مخالب وبراثن، على جبينها وخديها ظهرت أخاديد وتجاعيد لم تكن موجودة قبل لحظات، وحينما انفتق فمها بالصراخ لم ينطلق صوت بشر بل زمجرة أسد، زئير لبوة اختطف منها شبلها، فانقضت على الكائن البشري الذي اختطف صغيرها من بين يديها كي تسترده ولكن عبثًا، فقد خانتها أنفاسها التي اختنقت في حنجرتها.

أخذت تتلوى وتترنح حتى كادت تهوى لولا أن أسندتها يدي فرهاد القويتين من الوراء، وفي اللحظة التي أطلقت دادة صرختها المخترقة لحجاب الصوت؛ أقبلت سها مسرعة مولولة تسأل ما الخطب، وعلى صدرها أسو وقد ازرق وجهه من

كثرة البكاء والعويل، عندما وقع بصرها على دادة والمختار والورقة وفطنت إلى العلاقة؛ لم تملك إلا أن أطلقت هي بدورها صرخات متقطعة حادة ودوى صوتها يمزق السكون، وأخذت تشد شعر رأسها وتلطم صدرها الناحل بكل ما أوتيت من قوة، ظلت دادة تولول وتخمش وجهها وتصك صدرها ومعها سها تصنع صنيعها.

ومن ورائهم سمع فرهاد لهاث بابا الذي وقع على الأرض فجثا على ركبتيه بجانبه، فأسند رأسه على صدره واللعبا يسيل من فمه، فزع فرهاد له إذ خاله دمًا آتية من الاثني عشر النازف، ومن الطرف الآخر من صدره كان يستقر رأس دادة البارد التي سقطت مغشيًا عليها.

ومن خلال فرجة الباب لمح طيف المختار الذي كان يقف الآن في منتصف الشارع، رآه ينحني ويلتقط البلاغ، وتقدم خطوة يريد تسليمه إياها، نظر إلى فرهاد والأجساد الهامدة فغير رأيه، انحنى مرة أخرى ووضع الورقة حيثما سقطت، استوى واقفًا، مرت لحظات صمت، وها هو يهتف لفرهاد بكل برودة أعصاب:

- هذا هو البلاغ تحريريًا وشفهيًا؛ اعلم أن جثمان الشهيد الطاهر قد وصل أمام فرع الحزب، هذا هو البلاغ، ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

- البقية في حياتكم.

خاطب الرفيق الجمع الذي احتشد أمام مقر الحزب الواقع في قلب البلدة بفم مختفي تحت شواربه الكثة، وجبهة مخفية تحت البيريه المستدير، وأنف أفطس نصف ظاهر تحت نظاراته السوداء الضخمة الفخمة، وكرشه المتهدل وثلاث نجمات على سترته العسكرية فوق كتفيه، ثم تقدم وقدم نفسه بخشوع يتناسب مع الجو الجنائزي وقال يشد على يد فرهاد:

- أنا الرائد حنون مصطفى شنشل ضابط التوجيه السياسي للفرقة.

سرت في جسد فرهاد رعدة؛ فالاسم ذكره بـ (عبد الجبار شنشل) رئيس أركان جيش النظام، والمشرف على عمليات الأنفال السيئة الصيت مع علي الكيمياوي، كان يقف مديراً ظهره للمبنى القديم مواجهاً الجمع.

اجتهد فرهاد في استعادة أنفاسه بعدما انقطعت جراء جريه السريع لتقصي الخبر المفجع، التفت إلى ورائه فاندesh لوجود هذا الكم من الجارات خلفه، وفي نفس اللحظة ترامى إليه من بعيد عويل دادة الطويل، كانت قد تراخت أرجلها فتباطأت وتخلفت عن الركب، وعندما بلغت جمع النسوة راحت تروح عن كربها بالطم والصوات والتمرغ في التراب، وجعلت تولول وتخمش وجهها وتصك صدرها ومن حولها جاراتها يصنعن كما صنعت، اضطربت أنفاسها وخارت قواها، ولولا أم عاشور والنسوة من حولها لوقعت على الأرض مغشياً عليها.

وبدون أن يكثرث لوجود الضابط؛ أسرع فرهاد إليها وأسندها وضمها إليه وهو يعقد أزرار ثوبها فوق صدرها التي انفكت جراء اللطم، ويعدل من سترتها الطويلة الباهتة اللون، ثم أسندها كي تقف، فلم تكد تقف حتى هوت أو كادت؛ وأسندها فرهاد فتمالكت نفسها وهي تترنج، ولما تم له ذلك قال لها مترجياً:

- خير لنا التزام السكون حالياً فلا ينفع اللطم ولا يحل الضرب والصراخ شيئاً، فلنتأكد أولاً من صدق دعوى هذا الحقيق، فكم من جنازة جيئت بها إلى أصحابها وتبين لهم بعدها أنها ليست لهم، وهناك أسماء متشابهة، فأرجوك دعينا نسمع أولاً.

كانت أم عاشور التي ولولوت معها وجرت من شعرها تقف بجانبها طوال الوقت وكانت رغم سمنتها من الأوائل اللواتي بلغن المكان، وكانت بدورها تجد صعوبة في التنفس، وضعت يد دادة في يدها محفزة إياها كي تنصت، فأذعنت مقهورة، تقدم فرهاد إلى الرفيق الذي استأنف بنفس اللهجة الخطابية:

- أستاذ فرهاد لو تفضلت ورافقتني إلى الداخل.

التفت فرهاد إلى أمه كمن يستأذن، وكاد يغشى عليه إذ رآها حافية القدمين، وترامت إليه صرخات سها من بعيد وهي تجري على الشارع وتلول وتخمش وجهها وتصك صدرها، وآسو يتأرجح على صدرها ويكاد يهوى، حتى اضطر ومن مكانه أن يناديها وينبها على خطورة الموقف، كانت قد نزلت إلى السوق لشراء بعض الحاجات للطفل وسمعت من الناس أن هناك شهيداً وصلت جنازته وسمعت إحدى النساء تخبرها أنها رأت أمها - كانت تناديها بلفظ (ماما) - تركض في ذلك الاتجاه قبل قليل.

أشار إليه الضابط بالدخول فتبعه على الأثر، اجتازا ردهة رطبة ثم مالا إلى اليمين فتوقفا أمام باب أزرق اللون عتيق، يقف على جانبيه ثلاثة جنود، الذين سارعوا في أداء التحية العسكرية، طلب من أحدهم أن يدخل الرفيق علي حالما يصل، دخلا غرفة صغيرة تنتصب فيها منضدة وثلاث كنبات قديمة مغبرة، وخزان كتب ورسائل في وسطه جهاز تلفاز صغير، وصور تنشد وتهتف بمجد القائد وتشيد بالنصر المزعوم.

أجلسه قبالة وقدم له سيجارة وأراد أن يطلب له الشاي أو كوكا كولا فاعتذر، صعد نفساً طويلاً وهو يسند ظهره العريض إلى الكنبه ثم نظر إلى فرهاد وقال بتأثر:

- كان أخوك الشهيد بطلاً شهماً و...

قاطعه فرهاد على عجل وعينه احمرتا وحفظتا حتى كادتا تخرجان من محجريهما، وقال يستفسر مدهوشاً غير مدهولاً:

- قبل كل شيء لي لك مطلب بسيط، هل أنت متأكد تماماً أن الجنازة تعود إلينا؟

أحنى رأسه بقوة قائلاً برصانة:

- حتماً....

ثم نظر إلى فرهاد شزراً وقال بصوت أعلى:

- لم أتوقع هذا السؤال من شخصك وأنت عالم عاقل كما نعلم.

قطع كلامه إذ كان هناك طرق خفيف على الباب، رد بصوت أغن: أدخله؛ ففتح الباب عن رجل شاب قصير القامة في الملابس الكردية، الذي تقدم ومد يده مصافحاً الضابط ثم فرهاد، وأشار إليه الضابط بالجلوس، شعر فرهاد بقوته تتخلّى عنه وبرغبة في البكاء ولكن الدموع استعصت عليه.

ارتفعت حدة الصياح والصراخ بوصول الشاب، دوت أصوات تمزق السكون، وخرقت الجدران، كانت وحسب فرهاد تتطلق من حناجر كثيرة قدرها بثلاثة أضعاف عدد النسوة اللواتي التقى بهن للتو، فاستنتج أن العدد في تضاعف، فأدرك أن بعضهن قد انضم إلى موكب النعي لا من أجل بكاء ميتهم فحسب؛ بل من أجل بكاء فلذات أكبادهن هنّ، ومن بين كل هذا اللغط استطاع أن يميّز صوت أمه الأبح بين كل الأصوات، كانت تلعن وتسب:

- يا أوغاد أعيديوا لي ابني، سلبتموه مني، أين أخفيتموه؟ قولوا لي.

رأى فرهاد وجه الضابط ينكمش ويردد مع نفسه وهو يهز وجهه المستدير اللحيم:
- غير مقبول.

وبعصبية ضغط على الجرس المثبت على حافة المنضدة تحت مرفقه، فدخل جندي يحمل على كتفه كلاشنكوف وأدى التحية، أمره أن يُسكت الأصوات ولكن بلباقة:
- إنهن الماجدات أمهات الأبطال.

وما انقضت هنيهة حتى خفتت الأصوات بل كادت تختفي، لاحظ الرفيق شحوب وجه ضيفه فبادره بالقول مطمئناً:

- نحن تلقينا الأوامر من القيادة ألا نطلق الرصاص على أمهات الشهداء اللواتي يخرجن عن أطوارهن ويقمن بالقذف والسباب وإطلاق الكلمات النابية، فنحن نعمل وفق شعارنا: الشهداء أكرم منا جميعاً..

انقبض وجه فرهاد فجعل يتساءل بفزع:

- ولكن كيف تأتي لكم إسكات الأصوات بهذه السهولة، أعلم أنه لو تلقّت أمي نبأ مفاده أن القيامة ستقوم ما كفت عن البكاء والصراخ؟

فاجابه الضابط بثقة:

- بسيطة، كل ما فعله الجندي هو سحب مخزن عتاد البندقية وتوجيه إنذار لأمك وصواحبها أن يتفرقن، وإلا سنرميكن بالرصاص، مجرد تخويف ليس إلا.

ثم عاد يحدق في وجه فرهاد قائلاً بابتهاج:

- إنها مكربة أخرى تضاف إلى مكرمات السيد القائد الضرورة.

ودون وعي منه أخذ فرهاد يتمتم رغماً عنه في دخيلته: لولا مرحمته للزم علي حفر ثلاثة قبور اليوم؛ الثانية لدادة والثالثة لي.. اعتدل الشاب المدعو علي في جلسته في الوسط فحده فرهاد بنظرة خاطفة، فاستطاع وبثانية أن يحكم أن وجه القادم الجديد كان يكسوه الشعر الغزير، وبكل أدب قدم الشاب المشعر نفسه قائلاً بصوت هادئ النبرات:

- علي محمود بقال.

- تشرفنا.

رد فرهاد بلطف دون أن يقدم له نفسه، ومن فرجة في الباب تراءى له باب أخضر كبير على الطرف المقابل، وأمامه انفتق فم الرفيق عن تصريح جديد، فقال وهو يشير إلى الشاب:

- لنا مبدأ وهو الصراحة والصدق؛ وهذا يفسر وجود الرفيق علي معنا هنا.

ثم التفت إليه قائلاً:

- لقد تفضل الرفيق علي وتطوع لإيصال الجنازة من العاصمة إلى هنا.

شاهد فرهاد وجه علي قد أصابه التقطب المبالغت لكلمة رفيق، لأن هذه اللفظة كانت مقرزة مفزعة في قلوب عامة الكرد، ثم خاطب فرهاد مشيراً لعل:

- تفضل أستاذ فررهاد واسمع القصة الواقعية على لسانه كاملة دون زيادة أو نقصان.

ثم نظر إلى السائق قائلاً برصانة:

- أخبر الأستاذ فررهاد بما حدث وبالتفصيل.

صرر فرهاد على أسنانه (فررهاد)؛ ليست هذه هي المرة الأولى، ألم يناديه شبح رفيق يوماً في الظلمة بنفس الرائات الثلاث.

وحينها لم يعر أهمية للأمر، بل طوى النسيان صورته من الذهن لأن الفكر والقلب والضمير كله كان يومذاك محتلاً متأهباً مستنفراً لمقابلة أعز ما يملك في الحياة: كاترين.

بلع السائق الشاب علي ريقه وسحب نفساً طويلاً وراح ينظر إلى النافذة الصغيرة عن يمينه باحثاً عن منفذ يلج فيه إلى القصة، شبك يديه وباعد بين شفتيه بصعوبة المصاب في شغاف قلبه ثم أطلق العنان للسانه ناظراً إلى الباب، أمّا الرفيق فقد نهض إلى المنضدة وراح يرتب ما تفرق من الكتب الرسمية والأضابير المتناثرة، وفي الوقت نفسه يقوم بضبط آلة التسجيل التي أخفاها في إحدى مجرّات المنضدة، إذ كانت لغة الشابين الكردية وهو جاهل بهذه اللغة جهلاً مطبقاً.

تكلم الشاب السائق علي يسرد على فرهاد حادث مصرع أخيه:

- في يوم الحادث كُلفنا بنقل البضائع من العاصمة إلى الكوت وحصل ذلك أكثر من مرة، كان أخوك يسوق أمامي متقدماً علي ببضعة كيلومترات، وكنت أراه من بعيد، تارة تقع شاحنته في مرمى البصر وتارة تختفي، كان من السهولة على المرء أن يتبين سيارته حتى على البعد، لأنه ألصق لوحة كبيرة على مؤخرة شاحنته كتبت عليها ثلاث كلمات بالخط العريض وبالألوان: الله، محمد، علي.

ارتسمت ابتسامة كالحة على وجه السائق علي وأردف:

- الغريب في هذا الرجل أنه لم يتخل عن الدعابة والمزاح حتى في أصعب الظروف، دفعني الفضول يوماً فسألته: ولماذا اخترت ثلاثة أسماء؟ أمّا كان اسم الله كافياً؟ فهو بيده مقاليد الأمور دون البشر؟ فأجاب علي الفور: اخترت الثلاثة لأن الله للأكراد، ومحمد للسنة وعلي للشيعه، هكذا أكون قد أرضيت جميع الأطراف المتنازعة.

صمت لحظة وهو يستجمع أفكاره وينظر بطرف عينه إلى الضابط الذي عاد وجلس في مكانه ينصت بصمت، ثم واصل قصته:

- كنا نسمع بين الفينة والفينة أصوات انفجارات بعيدة، وكلما اقتربنا اقتربت الأصوات، كانت أصوات مدافع ثقيلة ترتج الأرض لها ارتجاجاً من تحتنا، ولها دوي كدوي الرعد، وعند الظهيرة توقفت السيارات من أجل تناول الطعام.. وكنا حينذاك قد تجاوزنا مدينة الكوت متجهين نحو الشرق، أوقفنا سيارتنا بجانب

الطريق وجلسنا نفترش الأرض لنأكل ما جلبناه معنا من طعام وشراب، ومن مكاننا كنا نشاهد رؤوس أعمدة من الدخان المتصاعد في أماكن متفرقة بعيدة، ولم يمض وقت طويل حتى جاءت أخبار تقول إن العدو الإيراني كان يحشد قواته تأهباً لشن هجوم شامل في القاطع الجنوبي، ومن أجل التمويه والتضليل عمدت مدافعها تقصف القاطع الأوسط بغزارة وبكثافة ومنذ يومين، وهم يبتغون من وراء عملهم الجبان هذا عبثاً قليلة معنويات الجيش وإنهاكه، وذلك بعدم فسح مجال أمامه للراحة ليل ونهار، ولنفس السبب كان القصف يزداد ضراوة وكثافة متى ما حل موعد القصة وتناول الطعام، فوضع الجيش في القاطعين في حالة إنذار قصوى، ودعت الضرورة إلى أن نعمل نحن السائقون ساعات إضافية بل أحياناً طوال الليل، وحتى ساعة متأخرة من الليل لمد الخطوط بما تحتاجه من مؤن و....

توقف هنا السائق متحاشياً ذكر ما كانوا ينقلون، هكذا كانت الأوامر، ومن يدريك لعله كان جاهلاً بما حمل وما نقل، وواصل حديثه بعد أن حدج فرهاد بنظرة متفحصة فراه مطأطي الرأس بائساً:

- كانت هناك سيارات جيب استطلاعية مرافقة تنتقل بين سيارتنا، أي أنها كانت بمثابة الجسر الرابط الموصل بين الشاحنات التي سارت بعيدة عن بعضها، حيث كانت تخرج في كل ساعة ثلاث شاحنات وذلك لأسباب أمنية؛ وهي عدم جلب انتباه العدو وطائراته.

جاءت إحداها على عجل وتوقفت بجوارنا فخرج منها ضابط برتبة ملازم أول، فقال لنا وهو يمد يده إلى سحب من الدخان على بعد ثلاثة أو أربعة أميال: إن قذائف من المدافع البعيدة المدى العشوائية أصابت إحدى مواقعنا الخلفية في العمق، وللتو هرعت سيارت إسعاف وسيارات جيب تابعة من فصيل الميدان الطبي، وإذا بصوت ينادي منبهًا إيانا: امكثوا حيثما أنتم فنحن لا نبعد كثيراً عن الحدود، وبعد دقائق وصلت جيب ونزل منها جندي فأخبرنا الضابط أن إحدى القذائف أصابت عددًا من جنودنا، وتجري الآن عملية إخلائهم إلى الخلف، وأمرنا أن نجلي المكان للتو تحسباً للمفاجآت.

- هناك جرحى وشهداء..

أفاد ضابط صف الذي أطل برأسه ثم التفت إلينا نحن الثلاثة من السائقين وقال: يخشى أن يكون أحد زملائكم من السائقين ضمنهم، وبعد نصف ساعة وصلت سيارة جيب أخرى تتبعها سيارة مصفحة عليها صورة الهلال الأحمر، نزل منها ضابط برتبة مقدم وتقدم إلينا وكنا قد تراجعنا عدة كيلومترات إلى الوراء مضطرين إلى الأكل ونحن في حالة حركة، تفرس الرائد في وجوهنا ووجه سؤالاً: من منكم من سكنة الشمال؟ فإن من بين المصابين سائق ظهر من هويته إنه من أهل الشمال، فمن منكم من المنطقة نفسها؟ تجمد الدم في عروقي...

توقف علي عن الكلام وقد بدا عليه أسى شديد، ثم واصل حديثه قائلاً بصوت حزين:

- مرت دقائق أخرى فوصل نائب ضابط وقال مدلياً بتقريره للرائد: إنه كاكه تأكدنا من اسمه وعنوانه، اسمه كاكه عدنان وأنه من ضمن الشهداء الخمسة، واثنان منهم جريحان، جراح أحدهما بليغة، لقد وقعت القذيفة في وسطهم، كم من مرة حذرناهم من عدم التجمع حول القصة.

- من فضلك رفيق علي؛ اختصر.

جاء صوت الرفيق ضابط التوجيه المعنوي بارداً دون أن ينظر، اعتذر السائق له فجعل يتم قصته على عجل:

- والخلاصة؛ ناولني النائب الضابط هذا جراباً فيه بعض من مقتنيات المرحوم.

أشار الرفيق إلى كيس من القنب كبير منتفخ منتصب في إحدى زوايا الغرفة، ثم تساءل مخاطباً الشاهد:

- رفيق علي؛ هل لك ما تضيف؟

ثم ردّ بنفسه:

- لا أعتقد، فقد رويت ووافيت، شكراً لك.

كان هذا إيذاناً بل أمراً بانتهاء مهام السائق، فنهض علي وصافح محدثه قائلاً وأسأله أخذه في الانقباض:

- أرجو أن تصفح لي، تمنيت ألا أكون ناقلاً لنعي، لكن الواجب اقتضى ذلك - يا للفاجعة - فمعدرة.. وكأن ناقلاً للنعي هو فاعل النعي ولا ذنب لي سوى نقل ما رأيت وما سمعت والله على ما أقول شهيد.

اكتفى فرهاد بإيماءة امتنان، بدا ظهره متقوساً ولونه مصفراً وعيناه غائرتين،
واستدار السائق علي قبل الخطو إلى خارج الغرفة وقال لفرهاد:
- لو أردت مقابلتي فلك ذلك، ستجدني في محل لصديق تحت القلعة لبيع أدوات
كهربائية اسمه محل نامق رسول.

قبض الضابط على كيس القنب الأسمر بيده اليمنى ورفعته إلى مستوى خصره وقال لفرهاد الذي نهض بنهوضه:

- هذه مقتنياته التي وصلت إلينا، أرجو التأكد من أنها له شخصيًا وإخبارنا، فنحن نتوخى الأمانة والدقة في الأمور، وقدوتنا في ذلك هو الرفيق الأعلى وهادينا ومعلمنا الأول الرفيق صدام حسين حفظه الله ورعاه.

ثم وضع الكيس على الأرض وهو يقول دافعًا كرشه العظيم إلى الأمام:
- انظر؛ هذه هي سياستنا الديمقراطية والحرية، لك مطلق الحرية في تقتيش ما فيه قطعة قطعة ولو ارتبت أو خامرك شك لا سمح الله في شيء فلا تتردد في الإفصاح، نحن نتقبل من أهل الشهيد كل الأسئلة والانتقادات.

عبر عن الجملة الأخيرة وهو يتحسس حزامه الخاكي العريض الذي يشد وسطه العريض ومنه يتدلى مسدسه في جرابه الجلدي.

ألقى فرهاد نظرة على الكيس بقلب خافق، واحتار كيف يتعامل مع الموقف الجديد، إذ وجد نفسه أمام جملة من التساؤلات، فهل يغير كيس من القنب فيه مقتنيات أخيه من الأمر شيء، وماذا عساه أن يفعل لو وجد بدل مقتنيات أخيه أشياء لا تمت إلى المرحوم بصلة؟ رفع رأسه إلى الضابط ببطء وكأنه يخشى منظره المقيت إلى قلبه، فلمح في عينيه الحمراوين الغائرتين في لحم وشحم محجريه الإصرار، فأحال بنظره إلى الحائط ليستقر دون قصد منه على صورة كبيرة للطاغية ببدلته العسكرية وابتسامته العريضة وأصابه التي تقبض على مقبض مذهب لسيف طويل مغمّد، وتحت الصورة كُتِب شعار الحزب الثلاثي: وحدة، حرية، اشتراكية، حول بنظره على عجل عن الصورة، فتذكر العبارة التي أعاد سبكها لتلائم الحقيقة المؤسفة والواقع المرير وأنتمن أخاه يومًا ما عليها، فتحرّكت شفاته بلا وعي منه دون أن ينبس: هو وحده الحر الذي لا شريك له.

ثم انحنى مضطربًا وشرعت أصابعه تعالج العقدة التي تشد فتحة الكيس، وبعد أن تم له فتح الكيس أخذ ينظر في الداخل فوجد فيه بعض النظارات الشمسية وقطع من الملابس.

بدا أنه لم يرق للضابط الطريقة التي تعامل فرهاد مع الكيس، فأسرع إليه وأفرغ محتوياته على الأرض، وأشار إليه بلهجة شبه امرأة:

- انظر وقل لي هل هذه الأشياء له؟

ألقى فرهاد نظرة بائسة على ملابس أخيه المملوطة بالدماء، والشئ الوحيد الذي أدمى قلبه كان قميصه القهوائي الباهت ذو المربعات السود، آخر مرة رآه في هذا القميص كان اليوم الذي أخرج يده مودعاً مسافراً عائداً بعد انتهاء إجازته الأخيرة.

- إنك لم تر كل شيء؟

- الباقي مرايا مكسورة.

- كيف عرفت؟

- أعرف علم اليقين فلو لم يكن يعاني من عقدة المرايا لما آل مصيره إلى ما آل إليه الآن.

- أستاذ فرررهاد إنه نال أعلى مقام يُحسد عليه المرء.

- لو كان عالياً لما كان له منه نصيب، ولا للفقراء ولا للضعفاء نصيب.

اصطك فكا الرفيق ضابط التوجيه المعنوي للعبارة الأخيرة التي أطلقها فرهاد دون إدراك للعواقب، وهو الذي صان لسانه طوال الوقت عن لفظ حتى ولو كلمة بحق هؤلاء الزمرة الفاشية خيراً أو شراً، ففي غمرة غضبه امتدت يد الرفيق اللحيم إلى مقبض مسدسه حتى تزرّح السلاح من موضعه.

- أطلق لو كنت شجاعاً.

هل هذا أنا الذي أطلق هذه العبارة الجريئة؟ شيء لا يصدّق، سأل فرهاد نفسه وهو يحاول مداراة توتره بتفحص مقتنيات أخيه، ومن هناك زمجر الضابط وهو يرفع يده عن مسدسه ويغمغم وكأنه مع نفسه وبصوت مسموع:

- أعوذ بالله، كدت أن أخالف أوامر القائد وأقتلك مثل ما يقتل الكلب المسعور.

ثم جعل يهز له قبضتيه هاتفاً والشرر يتطاير من عينيه:

- ستدفع ثمن وقاحتك عاجلاً لا آجلاً.

اهتز فرهاد للسباب المنكر والتهديد الأشنع الذي أطلقه الرفيق عليه ورغم ذلك واصل تفتيش المقتنيات، فوجد ضمنها صورة له وهو واقف بينه وبين دادة تحت

شجرة البرتقال وزهور القدّاح الفواحة تداعب رؤوسهم وتتمايل مع نسيمات الربيع، والابتسامة تغازل شفاههم، ومع ذلك تركت العبارة الشنيعة على قلبه وشخصيته آثاراً لا تمحى ما حيي، فكلما عادت الكلمات البذيئة إلى مخيلته لفظها بالبصاق وكأنه أراد بذلك صون لسانه من النجاسة، بل وكأنه لفظ ذبابة ألقتها هبة ريح في فمه.

بعدما أعاد فرهاد محتويات الكيس إلى مكانها نهض قائماً متقوس الظهر منقبض الوجه وظل واقفاً كالجماد إلى أن جاءه صوت الضابط من ورائه:
- الآن إلى التابوت، وعليك أن تتمالك وتضبط أعصابك.

سار فسار وراءه يجر قدميه جرّاً وراءه، عبراً فسحة صغيرة إلى الطرف الآخر وهناك فتح الباب الأخضر الذي أشار إليه من قبل، ففتح الباب ودخل ودخل وراءه وقلبه ينتفض ويثب بين أضلاعه، وتتابع نبضاته السريعة العنيفة في مقدمة عنقه حتى أحس وكأن قلبه انتقل إلى جوف حلقه، وزفيره يتوالى مع كل صعود وهبوط من صدره المضطرب، ومن عند الباب لاح له منظر تابوتين ملفوفين بالعلم العراقي، تدور فوقهما مروحة عمودية قديمة صدئة دورانياً سريعاً غير منظور.

كان جو الغرفة معبأً برائحة عفنة، تراجعاً على أثرها خطوتين إلى الوراء، امتلاً صدر فرهاد ذعراً ورهبة للمشهد، وحيرة متناهية لعفونة الجو المحيط بجسد أعز كائن لديه، تمنى في تلك اللحظة لو ابتلغته الأرض قبل أن يولد، بل حلم لو استطاع وأوتي شجاعة وشهامة وأخرج المسدس من جراب هذا المخلوق الكريه فأطلق رصاصة على دماغه الضخم كراس الحмир وخلص العالم من أذيته وشره كما تفعل المبيدات الحشرية بالحشرات الضارة.

ولكن هل من الإنصاف قتل نفس نافعة، أو حشرة نافعة كالنحلة من أجل القضاء على أفعى أو سحق عقرب؟ فهو إن قتل قُتل، أي قلم أو فم قادر على وصف هذا الحزن؟ وصف حال أخ وهو يقف أمام تابوت أخيه ويرغم على زَمّ أنفه من ننته والنفور منه، وفي نفس الوقت يشعر وكأنه بهذا العمل يرفضه، فهل كتب على أخيه أن يُرفض بعد موته بعدما ما كان مرفوضاً في حياته؟ لحظة سكن فيها كل كيانه الجسدي والعاطفي والعقلي وصار كالحجر الصمّاء، تبعثها نظرة اشمنزاز وتقرز إلى نفسه:

عمّ تتأفف؟ جيفته أزكى رائحة من عفونتك، جيفته شذى قرنفل بالقياس لرعونتك وتوانيك عن تحمل مسؤوليتك، "لا لا لا" صاح بضراوة بلا وعي منه وهو يضرب بكف على جبينه، ثم أخذ بطرف قميصه ينتزعه انتزاعاً من جسمه حتى قطعت بعض من أزراره وتدحرجت متناثرة على الأرض الرطبة القذرة.

كان العرق يتصبب منه من أخص قدميه إلى أم رأسه، والضابط لا يزال يتمتم مذهولاً للمفاجأة، لأن الجثمان كان في وضع أفضل بكثير حتى بعد ساعات من وصوله فما باله الآن قد أصابه التفسخ وبهذه السرعة، وجاء التفسير على لسان فرهاد دون وعي منه؛ إذ خرّ على ركبتيه أمام التابوت الذي كتب عليها اسم أخيه ولسان حاله يصرخ ويتحدى وفؤاده يتميز من الغيظ: وأئى للحمار أن يميز بين الجثة والجسد.

في قرارة نفسه علم أن الضابط هذا كان أعجز أو أخس أن يحسب حساباً لحرارة تموز اللافعة، التي قد تصل ٤٨ إلى درجة مئوية في الظهيرة، شعر برغبة قوية لأن يصرخ: إن الأخيار يدفعون من دمائهم ثمن سعادة أشرار هذا البلد، والويل كل الويل لمن يقف حجر عثرة أمام فراري وهروبي من هذه البؤرة الفاسدة إلى الجحيم، الاحتراق مع الكرامة خير من الرفاهية مع المهانة، في هذا الوحش المائل أمامي وهذا التابوت المسجى تحت أقدامي أرى عمق الكارثة الحقيقية، إنها ليست قصة مجرد جثمان فحسب؛ لكنها قضية شعب بكامله بل أمة بكاملها، بلد البقاء للأشرار والفجار والفناء للأخيار، هذا الرأس الهائل الفارغ يتحكم في مصيرنا ونحن الواعون والمتفكرون لا نملك حتى لساننا وأقلامنا.

تغافل الضابط عما شاهد، فمد يده يربت على كتف غريمه برفق وهو يقول:
- أستاذ فررهاد وعدتني أن تتمالك.

لم يصدر منه لا صوت ولا حركة بل ترك رأسه يسقط بلا رادع على حافة التابوت وجعل وهو مغمض العينين يستنشق الهواء بعمق، وكأنه ينوي أن يعلن أنه يتلذذ بالرائحة ولو كانت كريهة.. آه آه، لو كنت في بلد للإنسان قيمة بدرجة الكلب وأتيح لي أن أصرخ بوجه هذا الجاهل البطين: عفونة هذا الطيب أزكى من عطرك الفاخر الذي تشتريه بدمه.

صعد صوت الرفيق من فوقه:

- أنا أرثى لحالك أخي، ولكن لا تظن أن دمه سال سدى، إنه خالد في الجنة.

لم يملك فرهاد أن قال وهو يقف بصعوبة:

- الجنة لمن عاش لا لمن مات.

احمر وجه الضابط رغم سمرته الداكنة، فهتف دون أن يفقد السيطرة على أعصابه:
- أنصحك ألا تكفر، ومع ذلك أقدر لك شعورك، وأعلم أنك لست وحدك في المصاب.

ثم قال معتذراً:

- لا تؤاخذني إنه الحر، وقطع الكهرباء المتكرر لا يدع للثلاجات أداء عملها، ونحن بذلنا كل ما في وسعنا في إبلاغكم بأقصى سرعة.

ثم وهو يحك بسبابته بباطن كفه:

- وقد حدثت الوفاة قبل أربعة أيام، وأنصحكم بعدم فتحه، إنها أشلاء ممزقة، آسف أن أضطر إلى لفظ هذه العبارة الثقيلة على الأسماع.

وهنا وثب فرهاد كمن لدغته حية وهو يصرخ بملأ حنجرتة:

- هل قلت أشلاء ممزقة؟

ترجع الضابط خطوتين إلى الوراء حتى كاد ظهره يمس المروحة، وجعل ينظر من خلال شق الباب ليتأكد من وجود الجندي الحارس، ثم قال بعد أن عاد إليه توازنه:

- سعيد ومحظوظ من عادت إليه جثة شهيد برأس وأطراف!

وللحال شعر فرهاد أن قوته تتخلى عنه، ونزع نحو البكاء، ولكن الدموع استعصت عليه وخائنه العبرات، فارتدى على الأرض من شدة الإعياء بجانب التابوت، والضابط من ورائه يجاهد عبثاً من أجل الترويح عنه، وما هي إلا هنيهة حتى استقام فرهاد بغتة وقد تمزق بنطلونه الجينز الأزرق من فوق الركبة وتلطح شعره الطويل بالتراب، وجحظت عيناه واحمرتا، ويبست شفثاه وشحب خداه وضمربطنه في غضون ساعة.

لاحظ الضابط أن وجه محدثه قد اتخذ شكلاً ولوناً مغايراً للحظات خلت، والتفت إليه بكامل جوارحه مترقباً ماذا يتمخض عنه هذا التغيير؛ فجاءه الفرج إذ تكلم فرهاد برصانة غير مألوفة وقال بهدوء عجيب وكأنه قلب صفحة جديدة من سفر المحن:

- دعنا نمضي إلى الساقية لنصطاد السمك، قالت الصنارة للدودة (الطعم).

علت ابتسامة منشرحة على وجه الضابط، فاقترب منه يربت على ظهره جاهلاً غافلاً عما قصده محدثه بعبارة الكاتب المسرحي الألماني بريخت، الذي وصف بها استغلال القوي للضعيف في الحرب، وبهذه العلاقة والعقلية يذهب الطرفان إلى الصيد.

اقترب الضابط من فرهاد والذي بدا وكأنه قد خفّ ألمه، وكأنه قد لفظ سمّاً روى به غليله بإطلاقه هذه العبارة المعبرة عن عمق مأساة الشعوب عبر القرون، وكأنها كانت صدى صرخة شعوب فنت فرجعت إليه في حيز نتن مع تابوت أخ، وأي أخ؟! فقال له وبكل ثقة وكأنما يمازحه:

- حسناً ما تفعل، من المفضل أن تذكر أيام المحن أحداث جميلة في حياتك، ها أنت عدت تذكر ذكريات طفولتك مع أخيك فشيء جميل، يبدو لي أنكما قمتما معاً مراراً بصيد السمك في السواقي.

صدر عن فرهاد حين سمع هذا الكلام من ضابط التوجيه المعنوي أنة أشبه بحشرة الموت، ألماً وحسرة لكون مقاليد الأمور قد آلت إلى السفهاء والجهلاء، بدا وكأن الضابط قد فطن إلى أمر مهم، فرفع ساعده الأيسر أمام عينيه وجعل يحرق في ساعته اليدوية طويلاً وكأنما يجد صعوبة في قراءة الأرقام، ثم رفعهما عنها وقال مخاطباً فرهاد متوخياً الاختصار وبلهجة خطابية رسمية:

- أعلم أن للشهيد امتيازات كثيرة مكرمة من القائد الفذ، فالثورة لا تبخل على أبنائها البررة وذوي الشهداء بشيء.

أخذ فرهاد يتلوى من الألم فقد عاودته نوبة الحزن هذه المرة وبعنف أكبر، فوقع على أرضية الغرفة الصلبة العارية في حالة يرثى لها، فهذه هي المرة الثالثة التي ينهض فيها ويقع، وجاءه صوت الرفيق من فوقه مبشراً:

- له مكافأة سيارة سوبر صالون تيوتا.

ثم بعد تريث لحظة أضاف هو يرقب برعب صدر فرهاد يعلو ويهبط ببطء:

- وقطعة أرض سكنية في موقع ممتاز، وووووو.... والمزيد، اطلبوا ما شئتم نحن ننفذ لكم طلباتكم جميعاً دون تأخير.

أراد أن ينهض ولكن تراخت قوته وخذلته ساقاه تحته، وشعر أنه يقف على عودين من القطن المندوف، عاونه بلطف على النهوض وهو يكرر عباراته المشجعة:

- تشجع عرفناك مثال المدرس المناضل المثابر في إعداد الجيل الصاعد السائر على نهج الثورة.

نازع رغبة في البصق على وجهه وهو يترنح، أراد أن يصيح لو كنت أعددت هذا الجيل لثورتك الشوفينية الفاشية فسحقاً لهذا الجيل يا مفترى يا جاهل.

مدّ الضابط يده إليه لكنه أبى أن يستلم يده، فأشار إليه أن يتبعه إلى الغرفة، ففعل إذ أراد الخلاص العاجل من قبضة هذا الكائن الغريب، وهناك أعطاه قلمًا وبسط أمامه ورقة على المنضدة كتب فوقها شهادة استلام الجثة، وتحتها تقرير مفصل حول اسم الشهيد وعنوانه ومعلومات أخرى كموقع وتاريخ شهادته، وبصعوبة فتح عينيه وأمسك بالقلم بيد مرتجفة راحية فوضع توقيعاً فوق اسمه شبيه بصورة النعش، وقبل أن يغادر الضابط نادى جندياً وأمر بإحضار بيك أب على الفور لنقل الجثمان حيثما يشاء أهل الشهيد، ثم خطا خطوة خارج الغرفة، ولكنه عاد والتفت مباغتاً إلى فرهاد قائلاً:

- قبل أن تغادر؛ أكرر عليك ما قلته قبل قليل: هل تحتاج في الوقت الحاضر إلى شيء؟ نفقة، مبلغ نقدي؟ أو أي شيء آخر.

ثم قرب وجهه من فرهاد يحثه:

- قل طلباتك بهمس.

انصت فرهاد إلى كل هذا ولم يملك إلا أن ينفخ ويتنهد أمام كل هذه الوعود والمغريات كثرمن لدم أخيه، فقال وهو يكاد يهوى من الإعياء:

- حتى البيك أب لا أريده، لنا من الأصدقاء ما يكفي، ولكن بدلاً من السيارة أطلب منك شيئاً واحداً فقط مقابل وطنك.

تعمد استعمال ضمير التملك - الكاف - مع الوطن كما كان يحلو له من قبل أن يقول لكن سرّاً؛ لإيمانه المطلق في أن العبد المغلول بالقيود على أرضه كمن لا أرض ولا وطن له، أمّا الآن وقد أزلت الأحزان الحرس على الأرواح فقالها علناً، سأله الرفيق وقد تقلص وجهه فزعاً وغيظاً:

- وما هو هذا الشيء يا رفيق فرررهاد؟

- أخي؟

لم يرد الرفيق عليه بل انطلق جهة الباب وأوصده بقوة وهو يدمدم كالرعد ويتوعد.

* * *

نهض فرهاد مذهولاً وهو يتساءل كيف يتصرف الآن، فوجد أفضل وأقصر طريق أن يخرج ويعتذر بأنه سيقوم بنفسه بمهمة نقل التابوت إلى البيت، وما كاد يستدير فإذا بيد تطبق على عنقه كالكلابة، كاد أن يختنق، أراد أن يلتفت ليرى من هنالك فلم يستطع تحريك رأسه قيد شعرة، ألقت الكلابتين على الأرض الصلبة بجانب التابوت، وتلقى أول ركلة على بطنه من مقدمة بوسطال - حذاء عسكري ضخم يكنى بالمدرعة لصلابتها ومتانتها - تألم لها بدرجة أنه ما عاد قادراً على التنفس ولا على الرؤية، فتح عينيه جيداً ليرى من الفاعل، فتلقى ضربة أخرى أشد على مؤخرته ألقتة على بطنه بقوة، بحيث ارتطم رأسه بالأرضية فكاد أن يتهشم.

تمنى لو هب أخوه لنجدته، وتمنى لو أن مهاجميه ترأفوا به رحمة لمن في هذا الكفن، فإذا بصوت يصدر من مكان مجهول يصدر الأوامر وكأنه من وراء ستار، ولم يملك إلا أن صاح منادياً بكل ما أوتي من قوة وهو يضغط على بطنه من الألم: أخيبيني عدنان.

فلم يسمع لنجدته جواباً، وبدلاً رجع إليه دوي صدى صوته في متهاتات الردهة الطويلة المارة بالغرفة، وبعد برهة استطاع أن يميز بعيون شبه مغلقة شبحين يتحركان حوله في الظلام المطبق، حيث أن المصباح الضئيل الذي كان يضيء الغرفة قد اطفأت، وحاول أن يجلس ولكن أربعة بساطيل هبّت إليه لتمطي بطنه ثم شرعت بالقفز عليه صعوداً ونزولاً كما يفعل الطفل في الغرب فوق الترامبولين، لتمتزج آلامه الجسدية بآلامه النفسية.

وبينما البساطيل الأربعة تعمل عملها الرهيب؛ كان الصوت يهتف من وراء الستار بلهجة امرأة:

- قل توبة توبة - المغفرة، المغفرة، ذقت الغائط، أكلت الخرة.

وتكرر الصوت الخفي وبنبرة أمرة مكررة وعقب كل مرة يعيد الصوت التحذير ذاته:

- قل ذلك، قل توبة أكلت خرة، وإلا نعيدك إلى أمك أشلاء ممزقة كأخيك.

كان الألم في داخل بطنه أعظم مما في خارجه، أحس برغبة في زيارة الخلاء، وصاح مستنجدًا يعلن عن حاجته هذه فإذا الأقدام قد توقفت عن القفز على جلدة بطنه وتزحزح الثقل من على سرّته، استطاع أن يميل بجسده إلى جنبه فإذا بسائل أصفر لزج يخرج من فمه، ففرع زاعمًا أنه دم، تذكر أباه وأمه التي لن تراه مرة ثانية، ستموت حزنًا بفقدان فلذات كبدها معًا في آن واحد، فمن ينقذ دادة من هذه الفاجعة المزدوجة؟

مرّت لحظات من الصمت الرهيب استأنف الصوت المألوف بعدها نبرته الأمرة:
- قل.. هذا أمر، انطق قبل أن يفقد فمك القدر قدرته على النطق إلى الأبد.
فنطق بها مادام في ذلك خلاصه:
- توبة، توبة.

وهدر الصوت الخفي مزمرًا من وراء حجاب:
- قلها كاملة دون نقصان.
- أكلت خرة.
- مرة أخرى.
- أكلت خرة.

وللتو تصاعدت ضجة ولغط وفهقهات جلاديه من حواليه دون أن يتبين أحد.
شعر بوحشة لا متناهية خاصة حينما رأى وبصعوبة أن الباب والمنفذ الوحيد في الحائط فوق والذي كان ينفذ منه ضوء ضئيل قد تمّ إغلاقهما، أجال النظر في الظلام فترأى له التابوت بمقربة من قدميه وكأنه قبر حفر في غرفة، وكان الصمت المطلق بعد اللغط هو القبر بعينه في دخيلته في تلك اللحظة، وها هو الصوت نفسه يقترب، سمع صوت وقع أقدام خارج الباب فأدار برأسه إلى وراء ليتبينه فإذا بصوت شبّح جاثي فوق الجثمان، فكاد قلبه يتوقف عن الضرب، فكيف دخل والباب ظل مغلقًا.

خاطبه صوت الشبّح الجاثي من وراء التابوت برصانة وبرودة القبور:
- عليك أن تعلم شيئًا واحدًا يا فرررهاده؛ نحن كالحريير ليونة ونعومة لمن يسمع، وكالماس صلابة وخشونة لمن لا يسمع ويتبع هواه.
ثم وبلهجة جافة خشنة:

- ولا تنس؛ لو طال لسانك هذه المرة...

سكت وهو يضع يده في داخل كيس من البلاستيك كان يحمله معه، وبعد أن أخرج محتواه لفت نظره إلى ما تحمل يده بعد أن شع نور خفيف فجأة من لا مكان ولا مصدر:

- انظر.

نظر فإذا هو وجهًا لوجه مع الرفيق حنون مصطفى شنشل، عجبه لرؤية الرفيق ودهشته كان يسيرًا إلى جانب ما كان يحمل في يده، كان يلوح بزجاجة وسكي كبيرة بيده، وقال بلهجة ماكرة وهو يحرك الزجاجة يمينًا وشمالًا راميًا إياه بنظرة مستهزئة:

- أرايت جيدًا؟ احمد ربك لوجود الشهيد هنا، ولأنه أمامك مهمة كفنه ودفنه وإلا لدفنت هذا بتمامه في دبرك (مؤخرة) النتن بالمطرقة لتليها الثانية والثالثة حتى تلفظ أنفاسك الأخيرة.

ثم أردف وهو يتنفس كالشخير من فيه:

- هاهو البيك أب فتهياً، ثم اعلم أن الجنديين كانا بوزن الريشة، لم نرد إبادتك، ولكن في المرة القادمة سنكلف آخرين من وزن الثقيل بالمهمة أو فوق الثقيل إذا اقتضت الحاجة.

وضع الرفيق قدمًا خارج الباب ونادى اسمين، وقبل أن يغادر التفت لفتة أخيرة إلى فرهاد الذي كان يجاهد في النهوض على ركبتيه، فأسدي إليه نصيحة العمر فقال بسخرية لاذعة وبصوت أغن مفعم بالكراهية:

- انس اسمك وشرفك، ولكن هيهات أن تنس كلمة: توبة.

أضف إلى سجل ذاكرتك التاريخ ١٤- ٧- ١٩٨٦، ذكرى الموت الثاني لأخيك في نفس الشهر بفارق ثمانية عشر عاماً، لقد حلمت دادة جميلة ليلة ذلك النهار، وأحلامها تتحقق، وكل ما ترى في الحلم تراه في الحقيقة، لقد رأت في منامها أنه هطل ثلج كثيف فنزلت إلى الشارع والتقطت قبضة منه فإذا هو أسود بلون القار، وكانت نكسة الحجر القاتل.

وحلمت في ليلة من ليالي ربيع من عام ١٩٦٦ أنها رأت الرئيس عبد السلام عارف يضحك ويلوح للجماهير فوق منصة عالية منصوبة في السماء، فإذا بنار هائلة تخرج بغتة من تحته توهجت وأضاءت فأعمت الأعين لأقل من دقيقة من الوقت، فلما خمدت كان الرئيس قد اختفى من على المنصة العالية، فبحثوا عنه طويلاً لكن دون جدوى، فصرع بعد أيام من رؤياها.

وحين كنت طفلاً أفاقت أُمي من حلمها في أحد صباحات شهر تموز الحارق وهي تنتحب أمام الأفندي الذي تساءل عمّ بكأوك؟ فأجابت والحسرة تقطع أنفاسها: "رأيت الملك الصغير جالساً على العرش يضحك ويلوح للناس أمام الجمهور، الذي احتشد في ساحة عامة في يوم ربيع مزهر، وذلك للاحتفاء بمقدمه، وفجأة هب إعصار هائج مريع على المكان فكسا الكل وأخفى الوجود لهنيهة، وحينما غار ونفض، نظر الجمهور إلى عرش الملك فشاهدوا الملك ببذلته ونياشينه كاملة واقفاً في مكانه لكن بلا رأس، فاغتيل بعد يومين من رؤياها.

وقبل اشتعال الحرب الثماني سنوات في بداية الثمانينات؛ رأت الملك في المنام في تابوت محمولاً على الأكتاف في موكب مهيب، وفجأة ووسط أنظار الناس خرجت يد طويلة مكسوة بقماش أخضر من تحت الكفن ملوحة، وسمع الناس صوتاً مكتوماً يتكلم من داخل التابوت بلهجة ونبرة المكلوم:

- وا أسفاه على عراقي التي لن تعرف الأمان بعد رحيلي وافترائي.

وها قد صدقت دادة وتحققت أحلامها كاملة، إراقة دم متواصل وانقلابات متتالية ودم مراق مدام وحروب ومجازر لا منتهية.

وماذا رأت دادة في ذلك اليوم المشؤوم حين طرق المختار بابهم حاملاً النعي النحس؟ ذلك ما قصته على الناعيات المعزيّات القابعات في غرفة جلوس منزل الأفندي: مجلس المأتم.

- رأيته في غرفة مظلمة صغيرة كالتابوت والناس معي يلقون عليه النظرة الأخيرة، وحينما غادر الكل بقيت أنا؛ فإذا بباب التابوت يفتح وإذا بابني يخرج منه، ووجدت نفسي فجأة في مكان مظلم بعيد، ورأيته يبحث عني لكنه لم يجدني، فتوقف لينصت إلى صوتي الآتي من مكان سحيق.

قالت دادة جميلة بصوت مبحوح، كان صوتها يزداد بحة عند كل مصاب أليم وحزن عميق، انهمرت دموعها انهماراً، قطع الدمع صوتها تقطيعاً وإذا هي تلطم خديها في عنف متصل، ثم تشهق وتغمغم:

- عرفت أن شبحاً مخيفاً يحلق على هذه الدار.

ثم وكأنها تكلم نفسها:

- كم قلت له لا تذهب.

ثم وهي تلطم خدها وتتحسر:

- والله قلبي، كان أرق الأسرة قلباً وأصفاها طبعاً وأبرها بأمه وأبيه.

النسوة من حولها تطلعن إليها في إشفاق وصمت، كن يجلسن على الأرض في حلقة دائرية تتوسطها دادة وهي تتوسط بدورها امرأتين، حكم فرهاد أنهما لابد أن تكون أحدهما سها والأخرى باجي عطية، فقد كان الثلاثة موليات ظهورهن له، ولم ير منهن سوى صفحة واحدة من خذهن، كان قد وصل للتو من الجامع حيث أقيم مجلس الفاتحة للرجال.

عاد لبرهة لكي يلقي نظرة ويطمئن على بابا، فعلم الخبر من أبي عاشور بأنه يرقد في العناية المركزة في المستشفى، وتساءل وهو يجيل بصره في كل أرجاء الغرفة: مالي لا أرى أسو؟ فأخذ يركض يشق جموع المعزين منتقلاً من غرفة إلى غرفة بحثاً عنه، فإذا بصوت أبو عاشور من ورائه يقول له بهدوء:

- إنه الآن في رعاية أم سها.

فانبسطت أساريه بسرعة عجيبة ككتلة تلج رش عليها الماء الساخن.

قرر أن المرأة الجالسة على يمينها والتي كانت دادة تضع رأسها وشعرها الأشيب الأشعث على كتفها لابد أن تكون سها إذن، فقد كانت تسعى جاهدة من تهدئة روعها، فقد علم من أم عاشور فور دخوله أن دادة انتابتها نوبات عصبية متكررة.

تراعت لفرهاد أمه من الوراء، كان يقف بجوار الحائط قرب المدخل، فرأى يقع عارية من الشعر على رأسها بيضاء كالثوم وبهيئة رأس الثوم، لاحت له ملابسها الممزقة فبدا الكتفين شبه عاريين، وأين غطاء الرأس يا دادة؟ فليس كل الحضور من جنس النساء، فهناك أبو عاشور وهناك نوزاد ابن الخالة، وكاوه الجار وحמיד الأفطس وسوران وماجد زميله في المدرسة ورمزي وسامان وعلي ورجال آخرون غصت بهم الصالة، وممرات والحديقة الأمامية، وآخرين من الأقارب والزملاء له وللمرحوم؛ جاءوا لتقديم العزاء لها شخصياً، وسيتوالى تدفق سيل المعزين وما أكثرهم لو علموا، بخاصة أقرباء أبويه من القريرتين ما وراء جباى ره ش، الجبل الأسود، وتراعت له الخدوش على صفحة خدها وذراعها وكتفها وعنقها العاري فارتاع لها وللمشهد.

كان يضع بين الحين والآخر يداً على بطنه؛ إذ ما زال الألم في باطنه يلدغه على شكل نوبات متقطعة، والألم النفسي وعذاب الروح أكبر، اقترب من أمه يشق طريقه بعناية ومهل بين خطوط النسوة القابعات في السواد، فمال نحوها من الخلف هامساً برفق:

- دادة أنا فرهاد.

فنهرته بعنف بدا واضحاً على قسمات وجهها المتجهم وهي تندد:

- اذهب يا ابن ذاك الأرعن.

تراجع مذعوراً، لم تستعمل أمه في حياتها هذه اللفظة (الأرعن)، مسكينة يبدو أنها فقدت أعصابها، اعتذر عنها وعاد إلى ابن خالته نوزاد الذي كان يحبه حباً كحبه لأخيه، وكان الوحيد من أقربائه الذي وضع فيه ثقته كاملة، ومن الغرابة أنهما كانا شبيهين إلى درجة يخال للنظار إليهما أنهما أخوان، بل كان تشابه فرهاد بنوزاد أكبر من شبهه بعدنان، وكلما ضاق به الأمر استعان به، وفي الأوقات التي اضطر فرهاد فيها أن يقضي ليلة في بيت أحد الأقارب هرباً من غضب أبيه أو بعد نقار حاد؛ كان نوزاد المفضل في الالتجاء إليه فيستقبل بالترحاب.

ولكن هذه العلاقة أصابها نوع من الفتور بعد مقتل عثمان، أخيه من أمه باجي عطية، ورغم ذلك كان لا يدخر وسعاً في الالتقاء به بين الحين والآخر سواء في بيت نوزاد أو في السوق أو في النادي أحياناً، ها هو الآن في هذا اليوم العصيب يجد نفسه يركن إليه، يستغيث به، يعتمد عليه في إدارة كثير من متطلبات العزاء ومراسم الكفن والدفن.

وكلفه بمهمة، همس في أذنه فمضى يشق طريقه بين النسوة معتذراً ووقف ورائها، انحنى وهمس كلمات فرهاد في أذنها حرفياً وبحذر:

- إياك إياك وهيهات أن تركني إلى السباب، فسوف يفعلون بك ما فعلوا بـ..

لم يلفظ الكلمة الأخيرة كما نبه عليه فرهاد ولم تصدر عن دادة كلمة هذه المرة، وعاد نوزاد يقول لفرهاد:

- إن خالتي طرشت يا سبحان الله، ارحمها وارحمنا يا رب.

ولم يدم صمت دادة طويلاً، إذ ارتفع صوتها فجأة متحدية البجة التي أصابته:

- جوانه مه رك، الفقيد الشاب، أنا أسمع صوته من السماء يناديني: دادة، دادة لا تقلقي إن الله سيردني إليك فأنا عائد إليك فلا تخافي ولا تحزني.

ثم جعلت تغمغم مع نفسها:

- جه ركي دايه ي، فلذة كبد أمه، أنه رغم مصيبتيه يفكر بي ويهمّ ويغمّ لنا، كم كان براً بوالديه، كم كان رقيق القلب مع الجميع.

ثم وهي تقف وتصرر على أسنانها وتلتفت بعصبية اقشعر لها كل بدنّها الذي أصابه الضمور، وتصرخ بثقة وتحدي بصوت لا يكاد يسمع:

- قتلوه الأوغاد أخذوه مني.. واويلاه أين أولي وجهي وكيف لي أن أعيش حية من بعده، ما هذا الغدر يا ربي؟ كيف تصطبر على جور الجائرين؟ نارك.. صب نارك على من قتل ابني، انتقم لي فليس لي سواك يا ربي.

تصاعدت همهمات النساء، وكانت كل أسرة تتحدث بما أصاب الأسر الأخرى وتنتظر حظها من المصيبة، تبادل فرهاد ونوزاد النظرات كما فعل بعض الحضور، مما حدا بحميد الأفطس أن يهمس لفرهاد أن يحذر أمه، فرد عليه أنه حاول ذلك بلا جدوى.

نهضت دادة على قدميها تترنح وتميل يمينًا ويسارًا، وأخذت تخمش وجهها وتصك صدرها، أجلستها المرأة الجالسة عن يسارها تسندها إلى صدرها، ولأول مرة رأى فرهاد لطح التراب على رأس أمه، كاد أن يهوى فأسنده نوزاد الذي كان يقف بجانبه وييده قارورة الماء للحاضرين، كان العرق يتصبب بغزارة من على جبينه ووجهه رغم دوران المراوح الكهربائية الثلاث في كل زاوية دورانها السريع، فقد ارتفعت الحرارة في الداخل أكثر عن المعهود بسبب الحر والزحام، ولم يكن فرهاد قد ذاق شيئًا ليوومه ولألم بطنه، والأشق من كل ذلك أن صدى كلمة واحدة ظل يجلبل بتواصل في رأسه: توبة.

بعد أن أتم جولاته التفقدية عاد فرهاد إلى الجامع برفقة أصحابه وأصدقائه الرجال لاستقبال المعزين، وبدا طوال الوقت في شرود وذهول، وهو واقف بين ملا عبد الرحيم ونوزاد وعبد الخالق ابن عمه الذي كان أحد الأقرباء الذين منعهم أبوه من زيارتهم في البيت بدون ذكر سبب لذلك، ظل غارقًا سارحًا في أفكاره وهواجسه وهمومه الجديدة ونكسته الجديدة؛ بل الكارثة التي حدثت دون أي مبرر أو مقدمات، فمن كان يظن أنه سيقفل بهذه الطريقة البشعة وهو سائق مدني غير مسلح، ولم يكن ألم هدر كرامته من قبل ضابط دنيء الخلق جاهل سادي بأخف من ألم فقد أخ بقي بدونه، بلا أخ ولا ظهير ولا نصير في الحياة.

غرق في أفكاره وللمرة الثالثة على التوالي كان النهار يكاد أن ينتصف في أول أيام الحداد من مجموع ثلاثة، والمعزون يتدفقون زرافات ووحداً صوب الجامع لقراءة الفاتحة ومصافحة أهل الميت، داعين الله للفقيد العفو والصفح والغفران.

وثمة قارئ قرآن يتلو في آيات الذكر الحكيم بصوته الحزين، ومن أمامه يجلس المعزون على الكراسي في صفوف طويلة وينصتون إليه بخشوع، والوجوم مخيم على الوجوه والشفاه تتمم بالدعاء والابتهال والصلوات، الجامع سمي بجامع الحي الإسلامي لوقوعه في الحي الذي يحمل الاسم نفسه، وكان معروفاً في أوساط العامة باسم مزكفتى مناره قوته - أي المسجد ذو المنذنة القزمية، وكان يجلب انتباه الناظر بمنذنته الفريدة الصغيرة ذات مكبرات الصوت الأربع الكبيرة.

الصور والمشاهد التي رأتها عيناه في ظهيرة اليوم السابق على المقبرة التي كانت تقع في ضواحي المدينة الجنوبية لا تنفك تتراءى وتكرر ظهورها وانبعاثها أمامه حية مجسمة..

في صدارة هذه المشاهد منظر دادة وهي تلقي بنفسها في الحفرة المعدة لضريح أخيه، وهي تصك صدرها وتسف التراب فوق رأسها وتصرخ: ادفنوني هنا معه، لا ينبغي أن أحيأ من بعده، ثم تتدحرج فيسرع إليها يسندها إلى صدره ويأخذ رأسها بين يديه، ثم تنفلت من يديه وتمرغ نفسها في التراب وتحاول أن تنهض فتقع، ويأتي نوزاد ليساعدها على الوقوف؛ فلم تكد تقف حتى هوت أو كادت، وأسندها مرة أخرى وهب الآخرون للنجدة، فإذا هي في جزع وهلع ينطق لسانها بألفاظ لا صلة بينها، ثم وهي تتم بعبارات غير مفهومة عدا عن عبارة كانت مفهومة واضحة وهي: خُطف من بين يدي، ثم تكور قبضتها باتجاه الفراغ في يأس قاتل وبؤس وشقاء ورثاء.

وعاد إليه مشهد السائق علي ذو الوجه المشعر والقصة التي قصها هكذا بتذوق ومتعة، بنفس الطريقة التي كان عدنان يروي له أحداث فيلم من أجل حفنة من الدولارات، ومشهد الملابس والعوينات والقميص والقمصنة السميكة الملطخة بدم أخيه، والذي كان يأخذها معه جولاته في الصحراء آناء الليل القارص، وبعد أن تلاشت الصور أخذ ينظر إلى نفسه بريية وشك، وكأنه ينظر إلى صورة الجاني: "لا، دادة، لا... أنا القاتل، أنا المسؤول، لا البعث ولا الفرس، بل أنا..".

- الفاتحة.

ينادي أحدهم بصوت مرتفع فتختفي الصورة، وترتفع الأيدي من المرفقين إلى الأعلى وتتحركت الشفاه لقراءة الفاتحة، ثم يتوجه صاحب الصوت للمصافحة وتقديم عبارات الحزن والعزاء الخاصة بهذه المناسبات من قبيل: يغفر له الله، إنا لله وإنا إليه راجعون، شريككم في الحزن، البقية في حياتكم، إنه شهيد مكانه الجنة...

وبغثة يرتفع صوت بعيد ليخرج على أثره رجل معمم من بين صفوف المعزين ويتقدم إلى أصحاب المرحوم الواقفين في صدر الصلاة الصغيرة، يصافحهم واحد واحد ثم يخرج مغمماً:

- إنا لله وإنا إليه راجعون، مصابكم مصابنا ونحن شريككم في هذا البلاء المبين والكر ب العظيم.

فيستفيق من وحشة أفكاره ولجة همومه ويحيل نظرة سريعة على الوجوه التي كانت تقف معه في صف المعزين؛ عرف منهم ملا عبد الرحيم الذي قدم نفسه للناس كعم للفقيد وكان خير بديل للأفندي، والذي اقترح أن يدفن التابوت فوراً دون تأخير حين خرجت الجنازة محمولاً على الأكتاف على ظهر بيك أب، يليه في الصف نوزاد وحميد الأفطس والأقرباء، وكانوا بكثرة اندهش لها، والنسبة الكبيرة منهم لم يكن قد وصلهم الخبر بعد، عرف بعضهم ولم يعرف البعض، فوجب عليه أن يقدم نفسه للتعارف، أدرك دون وعي منه أو قصد أن شعار بابا قد أثبت عقمه في التعازي؛ فلم يكن هؤلاء عقارب كما اعتقد، بل أقارب وأعزاء يعول عليهم عند الشدة.

سار كل شيء طبيعي وفق مراسيم العزاء، ولكن شيء ما كدر الجو ولوث الهواء المحيط؛ إذ كاد أن يصعق وتغور به الأرض الصلبة التي تقف قدماء فوقها حين رأى نفسه في لحظة ما يقف وجهاً لوجه مع الرفيق حثون ويده الملوثة بالدماء الممدودة نحو بطنه قاصداً المصافحة، فلم يعطه يده بل تظاهر بعدم الرؤية، فجاوزه إلى التالي بينما رماه الرفيق بنظرة تنطير منه الشر ثم اختفى بسرعة البرق.

عاد إلى البيت قبل مغيب الشمس بزمن قصير، كانت دادة لا تزال قابضة بين باجي والمرأة ذات الشعر الكثيف والعنق الطويل المكسو بالغطاء الأسود الشفاف، كان الوقت يشرف على الغروب، واستعد ما تبقى من الحضور للرحيل وأصبح المكان شبه خاوي؛ فإذا بسرب من نساء سمر في سواد دخل الصالة، اتجهت العيون إليهم، كن ثلاثة من زوجات الرفاق وأمها الطلاب عرفهن فرهاد، كان من دأب هؤلاء النسوة الخروج لتقديم التعازي لذوي الشهداء في وقت يخف فيه الازدحام، مع حماية قوية تتخذ من سور البيوت نقاط مراقبة تترصد وتترصد لكل حركة حول الدار.

كانت دادة على وشك النهوض حين دخلت النسوة ومعها الأربعة القاعدات عن يمينها وعن شمالها، أنست خيفة من وجوههن وألسنتهن، فعادت تجلس صامتة، فجلست النسوة في صف مقابل لها؛ أي في مواجهة فرهاد الذي أوماً إليهن بهزة رأس ضئيلة، وكالعادة ارتفع صوت إحداهن هاتفية: الفاتحة.. فشرعن بقراءة الفاتحة

بوجل وخشوع، ثم ارتفعت أصواتهن وبصوت واحد بالدعاء للفقيد ولأهل الفقيد، وأن يلهمهم الله الصبر والسلوان، أعقب ذلك سكون مطبق، تبادل فيها النسوة همسات فيما بينهن.

الحقيقة هي أن دادة جميلة ومنذ ورود خبر النعي أصيبت بنوع من حالة هوس وخوف نفسي مرضي تجاه كل من يتحدث بلغة غير لغتها، فأي كلام أو حديث من حولها لم تفهمه مهما كان تافهاً عدته دادة مصدر خطر يهددها ويهدد بيتها، فتأهب لصدده بكل ما أوتيت من قوة، وها هي النسوة ينطقن بلسان غير لسانها وعن مقربة ثلاثة أو أربعة ياردات قبالتها، فإذا هي تتور ثائرتها على حين غفلة.

واستيقن فرهاد وصاحبات دادة أن النوبة العصبية الصاخبة الساخطة قد انتابتها من جديد، فما هي إلا أن أفلتت من الأيدي التي تمسك بذراعيها من الطرفين لتهب كالمجنونة إلى السلم يرقاها ثلاثاً ثلاثاً وتعود بعد ثوان ترمق النسوة المعزيات بنظرة ثاقبة منبعثة عن عيون حمراء منتفخة الأوداج والأجفان، مهترئة الملابس، متغيرة الملامح، حتى كاد المرء يجزم، لو رآها بهذه الحالة البشعة، إنها ليست دادة الوديعه اللطيفة الهادئة الطلقة ذات الوجه البشوش واللطيف، وقفت متحدية أمام النسوة الثلاثة وببيدها تحمل صورة عدنان، الخدوش على الخدود واللطخ القرمزية والزرقاء التي انتشرت في أجزاء متفرقة من ساعديها وذراعيها وصدرها كانت لافتة لنظر الناظرين، وقالت وهي تستमित من أجل الإفصاح عما في نفسها بحنجرة كلت أوتارها وهي تضع سبابتها على رأس المرحوم الحاسر:

- انظروا فقط إلى الحفرة العميقة على رأسه، أمّا تريئها مخيفة بشعة؟ عانى سنتين من مرض أعصاب وأمراض نفسية شتى، حتى سجّل في سجل الخدمة العسكرية سالم غير مسلح/ معوق، كل هذه العاهات ولم تأخذكم به رحمة ولا رأفة.

ثم وهي تصك صدرها الذابل وترنو إلى الممر المفضي إلى غرفة الوالدين وتصرخ بلا صوت، بل بصوت أشبه بصوت سكين مثلوم يمرر على سلك:

- أفندي أين صلواتك، ادع على قوم نوح بالطوفان والقمل والزلازل.

ثم وهي تحرق بالوجوه كمن مسّها ضر:

- لا، لا ينفع الدعاء لقد خرس الخالق.

ثم وهي تكلم نفسها وتحثو على ركبتيه وتتنظر إلى الأرض:

- إنه ذنب الأفندي كله.. كان ظالمًا، كم ضربة سياط من يده ألهبت ظهر هذا المسكين وأسته وهو راقد لا يقوى على العمل ولا على الدراسة؛ قم يا كسلان يا تنبل يا عديم النفع.

واندفعت تنفس عن كربها بشد شعرها بقسوة فانتزعت منه خصلات جديدة، والأيدي من ورائها وجنبها تندفع وتمتد للحيلولة بينها وبين ما تصنع بنفسها، وهنالك كان فرهاد يغمغم مع نفسه كالثلمل:

- وكنت شريكه في الظلم، يا دادة.

ثم عاودت الكرة واستدارت تواجه النسوة اللواتي بدت عليهن أنهن قد اعتدن على هذه التصرفات التنفيسية من أمهات الشهداء فكن يطالعتها في إشفاق وصمت وهي تمزق ما تبقى من حبال صوتها:

- لقد استضعفتموه فقدمتموه قربانًا للمحرقة، فهلا قدمتنَ أبنائكن قربانًا لها وأنتم الماجدات المثقفات، ونحن الكادحات الأميات.

وهنالك تسمر فرهاد تحت صورة الطواف دون حراك مرددًا مع نفسه عبارة حضرت في خاطره رغمًا عنه؛ استضعفتموه فقدمتموه فهلا قدمتم لحم الأسد، أخ.. لو كان أبو العلاء المعري لا يزال حيًا لما رأى قولاً أنسب من قوله هذا في هذا المقام.

وفجأة ارتعشت شفاهه وطار اللون من وجهه، أحس بألم حاد مباغت تحت الحجاب الحاجز، فأخذ يضغط على بطنه بشدة ويردد مع نفسه كالحالم: توبة، توبة.. لا تنس توبة، وعادت دادة تجلس تحت الضغط والسحب والجر، وما هي إلا لحظة وأفلتت من جديد من الأيادي القابضة على ساعديها، وراحت تصعد السلم مرة أخرى، ولاح من فرهاد نظرة إلى المرأة الغريبة التي لم يتبين منها غير العينين والتي كانت تمد يدها لفعل شيء ما ثم تعيد إليها يدها كالمتردة، تسمرت عيناه عليها يتفحصها مرددًا أين رأيت هذه القامة وهذه العيون من قبل؟ ولكنه حول نظرها عنها لأنه أشفق أن تلحق دادة بهذه الحركات والألفاظ غير اللائقة بمجلس العزاء أدى بمشاعر الحاضرين أو تلحق الأذى بنفسها، فلم يجد بُدًا من وضع حد لتصرفاتها الغوغائية فلحقها إلى فوق السلم، فانتزع يدها من يده وبصقت بكل ما أوتي من قوة في وجهه

ثم هبطت تطير إلى الصالة والعيون تترقب برهبة والنسوة تنهياً للفرار من الشباك إن كان أقرب.

ووقفت في وسط الصالة وفي يدها تقبض على كيس صغير من الخام الأبيض، وبدون توقع أي أحد أخذت دادة تزغرد، بل أدت الحركات التي تصدر الزغاريد ولكن البحة غدرت بها، فإذا هي ترمق الوجوه وقد انشרכת ملامح وجهها قليلاً وبدت وكأنها تبتسم، ودست يداً في الكيس ثم أخرجتها قابضة ورفعتها إلى فوق رأسها، بسطتها وأطلقتها على الحضور، فإذا بحبات النبق تتطاير وتنتشر وتتبعثر على الأرض، ورذاذ منها يسقط على الرؤوس كالحالوب.

المظهر أدهش فرهاد أكثر من غيره، فقد كان الوحيد من بين الحضور الذي علم ما رمت دادة، فالنبق ثمرة غير معروفة جيداً في المدن، فهي ثمرة جبلية محضة، فأخذ يتساءل ويتحاور مع من حوله دون أن يميز من كان يخاطب، وانحنى يلتقط بعض الحبات منه فكانت يابسة صفراء وطازجة، فكرر سؤاله محتاراً مذهولاً: من أين؟ ومن أتى به؟.

رأى النسوة في هرج ومرج وهن يلمن ملاءاتهن ثم ينطلقن خارج البيت كمن يطاردهن الشيطان بعينه، ومع النبق عادت إليه الذكرى المؤلمة والممتعة معاً؛ دادة تجلس على صخرة، دادة خلف الباب المشبك السلكي تنظر إلى غابة النبق في أحضان الجبل الأسود بعين، وعين أخرى عليهم تراقبهم في هرجهم ولعبهم وصياحهم ولغظهم وسباقاتهم على الشارع نصف المبلط، وعلى مرعى المطران عمانوئيل بعيون وديعة صافية هائلة قريرة قانعة مقتنعة.

فهرع إليها يمسك بها تدفعه الذكريات، فسحبها برفق إليه فاستسلمت له وهي من الإعياء في نهاية وغاية، وساعدها في الاستلقاء على أريكة بابا، وانحنى فوقها بعطف متمماً بعبارات مهدئة لروعها مخففة لآلامها، وجعل يربت على ذراعيها المتورمتين، ولكنها رفعت رأسها فجأة تحق بوجه ابنها.

لم يبقَ من الحضور إلا نسوة بعدد أصابع اليدين؛ وكن بصدد المغادرة كما بدا ذلك من حركاتهن ونظراتهن، خاف فرهاد أن يعاودها الغضب وتبصق في وجهه ولكنها لم تبصق هذه المرة، بل ضمته ضمة كاد ضلعه يتكسر، حتى جعل يتساءل من أين لها هذه القوة؟ ثم اعتدلت في جلستها ووضعت رأس فرهاد في حضنها وأخذت

تترنم بأنشودة الحب الغريزية، حب الأم لوحيدها، عندما رفع رأسه كانت دادة تغط في غيبوبة، بل كانت غائبة في غياهب النوم، وراحت طوال الوقت تغفو قليلاً وتستيقظ قليلاً في حال بين الوعي واللاوعي.

سجاها برفق على الأريكة بينما أشعلت إحدى النسوة فانوساً نفطياً لانقطاع الكهرباء، كان هو بنفسه إلى النوم أحوج، بل تمنى لو تمكن من الارتواء بجانب دادة، فقد وهنت يده وتراخت رجلاه وأظلمت عيناه فوق الظلام المحيط، فترحزح عن الأريكة بصعوبة دون أن ينظر قاصداً غرفته ليلقي بنفسه على سريره دون أن يهتم للجوع ولا للعطش ولا لألم البطن.

وبينما هو يشق طريقه بين نسوة في حدود درزن؛ فإذا بامرأة تتبعه إلى الغرفة، كاد أن يتهالك على سريريه، إذا بيد رقيقة تمتد إلى ما تحت ظهره برفق ولكن بمتانة، وهذه اليد ساعدته على الاستلقاء ومد رجله، ثم راحت وعادت بقارورة ماء مثلج كان أحوج إليها في هذا اليوم القائظ المملح من تموز، سقته ماء ثم عادت ترنو إليه من فوقه بعينين واسعتين تبيست الدموع في زواياها، تراءت له صورة خالها عكسية، فجعل يفرك ويركز عينيه المتعبتين على عينيها عسى أن تهديه الرؤية إلى معرفة المرأة.

بدت أنها لم تكن في نيتها إطالة انتظاره، فأزاحت عن وجهها الوشاح الأسود الذي كان يكسو وجهها تماماً عدا العينين، وعاد يرنو إلى وجهها المكشوف وهي تتحني عليه حتى التصق صدرها ب صدره، رآها وتبينها وعرفها، فارتاع لما رأى، سرت قشعريرة في جسده المنهك سريان الكهرباء في الأسلاك.. فلم يملك أن وثب من مضجعه لضياؤها ونورها المشع، ولم يملك وهو يتفحصها بكل دقة مرة أخرى ويقرب عينيه المغوشتين من وجهها إلا أن يصرخ صرخة كاد أن يقع على إثره على الأرض لولا بطن السيدة البارزة المندفعة إلى الأمام:
- كاترين!!.

امتدت بطنها وانبسطلت أمام عينيهِ لمسافة متر، بطنها يلامس جنبه مساً جميلاً، وبكل ما تبقى من جسده من قوة نهض ليقف أمامها بعد أن أغلق الباب بالمزلاج، ترك رأسه يهوى على صدرها وانفجر وللمرة الأولى يبكي بعينيهِ بعد أن بكى كل الوقت بقلبه المدمى المصاب في شغافه.

صعدّها بنظرات فاحصة وشت أساريه بالفرحة التي غمرت قلبه، ثم ضمها إلى صدره وهو في حالة يرثى له رغم تظاهرة بالانتعاش لهذا اللقاء الأشبه بالحلم، وفي أذنه نطقت هامسة لافظة كلمات حارة:

- الخبر وصلني عن طريق عمتي، والتي بدورها تلقت الخبر من أم عاشور. وفجأة وهو يذكر شيئاً صدمه فأخرج رأسه من طيات صدر كاترين، وضع يداً فوق بطنها الناعم اللدن المرتفع حيث يرقد في جوفها الدافئ الرطب الآمن طفلها، رفع عينيهِ إلى عين كاترين متسائلاً:

- وأين سها إذن؟ ظننتك طوال الوقت سها مديرة ظهرك لي بجانب أُمي.
- ستعرف ولكن أنت الآن في وضع يرثى له.

رأت في عينيهِ الإصرار، فنهضت بتؤدة ونهض معها متوتر الأعصاب فقادته إلى خارج البيت إلى بيت عاشور، وأخذت تهديه الطريق برفقة أم عاشور التي بدت متعبة ورغم ذلك لم يفقد وجهها المستدير رونقه ومرونته، ساروا إلى أن بلغوا غرفة صغيرة تحت السلم، ففتحت أم عاشور الباب فمد فرهاد عنقه من خلال الباب فإذا سها راقدة دون حراك ووجهها بلون الأموات، وكيس المغذي يتدلى من فوقها من عمود حديدي بجانب السرير، وعلى المنضدة الصغيرة أكواب ماء وقدر شاي فارغ وقنينة دواء سائل أسود اللون نصف مملوءة، أشارت كاترين بالعلامة الدالة على السكوت بوضع سبابتها على شفيتها عمودياً مشكلةً بذلك شكلاً على صورة الصليب الذي تدلى فوق عنقها العاجي.

- وجدناها أنا وأم عاشور.

قالت كاتي بهمس تقدم تقريرها المتقطع لكن الشامل حول الحالة:

- تحت اليوكالبتوس لدى دخولي معها وكانت تقبض بيدها على هذه الزجاجة في حالة بين الحياة والموت - وهي تناولت الزجاجة الصغيرة-، أخذناها إلى المستشفى فأجري لها عملية غسل معدة والأمعاء فورية، فقدت الكثير من السوائل، وضعها مستقر الآن، كانت تغغم بصعوبة باسم أخيها وعدنان، والجملة الوحيدة المفهومة نطقت بها بعد تناولها جرعة من المهدئات والتي كانت: لقد قتلوا أخي مرتين، وقد اهتمت واعتنت بها أم عاشور أولاً ثم ذهبت إلى دادة تاركة إياها تحت رعاية عمتي، اسمع...

أصاخ فرهاد السمع وفي تلك اللحظة تنأهى إليه صوت الماء المنساب من الحنفية من غرفة الجوار.

- أنها عمتي في المطبخ.

عدلت من وسادتها ثم قالت له:

- أمّا بابا فقد زرتة كذلك في المستشفى، لقد أصيب بذبحة صدرية، ووضعه مستقر ولكن الخطر لم يزل تماماً.

تبدل لونه وأسرع يستفسر منها بالباح:

- إياك أن تقولي لي إنه أصيب بنزف في الاثني عشري؟

فأومأت بالنفي، ثم أردفت:

- أبو عاشور حكى لي قصته هناك بجانب سريرته.

تأمل فرهاد زجاجة الدواء في يده وأخذ يلفظ الاسم المكتوب على الورقة اللاصقة عليها بصوت مسموع تربتيزول ٧٥ ملغم، أصابته دهشة عميقة، ثم بعد تفكير قصير قال مبدئياً رأيته:

- ربما إنها بقايا نفس الحبوب التي تناولها أخي في زمن النكسة وتحت إشراف طبيب.

ارتعدت كاترين للخبر فقالت مشدوهة:

- إذن فقد نجت بأعجوبة ماذا كانت ترمي من وراء ذلك؟ الانتحار؟ وفيم؟ ولم؟ وعلام؟ وهل يعيد الموت الموتى.

وتناولت الحبوب من يد فرهاد تتفحص تاريخ إنتاجها ونفاذها، فقالت وهي تدبر له القنينة الداكنة وتريه التاريخ:

- انظر؛ إنها نافذة الصلاحية منذ سنتين.

وبدون أي تردد ألقت كاترين بالقنينة في سلة المهملات ثم التفتت إلى فرهاد الذي كان يترنح فقالت له ناصحة:

- لا تشغل بالك بها، عليك بالراحة فقط، أنت كما قلت في حالة يرثى لها.

لم يتمالك نفسه أكثر من ذلك فانهار رأسه على صدرها، ثقلت وتراكت الأحداث المتلاحقة عليه، كانت كثيرة في القليل الباقي من رشده.

* * *

مرت كاترين بالأسرة في اليوم الرابع؛ أي بعد انتهاء الفاتحة في الجامع بيوم واحد، والشمس تقذف بلهبها الملفح على الكون، ولم يكن ثمة داع إلى دق الباب لأن أبواب ذوي الموتى تبقى مفتوحة للمعزين إلى اليوم السابع بعد الدفن، فوجدت دادة وحدها متمددة على أريكة الأفندي ذات الغطاء الأحمر وهي شاردة تنظر في فراغ، بدت في هيئة ومنظر أفضل قليلاً من الأيام التي خلت، فقد لفت رأسها بشال أبيض نظيف ولكن عينيها الجاحظتين جحوظاً غير طبيعي؛ والطريقة التي كانت تنظر بها إلى الناس من حولها؛ جعل المرء يتساءل وبجد هل حدث لدماعها عطب؟ أو انقطع لها هناك عصب؟ ربما.

كان البيت قد خلا من الزوار المعزين إلا من قلة متفرقة وصل إليها الخبر مؤخراً، وكان معظمهم من أهل القرى، جلست كاترين إزائها متعمدة عدم لفت انتباهها أو إزعاجها، وكانت سها معتكفة في غرفتها تقضي فترة نقاهة قاسية وصعبة للغاية، ووتيرة بكاء الطفل خفت قليلاً ولكنها لم تهبط إلى المعدل الطبيعي له، وكان لدادة رأيها على نحيب الطفل، فتقول لنفسها بصوت مسموع مشيرة من خلال النافذة إلى الشارع:

- إنه يبكي له، لتأخره، ولا يدري المسكين أنه سيعود من إجازته في أية لحظة.

ثم تشير بيدها إلى الباب وترفع رأسها جهة السلم يخاطب الطفل:

- انظر، آسو، انظر هناك إلى الباب، إلى أبيك، إلى عدنان البطل، جاء وجلب معه بيرية خاكية أخرى وصمون عسكري يضعه في جراب أسمر صغير، آسو أبوك جلب لك معه ألعاب جديدة جميلة.. ها هو، انظر إليه إنه يقف أمام الباب وفي يده

عوينات (نظارت) جديدة، انظر إلى الشاحنة الطويلة تقف أمام الباب، قومي سها لنستقبله.

وبكل هدوء ورفق مالت كاترين على دادة جميلة رامية التحدث إليها؛ فإذا بسها ترنو إليها بعيون حمراء وهي تقف متكئة على باب المدخل وقد أصاب جسدها ضمور، ووجها ذبول وشحوب شديد، وظهرت في شعرها الفاحم خطوط بيضاء، سعت إليها كاترين فضمتها بين ذراعيها وهي تهمس لها:

- عزّ علي فقده كان شجاعاً متحمساً وذهب غدرًا..

وبعدما اطمأنت على صحة الأرملة عادت تقف قبالة دادة تتفحصها مليًا، ثم التفتت إلى سها التي وقفت بجانبها وقالت لها مشيرة إلى دادة جميلة:

- إنها تحتاج إلى مراجعة فورية لطبيب نفسي.

ثم وهي تتساءل:

- أين فرهاد أحتاجه كي يساعدني؟

فجأة استفاقت دادة من غفوتها وأخذت تنقل ببصرها بين المرأتين بعيون غائرة وقالت تنظر بشرود إلى الفراغ:

- رأيته في الحلم.. أراه كل يوم يقول لي أنا في طريقي إليك دادة.

تنهدت سها وتطلعت إليها في إشفاق ثم قالت لكاترين:

- إنها تلفظ بنفس الكلمات كلما أفاقت... حلم.. إنه سيعود.. لا تحزني سها

ثم أخبرت كاترين بوجل:

- إنها تغفو لدقائق معدودة وتستيقظ لدقائق معدودة في حال بين الوعي والذهول.

بعدها اندفعت باكية نحو السلم المفضي إلى فوق وهي تترنح، حينها وضعت كاترين يدها على جبين دادة التي أخذت تحلق في وجهها، فبدت مبتهجة من الأعماق لوجودها مرة أخرى بجانبها، تمنعت وتمتعت بالنظر إليها بعيون ملوها الحب والحنان والعاطفة، فلم تملك إلا أن تفصح عن مكنونات صدرها رغم البحة الكاملة لصوتها، فأخذت تتحدث إليها بصوت أشبه بالفحيح:

- بنتي كاترين تعالي فأنا أمك.

قالت كذلك ومدت بساعديها إليها لاحتوائها، فانفجرت كاترين باكية وكأن سهماً أصاب شغاف قلبها لهذه الكلمة، حتى خرت على البساط المزركش، أم؛ الكلمة العقدة، بل الفيتامين الوحيد الذي ظلت تعاني من نقصها طيلة حياتها، فوجدت في هذه المخلوقة الوحيدة البديل، وهي الآن ثكلى، ثم جعلت تتساءل متقطعة الأنفاس وفرهاد يسمعها من غرفته تسترًا من فضح ما اجتهدت هي على كتمانها رغماً عنه:

- دادة جميلة إنك كنت أُمي وستظلين أُمي ما حييت، ألم تكوني الوحيدة التي ناديتك أُمي في غياب أُمي؟ أُمي دادة جميلة قلبي يتقطع حزناً لك، فإني أدري الناس بقسوة فجيعتك، كان الفقيد لي زميلاً وأخاً كذلك، أو لم يكن واحد منا نحن الأحباء الأربعة في زمن لم يكن للموت اسم ولا وجود؟

جاشت عاطفتها حتى أنها لم تتمالك نفسها فألقت بنفسها على صدرها، فأحاطتها دادة بذراعيها الواهنتين، وبكت كل واحدة على صدر الأخرى، وبعدما استقامت بعد لحظات نصبت دادة عينيها الدامعتين ولأول مرة على بطنها المنتفخ وجعلت تحمق فيه، ولسان حالها يقول: إذن حبلى والله أعلم بما حبلى.

الصخب والهيّاج والملابس الواسعة المنتفخة كان ستاراً لها لما طوال فترة جلوسها معها في يوم الحداد، تورد وجهها بعد طول شحوب ولم تملك إلا أن توجز مأساتها في كلمتين:

- عمّا قريب سأصبح أمّاً كذلك، وستصيرين أنت حينها جدّة.

فلنت الكلمة من فيها فارتعشت لها، لكنها عادت إليها هدوءها وقد ذكرت أمراً كان مطوياً إلى اللحظة فقالت مستدركة:

- أولست أُمّي؟

أومأت بوهن، ثم جعلت تنقل ببصرها مستفهمة بقلق غامض بين وجه كاترين وبطنها، كانت أضعف حتى من ربط الماضي بالحاضر، فقد شعرت أن الأرض تدور بها، فأسندت كاترين رأسها إلى الوسادة ومددت رجليها فوق الأريكة، وبعدما طبعت قبلة على جبينها غادرت الصالة.

مرت كاترين على فرهاد في غرفته فوجدته يلعب آسو ويهدده ويناغيه على صدره العاري وكأنه هو سعادته الباقية بعد فناء أخيه، فحملة خارجاً حين دخلت

وناوله إلى سها من فوق السلالم، جلست على طرف سريره وضمته الضمة الأخيرة هامسة في أذنه بحنان ودفي:

- فرهاد، أي حبيب قلبي وأب طفلي، إنه حقًا لموقف صعب للغاية، ولكنك تعلم أنه أنت الآن الرجل الوحيد في الأسرة وأنا على وشك الوضع، أرجوك ألا تستفز ولا تحزن إنه - وهي تشير إلى بطنها- سيخرج إلى النور عما قريب، وكن على ثقة كما هو عهدي بك بأنه سيكون في أيادي أمينة، دع غير ذلك للزمن، فالزمن حلال المشاكل وقاهر الأزمات.

مضت إلى الباب ثم عادت تطبع قبلة على وجنتيه المحترتين، ثم اتجهت إلى الباب؛ ومن هناك قالت له بصوت تختنقه العبرات واضعة يدها على بطنها:

- لن أنساك أبدًا.

* * *

obeyikan.com

القسم الرابع

حير

obeyikan.com

السيارة في صعود مستمر؛ أمامها إكمال أربعة عشرة دورة حول المنعطفات الجبلية قبل أن تصل إلى القمة، حيث تقوم ناحية مصيف صلاح الدين، وحينما بلغت سارت ببطء عبر طريق مبلط تتناثر فيه الحفر، ترتفع على جانبيه الأشجار المثمرة.

واصلت السيارة سيرها في انحدار تدريجي على طريق متعدد الالتواءات، بعدها دخلت قرية كوري المعروفة بتفاحها الأحمر وتوتها الشامي التي تبعثت ثمراته الكبار البالغة النضج والحمرة على حواف الطرق، خرجت منها لتدخل في طريق منعرج فيه بعض الصعادات والنزلات الطويلة، في أرض سهلية مترامية متعرجة زاخرة بالهضاب والوديان بمختلف الأحجام والألوان، تكسوها الخضرة من كل مكان، يخيل للناظر أنها بحر متموج متجمد من بساط أخضر، ومن بعيد لاح ذيل جبل سفين المعروف بعلوه وخضرته الدائمة.

استفاق صاحبنا على خرير مياه قضاء شقلاوة الواقعة تحت جبل سفين، استحال صوت الشلالات إعصاراً؛ بل سيلاً جارقاً في آذانه الغارقة تحت سحابة من الوشيش، وغابة من الشعر المزيج من الأسود والأبيض، حتى إنه لم ينتبه إلى سلاسل الجبل المكتنف لقضاء شقلاوة عروس كردستان، وحتى المضيق التي مرت بين شقيه السيارة بركابها الثلاثة بعد تجاوزها لشقلاوة؛ ضاق وبدا لعينيه الوجلتين المغبرتين كفكي قرش متأهب للابتلاع، وما كادت تفلت من الفكين حتى انحدرت السيارة العتيقة على منحدرات رهيبة عميقة، فأسرعت دقات قلبه ورפרفت شفاته بدعاء غريب كهيئته، بدا أنه يعاني من صداد شديد، إذ كان يعصر أحياناً صدغيه بين راحتي يديه عصراً شديداً فيصدر منه أنة مكتومة لم يسمعها الآخرون، وصعدت ثم استوت السيارة أخيراً على طريق تكتنفه السهول والوديان والمتعرجات والروابي والهضاب والتلال من جهة اليمين، وسهل واسع وعر من الجهة اليسرى.

في غمرة أسى غامر رفع رأسه إلى السماء الزرقاء يرنو إليها من خلال النافذة، حانت منه التفاتة لأول مرة إلى زملائه الركاب ليخيب ظنه، إذ رأى بأم عينيه

المسافر عن يمينه يبعد برأسه إلى ناحية الشباك كل الوقت متظاهراً أنه إنما يريد أن يملأ رئيته بالهواء بعدما امتلأت السيارة بعفونته، وهذا ما كان يخشاه.

لم يكن هذا هو الوحيد، وإنما تأكد لديه بما لا يقبل الشك أن السائق البطين ذو الرأس المستطيل العاري من كل شعر نفسه أخذ ينظر إليه مرات متتالية من خلال مرآته المعلقة قبالة شاربيه الأشهبين المجولين، وعيونه تنبش وجهه وسحنه كما تنبش الديكة الغل تحت أقدام الحشائش، ورأى بطرف عينيه الحماوين المحترم الذي كان يجلس بجانب السائق والذي لم ينفك يحكي حكاياته المملة بغير حساب وعلى حسابه إذ استحالت كلماته إعصاراً في داخل صومعة رأسه.

مرت السيارة أمام جبل منخفض اسمه شكروك، تمتد بمحاذاته قرية صغيرة معروفة بأعنابها المشهورة السوداء وتيناتها الحلوة الصفراء، حينها انبسطت أسارير وجهه وخف تجهمه، بدا من نظرات عينيه من تحت الجمداني، كوفيته المسودة بالتراب أنه قلق ووجل.

بدا انشراح ضئيل على وجهه مع خفقان شديد في قلبه وقد لاحت له بعد أن تجاوز السيارة الجبل الأصفر الناصي أولى بوادر قرية سيساوه على يساره، وأشجاره الباسقات المعروفة بـ (اسبيندار) – الصفصاف وعيون الماء الزلال، تنفس صاحبنا بكل قوة مستنشقا الهواء المحمل بنسمة الجبل والسهل والماء الجاري تحت الأشجار والجنان.

من بعيد لاحت له مقدمة سلسلة الجبل بذيله الطويل المتعرج كالأفعى وهي تحتضن تلاله الرمادية المستلقية تحت حوافره الممتدة على طوله، وها هو عبقه المتميز الخالد يداعب منخريه، أحس أن رئتيه تتوسعان أكثر وأكثر وتتمددان بلا وعي أو إرادة منه، ولأول مرة من اللحظة التي انطلقت بهم السيارة لم يشعر برائحة إطارات السيارة القديمة من تحته، والفضل يعود للهواء النقي القادم من الجبل.

لفت نظره وهم على مقربة بضعة أميال من حرير أشجار البلوط والنيق والجوز واللوز واسبيندار - الصفصاف، منتشرة على الفسحة الممتدة بين البلدة والسيارة، جعل - ناسياً حاله ومآله - يملأ رئتيه بشذا الطبيعة والهواء المعبق برائحة الجبل النقية الزكية الرطبة، وعيونه تلتهم كل ما تراه من حوله، تنفس الصعداء، فهذا هو

كهف خانزاد لاح له بكل شموخه ودلالاته لعينيه الغائرتين، منذ متى لم تأكل؟
تحدث مع نفسه كأنما يشكو للجبل.

بعد أن اجتاز مدخل القرية الضيق؛ خفف السائق من سرعة السيارة تدريجياً حتى بلغت سوق البلدة، فقلل من سرعتها وهي تخترق شارعها الطويل الوحيد، وفي نقطة ما توقفت السيارة ونزل منها الراكبان الآخران، حينها التفت إليه السائق يطمئنه: اقتربنا.. سأله السائق فيما لو أراد أن يتقيأ أو يشعر بزوغان وغثيان، فهز رأسه نفيًا، فانطلقت السيارة من جديد على الشارع المعبد.

اجتازت السيارة أجمة اسبيندار وقد تناقصت أشجارها إلى النصف، وحينها لاح لهما البيت المقصود، توقفت السيارة أمام باب مشبك من السلك يتوسط سياج من شجيرات الورود والنباتات المتسلقة، ساعده السائق وهو متكئ على عصا من الغصن على النزول، ثم عاد في سبيله، وبعد نزوله نظر إلى ما حوله يستطلع المكان بتوحش وريبة ورهبة متناهية.

وقف أمام الباب المفتوح ومن هناك لاحت له بوابة الدار الزرقاء وقد زال معظم لونها الأصلي، ألقى نظرة كئيبة قاتمة على صخرة بجانب الباب المشبك وأغمض عينيه لثواني كمن يصلي، دامت وقفته دقيقتان أمام الباب منصتًا كمن يترقب أمرًا مريبًا، ثم رفع رأسه بتوتر ومد العصا بيد مرتعشة إلى الباب يدقه دقًا ضعيفًا، لم يفتح أحد فأعاد الكرة وهو يسمع دقات قلبه في صندوق صدره المحتر، لم يطل انتظاره إذ فتح الباب عن وجه امرأة متوسطة العمر متشحة في السواد تساءلت حالما وقعت عيناها على الغريب من يكون؟ فلم يجب بل اكتفى بتفحص ملامح المرأة كأنه يرمي إلى تثبيت أمر يخصه وحده.

تراجعت المرأة وهي تنظر إلى الجهة التي ذهب منها السائق كأنها أرادت أن تستصرخه، فجاءها صوته من تحت، فقد أحس أن قواه خارت تمامًا وأن رجليه لم يعودا قادرين على حمله، ففقد مفترشًا الأرض بجانب الباب، ظل هكذا بلا حراك لثواني مسندًا ظهره إلى الحائط الحجري إلى أن جاءه صوت المرأة من فوق وسط الباب الصوت:

- اذهب لسبيلك أو أظن أنك تطرق على الباب الخطأ..
تحرك رأسه مقدارًا ضئيلاً، قال دون أن يرفع رأسه:

- لا أظن ذلك.

فجاءه الصوت من جديد هذه المرة بنبرة أقوى:

- من أنت وماذا تريد أولاً؟

فقال من تحتها ببحة:

- أرجوك أتوسل إليك، فأنا زائر، ضيف لك ولست بغريب.

ساد سكون رهيب للحظات عصبية وهي تتفحصه من فوق وتتفحص هيئته البائسة، هيئة عابر سبيل مسكين، بدا أن قلبها لان لمنظره البائس رغم خوفها وهلعها لمشهده المريب، كان الوقت متأخراً قد أوشك على الغروب، عابته لثوان قليلة بترحم ثم مدت يدها إليه تساعده على النهوض للدخول، وفي الصلاة ساعدته على الجلوس على كرسي لكنه أشار إلى ظهره وبطنه مخبراً إياها إنه يعاني من ألم شديد فيهما، فساعدته على التمدد على لباداة في ركن الغرفة القاصي فرشت فوقها حشية، فتها لك مستلقياً على ظهره وهو يكتم أنه قوي.

أمّا هي فظلت ترمقه وتتفحصه بعيون وجلة، ثم مدت ببصرها إلى البعيد إلى حيث الدور المتراففة على الطرف الآخر من مرعى المطران، فتمتمت مع نفسها: لسوء الحظ حتى سونيا غير موجودة، صدرت دون وعي منها حركات مرتبكة عصبية، وكأنها استجمعت قواها فدنت منه تتساءل برعشة في نبرات صوتها:

- من أنت؟ قل لي حقيقتك، فأنا وجلة ولا أعرفك.

وهو على ظهره فتح عينيه بصعوبة بالغة، تركها ترسو على عينيها الواسعتين لحظات ثم عاد وأطبق عليهما جفنيه المنتفخين، ثم تحركت شفتاه في حالة بين اليقظة والنوم لتتطق كلمة:

- ماء

هرعت السيدة إلى الداخل وعادت تحمل قدحاً، وضعت يدها تحت رأسه ترفعه قليلاً، ثم وضعت طرفه على فمه فبلل به شفتيه المتيبستين، فتجرع جرعة منه ثم ترك رأسه يسقط على المخدة. نهضت ونظرت إلى ملامحه وملابسه ورأسه الملفوف بـ كلاو وجه مداني (كوفية وطاقيّة تحتها)، متفحصة متفرسة الجسد ملياً متسائلة في جزع من يكون؟ وجعلت تخاطبه بنبرة ضعيفة:

- من أنت وماذا أتى بك إلى هنا؟

بدرت من رأسه حركة مالت به إلى حيث تقف السيدة، وإذا به يباعد بين شفتيه
وطراوة القطرات من الماء العالقة بادية ويقول بصوت كالهمس:
- أنا أعرفك!

سرت في داخلها رعدة وهي تقترب منه كي تلتقط كلماته بوضوح، فأردف الغريب
قائلاً وهو يجاهد كي يستقيم ويعدل في مكانه:
- نعم أنا أعرفك فأنت كاترين، كاترين كه ككه!

تراجعت مذعورة وهي تردد:

- من؟ ماذا قلت؟ من أنت؟ من؟

ثم دنت منه بحذر:

- قل يا رجل، كيف عرفتني؟ أين رأيتني؟ قل لي من أنت فأنت تخيفني بهذا الصمت
المطبق قل لي ربما أساعدك، والإلا....

وهي تتلفت يمنة ويسرة في حيرة وقلق تنتم مع نفسها: يا ربي ماذا فعلت بنفسي؟
كل ذلك من طيبة خاطري وثقتي بالكل وهذا هو جزائي، ثم نقلت بوجهها إلى النافذة
تنظر إلى الطرف الآخر حيث الدور البيضاء الصغيرة المتراصفة:
- أين أنت سونيا، فأنا أحتاجك الآن أكثر من أي وقت.

ثم عادت ترنو إلى الرجل الممتد بلا حراك، أدركت أنه قد سار مسافات طويلة
فأصابه من جراء ذلك الإعياء وكابد من خلاله الآلام، ربما كان مسجوناً وربما
قاتلاً، التفتت إلى الباب بفكرة الانطلاق للشارع ولكن الوقت كان متأخراً فقد أظلمت
الدنيا، أثرت الانتظار وهي تسترجع كلماته؛ قال إنه يعرفني ولفظ اسمي، كيف ومن
يكون يا ربي؟.

دنت منه بحذر كما تدنو عصفورة من كسرة خبز والقطعة تترصد، فجعلت تمسك
بذراعه على البقعة الأقل وساخة فهزته برفق إلى الجانبين وهي تقول متسائلة:

- قل لي من أنت علي أستطيع معاونتك؟

ثم قربت فمها من أذنه:

- اشرب وكل شيئاً ما يعينك على الكلام.

مدت له قدح ماء واضعة رأسه فوق راحة يدها تسنده ترفعه من الوسادة فأخذ
يتجرعه جرعة طويلة.

فأعادت عليه السؤال وهو يمسح فمه بكفه:

- الآن قل لي من أنت، أريد أن أعرف من أنت وحالاً قبل أن يحل الليل.

تفرست في وجهه وشعر رأسه البارز والمتدلي على كتفيه وعنقه من تحت الكوفية، والخدين اللذين اختفيا تحت شعر اللحية كما اختفى الذقن تحت الشوارب، فلا يرى منه غير العينين والأنف، فلما أنست منه رغبة جديدة في النوم أخذت ترش بعض الماء على وجهه، عسى ولعل، ارتعد بدنه الضئيل كعصفور بلله القطر فرفع رأسه متسائلاً بتناقل جلي وفم ملتوي:

- أين أنا؟ ومن أنا؟

ثم رفع رأسه كالمستفيق من كابوس طويل ومد يده إلى القدر الذي وضعته على حاشية اللباد:

- ماء أكثر، ثلج..

فهرعت حتى كادت تصطدم بالباب ثم عادت بقارورة كبيرة من عصير البرتقال وأعانتة على شربها، فأخذ يارتشاه في جرعات متتالية سريعة، فأفرغ القارورة الكبيرة في جوفه في غضون ثلاث دقائق، بعد ذلك مال بوجهه الكالح إليها يرمقها بنظرات شكر وامتنان، فأنس في عينيها لمعان علامة السؤال نفسه: من أنت؟

فتح عينيه بوهن وتمتم بصوت مبحوح:

- كاترين، أنا عدنان!

وكان لفظ الكلمة أصعب من أن يطيقه المسكين، إذ فقد بعدها توازنه فوق بظهره على اللباد، أمّا هي فقد ارتجت الأرض تحت قدميها وهاجمتها صور ومشاهد من أحداث غامضة، رددت الاسم وهي تغمغم مذهولة: أمّا الأسم فليس غريباً، فأخ فرهاد الشهيد كذلك كان يدعى عدنان، عدنان الذي حضرت كفنه ودفنه وحداده، انحنت فوقه فأخذت تحركه برفق وتراقب حركة صدره الصاعد والهابط تحت سترته وهي تناديه:

- أي عدنان؟ اسم ابيك...

المحاولات بائت جميعاً بالفشل، ابتعدت عنه إلى ركن البعيد القريب من المدخل وهي تحدث نفسها القلقة: إنه يعرفني فلو ناديت نجدة أو أبلغت الشرطة فربما أكون مجحفة بحقه.

مرة أخرى أخذت تناجي نفسها: ليتك كنت حاضرة اليوم يا سونيا، وليس هناك جار، فالصيف فرّق الناس وألجأهم إلى السفرات والنزهات، وفجأة تنبهت إلى أين تتجه، فتهيأت وارتدت سترتها الخفيفة الرمادية على ثوبها الأسود، ثم انحنت لالتقاط حذاءها واستدارت للانطلاق نحو الباب؛ فإذا هي تحس بحركة وحسيس احتكاك ملابس من ورائها، فإذا بيد الرجل تمتد في حركة عشوائية عنيفة إلى الأعلى دون وعي منه كمن يجهد في جلب انتباهها، وإذا بطرف إبهامه يصيب فيزيح كوفيته إلى الوراء فزحزحتها من مكانها فسقطت على الأرض واستقرت خلف رأسه بصورة مقلوبة كالسلاحفة، فحدث من جراء الحركة أن الشعر المتراكم على رأسه وجبينه وخاصة مقدمته قد انحسر فبدا رأسه هكذا شبه عاري.

أدارت نفسها والدهشة تعقد لسانها وتطبق على حنجرتها، فأخذت تخطو نحوه ببطء تتفحص الجبين التي انسل عنه جمداني، الكوفية، شأنها شأن من وجدت كنزًا تحرسه حية.

كادت تفقد توازنها وتقع مغشية عليها لولا أن تجلدت وتماسكت بطرف كنبه بجانبها، دنت برأسها من رأسه تتفرس في أجزائه كمن يفحص دويبة مجهرية تحت الأشعة أو الميكروسكوب، وكلما أمعنت في النظر كلما توسعت حدقتها حتى صارتا مخيفتين.

ارتكزت على مسند الكنبه محاولة أن تستقيم دون أن تزيج عينيها عن جمجمة وجبين الغريب النائم والصاحي معًا، وهي تغمغم كالمخبولة بكلمات غير متواصلة كالمستفيق من بنج، تخدير، حديث، أين رأيت هذا الوجه أين؟ بل أين رأيت هذه الجمجمة؟

ثم أطلقت كلمات متقطعة:

- حفرة، حجر، عين يسرى... يا رب السماء ما أرى!

وجعلت تتراجع إلى الوراء حتى التصقت بالحائط وكادت لوحة من اللوحات الزيتية تقع على رأسها عند ارتطامها بها، فقد كانت هذه اللوحة أعز لوحة زيتية لديها لذلك ألصقتها وسط الصور العائلية على الحائط، اللوحة كانت تمثل اليسوع المسيح في حضن أمه، ماريًا.

ظلت تتراجع وعيناها لا تزالان شاخصتين على الرأس الحاسر، وهي تجاهد مطبقة على فمها ألا تطلق صرخة يستفيق منها هذا الميت من سباته العميق، ذكرت شيئاً على عجل، فأسرعت إلى المطبخ وعادت بلحظة تحمل ساطوراً كبيراً وعصا قديمة من شجر البلوط القوي، لو رآها فرهاد لعظم قدرها عنده بأضعاف، فقد بدت النقوش رغم تقادم العهد واضحاً، وهي تمسك الساطور بيد والعصا باليد الآخر داخلها إحساس بالأمان.

بثقة أكبر تقدمت مرة أخرى كي تتأكد أكثر مما رأت عيناها للتو، كان هناك ضوء ضئيل ينبعث من لمبة سراج نفطي مثبتة بمسمار على الحائط، راحت ونزعت المصباح برفق ومضت به إليه تحمله فوقه، ضوء كافٍ لإظهار ملامحه وعلاماته الفارقة؛ الحفرة وخدود وخطوط متوازية أخطبوطية سمراء قاتمة من لفح الشمس منتشرة فوق الجبين، والطرف الأيسر من الرأس لم يبقَ منها سوى خطوط وردية ضئيلة تمر من خلال جلد الوجه الداكن فازدادت بذلك حمرة، ظلت تتفحصه كما يفعل المشرح، بدأت بملابسه كورته ك وشلوار، رأت بين خديها لحم خاصرته النحيفة، وجواربه الممزقة بأسنان الفئران، مرّت بأصابع قدميه فوجدت إصبعين ناتنتين خرجتا من ثقبين في مقدمة الحذاء المدببة.

وصعوداً إلى الذراعين والساعدين ثم اليدين، وهناك الأصابع حتى إذا ما رست عيناها على أصابعها المنعقدة المتصلبة كجذع النخلة لمعت عيناها من الذعر وامتلأت فؤادها رعباً، انحنت وأمالت اللبة حتى كاد قمة جبينها تلتصق بالأرض، ركزت عيناها على شيء يلمع بين طيات أوساخه المتراكمة على عقد أصابعه المتمثلة، لمحت خاتم، حلقة زواج، قبضت على الإصبع بسرعة تفوق الوصف ورفعت اليد من معصمها إلى وجهها المضطرب، سرت الرعدة فيها وتتابع دقات قلبها، وبأيدي مرتجفة نظفت ومسحت الغبار عن الإصبع بطرف سبابتها وقربت عيناها منها وقرأت بخشوع ووجل: ع. س. ١٩٨٥ وصورة القلب المحفورة بدقة بين الحرفين.

دارت الأرض ومادت بها، تراجعت بسرعة حتى كاد المصباح يقع من يدها، وهي تغمغم مذعورة تضع قدماً خارج الباب وقدماً داخله؛ كيف يمكن ذلك؟ كيف يكون هو؟ كيف يعقل ذلك؟ ألم أحضر مراسيم كفنه ودفنه بنفسي؟ ما الذي أخرجه من

القبر الذي وقفت عليه أكثر من مرة وصليت عليه دون أن يدري أحد من أهله، لا شك أنه شبّحه يَجُوب في موطن طفولته ويسرح، سمعت بشيء كهذا في قصة قرأتها مؤخراً، لكنه هو، إنه هو، هو بعينه، عاد من القبر ربما في مهمة عاجلة ثم يعود، كل شيء ممكن في هذا الكون التائه.

راحت تحاور نفسها بقلق بالغ؛ الظلام مطبق وأنا وحيدة لا جار، لا سونيا، طبقت فكرة ما خطرت لها، فانطلقت للمطبخ وجلبت كل ما لديها من طعام جاهز للأكل وماء ومشروبات، وضعت كل ذلك بجانبه، ثم أتت من غرفتها بمخدة ومنشفة وملابس نظيفة وبيجامه ووضعت كل ذلك لصق الرجل، ثم رددت مع نفسها وهي تستعد للانطلاق: لو كان هذا عدنان بنفسه الحيّ الحقيقي فسيقوم بالاستفادة من كل هذا، ولو كان شبّحه أو طيفة أو خياله أو ربما روحاً شريرة متكررة تحت جلده فحينها أكون بمأمن من شره، فأنا غير موجودة.

انطلقت خارجة بالعصا والساطور لا تدري إلى أين؟ سلكت الطريق الأقرب عبر المرعى الذي توسع وتحول قسم منه إلى حقل تربية دواجن، الظلام المحيط بها أضاف إلى هلعها، كانت ليلة ظلماء صماء لا تسمع فيها إلا أصوات وصريير الخنافس ونقيق الضفادع ورفرة جناحي طائر هنا وهناك على أشجار اسبيندار – الصفصاف، الهواء الرطب الدافئ ونسائم منعشة داعبت وجهها المتوتر وبردت صدرها المضطرب وهي تشق طريقها عبر الطريق الوعر.

التفتت يمنية فلاحت لها توهجات نار السجائر من نقاط متفرقة فوق أسطح المنازل، في الصيف يفضل أهل الجبل الجلوس وشرب الشاي فوق سطوح منازلهم في جماعات، إمّا أسرية أو في حلقات الأصدقاء والجيران، يتسامرون ويقصون قصص وحكايات عدها ولا تحصيها، وكل يطلع الآخر على ما شاهده أو سمعه من أعاجيب الزمان، بينما تدار بالتوالي أقذاح الشاي والماء والماستاو، ويتواصل هذا حتى يصيب أعينهم وأفواههم وألسنتهم الإعياء ويدهام التثاؤب كالعذوى الأفواه، وعندها يغادر الضيوف مفرد ومثنى وثلاث ورباع وخماس المكان، ويضطر حينها أهل الدار في حمل أمتعة نومهم إلى فوق السطح ليتمتعوا بنومة مريحة حلوة هائلة في جو ساحر نظيف معبأ بأريج الأعشاب، وهبات النسيم العطرة القادمة من الجبل والوديان، في نشوة لا تضاهيها نشوة، فترتاح إليها أجسامهم في خدر وانسراح،

وتملاً نفوسهم الغبطة وتسكروا أرواحهم وتهجع أبدانهم بأمان وسلام ودعة في أحضان الطبيعة الأم الخالدة.

كاترين التي عادت إلى حرير بعد افتراقها عن فرهاد شقت طريقها سالكة الطريق المختصر عبر الحقول والأدغال والصخور والحجارة وبلا هواده، حتى بلغت دار معينة في الحي المسيحي تسكنها امرأة عجوز، كانت تتلقى عندها دروس رهبنة في عنفوان شبابها، فبلغتها بالخبر.

وبعد مشاورة قصيرة استقر رأيهما على أن تعودا معاً إلى البيت للسهر على الرجل مع وضعه تحت المراقبة، تناوبت السيدتان الحراسة عليه طيلة الليل، وكلما ارتفع حسيس اتجهت الأنظار إليه تحسباً فيما لو كان استيقظ أو مات.

ولكنه لم يستيقظ ولم يمت.. بل نام نومة الأموات.

عاد عدنان بعد مضي سبع سنوات على إعلانه ميئاً للعالم، فهل عودته تشكل المعجزة الثالثة في آل الأفندي؟.

الأفندي نجا من اختلاطات ثلاثة بعد العملية الجراحية المعقدة التي أجراها له الدكتور إيشايا في حينه، وحسب د. إيشايا كانت كل واحدة من هذه تكفي لموت إنسان فكيف بثلاثة على واحد؟.

ما حصل كان معجزة، فرهاد كان قد أعد العدة لترتيب تابوته سلفاً، وسأل الطبيب الأفندي عند سرير عدنان الذي أصيب في جمجمته قبل أكثر من عقدين فيما لو كان له ابناً آخر غير عدنان لأن هذا قد انتهى، وها هو يحيى بعد الموت للمرة الثانية، ليسجل معجزتين باسمه من آل أفندي.

على المقبرة في أول زيارة للعائلة لقبر المرحوم؛ كانت سها تقرأ القرآن على ضريح زوجها، وكانت دادة تطوق شاهده بين ذراعيها وتغرقه بالقبل وتستنشق بعرق رائحة التراب الذي غمر رقدته الأبدية، أمّا بابا فقد دعا للمغفور له بالغفران وأن يدخله فسيح جناته وأن يلهمهم الصبر والسلوان، كان فرهاد يحمل أسو بين يديه فيضعه على الأرض بجانب ضريح أبيه، وهناك حصلت المعجزة الثالثة، تخرج الطفل على ركبتيه وأخذ يزحف على ضريح المرحوم صاعداً، حتى إذا ما اعتلى التراب قلب بنفسه من فوق إلى الطرف الآخر.

اتجهت العيون إليه؛ ما بال الطفل الذي لم يتجاوز عمره ستة أشهر، حتى دادة اختلست النظر إليه بكبد مكدود من تحت كم ردائها الأسود، فثمة ثقب وثغور وشقوق مختلفة الأشكال والأحجام كانت تنتشر متبعثرة في الأرض المحاطة بالقبر، أثارت انتباه الطفل الذي جعل يتمعن النظر فيها طويلاً، ثم ثبت نظره على واحدة منها فاقترب منها منبطحاً يحيو، جعل يغرز طرف سبابته الصغيرة في فتحتها، أسرع فرهاد إليه وأخرج إصبعه من الثغرة وحمله بين ذراعيه، وحينما تأكد له أي نوع من الثغور كانت هذه أطلق صرخة مكتومة وأشار بعيون بارزة؛ انظروا ماذا وجد أسو؟

من بين جميع الثغور وقع اختياره على ثغرة العقرب، في الحقيقة لقد تعلمت الأسرة كلها من عدنان كيف تميز ثقب العقرب عن غيرها من الثقوب والثغرات، سمعوه بأذانهم يشرح لهم منذ عقود: "فتحة الثقب بيضاوية غير منتظمة، وليس هناك أثر لتراب محفور على الحواشي، وجوف الحفرة ليس عميق، وميلانه أشد من ميلان ثغور الحشرات الأخرى".

وها هو يعود، إلى أين؟ إلى أرض منشأه، إلى مرتعه ومربضه إلى مضماره وميدانه الشاهد على شجاعته، إلى حيث صوت دادة الرخيم يأتيه من وراء السياج، وهي تتناوله فطيرة حارة محشوة بالجبن الأبيض، وترنو إليه باعتزاز وغبطة بعينيها السماويتين المائيتين إلى حيث النبق الخالد والجبل الأسود، والأهم إلى حيث كاترين وبنيامين، حيث روح مام (عم) بطرس تحلق فوق فضاء الحقل المترامي الذي أودع أولى البذرات تحت ترابه.

* * *

عادت كاترين وحدها بعد الظهر بترقب وحيطة وحذر، دخلت لتجد رجلاً آخر في البيت غير الذي تركته في الصباح.. كان جالساً على الحشية المفروشة على اللبادة ورجلاه ممدوتان في صدر الصالة في نفس المكان الذي انتصبت فيه أريكة الأفندي قبل ثلاثة عقود من الزمن، شاردًا مهمومًا ينظر إلى البعيد من خلال النافذة إلى الجبل العملاق وقد أسند ظهره للحائط الأبيض، ممددًا رجليه بطولهما أمامه، وكان مرتديًا البنطلون الكابوي الأزرق القديم لكن النظيف جدًا، والقميص الأبيض يشع فوقه، والذنان أهدتهما كاترين له.

كادت أن تنكرها للهيئة المختلفة التي ظهر بها، لم تخف كاترين سعادتها وفي نفس الوقت همها لوجود الطعام الذي وضعته الليلة الفائتة بجانبه كما هو لم تمسه يد، إنه لم يأكل إذن ولم يشرب غير الماء، أحس بدخولها ومع ذلك لم يرفع إليها طرف ولم يرف له رمش، ولكنه رغم ذلك استدل من حركة يديها وهي واقفة في مدخل الصالة المتواضعة الأثاث أنها غير راضية على ما رأت، فقال بصوت خشن وشى بضيقه وعبر عما جاش في صدره:

- كاترين النظافة لك والأكل لي، ما لي شهية البتة للطعام، بل آليت ألا أدوق زادًا إلا بعد أن أعلم منك جواب مقتضب مباشر ودون تمهيد لسؤال واحد.

رددت مع نفسها وهي تخطو إلى الداخل بخطى وثيدة، وبرشاقة القبح وهي في ملابسها البيضاء الخاصة بالدائرة؛ النظافة لك إنه يعني أنه اغتسل واستبدل ملابسه بالملابس التي وضعتها له تقديراً لها، ولكيلا يزكم أنفها بالرائحة الكريهة النتنة التي خلفتها السنين العجاف، ولكنه استغنى عن الطعام لأنه شأن خاص به، مضت دون تعليق إلى العلاقة الصغيرة في الزاوية القريبة منها وعلقت عليها صدريتها البيضاء الناصعة، ثم فتحت النافذة كي يدخل الهواء المنعش في ذلك اليوم الحار من تموز.

كانت غرفة الجلوس هذه خلت من كل معالم الفخخة والزينة، ففي صدر الغرفة فرشت لبادة مزركشة وفوقها حشية، وفي الطرف المقابل للنافذة انتصبت ثلاثة كراسي خشبية، فوقها علقت صور وتماثيل المسيح الطفل في حضن ماريا، ولوحة زيتية معبرة عن الطبيعة وصور أخرى كانت مثبتة على الحائط فوق اللبادة والحشية، وثمة منضدة مستطيلة تتوسط الغرفة، وقد رصت الشموع عليها رصاً بترتيب أنيق، تتوسط ذلك بعض أدوات الكتابة والأوراق والأقداح، والشيء الملفت للنظر كان العصا المعلقة بشكل مائل على الحائط بين مسمارين طويلين، والتي تعود تاريخاً إلى ثلاثة عقود من الزمن.

وأعز صورة لدى سيدة البيت كانت صورة دادة في زيها الكردي التقليدي، والتي بدت أنها لم تلفت نظر العائد من القبر حتى اللحظة، وقد ارتسمت ابتسامة باهتة ملغزة على شففتيها الدقيقتين تحت أنفها الطويل، فكانت أشبه بصورة موناليزا وخاصة للناظر من بعيد، هذه الصورة كانت معلقة على الجانب الأيسر من خزان حديدي رصاصي يتوسط الجدار المقابل للنافذة بين الكراسي الثلاثة، ولم ينتبه العائد من القبر حتى إلى الكأس الذي ناوله فرهاد هدية إليها لدى تسلم الجوائز فوز في مسابقة قتال العقارب الشرس في عام ١٩٦٣.

وفي الخانة الوسطى لخزان كانت ثمة ملاعيب أطفال وكتب وقرطاسية موضوعة بصورة غير منتظمة، وأجمل ما في هذه الأشياء كان مسدس ريفولفر قديم زال اللون الأسود عنه فظهر بلون الرصاص، وهذا كذلك ورغم أهميته لم يلاحظه ولم يشعر بوجوده عدنان، لو رآه لوقف يتأمله، كان نفس المسدس الذي جلبه لابنه في إحدى إجازاته كسائق شاحنة، ولسأل نفسه والسيدة مائة مرة كيف وصل هذا إلى هنا.

أما صاحبة البيت فكانت لا تزال أجمل الجميلات رغم سنها الذي يتجاوز الأربعين، بشعرها الكثيف المرسل وعنقها العاجي الطويل وجسدها الممتلئ، لقد تغيرت لكن ليس كثيرًا، رغم دواهي الدهر، ما عدا أن ملامحها صارت رصينة بعض الشيء، وما عدا أن وجهها الناعم الأبيض المتورد اكتسب لونًا أحق أن يطلق عليه لون الكبر وهي في بداية الأربعينات من عمرها، ولكن قامتها الممشوقة ومشيتها القبجية لم تزل هي هي، ماركة مسجلة ملتصقة بشخصها، وعنقها العاجي عدا بعض الترهل والرخاوة في طرفي مقدمته، فعمومًا بدت تلك الحسناء نفس القابلة التي أسعفت سها مضافًا إليها نضج العمر والحكمة.

مضت كاتي إلى الداخل لترتدي فستانًا أطول من هذا الذي عادت به من العمل، ثم عادت بعد دقائق وهي تحمل طبقًا عليه قدح شاي مع فطيرة خبز وجبن أبيض كوردي، راحت تجلس على أقرب كرسي خشبي من الميت الحي، فتقرست في وجهه المخنقي تحت طيات الشعر الغزير الكثيف بعدما أزال الغسل عنه ما تعلق به من لطح والغبار.

دنت برأسها منه وقالت بصوت منخفض:

- عدنان كل أولاً، أنت في وضع يرثى له، كل قبل كل شيء.

لم ينبس عدنان، فتأملته مليًا وهي تسترجع أيام الصبا مع هذا الفتى الذي غدر به الزمان فشعرت نحوه بعاطفة جياشة، قالت وهي تشعر بمزيج من الحنان لهذا الشخص والحيرة لوجوده أمامها، فهي وإن تأكدت من هويته لم تزل في حيرة أمام سؤال ظل ويظل يراودها فلم تجد منه محيصًا أن تبادره به وهي تجاهد من أجل أن تبدو رفيقة وحليمة به إلى أقصى حد، فقالت بنبرة الأخت متسائلة:

- عدنان، يا زميلي ويا أخ حبيبي، ويا ابن أُمي دادة جميلة ومعلمي الفاضل عمر أفندي، والأهم صديق طفولتي؛ هل لك أن تفصح لي ولو بجملعة مفيدة وقبل كل شيء كيف خرجت من القبر وأنا شهدت بنفسي وعيني وأذني كفك ودفنك وحدادك قبل سبعة أعوام.

صوتها الهادئ أفاقه من غيبوبته فرفع إليها رأسه تحت طاقية نظيفة ولكنه لم يجب ولم يرد، بل استغرق في حالة تفكير عميق طويل، ثم فتح فمه بعد أن استقر رأيه على ما شغله كل الوقت فقال بصوت مكتوم كأنه آت من بعيد:

- أنا عاجز، نسيت حتى المقدرة على التذكر، لا طاقة لي ولا رغبة في أي حديث قبل أن أتوصل إلى معرفة الجواب على سؤالي الأول والأهم وهو: كيف حصل وتزوج أخي فرهاد من بعد مماتي من زوجتي سها؟

شحب وجهها الوردي وباتت للحظات غارقة في تفكير عميق، لقد عرف إذن كل شيء، وكيف بهذه السرعة؟ تنهدت كاتي وأشارت إليه أن يأكل قائلة له برجاء وهي تتفحص ملياً خديه المتداخلتين في جوف فمه، تاركا ثلاثة أخايد على طرفي من الأنف، وتتعجب لبحوظ وبروز عينيه هكذا دون أن تصابا بأذى، أمّا الشقوق والخدوش التي علت الشفتين فكانت تدعو للثناء.

- أنت في حالة سيئة فأنا أراك هكذا شبحاً، كل واشرب بعض الشيء أولاً ثم أقول لك كل ما أعرف حول ما حصل وما جرى وبالتفاصيل أقسم بالمسيح.

لم ينبس، نظرات عينيه الضيقتين المحمّرتين شعنا الإصرار والعناد، وأمام هذا الإصرار لجأت كاترين إلى أسلوب آخر، فأملت بنفسها من الكرسي وقالت له بصوت هادئ:

- أقول لك ستعرف كل شيء ليس الآن بالوقت المناسب صديقي العزيز، واعلم أولاً أن حيرتي لا تقل درجة من حيرتك، أنت تسألني عما حدث بعد مماتك وأنا لولا علاماتك الفارقة لسلمتك إلى مختار القرية لكي يحبسوك على ذمة التحقيق، أنا أولى أن أعرفك، من أنت وهل أنت عدنان بشحمه ولحمه ودمه حقيقة لا روحاً وخيالاً؟

ساد الصمت لحظة رمقته بطرف عينها، كان ينظر إلى الحائط حيث صورة دادة وابتسامتها الباهتة ووجهها الشاحب، تقاسيم وجهه دلت على إحباط وحزن عميقين، لم يصدر منه كلام ولا حركة، فلم تجد بُدّاً من أن تختار حلاً وسط، فقالت له وهي تلف شالها الأخضر حول عنقها:

- عدنان بصراحة أنا أريد منك مزيداً من التأكيدات، أريد أن أطمئن وأسمع منك حالاً وبلا تأخير وبجملتين أين كنت كل هذه السنين؟ وكيف توصلت إليّ؟ ثم تأكل كي تستعيد بعض من حيويتك، وحينها يأتي دوري لإخبارك كل ما جرى بعدك، اتفقنا؟

بدرت منه نظرة جانبية إلى وجه كاترين الذي بدا مصفرًا تحت السراج النفطي، فلم يجد غير الرصانة والعزم على أنها تريد جوابًا لسؤالها حالاً، فقال بعد أن وضع ذقنه على ركبتيه:

- اعلمي كاتي أنه أنا، لم أقض كل الفترة في الأسر، فقد عدت بعد انتهاء الحرب مباشرة في آب ١٩٨٨ بفترة قصيرة لا تتعدى ثلاثة أشهر، اليوم الذي اعتبرته أسعد يوم في حياتي فإذا به أمسى أنعس يوم.

أطلقت كاتي أثة وتوسعت حدقتها وشعرت بقشعريرة باردة تسري في سائر بدنهما المحترّ، فسارت إلى النافذة ففتحتها مستقبلة النسيم المنعش لتطفئ لظى اضطرابها الداخلي، ولم تملك إلا أن تتساءل بدهشة وإلحاح:

- وأين كنت إذن؟

- في سجون النظام.

وثبت كاتي من الكرسي وكادت صرخة مكتومة تنطلق من فيها ولكنها تماكنت بسرعة، وجعلت تتساءل بصوت أبح صادر من حنجرة جفت:

- أقلت في سجون النظام؟ كما أعلم كنت سائق شاحنة في خدمة النظام أليس كذلك؟

أوماً عدنان وقال:

- بلى ولكن....

توقف عن الكلام وأمال برأسه إليها دون أن ينظر:

- طرقت الباب القديم فأخبرتني امرأة قروية في أنفها يتدلى خزامة (حلقة) من الفضة، أن الأستاذ فرهاد قد انتقل مع زوجته سها هانم إلى دارهم الجديد منذ وقت طويل، فلم أصدقها وهي التي دلتني إلى البيت الجديد، قرعت البيت الجديد فقالت لي امرأة معها طفلين أحدهما وضع نقدًا في يدي حسبني متسولاً، والأخرى طفلة جلبت لي خبزاً، والمرأة أرادت أن تتخلص مني فوضعت هي بدورها قطعة معدنية في يدي فرفضتها وأخبرتها بإيجاز من أنا ولماذا طرقت بابها، فأخبرتني أن فرهاد قد سافر للخارج وعن طريقها اهتديت إلى عنوانك.

- قابلت سونيا إذن؟

- ومن هي؟

- ستعلم كل شيء اصطبر قليلاً....

توقفت وهي تتمتم مع نفسها لو علم من كان الطفل، فقامت بارتباك فدفعت صينية الطعام إليه وأضافت إليه كوب شاي حار، ثم تنبعت إلى شايها البارد وفطيرتها التي نسيتها على الطاولة الصغيرة بين الكراسي، فالتفت منها لقمتين أعقتها بشربة شاي ثم أعادتها إلى الطبق.

وأكل عدنان حسب الاتفاق لقمتين وعلى مضض.. تراجع بعدها إلى الوراء وهو يغتم: الحمد لله هذا من فضل ربي. ثم جعل يتجرع الشاي بلذة غريبة، وما كان الأمر بغريب على كاتي، فأخيه فرهاد كان أول ما يطلب في زيارته الغرامية إلى شقة البلابل المتعاقبة هو قدح شاي أسود، كلماته ترن في رأسها: هذا يعيد لي كل طاقاتي المهدورة للنهار في دقيقة.

وهناك تحركت شفتا عدنان بغثة ليوجه ترجياً ملحاً إلى كاتي:

- هل هناك شيء عريض، سجادة نظيفة أو ما شابه للصلاة؟.

ودون أن يكمل هرعت إلى الغرفة المقابلة، نفس الغرفة التي كانت يوماً غرفة نوم الأخوين، والتي شهدت مقتل أول دويبة صفراء، وعادت تحمل سجادة جديدة وفرشتها له في وسط الغرفة وأشارت إليه تفضل، خرجت وعادت بعد أن سمعت السلام عليكم.

وهي تقول:

- هذه كنت أعددتها هدية لدادة، ولكن مرضها حال دون تسليمها، صارت من نصيب ابنها.

عدنان وهو يلف السجادة ويضعها جانبه على الحشية:

- ليس العجب عودتي من القبر فحسب؛ بل عودتي إلى نفس البيت التي كانت دادة تصنع ناني كه رم، الخبز الحار، على الصاج.

صعد شهقة أعقبها سكون طويل، بعدها رفع عدنان رأسه إلى كاتي وعلامة انتظار مرسومة على جبينه المتغضن، فقال بصوت عميق:

- حقيقة لا شيء يسد جوعي ولا شراب ظمأي سوى معرفتي ماذا حدث لأسرتي بعد اختفائي؟ فأرجوك واستمحك العذر؛ فلا يخفى عليك مدى أهمية الأمر لرجل في موقعي.

نظرت في عينه فلم تجد سوى الثبات والإصرار، فأخذت تسرد القصة؛ فبدأت بالنقطة الحساسة كما أرادها عدنان، ولكن قبل أن تبدأ اشترطت عليه ألا يقاطعها أثناء الحديث، ويؤجل كل ما له من سؤال إلى النهاية، وشرط ثاني قالت له بالحرف الواحد:

- أنت تسمع الأهم، أما التفاصيل الأقل أهمية تأتيك تبعاً بعد أن تكون قد تحسنت صحتك، فلا تكفي ساعات في تغطية أحداث هذه السنين الطوال أخي العزيز.

انبرى صوتها تسرد القصة وعي تعتدل في جلستها:

- رحل أخوك أخيراً مضطراً إلى الخارج بعد أن لاقى العذاب والهوان، وهذه المعلومات هي في معظمها صدرت من أناس آخرين في البلدة نقلاً عن عمتي وليلى جارتهم القديمة، هم أسرة معروفة الكل يعرفونهم، ترك وراءه الدارين؛ سجل أحدهما باسم ابنه نبيل وسلم عقد التحويل بيد عمتي، والآخر باسم ابنك آسو، هذه التي التقتك في البيت الجديد كانت سونيا أرملة بنيامين إذن، سونيا تعمل حالياً في بلدة عنكاوة في منظمة فاو التابعة للأمم المتحدة كما هي الحال في المنظمات الأخرى، وفي أوقات فراغها تقوم بالعبادة وتنظيف ومراقبة البيت، فعمتي لم تعد قادرة على ذلك، فهي التي كلفتها بذلك إذ فيها منفعة للطرفين، كذلك لقربها من محل عملها ومسكن والديها، فبعد مجيء العطلة الصيفية عادت فأخذت ابنتها نبيلة معها وألحت على ابني أن يذهب معهما، لم أجد ممانعة فالصيف طويل وممل للتلاميذ، فهو يقيم الآن مع عمتي ليلى وعند أهل سونيا نهاريًا.

سكنت كاتي لحظة وهي ترى تصلب ملامح عدنان ثم استأنفت:

- رحل مع زوجته سها وابنيه آسو وعدنان، نعم آسو و(عدنان الصغير) عدنانوكه كما شاءت دادة مناداته، كان زواجاً اضطراريًا بل بالأحرى إجباريًا، متى تتوقع أن حدث الزواج؟ وب نفسها أجابت: بعد أقل من عام من استشهاده وبوجه الدقة ربيع عام ١٩٨٧.

توثب عدنان كالنمر تأهباً لما يلي..

- كان أخوك؛ وعساك أن تكون عالمًا بالأمر أراد الزواج مني، فرفض أبوه طلبه، ثم تردت العلاقة بيني وبينه لأسباب في مقدمتها أنه لم يقدر على حمل مسؤوليتين بل ثلاث مسؤوليات على عاتقه؛ أسرة فيها أب مريض، وأخ غائب معظم الوقت، أراد أبوك أن يزوجه حسب أهوائه، ولا أعتقد أن ذلك بخاف عليك، فرفض، كان لديه

رغبة عارمة في الزواج مني لأنه لم يحب غيري. نعم، أحبني وأحبيته، وكاد قلبي يتفطر حزناً وهمًا عليه عند فراقه، وأنا كنت صاحبة القرار بالانسحاب من حياته لا هو، وذلك لكيلا أكون حجر عثرة في طريق الأسرة، وسبب لخلافات العائلة؛ خاصة وأن وجودي كان سيشغله عنهم، فقد قال لي يومًا: أنا بين أب مريض دائم، وأخ غائب، وأم لا ترى أبعد من أنفها.

كان لابد من التضحية؛ فضغطتُ بل سحقتُ قلبي ودست على عاطفتي، فاختفيت من حياته، وخوف اكتشاف أمر الحمل كان أكبر، وهو كان محتارًا مترددًا، وواعده للاقاء به إذا ما صفا الجو، ولم يتخذ قرارًا هذا صفة القطعية إلا بعد أن علمت بنية أبيه وأمه في تزويجه من سها، لم أود أن أكون طرفًا في مشاكل الأسرة الداخلية، فارتحلت إلى هنا، وهنا وضعت حملي ونحن لا نزال في فترة خطوبة.

سحبت نفسًا طويلًا ثم عادت تقول وهي تشد الغطاء الأبيض الشفاف حول رأسها: - كما قلت؛ كان زواجًا اضطراريًا، ففي يوم من عام ١٩٨٧ لا أدري بالضبط التاريخ جاءت أم سها شكرية خانم، هانم، كما سمعت من فرهاد - كنا حينها لا نزال على ارتباط - لزيارة بيت الأفندي، وطالبت بعودة سها إلى الوالدين والأهل، ومن أحد الأعداء والأسباب التي برروا بها إعادتها أنها شابة جميلة ومن الحيف أن تبقى أرملة مدى العمر، وألا تحرم من الحياة الزوجية في شبابها، وكون أخ له شاب يعيش تحت نفس السقف وما إلى ذلك من حجج وأعداء واهية، فرفضت سها يدعمها في ذلك أهلك يا عدنان، إذ وصلتهم أخبار مؤكدة أن أمها كانت بصدد تزويجها إلى شخص لم ترغب فيه، بل غير مرغوب فيه في المجتمع.

والخلاصة أن سها عاندت ووراءها أهلك بكل ما يملكون من قوة ونفوذ، ولما توالى الهجمات من أم سها وأهلها: أخت سها وخال سها، أي أخ شكرية، وأعيت بهم السبل؛ اقترح الأفندي وبالاتفاق مع والد سها، ملا عبد الكريم الطيب، وبعد جلسة مناقشات طويلة - كما سمعت من فرهاد شخصيًا - اتفق الطرفان على فكرة أو خطة تزويج سها لفرهاد وذلك فيه نفع لجميع الأطراف.

لم يوافق فرهاد طبعًا في البداية ولم يتجرأ أمام أبيه الغاضب أن يذكر أو يعلن أنه له علاقة معي، ولم يبدِ موافقته إلا بعدما تبين له الحقيقة المخيفة القاضية أن زواج أرملة أخيه بشخص أجنبي يعني وقوع الطفل تحت رحمة زرباب، الكلمة العقدة

المقيّنة لدينا كلينا، هاجسه هذا لازمه وأعلن بحدّة للقاصي والداني وبالحرف الواحد: لن أدع أسو يقع في يد غرباء ما حييت، كان يحب أسو حباً جمّاً، وتعلق به أكثر بعد غيابك وتعلق الطفل بالمقابل به، فاعتبر موافقته على مقترح أبيه تضحية يقدمها لإنقاذ سها والطفل، وبقدر ما يخصني الأمر فإنني حين سمعت بالقصة ومخالفاتها لم أرتب لحظة بصدق نوايا أخيك، ولم أنكر خطورة الموقف ولم أتوان في مباركة موافقته رغم شعوري أنني سوف أقاسي جراء ذلك، والغريب أنه لم ينحط قدرًا عندي؛ على العكس فقد علت منزلته في قلبي وزاد حبي له، وخاصة بعد علمي عبر رسالته أنه في ليلة عقد القران أخذ عهدًا على نفسه مع سها وبحضور دادة ودون علم أحد أن تبقى سها محرمة عليه كأخته، وألا يعاشرها معاشرة الزوج للزوجة حتى انتهاء الحرب وعودة الأسرى، فكان إذن زواجًا شكليًا أو الأحسن تسميته زواجًا إنقاذيًا..

وانتهت الحرب وعاد الأسرى والمفقودين، حتى الشهداء بعضهم المسجلين سهوًا ولم يعد عدنان، لم يعد شهيدنا، كانت دادة تجوب الشوارع بحثًا عنك، تستوقف كل شاحنة مستخبرة عنك، لم ينطفئ بصيص الأمل في قلبها أبدًا في عودتك، فبحثت في الأحياء والمحلات، زارت السائقين في بيوتهم مع فرهاد والجنود والأسرى العائدين، وقد راجع فرهاد مع بعض أقارب الأفندي مقرّات الصليب الأحمر الدولي وأرسل رسائل عبرها إلى مقرّاتها في بغداد، وفي داخل إيران، فلم يجدوا في سجلاتهم وقوائمهم لك اسمًا ولا ذكرًا، ثم اندلعت الحرب الثانية وقامت الانتفاضة الشعبية العارمة في ١٩٩١، ولاذت الملايين بالجبال ثم عادوا بعد فترة، وانتهت الحرب وعاد أسرى الحرب الثانية ولم تعد أنت...

هنا قطعت كاترين كلامها بعد أن أدركها التعب، نظرت إليه فإذا هو واجم ينظر بين ركبتيه إلى الأرض، تعابير وجهه مزيج من الهواجس والأفكار المتزاحمة المتصارعة، الأخبار كانت كثيرة فتلاطمت كال موج الهائج في رأسه المفعم بالشجن، عبثًا حاول فصل الخيوط المتشابكة من القصة عن بعضها، كانت كثيرة في قليل من الوقت.

أنست كاتي الحيرة والتعب والارتباك والتوتر في هيئة عدنان وجسده النحيف المنكمش؛ فأثرت الكف عن الحديث بالرغم من اعتراضه، وفي الوقت ذاته تذكرت

بغثة أمراً رآته خطيراً ذا شأن مهم، فنهضت قائمة ومضت إلى غرفتها ثم عادت
وببيدها تحمل ظرف رسائل ناولته وقالت بصوت مبجوح:
- تفضل لترى بنفسك.

استوى عدنان من جلسته وهو يقاوم الألم، فتناول الظرف وأخرج الرسالة ورفعها إلى عينيه، ثم تحول إلى كاترين التي أشارت إليه بيديها متممة اقرأ بصوت، رفع يديه بما يشي بالعجز وهو يمد يده إليها بالرسالة قائلاً لها:

- بل اقرئيها أنت رجاء.

تناولتها من يده قائلة معذرة:

- نسيت أنك منهمك!

فجعلت تقرأ بصوت:

(عزيزتي حبيبتي حبي الحقيقي كاترين،

أزعجني جداً وأحزنني جداً ما جاء في رسالتك، فقرارك سبب لي ألماً مبرحاً، ورغم ذلك فإن عزائي في كل ما حدث وحصل هو أنك في كل ما تقولين وما تفعلين فهناك نزعة خير وميل لإصلاح الأمور، ورغبة حقيقية في مراعاة شعور وأمنيات الغير تسمو إلى مرتبة القدسية، فالتضحية والإيثار هما شيمتان وسجيتان متلازمتان في شخصيتك، وهذا ما ثبت لدينا بالتجارب وعملياً، وعزائي ومتنfyي كذلك هو حقيقة وجود نبيل في كنفك فهذا يمنحني أمناً وراحة نفسية، أحسبه تحت رعاية أب وأم في نفس الوقت، وما آل إليه الحال كان فوق قدراتنا المحدودة، فلقد كنت قد أزمعت على الزواج منك، وإنها كانت مسألة زمن لا غير، وقد وعدتك وأخذت عهداً على نفسي أن أتحدى كل شيء يقف أمامي في طريق الوصول إلى هذا الهدف، وحتى تبني فكرة اللجوء إلى دولة أجنبية كانت مبنية مستفاة من موقعي هذا، وتصب في نفس المصب النهائي وهو الزواج وحياة مضمونة معاً، ولقد حسبت حتى للجوانب المادية حسابها.

كان لدينا المال الكافي للوصول إلى أبعد نقاط الأرض، فإني أرى أن الحياة لا تطاق هنا، حرب في خارج البيت وحرب في داخله، ولكنك تعرفين أحسن من أي كائن كيف كانت الظروف قاهرة ولا داعي لإعادتها، وتدرकिन تماماً حجم الضغوط وزخمها على سها للعودة إلى أهلها ثم تزويجها من رجل غريب الأطوار غير مرغوب فيه، وكيف كان بكاؤها مريراً عندما أعلنت أنها لا تنوي العودة إلى رحمة

أمها التي قست معها، إذ أرادت من منطلق حب المال والجاه بيعها لمقامر مزمن عريق، ونحن جميعًا، بابا دادة وأنا، وقفنا سدًا لنصد الأذى عن سها التي كانت أكثر من أختي وحمايتها، والتي أكدت أكثر من مرة أنها تفضل الموت على العودة إلى البيت القديم تحت تلکم الظروف.

وقد بدأت الأمور تتعقد أكثر بعد قرارك بالانفصال، جرت بيننا نحن الثلاثة مناقشات طويلة حول وضع سها من جهة والبحث عن زواجي أنا، رأى أبي فرصته كي يضغط علي بالزواج لاستكمال ديني كما كانت حجتة دائمًا، أمّا هذه المرة فقد عزز موقفه بالاستفادة من ادعاءات أم سها الباطلة القائلة إن وجود عازب تحت نفس السقف مع ابنتها الأرملة لهو أمر غير مقبول وإن كان جائزًا شرعًا، وهي تعلم جيدًا كم هو عدد الأرامل اللواتي يعشن في أسر فيها نصف درزن من أخوة الشهيد، وتحت نفس السقف، وخاصة نحن في حالة حرب طاحنة طال أمدھا كثيرًا.

كلها تبريرات واهية من أجل اختطاف سها وبيعها إلى من يدفع أكثر، تحت اسم مهر يدفع شرعًا لسها، بينما تستأثر هي بتسعين بالمائة منها، وهي لم تقبل بتزويجها لأخي المرحوم إلا بعد أن رأت السيارة بعينيتها والحلي الذهبية والمجوهرات الغالية والتي أضفت إليها قسمًا من حصتي كي تشبع عينها وترضى، وقد نعتنتي أمها بعبارة عرق خور، شرّاب/ خمّار، تهم باطلة الغرض من ورائها كان تمّتين وإسناد موقفها المتعنّت الرامي إلى إعادة سها إليها.

وفي فجر اليوم التالي كنت أزمعت ترك البيت رغم أنه حزّ في قلبي التخلي عن والد مريض بالمعدة، وأم مصابة بالتهاب كبد فايروسي، وبالرغم من كون علاقتي بابن المرحوم متينة جدًّا، وحيي له يفوق الوصف؛ وأنا أشعر لأول مرة بدفع الأبوة حياله طالما أنا عمه وبمقام أبيه، تصوري أن أسو يعجبه أن يجلس في حضني ويثب من حضن أمه ماذًا يديه نحوي كلما رأيته داخلًا أو خارجًا، يفرح ويضحك ويغمغم ويغرغر لمداعباتي؛ رغم كل هذه الحقائق المرّة فقد جنّت إليك ما دام وجودي يعتبر مصدر قلق بل حجة وذريعة لقهر سها وتزويجها عنوة، كاتي آن الأوان أن نبني حياتنا من جديد، وعاهدت نفسي أن أظل عينيًا ساهرة لأسرتي وسأكون أول الموجودين إذا حدث لهم أمر ما يحتاجون فيه إلي.

وإذا بي استلم رسالتك المخيبة للآمال، ورغم ذلك فلن ألومك عليها؛ بل ألوم الزمن والحظ، ولم تكف أم سها إذ تواصلت هجماتها المسعورة حتى هددت بإعادتها عنوة مدعومة من قبل أخيها أي خال سها، ثم لا تنسي زرباب، زوج الأم، وأنت أدرى بها، وكم سيقاسي الطفل تحت رعاية زرباب، وخاصة إذا كان من النوع القاسي والعنيف كالذي اختارته أمها، آليت ألا أدع أسو يقع في يد غريب ولا سها مهما كلف الأمر، إنهما أمانة على أعناقنا يجب حمايتهما، ونفس العقدة؛ أي عقدة زرباب، كانت ستؤثر على حياة ومستقبل ابننا نبيل لولا رسالتك المطمئنة بأنك قررت عدم الزواج بعد الآن، وهذا أمر يخصك ولكنه يخصني كذلك، ولولا عزمك على التفرغ لنبيل وتكريس حياتك له؛ وذلك كان مبعث سرور في قلبي وقلب دادة، فهي ورغم مرضها حزنت جدًا علي، لابن أرهفته الأمور الجانبية وأضعفته، فأخذت تشفق عليه إشفاقًا لا حدود له، واغتمت لي كثيرًا.

وعلى الرغم من مرضها جاهدت في العمل على إعادة الاستقرار إلى بيتنا، وكانت تدرك بفطرتها النقية أن التوازن لا يمكن تحقيقه تحت الظروف الراهنة والهجمات المتكررة من جهة أم سها وأختها، التي ظهرت أنها تحسدها وتغير عليها إلا كما اقترح الأفندي وكما ارتأى والد سها الطيب ملا عبد الرحيم بعقد قران، أي زواجي من سها، وأنا لم أبد رأيًا ولا قرارًا إلا بعد روية وتفكير، راجعت عقلي وعاطفتي أيامًا واضعًا في عين الاعتبار بابا ومرضه العضال، ودادة التي عانت كثيرًا، وإرضاء لها وحماية لسها والطفل، والتفرغ لدادة في مرضها وآلامها الجسدية والروحية وبابا، وتوفير الراحة لوالدي والأدوية الصعبة المنال وغير ذلك من أمور؛ أذعنت أخيرًا للرأي العام وقررت القبول طواعية مضحيانًا بالغالي والنفيس رغماً عني، وفي نفس الوقت رغبة مني.

لقد جعلني والدي طرقيًا في المعادلة، ولعلمك أن الفوضى وفقدان توازن الأسرة جراء الأحداث المؤلمة أفقدتني توازني أيضًا فيما يخص دروسي وخاصة الدروس الخصوصية، فكانت هي المعول الرئيسي للموارد والمعيشة، لم أجد هناك خيارًا آخر ممكنًا ظاهرًا، فضلًا أنني وبعد نكسة الحجر الذي أعاق أخي وهدم حياته أخيرًا أصبت بعقدة من نوع غريب، ولا أزال، قد يصح تسميتها عقدة الحجر.

ومع ذلك أرى نفسي في مأزق حقيقي فقدت من جرائها بعض من توازني في عملية إعادة التوازن هذه، شعور خفي بالذنب إلى طرف آخر تمنيت لو سارت الأمور على شكل أفضل، وها وبعد تعمق في الموضوع أطرق بابك من جديد مقدّمًا مقترحي الذي أراه منصفًا وهو الزواج منك، نعم منك، يا كاتي.. ولم لا؟ فالزواج من امرأتين جائز شرعًا وخاصة في حالتنا المتميزة، وإذا تم ذلك وهذا هو الحل الوسط فلا يحرم لا آسو ولا نبيل من الأبوة ولا من الأمومة، وتعود المياه إلى الصفاء، واعلمي جيدًا وهذا الأهم أننا نحن الثلاثة دادة وسها وأنا، أخذنا على أنفسنا ميثاقًا ألا نتعامل مع بعضنا - أنا وسها - كزوج وزوجة لحين انتهاء الحرب وعودة الأسرى، إن هذا العقد الثلاثي قد يضيفي على مقترحي وفكرتي صفة الواقعية والشمولية، فأرجو أن تفكري مليًا وأنت جديرة بالتروي والتحميص وتقليب الأمور قبل اتخاذ قرار، أقول هذا وأنا كلي أمل في أنك سوف تنظرين إلى الأمور نظرة إنسانية كما اعتدنا ذلك منك.

سأراكم حتمًا بعد انجلاء الأمور، فالأمور لا تزال تلفها بعض الغموض لا أدري بالضبط ماذا تخبئ لنا الأيام القادمة، لا أزال قلقًا محترًا لا يعرف الاستقرار ولا الراحة سبيلًا إلى قلبي، إنها لحظات عصيبة في حياتنا جميعًا.. أخيرًا أرجوك أن تعدلي عن قرارك في فسخ الخطوبة.

مشتاق جدًا جدًا لرؤياك يا أول حب وآخر حب في حياتي.

أعاهدك لو قبلت دعوتي أن أبني لك عشًا تحت ظلال النبق الأم تحت الحروف التي حفرتها على الأصل بقلبي، وسوف لن تزيله الأيام، إنها خالدة كخلود حبي لك، قبلاتي الحارة لنبيل قرة عيني وابني وابن كاتي وابن كاترين كه، وجوده في كنف كاترين يزيح كل الوسواس والقلق من على صدري ويجتث جذور الخوف من قلبي، وإلى لقاء جميل وألق، فكل ضيقة إلى رخاء، وكل غمرة إلى انجلاء وكل كدرة إلى جلاء.. أنت معي ما دام قلبي معي، لأن في قلبي سكنك، كاتي، لم تفارق أحداقي ولو للحظة محياك،

فرهاد عمر أفندي

حزيران عام ١٩٨٧

جف حلق كاترين وبح صوتها، خنقتها العبرات، وأكثر من مرة رفعت رأسها إلى عدنان الذي أرهف كل حواسه رغبة منه لتقصي الحقائق، ولم يصدر منه خلال الزمن الذي استغرقته قراءة الرسالة إلا همهمات غير مفهومة، بلعت كاترين ريقها اليباس ثم وضعت الورقة على المنضدة قائلة له:

- هذا لك كي تعيد قراءتها متى شئت.

لم تدبر منه أية حركة ولا رد فعل عنيف على عكس ما توقعته، ولم يكن صعباً على كاتي تشخيص حاله وهي الخبيرة أنه يعاني وبمرور السنين من نوع من الكآبة المزمنة والإحباط، لكن الذي أراحها هو أنها رأت أساريه قد تفتحت قليلاً بعد ما أتمت القراءة، ومضت دقائق قامت خلالها وجلبت بعض الكعك والشاي، فإذا بعدنان قد أخذ الرسالة وكأنه كان في حلم طوال الوقت، طارت عيونه على الكلمات ورقصت رموشه وأهدابه ارتعاشاً سريعاً وتغيرت ملامحه فجأة، أخذ يعيد قراءة هذه الفقرة المرة تلو المرة: (فالزواج من امرأتين جائز شرعاً وخاصة في حالتنا المتميزة، وإذا تم ذلك وهذا هو الحل الوسط فلا يحرم لا أسو ولا نبيل من الأبوة ولا من الأمومة وتعود المياه إلى الصفاء، واعلمي جيداً وهذا الأهم أننا نحن الثلاثة دادة وسها وأنا، أخذنا على أنفسنا ميثاقاً ألا نتعامل مع بعضنا - أنا وسها - كزوج وزوجة لحين انتهاء الحرب وعودة الأسرى....).

ألقي الرسالة على المنضدة، تمطى وتشاءب ومد رجليه إلى أبعد حد، ثم التفت إلى كاتي ونظراتها المضطربة وهي تجلس على كرسيها الخشبي إزاءه وبعد صمت رهيب نطق الصامت أخيراً:

- سبحان مغير الأحوال، إنها قصص لا قصة واحدة كاملة، وكأنني أرى ما حدث بأم عيني، لم أتوقع أن تكون أمها بهذه الشراسة ولا أختها، وكل ما عرفته منها أنها كانت تموت من أجل المال، وعقدة زرباب، ليست بخافية عليّ إنها كانت حقاً مأساة، فكان ابن خالتي باجي عطية أحد ضحايا زوج الأم، قتله بمسدس، حادث مروع حقاً.

تنفست كاتي الصعداء فقالت له تشد من أزره:

- بمجيبك إليّ أثبتت أنك نبيه على غير ما يزعمون.

نظر من خلال النافذة إلى الجبل المضاء بأشعة الشمس المائلة إلى الأفق الغربي، ثم أعاد عينيه على كاتي التي بدا على وجهها الأبيض علامات الانشراح، لحظة صمت تبعها عدنان بالسؤال:

- قلت سونيا أرملة بنيامين، هل مات أو قتل؟

فأجابت كاتي وهي تثني شفتها السفلى في فيها:

- وهل هناك من يموت موتة طبيعية في هذا الزمان؟

غض عدنان من بصره وبدا التآلم على محياه فقال معقبا:

- كان صاحبي في سباق إبادة العقارب، يا للزمن وقساوتها كنا هنا معا قبل ثلاثة عقود، أطفالاً نقتطف النبق ونرمي العصي نحوها ونحارب العقارب ونركض على الشارع كالزنابير.

اومات كاتي منصتة ولم تعقب، ثم قامت وناولت عدنان قدح الماء من فوق المنضدة فأخذ منه جرعتين، استغرق بعدها في تفكير عميق لبعض الوقت، ثم رفع رأسه إلى كاتي دون أن ينظر إلى وجهها، ووجه سؤاله الذي شغله:

- العقد أراه عقداً غريباً وشجاعاً في نفس الوقت، هل تعرفين ماذا حدث للعقد ومتى انتقض العمل به؟

- سؤال وجيه..

قالت كاتي ثم أوضحت:

- لست متأكدا متى بالضبط ولا أعرف كيف، أعتقد حصل ذلك بعد إيقاف النار وعودة أسرى الحرب الأولى، دفعة تلو الدفعة ولم تظهر أنت إلى الوجود، أصيبت دادة بمرض في كبدها.

أجفل عدنان فأراد أن يفتح فمه بسؤال ولكن حركة يد من كاتي سدت عليه الطريق، فقالت وعينها على خاتم الزواج في بنصره:

- أمّا عن مرض دادة فقد عرفت، أمّا عن العقد فلا أعلم الكثير، أعتقد أنها هي التي سعت على نقضه، تفاصيل كثيرة تعرفها أم عاشور، لو أردت المزيد سأساعدك في الاتصال بها.

سكنت لحظة ثم واصلت مستدركة لما لم يرد أي رد من عدنان، واصلت الحكاية:

- رافقت أم عاشور في زيارتي إياها في المستشفى فأخبرتني في طريقنا إليها، أن دادة في غمرة مرضها تمنّت لو رأت ابنها البكر أبًا بعد أن رأته زوجًا، أرادت أن تراه استقر وكونَ عائلة أخيرًا، بدا أنها فقدت الأمل، باعتقادي أنها أرادت أن تقر عينها ويقر عينه بآبن قررت تسميته عدنان إحياء للفقيد.

اعتدلت من جلستها ووضعت ساقًا على ساق بعد أن سحبت حاشية الفستان إلى ما تحت الركبة ثم واصلت قائلة:

- عدنان، اعلم أن أمك لم يكن لها رديف لا شبيه ولا مثيل، حبها للخير وصل إلى درجة أنها لو وضعت لقمة طعام في فمها ورأت شخصًا ينظر إليها لما استساغتها إلا بعدما دلفت إلى البيت وعادت ويدها صحن صغير فيه شيء من نفس الطعام، دع أم عاشور ليلي خرى تتحدث لك عن المزيد، وهي بلسانها قالت لي إن دادة لم تأكل يومًا دولمة أو كباب إلا وكانت لها منها نصيب.

أخذت تنظر إليه بعيون تشع حماسة ثم قالت برصانة غريبة تنم ملامحها عن الثقة بالنفس:

- لو أمكن انتخاب نبي لأدليت صوتي لأمك دادة جميلة، لا للمطران عمانوئيل ولا للإمام شمس الدين.

شع بريق غريب في عيني عدنان الشهلاوين اللتين صارتا أكثر صفاء بعد الراحة والغسل والشاي والطعام وراحة النفس بعد قراءته للرسالة، أعجبه كلمات كاتي فظل يجتر كلماتها التي لم يسمع بمثيلاتها من قبل، نظر إليها مليًا رغمًا عنه لكنه سرعان ما غض طرفه فقال موجهًا بصره جهة النافذة:

- كنت فقدت الثقة ببني البشر في أسري وسجني وضربي وإهانتني من قبل ملالي إيران ورفاق الطاغية، فإذا تبرز امرأة من غير ديني تأتي بالمعجزات وتمسح نظرتي السوداء إزاء الناس ليحل محلها الروح السمحاء.

ثم وهو يسحب نفسًا طويلاً:

- بارك الله فيك يا أحسن امرأة عرفتُها في حياتي، وبارك الله في أخي الذي أحبك والذي أحسب أنه أحبك نيابة عني.

وفجأة وكأنه تذكر شيئًا، رفع رأسه يجول بناظريه في ما حوله وأخذ يطوي كم قميصه الأبيض النظيف إلى المرفقين ويعدل من بنطلونه وكأنه يتهيأ لعمل ملح.

راقبت كاتي حركاته وخاصة حركات يديه فأدركت ما يكمن وراء كل ذلك، نظرت إلى الساعة للتأكد وصدق حدسها، قام عدنان على رجليه بأنة مكبوتة من ألم ظهره حتى استقام تماماً، ثم جعل ينظر فما حوله بعين البحث والتنقيب، ابتسمت له وقالت: - السجادة غسلتها لك وهي معلقة على الحبل في الحديقة، سأذهب وأتيك بها حالاً.

همت بالخروج من الباب الخلفي إلى الحديقة ولدى الباب قالت له: - الجامع بعيد فلا يصل صوت الأذان إلينا.

الهواء في الصيف لافح، ولكن بعد مروره بالجبل يفقد من حرارته، كما تمر النسائم بأجهزة المبردات، ومكيفات الهواء، ليس هذا فحسب فالجبل يضيف من عنده عبقًا خاصًا لا يمكن وصفه أو تسميته إلا بعبق وشذا الجبل.

من يقول ألا رائحة للجبل؟ بل إن من لم يعاشر الجبل يجهل تمامًا أن له رائحة يفوق شذاها كل ما هنالك من العطور والروائح، وخاصة إذا مرت الرياح المعبقة بهذه الرائحة بالتلال المكسوة بأشجار البلوط واللوز، وبالأعشاب البرية والزهور والخرنب منحدرًا بعد مرورها نحو أجمات النبق المنبسطة تحتها، والمحملة بالثمار الصلبة الحلوة كالشهد والصلدة كقطعة السكر، وعندها تستحيل الرياح نسائم تداعب أجساد قطعان الماعز في رحلاتها الأبدية صاعدة نحو المرتفعات الشاهقة، وتحمل هذه النسائم التي تحمل البشائر والسعادة على النفوس صنعًا من روائح متميزة تذكر فورًا برائحة الجبل القادمة منه والصاعدة إليه.

أو ليس الماعز يدعى ابن الجبل البار في قريتنا؟ وهو يتربقب قطعان الماعز صاعدة إلى الأعالي بقوة لا تقاوم وعزيمة لا تعرف الكلل من خلال نافذة البيت الذي قضى فيه أدق وأرق وأجمل سني حياته كلها، وهو يزفر ويغرق في تأمل عميق لا غور ولا قعر، ومحاوره مع النفس المعذبة.

الجبل كدادة يهمس له بقصص لم يسمعها من قبل، فكل هبة نسيم وكل رفرفة طائر وكل تغريدة طائر القبج/ الحجل تحمل معها الماضي السحيق لترده إلى الأيام التي كانت دادة تخبز نان هناك في الباحة الخلفية تحت تعريشة العنب، والعم بطرس، وتعيد على مسامعه بعد عهد من الانقطاع مفردات عفى عليها الزمن؛ كالكنين والتايد والعقارب، وما تزال ضحكات دادة تجلجل في كل زواياها وهي ترفل في شبابها المرح، وهناك أمام الباب ها هي تطبع قبلة على خده وأخيه، وتدس يدها في جيبهما تملأهما بالنبق والزبيب والجوز واللوز المقشر، وصوتها الحنون الدافئ وهي تحثهما: كلا هذا كله، إنه يفيدكما ويقيكما من التعب ويشد نشاطكما وذاكرتكما.

آخ دادة؛ أمّا ترين ماذا حدث لهذا الذي وضعت أمانيك فيه وراهنّت على جعله الولد البار النافع لأبويه في كبرهما وعجزهما.. أنفقت، قضيت، أنفقت سني عمرك تركضين وراءهما فداء لتنشئتهما وتربيتهما وتغذيتهما وتنقيتهما من الشوائب وغربلتهما والدفاع عنهما وحمايتهما من كل سوء، حتى الأفندي المتسلط لم يجرؤ على مسهما بأذى، إذا ما حدقت عيناه الزرقاوين الغاضبتين بعيني أحدهما، كنت لبؤة وهيهات من مد لشبك يدا.

كل ذلك ذهب سدى، لا لي لقد ذهبت جهودك سدى يا أمي فقد انهدم الصرح الذي بنيته، فلا عدنان ولا فرهاد ولا بابا ولا أنت، أُملي في الخروج من غياهب الظلام كان من أجلك أنت، عدت لأهتف ومن الباب: دادة ها أنا لم أمت، فإذا هي الميتة وأنا الحي، وها أنا أقع من جديد في غياهب النور الساطع الناطق بحقيقة أحد من الموس وأصلب من الماس صائحة هادرة صارخة بقمة صوتها: لقد انتهت أسرة الأفندي عمر، ذابت، اضمحلت تلاشت من الوجود بكامل أفرادها.

وهل أنا حي؟

وهل أخي حي؟

حتى ولو، فأى حياة هذه؟ هل تعيد لي أسرتي؟ بهجتي؟ طفلي؟ زوجتي؟
هل تعيد لي صحتي وقوتي؟

هل تجمعني الأيام مع الوحيد الباقي من جسد العائلة والذي هرب وأخذ معه بعض من بقاياي وبدون خجل كما يفعل السارق أو المختطف، مهما تكن نيته خيراً فالقلب والعقل يظلان في نزاع مستمر مع هذا الحدث والتطور المروع الذي حصل بعد مماتي، وسط كل الأضواء التي سلطتها سيدة البيت الصادقة على ما جرى فأظهرت الصورة القائمة على حقيقتها؛ فستظل هناك بؤر سوداء تضلل وتشوه الصورة مهما كانت نظيفة ونقية.

ليس أخي بل أنا المسؤول الأول في كل ما جرى، لولاي لما مات أبي، لما ماتت أمي حزناً وبخناً ولما اغترب أخي ولما ترك ابنه كاليتيم بلا أب ولا أهل، ولما عانت وقاست هذه المرأة الفاضلة الجميلة في أدق فترات عمرها، لتضع هناك تحت النبة وليدها كما ولدت أم المسيح لعيسى وحيدة لا أنيس أو جليس معها، فانتبذت به مكاناً شرقياً وهزّت إليها بجذع النبة.

وهل سألح في العثور على سها أخرى تسعف طلبي وتتغاضى عن قصوري وتشوحي، الأمور فلتت من إطارها وخرجت من صمتها من غير رجعة، فهل كان لخروجي من الجب إذن جدوى أو معنى؟ فما أنا أعكر صفو حياة هذه السيدة المسيحية التي نبهت والدي عنها بأسئلتي اللامنتهية، كانت يومًا خطيبة أخي، ومن أنا إلا زميل أو صديق قديم، قاتل عقارب وهي قاتلة حيات، لم أحبها، كان أخي يحبها ولم تحبني كانت تحب أخي.

وبخطى متمايلة مثقلة بالهموم مضى إلى الباحة الخلفية يتأمل الحديقة الخلفية والحقل، حقل مام بطرس، فارتاع لما رأى لأنها كانت أوسع وأكثر أناقة، وأسف لأنها فقدت أجمل ميزة لها وهي البساطة، تنفس عميقًا وأجال بصره في أرجاء الحقل؛ فترأى له طيف دادة تحت شجرة الرمان في الوسط تحاور العجوز بحماس بشأن أنواع الخضار التي أرادت منه أن يزرع لها.

وهناك على يمينه رن صوت دادة من وراء الساج وهي تمد يدًا مغبرة بالدقيق: ابني هل لك بفطيرة جبن؟ الكرمة بجذعها المتين المتجدد بعقدتها العظيمة والعناقيد المتدللية شهود بينة على أنها أقوى من أية ريح عاتية أو يد تهدد حياتها، إنها عاشت وخرجت سالمة رغم المحن ونوائب الدهر وقسوة البرد ولسعة الجليد والثلج والصقيع ولفح الحرّ وزمجرة الرياح والأعاصير.

إنها عاشت مادامت وارفة معطاء، إنها سنة الطبيعة، إنها في أية حال أعدل من سنة البشر، فمن البشر من يعيش وهو آخذ لا واهب ما عاش، أمّا في الطبيعة فإن من أعطى لا يفنى، إنها تعيش برزقها مستقلة وفي غنى عن منة البشر، ولا يد تقدر على مطاولتها ما دامت تعطي وتهب.

فجأة وهو في غمرة تأملاته؛ غارقًا في لجة أفكاره المتضاربة؛ شعر أن رجليه لا يقويان على حمله، نظر إلى نفسه في زجاج النافذة فتراجع مذعورًا إلى الورا: الويل لي كيف تمكنت كاتي العيش تحت نفس السقف معي؟ استند بيده إلى الجدار، أحس بألم شديد في بطنه وركبته وآلام العنق، تذكر عصاه وتساءل أين هي؟ أزاح الكلاو، طاقة رأسه، من فوق رأسه من الحر ورفع أهداب جلابيه إلى وسطه برفق، ثم نزع نعليه فاستلقى على مصطبة خشبية طويلة قديمة منصوبة في الباحة تحت عريشة العنب، بعد لحظات نسي نفسه في غيبة غفوة خفيفة أشبه بحلم استيقظ على

صياح الديكة، رفع رأسه إلى وكر الدجاج في ركن من حديقة المنزل والذي كان يومًا مخزن حبوب لدادة فإذا بديك يثب على دجاجة، وما حدث بعد ذلك كان أهون مما أحدثته دجاجة من ضوضاء وضجيج وهي تخرج بمؤخرة مرتعشة ناطقة معلنة عن بيضة اليوم لكاتي، وها هي دجاجة أخرى باضت فشرعت تعلن عن وليدها بالصوات والزعيق، وحينها جاءه صوت رقيق من وراء السياج.

- عدنان.

التفت فإذا كاتي مقبلة من بعيد في الطريق الضيق الترابي عائدة من الدائرة تخطو بقامتها البديعة في فستان قصير أبيض، توارى أعلاه تحت سترة رصاصية غامقة كانت تلمع، رفع رأسه نحوها فلمحها في الشمس وهو في الظل تتهادى كالطائر الربيعي المغرد والابتسامة لا تفارق وجهها رغم التعب البادي على وجهها الناصع، وشعرها البني الأملس المخضب بالحناء يتدلى ويتراقص على ظهرها في جديلتين غليظتين، وفوطة بيضاء كلون الرداء يكسو رأسها المستدير الأنيق وعلى عينها وضعت نظارات واقية شمسية أثارت فيه الشجن وأعادت إليه الذكريات المريرة والحلوة معًا، تحت النظارات لمح أنفها الدقيق المستقيم المرتفع من الوسط ارتفاعًا غير ملحوظ، فأضاف ذلك روعة وجمالاً ورونقًا إلى وجهها، ولمعت من على جبينها قطرات العرق كالندى على أوراق الياسمين، واحترت شفتاها تحت الشمس فزادت احمرارًا وهي تتقدم إلى السياج الخشبي الفاصل بين حديقة الدار وبين الحقل الملاصق التابع للمستوصف الذي لا يفصله عن الدار سوى هذا السياج وحديقة من الثيل/ العشب التابعة للمستوصف الصحي والتي يمر عبرها الطريق الضيق المفضي إلى البيت.

كانت تحمل في يدها حقيبة صغيرة رمانية اللون، فتحت الباب الصغير تحت المدرجات برفق، وها هي تطل فوقها بوجهها الصبوح، ها هي تقف على أرض الباحة أمام عدنان الذي أراد أن ينهض لها ولكنها دفعته بطرف إصبعها على صدره إلى الورا ليقع رأسه على المخدة الصغيرة ورائه، رفع رأسه إليها مرحبًا، وقفت بجانب المصطبة وقالت له ترنو إليه من فوق:

- الراحة ضرورية لك.

ثم أشارت إلى الحقيبة قائلة:

- ها هنا جلبت لك ما تتألق به، وضعت لك فيها أدوات حلاقة ومرآة ومقص والمناشف النظيفة، وأهم شيء بعض الفيتامينات والمعادن كالحديد وعلب حليب خاصة مغذية وأدوية ضد الحموضة ومغص البطن وأشياء أخرى... انظر- ما هذا؟
قربته من عينيه فإذا هو يطلق صرخة:
- كنين؟ وكيف؟

- أردت مفاجأتك يا لص الكنين والتايد، هذه تحفظ في قارورة كآثار قديمة في مخزن الأدوية فجلبت بضعة جرامات لك تستأنس بها، وربما خرجت إلى النبق لتمارس هوايتك كما كنت طفلاً.
ارتسمت ابتسامة باهتة على وجه عدنان الأسمر..
- ولي مفاجأة أخرى لك.

انطلق صوت كاتي وهي تمد يدها إلى فوق لتقطع بعض أوراق الكرم ما تحتاج إليها لصنع دولمة، فقالت دون أن تنظر إليه:
- أنت تعرف أنك هنا ضيف قريب لي، وأنت حقاً أقرب الناس إلي في الوقت الحاضر، عساك تعرف أنه زمن الحصار والناس تجتهد وتكدح من أجل كسب قوتهم، ورأيت أن العمل مفيد لصحتك.

سكنت لحظة تترقب أثر كلامها عليه ثم استأنفت:
- ولي موقفي أنا، أنت أخي ولا مانع عندي لو أقمت في نفس غرفتي دهرًا.
أوماً عدنان برأسه على عجل وكأنه كان يتوقع منها هذه الملاحظة وقال:
- أعلم ماذا تقصدين ولك الحق.

استرسلت وهي تنشر أوراق العنب على المنضدة وتفرغ محتويات الحقيبة على المصطبة بجانبه:
- لو رغبت، أقول لو كان لديك رغبة في العمل، فهناك وظيفة مؤقتة شاغرة وهي حراسة المستوصف ليلاً، إنها راحة لك تنام على ظهرك وهذا يفيدك في تخفيف آلامك، وفي النهار نكون معاً.

أوماً عدنان برأسه وقال:
- فكرة رائعة وعمل رائع أنيأ على الأقل.

وسألته وهي تحديق في عينيه:

- أي أنواع الملابس تفضل؟

ثم هي بنفسها أجابت:

- أنا أعرف ربما نفسها التي كنت مغرمًا سلفًا بها: كايوي.

ضحك عدنان رغبًا عنه وقد أخفى رأسه في صدره كأنه لا يحق له الضحك بعد ما ألت إليه الأمور، فبادرته كاتي بمفاجأة جديدة هاتفة:

- وهذه مفاجأة ثالثة؛ قست طولك مقارنة بطول أخيك، فطولك أقل بخمس سنتمترات من طول أخيك وعرض أكتافك أقل بأربعة.

دخلت مرة أخرى وما هي إلا لحظة حتى عادت تحمل كيسًا كبيرًا أسمر اللون ووضعته على المنضدة الخشبية العتيقة بقربه قائلة له:

- تفضل وجربه وأرجو أن تكون بالحجم المطلوب.

وفجأة تذكرت أمرًا ما فقالت على عجل:

- أراك عندما أعود بهذه الملابس الجديدة ترتديها بعد أن تستحم، علي الاستعجال فعندي موعد طارئ، هناك امرأة يتوقع أن تلد بعد الظهر.

وقبل أن تتطلق إلى داخل البيت التفتت إليه وقد ارتسمت تعابير الرصانة والتحدي على وجهها:

- أحضرت لك من الصباح ماء دجاج من حقلنا وبيض مسلوق وسلطة لذيدة من الطماطم والخيار والكرفس والفلفل الأخضر، وكلها خير درّت علينا حديقتنا المتواضعة والبركة للعم بطرس الذي أشر وكأن روحه لا تزال تهديني وتبارك لي كل شتلة أغرزها في جوف الأرض مع سونيا، ولا أبالغ إن قلت نحن قصمنا ظهر الحصار بما تدر علينا هذه الحديقة وذاك الحقل والدجاجات الثلاثين من خير وبما تدر أضرع نعجات سونيا الثلاث من لبن هو أصفى من كل أجبانهم المتعفنة، ألبان هؤلاء الذين ينوون القضاء على من نجا من حرب الثماني سنوات بالحصار والتجويع والتخذيّل، بكفاءتنا الذاتية البسيطة انتصرنا، فسحقًا لمن أراد سحقنا.

أخذت كاتي تتنفس بصوت وبسرعة، ولكنها سرعان ما عادت إليها سحنتها المرحّة وتقاسيمها المفتوحة فاقتربت من عدنان تغرز إصبعًا في ذقنه مداعبة:

- حين كنت طفلًا كنت بشرًا، فما أحالك إلى عنزة!.

ضحك عدنان بخفوت ثم أغمض عينيه مشدوهاً مذهولاً بما رأت عيناه وسمعت أذناه من هذه السيدة العجيبة التي لم ير مثلها في حياته، وعندها فتح عينيه على صوتها المنبعث من عمق البيت هاتفة:

- لا تنس أن تقصر شعرك وترتب ذقنك، وإن لم تستطع فسأقوم بمساعدتك متى ما عدت، إلى اللقاء مساء.

* * *

في المساء ظهر عدنان في الصلاة وقد بدا أنه اهتم بنفسه وهندامه وتقليم وتشذيب شعره، وبعد أن صلى العشاء وتناولوا الطعام؛ جلسا على كرسيين خشبيين متقابلين وتحت ضوء فانوس نفطي لسبب انقطاع الكهرباء.

ومع شرب الشاي أحس عدنان وألمحت كاتي أنه في حالة تمكنه من سرد قصته الطويلة حول عودته من القبر.

صدر عن عدنان أنين وقال متوجعاً:

- أشتاق إلى سيجارة اليوم أكثر من أي يوم، أقلعت عن التدخين في الأسر دون مشيئتي والحمد لله.

أشارت إليه كاتي أن يتمدد على الحشية فوق اللبادة فهي تنفع لآلام الظهر؛ ففعل، شبك يديه وراء رأسه وأطلق العنان لتفكيره وبدأ يقص ملحمته على كاتي وهو ينظر بثبات في الفراغ أمامه:

- اسمعي يا عزيزة العزيزات إلى قصة لم تسمعيها من قبل، إنها طويلة لا نهاية لها لذلك سأتوقف عن الكلام متى ما كلّ نطقي وشعرت بالتعب، اسمعي البداية أولاً: في طلعتنا الأخيرة اجتزنا بغداد، ومن الغرابة بمكان كان حملي هذه المرة أثقل من المرات السابقة، لم أعرف ما تحوي كل هذه الصناديق التي كنا نحملها، وعندما بلغنا مدينة الكوت صدرت الأوامر أن نتقدم أكثر، فهناك مخازن في ضواحي المدينة وينبغي نقل هذه المواد إليها.

بعد أن وصلنا إلى المكان عرفت من بعض الجنود المرافقين لنا أننا على مقربة من الحدود مع إيران، كان دوي المدافع يصل إلى أسماعنا، لقد بدأ القصف وكان هذا شأنهم كل يوم، فلم يكن أمراً غريباً، حتى كانت أصوات مدافعهم الثقيلة تصل أحياناً إلينا ونحن في الشاحنة، ولكن الغريب أن الأصوات هذه المرة كانت تقترب منا بصورة سريعة، ولم تكن للانفجارات نفس صدى الصوت البعيد الصادر من إطلاق المدافع الثقيلة، وأنا خدمت الجيش وأعرف جيداً، الأصوات كانت قريبة ولها صدى آخر، يرافقها ارتطام وهزة خفيفة للأرض تحتنا عكس ما كانت تحدثه القصف المألوفة البعيدة، التفت إلى الورا فلم أجد الشاحنة التي كانت تسير خلفي، وشاهدت عن يميننا مخيمات وخنادق للجنود الذين هرع قسم منهم إلينا، كانوا ممن وكلت إليهم مهمة تفريغ الصناديق، وكانت هناك بعض الآلات الثقيلة ساهمت في حمل بعضها وتفريغها ثم نقلها إلى أماكن تحت الأرض لم أعرف ماذا كانت.

تذكرت أنني لم أصل العصر بعد وقد أوشكت الشمس على الزوال؛ فمضيت إلى الصندوق التحتي للأمتعة في السيارة فلم أجد السجادة، فأخرجت قمصلي (معطف

سميك وطويل مبطن غالبًا بالفرو أو الوبر) الكبيرة التي كنت ألبسها في الليل حيث تنخفض درجة الحرارة أحيانًا إلى الصفر، حتى في الصيف ليلاً، وخاصة قرابة الفجر في الصحارى فصليت العصر عليها، وحينما فرغت من الصلاة جاء جندي إليّ يبتسم بخجل عرفت من سحنته أنه يطلب شيئاً ما.

مد يده إلى القمصة، المعطف الجلدي، ولم تكن جديدة ولكن جيدة ومتينة، وهذا هو الأهم للعسكري، طلب مني أن أبيعها إياه وساومني عليها، قلت مماًزحاً ثمنها ٥٠٠ دينار فقال ٢٠٠ دينار لا أملك أكثر، من محياه عرفت أنه فقير وصادق، ورغم اعتزالي بها لم أملك إلا أن أهديه إياها، وقررت مع نفسي أن أشتري أحسن منها في إجازتي التالية.

ناولته إياها وقلت له: خذ هذه صدقة لله، قفز وهش وألقى بنفسه عليّ في غمرة الفرح الغامر يعانقني، لم أدر أنها تحظى بكل هذا الاهتمام حيث جذبت إليها عيون زملائه، ومنهم من طلب مني واحدة في رحلتي القادمة قلت سأبذل ما في وسعي، لكنني نسيت من فرط عجلتي أن أخرج الأشياء منها: هوية ودفتر نفوس ودفتر الخدمة العسكرية وبعض الصور، كنت أضع أشياء كثيرة لا أتذكرها كلها، جيوبها كانت ضخمة متعددة.

ارتداها حالاً ثم فرشها على الأرض عندما حان وقت الطعام، وضعت أمامهم قصعتان (آنية كبيرة للطعام) من أرز ومرق ولحم، كان عددهم بين ستة أو سبعة جنود، جلسوا حولهما في نصف دائرة، أشاروا إليّ بالأكل معهم، فقلت لهم لا أشعر بجوع وشكراً، بدلاً من هذا توجهت إلى سيارتي التي كانت تقف على مبعدة ثلاثين متراً تقريباً كي آخذ قسطاً من الراحة في ظلها.

فجأة اشتد القصف العشوائي، رفعت رأسي وانتابني شعور بعدم راحة، إذ أحسست أن الخطر يحدق بنا، ومن مكاني رأيت الجنود يلتهمون ما يقع تحت أيديهم التهاماً غير أبهين لشدة الجوع لما كان يجري حولهم، فتركت رأسي يقع على الأرض وكدت أن أغفو من التعب رغم القصف العشوائي، أغمضت عيني ثم فتحتهما فرأيت دخان يتصاعد من مسافة كيلومترات قليلة، نهضت ونظرت حولي ومن بعيد رأيت شبح شاحنة أخرى ورأني تصل وتقف بعيداً تنتظر التعليمات.

في البعد تراءى لي أخدود طويل عميق في الأرض فأسرعت إليه وألقيت بنفسي فيه وتمددت بأمان، كنت سهرت طوال الليل فلم أر بُدًا من النوم من أجل استعادة حيويتي للقيادة عائدًا، والمكوث بالقرب من السيارة عند القصف لا يجوز.

وبغثة دوى صوت هائل بالقرب مني؛ ظننت أن السيارة قد أصيبت، ارتجت الأرض بالقذائف، رفعت رأسي كي أتبين فإذا الأرض تهتز من تحتي على إثر انفجار أقوى وأقرب، وثبت على إثره وسدّت أذني براحتي بكل قوة وسط الدخان والتراب والغبار المتصاعد الذي لف المكان، رأيت أشياء كثيرة تتطاير في الهواء على ظهري ورأسي كالمطر وأنا في حفرتي؛ أنصاف بساطيل، شظايا مختلفة الأحجام وأشياء لم أتبينها وقع قسم منها علي وبجوارتي، وأخيرًا مست يدي شيء صلب رطب وأنا على بطني، سحبته إلى حيث رأسي ونظرت ويا لهول ما رأيت كان قدم وكعب إنسان.

مرارًا وتكرارًا سمعت أن الإيرانيين مهرة في الإصابات، وأنهم يستغلون أوقات ومواعيد الأكل كي يصيبوا أكبر كم ممكن من جانب العدو، ومن أجل أن يحرّموا المقاتلين من الأكل والنوم والراحة، ماذا أفعل؟ هل أخرج أم لا؟ القصف خفّ، وأخيرًا خرجت ورأيت ثم أغمضت عيني، يد الجزّار كانت أرحم مما فعلته القذيفة بالجنود الجالسين حول القصعة، تحولت أجسادهم إلى لحم وعظم متناثر ومنهوش، حفرة عميقة استقرت في الموضع ذاته الذي كانت القصعة تستقر عليه قبل قليل، وحولها أشلاء حمرة قانية تنتشر مبعثرة حول الموضع، وكانت لا تزال تنزف دمًا وعظام تختفي تحت غشاء غليظ من دم حان تخثرها، لا يمكن الوصف ولا أريد ذلك، فهو يبعث على التقيؤ، وتقيأت حقًا حتى بعد أسابيع من وقوعي في الأسر.

عودة إلى المجزرة؛ استدرت حولي فلم أرَ أحدًا، الكل كان في الخنادق أو تراجع إلى الورا، نعم تراجعوا بسرعة، عرفت الخطأ، لم يعرفوا أنني كنت مختبئ ولم انتبه إلى انسحابهم بسبب دوي القصف، ولم تصلني التعليمات الفورية الميدانية الأصولية، ربما لأنه لم يظن أحد إلى مكاني، التفت إلى البقعة التي كانت سيارتي واقفة بها فإذا بدخان أسود يتصاعد من طرف الإطارات، وإطار واحد على الأقل قد أصيب بشظية.

التفت إلى الوراء فإذا بسيارت عسكرية تنطلق بعيداً متراجعة تجرّ ورائها ذيلًا طويلاً من الغبار والدخان، انتابني ارتباك شديد، سمعت محركات السيارات ولكنني لم أعرف أنهم ينسحبون، أردت أن أجري ورائهم وأصرخ ملوحًا صائحًا: أنا هنا، حتى الشاحنة الذي كانت ورائي في القافلة اختفت، أدركت أنني ارتكبت أكبر حماقة في حياتي.

أجلت بعيني حولي فلاح لي من بعيد مجموعة بيوت طينية متبعثرة، فقلت في نفسي سأحتمي هناك ريثما يعودوا إلى المكان، أو أجد وسيلة للعودة، فركضت باتجاهها، وأنا في منتصف الطريق لاح لي من بعيد سيارات واقفة أعتقد أنها كانت جاهزة للعودة إلى المكان الذي وقعت فيه القاذفات لإخلاء الموتى والجرحى، وليبحثوا عن المفقودين، فأدرت وجهي ملوحًا صائحًا، لم أدرك أنني قد قطعت كل هذه المسافة بهذا الزمن القصير، وجدت نفسي حينئذ أقف بمحاذاة تل منخفض، وقبل أن أنطلق للحاق بهم فإذا بجماعة مسلحين من لابس الخاكي ينحدرون ويتكلمون اللغة الفارسية التي أجيدها.

كانوا من الباسدار، حراس الثورة، كما تبين لي من هياتهم وأسلحتهم وقبعاتهم، وفي غمضة عين أحاطوا بي وأخذوني على بيك أب دون أي سؤال، عرفت أنها كانت مفرزة فدائية تسللت إلى العمق بسرعة خاطفة سالكة المنعرجات والوديان التي عجّ بها المكان ثم عادت من حيث أتت، وكان معي ستة جنود مقيدين، قلت لهم بالفارسية أنا سائق مدني فلم ينفع كلامي، قال أكبرهم سنًا دروغ ميكى دروغهست، أنت تكذب، أجلسونا في مؤخرة السيارة تحت الحراسة، ومن بعيد تراءت لي سيارات عسكرية تهب إلى المكان الذي لم يزل تتصاعد منه النار والدخان.

سمعت أحدهم وهو يرمق صاحبه ويقول ساخرًا: جنك خدعة است، الحرب خدعة، ظنوا أننا نهاجم بفيلق من القوات وإذا نحن عشرة، وسارت السيارة وسارت ولم تنته الرحلة، وفي نقطة ما استلمتنا سيارة كبيرة لم أتبين شكلها كانت أشبه بحافلة، وأقبل الليل وظلت السيارة تسير ببطء كل الليل، وفي فجر اليوم الثاني توقفت أخيرًا في منطقة شبه قاحلة تحيط بها الخيام من كل جانب، وفي الوسط كانت هناك قاعة كبيرة ذات أبواب حديدية عملاقة محاطة بسياج من أسلاك شائكة، فأدخلونا فيها، وحلوا وثاقنا وتركونا هناك مع قوم يعدون بالخمسين، بقينا هناك أسبوعين تم نقلنا

بعدها إلى مكان آخر بالقرب من مدينة أصفهان، لا أطول عليك والتفاصيل ستأتي في وقتها المعلوم يا كاتي...

توقف عدنان وهو يزدرد ريقه فشرب قدحًا كاملاً من الماء، وكانت كاتي تتابع القصة باهتمام بالغ، تأوهت وانكمشت أساريرها ونازعتها رغبة في البكاء أكثر من مرة، ملامح وجهها تلونت بتلون وتغير الأحداث، حينًا تتوسع عيناها وحينًا تهز رأسها معلنة احتجاجًا وحينًا آخر تضع ساقًا على ساق بارتباك، وبعد لحظة تزيع الساق وتشبك يديها على صدرها وتصدر أثبات وتنهيدات وآهات، تقاطيع وجهها تنم عن خوف لحظة وعن سخط لحظة أخرى وعن تعجب واندهاش حينًا آخر، كلمات تتلفظها مغممة كأنها تشاهد حلمًا مزعجًا أم كابوسًا ثقيلًا، كلمات غير مفهومة أو مفهومة من قبيل يا رب، كيف؟ عجبًا! شيء لا يصدق، وفي غمرة جيشان عواطفها مدت يدها إلى يده المتصلبة لأول مرة تلقائيًا، وهي تردد عبارات مثل: كم كابدت وعانيت يا صديقي، أحست بحرارة داخلية فأمسكت بالمهفة تهفها على وجهها وعنفها وراحت وجلبت واحدة لعدنان.

رفع عدنان رأسه بعد تأمل وتذكر للأحداث فاسترسل في سرد ملحتمه بشوق بالغ كمن يسمعها هو نفسه:

- وفي الأسر كانت المعاملة معاملة متنوعة، يومًا كانت رديئة ويومًا آخر كانت جيدة، المشكلة أنهم كلما ألحقت بهم خسارة في جبهة القتال كانوا ينهالون علينا بالعصي والسياط ويوسعونا سببًا وشتائم، وكلما مُني العراقيون بالهزيمة قدموا لنا وجبة إضافية بجانب الصمون والمرق من الأرز واللحم، في يوم ما همس أحد الأسرى في أذني: ادع يا شيخ، وإن دعاءك مقبول، كي لا ننتصر، قلت له: مهما يكن الأمر فالعراقي أعز حتى ولو أنهم ظلموني وخدعوني، ذلك ناهيك عن العذاب النفسي والتفرقة المذهبية والقومية التي كانت تمارس ضدنا بغير حساب، حتى أن بعض الأسرى وبدوافع شتى بدّل اسمه إلى حسن أو حسين أو علي، هذه الأسماء هي المفضلة لديهم، وناهيك عن مفاتيح الجنة والترهات والخزعات التي كانت تملأ وتحشى بها أسماعنا من قبل الإعلام ومباشرة من قبل رجل دين متلحي يلقي علينا درسًا في الخير والشر والجنة ومفاتيحها التي هي كلها بيد الإمام، كنت أنقرز أحيانًا وأتساءل هل هذا هو الإسلام الذي جاء به محمد نبي العرب وخاتم النبيين، سترك وغفرانك يا رب إنه لبهتان عظيم، مفتاح الجنة ولم لم يوفروها لأنفسهم.

انتهاء الحرب كان للأسرى انتهاء المأساة ولكنه كان لي بداية المأساة، كنا نعد الدقائق في انتظار اللحظة التي يصل الأمر بالإفراج عنا، وأخيراً وبعد انقضاء أكثر من ثلاثة أشهر على وقف إطلاق النار جاءوا وجمعونا وأخذونا بالحافلات إلى الحدود، وهناك سنتسلمنا السلطات العراقية، وسمعت أن هناك لجنة من الصليب الأحمر تشرف على الدور والتسليم.

كان الإيرانيون قد وضعوا في يد كل منا صورة لمرشداهم الديني آية الله الخميني، ومصحف بغلاف أخضر، أشار أحد الباسدار نحوي وخاطبني قائلاً: لا تنس؛ هذا روح الله ضعه في جيبك يحفظك فهو خليفة الله ومنقذ البشرية وقاصم الجبارين.

وقفنا على الحدود في طابور طويل، الشمس تلفح وجوهنا وأعيننا، أمامنا وقف ضابط برتبة عقيد، وراءه بعض الانضباط ورفاق رصفت على جهته اليمين عدة كراسي جلس عليها رجال ببدلات مدنية وأربطة عنق، هؤلاء كانوا يؤشرون في سجلات أمامهم كل اسم يعبر حامله إلى الطرف الآخر.

وعندما وصلني الدور شاهدت أحد الأسرى الذين كنت أعرفهم وكان معي في السنة الأخيرة أي الثانية، وكان نودي اسمه قبلي، رأيته في الطرف الآخر يتكلم مع رفيق أشيب عظيم الرأس والبطن غليظ الشفة، لم أر أحداً أشبه منه ببعير في حياتي، كان اسمه... لعنة الله لا أنساه ولا أريد أن ألوث به لساني، وعندما نودي اسمي ودخلت إلى الطرف العراقي كانت عيناه تتابعاني، رأيته يقرب أذنه من الرفيق ويهمس بعض الشيء في أذنه، هز هذا رأسه ثم التفت إلي يحدق بي كي يميزني عن غيري وعيناه تتطايران شرراً، الواشي عاد إلى الورا حيث الأسرى ينتظرون تكملة العدد الكافي لركوب الحافلة التي ستقلهم إلى العاصمة، ارتجف بدني وقلت لنفسي يا رب سترك، وأظلمت الدنيا في عيني فلم أكن أرى النور، تحول النهار ليل، التفت إلى الورا عسى أن تسنح لي فرصة للفرار أو العودة إلى الفرس، تخيلت أن حبل المشنقة ينتظرني في الطرف الآخر، وإذا بصوت الرفيق أبو الشفة البعيرية يناديني وهو يقبل نحوي، تقدم حتى وقف وجهاً لوجه أمامي، الخط الذي كنت أنا واقفاً فيه خلا من أي إنسان، حيث تم العدد وتم إخلاؤهم، سألني بفضافة:

- اسمك؟

- عدنان عمر.

- الثلاثي؟

- عدنان عمر أفندي.

نظر إلي بعينين متقدتين من الغيظ، لحظتُ نذ ظهرت دادة أمام وجهي معها سها تحمل أسو فقلت لهم الوداع لن أراكم أبداً، ها هو ملك الموت يقودني إلى جهنم، وصدق ظني ومخاوفي.

من هناك جعلت كاتي تهتز وترتجف كريشة في مهب الريح، قاطعته بلطف قائلة:

- إنها حقاً لقصة أغرب من الخيال، يكاد قلبي يتصدع لك ولدادة.

نظر إليها عدنان نظرة خاطفة فرأى على وجهها المليء شحوباً ظاهراً فسألها مستخبراً:

- هل لك رغبة في الاستماع؟

وجاء جوابها على الفور:

- لو لم أسمع البقية فلن أنام الليل كله.

- إذن أعود وأقول: سألني من أين أنت؟ ارتج كل كياني لهذا السؤال، قررت ألا أورط أسرتي في أمري، ربما يكون الأمر أكبر مما أتصور، فكذبت كذبة بيضاء، كذبت في اللحظة التي كان فيها قول الصدق شر أجبت:

- من حلبجة.

فقال لي بصوت عذب ورقة متناهية وهو يسترق النظر إلى المدنيين المراقبين الثلاثة والذين تحولت أنظارهم إلينا في تلك اللحظة:

- أهلاً بك يا عزيزي.

مُظهرًا اللباقة وحسن المعاملة، ولكنه بعد أن أخذني جانباً ألصق بطنه العظيم بجنبي وهو يصر على أسنانه ليطلق صوتاً أشبه بفحيح الأفعى: أو لم تعرف ما فعلنا بأهلك في حلبجة؟ لم تعلم كنت في الأسر، لقد أبدناهم عن آخرهم، رششنا عليهم مبيدات الحشرات من النوع الأصلي.

نعم عرفت؛ فقد زارنا في الأسر أحد الأشخاص في لباس رجل دين معمم ومتلحي للاستجواب ولكنه في الحقيقة جاء لغرض إعلامي دعائي، إذ كان الوحيد الذي دخل وبيده قلم ودفتر، وشرح لنا بالتفصيل كل ما حدث لحلبجة المنكوبة، وسألنا عن

رأينا حول هذه الجريمة النكراء بحق البشرية، الكل أبدى شجبه طبعاً دون إدانة طرف، لأننا لم نكن نعلم شيئاً عما حدث هناك، ولا بد لي أن أنوه أنني ولبشاعة الحدث نطقت ببعض الملاحظات أو التعليقات الناقدة، وأتذكر أنني قطبت وتقوّهت بعبارات باللغة الفارسية تدين المعتدي.

فعندما سألني هذا الرفيق ذو الشفة البعيرية عن مكان إقامتي خفت على عائلتي لو قدمت المكان الصحيح، واخترت هذه المدينة بالذات كي لا ينكشف أمري لأنها حينئذ كانت غير آهلة بالسكان، فلن تتكشف كذبتني، أستغفر الله.

هنا في حياتي قاسيت الهوان كثيراً لكنني لم أقابل إنساناً أحط درجة من هؤلاء الرفاق، وخاصة هذا.. تأملني لحظة وابتسامة ساخرة مأكرة على شفثيه الغليظتين ثم أدار وجهه إلى مرافقيه ورائه وتبادل معهم بعض الكلمات، ثم قال لي أمام العيون المراقبة بسماجة وبشاشة ترق لها القلوب وتذوب فيها المقاومة: نحن نريد أن نخدمك ونكافئك، أنت شرفتنا، أنت دافعت وزدت عن كرامة وطنك أمام العدو المجوسي، وبعدما اختتم خطابه أشار إلى الانضباط العسكري الذي جاء وقادني بكل رفق واحترام إلى غرفة في الخلف تبعد نحو كيلومتر واحد من الخط الفاصل، وهناك بعد أن سدّ الباب علي تلقيت أول صفة على خدي ثم ركلة على بطني بعدها دفعة إلى سيارة كانت واقفة أمام الغرفة التي بدت أنها غرفة الحراس، ودون إحداث أي صوت أخذوني إلى المجهول، بعد ما عصبوا عيني.

جرت أول محاكمة سورية لا أدري أين ومتى، في غرفة مظلمة هذا كل ما أعرفه، وبدأ سيل الاتهامات الباطلة من قبيل:

- أنت تكلمت للإيرانيين عن أسرار تخص بل تسوء إلى أمن الدولة، كنت تتكلم الفارسية وتضحك معهم، أبديت امتعاضك وشجبك للحرب، ألقيت مسؤولية إشعال الحرب على عاتق العراق، يا خائن يا جبان.

قلت له كل ما قلته هو:

- أنا سائق شاحنة مدني لا عسكري، ولم أشارك في معركة فقد اقتصررت مهمتي على نقل المواد والبضائع ليس إلا.

رمانى بنظرة نارية وقال بامتعاض:

- وهذا كثير، قلت ما لا ينبغي قوله، ولماذا بالفارسية وهم يجيدون اللغة العربية ويصطحبون مترجمين معهم في جولاتهم.

ثم أخذ يجرّ في أذني المرة تلو الأخرى شاتماً، وفي كل مرة يردد نفس الاتهام:
- هل أردت شتم الرئيس ويلك!!.

ويعقبها بركلة وشتيمة، بعد هذا الاستجواب أخذوني إلى جهة أخرى، عصبوا عيني وكل ما أعرف هو أنهم دفعوني بقوة إلى داخل سيارة، وسارت السيارة لساعات طوال، وفي عتمة ليل أنزلوني دون أن أرى وساروا بي إلى مكان آخر، سمعت صرير باب يفتح، ثم يد تسحبني بقوة إلى الداخل، وصوت يصرخ في وجهي:
- هذا هو مقرك ومقامك الأبدي، ضريحك تنام وتموت فيه إلى أن تخيس ثم نرمي لحملك النتن لكالب الصهاينة يا عميل الصهيونية يا يهودي.

كان سجنًا انفراديًا يسع لشخصين، يكاد يكفي لمد رجلي، وفسحة ضئيلة أضع عليها طبق طعام يابس جاف متكون من صمون وماء وبعض البطاطا أو الأرز، وبعد أن رفع السجان العصا من عيني وولاني ظهره وخرج من الغرفة؛ رفعت رأسي فوق بصري على كوة صغيرة في أعلى الجدار يدخل من خلالها ضوء ضئيل.
يوماً جاء رفيق لاستجوابي وقال أول ما قال:

- حملات الأنفال ستخلصنا من شركم، فقد دمرنا آلاف القرى الكردية، ومن ثم أنت كذبت وذكرت حلبجة كعنوانك يا للغباء، فهل تخفي علينا خافية؟ نحن عرفنا عنوانك الحقيقي فوق ما كنت تخشاه وفعلنا بهم ما أخفيت عنوانك بسببه.

صعقت للخبر فأخذت أردد مع نفسي وكأنني في حلم مزعج؛ كل شيء إلا هذا، قل كل شيء إلا هذا، رأيت حبل المشنقة يحيط بعنق أبي، أرسل ضحكة مقهقهة، قلت له:

- سيدي الأنفال اسم مبارك، اعدرنني، إنها اسم للسورة الثامنة في القرآن الكريم.
أجاب بفضاظة وبتقزز:

- أنتم الأكراد كالفرس مجوس، عبدة أوثان..

فقرأت الشهادة أمامه وأعقبتها بالحوقة، وبعدها بالحسيلة، أي حسبي الله ونعم الوكيل، وقبل أن أكمل قاطعني قائلاً:

- هل تدعو الله علي؟ أنت تتأفف هكذ مني؟ حقك كردي لا يعرف عربي.

لفظ هذا ثم سددها بكلمة بقبضة من حديد على عيني الصحيحة فصرت لا أرى شيئاً.

متحسراً ميؤوساً رفعت رأسي إلى الكوة وناجيت دادة: آخ دادة هل علمت بأنني كنت في طريقى إليك؟ كنت راجعاً لأسعدك ومنعوني كي أكون سبباً لتعاستك، حزني لها أنساني ألمي وحسرتي على نفسي، إنها ستنتظر، ستنتظر إلى آخر الزمان، لا أدري كيف تمكن هذا الخالق الرحيم من وضع كل هذه القساوة في كتلة من لحم ودم وعظم، كنت أخاف إلى ذلك اليوم من الذئاب في رحلاتنا الليلية في الصحراء، والآن أرى أن لهؤلاء الرفاق فضل واحد فقط وهو أنهم قضوا على كل خوف في نفسي، عدا الخوف من كائن واحد اسمه إنسان، الوداع دادة لقد وقع ابنك بين فكي قرش.

بعد أيام جاء أحدهم، كان شاباً له عيون الشياطين ليقراً قرار لمجلس محكمة الثورة، فسألته:

- وهل جرت محاكمتي؟

أجاب بلا تردد:

- نعم؛ على خط الحدود.

تقرر سجنى لمدة ٢٠ عام، كان الحكم أصلاً إعدام، تم تخفيفه لأنني مدني لا عسكري.

هنا نظر عدنان إلى كاتي بعيون مغمية بالهموم:

- كاتي يا صديقة طفولتي العزيزة وأعز إنسان لي بعد فقدانى لأهلي؛ لا أزال أتساءل بالحاح: هل أنا حي؟ لا أعتقد أبداً، أنا شبح، فلك كل الحق أن تخافي مني، أنا أخاف من روعي التي خرجت من جسدي لتجوب بحثاً عن دماء من أراق دمي ومصّ دم أمي.

عاد إلى القصة بعد أن بلل شفتيه بحافة كأس الماء:

- خلاصة القول مرّ عامان، خففت العقوبة ٥ سنوات، قال المسؤول عن السجن إنه مكرمة ومكافأة من السيد القائد بمناسبة عيد ميلاده، توسلت يوماً من حارس إرسال رسالة لزوجتي وقلت له ترى إنني مسلم واقراً القرآن ليل نهار، أشفق علي، بكى

لي وقال لي إنه يتلقى الأوامر فقط ولا يجوز لك إرسال رسائل، عندهم أنت محكوم بالإعدام أي لست موجودًا.

وجاء رفيق وكررت التماسي فقال لي مستهزئًا:

- هل هناك شهيد يكتب ويبعث برسائل إلى أهله؟

قلت:

- ها أنت تراني أنا حي.

فاستشاط غضبًا وجعل يصرخ:

- زمال "حمار"، أمّا تدري أنت ميت عندهم، أنت حي عند نفسك فقط.

تجمدت الدماء في بدني وبيس حلقي وتساءلت بعد أن هدا غضبه كيف حصل ذلك؟

قال من وراء القضبان:

- أعلننا عندهم رسميًا أنك شهيد.

وجعل يضحك وينظر بمتعة إلى بطنه المترهل المهتز، ثم أردف:

- وعادت جثتك إليهم منهوشًا مفرومًا كالشاورمة، أنت الآن ترقد تحت التراب في

مقبرتهم.

تحركت أرضية الإسمنت من تحتي وأنا أجتزّ الكلمات بصعوبة فتساءلت:

- أرجوك قل لي هل والديّ على قيد الحياة؟

وهو بدوره أفاد أنه لا يعلم وأنه يتلقى الأوامر.

صعدت كاتي زفرة حارة وأمسكت برأسها بين يديها تنظر إلى الأرض بجمود، ثم

رفعت رأسها وتركت عينيها تستقران على عيني اليسوع الطفل اللامعنين في

حضان أمه، ثم قالت بصوت متقطع النبرات:

- يبدو لي أنهم كانوا يعلنون لهذا الطرف أنه شهيد ولذلك الطرف أنه حكم عليه

بالإعدام تنكيلاً مضاعفًا لكلا الجانبين.

- كان كذلك.

أكد عدنان، ثم وبعد لحظة تفكر:

- قال لي أحدهم وكان يتمتع كثيرًا بتعذيبي، كان دائم الحضور ليلاً، لقد قتلنا أبيك

رميًا بالرصاص أمام عيون والدتك.

سمع أنيئاً فسكت والتفت إليها فرآها تمسح بمنديل أبيض دموعين انحدرتا على وجنتيها، ثم نقل بصره إلى الفانوس المثبت بمسمار على الحائط أمامه بلهبه الأحمر الضئيل، فقال بعد أن شرب جرعة ماء:

- حين أخبرتني هذه المرأة القروية أعني ساكني بيتنا القديم أن أمي ماتت قبل أشهر لم يكن حزني لموتها بأقل من حزني لانتظارها كل هذه السنين، منذ أن سمعت رواية رمي أبي انتابني رعب شديد لازمني طوال السنين المتبقية من حياتي في السجن، صورة إعدام بابا ويدها مقيدتان من الخلف، ومشهد دادة وهي تجبر على النظر وإلا لرميت هي كذلك، ودوي الرصاص الخارق لجسد بابا ومشهد دادة وهي تجر شعرها ويدان خشتان تطبقان على فمها لمنعها من الصراخ.. وارتطام جسد بابا الهزيل على الرصيف مضرجاً بدمه، كل ذلك كان عذاباً فوق كل عذاب، دادة تركض إليه لتحضنه وفرقة الإعدام تصوب سلاحها إليها: تراجعني وإلا....

ومضت السنين وحسنت السنين الخمسة من العدد الإجمالي الكلي للحكم في كل عيد ميلاد للرئيس، حتى جاء اليوم الذي جاء ضابط مهيب وبلغنا بقرار الإفراج، قائلاً: هذه مكربة أخرى من الرفيق القائد حفظه الله، أعطوني بعض المال وبعض الماء وكيس من الأرزاق الجافة، وحملتني سيارة أمن مدني إلى الجراج، ولدى خروجي من السيارة في شركة النقلات العامة أطل شاب أسمر بوجهه من نافذة السيارة قائلاً مستهزئاً: اذهب وزر أهلك في المقبرة، ركبت باص صغير من نوع مرسيدس تورن زرقاء وهي التي أوصلتني إلى مدينتي، وأول وصولي اشتريت ملابس كردية من السوق الشعبي، كانت رثة بالية إذ لم أعثر على سواها، وكانت في كل الأحوال أفضل من التي كنت أرتديها بعد وصولي.

سكت عدنان هنا عن الكلام وقد داهمه التعب والإرهاق، نظرت كاتي إليه بإشفاق بئس، وقالت بعد تنهيدة:

- وأنا أسمع قصتك أكاد أجزم أن الوحوش قد تكون أرحم من البشر.

ثم وهي ترمقه بنظرات مزيجة من الإشفاق والإعجاب:

- قرأت كثيراً في أيام عزلتي والفراغ في إحدى الرويات بعنوان الشيخ والبحر، ما معناه: أن الإنسان قد يمكن تحطيمه ولكن لا يمكن هزيمته، وهذا الشيخ أراه في شخصك الآن.

لم ينبس عدنان، وبدلاً من ذلك وضع رأسه بين ركبتيه يتأمل الأرض بشروء ونظرة كئيبة تشع من عينيه الشهلأوين، وعندما رفع عينيه شاهد كاتي وقد تفرقت الدموع في عينيهما الصافيتين السوداوين اللتين شابتهم حمرة التأثر والكد.

من خلال النافذة هبت نسيمات باردة من الجبل رفرفت لها ذؤابة الفانوس واللهب المرتعش في صندوقها الزجاجي، كانت ليلة من أشد الليالي لكاترين، من تقاسيم وجهها المنقبضة أدرك عدنان مدى حزنها وتأثرها بأحداث قصته الدرامية الحقيقية، شعرت بإرهاق عصبي فأملت برأسها إلى أسفل واتكأت بمرفيقها على ركبتيها، فتدلى شعرها البراق كالخيوط متفرقة في الفسحة بين ذراعيها الناصعتين، ساد صمت القبور على الغرفة التي كانت يوماً مرتع الأخوين وجنة دادة التي اعتادت كل صباح أن تقف وراء النافذة تمتع عينيهما بجمال الطبيعة الساحرة، وخاصة حين كان الراعي يسرح قطعانه في مرعى المطران وثغاء الأغنام يملأ المكان.

لم يقطع الصمت إلا تنهيدة طويلة من كاتي التي اعتدلت من مجلسها وجعلت تنظر إلى عدنان الذي كان في انتظار ما يؤول إليه صمتها، فنطقت أخيراً بصوت أشبه بالهمس:

- كأني في حلم، ومن يقل إن دادة ماتت يا عدنان إنها إذن قتلت، قتلها البعث، وما الفرق بين القتل بالرصاص أو بالحزن، ولعل الصنف الأول أرحم.

ثم وهي تنظر بوجه يبعث على الرثاء:

- لو رأيت جسدها على فراش الموت واللطخ الزرقاء والبنفسجية المنتشرة عليه، لو رأيت ذلك يا عدنان لكان عناؤك أقل من عنائي، سمعت صوتها بصعوبة حين كانت تتكلم مع نفسها بعيون مغمضة كمن جاءتها سكرة الموت، لم تتكلم دادة وإذا ما تملكيت كنت أنت الموضوع والمقصود بالكلام، كانت في زيارتي اسمعها دائماً تذكر اليوم المنكر الذي طبع حياتها بطابع من الحزن لم يفارقها، والذي ابيض له شعرها كله، صياحها الأبح يرن في أذني وأنا أنظر إليك الآن أمامي بلحمك ودمك: "عدنان روح أمي أنا أراك في ظلام فعد، أنا بانتظارك فأرني وجهك، عد أريد أن ألقى نظرة عليك كي أموت براحة"، قالت لي أم عاشور إنها ظلت تلبس السواد إلى آخر أيامها، ولم تذق للفرح طعماً، ولم تضحك إلا بكثيرة ضحكها، ولم تنم حتى أراقت بعض الدموع، ولم تفق من نومها حتى أراقت دموع أخرى.

سكنت كاترين تسترد أنفاسها ونقلت ببصرها بثبات إلى صورة دادة الموناليزا، فقال عدنان:

- كنت أعد الدقائق للعودة بعد قرار التخفيف، سها.. كنت أحلم باليوم الذي يجمعني معها من جديد، أتفحص صورة آسو الطفل مليًا: عينيه الواسعتين وأنفه الطويل الدقيق وفمه الصغير الرقيق وشعره الأملس الفاحم، وأقدر وأحزر وأعمل عقلي وأسأل نفسي كيف سيبدو عندما ألتقيه، الصورة الآن واضحة أمامي دون أن أراه، داهمتني فكرة عند سماعي الخبر من المرأة القروية صاحبة دارنا القديمة أن أركض في الشوارع وأنادي صارخًا: أنا الشهيد عدنان، أنا عدت، لست ميتًا، أخي فهاد أنا حي أعد لي زوجتي، ولكن تراجعت عن ذلك في آخر لحظة، قلت كلا، وماذا سأجني من وراء ذلك غير العناء والخيبة، مجرد التفكير بالإعلان عن نفسي كان يعني لي شيئًا واحدًا وهو: ماء راكد أزرق صاف في بقعة خضراء، وأنا آتي وألقي حجرًا فيه كي أقلقه وأعكره دون نفع أو فائدة، فأكون قد هدمت إذ أردت إصلاحًا.

نهض متكئ على العصا بعد أن استأذن من كاتي وجعل ينظر في الشباك من خلال شق إلى الظلام الدامس، رفع طاقيّة رأسه إلى الورا بعد أن مالت على الجبين، ثم عاد وجلس في موضعه ماديًا قدميه أمامه على الأرض، وشدّ زرًّا في قميصه بعدها أحس بنسمة باردة تتخلل شعرات صدره، بدا وجهه بلحيته القصيرة وشاربه أكثر لياقة، وفي وسط شحوب وجهه ومض بريق بلمعان ضئيل.

وما ملكت كاتي إلا أن تنصت لنجواه، وكان ذلك خير بلسم لجراحها هي كذلك:

- القبر مسكني، أتوق للعودة إليه، يضمّني جدرانه ويضيق علي، وفعلًا فأنا في القبر.. لا، ومن قال أنا خارج منه.. مرّقي في مقبرة الأفندي في الضاحية الجنوبية من المدينة وعلى شاهد قبري نقش محفور لا يمحي؛ عدنان عمر أفندي الشهيد والمأسوف على شبابه.

صعد تنهيدة حارة استحال معها صوته حسيًّا ضئيلاً لكن قويًّا:

- بيتي، طفلي، أمي، أبي كل شيء، راح من يدي، ذهب بلا عودة، لا وجه طفل يبتسم لي أو ضحكة عذبة تداعبني ولا يديّ زوجة تقبض على يدي تشدها وتسحبني إلى فوق وتهمس لي: حان وقت الصعود إلى غرفتنا، ثم لتغرقتي بالقبل والكلمات

المعاناة المعبرة عن حب وحرص: "لقد اشتقت إليك ما أطل غيبتك هذه المرة وكل مرة".

قام بتناقل ومضى مرة أخرى إلى النافذة ثم عاد يجلس على كرسي وجهًا لوجه معها وواصل بمرارة شكواه للزمن العابت:

- كانت الحياة تلك مع الأمل مع قساوتها يسيرة بالقياس مع هذه الحياة من غير أمل، الهوة التي تفصل بيني وبينها أعمق من الزمن، فقد كنت أعالج الزمن بجرات من الصبر والرجاء والأمل، ولكنني اليوم أراني وكأني أقاتل عدوًا غير مرئي، فليس أمامي إلا الصمت والتعاسة حتى يقضي الله أمره المحتوم.

وفي غمرة الهموم سحبت كاتي كرسيها إليه حتى لمست ركبته ركبته، فسحبها بكل هدوء إلى الوراء، نظرت في عمق عينيه وقالت بصوت ملائكي تريد تسليته والرفع من معنوياته:

- صدقتي، أنت ارتفعت درجات في عيني هذه الليلة عدنان.

غض عدنان من طرفه وقال بصوت مرتعش:

- من كل قلبي أقدرك وأعزك، بل أعتبرك الوحيدة الذي تبقى لي في كل هذه الدنيا.

قامت ووقفت بجانبه تربت على كتفه برفق:

- نم الآن؛ ما زالت الحياة مليئة بالأمل، وسنرى.

مضت إلى غرفتها ومن هناك ترامى إليها صوت عدنان يتلو من الآيات التي كانت له خير عزاء وبمثابة دواء في السجن، الآيات كانت له بمثابة طبيب أعصاب استعان به والده من قبل:

(اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا^ط وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ).

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ^ط وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ).

نام عدنان ليلته تلك بعمق، فالقصة التي قصها على كاترين أنهكته، وفي نفس الوقت أراحته، كأنما طرح كل ما تجمع من فضلات النفس خلال سنين عجاف في مدى ساعتين قضاها في سرد ملحتمه.

أفاق في الصباح على صوت كاترين تدعوه للإفطار، وضعت له البيض الطازج من دجاجاتها مع لبن النعجة الصافي، ونان خبز رفاق تخبز سونيا منها كمية كافية تكفي لشهر، فهذا الخبز يابس غير قابل للتلف بسرعة ويرش قبل الأكل كي يلين، وقد استيقظت كعادتها مبكرًا في صباح يوم رائع بنسيمه المنعش تارة؛ وهبات رياحه القادمة من الجبل تارة أخرى، ليخفف حرارة الشمس التي ارتفعت بسرعة، جلسا في غرفة الجلوس التي استحالت غرفة استراحة ونوم لعدنان منذ وصوله قبل أيام.

بعد أن وضعت كل شيء دعتَه إلى المائدة الصغيرة في وسط الغرفة، وقد ارتدت ملابس العمل؛ تنورة طويلة بيضاء وقميص أزرق فاتح بسيط، وعقدت شعرها من الخلف على شكل ما يسمى ذيل الحصان، وتركته مكشوفًا هكذا، وما جلب نظره كان حذاؤها الوردية اللامع الصغير الحجم، بدت حقًا كعروسة الحفل، جلسا وجهًا لوجه على كرسيين خشبيين وهو ما زال في منامته النظيفة، فقالت له وهي تصب الشاي له بمرح:

- الآن عدت شابًا رائعًا ولا داعي حتى لوضع الطاقية، وشعرك طويل أنيق فيه شيء من الشيب المبكر وهذا نتيجة الآلام والنكسات.

نظر إليها دون أن ينبس ثم مد يده إلى بيضة فأخذ يقشرها ويضعها في كسرة خبز، وجعل يلتهمه ببطء وقد وشت ملامحه بضيق وتوتر، خفضت عينيها لتستقران على خاتم زواجه الذهبي اللامع وتساءلت في محاولة للتغيير:

- أتعجب كيف استطعت قص شعرك بنفسك، أرى طول شعرك مناسب الآن.

وضع كوب الشاي على المنضدة وقال وعيناه شاخصتان على الطبيعة الجميلة، والفراشات المرفرفة بأجنحتها من وراء النافذة، والطيور التي تحوم كالسمك في

السماء الزرقاء فوق الفضاء الفاصل بين البيت ومرعى المطران، فقال دون أن يلتفت إليها:

- نعم، تعلمت أحلق شعري بنفسي في الأسر.

أخذ يربت على خصلات منه براحة يده ويعيد ما انحسر عن جبينه، صبت لنفسها نصف قدح حليب ساخن ومثله لعدنان، وملأت النصف الآخر بالشاي الأسود، وبعد أن ارتشفت جرعة طويلة قالت لعدنان بنبرة اعتذار:

- لا أدري هل يروقك العمل؟ أنا لا أزال مترددة، فلا أعتقد أن وجودك معي هنا له ضرر.

- وكلام الناس؟

تساءل عدنان مستطلعاً، فحركت يدها ما يدل على قلة اكتراث وقالت:

- الناس الآن كل في شغل شاغل، ليسوا كما كانوا في ذلك اليوم الذي عدت إلى هنا ببطن منفوخ، هه..

توقفت إذ جاءت بها فكرة، فقالت مشيرة إلى البيوت البعيدة المتراصفة فوق المرتفعات الصخرية وراء مرعى المطران:

- ذكرت هناك دار سونيا وأنت حارس فيه، فلو أردت فلك الإقامة هناك كما تقوم هي بالعناية وحراسة الدار هناك في المدينة، وليس في الأمر عجب، فكل الناس تفعل كذا في هذا الزمن من الحصار خوفاً من اللصوص، لك أن تختار بين حراسة البيت أو المستشفى.

فقال عدنان مندهشاً:

- أكانت البناية بلا حارس حتى الآن؟

- كلا، نفت كاتي، كان هناك حارس ليلي ولكنه قدم استقالته قبل قدومك بأيام، فعينا أحد آخر مكانه بصورة مؤقتة، وبأجور يومية لحين إيجاد حارس آخر.

نقلت عينها إلى الركن البعيد من الغرفة وأردفت بعد أن ارتشفت جرعة صغيرة من الحليب:

- في الثمانينات أخرست الحرب الأسماع وشحذت العيون، والآن في التسعينات شحذ الحصار الآذان وأعمت العيون، فالعيون اليوم لا ترى سوى القمح والزيت والشاي والسكر والنفط...

هز عدنان رأسه أسفاً وقال وهو يمضغ البيض ببطء:
- ربما الحراسة هنا تدر علي شيء من الموارد، فلم لا أجربها.
- حسناً.

أومأت كاتي وشرعت بجمع الصحون ولكن عدنان أشار إليها أن تكف عن ذلك وتدع الأمر له، ابتسمت كاتي ابتسامة رضا وانطلقت مسرعة إلى الخارج.

لم يستلم وظيفته كحارس ولا قام بأي عمل آخر لأن صحته أخذت بالتدهور بعد التحسن الضئيل الخادع، ارتاعت كاتي للأمر إذ نزل وزنه إلى حد مخيف وبسرعة، خلال أيام عدة بدا كهيكل عظمي، طار من وجهه أي أثر للحياة، تقعر خداه واندفعا أكثر إلى الداخل؛ الأمر الذي أدى إلى بروز فمه إلى الخارج، بالإضافة إلى ذلك ظهرت أو بالأحرى عادت إليه آلام المعدة واشتدت عليه آلام الظهر والفقرات، اندهشت كاتي جداً لهذا التطور الفجائي، وبعد أن كانت صحته قد تحسنت قليلاً، فرأت أن كل هذه الأعراض كانت متعششة في بدنه طوال الوقت ولكنها اكتست بغلالة التحسن الخادع الآني بعد تحسن الظروف البيئية والمعيشية لديه، ولكنها كانت كأي غشاء قابلة للعطب السريع فعادت وهاجمت وبأشد ضراوة.

ارتأت كاتي عرضه على الطبيب فلم يجدا خيراً من الدكتور إيشايا، فأخذته إلى عيادة الطبيب في وسط المدينة المزدحمة، فإذا هي تفاجأ بأن الطبيب قد هرب إلى الخارج، هرب خوفاً، السكرتير أخبرهم بل أفشى لهم سرّاً غريباً وكان يعرف كاتي تمام المعرفة وحكى قصته، إنه لم يعد يدعى د. إيشايا بل دكتور فاليوم، شن زملائه الأطباء الفاشلون وما أكثرهم حرب أعصاب مقبلة ضده، إذ رأوا نجمه يعلو ويسطع ويزداد شهرة وشعبية يوماً بعد يوم.

أزعجوه، ضجروه أهانوه وحاربوه بشتى الوسائل، حتى أنهم كلفوا أشخاصاً بقذف جردان من ثقب مكيفة الهواء إلى داخل عيادته ليرو عوا المرضى، وكى يقال إن عيادته تنقصها النظافة، واتهموه بالإهمال المتعمد وجاءوا ببينة وشهود، كلفوا أحد

المرضين بتحرير وصفة وبتوقيع د. إيشايا كتب عليها دواء غير الدواء الذي كتبه له هو، فمات المريض؛ فمدوا أصابع الاتهام إليه، وهكذا وجهوا ضربة قاصمة إلى سمعته، ومن ثم سُرقت سيارته من قبل مجهولين، كل ذلك ترك أبلغ الأثر عليه ومن شدة القلق والخوف والحزن اعتاد أن يتناول قرص أو قرصين فاليوم - ديازيبام - كلما اشتد به الخوف والقلق، فأطلقوا عليه مستهزئين تسمية دكتور فاليوم كي يوهموا الناس أنه مدمن مهدئات لا يعي ماذا يكتب من دواء لهم، وأخيراً لم يجد من الفرار والرحيل عن البلد بُدّاً، وكان مع صلة وثيقة بفرهاد عمر أفندي اعتبره صديقه الذي دافع عنه بلسانه وقلمه أينما حل، وهو نفسه عرقه على مهرب ممتاز وأمين لتسهيل أمور سفره سرّاً، وقبل أن يرحل هو بنفسه بأيام قلائل.

فاضطرت كاتي عرضه على طبيب آخر عرفته أقل خبرة وإنسانية عن السالف ولكنه كان رغم ذلك أفضلهم، فتقّة كاتي رغم كونها ممرضة تضاءلت بالأطباء منذ بدأ الحصار، علقت عليهم أينما سارت وانتقدتهم بقولها المتكرر: "إنهم ينظرون إلى محفظة المريض قبل النظر إلى أجسادهم، ويقدر ما تجود بها محفظتهم وجودون هم بالعلاج والفحوصات، ومعظمهم فقدوا الروح الإنسانية فداء لأطماعهم وشرهم".

جرت لعدنان عدة فحوص مختبرية عادا بعدها بالأدوية إلى البيت بعد رحلة مرهقة في الحر، والخبر المحزن المخزي والمؤلم، كاترين جاشت عاطفتها من جديد في شخص هذا المنكود، واكتشفت فجأة أنها نفسها تناضل من أجل الحياة في خندق واحد مع هذا الشخص الذي رماه القدر إليها، هذا الإنسان شبه الميت، أحست في لحظة من الزمن العائر أن كلاهما سُلِب منه حبيبه في غمرة أحداث وقعت خارج إرادتهما ورغبتهما، وبأن كليهما يعانيان من فراغ عاطفي كبير، فنشأت بينهما ورغماً عنهما علاقة بطيئة غير واضحة المعالم، لقد كسر الزمان كأسيهما فهل يعاد لهما سبك؟ عسى ولعل ولنرى.

استغرق مرضه أسبوعاً كاملاً، وصادف تماثله للشفاء يوم الجمعة حيث العطلة الأسبوعية، أجلسته على الحشية فوق اللبادة تحت النافذة حيث النسمة وحيث صورة دادة مونايزا في مرمى البصر، وجلست بجانبه على الأرض في فستان أبيض خفيف، فبدت كالفراشة حسناً وبهاء.

ومن محاولة منها لمؤانسته أعدت له مفاجأة، نهضت وقامت إلى الحائط ووقفت تحت صورة الموناليزا وسألته بمكر:

- تعتقد صورة من تكون هذه؟

قبض عدنان على عصا فرهاد وحاول أن يقف وهب بالتقرب فحالت دون ذلك قائلة:

- ابق مكانك واحزر.

ومن مكانه ضيق عينيه وتأمل الصورة ملياً، فقال وهو يحرك رأسه يمنة ويسرة كمن يصوب على هدف بعينه:

- لا أعرف - ثم تدارك- هه... هذه الصورة ليست غريبة، إنها موناليزا ولكن...

تمعن النظر فيها مرة أخرى مغمغماً:

- ولكن ليست صورة طبق الأصل هناك اختلاف مع الأصل.

فأشارت إليه أن يقترب ففعل، تفحصها بدقة، وما أسرع ما اكتشف حقيقة اللعبة، انبهر تماماً وهتف:

- إنها دادة جميلة، كانت رحمها الله قريبة الشبه منها، أحياناً كنت أرى هذه الصور

على الجدران وأشعر تجاهها بتعلق ومودة غريبين، ولكن كيف تم لك ذلك؟

أشارت إليه أن ينظر من جديد، ففعل عينيه منها مرة أخرى، وشرع في عد الفرق

بين ملامح دادة في ذاكرته وبين موناليزا الصورة، وبعد دقيقة قدم جوابه:

- أعتقد أنها كانت بالأصل صورة فوتوغرافية لدادة فعملت فيها بعض الديكورات في الوجه والملابس حتى ظهرت بهذه الصورة، إنها حقاً فن يقدر.

ثم وهو يضحك بفتور:

- لأول مرة أرى موناليزا بالملابس الكردية.

ضحكت ضحكة عذبة، وعادا إلى الجلوس بجانب بعضهما تفصل بينهما وسادة

مزدانة بالنقوش والزهور، فقالت بعد أن شخصت بصرها على الصورة:

- إن لها قصة، الصورة أوصى فرهاد عمتي قبل سفره إهدائه إليّ وأنها لم تكن بهذا

الحجم، وبجانب هذه فقد ترك أخوك جل ملابس أسو لنبيل وصور كثيرة أخرى

وترك كل ذلك في شقة عمتي.

سحب عدنان لسماعه اسم ابنه نفساً طويلاً فقال معقّباً:
- لا شك أن هذه الملابس لا تزال تنبعث منها رائحة أسو.

لم تعلق كاتي على كلامه تحاشياً لإثارة عواطفه من جديد فأعادته إلى الصور:
- الصورة هذه كما ترى، فأنا مثلك لاحظت الشبه بينهما، فراودتني فكرة، فذهبت مع الصورة بالفكرة إلى مصور حاذق في المدينة عند زيارتي الأولى لدادة في المستشفى فأعاد تصويرها وكبرها وعمل الرتوش في وجهها وعينيهما مستعياً برسم موناليزا التي اقتطعه من مجلة كما قال لي، انظر هل بإمكانك ما وجه الشبه والاختلاف بين دادة وموناليزا؟.

جعل عدنان ينظر في الزوايا المظلمة في الصورة فسرعان ما تمكن من الاكتشاف، فجعل يذكر وجه الشبه والاختلاف:
- عين دادة أصغر، لون عينيها مطابق، أنف موناليزا أقصر، فم دادة أكبر، شعر مطابق تماماً، أمّا الابتسامة فهي هي تماماً.

تغيرت أسارير عدنان بعد أن تكشفت له حقيقة الصورة، فعاد إلى مجلسه بهدوء وعلى وجهه قطوب وإمارات حزن بادية، لاحظ كاتي ذلك فراحت جلست بقربه تضع يداً على كتفه تربته برفق، زفر عدنان زفرة حارقة وأغمض عينيه لحظات ثم فتحهما مصوباً عينيه على الصورة وتحدث بصوت كالهمس:

- تحولت دادة إلى صورة غير ناطقة فعلاً.

بغثة تذكرت كاتي شيئاً فمضت إلى غرفتها ثم عادت باليوم منتفخ، وضعها على الأرض أمامها وقال لعدنان:

- أمّا هذه فصور ناطقة، أردت ألا أريك إياها لكن الواجب والأمانة اقتضيا ذلك، أنا أرى في الصور أفواه تتكلم، فالصورة عندي جماد ناطق، ناطق لكن تحكي قصصاً صماء، كل أب يرغب حتماً في رؤية صورة أسرته إذا كانوا بعيدين عنه، أأست من هذا النوع؟

أوماً عدنان إيجاباً دون أن ينبس، فواصلت كاتي:

- أن ترى ابنك في الصورة ما دمت لم تتمكن من رؤيته حقيقة، هنا صور تعود إلى عهد الزواج، انظر إلى هذه، لأرى ماذا قالت لك الصور.

ناولته صور ثلاثة وقد أعدت العدة لما تقابل من رد فعل عدنان، الذي أخذ ينظر إليها بقلق وتوتر وارتباك وفضول بالغ، ففي الصورة الأولى وجد نفسه وجهًا لوجه مع سها في ليلة زفافها إلى فرهاد، بعينيها الغائرتين وملابسها السوداء وملامحها الكئيبة وهزالها الشديد، فأملت كاتي رأسها إليه كي تقدم شرحها وتفسيرها للحدث إن اقتضى الأمر.

قدر وهو يتفحص الصورة أن المسافة بين العريس والعروس لا تقل عن متر واحد، وهناك بدا فرهاد نحيفًا هزيلًا كالمريض ينظر إلى بعيد في بدلته السوداء ورأسه الذي زال من مقدمته شعر كثير، والثانية فرهاد مع سها كلاهما في سواد وآسو يمسك بيد أمه ولا وجود لرابع، والثالثة للأربعة معًا وهنا تجمدت الابتسامة من على وجه عدنان، لمجرد أنه لمح زوجته السابقة تحتضن عدنان الابن وعلى بعد مترين يقف فرهاد وهو يمسك بيد آسو الذي قدر سنه بست سنوات.

وضع الصور على الأرض وظل برهة يتأملها، وعندما رفع رأسه رأت كاترين أن عيناه مغرورتين بالدموع، ظل يبكي لثوان بصمت ثم جفف دموعه بمنديل نظيف قدمته له كاترين، ثم استوى ومال برأسه إلى الصور والتقط منها صورة بذاتها، جعل يتفحصها من جديد، مالت كاتي بعنقها لترى الصورة، رأت عيناه استقرتا على ابنه، يتأمل ملامحه الدقيقة ويتفرس في نظراته الشاردة وشعره الأجعد الأشعث وقامته النحيفة وسمرته المليحة، ولسان حاله يقول: هذه الصورة رسمتها في خيالي قبل العودة من الدنيا الفانية، عندما كنت أعلق أمامي صورته في السيارة وفي الزنزانة الجماعية والانفرادية، فيزداد إصراري بالحياة ولولاه لفارقت الحياة.

وفي غمرة جيشان عواطفه تراخت يده فوقعت الصورة على الأرض، فالتقطتها كاتي وهي تضع يدًا على كتف عدنان المهتز بالنشيج والنحيب، وباليدي الأخرى التقطت الألبوم لتعيد الصور إليه، فوقع من داخله ورقة مطوية من الحجم الكبير، التقطت الورقة بقلب خافق وبسطتها على الأرض فإذا هي رسالة فرهاد، عرفت من خط يده، وتذكرت أنها كانت آخر رسالة منه إليها، أرسلها بيد سونيا مع الصور. وفي الليل بعدما هدأت نفس عدنان الكئيبة الخائبة وروحه المتعذبة؛ مضت إليه وهو راقد على ظهره، سحبت كرسيًا وجلست بجواره تداري كمدته وكربته بشيء من

الحرارة التي يمكن تسميتها بدفع الروح المعذبة، تمنحها روح معذبة إلى روح معذبة، وبكل هدوء قربت رأسها من أذنه وهمست فيه:
- لك عندي رسالة تهدئ من أعصابك المتعبة فهل لك رغبة في الاطلاع عليها؟.

رفع عدنان رأسه وتناول الرسالة التي كتبت بخط يد أخيه قبل أن يرحل والذي امتاز بجودته وجماله، ألقى على الكلمات نظرة ماسحة خاطفة، أدركت كاتي من قسماات وجهه المنقبض أنه لم يكن مستعدًا لقراءتها واستيعابها، فتناولتها منه وقالت بعد أن استوت على كرسيها الخشبي مستطلعة:

- أظن أن نؤجل القراءة إلى الغد؛ ماذا ترى؟

رماها بنظرة خاطفة ثم جعل عينيه تستقران على وجه دادة، وبإشارة من يده أعلن أنه لا يطيق الانتظار، وبعينه نطق بالرجاء، فهل خيبت كاتي أبدًا الراجي؟ قربت الرسالة من عينيها فاهتزت الأساور الثلاثة المحيطة بمعصمها بالحركة الاهتزازية، وشرعت تقرأ الرسالة تحت ضوء خافت:

(عزيزتي كاترين الغالية، أرجو أن تكون بخير

أما بعد..

فأنا أتوق إليك وإلى ابني نبيل، أشتاق إليكم جدًا جدًا

أرجو أن تكون على عهدك وتحافظي على ابننا الوحيد، كما أنا محافظ على أمانة المرحوم أخي، كتبت هذه الرسالة كي أخبرك أنني اضطررت للرحيل إلى الخارج، الحرية والأمان مبتغاي فلا حياة لي هنا، بل لا حياة لا للفقير ولا للغني، فالفقير آمن من اللصوص ولكنه ليس بمأمن من عضة الجوع، والغني آمن ذئب الجوع ولكنه هدف مفتوح مباشر للصوص، فالفقير حاله أفضل بتقديري، فعلى الأقل يستطيع أن ينام قريير العين، هدف من الرحلة لا أعلم بالضبط إمّا إلى بريطانيا أو هولندا.

حبيبتي الدائمة: الحياة أصبحت لا تطاق، هناك دوافع شتى لرحيلي وهجر بلدي الجميل، تعلمين بعض وتجهلين بعض، وفي مقدمة هذه الأسباب؛ الخطر، الخوف أقوى من كل دافع بل سيد الدوافع، لا أظنك عرفت ما حصل لي أخيرًا، لقد سرقت سيارتي، كنت في طريق العودة من المدينة في أحد الليالي إذ اعترضني رجلان ملثمان، هددني أحدهما أن أسلمه مفتاح السيارة، والآخر وضع ماسورة مسدسه على صدغي، يا لحسن حظهم وقعوا على صيد سهل، وأنت ترين قتل إنسان أهون

من شرب الماء الآن، لا أنا ولا سها نشعر بأمان، أمّا سها فخوفها مزدوج؛ من أن تقع في يد أمها إذا ما حصل لي شيء تقول لي: "ماذا لو حصل لك مكروه لا سمح الله، فسأبقى وحيدة، لا أدري لماذا أُمي فظة غليظة هكذا معي، ووالدي الطبيب مريض جدًا على عتبة الموت، والأقرباء كل مهتم بحاله في زمن القحط والكساد والموت الأصفر"، ولها بالإضافة إلى ذلك مخاوفها الخاصة بها، وهي أنها قد لا تستطيع الانسجام مع حياة الأوربيين، فهي في الحقيقة لا ترغب في الاستقرار في الخارج، وتقول إن بقائها مرهون ببقاء أمها فلن تعود إلى الوطن ما دامت هي حية، فهي إذن ليست متحمسة مضطرة.

واعلمي يا كاتي أنا لم أخبرك بكل تفاصيل ما جرى بعد استشهاد أخي وبعد اختفائك، حقائق لا تزال مخفية عنك لأسباب تقنية محضة، أي ليست هناك أزمة ثقة بيننا البتة.. والأهم من كل ذلك أنني لن أتخلى عنك فأنت حبي الأول والأخير فتألمي، وما يزيد حبي لسها حبها للمرحوم، أنزل في الليل منتصفه ساهراً أكتب في غرفتي فوق فأراها وبعد مضي كل هذا السنين منحنية أمام صورته التي علقتها بجانب صورة المرحوم أخيها في الهول - غرفة الجلوس- تقرأ القرآن بخشوع وتبكي وترفع يديها متضرعة إلى الباري أن يرحمه ويدخله فسيح جناته، ويرحمها هي كذلك ويغفر لها، فقد تكون قد أساءت إليه يوماً ما في غمرة غضبها أو سخطها، إنها فوق ذلك لم تخلع السواد يوماً ولا حضرت حفلاً ولا ذاقت حلاوة الحياة، وحرمت عليها حتى الملابس الجديدة واكتفت بارتداء القديمة وبعضها متهراة، وظلت وفية له ولابنهما تحميه وتدافع عنه بروحها، وحرمت على نفسها الزواج، أمّا زواجي منها فشكلي، أي كما ذكرت في الرسالة السابقة؛ مجرد حبر على ورق، فأنا لا أزال على العهد الذي قطعته على نفسي بحضور دادة وسها، أتدري أن حياتي صعبة لكن كل شيء يهون ما دام يصب في قالب خدمة أخي رحمه الله.

لي عندك رجاء؛ أشعر برغبة عارمة في لقائكما معاً فأين ترين المكان المناسب للالتقاء؟ وقبل هذا أتساءل هل أنت مستعدة لتلبية هذا الرجاء؟ وخاصة أن هناك موضوعاً شخصياً أريد إطلاعك عليه.

لا أدري ما أنا بالنسبة إليه، ابننا، وهذا ما يقض مضجعي بل يقوض أحياناً الرغبة الكامنة في اللقاء، حبذا لو عرفت ماذا عرف عني؟ هل يعرف أن هناك رجل اسمه

فرهاد عمر أفندي؟ أبوه هو من ذريته أم لا يعرف شيء من هذا القبيل.. واحسرتاه، ولو عرف فهل له فكرة أين يعيش أو أين ذهب؟ أسئلة يحтар لها حتمًا دماغه الصغير، قلبي يدمى له، قلبي يتفطر له، توانيت كل الوقت وخشيت من زيارتكما، خفت لو رأيته يفتق جرحي وربما أصبته هو بجرح لا يندمل ما حيا، ازدواجية الأفكار والأحاسيس تتفجر كبركان في ضميري يا كاتي، فيا ويلي من أب، من أب قاسي بلا قلب، ومهما يكن الأمر فأعود وأقول أتوق وأموت لنظرة أخيرة عليكما، وأترك لك الحرية، ثقني لا تنزعزع بك بذكائك وحكمتك وشجاعتك، بديهي أن كل أب مشتاق لابنه وله الحق في ملاقاته.

كاتي يا صديقة طفولتي وحبيبة شبابي، رغم ما سيتركه هذا على قلبي من أثر وألم وغصة؛ أقول لك لو وجدت أن في رؤيته إياي خدش لمشاعره وهو يرى أب لم يره إلا مرتين في حياته؛ فلك أن تختاري بين السماح والمنع، وحسب ما ترينه مناسبًا له.

اكتبي الرد وسلميه إلى نفس اليد التي حملت إليك الرسالة، أنا سأسافر في غضون أسبوع، فهل تأتين وحدك أو معه؟ أمل أن تأتيا معًا، أفضل اللقاء على المقبرة بعد غد أي يوم الجمعة.. وداعًا وداعًا، أخشى ألا أراك مرة ثانية، ذلك ما يحز فؤادي وينهش روحي، أمامنا طريق محفوف بالأهوال والمخاطر، إنها ليست مسألة أميال بل قارات تفصل بيننا وبين خط النهاية.

اغفري لي لو كنت أخطأت بحقك يومًا أو قصرت تجاهك أو آذيتك بكلمة أو فعل؛ فإنت قلبك أوسع مهما عظمت ذنوبي وهفواتي يا كاتي يا حياتي.

تحياتي وأمنياتي القلبية،

صديقك ومحبك الوفي أبدًا،

لن أنساك لحظة!

فرهاد عمر أفندي

كتبت في ٥ مايس ١٩٩٣

ردد عدنان الأحداث التي علقت بذهنه في داخله بعدما أتمت كاتي تلاوة الرسالة، وأفرز بعد ذلك ما يمكن تسميته عصارة الرسالة؛ خاف على نفسه وعلى سها

وأسو، سرق سيارة تيوتا كرونا، يتشوق لرؤية ابنه وحبيبته، ضرب لك موعدًا للقاء وموضعًا.

جو الغرفة أصبح مشحونًا بالعواطف الوهاجة وكل خلجات النفس المثارة، كاد المصباح أن ينطفئ حين هبت هبة هواء رطبة معبقة برائحة المرعى والزهور الصفراء المفضلة لدى دادة، تحكي حكايات أيام كان الأفندي السيد الأول ودادة السيدة الأولى في هذه البلدة، وعين دادة جميلة تبعثان بريقًا غريبًا على وجه مونايزا التي بدت في الليل وكأنها اختفت ابتسامتها في الضوء الخافت ليحل محلها وجوم، هل سمعت دادة ماذا قال ابنها البكر في الرسالة، وهل سمعت قبل الرسالة قصة ملحمة أسرهِ وعودته من الضريح؟.

ثبت عدنان عينيه بتثاقل على الصورة ثم خفضهما لتلتقي عيناه بعيني كاتي التي كانت تنتظر ماذا يتمخض عن صمته الطويل وأنفاسه العميقة المسموعة، وضع يده على خصلات تبعثرت من فوق جبينه الضيق تلملها، ثم رفع عينيه المتعبتين إليها قائلاً:

- لا أدري كيف أعبر عن مشاعري إزاء كل هذا، خاف على نفسه وعلى سها وأسو فهرب؛ حسناً فعل.. لو كنت في مكانه لفعلت نفس الشيء، ثم عبارة (زواج شكلي) ماذا يعني؟ أخال أنه كان مرهقاً عند كتابته للرسالة وله الحق، هذا أمر يخصه شاء أم أبى، وما يهمني أكثر من أي شيء هو معرفة أشياء لا تزال تقع أمام عيني في منطقة الظل.

هزت كاترين رأسها مصدقة وقالت:

- لك الحق كل الحق أن تعرف كل شيء، ولك الحق كذلك أن تتقصى الحقائق من مصادر أخرى إن لم تر روايتي كافية.

قالت كذلك ثم استوت في جلستها، أحست بالضجر من طول الجلوس هكذا على الكرسي، فقامت وجلست على الطرف الآخر من اللباد السميك، مدت رجليها تحت رداؤها الليلي الأبيض الطويل فشعنا بياضاً تحت الضوء رغم ضآلته.

وهي بدورها أخذت ترنو إلى الصورة ذاتها وكأنها مصدر إلهام لهما كليهما على حد سواء، التفتت إليه جنباً فقالت له بعد أن صعدت تنهيدة عميقة:

- أردت أن أسدل على الماضي ستاراً لا ينضح بضوء بعد كل ما حصل، وها أنا أجد نفسي مرغمة على أن أزيحها من جديد، ورغم ذلك أجد لذة غامضة في فتحها.

صمتت لحظة وتنفست بعمق ثم قالت بنبرة تبعث على التأمل:

- وتمنيت لو تبادلنا أحاديث ذاك الزمان البعيد النير الخالي من الهموم، ولكن يبدو لي أن أحاديث الزمن الماضي القريب طغى على كل شيء، فإني ألمح في عينيك بريق الشوق وومضة التوق إلى معرفة ما حدث في سبع سنوات في سبعة أيام، وشكراً للرب وفقتي على تسليم ما اعتبرته أمانة في عنقي إليك، فقد مضى الكثير وبقي القليل.

نهضت قائمة ومضت إلى داخل غرفتها وعادت بعد لحظات تحمل كيساً من النبق فوضعتة أمامه، ثم فكت العقدة الرابطة من فوق وأشارت إليه قائلة:

- الثمرة المقدسة، الإنتاج كان رائعاً هذه السنة.

استبشر عدنان لظهور النبق وأحس أنه التقى بصديق بعد فراق عقود، فتحركت يده تلقائياً إلى جوف الكيس فأخرج منه حفنة ألقاها في فمه وجعل يمضغه ويلوكه لوگاً متأنياً.

وعادت كاتي إلى أسئلة عدنان فقالت وقد نقلت وجهها إلى المصباح التي دبّ في ذؤابتها الوهن، ثم شرعت بإلقاء الضوء على الأحداث الباقية، ما عاينتها بنفسها وما وصلت إليها من أخبار عن طريق عمته وأخيراً سونيا، فقالت بعد أن ألفت حفنة من النبق في فيها:

- معاناة فرهاد كانت عديدة وقد قاسى ما لا يطيقه إنسان، منعت مقالاته من النشر ووضعت الرقابة على أشعاره، والغريب أنه كما قالت عمتي كان يجد متعة غريبة في الإنصات إلى ليلي أم عاشور، فيقول إنها امرأة بسيطة محبة للخير ساذجة إلى حد البلادة، فعن طريقها عرفت أن أخاك عذب عذاباً مريعاً أثناء حدادك من قبل أمن البلدة، لأنه تفوه بعبارات أسخطت الرفيق الضابط الذي تسلم منه النعش.

سكنت لحظة ثم عادت تكمل:

- ثم إن أخاك ضحى بكل شيء من أجل آسوء؛ كيلا يتركه يعاني ويجد في حمايته ورعايته رجاؤه أمله في تسديد ما رآه ديناً على عاتقه، وكان دائم التشكي في أنه في

ردحة من الزمن قصر بواجبه كأخ أكبر، أما ما يتعلق بسها فأنا أنقذتها بنفسى من موت محقق.

انتفض عدنان واستوى بسرعة البرق من مكانه وأخذ يرمق كاتى بعينين شعنا رعباً شديداً، واصلت كاتى بعد أن هدأت روعه بإشارة يد مطمئنة فقالت بصوت عذب:

- أنا وأم عاشور لمحناها صدفة واقعة على جنبها تحت شجرة اليوكالبتوس مغشياً عليها، فقد تعاطت حبوب تريبتيزول التى انقضى مفعولها، وقد تلقت خبر النعى بالصراخ والطم وجر الشعر كما فعلت دادة، وقد سمعها الناس تصرخ: لقد قتلوا أخى مرتين، ظلت تبكيك أمام صورتك التى علقتها لصق صورة أخيها على الحائط، وارتدت السواد أبداً فيما أعتقد، فى جميع صورها - كما رأيت- ظهرت فى ملابس الحداد.

لم تشأ أن تذكر كاتى شيئاً فيما يتعلق بمصدر الحبوب، أو أنه هو بنفسه قد استعملها كعلاج لمشاكله النفسية والعصبية فى فترة من الزمن خشية أن تחדش شعوره، ولم يعلق عدنان بدوره على شيء من هذا القبيل، بل اكتفى بالقول:

- سبحان الحى هو الذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى.

ثم فجأة استقام من جلسته وأمال بنفسه إليها، مقرباً رأسه إلى جيدها فتساءل بنبرة مرتعشة:

- أتساءل متى تلقت أسرتى خبر النعى؟ وكيف وصلت أنت الخبر؟

أجابت بعد تروى قائلة:

- فى تموز عام ١٩٨٦ اليوم الرابع عشر ذكرى الانقلاب على العائلة المالكة، والمختار هو الذى حمل النعى وأخبر الأسرة بوصول التأبوت.

استطردت حيث تذكرت أشياء تباعاً:

- حسب علمى أن سائقاً باسم على قدم تفاصيل إضافية حول الحادث.

- لم أسمع بهذا الاسم من بين السائقين الذين التقيت بهم، وماذا قال؟

- لا أدري بالضبط، لو أردت نقوم بزيارة أم عاشور يوماً؛ هى كانت حاضرة ساعة استلام الجثمان.

هز بيده متمماً:

- لا أرى داعياً للبحث عنه، فلن يعيد لي الموتى والأشباح.
أطلقت كاتي العنان لخواطرها فمدت طرفها إلى السقف المتدلي منه مروحة كهربائية ساكنة، فقالت وهي تنتظر في الفراغ:
- حضرت مراسيم الفاتحة وكنت في أيامي الأخيرة قبل الوضع.
- ماذا قلت؟ ألم تخشي من كشف أمرك؟

تساءل عدنان وجاء ردها مباشرة:
- بعد الانفصال كل هذه الأشهر كثير منهم لم يعرفني حتى، ومن عرفني ظن أنني تزوجت بعد انفصالي، أمّا أسرتك فأنت أولى بالحكم، فإن كاتي في عيون دادة الثكلى التي لم تكذب تبصر كانت كاتي هي نفس كاتي التي طلبها ابنها يوماً ليصطدم رجاؤهما بصخرة ماموستا عمر أبيه وأبيك، وفي العزاء يغلق الحزن الأبصار، حتى أخوك لم يتعرف عليّ إلا بعد أن رأيته عن كثب.
توقفت كاتي تسترد أنفاسها ثم واصلت:

- مشهد دادة عالق في مخيلتي، شاخصة حاضرة دوماً أمام عينيّ، وصوتها ظل يرن في أذني ولم تنفك لحظة تنعيك، لم تفارق روحك روحها لحظة، وهي تقف أمام النافذة وتهتف بملء فيها بصوتها الأبح: ها هو ابني يخرج من السيارة ويديه بيرية جديدة ما أحلاه وما أوسمه، أعطوني بيضة كي أطرد عنه عين الحساد، فتهرع إلى الثلاجة ونحن وراءها، أحطناها بين ذراعينا أنا وسها والتي أخبرتني أنها تغفو لدقائق معدودة وتستيقظ لدقائق معدودة في حال بين الوعي والذهول، وفي حالة الوعي نادتنني: بنتي كاترين تعالي فأنا أمك.. فتعانقنا طويلاً، كم أحببتها دادة جميلة فقلت لها أنت كنت أُمي وستظلين أُمي ما حبيت، ألم تكوني الوحيدة التي ناديتها أُمي في غياب أُمي؟ يا للمسكينة طبع الثكل حياتها بطابع من الحزن لم يفارقها، قهرها الحزن فساءت صحتها واعتصرها الضمور، إلى أن وافتها المنية قبل ستة أشهر من الآن، وقد توفي بابا قبلها في أيام الانتفاضة أي في عام ١٩٩١.

انتفض عدنان وأخذ يرتجف كمن أصيب بصعقة كهربائية:
- ماذا تقولين؟ قبل ستة أشهر؟

تجمد واستغرق في حالة ذهول ورعب هائلين، ثم نهض وكاد يقع فأسندته يد كاتي التي أقعدته في مكانه، وهو يردد مع نفسه في ذهول كالمهذي:

- قلت قبل ستة أشهر!

مضت دقائق قبل أن يستفيق عدنان من أثر الصدمة وبعد أن خف وقعها قال لها وقد لمعت عيناه ببريق غريب ينم عن الدهشة والحسرة والأسى:

- آخ لو ولدتك أمك أيها القائد قبل عيد ميلادك بستة أشهر، لجاءتني مكرمتك قبل أن تموت دادة.

نظرت في وجهه المتجهم بإشفاق وهي تدرك تمامًا حجم الألم، وفي دخيلتها شعور أنها آذت الرجل كثيرًا بكل هذه المعلومات والتواريخ، فاستفسرت منه فيما يريد السماع أو يفضل الراحة وهذا ما تفضلها هي، فنظر إليها بدهشة كمن يريد أن يقول مستحيل أن أتركك قبل أن أعرف كل شيء، فلم ترَ بُدًا من التواصل، فقالت بعد أن استقر وضعه وعادت إليه سكينته قليلاً مسترسلة:

- في زيارتي الأولى لدادة وكانت بحالة لا بأس بها؛ أودعتني سرًا، قالت لي لا يعلم به أحد غيرك، قالت إنها هي التي تبنت فكرة الولد الثاني لفرهاد وسها، فقلت لهما أريد ولدًا أسميه عدنان تبرگًا، عدنان الصغير، عدنانوكة.

طال الليل الهامد وطال معه الكلام، لم تسكت كاتي عن الكلام إلا بعد أن سمعت شخير عدنان يتعالى، وانطفأ المصباح فأشعلت كاتي شمعة وضعتها على المنضدة، ثم وضعت رأس عدنان برفق بالغ على مخدة ناعمة من القطن المندوف، ثم مضت إلى غرفتها وغرقت في صمت في صلاة طويلة.

في منتصف الليل استيقظت كاتي على صوت عدنان الصارخ:

- أخرجوني من القبر؛ أنا لم أمت أنا حي.

رسمت علامة الصليب على صدرها ولم تعد إلى النوم إلا بعد منتصف الليل بساعة، وفي الصباح الباكر حين كانت تنهياً للذهاب إلى الدائرة، حدثها بما يحدث له ليلاً:

- أرى كل ليلة في منامي كابوسًا، شبح أسود ببراثن يمسك بعنقي ويسحبني إلى القبر، والقبر يضيق بي شيء فشيء حتى تنقطع أنفاسي، فأهرب مذعورًا من فراشي فأرى نفسي غارقًا في بحر من العرق.

وجاء بمعادلة بائسة:

- ما دام شاهد قبري يشهد أنني ميت فأنا ميت.
- ثم همس وعيناه الحمر اوين المنتفختين تطفحان بالرجاء:
- كاتي، متى نزور المقبرة؟.

وصلت سيارة التاكسي التي أقلت عدنان وكاترين إلى المدينة قرابة الساعة الثانية بعد الظهر، شعر عدنان قلبه يتوثب لدى مرورهم بدارهم القديمة، المدرجات كانت على حالها، وعلى اليسار جلس رجل أشقر الشعر على عربة خاصة بالمعوقين، وحين وقع نظره عليهم داخل السيارة رفع ساقه المبتورة إلى أعلى، فأشارت إليه كاترين وهي في قمة ألقها ولياقتها في قميصها الوردي فوق بنطلونها الجينز هامسة نحو عدنان:

- إنه عاشور زميل فرهاد، يرفع ساقه لكل من ينظر إليه مداعبًا، سمعت أنه بذلك يعني أن يشتم الرفاق البعثيين، لا أدري ماذا يقصد بذلك.

عدنان عرف؛ لكن الحركة كانت تدل على سباب شنيع لم يقوَ يومًا على استخدامه في أي موقع من مواقع الحياة، ومن المُحال أن يفصح عن مضمون الإشارة أمام امرأة كأمثال كاترين، في العسكرية تعلم ما تعني الحركات هذه وأمثالها، هذه التي قام بها عاشور كانت تعني: هذه الساق المبتورة في فرج أمك.

مستغلًا انشغال السائق بالكلام مع المسافر الجالس إلى جانبه قال لها متسائلًا:

- هل حصل لعقل هذا المسكين خلل ما؟

احتارت كاتي ما الرابط بين حركة عاشور الغريبة والعقل فأجابت:

- تقول ليلي أمه إنه يتلقى العلاج من قبل إخصائي بالأمراض النفسية، إنها تشكو من بعض تصرفاته التي ساءت إلى حد ما في الآونة الأخيرة، إذ بدأ يشعر بإحباط شديد، هي عانت كثيرًا كذلك، وابنها الآخر أمير فر زمن العسكرية وقبض عليه وكاد أن يعدم لولا توسط رفيق حزبي كبير للحيلولة دون ذلك، لقد باعت سيارتين وكل ذهبها ودار آخر رشوة للمسؤولين ذوي التأثير والنفوذ.

صمتت كاتي إذ أحست بقرب الوصول إلى بيت عمته، كانت كاتي متشوقة لرؤية ابنها هناك، ولكن ذلك لم يكن الهدف هذه المرة، وبعد ابتعاد السيارة بمسافة مائة متر عن عاشور قالت:

- يبدو أنه لم يعرفني، وحتماً أنت لا، ولا أعتقد بأنك تريده يتعرف عليك.

- طبعًا لا..

أجاب مقتضياً، ثم أردف:

- إنه كان صديق أخي وأمير زميلي وصديقي.

قاطع محادثتهما الشيقة صوت توقف السيارة أمام باب عليها رسمت صورة البابل العاشقة كما شاء لفرهاد تسميتها، نزل المسافر حيث ظهر أنه يزور قريباً له يسكن جوار بيت عمه كاتي المعروفة بسستر وردة في الحي، نزلت كاتي أولاً ثم عدنان؛ فاستدارت السيارة إلى عكس الاتجاه، لأنها وحسب الاتفاق سيقوم بعد الزيارة العارضة بإيصالهم إلى غايتهم المنشودة من الرحلة.

طرقت الباب بيدها ففتح الباب بعد دقيقة عن وجه شبه معروف لدى عدنان الذي مد يده مصافحاً إياها، رمقته بنظرة عين ثاقبة ثم حولت نظرها إلى كاتي مستطلعة عن حقيقة الرجل، لم تشأ كاتي أن تطلع عمتها في هذه العجالة بكنية الرجل المصاحب لها وهويته؛ بل اكتفت بالقول إنه زميل وستعرفين أكثر عنه في المستقبل، ارتأت هذا الحل الوسط لتعريف هذا الرجل الذي سيصبح له شأن في حياتها قريباً كما رأت أو حزرت.

بعدها تراجع عدنان إلى الوراء كي يتيح لهما الحرية التامة في الكلام، ألقت على بعد أمتار منها نظرة خاطفة على المرأة فانطبعت صورة شاملة عنها في رأسه، بشعرها القصير الأشمط وبنظولونها الرجالي ومسحة التقطب والعبوس غير المتعمدين والأنف المعقوف والفم الكبير، العلامة المميزة لأم الفستان الأحمر، المطربة العراقية التي تألقت إبان حكم عبد الكريم قاسم، وبعد أن تبادلا بعض الحديث دخلت العجوز وغابت لدقائق ثم ظهرت تحمل في يدها عباءة ناولتها لكاتي التي لفتها في يدها، تعانقتا مرة ثانية وفي الحال تحركت السيارة إلى الأمام وانفتحت باب على هامش الرصيف حيث يقف الثلاثة، وتبادلت عمه كاتي وعدنان ابتسامات خجولة، وما هي لحظات إلا برزت أياد ثلاثة تلوح لها من خلال زجاجة السيارة من بعيد.

حالما اتخذوا مجلسهما داخل السيارة تساءل عدنان عن عدم وجود نبيل في بيت عمتها، فأجابت أنه في النهار يذهب إلى الطرف الآخر حيث نبيلة وجدها.

انطلقت السيارة في اتجاه مركز المدينة، ومن مفرق الطرق عرجت نحو اليسار سالكة الشارع الستيني العريض الجديد الذي يحيط بالمدينة في جميع أطرافها إحاطة السوار بالمعصم، ولم تتوقف ولم تخفف من سرعتها إلى أن بلغت بداية طريق ترابي فرعي طويل، فعرجت إليها مخففة من سرعتها بسبب سوء الطريق وتناثر الحصى والحجارة عليها، فسارت زهاء عشرين دقائق إلى أن لاحت من بعيد ملامح المقبرة بقبورها وشواهدها وغرفها الصغيرة وأشجارها وسورها المنخفض، وأعداد هائلة من السيارات تقف أمام بوابتها الحديدية الصغيرة الصدئة.

مختفية وراء إحدى السيارات الكبيرة ألقت كاتي بالعباءة على رأسها ثم لفت الجزء السفلي حول جسدها لقا محكمًا، وهكذا سارا جنبًا لجنب شاقين طريقهما عبر ممرات وطرق متعرجة بين القبور والزائرين، كان لمنظر كاتي بالعباءة أثرًا كبيرًا على نفس عدنان، فظل المشهد عالقًا في ذهنه، فمشى مطرقًا صامتًا يفكر في الأمر، وأخيرًا توقفت كاتي أمام قطعة أرض مربعة الشكل محاطة بسياج منخفض من بلوكات الكونكريت، تتوسط مقدمته باب صغير صدى.

بلغ الهلع والرعب بعدنان غايته حتى كادت تسمع دقات قلبه في وريده الأعظم المتدفق تحت جلدة عنقه، فهي هو الحي يقوم بزيارة تربته التي تواريه، دفعت كاتي الباب برفق فانفتح للحال فأشارت إليه بالدخول، وجد نفسه يقف خلف ضريح أمه الذي كان أصغر الثلاثة، فأخذ يتأمل نقوش شواهدها بوجل وهو يكبت نزعة في البكاء، وظل هكذا طويلًا مطرقًا ينظر إلى شاهد أمه بعينين شبه مغمضتين كمن يحلم، لم يحرك ساكنًا إلا بعد أن شعر بيد كاتي على كتفه، ففتح عينيه وجعل يتأمل تواريخ الوفيات على الشواهد والأسماء بالتسلسل المكاني: ١٩٩٣ دادة جميلة، ١٩٩١ عمر أفندي، ١٩٨٦ عدنان عمر.

قرأ الفاتحة أولاً على ضريح أمه ثم أبيه ثم على ضريحه، تمتعت كاتي بخشوع ببعض الكلمات ثم راحت تجلس قبالة مرقد دادة تحني ظهرها ورأسها إزائها، ثم استغرقت في بكاء طويل صامت ملفوفة بعباءتها السوداء، أمّا عدنان فراح يقف بوجوم وشحوب الأموات فوق ضريح الجندي المجهول الذي أهداه معطفه الفاخر قرب الحدود، دون أن يمهله الأجل في التمتع به، وفي غمرة تأملاته الكئيبة انتابته

رجفة جنونية هزته من الأعماق، فانتبهت كاتي إلى الحركة فأسرعت نحوه تمسك به من الوقوع.

لم يصطحب عدنان معه العصا رغم إلحاح كاتي عليه؛ لأنه رأى في العصا انتقاص لشخصيته، وجعله يبدو أكبر من سنه وعاجز، خاصة أنه بدأ يشعر بتحسن طفيف في صحته، فحالت بينه وبين السقوط مسندة إياه بكلتا ذراعيها من الوسط، ف وقعت العبء من عليها على الأرض، فالتقطتها بسرعة خاطفة وألقته على رأسها بالسرعة نفسها، وبكل رباطة جأش أجلسته برفق على بلوك من الإسمنت بجوار ضريح الجندي المجهول، وأخذت تمسح بمنديل نظيف العرق المتصبب من جبينه، سألته برفق:

- ماذا بك؟

لم تتلق جواباً، وبدلاً من ذلك طفق يغمغم بعبارات غير مفهومة وبلا وعي، جلست قبالتة على الأرض العارية الحمراء ممسكة بكلتا يديه بين يديها، في محاولة منها وبكل ما أوتيت من قوة في تهدئته، ولحسن الحظ لم تدم النوبة العصبية طويلاً، إذ أخذ عدنان يستعيد بالله من الشيطان الرجيم، ويتمتم بآيات هي خير دواء وشفاء في هذا الجو المشحون بالعواطف والرعب والخوف والحب والأمل وفي عين الوقت الفرح، هاجمته مزيج من الأحاسيس، وبغنة أطلق يده من بين يدي كاترين ووثب بدون تحسب من الوقوع إلى حيث الفسحة بين أمه وأبيه.

هناك تربع وأحنى ظهره رغم الألم وأطلق العنان لشهيقه وزفيره ونشيجه بصوت وصل إلى الجوار، ولم يكف عن هذا إلا بعد أن انقضت خمس دقائق كاملة، نهض بعدها دون أن يمسح دموعه التي بللت كالمطر وجهه الشاحب المغبر بتراب القبر وتراب الحزن، دعه كاتي يسكب ويريق فضلات أحزانه المتراكمة عبر السنين هنا على أرواح محبيه، واكتفت بمراقبته بعدما عادت لتحل محلها المعتاد لصق مثنوى دادة، وهي بدورها قد استغرقت في دوامة من المشاعر الجياشة الهادرة المتراكمة عبر السنين أمام ضريح أمها في الحب والوئام والحنان.

لم تستفق من غفوة تأملاتها إلا على صوت عدنان آت من الطرف الآخر من ضريح دادة، ولم يكن جالساً بل واقفاً وراء شاهد الجندي المجهول، بكل قامته منتصباً شامخاً أنيقاً في ملبسه رغم الغبار الملتصق به، جعلت تتأمله وكأنها نسيت كربتتها

لمنظره الرائع في عينيها في تلك اللحظة الصعبة في حياتهما، كان يقرأ نقوش شاهده البراق المصنوع من المرمر الأسود تتخلله نقوش مختلفة بنية وصفراء اللون، وبصوت واضح: هنا يرقد المأسوف على شبابه المرحوم عدنان عمر أفندي والذي استشهد غدرًا وغيلة من قبل النظام الجائر في عام ١٩٨٦، وتحتة نقشت العبارة: (ولا تحسبن الذين قتلوا ظلماً أمواتاً بل أحياء).

هز عدنان رأسه متممًا مندهشًا:

- هذا تحريف للآية من فعل ذلك؟

وهو يرمق كاتي بنظرة استفسار وحيرة، هزت كاترين رأسها عجبًا واتسعت حدقتا عينيها فقالت:

- لا أدري.. لم أنتبه لذلك في المرة السابقة.

ثم بعد تفكير قصير قالت بروية:

- ربما يكون هذا من صنع فرهاد فعلها قبل رحيله، أكاد أن أجزم أنه لم تعجبه كلمة شهيد أبدًا، حاله كحال جميع من قتل في سبيل الطاغية، سمعت بعضهم بعد أن رحل النظام من الشمال يتساءل: قولوا بحق الحق واعدلوا هل هذا قتل في سبيل الله أم في سبيل الطاغوت؟ ومع ذلك حسبوا المقتول شهيدًا ولكن تحت أسباب ودواعي أخرى، وأنت أدري كونك مسلمًا ما شروط وأسباب الشهادة، وحينها استبدل بعضهم شواهد قبور موتاهم بأخرى جديدة وكلمات جديدة كل حسب هواه ومرضاته، وكان في ذلك نوع من شفاء لأنفسهم الساخطة وراحة في إزالة لطفة الموت من أجل الشيطان.

أصغى عدنان بانتباه إلى هذا الشرح العجيب لتفسير ظاهرة الموت الجديدة، أعاد عينيهِ بعد ذلك إلى الضريح فقال ملتفتًا إلى كاتي التي كانت تعدل وترصف أصص الزهور على حافة ضريح دادة، وقال مشيرًا إلى الضريح:

- ونعم الحق، كان الجندي شابًا ويوسف عليه وأنا متأسف له جدًا، هذا المسكين لن أنسى ضحكته من الفرح ما حييت وهو يهتف بفرح غامر: ستسعد زوجتي لو رأنتي هكذا في هذا المعطف: ستتبهز.

ثم وقد تقطبت أساريه من الحزن:

- المسكين عانقني بحرارة وقبل وجنتي حينها رفع يديه للسماء يدعو لي بخشوع.

خطا عدنان خطوة جانبية ووقف قبالة ضريح أمه متكئ بكلتا يديه على شاهدها
الأسمنتي المتواضع، مضت ثواني صمت، تحدث عدنان بعدها دون أن يرفع رأسه
وكأنه يكلم أمه تحت التراب:

- آخر ما رأيته رجوتني توصلت بي ركضت ورأي صائحة انتبه لنفسك جيداً،
اهرب اهرب إذا وجدت نفسك في خطر لا تخف.

لم تملك كاتي المتلحفة في عبائتها بإتقان إلا أن أطبقت بيديها على عينيها المبللتين
وظلت هكذا لثواني، ومن هزات كتفيها الخفيفة المتتابعة استطاع عدنان أن يقرر
انها تنتحب بصمت، مرت ثوان رفعت بعدها يديها عن عينيها وأغمضتهما وفتحت
فاهها ناطقة بما جاش به صدرها من مشاهد الحزن المطبق إبان المأتم:

- لو رأيته كيف نثرت النبق على المعزين وكيف هلهلت بلا صوت، لن أنسى هذه
الصورة ما حييت، دادة تخرج لسانها وتحاول عبثاً أن تزغرد، لقد جنت دادة فقدت
صوابها تماماً.

ثم أردفت وهي تدفع بخصلات من شعرها برزت من تحت العباءة إلى الوراء:
- كنت في شهري التاسع من الحمل فأحمد الله الذي مكّني من الوقوف بجانبها في
أصعب وأقسى وأدق أيام حياتها.

ساد صمت مطبق لم يسمع خلاله سوى أصوات هسيس أنفاسهما المسرعة، وسوى
أصوات الزائرين من نحيب وأقاويل وذكر مناقب الموتى ونواح الثكلى.

التقت نظراتهما البائسة تبث شكواها بعضها لبعض، لأخر مرة قبل أن يستعدا
للمغادرة، إذ بدأ الناس بالعودة من حيث أتت، لكن شيء ما جلب انتباه كاتي،
فاقتربت من ضريح المجهول تفتشه بدقة وروية، هزت رأسها بعدها وقالت:

- لم يكن الضريح بهذا الرونق والبهاء، والشاهد كان حجراً عادياً كباقي حجر
القبور عند زيارتي بعد سنة من نصبه، يبدو أن أهلك كلفوا باستبداله بنوع فاخر من
الحجر، لا شك أنه من صنع دادة رحمها الله.

أطرق عدنان وعينيهِ عالقتان على الشاهد الذي حفر عليه اسمه، ثم نظر إلى كاتي
قائلاً:

- وأنا أرى اسمي وتاريخ وفاتي على القبر أشعر أنني لا أزال داخل القبر، ميت، لا بد من شاهد آخر، أو تحطيم الجزء العلوي الذي يظهر عليه اسمي فقط، ومن ثم هناك ما يجب عمله؛ استبدال شاهد دادة بآخر جديد فاخر.

أومأت كاتي وقالت:

- لك الحق سنفعّل، أمّا بشأن شاهدك فأنا قد فكرت بالأمر قبل اليوم... ولكن...

وسكنت لحظة تنظر إلى الأرض تفكر ثم رفعت رأسها إليه متسائلة:

- لكن كيف، أتحسبه أمراً هيناً؟

ثم تداركت متجاوزة تسأولها:

- أرى أن لك الحق، كل الحق؛ ففي إزالته راحة نفسية لك.

وهي تحق بالمرمر المنتصب جاءت بمقترح:

- لو كان لا بد من الهدم فلا نفع في تحطيم الجزء العلوي فقط، لأن هذا يعني عملية تخريب أو انتقام أو أي دافع آخر، سرقة أفضل.

وثب عدنان من مكانه وهو يرمقها بنظرة لو رأتها لارتعبت وهتف:

- نسرقه؟

- لا، أعني نقتلعه من أساسه ثم نلقيه في الزاب، أو نهشمه في العراء.

قالت كاتي ونظرت إليه تنتظر رده، أومأ بالإيجاب مأخوذاً بالفكرة الرائعة، فأضافت:

- في هذه الحالة ينظر إلى الأمر أنه عمل نهب وسرقة، وسرقة الشواهد صارت في زمن الحصار أمر مألوف، وخاصة شاهد ثمين كشاهدك، عفواً كشاهد الجندي المجهول.

استحسن عدنان الفكرة فسأل:

- وكيف؟ من يقوم بذلك، أنا أستطيع...

قاطعتة مسرعة:

- لا لا.. أنت لا، سنكلف شخصاً خبيراً بهذا العمل في السوق.

وفجأة قالت كاتي منتقلة إلى موضوع آخر:

- وانظر كدت أنسى.

أمسكت بيد عدنان تجذبه بلطف إلى الزاوية البعيدة الجنوبية من المقبرة حيث انتصبت هناك شجيرة فاقعة الخضرة دقيقة الأوراق ولينة الأغصان، فأجال النظر فيها بفضولية وسرور وسعادة كمن يتوق إلى تقبيلها، ظل هكذا للحظات ثابت النظر ثم أخذ يتمتم مع نفسه في خشوع ورهبة:

- النبق!!

وجاءه صوت كاتي:

- اقتلعت ثلاث فسائل من بين أشجار النبق عندنا في الربيع ودون أن يعلم أحد، وزرعتها في ثلاث زوايا لكل واحد منهم واحدة، قسمة عادلة.

قالت كاتي وعادت حيث ضريح دادة، وبقي عدنان يتأمل الشجيرة المقدسة، انبهر عدنان لهذا العمل الرائع، وأحس أن شيئاً ما غير عادي، شيء أشبه بدغدغة رأس ريشة الطائر يداعب قلبه المحروم من الحب والحنان والعطف والشفقة وتقدير منذ ما فرقه الزمان من أحضان أمه.

وبعد أن قرأ عدنان الفاتحة وكاتي الدعاء طفقاً بالعودة، ولدى مرورهما عبر البوابة الخارجية وزعت كاتي قطع نقدية لكل من مد يده سائلاً صدقة لأرواح الموتى.

* * *

في مركز المدينة المكتظ؛ شقا طريقهما عبر مئات الباعة الواقفين الصائحين وراء عرباتهم الزاخرة بأكوام من المواد الغذائية الجافة كالأرز والسكر وعلب الدهن والدقيق والبقوليات وشتى صنوف الأغذية في أكياس تنتصب تحت ذقونهم، والشيء الذي لفت انتباهه أكثر من أي شيء آخر مشهد بيع الدقيق بالكيلو ووزنه بالميزان، تساءل عدنان وهو يرى عالماً آخر يختلف عن عالمه الذي تركه وراءه قبل سبعة أعوام:

- ماذا أرى يا كاتي؟ وكأنه قامت القيامة هنا!

أجابت كاتي باقتضاب:

- لا تنسَ إنه عالم ما بعد النظام وعالم الحصار، الناس في ضيق معيشي وفقر.

ثم وهي تتأوه متأبطة ذراعه تسنده في الزحمة:

- كأنه كتب علينا أن نختار أحد أمرين: إمّا حرب مع غنى أو سلام مع فقر.

ثم:

- تريت إلى أن تعود سونيا فعندها أخبار تقشعر لها الأبدان.

ثم وهي تجذبه برفق إلى الرصيف تقوده إلى زقاق ضيق مظلم رطب، سارا فيه إلى أن لاحت لهما توابيت مستندة إلى حائط منخفض، استقبلهما رجل بشوارب كثة مرحبًا، أفهمه عدنان ما يرومون، أبدى استعداده قائلاً مشيراً إلى رجل شاب ظهر فجأة وكأنه جاء من العدم قائلاً:

- هذا سيتولى الأمر، بعد غد.

ألح عدنان:

- بل الآن.

- الآن؟ غداً إذن؟

ولم ينتظر الجواب إذ قالت كاتي:

- أنا أعرفه، إنه لا يمكنه الانتظار، وقبل كل شيء كم التكلفة؟

أجال الرجل بعينه الحمراء في وجهيهما القاتم والأبيض فأنس في كاتي وعينه على أساور الذهب حول معصميهما الثراء ورغد العيش فقال مستغلاً:

- التكلفة ٦٠٠ دينار.

أجفل عدنان للمبلغ، فأسرعت تقول:

- أدفع لك النصف.

أشاح الرجل بوجهه عنهما يتظاهر برفضه التعامل معهما مستخدماً بذلك تكتيكاً قدراً، فقد لمح من ملامحهما وهيتهما أنهما على عجل، وأنهما يرتديان ملابس غالية.. فقالت له بشيء من الحدة مضطرة:

- إذن كم شئت؟

مد عدنان يده إلى جيبه فمنعته بإشارة من يده ورفعت حاجبيه المزججتين.

في الليل عندما ساد السكون المطبق على الأرجاء جلسا معاً كتفاً بكتف في غرفة الجلوس على ضوء المصباح، وأمام صحن من النبق والجوز والزبيب قبالة صورة دادة الموناليزا تساءلت كاتي بشغف:

- ماذا فعلتما؟

أجاب:

- هَشَمْنَا الشاهد وكان من الرخام النفيس كما سمعت من الشاب، ثم حملنا القطع بالسيارة إلى العراء فيما وراء المقبرة، فعملنا فيها المعاول نهشمها تهشيمًا دون رحمة، وفي غضون نصف ساعة غدت فتات صغيرة من الحجر.

- لا أشك في أن ضرباتك كانت أشد ضراوة من ضرباته.

هز عدنان رأسه إيجابًا دون أن ينبس، فأردفت محللة:

- وكأنك كنت تنتقم من قاتلك.

لم يتمالك فضحك أولاً أعقبه ب بكاء كحشرجة الموت، وضعت يدها على كتفه بحنان تخفف من ألمه وتنفس عن كربته بكلمات دافئة حنونة.

بنشاط غريب نزل إلى الحقل صباح اليوم التالي من زيارة المقبرة والمدينة.. الشمس تلقي بظلها على نصف الحقل، الحقل المترامي يحيطه الأشجار من أركانه الأربعة، ضجت الحديقة بالحياة والغناء، منذ الفجر سمعهم لأنه أفاق مبكراً مفعماً بالحيوية، سار عجلًا خلال خطوط شجيرات الخضار الصيفية فلمح أن القسم الأكبر منها حان جنيها: البامية والباذنجان والطماطم والفلفل، ملأ رأيته بالهواء المعبق بعبق الخضر الطرية وملأ السلة التي كان يحملها معه بها، ثم مضى إلى حيث الحنفية ففتح ماسورة/ خرطوم الماء ومدّها تحت شجيرات الباذنجان التي بدت أكثرها جفافاً وتركها هكذا، ألقى نظرة على وكر الدجاجات فهرع إلى البيت وعاد ويبد سلة أخرى، جمع البيض من صناديقها وأودعها فيها وحمل كل ذلك إلى حيث المصطبة.

مد الطرف نحو الفضاء البعيد حيث السهول والتلال، وينتشي الهواء النقي ويسحر بجمال الطبيعة، وفي أحضان التلال تراصفت بيوت طينية متبعثرة بعدد الأصابع تمر أمامها سيارات تعكس مصابيحها أشعة الشمس، وأقرب من كل هذا وأجمل من كل ذلك منظر راع يسرح أغنامه بعيداً، تاركاً وراءها غلالة كثيفة من الغبار والطيور تحلق مبتهجة فوقها.

ثمة قطط تموء وكلاب تهر وراء الحقل، وجاءه أعذب صوت من ورائه، التفت فإذا كاتي تلوح له من بعيد مقبلة عائدة من الدائرة، تتابعته دقات قلبه، وجعلت هي تقترب في خفة وتبخر كأنها نغمة حلوة أو ترنيمه ملائكة، ثمة رجلين واقفين في ممر المستوصف ألقيا نظرة خاطفة عليهما ثم ما لبثا أن اختفيا كلمح البصر، من ملابسهما البيضاء عرف أنهما من موظفي المستوصف، كانت تلوح له ببهجة، الهواء يهفو بأهداب فستانها ويتخلل، رآته وأدركت ما فعل، لقد عادت كاتي مبكرة ككل يوم خميس، فاستقبلها ببشاشة بادية.

- لك مشية رائعة.

قال عدنان مبدئياً إعجابه، ففاجأ كاتي بالتعليق اللطيف.

- سماها أخوك مشية القبح زمن طفولتنا.
نفذ ملابس العمل من التراب، اقتربت كاتي من السلال المملوءة فهتفت له
مبتهجة:

- أفضل عمل، وجدت عملك بنفسك.

أجاب عدنان بلهات خفيف وهو يوارى أشعة الشمس براحة يديه المغبرة:
- أتعجب كيف ترك الحقل بلا عناية.

أشارت إليه قائلة وهي تنزع نظاراتها الشمسية:
- تعال.

أجلسته على المصطبة التي فرشت عليها خيشة من القصب الملون وفوقها حشية
قديمة وناعمة، تحت التعريشة المنخفضة، حيث تدلت عناقيد العنب الزاهية.
قالت بعد أن جلسا كل على طرف:

- سونيا ساعدتني كما قلت لك، وكان هناك رجل من القرية ذهب إلى المدينة للتكسب،
ولا أعتقد أنه سيعود، بث لي شكواه الصحية الكثيرة في الآونة الأخيرة.
ثم أردفت وهي ترميه بلحظ خفي تحت حواجبها السود وقالت مداعبة:
- ربما أعاضنا الرب بك.

اكتفى عدنان بابتسامة خجلة، ألقت بقبعته الخفيفة من على رأسها على المصطبة ثم
شرعت تسوي ما تشعث من شعرها، وسرعان ما مضت إلى الداخل لتعود بعد
دقيقت قليلة تحمل أقداح الشاي وأدواته.

نهض عدنان وأخذ الصينية من يدها يضعها على المنضدة الصغيرة أمامهما، فصب
قدحاً لها ثم لنفسه، والبخار يلتف متصاعداً فوقهما، عدل عدنان من قبعته القديمة
التي أعطتها له كاتي وعيناه ترنوان بفضول إلى نظاراتها التي وضعت على
المنضدة، قطعت عنقودة حمراء فأسرع وتناولها منها برفق فغسلها في طبق نظيف
ووضعها على المنضدة، تحركت شفتاها بحركة شكر قائلة:

- للزينة ثم للأكل بعد أن نكون قد شربنا الشاي.

ثم أشارت إلى الطرف الشمالي:

- انظر عدنان هناك، هل لاحظت التغييرات؟

التفت عدنان مجيباً:

- إني لا أرى القشة/ مخفر الشرطة، البناية هذه لا تصلح للشرطة كما أظن.

- أصبت..

قالت كاتي ثم واصلت:

- وسعت المبنى وألحق بها ثلاثة غرف إضافية فصارت مدرسة متوسطة يداوم فيها حوالي ٧٠ طالب، أمّا المدرسة الابتدائية هي الأخرى قد توسعت مساحة وألحقت بها مدرسة للبنات، أي هي ليست مختلطة كما كانت في زماننا.

ثم أشارت إلى البعيد وقالت:

- يأتي إليها من القرى المجاورة عدد من الطلاب.

ثم وهي تنتهد:

- يا للزمن، كيف جمعنا اليوم تحت هذه العنبة بنصف العدد.

ثم قالت وعينها عالقة على الحائط الجانبي للمدرسة والحجارة المرصوفة بترتيب متقن وكأنها تراها لأول مرة:

- سونيا معلمة نبيل ونبيلة، نبيلة تتقدم بصف على نبيل.

هز رأسه ثم ألقى بصره إلى الحقل فبدرت منه حركة كأنه يهيم بالقيام، بعدها أعاد عينيه إلى كاتي التي بدأت منذ يوم المقبرة أكثر مرحاً وميلاً إلى الضحك، أمسكت بقدحها رفعتة إليه هاتفة:

- اشرب الشاي مع العنب إذا أردت حلاوة فوق حلاوة.

كبت عدنان ضحكة فتحولت إلى ابتسامة عريضة، فرفع قدحه إليها وشربها دفعة واحدة، ثم قلب القدح الكبير وأراها إياه فارغ وهو يقول مداعباً:

- وهذا هو إحدى محاسن الانتظار إلى أن يبرد الشاي.

استحسنست ملاحظته فلم تملك إلا أن تحملق في وجهه الأسمر بعينيهما المكحلتين:

- أرى؛ بل اكتشفت أنك تحب المزاح، ظننت أن أخاك وحده يتمتع بروح الفكاهة، إذ لم تكن هناك مناسبة إلا وأتحفني ومتعني بنكاته وطرائفه.

اعتدلت كاتي في جلستها، أخذت رشفة من قدحها ومسحت فمها الأحمر القاني بلا أحمر الشفاه بمنديل ورقي، ثم استغرقت في تفكير قصير، رفعت رأسها بعدها وابتسامة عريضة تنور خديها المحمرتين للفتح الشمس فأردفت قائلة:

- أقص عليك شيء يخصك، أتذكر يوماً قال لي فرهاد، إن رفيقاً حزبياً رفع درجة أعلى، وكان هذا الرفيق مذبذباً للأنواء الجوية في الراديو والتلفزيون، فعندما سيقراً النشرة التالية عدل عن الحقيقة إلى شيء ما يعبر به فرحه، فأخذ يقرأ: الطقس سيكون غداً غائماً ممطراً ولكنه سيتحول وبفضل الرفيق القائد صحواً مشمساً وذلك مكرمة من لدن سيادته.

ابتسم ابتسامة عريضة كشفت عن ثلاث فجوات بعيدة في الفك العلوي الأيسر، ولم يلبث أن اغبر وجهه، عبارة مكرمة القائد أعادت إليه صورة السجن البشع، رمته بلحظ خاطف ثم عادت تقول:

- سونيا كذلك لديها بعض من حكاياتها وأقوالها الساخرة ونوادرها.

وهنا تساءل عدنان متجاوزاً كربه:

- أحب أن أعرف كيف تكونت هذه العلاقة بين أخي وأرملة بنيامين؟

فأنبأته ما علمت قائلة:

- سؤال وجيه، أخبرتك بالنهايات وهاك البداية: وجدت سونيا في نهاية السنة الدراسية أي قبل رحيل أخيك بنحو أسبوع وظيفة في منظمة فاو التابعة للأمم المتحدة، التي تقع مقراتها في البلدة، وقد انتقل مسكن جدتها إلى نفس الحي ونفس الصف من البيوت التي يشكل بيت أخيك واحد منها، وأنت تعرف الآن الموقع، وفي يوم من هذه الأيام وبينما كانت سونيا تقوم بزيارة طارئة لجدتها في خضم تهيئة أوراق تقديمها للعمل، فإذا بسها تلتقيها لدى الباب وترجوها المساعدة في حمل علبة كارتون كبيرة ممتلئة بزجاجات الوسكي والبيرة من فوق إلى تحت، قالت سونيا عنها إن سها كانت تتأفف ولا تستر تقززها لهذه الزجاجات وتعبر عن سخطها بإلقاء اللوم على الزمان والهموم التي جعلته يشرب بإفراط، فمذ ذلك اليوم نشأت علاقة قصيرة بينهما اقتصرتا على تبادل بعض الأحاديث والسفر، وقامت أخيراً بمساعدتهم في النقل والحمل تلبية لرغبة فرهاد، الذي عرفته ولم يتعرف عليها هو لكثرة مشاغله ومشاكله، وتهيئة مستلزمات السفر والبحث عن مهرب وغيرها لا يعد من القضايا الشائكة

التي ترافق الهجرة، ومن سونيا وعمتي عرفت أنه يشن ضده حرب أعصاب ولم يكن له ذنب سوى أنه كان ذكيًا واعيًا انتقد الحكام المحليين الساعين إلى الثروة على حساب الشعب، بينما الناس لا تملك ثمن القماش لأكفان موتاهم في هذا الزمن المجذب، فاتهموه من كل حذب وصوب، كل حزب اتهمه بأنه إنما ينتقد هذا الحزب بسبب انتمائه إلى الحزب المناوئ، وألصق بعضهم به تهمة لا أساس لها، وخاصة زملاؤه المغمورون وهو المعروف والمتمتع بشهرة واسعة كونه مدرس ناجح وعالم، ولأنه بزّهم جميعًا في المجادلات اللغوية والأدبية، ثم....

أخذت هنا نفسًا طويلاً ثم استرسلت في الحديث عن فرهاد، إذ رأت على وجهه أنه يتوق لسماع كل ما يتعلق بأخيه؛ مهمًا أم تافهًا فقالت:

- عمتي أكدت أن فرهاد ومنذ زواجه من سها بدأ يفرط في شرب العرق في النادي، وكان يسهر إلى ساعات متأخرة في الليل، ثم عاد إلى الاعتدال بعد أن حذره د. إيشايا من مغبة الإفراط، وبعد أن أبدت سها تكرارًا عدم رضاها على الإفراط وأفهمته أنها تصاب بصداق جراء رائحة الكحول.

وفجأة علا فمها ابتسامة فمالت إليه قائلة تريد تحويل الموضوع:

- عاد إلى خاطري حادثة مضحكة سمعتها منها نقلًا عن فرهاد، سميتها المسألة الموزية لطرافتها ولعلاقتها بالموز.

- الموز؟ تساءل عدنان.

- نعم..

أومأت كاتي وأردفت:

- معلم أسو عاد يومًا من المدرسة، وأخبره أنه أي أسو بينما كان يأكل موزة في الفسحة - الفرصة - ناداه ناهيًا إياه أنه لا يجوز أكل الموز في المدرسة، ويجوز له تناول الكعك إن شاء، فأخذ منه الموزة ووضعها في جيب سترته، وبعد دقائق شاهده أسو واقفًا في ركن من بهو المدرسة يلتهم موزته التهامًا، علمًا أن سعر الموزة الواحدة الآن عشرة دنانير، لا يقدم على شرائه إلا الموسورون والأغنياء.

من كل قلبه ضحك عدنان وهو يصور في خاطره منظر المعلم يلتهم موزة تلميذه متواريًا وراء عمود من الأعمدة الحديدية، يتنقل ببصره على ما حوله مذعورًا

وجلاً خوفاً من الاكتشاف، لكن تغيرت سحنته فجأة بعد الضحك فقال لها وهو يهم بالقيام:

- وشر البلية ما يضحك.. من فضلك...

قام مستأذناً ونزل المدرج الصغير متوجهاً إلى الحقل عبر باب صغير من الحائط المنخفض، الذي يفصل البيت عن الحقل، ومن مكانها رآته كاتي ينقل رأس خرطوم الماء البلاستيكي الأصفر من خط الباذنجان إلى خط الباميا وراءه.

نهضت هي بدورها ومضت إلى الداخل، ونزعت ملابس العمل ولبست البنطلون الجينز الأزرق والقميص الوردي، وشدت شعرها من الورااء بشريط أخضر من الأساس لتشكل بذلك هيئة ذيل الحصان، الشكل الذي فضلت الخروج به إلى الطبيعة، لولا ترهل طفيف في خصرها وعنقها لخالها الناظر أصغر من عمرها بعشرة أعوام.

ومن مكانه رآها عدنان تلوح له بيدها، محركة إياها ما يدل على التوجه إلى الواجهة الأمامية للبيت.

سارا فوق الشارع الذي شهد مرتع وملهى صباهم، وكان زاخرًا بالحفر الصغيرة، عزت كاتي ذلك إلى أن الشارع صار طريقًا خاص بالمارة والطلاب ولا تمر به السيارات، التي شق لها شارع آخر جنوب البلدة، كانت الشمس قد ارتفعت في سماء بلا غيوم، هبات الرياح الخفيفة خفتت من الحرارة التي احتدت أحيانًا حتى اضطر عدنان للإمساك بقبعته أكثر من مرة كيلا تطير من على رأسه في هذا التجوال الأول من نوعه لهما، وما أن بلغا باب المدرسة حيث وزعت جوائز بطولة قتل العقارب في الزمن الغابر؛ حتى توقفت كاتي وأخذت تشير إلى الصورة على باب المدرسة عن شمالهما.

- ماذا ترى يا ثرى؟

سألته كاتي، وأضافت:

- هل هناك من تغيير بين الصورة والصورة آنذاك؟

أخذ عدنان يحمق في الصورة من كل جوانبها، حار وأعلن عجزه متحججًا بتقادم الزمن، ثم استدرك:

- أظن أنه اللون الفاتح، لا أعرف.

- انظر جيدًا، سأساعدك..

قالت ثم واصلت:

- يد التلميذ الممدودة إلى أعلى ساعيًا للإمساك بالحقيبة كانت بعيدة عنها...

هنا قاطعها عدنان بصوت مرتفع:

- تذكرت، في زمن بابا كانت كذلك أمّا الآن فاليد تمسك بالحقيبة.

- وماذا يعني هذا؟

تساءلت كاتي بمكر فشت عنه أسارير وجهها المنفرجة.

حك عدنان رأسه تحت القبعة ثم هتف بحماس:

- عرفت، هذا يعني أن ما سعى إليه التلاميذ في زمن والدي تحقق في هذا الزمن وربما في عهد المدير الجديد الذي صاغ الفكرة.

- أحسنت..

هتفت كاتي ثم وهي تصفق:

- شطارة منك يا شاطر.

استئنفا المسير جنباً لجنب إلى أن بلغا المنعطف الصاعد، أخذ عدنان يقصر من خطواته لتتوازن مع خطواتها، ومن هناك بدأ قلب عدنان بالخفقان الشديد، بلغت مشامه رائحة شجر النبق المتميز المهدئ يملأ الفضاء عبيرها، الجبل الشاهق بدا كغابة خضراء مكتسية من قتمتها لون السواد، دأبت هبة هواء منعشة منحدره من الجبل مارة بالتلال وجه كاتي فبردت قطرات العرق من على جبينها الناصع، تهادت من جرائها ذواباتها النائنة من تحت قبعتها الخفيفة المنقطة البيضاء فوق حواجبها الدقيقة الهلالية السوداء، وفرقت خصلات شعر عدنان الكث المتعرج كالحلزون اللماع على كتفيه.

مرا بالصخرة التوأم التي أصابها الاصفرار لتقادم العهد، يحاذران أن تطأ قدميهما حبّات التوت المتساقطة نُضْجاً، جلسا هناك لدقائق تحت شاتوو، سلطان التوت، أو التوت الشامي، كانت تتأرجح ذواباتها فوقهما منخفضة حتى كادت ثمارها القليلة المتدلية تمس رأسيهما، كان المكان خاوياً تقريباً، إلا من صبية على يمينهما يلعبون ويغنون ويمرحون ويصرخون أمام الدور البيضاء المتراسة فوق المرتفعات الأرضية الصخرية، والتي كانت تدعى بالحي المسيحي حيث كانت تسكن كاتي، وعدا عن بعض النسوة الجاثمات على مدارج ومداخل بيوتهن.

أشارت كاتي جهتهم قائلة:

- إنهم لا يأتون إلى شارعنا ما دام نبيل ونبيلة غير موجودين.

أوماً عدنان دون أن ينبس، وأجال بناظريه فيما حوله، فلمح صبيين تحت إحدى شجرات النبق المترامية أمامه يرميان الطيور بمصيدتيهما، كاد ينقض عليهما لولا أن تدخلت كاتي، نظر إليها عن جنب فوقعت عيناه على شعرها المتطاير من وراء ظهرها، وسرعان ما عاد ينظر جهة الشجرة والصبية فكانا قد اختفيا، رفع عينيه إلى البعيد حيث حمار يجره رجل بالملابس الكردية صعوداً على الجبل، وحمار آخر محمول بالحطب هابطاً منحدرًا في نفس الخط، وثمة راعي يقتاد عنزاته السود إلى فوق صاعدًا، جاشت مشاعره بذكريات العمر غير المنسي، أنست كاتي اضطرابه فبادرته بالسؤال مازحة:

- يا قاتل العقارب هل لك رغبة في ممارسة هوايتك؟

صعد عدنان تنهيدة حارة وأجاب:

- لا أرى عقارب.

- كانوا هنا، شاهدوك فلاذوا بالفرار.

ثم اتخذت علامة الجد:

- تناقص إلى حد العدم بفضل الحملات المنظمة وتحسن نوع المبيدات.

أحب لو أطنب في الكلام عن هذا، لكن ثمة شأن آخر كان يشغل رأسه في تلك اللحظة، فقال وهو يربت برفق براحة يده على الصخرة:

- كان هذا مكانكم المفضل مع كاكه، أليس كذلك؟

شبكت يديها في جحرها وأزاحت توتة سوداء كبيرة وقعت على فخذاها الأيمن فتركت أثراً ضئيلاً على البنطال، ثم مدت نظرها دون اكتراث إلى البعيد على طرفي الأخدود المحاذي لغابة النبق من شمالها، فقالت بصوت مرتج:

- كان أكثر رومانسية منك، وأنت أكثر واقعية منه.

سكنت ثم واصلت مزدردة ريقها:

- وإرادتك أقوى.

في تلك اللحظة ترامي إلى مسامعهما تغريدة طائر القبج؛ فأطربه التغريد السحري فأرهف حسه، ترحزح من مكانه على الصخرة وعلى إثره كاتي، مدركة ما الباعث، أخذ يتقدم إلى غابة النبق بخطى سريعة يشق الأدغال والأشواك المصفرة المتباعدة المتشابكة يشده الصوت ويجذبه دون وعي منه شداً.

وها هما تطأ أقدامهما أرض الغابة المكسوة بالورق اليابس والطري، فأخذا يمشيان وسط ظلالها بخطى وثيدة صامتتين، وبين كل حين وآخر يمد عدنان يده إلى أعلى يمسك ويقطع عنقود نبق يابس حلو بالغ الحلاوة فينزع حباته ثم ينصفها يضع نصفاً في يد كاتي ويلقي النصف الآخر في فمه، وها هو يعترض سبيله ثقب يثير فيه الظنون، ينحني إلى أبعد مدى حتى يكاد أنفه يمس الأرض، غير شاعر ولا مبال أن نصف ظهره قد عري إذ انزاح عنه القميص، وغير مدرك أن عيون كاتي جحظتا في ارتياح وهي ترى آثار السياط على ظهره، تمتد على شكل خطوط متوازية وردية كلون قميصها، وها هو يقلب بنظره في الثغرة ويتفحص بعينه ويتحسس

بيديه الخشتين أطرافها، ويتفرس فيها ثم يرفع رأسه مهممًا: لا ليس هو، إنما هو بيت نمل أو سحلية، فينهض ويواصلان المشي إلى أن بلغا شجرة نبق عجوز سميكة الجذع تعلو على صاحباتها، تسارع نبض كاتي واحمر وجهها وكان لها في ذلك سبب، شدد انتباهه الكلمات المحفورة على الجذع العريض، وجعل يقرأ بصوت: كاترين وفرهاد، حرير، ١٩٦٣.

تراجع إلى الوراء مذهولاً وهو يردد بانفعال:

- صنع من هذا؟

ثم استدرك متسائلًا:

- لا أظن أنها من ذلك الزمان الغابر!

التفت إليها فرأى عينيها المبللتين ولم يزد، وعاد يتفحص الكلمات تاركًا المجال لها لتجفيف دموعها، بعد هنيهة قالت وعيناها الرطبتان تستقران على الحروف في خشوع:

- لم تتلاش بمرور الزمن ولكنها تشوهت، كما تشوه حبنا.

نظر جيدًا يتفحص الحروف مليًا فراع لأمر ما، فالتفت إليها متسائلًا:

- أرى الحروف كأنها مغلفة بغلافين متداخلين؛ الأولى قديمة يابسة، والثانية جديدة وطرية مقارنة بالقديمة وواضحة.

تنهدت كاتي وقالت هي تغالب دموعًا كادت أن تنهمر:

- أنا التي جدتها عامًا بعد عام كي يحيا حبنا على الأقل على الخشب.

شعر عدنان بوخزة خفية من الضمير نيابة عن أخيه، وأضافت بنبرة كئيبة:

- كل عام في ربيع نوروز حيث الاحتفال بالعيد القومي؛ كان أهل الحي يتوجهون جماعات إلى الطبيعة وتدب الأرجاء بالرقص والغناء، وأنا أنظر إلى كل ذلك بقلب مكسور، أحمل ابني في سلته أدعه في نومته هنا تحت هذه الشجرة، ثم أنتزع سكينه من تحت حزامي لأحفر في الحروف وأجدد نقشها ورسمها للصيانة ومنعه من الزوال.

اغتم وجه عدنان وانقبضت أساريره فلم يملك إلا أن أخذ بيدها يجلسها بتؤدة تحت النبقة الأم، ثم يجلس هو مسندًا ظهره على الطرف الآخر من الشجرة، لحظة صمت مشحونة بمزيج من العواطف مرت كأنها دهر، جاء بعدها صوتها المبحوح:
- واطبت على هذا العمل إلى أن وصلنتي رسالته تحمل خبر زواجه.

ران صمت طويل، ثمة حزمة من أشعة الشمس تنفذ من خلال فسحة صغيرة ما بين الأغصان المتشابكة لترسم دائرة ببيضاء على الأرض قبالتها، تغريدة القبع توقفت أصدائها، وحلت محلها زقزقة العصافير، في رأس عدنان زوبعة من الخيبة وفي رأس كاتي همومها وهموم هذا الرجل الذي لم يبقَ له أحد سواها.

استعادت عزيمتها وشكيمتها بسرعة بالغة كعادتها على شجونها بشجاعة، فمدت يداً إلى صخرة ضخمة لاحت لها من خلال الأغصان من بعيد قائلة:

- عدنان يجب أن تدرك أننا أهل الجبل، ويجب أن نكون مثله، وكما الجبل يصعد على ظهره كل راكب وراجل دون أن يلين أو ينال ذلك شيء من صلابته؛ الجبل يوطأ بالأقدام ومع ذلك لا يقطع العطاء؛ جوز ولوز وعشرات صنوف الأعشاب التي يستعمل بعضها كدواء.

هز عدنان رأسه معلناً أنه يشاظرها الرأي، ثم صعد زفرة عميقة وقال بصوت هادئ متسائلاً:

- أتساءل دائماً أمّا حالفك الحظ بالزواج بعد أخي أو قبله؟

سؤاله كان بمثابة ضوء أخضر يبيح لها الكشف عن مكنونات صدرها، زفرت وشهقت شهقة حارة، فقالت ببطء تسترد الأحداث:

- نعم، جاءني ابن المطران قبله، أحببته لكنه تكبر وأراد أن يشتريني، وألح علي بالارتحال معه إلى أوروبا فقلت له بالحرف الواحد: "نبقة واحدة من هذه البقاع لا أبدلها بكل أوروبا وأمريكا"، ومن ثم جاء بنيامين رحمه الله استشهد وهو شاب، ولكنه لم يكن له حظ من الجمال، وكنت حينئذ كأي شابة صغيرة ذات طموح أبحث عن المثاليات والجماليات، ثم جاء رجل آخر مناسب من قبل بيت عمتي ولحسن الحظ عرفته في آخر لحظة، فقد كان عضواً في الحزب الفاشستي فرفضته ونبذته، ثم جاء أخوك الذي فضله وأحببته حباً صادقاً وعميقاً....

سكتت عن الكلام تخنقه العبرات، ولكنها ما لبثت أن عاودت الحديث مخاطبة إياه بنبرة أكثر هدوءًا:

- لكنه صار ملكًا لامرأة أخرى رغمًا عنه، فليباركهما الرب.

خفق قلبه كمداً على قلبها الخائب، أدار رأسه إليها جانباً فرأى على وجهها المرارة، وسألها سؤالاً شغل باله:

- ومتى كانت آخر مرة التقيت فيها بأخي؟ لا يزال عالقاً ببالي أن أخي في رسالته قبل الرحيل طلب منك السماح له للقاء بك وابنكما؛ وما كان ردك؟

صمتت كاترين وهي تسترد الأحداث محمقة في الفضاء المشع وأخيراً قالت:

- الرد أخذته العمة معها شفهيًا، ضربت له فيه زمانًا ومكانًا محددين، ورغم ترددي في تلبية طلبه أولاً لكنني فعلت ذلك رافة به، فأخذت نبيل معي إلى المدينة في الموعد المحدد فسلمته بيد عمتي التي التقت به في المتنزه العام كما كان الاتفاق، وجلست أنا على مصطبة وراء جذع شجرة ضخمة في إحدى أركان المتنزه شبه متحركة، إذ وضعت قبعة شمسية كبيرة على رأسي، فكنت على بعد يسمح لي أن أسمع وأرى، كانت هذه إحدى زياراتي الاضطرارية، إذ لم أزر المدينة إلا مرة أو مرتين في السنة وذلك لشراء مواد طبية، لم أشأ التقرب من رجل وهو مرتبط بزوجة وابنين رغم العلاقة الحميمة، ناهيك ما قد يسببه لقاء كهذا من ارتباك وإحراج لنا كلينا بعد كل ما حدث، وما سترك لقاء من هذا النوع على نفسية الطفل، كنت أتساءل قبل اللقاء ماذا سيقول له؟ فاتفقت مع عمتي أن تكلمه قبل ملاقة ابنه وتبلغه جوابًا على سؤاله الورد في الرسالة: ما أنا بالنسبة له؟ إن أباك مسافر إلى مكان بعيد، رأيته يتلقف الخبر تلقف من أصابته رصاصة في صدره، انفجر وخر على ركبته، لم يكن يتوقع مثل هذا الأمر، رغم كونه مدرّكًا تمامًا أنه لا يوجد طفل لا يسأل عن أبيه، وليس هناك جواب خير من هذا الجواب في مثل موقعنا، فأنا بهذا الجواب قد تركت الباب نصف مفتوح للمستقبل وتقلبات الزمان، ورغم ذلك كانت المفاجأة كبيرة والصدمة عنيفة، كانت لحظات لا تنسى، بكى نبيل على صدر أبيه دون أن يدري من هذا الذي يحتضنه بهذه الحرارة ويمنحه كل هذا الدفء والحنان، كاد قلبي يتفطر وأنا أشاهد فرهاد منبهراً مبتهجاً برؤية ابنه أو اسمعه يهتف من بعيد مخاطبًا عمتي: أهو حقًا نبيل؟ كم كبر بسرعة، وأرى نبيل يرفع رأسه إليه بين ذراعيه يشهق شهيقًا جلب أنظار المارة، وهو يرنو إليه بتوق وجوع كالمستغيث،

وأنا في قرارتي ندمت لتلبية لطلبه رحمة بالطفل، وقلت في نفسي ها هو يعاني من جديد، رغم أنني عملت المستحيل كي أجنبه هذه اللحظة، هذا اللقاء العقيم، المثير والمؤلم، مشهد كهذا يوخز الضمير، المسكين كان في يده علبة كوكا كولا وقعت من يده فرحاً أول ما وجد ذراعين يفتحان له، وها هي عيون نبيل ترسوان على عيون عمتي وسؤال مرسوم على وجهه الصغير المبلل: أهذا هو أبي؟ فتلتفت عمتي مخاطبة إياه: نبيل، أمّا تعلم أن أباك قد سافر إلى بعيد ولا نعرف متى يعود؟ ويتراجع نبيل وينظر إلى أبيه بعينين حزينتين خائبا، وهو يردد كما في الحلم: إنه ليس أب، إنه ليس أبي، وقد احمر وجهه خجلاً للفشل والخيبة، كم تأثرت بتلك الدقائق العصبية التي مزقت فؤادي، وظل فرهاد جالسا القرفصاء لا يرفع رأسه وقد أطبق بكلتا راحتيه على وجهه، ومن حركات يديه المتتابعة وكتفيه أدركت أنه يبكي بحرارة، لحظات مرت كأنها دهر، احتار كيف يتصرف، ونهض أخيراً ووجهه بين يديه، وسار هكذا إلى أقصى زاوية في المتنزه، بعيداً عن أنظار الطفل.

ومن بعيد استدار بعصبية وهتف بهما قائلاً بصوت أشبه بحشرة:

- عمتي سستر وردة، خذوها أمانة مني أن تبلغني كاترين أنني على العهد، وأنني لا أزال أحبها، وأنني سوف أعود قريباً لأخذها.

ثم استدار وغاب عن الأنظار فجأة..

بعد أن فرغت كاتي من القصة التفتت إلى عدنان بوجه مكتئب، ووجه طار اللون منه، بدت متعبة منهكة، نال منها الحزن والهم، فنهضت بتثاقل ومضت إلى غرفتها وقبل أن تدخل قال لها من وراءها:

- كاتي أرغب جداً أن أبدأ عملي غداً.

استدارت له وأبدت موافقتها بكلمة واحدة:

- حسناً.

* * *

رأى نفسه وحيداً في ظلمة الليل، فأتى بالسجادة وفرشها على الأرض، ففضى ليلاً طويلاً بالدعاء والبكاء الصامت، إلى أن أصابه الإعياء فجلس على كرسي أمام صورة أمه، وبجانب صورتها علقت صورة كاترين ونبيل ولكنه لم يتبين وجهيهما بشكل جيد، وظل على هذا الوضع طويلاً في حالة تأمل وخشوع ودعاء ونحيب،

وعندما رفع بصره وأجال بعينه على ما حوله لمح مرآة صغيرة على قاعدة النافذة، فامتدت يده إليها بصورة تلقائية فرفعها بين يديه أمام وجهه يتوسم صورته فيها، فإذا به يلقي بها على الكرسي وهو يردد ساخطاً:

- يا للبشاعة! صرت أبشع مما كنت من قبل، لم أر وجهي فلم أنتبه لبشاعتي.

ثم وهو يرنو إلى ضوء المصباح أخذته نوبة من الهذيان، أخذ يتحدث مع نفسه بعبارات متقطعة وأشباه جمل:

- الشعر.. زال.. والعين.. جحظت، والشقوق القبيحة بانث.

ثم أخذ يواسي نفسه:

- إنها رغم ذلك لا تراني قبيحاً بل جميلاً، مثلها لا ترى غير القلب والله شاهد أنني لم أعذب أحد، سوف يعينني القادر في التغلب على المصاعب والعقبات إن شاء الله.

ثم صرر عن أسنانه وإمارات الإصرار على وجهه:

- قريباً ستجدي لامعاً، إنها تحب النظافة، فستجدي نظيفاً، إن شاء الله.

وقع نظره على ألبوم الصور، فأخرج منها صورة سها وجعل يتأملها ملياً، ولم يلبث أن أعادها إلى الألبوم وترك نفسه يقع في دوامة من الأفكار المتراحمة، فأخذ يوازن ويقارن بين الصور والأحداث ويحاول مواساة نفسه:

- سها، إنها وجه اختفى مهما حاولت فقد تلاشى، وما الفرق بين تلك الصورة القديمة البعيدة وهذه الجديدة القريبة؟ الفرق ضئيل وكبير في آن معاً، كما الاختلاف بين البلبل والفراشة، الله خلق الطيور كي تسهل لنا الأمور ولكي نقتنع أنه لدينا خافية من الكنز مدثور، صوت هذا ورفيف تلك، غناء هذا ورقصة تلك، كل واحدة تضيف وعلى طريقتهما جمالاً ودوراً مناسباتاً بها إلى الطبيعة، فهذه الفراشة البيضاء ترفرف الآن على كياني، ترقص ورقصتها تغنيني عن تغريدة الطيور، فمن بعث بها؟ بهذه الفراشة البيضاء التي أسعفتهم بالماضي وتسعفني اليوم بلا ملل، ما سر هذه المخلوقة الطاهرة؟ إنها لابد أن تكون روح أمي، هي التي بعثتها لي.

جعل يخاطب صورتها راکعاً:

- أمي ها أنا أركع أمامك، إنني أسمعك، فهل تسمعينني دادة، إن ابنتك كاتي أخرجتني من القبر أخيراً، وقبري كان ظلمات في ظلمات، فانتشلتني من الظلمتين معاً، أرى النور يسطع لأول مرة في سماء حياتي، إنه يزداد بهاءً وألقاً.

نهض وخلع بنطاله وفرشه تحت اللباد كي يستوي ويتعدل كما تفعل المكواة، وعلى فراشه عاود مناجاة نفسه وفي عينيه ينبعث شعاع رهيب: لابد ألا أستسلم، ومن يدري ربما تفضي الشفقة إلى حب، بالكد والجهد، الحب كالحق لا يُمنح بل يؤخذ.

ألم به أرق، فنهض ومشى إلى الباحة ووقف تحت عريشة العنب يكتنفه ظلام حالك، فترأت له عن اليمين توهج ضئيل لسيجارة، فاستنتج أنه حارس المدرسة، والتفت إلى اليسار فلاح له نور ضئيل من وراء نافذة المستوصف، فقرر أنه لابد أن يكون الحارس المؤقت.

لم يلبث فعاد أدراجه ولدى مروره في الممر اقتحمت رائحة نافذة أنفه لم يشعر بها عند الخروج، عزاها إلى تبدل الجو، ومن فرجة باب المطبخ رأى زجاجة بنية اللون تلمع في الظلام، فأوجس خيفة، فهمس في نفسه:

- شراب وخبز، لا تنس أنها مسيحية، دعهم يشربون بأمان، أو ليس شرب النبيذ خيراً من شرب الدم؟!.

في الصباح وقبل بدأ الدوام الرسمي ذهباً معاً إلى المستوصف الصحي لملء استمارة طلب العمل؛ كانت البناية عبارة عن خمس غرف؛ غرفة لكاتي وغرفة للموظف الآخر وغرفة للتضميد وزرق الإبر، وغرفة للانتظار وغرفة في نهاية المبنى للحرس.

- هذا المساء ستبدأ عملك كما أردت، وسأمضي باستمارتك هذا اليوم إلى مديرية الناحية للحصول على الموافقة.

قالت كاترين وهي تودعه لدى الباب، وعندما عادت كاتي من العمل وجدت أن البيت تشع فيه النظافة؛ الأطباق غسلت، الأرضية مسحت، والطباخ الغازي يشع، والجدران تلاشت في زواياها خيوط العنكبوت، وأكثر من ذلك سلات الخضر والبيض ملئت وعريشة الكرم أصلحت، والملابس كويت.. اقتربت من الطباخ بدافع من الإحساس بالجوع فلمحت قدرًا منتصبًا عليه، رفعت غطاءه فانبهرت حتى كادت تطلق صرخة عجب، ما هذا؟ تساءلت.

وأجاب عدنان من ورائها بهدوء وهو في ملابس العمل واللطخ تغطي سائرهما:

- حساء من لحم الضأن والسلق والفلافل والبصل وال....

قاطعته متسائلة بدهشة:

- أين تعلمت الطبخ؟

- في الأسر، أرادوا متطوعين لتحضير الطعام للأسرى فتطوعت مع أربعة آخرين.

وهي تحمق في عينيه العسليتين وجبينه الضيق وشعرة المسدول على كتفيه تحت طاقيته، صدره حيث برزت خصلات من شعره الأشعث الأسود تخالطه خيوط بيض، بهرت للتغيرات، اعترأها ذهول ووقفت ثواني عجزت فيها عن النطق.

سرعان ما شمر عدنان عن ساعده، وبينما هي تستبدل ملابس العمل بملابس البيت، أعد هو المائدة، رص الصحون كلها عليها، ومن الثلاجة أخرج وعاء كبير من السلطة مصنوعة من عشرة أصناف من الخضار، ومن ثم وضع وعاء كبيراً من

الماسناو تتخلله قطع الثلج في وسط المائدة، ولما انتهى من كل ذلك وقف ينتظر ظهور كاتي.

وعندما عادت ووقع نظرها على كل هذا لم تملك إلا أن صاحت:
- انها أكلة الملوك.

قال مصححاً:

- اعزيني سيدتي إنها أكلة الفقراء الأغنياء.

تعجبت لكلامه اللطيف بقدر ما أعجبت بطعامه اللذيذ، مضت دقيقة قبل أن تتمكن من استعادة توازنها وقهر انبهارها، فأشارت إليه بالجلوس قبالتها وقالت وهي لا تزال تحت تأثير المفاجأة:

- لا أعتقد أنني أستطيع أن أستغني عنك.

وبعد أن انتهيا من الطعام تعاونوا في حمل الصحون والأقداح إلى المطبخ، ولم يدعها تغسل بل تولى الأمر بنفسه، بينما كانت كاتي قد خرجت إلى الحديقة الأمامية حيث الزهور الصفراء والبنية الداكنة والفراشات البيض وأزيز النحل والزنابير.

لحق بها مرتدياً الجينز والقميص القهوائي والقبعة، وبدا من سحنه أنه كان يشعر برضا وطمأنينة واضحة، فقد انفرجت أسارير وجهه وشع وجهه الضيق ببريق لم تعهده كاتي.

افترش الأرض بجوارها يسرح بنظره إلى المرعى والأطفال والماعز والدجاجات ويستمتع إلى اللغظ الحلو المتموج من هنا وهناك، مد طرفه إلى السماء الصافية والشمس الساطعة فأحس بحرارة تدب في أوصاله؛ ففك أزراراً من قميصه فبرز صدره النصف عاري للعيان، هبة النسيم العليل أثارت رغبته وحفرت فيه طاقة حركية كانت مخزونة منذ عقد من الزمن.

عن قرب شاهد الطحلب يكسو الصخرة، لم ينبس أحدهما بكلمة، وبصمت نهض قائماً ومضى إلى الحديقة خلفه يتفقدوها، وجدها تكسوها الأعشاب والأشواك وتتناثر في أرجائها الأوراق اليابسة، سمع من كاتي أن رجلاً كان يساعدها في العناية بالحقل وسونيا، فلا الرجل ولا سونيا حاضران الآن.

أحست كاتي بحركة خفيفة وحفيف أوراق وقطع وحمل ولهات وهي قابضة في بحر من الخيال في بحر متموج هائج الموج، تدافعها الأفكار والخواطر، فبعد أسابيع سيتم افتتاح المدارس وسيضج المكان بالضوضاء والعيون ستقع على الحديقة، كانا معاً العام الماضي وذهبا معاً هذا العام، فمن يعتني بكل هذا ويحميه، متانة ورجولة وخبرة، أحتاجك عدنان، كأنك صرت المثالي، ثم تعود إلى نفسها وتحل صورة فرهاد بوسامته وقيافته وثقافته محل أخيه، وهتفت في دخيلتها (سأحمل حبك معي إلى القبر يا حبيبي)، تذكر كلماته في شقة البلبل العاشقة وحديثه الرومانسي وحساسيته وذوقه لكل جميل وشاعريته ونبله، "يا ربي أين ذهب ملاكي لقد اختطفوه مني يا لقسوة الزمن"، وضمت يديها في حالة صلاة خاشعة.

وخرجت كاتي أخيراً من صمتها فحانت منها نظرة إلى وراء خاطفة لترى المساحة تدك الأرض دكاً، وأكوام من تراب وحشيش وأشواك متكومة ومتبعثرة هنا وهناك، إنها استحالته إلى عملية كبيرة لولادة قيصرية حيث تشق البطون كي تخرج أثقالها، أثارها العرق الغزير غير العادي المتصعب على وجهه وصدره والمترشح تحت إبطيه، كل هذا الماء من أين جئت به يا عدنان؟ أجالت ببصرها إلى غابة النبق ومنها مررها فوق التلال المحيطة بها من وراء وحيث قطعان الماعز المتسلقة التي بدت بحجم القطط من بعيد، وفجأة توقف الصوت ورائها، فإذا هو منحني قرب خطوط الزهور التي تكتنف الممر الضيق الإسمنتي بين البابين، يقتلع نبتة ويلقيها وراءه، ويقيم ويعدل الساقطة والمنثنية منها، ويزيل اليابسة والمنكسرة بكل دقة، ولأول مرة انتبه لالتفاتتها وعيونها التي رنت إليه مستحسنة عمله الرائع مباركة له جهده وكده، ومنذ تلك اللحظة جعل يلتفت إليها بعد كل إنجاز يقوم به ولسان حاله يقول: هل أعجبك؟ وهي تومئ برأسها وتصفق أحياناً بيدها له.

أخذتها الأحلام وتراقصت أمام عينيها أطياف الصور؛ فرهاد هو الذي يعمل في الحقل بسترته النيلية وبنطلونه السرج الرصاصي، يراه نبيل من الباب فيندفع نحوه فيمسك بيده الصغيرة يسحبه بقوة فيمد بيده الأخرى يحاول جاهداً أن ينتزع المساحة من يديه، لن يفلح فيقع ويقع فرهاد الذي يرفع رأسه يرنو إليها مبتسماً فإذا الوجه وجه عدنان الأسمر حل محل وجه فرهاد الأبيض فإذا الكابوي تلون بالأزرق بعد أن كان قهوائياً داكناً، فيقوم فرهاد من وقعته ببنطلونه الأزرق لافتاً نظرها إليه فإذا بوجهه وقد تبدل إلى أسمر قائم يرنو إليها بعينين شهلاوين واسعتين حول عينه

اليسرى آثار خدود وتشوهات وهو يبتسم إليها مكشّراً عن ثلاث فجوات في نهاية الفك الأعلى، وورائه نبيل يدفعه من ظهره دفعاً عنيفاً فيفقد توازنه ويُسقط نفسه، فيثب الولد عليه يشد يديه من وراء بقبضتيه الصغيرتين وهنا يلتفت إلى أمه منادياً صائحاً فتلتفت إليه فإذا بوجه أسو الأسمر وشعره الأجعد وعينيهِ الضيقتين، يضحك بوجهها معلناً مبهجاً وهو يركل بكلتا قدميه فرهاد في جانبه كما يفعل راكب البعلة فيباغته فرهاد فيدحرج بجسده على العشب فيقع جانبه يقبض عليه من وسطه يرفعه إلى أعلى فوق رأسه يصدر عنهما ضحك طويل هادر يلفت نظرهما إليهما، فإذا برأس عدنان قد حل محل فرهاد وإذا بنبيل يهتف إلى أمه بحركات متتالية مبهجة معلّناً بين يدي عدنان الخشنتين تهزه هزاً للأمام والخلف كالأرجوحة، فيقف عدنان منتصباً يركب فوق رقبتة نبيل بشعره الأملس ووجهه الواضح الأبيض وعينيهِ الواسعتين وأنفه المستقيم المرتفع قليلاً في المقدمة يحاول التملص منه ببراعة، وها هما معاً يركضان نحوها فيرمي نبيل بنفسه في أحضانها وعدنان يفترش الأرض بجانبها يلهث.

غرق في بحر صمت عميق لا يسمع فيه حسيّس ولا رفيف وإذا بصوت يناديها من لا مكان: هل تصيد لي قبح؟ التفتت حولها فلم تجد أحد، ولكن الصوت جاء من بعيد من فضاء النبق الواسع الكثيف، كاترين في فستانها الأحمر وفرهاد في بنطلونه الرصاصي وقميصه الأبيض وسترته النيلية وهو يحمل عصاه تحت إبطه.

تلاطمت أمواج أفكارها المزدحمة في رأسها، الغابة تتحرك إلى الراء وهي واقفة فيخيل إليها أنها تنطلق إلى الأمام، تلاشت جميع الصور أمامها ليحل محلها وجه دادة جميلة فأخذت تتاجبها من أعماق قلبها مناجاة ابنة لأم: ورائي ابنك حي يرزق يعمل، اسمع صوتك، أراك، قل لي يا أمي الوحيدة أنا لك كلي آذان، فمنذ ما خرج ابنك الذي ثكلتك لا يفارق خيالك خيالي في نومي ويقظتي، روعي تواقة إلى كلمة الفصل والبت في أمر هذا القادم من العدم ليستكن ويستقر في بيتي بل بيتكم، هل تعلمين دادة لم جئت لأسكن في هذا البيت؟ أتعرفين الجواب؟ نعم، كنت أحلق وراء روحك مذ أخذك اللحد فعثرت عليها ها هنا.

بلسان روحها المعذبة تكلمت دادة بابتسامتها الباهتة وفمها الصغير وهي ترفل في ملابسها المزركشة، كانت هي نفس دادة جميلة في ذلك اليوم الربيعي الجميل قبل

ثلاثة عقود تزدهي في فستانها الطويل الأخضر، وحول عنقها الخمار الأبيض الشفاف، تطرح بذيله العريض على أعلى الصدر، كانت هي بصوتها الرخيم يضخ في روحها المعذبة حروفاً يعجز الدهر عن محوها لأنها جاءت في أدق مراحل حياتها: "يا لجمال شعرك ويا لجمال عينيك ويا لجمال فستانك، إنه يلائم تمامًا بشرتك البيضاء، أسود على أبيض" كاترين، اسم جميل لفنّانة جميلة جدًا، وهي تتقدم إليها، تهمس في أذنيها، إنها تسمع حسيص صوتها الأبح رغم تقطع أوتارها إنها الآن تعزف بأوتار قلبها سمفونية الحياة الخالدة، أنشودة الحياة والموت الأزلية: - لا يستقر لي هجوع في مضجعي الأبدي شممت رائحته وهو يطأ بقدمه ثراي في ذلك اليوم، أحسنت أحسنت، ممنونة، بارك الله فيك ابنتي...

إنها تباركني؛ تمد يدها المرتجفة صوبي، وبأناملها الملطخة بالتراب ترسل قبلة إلى ابنها في الحقل، مبتسمة مغتبطة، شعور براحة نشوى دغدغ كيائها، رضاء دادة فوق كل المطالب.

تملكتها عاطفة جياشة كالسيل العارم وأحست فجأة أنها تميل إليه بكل أحاسيسها وكيائها وقلبها، إلى الضحية وهي الضحية، وجدت نفسها في موقف المسؤولية ابن دادة جميلة، ماتت من أجل هذا، عزيزة عليها على أمي أحلى كلمة في حياتي سمعتها عنها من فيها: بنتي كاترين، العزيز على العزيز عزيز، أو لم يهمس أبي يومًا تلك الكلمات المتدفقة من قلبه المريض؟ لا بد من النظر في هذه المعادلة.

أفاقت على رفرفة فراشة الحقل ممزوجة بلهائه من غفوتها فالتفتت على عجل وراءه تنفرس فيه وهو يديق الأرض برأس المسحاة الحاد، فيغور إلى عنقها في التربة الطرية ليقلبها على الأطراف، فجعلت توازن الأمور بعيدًا عن تداعيات الخيال وتسعى لنسج خيوطها بمنوال الحكمة والتروي، تفحصته مرة أخرى وأخرى وكأنها القادم الجديد، فلم تجد بُدًا من وشي الخواطر والوحي بالحروف: "إنه الشهم والشجاع، صبيًا غرًا ضحّى بنفسه لقرينتنا، بطل يذكرونه حتى اليوم في مجالسهم دون أن يدري، وما كان ذنبه في ما حصل له؟ حجر شوهه، ثم جاء استغلال سذاجته، قاده مدنيًا إلى جبهة القتال دون علمه، إن له في قلبي منزلة شهيد ولو كان حيًا، الشهيد في سبيل العيش الكريم أعلى صنوف الشهادة، سأكون خالية من الإنسانية إن لم أملأ فراغ قلبه المكمود، ومهمتي الإنسانية كممرضة سأضربها

عرض الحائط لو توانيت في إسعاف هذا الغريق وإنقاذه أخيراً بعد تنكر الدنيا له فتتكر لها، أسر وسجن وتعذيب وتنكيل، أية مهمة أقدس من هذه؟ أو ما تقنت أن أكون راهبة، أفضل شهادة لبلوغ هذا المنى إحياء هذا الميت.

ثم بعد كل هذا أو ليس من واجبي إنجاز المهمة التي بدأها أخوه؟ ألم يعتزل في غرفته حتى كاد يجن؟ ألم يتحمل الهوان وكلام الناس الذين نعتوه بالعاشق الأشمط؟ ألم يبك إلى آخر لحظة في حياته في سبيله؟ إنه طالب بأخيه واعترف أنه يريد به بدلاً لكل الوطن؟ وها هو فارق الوطن من أجل إنقاذ ذريته؟ سحق فواده.. آخ من ذلك اليوم الذي الذي التجأ إلي راكضاً: إنهم ينوون أخذ أسو إنهم يختطفونه منا! إن ابناً في يد أمينة أمّا ابن المرحوم في خطر، ألم يتوسل أن أتزوج له ولو سرّاً، فأراد بذلك إرضاء جميع الأطراف: أمه، أبيه، أخيه وأنا، وأخيراً ولد عدنان تلبية ورضوخاً لمطالب الأم المحتضرة، وفي كل الأحوال إنها تبتسم لي تبارك لي خطواتي".

ثم وهي تستدرك: "وماذا عساي أن أفعل كي أساعده؟ هل أضغط على نفسي وأحبه، أو يجب ترك هذا للزمن؟ أخشى أنه لا مكان لحب آخر في قلبي المعذب، لكن لنرى كيف تسير الأمور، الأيام حبلى"، في رأسها البحر هائج والموج هادر، أصاب ساقها الخدر، أرادت أن تنهض فإذا ببس ورائها تربت على ذراعها، أجفلت وفتحت عينيها بتثاقل كما الإفاقة بعد الحلم، فإذا عدنان يقف منتصباً أمامها كالطود الشامخ والتراب يغطي جسده من أخصص قدميه إلى قمة رأسه، افترش الأرض بجانبها غارقاً في نهر من العرق، ورأى ملامحها مصفرة وعينيها محمرتين فسألها مهتماً:

- ماذا بك كاتي؟ هل تحسّين بشيء يكدرك، إني أراك قد تغيرت سحنك وملاح وجهك تدل على الوهن.

سحبت نفساً عميقاً وقالت بصوت هادئ وببطء:

- عدنان، في قلبي شيء أود أن أصارحك به، فأنا بحاجة إليك لتستمع إلي، أود أن أحدثك حول ابني نبيل، فإنني لا أدري كيف سيستجيب لوجودك هنا وما سيكون تفسيرنا لوجودك أنت، أنت حارس، حسناً ولكنك لست بحارس أنت الآن فرد، عضو في هذه الأسرة الصغيرة، ومقيم في هذا البيت الذي هو بيتك قبل أن يكون بيتي...

كلماتها كان لها نكهة جديدة ولصوتها جرس آخر لم يألفه عنها، فمال برأسه إليها ميلاناً ضئيلاً فقال:

- قولي ما تشائين كاتي، فما أنا بغريب.

صعدت أنة أعقبته بشهقة، فقالت وعينيها الشاردتين تحمقان في الفضاء:

- نبيل عانى صعوبة أراق جرائها على صغره دموعاً حارة، كم مرة عاد من المدرسة باكياً؛ الكل له أب إلا أنا، فأقول له: قل لهم إنه ذهب في رحلة بعيدة، يا رب لو رأيته ذلك اليوم كيف نظر إلى أبيه بفرح غامر يعانقه ويقول: أبي، أنت أبي المرة تلو المرة.. وها هو أخيراً صار ما كان لي عذراً في غيابه حقيقة واقعة، الآن باستطاعة نبيل أن يحلف ليصدقوه، وأخيراً كدّبه زملاؤه قائلين: لو كان حقاً سافر لعاد يوماً لزيارتك.

أطبقت شفتيها ومسحت قطرتي عرق تتحدران من على جبينها برأس سبابتها ثم أردفت في صوت مبحوح:

- لم أشأ أن أعذبه وهو طفل وأقول له إنه تركنا أو هجرنا، ولم أشأ أن أقول له إنه ميت، لأنني لو قلت إنه تركنا لأصبحت مجحفة بحقه، لأنه ظل يعدني بالزواج بعد الرسالة مرات ومرات عن طريق عمتي حتى كتب يوماً أن سها لا تمنع، ورغم رفضي لطلبه لأسباب سبق وأن ذكرتها لم أشأ أن أخيب أمله، أنا أعرفه كما أعرف فهاد، كلاهما مرهف الحس، حاولت مع ذلك أن أصارحه فخانتني الشجاعة.

أزاحت جرادة طائرة من على فستانها الزاهي بظاھر يدها ثم قالت مطرقة:

- أحياناً أشعر بالندم وأعاتب نفسي أنه كان لزاماً علي أن أواجهه بالحقيقة، لو فعلت ذلك لكان الآن حاله حال نبيلة ابنة سونيا، ولكن الوضع يختلف معها... نعم كما ترى فالحال يختلف.

أطلقت زفرة أخرى وعادت تبث شكواها له رافعة عيناها لتستقرا على بيتها القديم الفضي:

- عدنان وأنا عانيت كذلك في في طفولتي على يد زرداك، زوجة أبي، كانت قاسية معي إلى أبعد الحدود، ومن ثم وضعي لطفلي أحدث لي إحراجاً.

ساد صمت مطبق المكان، هبت خلالها نسمة منعشة من وراء حاملة لعبق التراب المقلوب بيد عدنان، أحسا هناك فراغ يلزم ملئه دون تحديد ملامحه وكنهه، بجهدهما

وصبرهما وتعقلهما، من أجل إسعاد طفل آخر، إنقاذ رجل آخر إرضاء قلب أم أخرى، آخ! لكن هل باليد حيلة، القلب كالحذاء إن ولجت فيه قدما شخص اتخذ مقياسه فوسع لهذا وضاق للآخر.

دفنت رأسها في صدرها دقائق طويلة وعندما رفعت رأسها التفت إليها عدنان فإذا بالدموع قد بلغت ذقنها، أخذ بيدها ومضى بها إلى الداخل وحين ما بلغا منتصف الممر أحسا صوت وقع أقدام سريعة وقرع عصا غليظة على الإسفلت خلفهما يقرع الإسفلت قرعاً قوياً متتابعاً، فالتفتا على عجل فإذا برجل قصير القامة رث الثياب أعرج نحيل يرتدي معطفاً ثخيناً رغم الحر ويواري كم بنطلونه الباهت المصفر في جواربه الزيتونية المتهراة رغم دفء الجو، عيناه الصغيرتان تجولان في محجريهما بحركة سريعة لا إرادية أضفتا على هيئته رعباً وريبة، يتبعه على الأثر صبيان، وهو يلوح بعصاه ناحيتهما بالابتعاد مكشراً كاشفاً عن فم بلا أسنان، كل ذلك ظهر لهما بلمح البصر، فإذا بالرجل يتقدم إليهما ولكنه لا يقف حيث هما بل يتابع سيره إلى الباب، ينحني، هنا يحاول عدنان التدخل، يد كاتي تحول دونه، يخرج صحيفة ورق مطبوعة بحروف كبيرة ترى من بعيد ويمد يده الماسكة بها إلى الفرجة أسفل الباب يدفعها دفعا خفيفا إلى الداخل بسبابته، ثم ينهض منتصباً ويمضي في سبيله.

فاغر الفاه تابع عدنان ببصره مسيرة الرجل ويراه يفعل نفس الشيء أمام باب المستوصف، على وجهه تقطب وسؤال أجابت عليه كاتي باختصار:

- إنه نبي الكرد.

- ماذا؟

- تسمعه في المساء.

في المساء وبعد صلاة العشاء وبعد أن عم السكون الأرجاء، وكفت الخرفان عن الثغاء والدجاج عن الصوات والزعيق وسكنت الرياح وهمدت الأشجار كالجبل وتناعت العصافير فوق الغصون؛ مضت معه إلى المستوصف الصحي، التقطت الورقة من على الأرض وقادته إلى غرفته الواقعة في أقصى المبنى، وكانت عبارة عن غرفة بسيطة انتصب فيها سرير حديدي وطباخ غاز صغير، ومنضدة حديدية صغيرة عليها راديو وأقداح وقلم ودفتر ملاحظات ومسبحة، بالإضافة إلى خزان حديدي في إحدى الزوايا.

جلست على الكرسي الوحيد في الغرفة بجوار المنضدة ترفل في فستانها الأبيض الرقراق الطويل، أحاط عنقها وشاح أخضر فاتح وغطى رأسها غطاء أبيض رقيق، أحست أنها مع غريب لأول مرة، وكأنها ضيفة بعد أن كانت مضيضة طوال الوقت، والضيف يكون مهما كانت درجة قرابته دون المضيف في المنزل عند الزيارة، وإن علا فوقه بعد أو قبل الزيارة، الإنسان كائن غريب تحركه الغرائز أكثر من الحيوان دون أن يدري، بدت عيونها منتفخة ووجهها منقبض بعض الشيء يعلوه شحوب طفيف، فقد أرهقتها إرهاصات الضحى.

- تود أن تعرف أولاً من كان هذا الرجل؟

سألته أولاً فأولماً بصمت وهو يزيح شعرات ناشزة من على جبينه، فشرعت تحكي قصة نبي الكرد هذا. صمتت قليلاً تبحث عن رأس الخيط الملفوف في رأسها فوجدته فنطقت قائلة:

- أود أن أسألك أولاً: أتذكر في زماننا معاً في المدرسة كان هناك معلم اسمه ماموستا فيصل، الملقب بماموستا فاصوليا؟

شع بريق في وجه عدنان في حين راحت أصابعه تلعب بالمسبحة التي التقطها من على المنضدة، يبحث عن هذا الوجه في طيات الزمان الغابر، كلما اقترب من الصورة زادت عيناه توسعاً إلى أن وجدها فهز رأسه بنعم وهو واجم غارق في لجة الزمن الغابر.

- إنه يظهر مرة واحدة في السنة في نفس الميعاد في الصيف قبل افتتاح المدارس، ويظهر في بعض الأعوام في أعياد نوروز في الربيع، لا يتفوه بشيء لأنه عاجز، يوزع منشوراته في البيوت والدوائر في وقت خلت من الموظفين، وبعد أن يتم عملية توزيع منشوراته يصعد إلى الجبل حيث كهف الأميرة خازن زاد ويمكث هناك ليلة كاملة، يقضيها في التأمل في سر الوجود مستلهماً روح الأجداد والتاريخ في صوغ مبدأه الذي بدأ به منذ انسحاب السلطة من منطقة كردستان، ومبدأه الذي يسعى إلى تحقيقه لشعبه مبني على أن الشعب الكردي شعب مستقل له جذوره العريقة في التاريخ، من أقدم الشعوب، ففيهم ظهرت الحضارات والأنبياء ومنهم اقتبست الأفكار والرسالات، في هذه الربوع عاش أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام فحري بهذا الشعب أن يستعيد ما سلب من وحيه ورسالاته السماوية، الخلاصة كما يقول نحن نستحق أن يكون لنا مرشد روحي خاص بنا يهدينا بمبادئ تناسب طموحات الشعب الكردي لا العربي أو الفارسي أو التركي، فهو لاء جعلونا مرتزقة لهم نقاتل في سبيل أطماعهم لا من أجل مطامحننا، وهكذا تهنا وضِعنا، الشعب الوحيد الضال التائه من بين شعوب المنطقة لا يملك دولة ولا رسالة ولا أرض محددة بحدود شأن باقي الشعوب، فما أحوج الكرد إلى نبي يوحد الصفوف ويجمع الكلمة ويخرجه من الظلام والضلال كما فعل نبي العرب، وهذا النبي المرشد والمنقذ قد ظهر أخيراً في شخص معلم الكرد ونبيه ماموستا فيصل كه ولو س.

سكتت كاتي ونظرت إلى عدنان، فبدا مشدوهاً مشدوداً يستزيد، فاسترسلت في الحديث:

- وبعد هذه الزيارة يعود إلى بيته الكائن في إحدى القرى القريبة ليعتزل طوال الوقت مفكراً، يسجل كل ما يجول في خاطره من أفكار ومبادئ ويصوغها بالطريقة السجعية الجميلة بقصد التأثير إلى أن يحل صيف جديد فيعيد الكرة.

تساءل عدنان وهو لا يكاد يصدق ما سمعت أذناه:

- قلت لا يكلم أحد، هل هو أطرش؟

- كلا، بل أخرس.

أجابت كاتي.. ثم تداركت:

- بل بالأحرى الأفوه الأخرس.

- لم يكن هكذا كما اعلم؟

تساءل مقطّباً، ردت كاتي وأطنبت:

- عُذّب تعذيباً فوق ما يطيقه جسد إنسان من يد النظام البائد، قلعوا جميع أسنانه الواحدة تلو الأخرى بالكلابتين، ولهذا السبب سمى نفسه كه ولوس، أدرد، نسبة إلى مؤسس إمارة سوران، وأصيب من جراء ذلك بالخرس كما تناقلت الأخبار، وإذا حدث وخاطبه أحد فكل ما يفعله هو أن يقف وجهاً لوجه مع مكلمه، يفتح فمه كاشفاً عن لثة بلا أسنان، ويحشر في يده ورقة كتب عليها مبادئه وآراءه هو في السياسة والدين غالباً، لأن من إحدى شروط النبوة، حسب رأيه، هو أن يكون النبي سياسياً محنكاً.

قالت كذلك وجعلت تنتظر إلى الورقة التي نشرها بين يديها وتقرأ بعض من سطورها:

- لكم يا جبالنا السماء، ويا جبالنا الشامخات فلولاكم ولولا حماكم لكنا الآن من المنقرضين، لكنّا قد انقرضنا كما انقرضت الديناصورات.

ثم رفعت رأسها إليه قائلة:

- اعلم أن أقواله تجري مجرى الأمثال والطرائف والنوادر.

سكنت ثم أضافت قائلة:

- المعروف عنه أنه شخص فريد من نوعه، شجاع إلى حد لا يصدق، بل إلى حد الجنون، بعد الحكومة هددته جماعة إسلامية لانتقاداته وهجومه وفضحه لرجال الدين، ووصفهم بتجار الدين الملاهي الجهلاء المبطنين الكسالى، فزجوه في السجن زمناً ليس بالقصير إلى أن أفرج عنه تحت ضغط ووساطة أبنائه الدرزن، والمدهش بل المحير للعقول والفهم أنه بعد أن خرج من السجن بصق في وجه أكبرهم واسمه كاوه مؤنباً إياه بل متهماً إياه بحرمانه من الموت في سبيل المبادئ صارخاً في وجهه: بأي حق تحرمني من هذه الموتة المشرفة، أنت بفعلتك النكراء هذه تقفل علي باب التاريخ والخلود.

صمتت كاتي لتسترد نفسها ونظفت حلقها بنهضة خفيفة، فقد تتابعت عليه الأحداث التي رآها شيقة ممتعة سواء على القاص أو المستمع، وبعد أن رأت إمارات الرضا والشوق، بل لهفة متناهية على وجه عدنان توغلت أكثر في الأحداث فروت:

– إنه حقًا كان حديث الناس في وقته: بعضهم يقول إنه خف عقله وبعضهم يتهمه بأنه خارق الذكاء كل حسب أهوائه، اتهمه النظام الفاشي بأنه جاسوس متعاطف مع اليهود والصهاينة، يقولون إنه ادعى يومًا نحن الكرد كاليهود قومية دينية لهم نبيهم موسى ولنا نبينا زرادشت، ومبادؤهما وتعاليمهما شبه متطابقة، فحكم بالإعدام، ثم أفرج عنه إذ لم تكن هناك شهود، ولكنه لم ينكر ولم يعترف بل التزم جانب الصمت، ولكن قبل أن يفرجوا عنه قطعوا جزء من لسانه واقتلعوا جميع أسنانه بالكلابتين، وعندما شاهده الناس بعد غياب كان يضحك ويضحك وكأنه ارتاح لهذا التعذيب وفقدان أسنانه، فأخذ يهتف بالحشد الذي تجمع حوله لاستقباله: يا لجهلهم، ظنوا أنهم جعلوني أردد وغاب عنهم أنهم صيرونني النبي كه ولو س الخالد.

توقفت كاتي لحظة تسترد الأحداث فقالت بعد أن تذكرت واحدة:

- بعد الهجوم الكيميائي في حلبجة سأله أحد أصحابه ما رأيته، فأجاب أن العالم المتمدن كان لهم فائض من الفضلات السامة فحاروا كيف يتخلصوا منها، إذ لم يعثروا عندهم مكان مسموح فيه رمي الفضلات هذه، فرشوها على أرضنا لأنها الوحيدة في العالم بلا حدود.

أغم ذلك عدنان فقال معقبًا:

- إنه أصاب أو كاد.

رفعت الورقة إلى وجهها وجعلت تقرأ بعض الفقرات الواردة فيها تحت ضوء المصباح النفطي بصوت عالي:

"بسم خانزاد سيدة الأميرات؛ ضقت ذرعًا بكل هذه القيود، ما الأديان إلا امتداد للعبودية أو تحويل لها - تحويل من عبادة وطاعة العبد لسيده إلى مخلوق لخالقه - وما دور الدين إلا تحويل اتجاه العبودية من سيد ظاهر مرئي إلى سيد باطن غير مرئي".

"كل مخلوق خالق بحد ذاته؛ لو صفى نفسه من الشوائب وفضلات النفس كالحقد والحسد والبغض ونزعة الشر والظلم الذي جبل عليها، وليس هناك منظف ومطهر لهذه القاذورات أكثر فاعلية من الحب الحقيقي".

"الدولة والدين عدوان لدودان لبعضهما البعض إلى أن يبرز خصم مشترك لهما ضد ومعارض في المبدأ والاتجاه فحينئذ يتكاتفان ويتوحدان طارحين خلافتهما آنيا

جانبا، إلى أن تتم تصفيته وإزاحته عن الطريق، إمّا بالقتل أو إجباره على ترك البلاد والفرار، وإذا ما تم لهم ذلك عادا من جديد يتخاصمان".

توقفت كاتي عند هذه الأسطر، وذلك لأن النصوص التالية كانت ستغضب عدنان المتمسك بالدين، فواصلت القراءة بعينها دون شفتيها:

"انتهى دور الدين بظهور الدساتير فألقوا بالكتب السماوية في سلة النفايات".

"من أحب شخص حب عبادة استغنى عن حب من السماء".

"الجوامع والكنائس تمزق وحدة الشعوب بدلا من أن توحيدها".

"حولوا هذه المعابد ودور العبادة إلى حدائق ومنتزهات ومدارس ومستشفيات، وأدخلوا - بعد زوال دور العبادة - رجال الدين في دورة تمريرية كي يتعينوا كمرضين، ويقدموا بذلك خدمة إنسانية للمرضى والمنكوبين إن كانوا حقًا يسعون في الخير ويمقتون الكسل، كما كانت تتشوق به أفواههم فوق منابرهم".

بعد أن أتمت قراءة النصوص وضعت الورقة على المنضدة ثم عادت إلى عدنان تنتظر إليه بثبات مستطلعة رأيه حول هذا الرجل، العبوس بدا واضحا على وجهه الأسمر وضوح البدر في السماء، في ذلك الليل الذي أحال حتى الجبل الأسود إلى بياض، ولكن لم تبدر منه أية نية للتعليق أثناء قراءة كاتي لل فقرات الأخيرة من أقوال ماموستا فيصل سوى أنه هز رأسه بما ينم عن عدم رضاه، ولما أتمت القراءة لم يخف امتعاضه الذي عبر عنه بكلمة مفردة، وهي: كفر.

ثم أجال ببصره في أركان الغرفة فوجدها مرتبة ونظيفة، تزحزح بجسده إلى الورا فوق السرير وأسند ظهره للحائط وجلس متربعا في بنطلونه الجينز وقميصه الجديد، مرت دقيقة كان السكون فيها مطبقا عدا عن أصوات نقيق الضفادع من الساقية خلف المبنى، كسر الصمت أخيرا صوت كاتي الهادئ حيث قالت مشيرة إلى ما تحت السرير وقد أتى إلى خاطرها أمر:

- انظر هناك.

تحرك عدنان ملبيا النداء، فانحنى برأسه إلى ما تحت السرير ثم عاد يقف منتصبا وتساءل والدهشة تعلو وجهه:

- كلاشكوف؟!

أجابت:

- نأمل ألا تحتاج إليه، ولكنه هذا يدخل ضمن واجب الحارس، هنا توجد مواد مغرية للصوص، رغم أننا لم نتعرض حتى هذا اليوم لعملية سطو أو سرقة.

ثم قالت مردفة وهي ترمقه بنظرة ملغزة مستطلعة:

- وأنت تجيد استعمالها حتمًا، ولا أظنك ستطلق رصاصة مهما كانت الظروف إلا للتخويف.

صعد آهة حارة وقال بصوت ينم عن تذمر:

- لعنة الله على السلاح وعلى من خلق السلاح.

نظر إلى تحت قدميه ثم عاد يُعبّر عن أساه بعبارة غيرت من بعض حسابات كاتي وانطباعاتها عنه كشخص عانى من ويلات الحرب وخدم العسكرية وحمل السلاح:

- كل من حمل السلاح فهو قاتل حتى ولو لم يقتل، وهو مقتول حتى ولو لم يُقتل، فتسعون بالمائة من الذين قُتلوا كانوا حاملِي سلاح، ونفس النسبة من الذين قُتلوا كانوا حاملِيه أيضًا فللبندقية ماسورة ناطقة كالقلم: من يحملني قاتل أو مقتول لا محالة.

- ومن لم يحملهُ، أيسلم من الأذى؟ تساءلت بمكر خفي.

- يسلم دائمًا.

- والأملاك؟

- اعلمي كاتي أن من يسرق بطانية من بيت أو إبرة أو كبسولات؛ لو لم يكن بأشد الحاجة إليها لما سرقها.

- وهل تفتح له الباب تفضل جناب اللص؟

تساءلت بحيرة محدقة بهذا الرجل الغريب ووجهه الطويل.

- وجود النور هنا رادع كافي في عدم الاقتراب، وكوني على ثقة أن الفقير المعدم إذا دفعت به الحاجة وعضه الجوع فلن توقفه فوهة بندقية ولا حتى فوهة مدفع، وهل يخشى الغريق من البلل، هو يدرك أنه إن لم يمت بالرصاص مات بالجوع والموتة الأولى أرحم، وإن كان موسورًا وسرق من أجل المزيد فلن يوقفه أيضًا، فهو إن فعل فلن يفعل - لمركزه - ببندقية لكن ببندق، ولا برجل بل برجال، ثم هو لا يأتي في الليل بل في وضح النهار، فهيهات للسان ينطق أو فم يفتح.

لم تملك كاتي وهي تنصت لهذا الرجل الذي ظنوه معاقًا إلا أن تحملق في عينيه الثاقبتين اللتين نمّتا عن عزم وإرادة وثقة في كل حرف يلفظه، وهو يطلق رصاصة الرحمة للسيدة التي أحست بخفقان قلبها في جيبها الناصع، فقال وهو يشير إلى تحت السرير وقد ظهرت بادرة ابتسامة غامضة على فمه الصغير:

- ورغم ذلك، فلهذا السلاح دور وأثر كالسيجارة؛ تخدير آني لمن هو بحوزته وسلبني لمن يقاربه، أو ليس الدخان مبعثًا للنفور، والنار منبّهًا ومذكرًا بالعواقب؟ أمسكت كاتي برأسها بين يديها بعد ما سمعت وظلت لا تُبدي حراكًا لدقيقة واحدة، لم يسمع عدنان خلالها إلا حسييس نفسها المتسارع، صعقت في تلك الليلة المقمرة، رفعت عينيهما أخيرًا بعيون مغمضة وكأنها في حلم، سحبت نفسًا طويلًا ثم ثبتت عينيها الحالمتين في عيني عدنان وقالت بصوت متهدج:

- عدنان كان أخوك شاعرًا أمّا أنت ففيلسوف، وأنت لا تدري.

غض عدنان بصره والاحمرار غطى وجنتيه الداكنتين وقال بعدم اكتراث:

- سيدتي، وما خلق الفلاسفة سوى المحن والشقاء سيدتي، وما خلق البلهاء والأغبياء سوى رغد العيش والغناء، فلو خلت الأرض من التعساء لخلّى العالم من الأنبياء والعلماء ولفرغت المكتبات من الكتب الفكرية، ولزخرت بدلاً بكتب الطبخ والحزورات والترهات.

- سيدتي؟ أقلت سيدتي؟

غمغمت كاتي مع نفسها بصوت مسموع ثم قامت إليه حتى كادت ركبتها تمانان قدميه فوق الفراش، وأخذت تحملق في عينيه تحت الطاقية البيضاء لبرهة وعادت تكرر:

- سيدتي قلت؟ لست أنا بل أنت سيدي.

وجهًا لوجه عين في عين خاطبته بصوت خافت وبخشوع الأنبياء:

- نظرتك إلى العنف والقوة والقتل تطابق نظرتي تمامًا، نحن نغفو عن السارق، ولا نقتل مهما كانت الأسباب، بل نغفو كل من طلب ذلك بنفسه، ولو دخل سارق بيتي من النافذة افتح له الباب وأقول له تفضل الباب أهون، وقد فعلت ذلك في ليلة حالكة، كان شابًا حافيًا ممزق الملابس نظر إلي مطرقًا خجلاً وعاد من حيث أتى دون أن يلتفت، ومنذ ذلك اليوم لا أقفل الباب بالمفتاح، التسامح ديدننا، نحسن حتى للشرير

والمذنب ونعفو عن الجاني فلن يعذب نفس شيء أكثر من رد الإساءة بالإحسان، فما المسيء إلا إنسان أسيء إليه من قبل مسيء، ولن يطفئ ظمأه للإساءة بالمقابل غير الإحسان بغير مقابل.

- إذن ما الفرق بين ديني ودينك؟ أرانا متفقين.

عقب عدنان

- الدين هو الفعل لا المواعظ على الورق أو الشفاه.

قالت كاتي ثم عادت تقتبس من نبي الكرد كه ولوس:

- كل مخلوق إله بحد ذاته لو صفى نفسه من الشوائب وفضلات النفس كالحقد والحسد والبغض ونزعة الشر والظلم الذي جبل عليه، وليس هناك منظف لهذه القاذورات أكثر فاعلية من الحب الحقيقي النقي.

وأردفت تغمض عينيها من التأثير:

- ما أثار اهتمامي مادة من كل ما كتب أكثر من هذه.

وكشفت سرًا:

- وكان لفرهاد رأي شبه مطابق لهذا، الأمر الذي زاد من تلاصقنا عقلاً وفكرًا بعد أن تلاحمنا قلبًا وروحًا.

ثم أضافت معقبة متسائلة:

- عرفتك شديد التعلق بالدين عندما التقيتك لأول مرة، لكنني أشم فيك الآن رائحة التغيير، جور الزمن ربما؟

هز عدنان رأسه بانفعال، تحير كيف يقابل هذا التصريح بالرد الصحيح، وها قد هجمت عليه الذكريات المؤلمة، فقال وقد انقبض وجهه:

- لا أزال متعلقًا به هذا دين أبي وأمي، لكنني غلفته بغلاف اخترته وأعجبت به، يلائم ذوقي وقيمي في الحياة، ولا يخفى أنني حنكتني التجارب في السجن والأسر، وبمرور الزمن أصبحت أدرك أن الدين وسيلة وغاية لكل على السواء، ولكنني رأيت في أكثر من موقع أن الدين استغل استغلالاً بشعاً من قبل بعض مدعي الدين والمستفيدين المنفعين منه، فاتخذوه وسيلة للشر والظلم بدل الخير والعدل، خبرت ورأيت بأم عيني خرافاتهم وخزعبلاتهم، هؤلاء المتشدقين باسم الدين أصحاب اللحايا، كيف جاء أحدهم يوماً يوزع مفاتيح الجنة على الصغار كل من قتل يدخل

الجنة بهذا المفتاح، فسألت يوماً أحد أصحابي الأسرى، وقلت له مماًزحاً: لا أظن أن الله قد أغلق أبواب الجنة بالمفتاح، وهب أنه أغلقها حقاً فهو حتماً قد احتفظ لنفسه بالنسخ الأصلية منها، فما مرت دقيقة حتى أخذوني وانهالوا علي بالسياط، تذكرت حينها أن أحد حراس الثورة كان يتسرق السمع عن بعد متشاعلاً بقراءة كتاب وأن بعضهم كان يجيد اللغة العربية، وأحداث مماثلة لا تصدقها لا العقول ولا القلوب، ومنها أذكر أن أحد حراس السجن أنقص صمونتين من عدد الصمونات الأربعة من حصتنا اليومية بعدما رأى أن اسم أبي عمر وأعطاه لصاحبي الأسير وكان اسمه علي، والذي ناولهما/ أعادهما إلي حالما غادر الباسدار.

ارتعشت كاتي للرواية تارة رعباً وتارة إعجاباً، انعكس تجاوبها على قسماتها التي انقبضت مرة وانفجرت مرة أخرى، مضت دقيقة قبل أن تتمكن من استعادة هدوءها فاعتدلت في جلستها وقالت له:

- عدنان، أخوك كان له بعض أفكار وآراء مغايرة تماماً للمألوف ومن هذه الزاوية أراه يقف على خط واحد مع ماموستا فيصل ولكنه كان أكثر اعتدالاً، أمّا تعليقاته اللاذعة فلها نفس نكهة تعليقك على مفاتيح الجنة التي ذكرتها، رغم ذلك فالفرق شاسع، هو لم يصل وأنت تصلي، هو كان يشرب أنت لا تشرب لأنه حرام.

رمقته بنظرة تتم عن اعتذار فقالت وهي تسترجع صدى فرهاد وصورته:
- أخوك كان يؤمن بشيء يمكن أن أصفه بنوع من الكالفانيسم، الجبرية، أو ما أشبهه، قرأت شيئاً عنها في صفحة كتاب، أفكاره كانت عميقة، فقد اعتزل فترة من الزمن وقرأ كثيراً، أتذكر بعض من أقواله حيث قال لي يوماً من الأيام الجميلة التي قضيناها معاً في شقة عمتي؛ أتعجب أن الأديان أو المذاهب قد تكون حجر عثرة في طريق الحب، في حين أن الحب هو صانع الأديان والأنبياء، أرى أبي المؤمن إلى أذنيه يضرب سها زوجة أخي مثلاً للزوجة المثالية، إنها حقاً امرأة طيبة محببة ودودة، ولكنني أراها صباحاً وهي تضع قدمها على آخر درج من السلم، فتراني داخلاً بغتة عائداً من المدرسة فتمتد يدها تلقائياً إلى رأسها لتسحب الغطاء وعلى عجل، كل ذلك لأن هناك شعيرات أو ذؤابات فلتت من تحته واستقرت على الجبين، وما الداعي لكل هذا العناء؟ أمعي أنا وأنا أقرب إليها من أخيها.

اكتفت كاتي بهذا القدر خشية أن تتوغل في أمور ربما تؤذيه أو تخدشه، ومع ذلك جاءها صدى صوت فرهاد العميق الهادئ موجاً متدفقاً عبر الأثير، فلم يملك حياله شيئاً إلا أن يطلق لسانها العنان:

- وهي لا ترفع رأسها إليّ ولا تنظر في عيني، ملفوفة بالقماش كالدولمة من فوق إلى تحت، أتعجب كيف لا يختنقن تحت طائلة كل هذا الأمتار من الأقمشة، ما أشبهها وأمثالها بكبسولة دواء أنتبايوتك، مغلفة خالية من الهواء تماماً.

تابع عدنان حديثها بمزيج من الدهشة والخلج لأن الأمر تعلق بزوجته السابقة، وبزوجة أخيه الحالية وبأخيه، لكن حبه لكاتي ومكانتها في قلوبهم جميعاً أخرس كل صوت في نفسه، فعاد إليها مستسلماً بكل جوارحه، وغض بصره يجتر بعض ما سمعه للتو، ثم رفعهما إليها فإذا هي تتحب بصمت وبدون دموع.

وضع يداً على كتفها برفق محاولة منه في إشغالها عن كربتها وعن الألم الذي سببه ذكر أخيه، مد يداً دون إرادتها تسحب يدها من على عينيها المغمضتين، إذ غشيتهما سحابة هم انبثق من قعر الزمان الذي منحه دفق الحب الحقيقي ردحاً ثم سلبه منها بغمضة عين فعادت مكسورة الفؤاد تجر أذيال الخيبة بعد أن شع فيها أنوار الأمل والرجاء.

لم يملك وهو بشر له قلب من لحم ودم إلا أن قرب رأسه من هذا الملاك النظيف الطاهر النقي كنفاعة حليب الأم، بحث في مخزون حافظته فلم يعثر على كلمة في هذا المقام أنسب لها ولقلبها المكدود إلا كلمة بل أصغر كلمة في قاموس اللغة العربية وهي:

- الحب.

نطقها فاستيقظت كمن استغرقها سبات طويل، الكلمة كانت مقبورة مدفونة وها هي تخرج إلى الحياة وعلى لسان من؟ لسان من مات ثم عاد ليملاًها بالحياة.. بعد طول ترقب نطقت كاتي بهمس وبحة:

- أحسست بك، وما يداخل قلبك ليس بخاف علي، وهذا محل فخر لي، حبك لي أخذ لا عطاء، لاحظته في نظراتك، في شغلك في نظافتك، وقوفك أمام المرأة، حمامك اليومي، العمل إلى حد الإرهاق، رأيته وسمعت مناجاتك في تلك الليلة الظلماء حيث لفظت في يقظتك ثم في نومك اسمي، ولكن....

قطعت كلامها مفكرة مستجمعة أفكارها ثم بدأت في بث ما جال في نفسها، صعدت تنهيدة حارة طويلة وتراجعت بكرسيها خطوة إلى الوراء:

- اعلم عدنان أن حبي لأخيك كان من النوع القوي، عشق محموم، أحببته بكل جوارحي، وها قد مضت سنوات ألحق فيها جراحي، لو تعلم كم بكيت له، وكم أغمدت همي في صدري؟

ثم وهي تلقي نظرة شاحبة على فرجة بين ستائر الغرفة حيث النور يضيء الحقول المنبسطة وراءها فقالت مفصحة عن مرارة دفينه كالقدر المحتوم:

- عدنان يا صديقي ويا أعز من بقي من هذا الحياة بعد ابني، أنا أرى الحب أحياناً من جانب ضيق، أرى الحب كالمصيدة، كالشرك: الوقوع فيه سهل والخروج منه صعب، لعلمك أحب فرهاد الآن أكثر مما مضى، أراه في كل مكان وزمان على المائدة في الحديقة، على صخرة دادة هناك تلقيت أول وأحلى قبلة منه.

ألقت بهذه الكلمة وكأنها طرحت معها كل أثقالها من على كاهلها، فأخذت تتنفس بصوت وحشرجة، داعبت يدا عدنان غطاء رأسها الشفاف فقال بصوت خافت وبنبرة يكتنفها أسى:

- آسف لإزعاجك كاتي، يا عزيزة قلبي، وجودي بعث فيك أشجاناً أنت في غنى عنها.

قالت وقد تراقصت دموع في عينيها جاهدت ألا تنهمر:

- على العكس، إنك الوحيد الآن القادر على مساعدتي على توسيع هذا القفص الضيق وأخيراً إخراجي منه.

وكأنه لم يقتنع بكلامها قال يرنو إلى كتاب أحمر الغلاف ضخّم في الخزان:

- تراودني فكرة أن أذهب وأسكن في المدينة.

تراجعت كاتي فقد حدث تغيير في مجرى الكلام، دبّت رعشة في أوصالها، فتساءلت في نفسها: ما جعله يذهب هذا المذهب البعيد؟ دقيقة مرت توازن وتقلب وتغوص في محتوى جملته الأخيرة، نظرت بعدها في عينيهِ وإمارات الحزن والشفقة بادية على محياها الناصع، فقد أحست ما جال في خاطره بعد إبداء رأيها عن الحب وعن علاقته الحميمة مع أخيه، جففت دموعها وقالت له تحاول التخفيف عن وقع كلماته الأخيرة:

- بعد رحيل أخيك كانت الحياة ساكنة، لم تحركها عدا الرياح، أنت حركتها، أخيراً
ها هنا رجل ذو مبدأ، ثابت العزم شجاع، كريم، شهم.

قامت بعد ما ألفت إعجابها القلبي على الحارس الجديد، مدت يدها إليه فقام لها
وانحنى أمامها باحترام معترفاً عن المصافحة، فسحبت يدها وأسرعت تقول:
- أنت متوضىء معذرة.. لقد نسيت.

وارتسمت ابتسامة طفيفة على وجه كاتي التي احمرت قليلاً، ثم قالت وهي تتجه
نحو الباب:

- عدنان، أظن أننا كلانا بحاجة إلى عزلة قصيرة، يوم، نتفرغ ونخلو فيه إلى أنفسنا
قليلاً، فماذا ترى؟

حرك رأسه بما يدل على الاستحسان وقال:

- لي الرأي نفسه، ونعم الرأي.

وحينها تذكرت أمراً يسره، فاستدارت ومضت إلى الخزانة الحديدية مشيرة إلى
كتاب أثار انتباهه في سياق الكلام فقالت:

- هنا لك المصحف، تركه الحارس، كان متعبداً متديناً جداً.

ثم عادا يسيران في ممر ضيق تقع على جانبيه ثلاث غرف وتفضي إلى صالة
واسعة تفوح منها رائحة المعقمات والمواد الطبية، رصت على جوانبها كراسي
ألمنيوم صغيرة تتوسطها منضدة ضخمة من الحديد.

ولدى البوابة الحديدية قالت له:

- سألقاك غداً صباحاً مبكراً، أعطيك مفتاح البيت لتأكل وتعمل إن شئت، لكن عليك
أن تستوفي حظك من الراحة، وسأراك بعد غد.

أخذت تتنفس بعمق تملأ رئتيها من رائحة النعناع، وعينيها من الجبل المنور بالبدر
ومضات نيران سحائر الصاعدين والمنحدرين منها من بعيد، وأذنيها بخيرير
الساقية، ثمة نهيق حمار عن بعد..

- عدنان، هل هناك حياة أجمل من الحياة ها هنا؟

- طاب مساؤك.

قضى عدنان يومه في التجوال في الطبيعة وتسلق الجبل وقطق بعض الأزاهير البرية وجمعها، ومطاردة الطيور وتسلق النبق، إذ عبأ كيساً كبيراً من النبق وزاول هوايته القديمة في صيد العقارب، والتقى ببعض الرعاة فوق التلال وخاض حديثاً شيقاً معهم، وفي وقت الاستراحة جلس تحت إحدى الأشجار الظليلة وأخذته غفوة طويلة، وتناول بعض الأرغفة التي أخذها معه مع الجبن الأبيض الكردي من الثلاجة التي عبأتها له كاتي في الصباح الباكر.

في الظهرية اتجه نحو السوق الصغيرة وجلس في مقهى وشرب قهحين من الشاي الأسود، زار الوادي المتاخم للمضاحية الجنوبية الغربية حيث استمتع بخير الساقية الهادئ التي تجري في وسطها، واستمع بشغف إلى صوت الناي من الراعي وثغاء خرفانه على حافة الساقية، تمد أعناقها إلى الماء الجاري كاللجين عاكسة أشعة الشمس الساطعة المائلة صوب الغرب، واجتاز الوادي إلى البرية والأرض الصلبة والأشواك والخرنوب والعاقول، ثم دار دورة على شكل نصف دائرة حيث بلغ الطريق المفضي إلى قرية باتاس الصغيرة التي سمع من والده إنه تلقى فيها بعض من علومه الدينية لدى بعض علماء الدين في شبابه؛ فرق قلبه وهفا وجعل لدقائق يتأمل الطريق الترابي الصلب المكسو بالحصى الممتد بين الناحية والقرية التابعة لها..

ومن بعيد تراءت له شجرة التوت العريقة المعمرة التي أعادت إليه ذكرى الطفولة، حيث اعتادت دادة أن تأخذهما هو وأخيه إلى هناك في الصيف لقضاء النهار كله في السباحة في حوض الماء الواقع تحت ظلال الشجرة وأغصانها الطويلة الصلبة المتفرعة، والذي كان الماء يأتيه من نبع من تحت الأرض ثبتت عليه أنابيب تصب في الحوض البدائي صبا أزلياً وأبدياً فيصدر عنه خرير ساحر، ودادة التي كانت تعد الشاي في السماور تحت ظل الشجرة مفترشة خيشة من القصب، ويذكر كيف كان أخوه يتسلق الشجرة بغتة وفي غمرة انشغاله بحديث معها يرمي إليه توتة سوداء ناضجة كبيرة، فتقع مباشرة على مفرق رأسه فيجفل ويثب مذعوراً ثم يرفع رأسه باحثاً عنه فإذا هو قد تورأى وراء أمه التي تهتف: إنه ليس هنا إنه ليس هنا،

بينما سبابتها تشير إلى خلفها، فبباعتها بهجوم معاكس غير متوقع عنيف فبركن فرهاد إلى الفرار والاختباء وراء أحراش من القصب قريبة هناك، وبعد أن ببأس من العثور عليه يصيح به: أين أنت اخرج لا تخف لقد انتهت المعركة، فتعلو وجه دادة ابتسامة عريضة مغتبطة تنم عن فخر وسعادة غامرة لولديها، داعية لهما الله أن يشملهما بالحفظ والرعاية.

ود لو أتاح له الزمان فرصة لزيارة الشجرة، ثم استدار إلى اليمين سالكا الطريق نصف المبلط نحو البلدة؛ فشاهد عن يساره مبنى المدرسة المتوسطة الجديدة، وثلاث دور حجرية متراففة متوحدة في الهيكل عن يمينه، ومن هناك لاحت له مؤخرة المدرسة الابتدائية بنوافذها الكبيرة المشبكة من الخارج كما كانت، والتي توسعت توسعا ملحوظا، وقد غطت حديقته الصغيرة الأعشاب البرية اليابسة والأشواك والخرنوب.

من هناك لاحت له مؤخرة دارهم الحجرية بحقلها الواسع وباحتها الصغيرة وعريشة العنب، ووصل أسماعه صياح الديك الفحل لكاترين، ومن تلك اللحظة وردته صورة وصوت كاترين فقضت على كل الأصوات والصور حوله، منذ المقابلة الأخيرة لا يبرح طيفها مخيلته ولا صوتها مسمعه ولا ملمسها يديه، وبدون وعي منه وجد نفسه جالسا على الصخرة غرقا في أمواج الفكر الهائجة، فأخذ يتساءل هل أبقاني اليوم كي أقع في حب هذه المرأة التي أحبها أخي حتى آخر لحظة، وربما لا يزال، بعد كانت سها البسمة الوحيدة التي أضاعت ليله، والهدف الوحيد الذي سعى من أجلها ومن أجل سعادتها حتى الموت، وهل كان موته أو شهادته إن صح اللفظ إلا جهدا مضاعفا منه من أجل إسعادها وتأمين كل ما تحتاجها وابنهما؟ كم من مرة سمعت دادة وهي تعلن عن شكواها: ماذا جرى لهذا الولد إنها اختطفته مني، وما اختطفني منها سوى تعلقي بها، وهل كان حبي عبئا؟ كان أنقى صور الحب.

ولكن لكل جمال لوثة، وكم من خد ناصع أبيض تشينه ندبة، وكم من عين غشاوة وكم من قامة هيفاء تقوس، تناقص في عيني كمالها وتبعها جمالها، كنت أخال أنها تحبني حب زوجة لزوج، فإذا بها تحبني لأنني أشبه أخيها، ومنذ متى كنت مسخا أو قردا؟ اعتبرتي نسخة طبق الأصل لا أصلية، لعبت معي خمس سنوات بطولها

وعرضها لعبة الوحش والحسنة، تَبَّأ لها وتَبَّأ لي، إنهم جميعاً لعبوا معي لعبة غير نظيفة لا أقول قذرة، كي يردموا هذه الحفرة اللعينة، ورغم كل ذلك فالإنصاف يقول لولاها لكنت تجرعت السم بدل المرة الواحدة عشر مرات في اليوم، ألم أُحْز على درجة النجاح في اللياقة بفضلها؟ ولو كانت الدرجة عن طريق الغش؟ الطالب غش في الامتحان فانتبهت إليه المعلمة، وبدلاً من أن تكشر له عن أنيابها محذرة انفرجت ثناياها عن ابتسامة فاتنة: استمر، فإنني لست أراك.

في غمرة هذه الأفكار المتلاطمة الهائجة المتزاحمة سمع صوتاً من خلفه أت من بعيد، التفت فإذا هي كاترين في ملابسها البيضاء تفتح باب بيتها تلوح له بحماس وبحركات سريعة تفصح عن سرورها لوجوده هناك، فرد عليها بحركات مثلها وقد دبّت هزة عنيفة في كل أوصاله.

ظلا متقابلين بيتسمان إلى أن رفعت يدها للمرة الأخيرة ودخلت، فعاد إلى حيث توقف وراح يخوض في متاهات الأفكار ودهاليز الذكرى: "هل أرسل الله إلي هذه المسيحية لإعادة الامتحان؟ ألم يول بابا ثقته العمياء في مام بطرس، ود. إيشايا فنعتهم بالأفضل؛ أفضل فراش، أفضل طبيب، أفضل خياط وكاتي أفضل ممرضة، هؤلاء يتصفون ببعض العلامات المميزة وخاصة البساطة والتواضع والخدمات الإنسانية وعلى رأسها الصحة، وها هي كاتي تمد إليه قارب النجاة، في هذا البحر اللجي، متسمة بثالوث أبي.

لم تتفوه حتى اليوم بكلمة أف، حتى حين كانت رائحتي تزكم الأنوف عند أول يوم وصولي، أتوسم في هذه الإنسانية روح إثثار وتضحية قل نظيرهما، لقد أشرفت هذه الفراشة البيضاء على ميلاد ابني في ليلة ليلاء في ليلة تقطعت حتى صلة الرحم في النفوس، وها هي تشرف على عملية مخاض عسيرة وولادة مرتقبة قريبة، ولادة رجل وبطريقة طبيعية لا قيصرية، أتساءل الآن هل هذه هي التي كانت ستجر فرهاد إلى الإدمان على معاقرة الخمر والنوم في النادي والبارات فيما لو تزوج منها؟ في ظني أصاب أبي في كل شيء إلا في هذا.

وتحت ظل الشجرة الأم رقد رقدة لم يستفق منها إلا على صوت وقع أقدام تقترب، فتح عينيه فإذا بصبي يناديه:

- عمي عمي انهض هناك حية تسعى تحتك.

أجفل وأجال بعينه حوله فإذا بالصبي يهرب بعيداً مولياً له ظهره.
أول مزحة يتلقاها من صبي شقي منذ خروجه إلى النور.

* * *

انقضت ليلة؛ وفي الليلة التالية زارته كاتي، فعبأت الجو المحيط بعبيرها الساحر، وفي هدوء وسكون الليل جلسا وجهاً لوجه على كرسيين متقابلين حول المنضدة الحديدية، بدت آية في الجمال، شعت وبرقت كالشمس ضياء والقمر نوراً في ثوبها الأسود الذي أبرز بياضها الناصع وسواد شعرها المسترسل على كتفيها، قرطين ذهبين على صورة قلب يتدليان من كل أذن، وأحذية رمانية تشع في ضوء المصباح الكهربائي، وقلادة تتدلى في نهايتها صورة طفل لم يتبين وجهه، أشارت إليه أن يقترب متسائلة فيما لو عرف من هو، ففعل يتفرس ويضيق عينيه كي يدرس ملامحه بدقة، ولم تمض لحظة حتى رفع رأسه يهتف:

- أحلف إن لم يكن هذا وجه فرهاد عندما كان طفلاً، أين حصلت عليه؟

- إنه نبيل.

- أحقاً؟

قربت صدرها المرتفع أكثر فجعل يمعن النظر فيها، ويعد المواصفات المتطابقة: جبهة عريضة، عيانان واسعتان خضر، فم صغير، أنف يميل إلى الطول مشترك بين أنف أبيه وأنف دادة، شعر أملس... لكن.. سكت وتراجع إلى الوراء واستقام ثم وهو يشير إلى الصورة بألم دفين:

- الفارق الوحيد هو عندما كان فرهاد في عمره كما تعرفين لم تفارقه الابتسامة لحظة.

عرفت ما وراء تعليقه على الصورة وقد أصاب، ولم ترد مكتفية بإيماء إيجابية، ثم اعتدلت في جلستها، ووضعت ساقاً على ساق وسحبت ذيل الثوب إلى ما تحت الركبة فسألته بلهفة منتقلة إلى شأن آخر:

- هل انتفعت من الوحدة والاختلاء إلى نفسك؟

أجاب عدنان ويده على زر قميصه تتلاعب به:

- أكثر مما تصورت وقدرت، تمتعت بجولتي حول البلدة كثيراً، ولكنني لم أكن وحيداً في وحدتي كنت معي أحس بأنفاسك.

حدثته بنظرة عميقة تنم عن رضا وبهجة فسألها عدنان بالمثل:
- وأنت؟

أجابت دون تردد:

- قضيت جل نهاري في ترتيب البيت، وليلي بالصلاة وقراءة في الكتاب المقدس، وأنت قرأت القرآن، رأيت ظلك على الستارة المسدلة من غرفتي، كنت منكفي منحنياً أمام كتاب وليس أمامك إلا المصحف.

هز عدنان رأسه إيجاباً ثم سألها سؤالاً شغل فكره طويلاً:

- وأنا لاحظت لي رفرفة ذؤابات الشموع من وراء ستائر غرفتك، ورأيت نور الشمعة تحترق وأنت تضمين يداك جاثية على ركبتيك، رأيتك أكثر من مرة على هذه الحال، أجزم أنك كنت تصلين كما قلت، وأود هنا أن أسألك ماذا تقولين في صلاتك؟ إنها تختلف عن صلواتنا، لنا مواعيد محددة، حركات ركوع سجود والفاتحة.... و..

قاطعته كاتي مبينة:

- أركع أو أف في صلاتي خاشعة كتعبير عن التذلل والخضوع لله، وفي صلاتي أسعى إلى شركة روحية عميقة مع الله.

أنصت عدنان بانتباه إليها ولكن قسمات وجهه نمت على الريبة والتساؤل، تريث قليلاً قبل أن يواجهها بسؤال آخر فاجأها به:

- ولماذا تنكرون تعدد الزوجات؟

قال عدنان وهو يتذكر رد كاتي على رسالة فرهاد بشأن الزواج، ابتسمت كاتي ابتسامة كشفت عن أسنان كالصدف، فراحت يدها تعبت ببنيقتها البيضاء جاهدة باحثة عن الرد المناسب الهادف، إذ رأت نفسها في مواجهة سؤال تحتاج معه إلى تفكير، فبعد دقيقة تأمل واسترجاع أخبرته ما رأيته مناسباً:

- المسيحية هنا تقرر أنه عندما يتزوج رجل واحد بامرأة واحدة فإنهما سيصبحان جسداً واحداً، وهذه القاعدة لا يمكن أن تتوفر في حالة رجل واحد يتزوج بأكثر من امرأة، هذا فضلاً عن إنه إذا تزوج الرجل بأكثر من امرأة فهو لن يستطيع أن يحب الثانية والثالثة والرابعة بقدر ما أحب الأولى، فالمرأة في المسيحية ليست أقل من الرجل في شيء فهي كاملة في عقلها وفكرها كالرجل تماماً.

أصغى عدنان بانتباه لها فوجد الجواب واضحاً جلياً دون إبداء موافقته أو رفضه للفكرة وللجدل، ولكنه لم يجد مناصاً من التعقيب على ملاحظتها الأخيرة، فحدق في عينيها اللتين شعنا لونا كالنبيذ سواداً فقال:

- وكذا تعاملت مع زوجتي السابقة، فلم أعتبرها أقل مني في شيء بل إنها فاقتني في أشياء.

سرى سكون طويل، فقد بات جلياً لكاتي أن عدنان لم يعد ذاك الـ (عدنان) الذي عهدته، وهذا كان مبعث رضا وسرور لا يضاهي لها، اعتبرته نصراً يسجل نقطة لصالحها.. وما كسر السكون إلا صوتها الرخيم فسألته مستفسرة:

- أود لو نبأتني بماذا كنت تفكر وحدك في نهار وليلة؟

وللفور أتحفها بالرد:

- بالأربعة الأجزاء؟

- من هم؟

- كاتي، أخي، سها وأسو.

- وأنت؟

- كذلك بأربعة: عدنان وأخيك ونفسي ونبييل.

ثم عاجلته بسؤال:

- ونفسك، ألم تفكر به؟

- بلا ولكن من خلالك.

أجفلت لرده العفوي، بدا لها أنه قد بدأ يميل إليها بنوع من الترقب، سحرت بكلامه الجميل وتجاوبه الودود، صعدت تنهيدة خافتة وظلت تتفحص ملامح وجهه الدقيق وسمرته وطاقيته البيضاء تنتصب مائلة على رأسه وأنفه القصير المستقيم كاستقامة نفسه البريئة، فأحست بحركة من باطنها وعواطف متدفقة توججها من أعماقها، شعور غمرها خفي عصي عن الإدراك، خليط من حب وإشفاق وإعجاب مع غلبة روح الإعجاب، وأخيراً تنهدت وتأملته ملياً فقالت وألقت بما تخبئ سريرتها من خطة عمل:

- عدنان، جئت كي أقول لك إنني غداً مسافرة، اشتقت له، إنه عند عمتي، أو عند سونيا وسأعود بعد يومين ثلاثة، وأنت لا ينقصك شيء، الخضار، اللحم، البيض،

الخبز وكل ما تشتهيهِ نفسك، الثلاجة تحت اختيارك، أحلفك أن تتصرف هنا كما هو بيتك، وهذه نسخة من مفتاح البيت.

أغمه الخبر المفاجئ فقال وهو يغالب تأثره:

- أحمًا؟

ثم قال بنفسه مستدرًا وهي تقدم له المفتاح:

- لك الحق! قلب الأم.

مد يده إلى المفتاح وتناولهُ منها ووضعهُ في جيب سترته، ثم قال متسائلًا:

- وحراسة البيت؟

أجابت بغير اكتراث:

- لا يحتاج إلى حارس، فليس عندي شيء ذو قيمة تذكر، عدا عن بعض الذهب وهذا أحمله معي.

سكنت ثم أردفت مشيرة إليه:

- ثم أنت موجود.

ران سكون ثواني جالت العيون فيها بلا هدف، ثم وهي تشهق وترنو إلى البدر في السماء من خلال فرجة النافذة قالت:

- قلقة بأمر الطفل ماذا سيكون موقفه من المستجدات، ولكن لنرى، رباه أنا أجد نفسي أمام امتحان عسير، وفقني في اجتيازه.

ضمت يديها الناعمتين الرطبتين بعرق الحر والعواطف المثارة، أدرك عدنان أن المستجدات تخصه هو وحده فامتدت يداه بصورة تلقائية إلى طاقيته تعدلها، أمسكت بيده كاتي إذ أنست مغزى حركته هذا:

- عدنان، أرجوك، أرجوك، لا تفكر بهذا الأمر مطلقًا، فأنت هكذا طبيعي، ظهر الكثير من المعوقين بعد الحرب، ولكنك وأشكر الرب أنه ليس فيك عيب البتة، شيء بسيط، تأكد.

اقتربت منه ملتفتة حوله فانتزعت طاقيته، ورفعتها ثم ألقته على المنضدة قائلة:

- أنت هكذا أجمل في عيني.

رفع رأسه إليها وسألها:

- إشفاق؟

ارتجفت كاتي للكلمة، فتراجعت إلى الوراء إلى النافذة مذهولة؛ إذ كانت للكلمة هذه قوة نافذة في الأعماق، لم يخفَ عليها ما لدور هذا الكلمة في حياة هذا الرجل، مجرد كلمة تعادل لديه الحياة، فراحت تراجع حساباتها تتأمل البدر من خلال النافذة، أمّا عدنان فقد ترائى له خيال سها واضح جلي في ردائها الطويل الرمادي ترنو إليه والسعادة تغمرها بعودته من الإجازة، فتحت ألبومها أخرجت منها صورتين أحدهما صورة أخيها والأخرى صورته هو، وكلاهما بالملابس العسكرية والنظارات السود، علقتهما لصق بعضهما على الجدار قبالتهما في غرفة نومهما في الطابق الأعلى في بيت بابا، ثم عادت إليه في الفراش وأخذت تعد خصائصهما ووجه الشبه والخلاف بينهما: أنت أضخم وهو أطول، أنت أسمر وهو أبيض، عنقه أطول، ثم تزفر وحرارة نفسها تلدغ عارضه وأخذت تروي عليه قصة تعلق أخيها بها كما روت مراراً..

كل مرة يعود في إجازة يجلب معه هدية، انظر ذاك المعطف الثمين المبطن بالفرو، انظر إلى هذا الخاتم الذي يحيط ببنصري، وهذه الحقيبة اليدوية الجلدية الفاخرة، إنه كان يعاملني معاملة خاصة، حتى حسدتي أُمي وأختي على مكانتي عنده، كان يأخذني معه إلى السينما وأُمي تعرف وتغضب لكنها تسكت، لا أحد يتجرأ علي بكلمة أمامه، وعندما يسافر عائداً إلى وحدته توبخني أُمي ومن وراءها أختي تسعرها، عيب لفئة مثلك زيارة السينما عيب، وعقاباً تكلفني بعمل تنظيف البيت إضافي، مع سيل من الشتائم.

عادت كاتي إليه بوجه يغمره الهدوء والسكينة فقد عادت إليها صورها المخزونة في ألبوم حياتها الخفية، وبكل هدوء وخشوع عادت وجلست قبالته متكئة بمرفقيها على طرف المنضدة فقالت دون أن ترفع عينيها:

- إشفاق؟ قلت إشفاق، وما علي إلا الإفصاح عما تعني لدي هذه الكلمة، فاعلم أنني أحببت أخاك منذ الصغر، ولما كبر وجدته يوماً في حالة يرثى له فزاد حبي له، أي أحببته بقلبي كل السنين ولما أشفقت عليه أحببته أكثر، حتى إنني دست على قلبي حين وجدته في حال يرثى له، وأنا أستمع إليه منتحب: "أبي، أبي، إنه سيموت، سينزف دمًا حتى الموت لو عرف بخطوبتنا، سيموت لا محالة"، كان يرتجف

كالريشة، ضممته إلى صدري أربت على رأسه ودموعه تنهمر على صدري كطفل
فقد أمه، كان مرهف الحس كالطفل، شاعر.

ثم وبحركة لا تخلو من انفعال رفعت رأسها إليه قائلة بتصميم:

- عدنان، أنا كنت أعبد أذاك، ولكنني أحبك كأخ وأعز أخ، واعلم بأن طفلي سيفرح
لوجودك حتمًا، ولكن الشيء الذي لا يزال مبهمًا أمام نظري هو: لا أدري ماذا أقول
له؟

وكأنه لم يفاجأ بالأمر فقال لها بعزم مماثل:

- وأنا كذلك فكرت بالأمر، لذا اقترح أن أسافر إلى المدينة وهناك سأقيم في البيت
الكبير، ولا أظن أن أحدًا يعرفني بعد كل هذه السنين والتغيرات الجسدية
والتقادم في العمر.

استبعدت كاتي الفكرة بسرعة:

- لا أوافقك في الرأي، أنت حارس الآن وضيبي ولم تتعاف بعد من مرضك وآلامك
النفسية، وسنرى كيف ستؤول الأمور.

احتار كيف يقابل القول بالقول ولاذ بالصمت فأردفت كاتي معقبة:

- أرى في وجهك أنك تفهمني تمامًا، وما علي إلا أن أضع اللبنة الأساسية في كل ما
بينت ألا وهو: نعم إنني أشفق ولولا إشفائي هذا على المكرويين والبؤساء والمرضى
لما جعلني الربّ الحكيم ممرضة، ولولاها لصرت راهبة رغم حساسيتي تجاه مهنة
الرهبة.

تراجع عدنان بظهره إلى الورا مشدوهاً فقد أصبح منذ أسره تواقًا إلى سماع كل ما
يتعلق بالدين فقال متسائلًا:

- كيف؟ وماذا تقصدين بالحساسية تجاه الرهبة.

تنفست بعمق وأغمضت عينيها بتثاقل ثم نظرت إليه وقالت بصوت شجي:

- هذه قصة لم أبدأ أن أعرفها أحد، ولكنني في نفسي رغبة ملحة تدفعني إلى قذفها
والتخلص منها كما السم.

وضعت كلتا يديها على المنضدة حيث انبسطت راحتاها فأودعتهما بين يديه بعفوية،
ولكنها سحبتهما بهدوء وفي منتهى الرفق، ابتسمت بمرح للحركة ثم شرعت تقول:

- على الصخرة قصصت على أخيك بعض من القسوة التي عانيت بها زمن طفولتي،
واعلم أنني أنا كذلك متحفظة، محافظة على قيم بعضها عامة وبعضها خاصة بي،
من هذه الأخيرة أنا مع الحشمة والأخلاق وضد الإباحة الجنسية والتعرية وعلاقاتي
اقتصرت على علاقات عفيفة، الاستثناء الوحيد من القاعدة كان أخوك، نشأت
وترعرت هذه الشيمة معي في نفسي منذ صغري، وكانت تجربتي مع الرهينة في
طفولتي درساً بليغاً أعاني على الصمود بوجه المغريات مستقبلاً، ففي صغري
أخذتني زرداك، زوجة أبي، إلى الكنيسة مرة كان هناك قس شاب عرفتني به، وفي
المرة القادمة حين كانت أمي تحضر اجتماعاً لجمع تبرعات لأهل ميت، دعاني
القس الشاب إلى غرفته ففعلت، هناك أراد استغلالني، إغرائني بالمال، فررت هاربة
من بين يديه، فزعة، لم تطأ قدماي منذ ذلك اليوم عتبة تلك الكنيسة، حتى عندما
ضربتني أمي وبعنف لم أرضخ لها، أخيراً كشفت السر، فانهالت علي ضرباً وشتماً
وحكمت علي لصالح القس....

قطعت كلامها وهي تحشرج وبصعوبة اختتمت القصة:

- لن أطول عليك، تلقيت العذاب والضغط المتواصل رغم ذلك لم أنصع لإرادته.

ثم واصلت وهي تتذكر الخاتمة:

- ولم تطأ قدماي الكنيسة تلك إلا بعد أن علمت أنه نقل وحل محله قس هو آية في
الخلق والأدب ودمائة الخلق.

ثمة صرير باب في ركن ما نبهها أن زمن الرحيل حان وأحس بها عدنان، فنهضت
كاتي مرهقة توجهت إلى الباب متمائلة فأخذ يساعدها يسندها، وصاحبها إلى خارج
الغرفة، ولدى عبورهما الصالة البيضاء لفتت نظره صورة معلقة على الحائط،
لاحظته كاتي فأوضحت:

- هذا زميلي الموظف الصحي، أقدم موظف يزيد عمره عن الستين.

- ما أشبهه بأبي في صلته ونظاراته السمكية.

- ولهذا السبب أعامله كأبي.

- أبي الذي رفضك؟!!

هتف في عجب ودهشة فاغر الفاه.

- من إحدى القيم التي أوّمن بها وأتخذها أساساً للتعامل هي أنني أرحب بمن رفضني وأحب من كرهني؛ لأن رفضه وكرهه سيستحيلان حتماً قبولاً وحباً إن جوبها بقبول وحب من لدني.

استمع إلى كلامها والدهشة تعقد فاه، إنها تتفوه بكلام غريب على مسمعه، قطب جبينه يهضم ما سمع، فما كان له أن أبدى إعجابه قائلاً محدقاً في عينيها المشعّتين:
- علي أن أفكر فيما قلته لي هذه الليلة، فإن كلماتك غير مألوفة لكن رائعة جداً، فليس لي إلا أن أبدى إعجابي وأقول إن كان جميع الناس بنفس تفكيرك وتعاملك مع من حولك لساد الوئام بدل الخصام.

نظر إلى ستائر النافذة العتيقة ولكنه سرعان ما أعاد عينيّه من وراء العدسات إلى الصورة أمامه فقال مستفسراً:

- إنه يعرف بوجودي طبعاً؟

- قلت له عين ما قلته لبقية الناس الذين سألوني عنك.

- وماذا قلت؟

- قلت إنه قريب عاد من السجن، يعاني من أعراض مرضية ويحتاج إلى تدّوي، وإنه ليس له أحد، فعينته حارساً...

قالت كاتي ومضت إلى الباب يتبعها عدنان، وبالباب نظرت إليه من فوق كتفها قائلة:

- أراني قلت الصواب، أمّا ترى؟

أوماً برأسه ولم ينبس، وهي تقف وراء الباب لاح في عينيّه رجاء فقال لها بتلعثم:

- قبل أن تسافري لي سؤال.

- قل لي ما في قلبك بصراحة.

قالت كاتي بابتسامة عذبة وتعابير تنم عن أنها تقرأ ما في قلبه..

- ما هو شعورك نحوي؟

نطقها دون أن ينظر في وجهها وقد تورد وجهه، ها قد وقعت المطرقة على السندان. أطرقت كاترين لثانية طويلة تحتار وتشاور عقلها، السؤال كانت تتوقعه منه فلم تتفاجأ به كثيراً، سحبت نفساً طويلاً ثم أرسلتها حارة، تنفست ونفخت بمنخريها وفمها في آن معاً، وأخذت تحقّق في عينيّه اللتان لا يزال الرجاء والإشفاق

يغشيانهما، نفخت ثم نطقت أخيراً تسعى جهد الإمكان إيجاد الكلمات المشجعة غير المحبطة، فقالت بصوت منخفض إلى حد الهمس وهي تتباعد بهدوء ورفق عنه:
- أنا مسرورة جداً لسماع ذلك، ولست منزعة أبداً للسؤال، ولكن اعلم أنني أحبك كأخ كصديق كزميل دائم، اعتبرني أختك، ودادة أمنا نحن الاثنين، أهنأك حب أكبر من حب الأخوة والأخوات، إننا رغم اختلافاتنا وخصوصياتنا نشعر أن بيننا صلة رحم أليس كذلك؟ وفوق كل ذلك فأماننا نحن الاثنين اختبار صعب يجب علينا اجتيازها أولاً، أعني أن أماننا مراحل يجب اجتيازها قبل اتخاذ قرار بهذا الشأن.

تورد وجهه وقال متسائلاً في دهشة:

- من؟ أنا؟ أيضاً؟ أخضع لامتحان مرة أخرى؟

- لست وحدك بل نحن؛ أنت وأنا معاً..

أسرعت تستدرك وتهدي من روعه، ثم خطت إلى الأمام تمشي على الشارع بدلال ونشاط بنت العشرين، وبعد مسيرة بضعة أمتار توقفت في نور البدر التام وفي نفس البقعة التي ارتطمت بها عصا فرهاد أمامها وهما أطفال، ثم استدارت نصف دائرة، وقالت له من مكانها بصوت مبحوح مرتفع:

- هناك رسالة ومبلغ من المال بانتظارك غداً في البيت.

امتزج صوتها مع خرير الساقية ونقيق الضفادع، ونسمة الهواء المعبأ بعبير النعناع البري التي تزخر بها أجمة الـ (اسبيندار)، مضت قدماً ثم استدارت بعد بضع خطوات تلوح له بيدها هاتفة:

- طاب ليلك.

مضت ثلاثة أيام على غياب كاترين من البيت؛ وفي ظهيرة اليوم الرابع عادت مع نبيل فوجدت البيت خاليًا، قالت في نفسها: ربما ذهب في نزهة إلى الجبل، فشمرت عن ساعديها للعمل، صعدت مع ابنها السلم كي ينقلا بعض ما يلزم نبيل من الأشياء والأدوات الخاصة به والتي حفظتها أمه له في الغرفة الصغيرة الوحيدة بالأعلى أثناء غيابه، رصف نبيل نعليه وحذاءه الصيفي عند المدخل وأضاف إليهما زوج حذاء جديد اشترته له كاتي من السوق الكبير المسمى سوق الهرج، وعلقت كاتي بعض ملابسه الصيفية في الصالة.

سرعان ما زحرت أرضية الصالة المفروشة ببساط باهت نظيف بألعبه البلاستيكية والقصص الملونة الزاخرة بالرسوم والنقوش، وأضافت كاتي إليها الألعاب الجديدة: مسدس مائي، وسيارة جيب تعمل بالبطاريات وبيانو ودراجة بخارية وتمثال سوبرمان كبير نسيًا يقف في منتصف المنضدة في زيه الأزرق وذراعه متشابكتان على صدره وعلى وجهه ابتسامة الثقة والاعتداد بالنفس، وعلبة من الكارتون المقوى الشيء الوحيد الذي أخفته كاتي عنه وذهبت به وأودعته في الغرفة الصغيرة في خزانة الخاصة، أعدت وعلى عجل بعض الطعام ورتبت الغرفة التي اندهشت لنظافتها، واندهشت أكثر للمعان المطبخ كأن أحد لم يجلس فيه مدة غيابها.

لاح على وجه نبيل علامة التساؤل وهو يجيل بعينه الواسعتين الخضراوين حول البيت ويصغي بأذنيه فلا حس ولا حسيس، لم تدم حيرته إذ قالت له كاتي وهي تضع في يده فطيرة من الجبن الأبيض:

- كل أولاً فعمك سيصل في الحال، إنه ذهب لجمع الحطب ربما.

وبدا بالأكل وفجأة رفع عينيه إلى أمه:

- وما اسم عمي هذا؟

كاتي لم تشأ أن تخبره بالاسم في المدينة فقالت:

- اسمه عمو عدنان.

حرك شفتيه الرقيقتين مرددًا اسمه مرتين، ثم نظر من الشباك إلى الشارع فلم ير أحد، مضى إلى ألعابه الجديدة يلعب بها بشغف عظيم.

مضت ساعة ولم يعد احتارت في أمره ف راحت تبحث عنه في المستوصف بعد أن خلا من العاملين، لم تعثر له على أثر فازدادت قلقًا وحيرة ورغم ذلك لم يشكل الأمر قلقًا كبيرًا في نفسها إلى أن مالت الشمس إلى الزوال، مضت مسرعة إلى النبق وبحث عنه عند الصخرة والأشجار ووجهت بصرها إلى القريب والبعيد، رأت أجسامًا تتحرك ولم تجد واحد منها يقترب بل كانت جميعها تبتعد، كادت تفقد الأمل فجلست قانطة على صخرة دادة بمواجهة المرعى تاركة نبيل يلعب بالكرة على الشارع وحده.

في زحمة التفكير والقلق التي بلغت أقصاها لمحت من بعيد شبح رجل يتقدم وشيء أشبه بالقفص يتأرجح في يده اليمنى، ربما هو رددت في نفسها برجاء وأمل، ولما ظهر وبانت ملامحه وقامته على حافة المرتفعات الصخرية من ركنها اليمين خاب أملها من جديد، لم يكن هو، فأخذت تتساءل من يكون؟ كان يقترب بسرعة فائقة والهواء يقذف بشعره الطويل إلى الوراء، وكلما اقترب أكثر زاد ارتيابها في شأن القادم، من يكون القادم؟ ظلت تتساءل بشوق يغمره أمل، أمل ظهرت بوابره في طريقة مشية الرجل ولون ملابسه وطول شعره، ولكن إن كان هو هو فأين أخفى نظاراته؟ وأين قبعته؟ وهل وقعت من على رأسه في الطريق؟ لا يعقل، إنه يقترب وها هو يمشي بمحاذاة مرعى المطران عبر الطريق الضيق، وما هذا الشريط الذي يشده في حلقتين حول مقدمة رأسه وعلى الجبين؟ وممن تعلم الصيد وأن يرتدي مثل الصيادين في رحلاتهم إلى الجبل؟ إنه يمسك بيده عصاه ولا يعرج وبسرعة وخفة بالغة، وها هو ينادي من بعيد فاعترتها رعدة، إنه صوته، فكتمت صرخة، لا يجوز، وها هو عدنان يضع قدمه على الشارع مقابل أجمة الأسبيندار، من بعيد نادى به هلعة:

- من أنت؟

جاءها صوته الأجنس كالصاعقة:

- كاتي لا تخافي أنا عدنان.

وها هو يقف قبالتها، وضع القفص بطيوره الثلاثة وافترش العشب اليابس على يسارها يسترد أنفاسه المتقطعة، التفت إلى الولد عند باب المدرسة فلاذ بالصمت يترقب ما ستقول عنه، مالت إليه وعبرت عن شديد دهشتها قائلة:
- لم أظن أن التغيير سيكون بهذه الدرجة حتى كدت لا أعرفك.

جعل يتأمل شعرها ملياً فرد على سؤالها بسؤال:

- بل من أنت؟ هل أنت حقاً كاتي؟

- ها أنت عدت شاباً وسيماً! إنك عدنان آخر.

- كان اسمه ميرزا حلاق.

قال عدنان، وواصل روايته:

- كنت قد سمعت بهذا الاسم منذ طفولتي، بدا أنه قد تعلم كثيراً من فن التجميل وإزالة آثار الحروق والجروح، قال لي إنه ساعد الكثير ممن أصيبوا بنشوهات نتيجة الحروق، وأنه يصنع أصباغه من أعشاب خاصة لها صفة الثبات يقتنيها في وادي معين في الجبل، شكراً لك كاتي، ولكنني أتساءل لم لم تدلني عليه قبل ذلك؟

لم تتفاجأ بالسؤال فأسعفت تسأله المنطقي سريعاً:

- أولاً لم يكن الأثر كبيراً إلى حد التشوه والبشاعة، وإنني حتى قبل السفر بيوم واحد لم أعرف أن هناك حلاق في الجوار له هذه الخبرة، بلى سمعت عنه شيئاً وسألت عنه حقاً بعد وصولك وبحثت عنه، إلى أن وصلني الخبر بوجود هذا الشخص في قرية مجاورة.

كان نبيل يقف من بعيد يرنو إليهما دون أن يتجرأ التقدم إلى الأمام فأشارت إليه كاتي أن يستمر في اللعب، ثم التفت إلى عدنان الذي بدا من ملامحه أنه يستعجل لقاء الولد والتحدث إليه، فقالت كاتي وعينيها تتركزان على نبيل الذي عاد يتقافز بالكرة:

- إنه ولد مطيع وله ثقة عمياء في كل ما أقول وأفعل.

ثم عودة لموضوع عملية الترقيع قالت كاتي:

- وها أنت لا تحتاج حتى إلى النظارات ولا طاقة؟

زفر عدنان ونفى إذ لم يكن متفائلاً إلى درجة عالية وقال:

- أمّا الطاقية فلا فالشريط يمسك شعري، أمّا النظارات فبلى، نظرت إلى المرأة ملياً فوجدت أنه رغم تقلص عمق الخطوط فإن العين لا تزال بارزة واضحة، ولكنها الآن أفضل طبعاً، الحمد لله.

أنصنت كاتي ولم تنبس بشيء وبدلاً أخذت تطيل النظر في الشريطين اللذين يطوقان رأسه ونصف الجبين فتساءلت بفضول بالغ وهي تلمس الشريط بيدها:
- لا أظن أن هذه تدخل ضمن نطاق عمله؟

فرد عدنان على الفور:

- إنها من وحي أفكاري وابتكاري، رأيت صيادين يشدون مثل هذه الأشرطة في رحلاتهم، فصيرت نفسي صياداً باصطيادي ثلاثة قبجات في مغارة في الجبل.

جعلت كاتي تتأمل الطيور منبهة لجمالهما ونقوشها الجميلة: المنقار الأحمر، الريش الرمادي والبنّي والخطوط السوداء التي تتخللها خطوط بيضاء، والرأس الصغير والعنق القصير والدائرة السوداء التي تحيط نصف دائرة بعنقها، وأرجلها العارية القصيرة الحمراء ومشيتها الرائعة الجميلة، فعادت إليها بعض طيف الماضي دادة والشاي ومنقار القبع ومشية القبع لفرهاد، ثم نقلت بصرها تحمق في وجهه قائلة:

- اللحية حلاقتها فكرة ممتازة، وصبغ شعرك كنت بصدد أن أقترحه عليك!

- اللحية رأيت إزالتها أنياً في صالح الولد، وأرجو ألا تؤاخذيني إن تجرأت واستعملت صبغة شعرك.

- كل ما هناك لنا مناصفة وصبغة الشعر لم أعد بحاجة إليها، أنا أفضل الحناء الطبيعية فهي تغذي الشعر.

كانت كاترين ترفل في فستان أزرق قصير عريض من تحت كذلك الذي ارتدته في أيام الطفولة، وفرهاد الذي أطلق عليه كلوشة كشف عن ركبتيه العاجيتين، وأكمات قصيرة كشفت عن ساعديها البضتين الصافيتين..

ساد الصمت إلا عن ثغاء الخرفان في المرعى، وصدى مكتوم منبعث عن ارتطام كرة نبيل بسياج المدرسة، ألقت كاتي نظرة إلى الوراء حيث قطة تموء ثم استدارت قائلة ناطقة بالأخبار:

- ستصل سونيا غداً وحدها، نسيت بعض الأوراق الرسمية التي تحتاجها في سير بعض معاملاتها الرسمية وستعود في اليوم التالي نبيلة متعلقة جداً بجذتها، كما أن نبيل فضل المكوث عند عمتي.

من هناك توقف الصبي عن اللعب، يلقي نظرة خافية خجلى على عدنان ثم يعود إلى اللعب، ومضى يلعب هكذا عين على الرجل وعين على الكرة، عيون تشع خضرة، ووسعتها بيئة من بعيد.. تأمله عدنان بقلب خافق في بنطلونه القصير وقميصه الأحمر وجواربه الصفراء المنقوش عليها رسوم صغيرة من زهور ورؤوس طيور، بشعره الأملس المسرح من اليمين إلى اليسار بميلان شديد.

أخرجت كاتي نفساً قصيراً بشدة من أنفها الضيق، قالت وعينيها على الولد:
- فكرت طوال الوقت هنا وهناك في شقة عمتي وتجاوزت معها وهي ذات خبرة وتجربة، ترددت كل الوقت، السؤال الذي شغل فكرنا كان هل ندعي أنك الأب العائد وبذا نكون قد استأصلنا الغدة المرضية في حياته أم نقول الحقيقة، وأخير استقر رأينا على قول الحقيقة كاملة بلا رتوش، ولكن علينا أن ننتظر إلى أن يعتاد عليك ويأنس إليك ويحبك.

أحنى عدنان رأسه بالإيجاب متمماً:

- ونعم الرأي.

- إذن سنقول له أنت عمه وقد عدت من السجن.

قالت كذلك ثم قامت تنادي الولد، فاقبل ببطء مخلقاً الكرة وراءه على قارعة الطريق، جاء ووقف أمام أمه مطرقاً، فأحاطت بيدها خاصرته النحيفة تخاطبه بهدوء مشيرة إلى عدنان:

- مد يدك إليه هذا هو عمك عدنان.

فعل فتناولهما عدنان بين يديه لمدة ليست بالقصيرة، خلالها شعر أن دم أخيه تدفق في شرايينه تدفقاً، ثم ضمه إليه ضمّاً وهو يضغط على عاطفته خوفاً من أن تنفجر على شكل ينبوع من الدموع، بعد أن انفك عن عمه وقف أمام القفص ينظر إلى الطيور بفضول وشغف متزايد، فاغتنمها كاتي فرصة لتصفية الجو:

- ثلاث قبجات اصطادها لك خاصة، صافحه وقل له شكراً.

وبدون أن يرفع رأسه حرك فمه بالتواء وقال شكرًا، فتناول عدنان يده يشد عليهما بين راحتيه برفق ضاحكًا بصوت ارتج له بدنه الصغير، ثم مال إلى كاتي وهو لا يزال يهزه برفق مداعبًا إياه وهمس لها:

- أول من أطعمني خبز تنور بعد عودتي كان هذا الولد النبيل، حسبوني متسولاً.

ثم رفعه بين يديه وقبله على جبينه والولد لم ينفك ينظر إلى أمه من علوه ساكنًا كالحجر، تعابير وجهه كانت تشي بحزن غامض لا أثر لبراءة الطفولة ولا عفويتها، وفي عينيه الواسعتين خمول وفتور، أنزله على الأرض فإذا به يقترب من القفص متشجعًا مندفعًا أكثر، علت ابتسامة البشر على وجه كاتي المستدير، وها هو يقرب فمه من أذن أمه ويهمس فيه بشيء، كاتي تضحك وتعبر الرسالة إلى عدنان:

- يقول إنه يحب أن يمسك إحداها بيديه.

- حسناً.

فتح باب القفص وأمسك بواحدة أخرجها برفق والطائر يرفرف جاهداً للإفلات، ولكن يدي عدنان كانت له بالمرصاد، وأخذ يتفحصه ونبيل من تحت، يدير عينيه بفضل حول جسد الطائر المرتعش وقلبه الخفاق الهلع، أخذ يقلب الطائر بين يديه أمام عيون كاتي وعيون نبيل المشوقتين وشرع يذكر صفاته:

- إن هذا ذكر القبج، يختلف بدنه عن الأنثى بأن هذا تكثر السواد في ريشه وخاصة تحت عنقه، انظرا، وهناك ارتفاع طفيف فوق رأسه يميزه عن الأنثى، وطبيعي أن هذا أكبر حجماً وقوة.

استمعت كاتي بسرور بالغ وتضاعف سرورها إذ رأت انفراجاً ملحوظاً على وجه ابنها..

- أمسك نبيل.

هتف عدنان وهو يمد يده بالطائر إليه ولكن الطفل جعل يتراجع، فقد أفرغته المحاولة الأولى، فيعيد عدنان الكرة مع كاتي التي تمسك به بين يديها برفق وتؤدة.

- انظري كاتي..

قال مشيراً إلى الطائرين في القفص:

- بقي في الداخل الآن ذكر وأنثى.

ثم وهو يغمر إليها بطرف عينه قال مماًزحاً:
- وجود رجلين مع امرأة في قفص يبعث على الشجار.
تلقت الحكم بصدر واسع ومن ثم ردتته على الفور إليه فقالت بابتسامة ملغزة:
- وكذا سيكون الحال مع وجود امرأتين مع رجل في قفص واحد.
ابتسم ابتسامة عريضة تشي بإعجابه بسرعة بديهتها ثم عاد إلى نبيل يقول له:
- وماذا سنفعل بهذا الفائض؟
سكت نبيل وعاد ينظر إلى أمه كأنه يبحث عن جواب، والجواب أتى من كاتي:
- سنخرجه من السجن كما خرج عمك.. انظر نبيل...
- وسيخرج الآخرين تبعاً ولكن إلى الحديقة بعد أن يألفا المكان.
رفعت يديها عن الطائر فإذا هو ينطلق كالصاروخ وعلى ارتفاع منخفض ولا يتوقف،
وفوق غابة النبق لمح نبيل يحلق إلى أعلى وهو يصيح بحماس منجرفاً مع انفعالاته:
- ها هو رأيته إنه يرتفع، ها هو اختفى فوق التلال.
التفت عدنان إلى كاتي فرأى أنها من الغبطة بمكان، ولسان حاله يقول ربما اجتزت
المرحلة الأولى من الاختبار، وها هو الصبي يقرب فمه من أمه فينقل الخبر تبعاً
إلى عدنان:
- إنه يريد العودة إلى اللعب.
- وأنا ألعب معه حامي هدف.
شرعا يلعبان إلى أن غابت الشمس وتورات وراء التلال، وعادت قطعان الماشية
مثيرة الغبار فوق منعطف الطريق المفضي إلى النبق، فسارت كاتي مع عدنان إلى
البيت بينهما نبيل كل منهما يمسك بيد من طرف.
في الليل شاهدوا معاً أفلام كارتون على شاشة التلفاز: توم آند جيري وباباي العجوز
البحار صاحب الغليون العجيب، كانت لهذه الأفلام شعبية واسعة، ضحك عدنان
كثيراً ولكن خاب ظنه لأن الطفل لم يشاركه الضحك، وعندما أن أوان النوم رافقه
إلى فراشه وأخذ يقص عليه أحسن قصة سمعها من دادة في نفس المكان ملاصقاً
للنافذة المطلة على فناء الدار ومخبزها، إلى أن غرق في نوم عميق.

عاد إليها وعلى وجهه علامات القنوط؛ إنه فقد بعضاً من طفولته يضحك بتكلف ويفضل السكوت على الكلام، تصوري طيلة النصف ساعة التي قضيتها معه الليلة لم أسمع منه كلمة ولا ضحكة من الأعماق.

أوضحت والقلق بادي عليها:

- كما رأيت إنه حساس وقليل الكلام، إنه فقد بعض من مرح الطفل وسذاجته وانطلاقته وإشراقته، كثيراً ما ينزوي ويتحدث إلى نفسه، رغم ذلك فله العديد من الأصدقاء، في البيت يحب أن يكتب ويرسم ويقرأ القصص. وعندما أذن للعشاء قام عدنان مستأذناً متوجهاً إلى عمله..

في صباح اليوم التالي ألفت كاتي عدنان أمام المغسلة في غرفة الحرس ينشف وجهه بعد أن حلق لحيته، في قميصها الطويل الجديد الأخضر الفاتح على الفستان الأبيض وقصة شعرها على الموديل الجديد بدت آية في الأناقة، بعد أن ألفت بعض الإرشادات والتوصيات فيما يخص نبيل، مضى عدنان نحو البيت فألقى نبيل على فراشه غارقاً في نوم عميق، عاد إلى الصالة فلمح بنطلون جينز أزرق وقميص ذا مربعات مختلفة الألوان وحذاء، وقد رصت على المنضدة بنسق، اقترب منها فوجد قصاصة كتب عليها بخط كاتي:

- البس هذه وأرجو أن يناسبك الحذاء.

احتار لكل هذا العناء واحتار أكثر في اتساع مجال تفكيرها، لا تفوتها شاردة أو واردة إلا وأحصتها وأخذتها في عين الاعتبار، فانطلق بطاقة مؤججة في داخله إلى الحقل بعد أن ارتدى ملابس العمل، بدأ بقطف ما نضج من الخضر والثمر وحملها إلى الباحة في سلال من القش والقصب ثم عمد إلى تطهير التربة من الأعشاب البرية والأشواك واختتم بسقي المزروعات، وحينها ظهر نبيل على حافة الباحة الخلفية تحت تعريشة العنب وقد ارتفعت الشمس في كبد السماء، رفع إليه يده فلم يرد الولد بل لبث بلا حراك يجيل النظر فيه.

هتف به:

- انزل، هنا الفراشات لنلاحقها.

لم ينبس بل ظل ساكناً كالصنم، وهتف بذعر كي يجعله ينطلق خوفاً إليه يروم الحماية منه كعادة الأطفال:

- هناك زنابير تحلق فوق رأسك.

وبدلاً من أن يركض إليه كما كان يتوقع؛ انطلق الصبي إلى داخل البيت ودخل غرفته وأقفل عليه الباب، ولم يخرج إلى أن عادت أمه من الوظيفة بعد الظهر، فصعدت إليه ونزلت تضمه إليها وقالت وهي تطلق ابتسامة رقيقة:

- انظر انظر إنه عمك عدنان، انظر ماذا جلب معه إليك؟

أشارت إلى عدنان بعد أن أجلس الطفل إشارة فهم مغزاها حسب الاتفاق، فأخرج علبة كبيرة من داخل الخزان الحديدي اهتز لها كأس بطولة العقارب، ففتحتها فإذا فيها أجزاء قطار فأخذ يرتبه ويركب أجزائه بعناية منقطعة النظير، انتظر الطفل بوجوم مترقبًا، سحب عدنان زر صغير من جانب القطار إلى أسفل فإذا هو يتحرك بارتجاج إلى الأمام مصدرة صوت القطار: توت، توت.. فهش الولد وبش وغشيته موجة من الفرح والعجب، فلو سألته تلك اللحظة من اخترع القطار لقال: عدنان.

في نفس الأثناء كان هناك دق قوي على الباب، هرعت كاتي ففتحته فإذا سونيا تطل من الباب من الخارج، قابلتها كاتي بمرح كبير وقادتھا إلى الداخل، وتناهى إلى عدنان صوت كاتي من الممر المفضي إلى الباحة، باحة الأفندي، تقول للضيافة: لي لك هنا مفاجأة اليوم، وقف عدنان حين دخلت برفقة كاتي التي بادرت بتقديمها إليه فتصافحا وخطبها عدنان مداعبًا:

- سونيا غنية عن التعريف.

كانت سونيا ترتدي بنطلونًا قصيرًا يتوارى نصفه في قميص طويل، صورتها وهو يقف كالمتمسول أمامها لا يحوها تتابع الأيام، فالعملة المعدنية التي قدمتها إليه أمام الدار كانت لها وجهان كما هو الحال، لكن في نظره كتب على وجه خير وإحسان وعلى الآخر مهانة وذل وهوان.

كانت سونيا لا تنفك تحقق بعدنان منذ وصولها، تحقق به طوال الوقت غير مصدقة للتغيرات التي جرت على المتمسول، فانتبه عدنان لذلك فداعبها بفكاهة مرة:

- أول ترحيب واحتفال بعودتي تلقيتك من سونيا؛ صدقة وإحسان عملة معدنية، أشكرها من صميم قلبي فقد أفصحت على أية حال عن نية صافية وطيبة.

تبادلت السيدتان نظرات وابتسامات ذات معنى، الكلمات القليلة التي نطق بها عدنان في حضرة السيدة الجديدة بعثت السرور في قلب سونيا، ومن مكانه حول عدنان ببصره إلى الشارع حيث علا صراخ وصياح الطفلين، ثم استدار ومضى إلى خارج البيت مستأنفًا ووقف في الباحة وفي ذهنه فكرة، استغلت سونيا غياب عدنان القصير فقربت رأسها من كاتي قائلة لها بهمس:

- إنني إنما أعطيت عنوانك للمتسول (أعني عدنان) بعدما تأكد لي أنه هو نفسه الأخ المفقود، وبعد أن أدلى بمعلومات عنك وعن أخيه دقيقة، وكذلك عن البلدة وعن نفسه وخلفية الأسرة وشهادته وبتفاصيل دقيقة، والذي عزز قناعاتي وزاد من ثقتي كانت عينه اليسرى..

لم تكمل كلامها إلا وارتفع وراءهما صوت عدنان مقبلاً يحمل كرسيين حملهما من الباحة:

- أما ترى أنه من الأفضل الجلوس أمام البيت نتكلم ونراقب الأطفال في نفس الوقت؟

تبادلت المرأتين النظرات المفصحة عن استحسانهما للفكرة، فنهضتا وتوجهتا إلى الحديقة الأمامية يتبعهما عدنان ومعه الكرسيين، وهو يعلم أن كاتي فضلت الجلوس على صخرة دادة، فجلس الثلاثة على خط واحد على العشب المصفر يفصلهما عن الشارع مجرى صغير يجري فيه ماء قليل صافي وبخريز مسموع عذب، فبدأت سونيا بالكلام ناقلة النظر بين كاتي وعدنان مبلغة إياهما ما قامت به قبل عودتها:

- وضع فرهاد قبل رحيله كل شيء له أهمية: الأوراق والوثائق الرسمية في غرفتين في الطابق الثاني، طبعاً هذا عدا النقود والمجوهرات، وأقفلها بالمفتاح وأخذ المفتاح معه، ومن ثم كلفنا أخي الصغير غازي للاعتناء وحراسة البيت ليلاً، وأراد فرهاد منه أن يسهر على المنزل نهاراً، ولكن أخي يعمل نهاراً فعبّر عن أسفه العميق. توقفت لحظة ثم أردفت:

- بقيت غرفة فارغة للنوم وغرفة الجلوس بالإضافة إلى الحمام والمرافق والمطبخ في الطابق الأرضي، الدار واسعة جداً وخاصة بعد أن بنى لها غرفتين إضافيتين بالأعلى، وحمام ومرافق صحية، فصار الطابق العلوي يبدو أشبه بشقة مفروشة مؤثثة معروضة للإيجار، وخصص غرفة في أقصى الدار لما تبقى من متاعهم، الأشياء هذه تراها من وراء الباب فنصفه من زجاج، أود هنا أن أذكر شيء، إن من جميع الأشياء التي جلبت انتباهي كان هذا الكم الهائل من مخدات الأطفال...

قربت كاتي رأسها من رأس سونيا تستطلع، فمالت سونيا إليها قائلة:

- كاتي إنه منظر غريب جداً كل هذه الوسائد، والأعجب أنها متدرجة في الحجم، ربما وضعتها سها من أجل الزينة لأنها حقاً رائعة ومتعددة الألوان زاهية، وهناك

شيء أغرب؛ فقد كانت هذه عريضة، عرضها ليس بالحجم العادي وهذا يعزز الرأي في أنها للزينة.

توقفت سونيا وأجالت النظر بمحديثها للتأكد من المتابعة، استمرت في حديثها السابق فقالت توجه كلامها إلى عدنان:

- وكذلك مما جلب انتباهي كثيرًا أنه كان هناك رجل طويل القامة يشبه أخاك كثيرًا اسمه نوزاد كما عرفت، لقد ساعده في كل شيء من أهم الأعمال إلى أصغرها، وعلى الأخص أعمال البيع والشراء والبحث عن المهرب الموثوق به، وأخبرني عنه أخي غازي أنهما كانا دائمًا معا أينما ذهبنا، وسمعت من أخيك أن نوزاد هذا سيجملهم بسيارته فولكس واكن تاكسي حتى الحدود مع تركيا، فكان نعم الأهل ونعم القريب.

هز عدنان رأسه لسونيا بما يعني أنه متفق معها فيما يخص ابن خالته، ثم التفت إلى كاترين يلقي مزيدًا من الضوء عليه:

- نوزاد ابن خالتي، أخ الشهيد عثمان من أمه، عثمان هذا قتله زوج أمه زرباب والذي هرب بعد الجريمة إلى مكان مجهول.

اكتفت كاترين بانحناء قصيرة من رأسها، كانت سونيا نسخة مصغرة من ليلي أم عاشور، امرأة قصيرة بدينة ولكن كانت بدانتها مدمجة لم يعترها ترهل، سألتها كاترين مستفسرة:

- سوني أود أن أعرف كيف تجري الأمور في المنظمة؟

تقطب وجهها وانكمش، فقالت بصوت تخنقه العبرات موجهة الحديث إلى كاتي:
- عدت دون عودة!

- ماذا تقولين؟

هتفت كاتي غير مصدقة أذنها، فأنبأتها بالقصة وهي تكبت نزعة ملحّة نحو البكاء:

- إنهم طردوني من المنظمة، واستبدلوني بشابة جميلة.

- ماذا أسمع؟

تساءلت كاتي وارتعدت، فقالت سونيا وهي تمسح دموعها برأس أنملة:

- إنهم يريدون شابات، فقط الجميلات المراهقات الرشيقات لا مثلي مترهلات.

ازدادت عينا كاتي اتساعاً لهذا الحدث المشين، وانتفضت تقف على قدميها وترتجف وقد عصفت بها رياح الغضب، ثم أخذت تغمغم بصوت أشبه بالصرير:
- تباً لهم من أوغاد.

لم تملك وهي مذهولة ومحسورة إلا أن مدت يديها إلى سونيا تضمها إليها وتضع رأسها على صدرها، وتربت على ظهرها بحنان أخت رحيم، وبعدما سكنت الهبة القوية التي أثارتها سونيا، وبعد أن جفت المآقي بفضل كاتي وكلماتها المريحة المسلية؛ شرعت سونيا بسرده أخبار الحصار كما كان المتوقع، فأمال عدنان برأسه إليها بعد أن كان طوال الوقت يراقب الطفلين.

اعتدلت سونيا وبعيون رطبة بدأت تتلو تقريرها الشفهي:
- طائرات التحالف قصفت حقول القمح بالمشاعل، حرقته سعيًا منها في الإمعان في تجويع الأهالي.

- تناقصت مادة الطباشير في المدارس حتى اضطر المعلمون إلى استعمال الفحم بدلاً منها، وصبغ السبورة بصبغ أبيض بعد أن استبدلت الطباشير بالفحم.

- مر رجل دين ملتحي معمم يومًا في سيارته السوبر تيوتا آخر موديل بمدرسة ورأى المعلمين بلحايا طويلة، فشكر الله قائلاً: يا لهم من أتقياء متدينين، لقد أطالوا لحاهم على سنة الرسول الكريم، ما شاء الله، أخيراً هداهم الله، فرد عليه معلم بئس بالقول: بل هانا الحاجة يا جميل، فالخبز أولى من الموسيقى.

- أكل احدهم كباب في سوق المدينة فمات بعد يومين، فتبين أن الكبابجي مزج مصارين الدجاج الميت مع الكباب.

- سعر الحمار الواحد وصل إلى ثلاثة آلاف دينار، أغلى من سعر السيارة بثلاثة أضعاف لأن الحمار يعمل بالقش والسيارة تعمل بالبنزين، والبنزين طار، وقبل أن ينقرض وضعوا قنينة واحدة منه في المتحف القومي للمشاهدة فقط.

- والمضحك المبكي - وهي تلتفت إلى عدنان- أن حارس مدرسة وجد أن لبادته (حشية من لباد) أخذة في التناقص كل يوم، فشكى الأمر إلى المدير، فتبين بعد بحث ومراقبة مستديمة أن مراقب أحد الصفوف فعلها مضطراً، فكلما طلب منه المعلم ممسحة ولم يجدها بعد عناء صعد السلم حيث فراش الحارس الليلي وقطع رقعة من اللباد وقدمها للمعلم بديلاً للممسحة.

اهتزت الرؤوس للأخبار، وخنقت العبرات الحلو ولم يقصم ظهر الوجوم سوى صياح الطفلين، وها هي الأنظار تحولت إلى نبيل الذي انطلق كالسهم في اتجاههم، ثم مر بهم إلى داخل البيت وعاد يركض وبيده القفص ملوحًا به إلى نبيلة هاتفاً:
- انظري.

ثم جعل ينقل عينيه بخجل بين عدنان ونبيلة، ثم أردف يتكلم بحماس ظاهر:
- كانوا ثلاثة، أطلقنا واحد، إنه صياد، إنه عمي عدنان.

أضافت كاتي مشيرة إلى عدنان محمقة في سونيا مكلمة مبتسمة:
- وإنه حطاب وحارس وبستانجي وجندي وسائق شاحنة وقاتل عقارب.
سكنت لحظة ثم أضافت:

- وحلاق وطباخ.

ذهلت سونيا لهذا التعداد لمحاسن رجل واحد، فأخذت تصفق بيديها الممتلأتين وتعد بأصابع يدها وتهتف:
- إنه إذن تسعة في واحد.

ثم التفتت فلم تجد نبيلة فأشارت كاتي إلى ورائها فإذا بالطفلين منحنين يغرزان سبابتيهما في داخل القفص، ثم يخرجانهما كلما أنسا تأهبًا من الطائرين للنقر بالمنقار.

أشارت سونيا لهما بالاقتراب منهم، ففعلوا خجلى، فمدت يدها حسب ما أملت عليها أمها إلى عدنان، فتناول يدها وقد غمره حزن عميق وهي ترنو إليه بعينين تشعان سوادًا واستحياء، وما هي إلا لحظة حتى انطلقت إلى الشارع حيث كان نبيل قد سبقها إلى هناك ومن ورائها يتدلى شعرها الفاحم الطويل في جديلتين غليظتين على ردفها، وهي تميمس وتميل ميلانا في بدانتها وقصر قامتها.

* * *

في المساء ذاته وبعدما تناول الثلاثة طعام العشاء في الصالة؛ دخلت كاتي غرفتها وعادت وهي تحمل علبة متوسطة الحجم من الكارتون وضعتها على المنضدة وأشارت لنبيل كي يفتحها ففعل، فقالت له اخرج المحتوى ففعل ولم يفلح، فبادر عدنان بإخراجه، فإذا هو بيت مصنوع من أخشاب خفيفة من نوع أطلق عليه فايبر،

وضعه على المنضدة وسط دهشة وانبهار نبيل الشديد، أشارت إليه كاتي وهي تغمز إلى عدنان قائلة:

- هذه هدية من عمك عدنان، إنه يحبك فأحب أن يهديك شيئاً بمفاتيحه..

بينما نبيل يتمتع نفسه بفك وتركيب أجزاء البيت الكبير بشغف عظيم؛ انصبت عينا كاتي وعدنان على صورة دادة موناليزا فتراثت لهما وكأن فرجة ابتسامتها توسعت درجة أخرى، فأحسا بسرور ونشوة غامرة، ساد صمت لذيق الأرجاء كما سكنت الرياح في الخارج.

وحينما حان وقت منام الطفل رافقته إلى غرفته ومكثت معه لفترة طويلة نسبياً على غير المألوف، بعدها خرجت من الغرفة واطفأت السراج فصار البيت أكثر ظلاماً، سكن كل شيء وشمل هدوء الليل كل شيء، جاءت تجلس بجانبه وقالت له بصوت هامس:

- اعذرني على التأخر فقد كان لدى الطفل الكثير مما يقوله، على غير عادته.

صمتت لحظة تراقب ملامح وجهه ثم عادت تقول:

- أتريد الحقيقة؟ إن ما سمعته الليلة من الطفل أوقعني في دوامة عنيفة، إن أفكاره أكبر مما يسع رأسه..

توقفت ثانية ثم عادت تقول:

- أتدري ماذا قال عنك؟

انتفض عدنان وكأنه ينتظر نتيجة الامتحان، فأكملت كاتي:

- أريد أبي أريد أبي، تصور منذ يوم اللقاء في متنزه عنكاوة لم يلح نبيل هكذا على طلب أبيه، وقد مضى كل هذا الوقت.

نفخت متحسرة ثم واصلت بمرارة:

- اعتقد أن تغيره المفاجئ هذا والإصرار في طلب أبيه جاء بسبب ما ورد عن أنباء أن أباه قد سافر للخارج من غير رجعة، فهو يذهب هذه الأيام مع نبيلة ليلعب في المرعى مع بعض الأطفال.

سحب عدنان نفساً قوياً مقتضب وهو يلقي نظرة رثاء في اتجاه الظلام الذي يكتنف غرفة الولد، ولاح له سريرته الحديدي ما ذكره بسريره وهو طفل وندت عنه أنه

غير مسموعة، ظل هكذا واجماً يفكر ويصوب نظره إلى الأرض ما بين رجليه وقد تغيرت ملامح وجهه إلى الشحوب وانقبضت أساريره.

ثم التفت إلى كاترين يتفحص وجهها وقد زال عنه تورده، وعنقها الذي اختفى نصفه تقريباً تحت بنيتها البيضاء، لأول مرة يراها ترتدي ملابس طويلة، هل شعرت أن احتشامها إرضاء له أم ماذا؟ لم تكن هكذا في البداية.. فما غيرها؟ رآها رغم ذلك زادت جمالاً على جمال، ورغم شحوبها بسبب التوتر صدرت منه زفرة حارة وقال لها وهو ينظر إلى عيون دادة موناليزا، وكأنه يستشيرها في كلامه ووجهة نظره:

- يراودني شعور أحياناً بأنني صرت مصدر قلق لكما وتخلخل الوضع، وكأنني قلقت وكدرت ماء كان راكداً قبل ظهوري اللامتوقع؟

أشارت كاتي عجلة بإصبعها تنفي ما صدر عنه فقالت:

- بالعكس أنت نور، وأنستني والولد.

ساد صمت قصير عادت كاتي بعدها وقالت وهي تنظر في اتجاه غرفة نبيل:

- تعلم أنه قريباً ستفتح المدارس أبوابها للطلبة؟

نظرت إليه نظرة فاحصة ثم أردفت جاهدة لتلطيف الجو بابتسامة صغيرة:

- المعلمون والمعلمات والطلبة وأولياء الأمور والفراشون والعائدون من الإجازة كلهم أو بعضهم تراهم يمشون على هذا الشارع باتجاه المدرسة وعائدين منها.

هز عدنان رأسه وفي عينيه شعاع، كحال من يترقب طرح اقتراح أو رأي للمناقشة، وكأنها قرأت ما يجول في خاطره، انحنت تلتقط ملقطاً صغيراً لنزع الشعر من الوجه من على الأرض، ووضعته في يد عدنان الذي لم يملك إلا أن يعبر عن شكره واعتذاره متكلفاً بابتسامة باهتة، وطغى احمرار خفيف على وجهه الداكن، ثم قالت:

- أدرك ما يجول في خاطرك ولي نفس الشعور والإحساس يا صديقي العزيز.

سكنت لحظة تبحث عن الكلمات ثم التفتت إليه تقول له وفي نبرة صوتها الرخيم جدية بيّنة:

- عدنان، كل هذه المدة لم يمض يوم أو ليلة إلا وأنا أفكر وأقلب الأمور ما هو الأفضل لنا الآن نحن الثلاثة من آل الأفندي، في سبيل حل جذري متين لموقفنا وتحديد علاقتنا بعضنا ببعض، إننا نحتاج إلى مزيد من الوقت، تبدأ المدارس ويلتقي

الولد من جديد بأقرانه وزملائه وأصحابه وتعود إليه الإشراف والضحكة حينها سنكون حتمًا في موقع أفضل للبت في الأمور والحكم عليها واتخاذ القرار.

سكنت لحظة تلم حاشية فستانها الأحمر بيد وتطرد ذبابة بالأخرى باعثة رنة خفيفة من أساورها الذهبية الثلاث الصفراء اللامعة، ثم نظرت بعينين نافذتين في عيون عدنان الفلقة المترقبة ثم واصلت بنبرة هادئة دافئة مطمئنة:

- أمهلني مدة كي أفكر بالزواج، فأنا لم أفكر به، واعلم بأنني لو فكرت بالزواج فلن أجد خيرًا منك وخاصة أنا عاهدت أخيك بعدم الزواج، والذي يسهل لي ويبرر الأمر هو حقيقة أنه أنت لن تكون (زرباب) للولد أبدًا لو تم مثل هذا الزواج.

غرق في لجة من التفكير ثم رفع رأسه يقول:

- إنه من الأفضل لي أن أزور المدينة عسى أن أعثر على عمل، وتتاح لك الفرصة للتفرغ لنفسك، فقد ألهيتك طويلًا عن أمورك وحن للمياه أن تعود إلى مجاريها الطبيعية.

أعجبته الفكرة، ولعلها قد جالت بخاطرها الفكرة ذاتها فقالت تؤيده:

- ولن يتعرف عليك أحد.. أنت شخص جديد، والمدينة والبلدة كبرت وتوسعت وجاءها خلق كثير وخاصة بعد حملات الأنفال.

سكنت لحظة ثم عادت:

- وعمتي هناك إن احتجت إلى شيء ما..

ثم صاحت بنبييل الذي جاء يقف بين يديها وقالت له:

- عمك عدنان سيذهب ويبحث عن عمل في المدينة، وسنقوم بزيارته هناك في بيتك وبيتنا جميعًا.

لما رأت الوجوم والانقباض على وجهه الأبيض عادت تطمئنه:

- أولاً يبحث عن عمل ثم يعود إلينا ليلعب معك، حسنًا.

هز الطفل منكبيه ولوى شفتيه الرقيقتين وظل لثواني لا يتحرك، ثم رفع رأسه وقال وهو يسترق النظر من عمه بزاوية عينه ويكلم أمه:

- ونخرج إلى النبق ونصطاد العقارب.

ورمي بنفسه بين ذراعيه المفتوحين وهو يمسك به بكلتا يديه الصغيريتين، حاول بكل رفق أن يتحرك ولكن الطفل شد قبضته عليهما وهو ينقل بعينيه الواسعتين الناعستين بين أمه وعمه.. نقلت كاتي عينيها بينهما وظلت للحظات لا تتطرق، وأخيراً ندت عنها تنهيدة قصيرة وقالت بصوت أشبه بتغريدة القبج:
- إنه قد تعلق بك.

oboi.kan.com

القسم الخامس

أم التيق

obeyikan.com

نفذ عنه الغبار، ألقى نظرة شمالاً وجنوباً ثم دخل ونزع بدلته الزرقاء الطويلة الملوخة ببقع النفط وعلقها، غسل وأكل ثم ارتدى ملبسه، اتجه متثاقلاً إلى غرفة الجلوس ليلقي نظرة أخرى متجددة على أصدقائه المتواجدين على الصور: صورة دادة أسود وأبيض وابتسامتها الباهتة ووجهها المستطيل وعيناها الغائرتان، ويدها اليمنى الراقدة على يدها اليسرى.

صورة الأفندي أبيض وأسود الشاب النحيف وبنطلونه الأسود الباهت والكمّان الملفوفان حول ساقيه من تحت، والشعاع الباهت المنبعث من عينيه الزرقاوين الصافيتين، وصورة عائلية قديمة وصورته مع أخيه في طفولتهما يد بيد وابتسامة خجولة على وجهيهما وقد ضيقا أعينهما أمام ضوء الشمس، وصورة ملونة صغيرة يظهر فيها في يوم الزفاف يمسك بيد سها في بدلة العرس البيضاء وابتسامة عريضة تكشف عن أسنان كالمشط في الاستواء وعيون كعيون المها، ممشوقة القوام، شابة صغيرة.

صورة أخرى جماعية تقف فيها سها في أقصى اليمين، وهي ترتدي ملابس سوداء طويلة وتظهر تقاسيم وجهها الحزينة وحواجب متداخلة وعيون منتفخة غائرة، أعطت انطباعاً أنها بكت طويلاً قبل أخذ الصورة وبيدها اليمنى تمسك بيد آسو الذي وقف بميلان كحال من هو على حافة السقوط، وهو بدوره يعطي انطباعاً أنه يريد أن يفلت من قبضة سها، وظهر هنا في قميصه الأخضر وبنطلونه الأحمر القصير، ويضع على رأسه قبعة خاكية جديدة وثمة شارة لماعة تزين مقدمتها، ولكبرها بدا لعدن أنهما إحدى قبعاته التي جلبها معه يوماً من على الحدود.

ظهر في الصورة أيضاً فرهاد ونوزاد يقفان على الطرف الأقصى على يسار الناظر، وهما يمسكان فيما بينهما بيدي طفل كل من طرف، لم يتعرف عليه عدنان لأول وهلة، ولكنه خمن أنه لا بد أن يكون عدنان الصغير بوجهه الأصفر وتجاعيد شعره البني وحواجبه المتداخلين وأنفه القصير الدقيق وفمه الصغير، وشفته السفلى تنطبق بالتواء خفيف على العليا ينظر إلى أعلى إلى وجه نوزاد، ويبدو من الصورة

أن عمره لم يكد يتجاوز السننتين، وجلب انتباهه نوزاد كثيرًا بطول ساقيه وضموره بطنه وابتسامته الباهتة، وهو بدوره بدا متأثرًا بأشعة الشمس.

ثبت نظره طويلًا على أخيه الذي بدا في ضموره كنوزاد في بدلته السوداء ورباط عنقه الأحمر وقميصه الأبيض، ورغم إمارات الحزن ظهر في غاية الأناقة وحسن الهندام، لفت نظره أن أنفه بدا أطول مما كان عليه دائمًا، ووجود تقعر طفيف في خديه واضح، وتبين له أنه لم يحلق لحيته لأربعة أيام على الأقل، وفي يده يلمع خاتم زواجه، وكانت هناك صور أخرى كثيرة بمختلف الأشكال والأحجام والألوان، فقد كانت الواجهة الأمامية لصالة الجلوس أشبه بمعرض صور فوتوغرافية، رفع رأسه فرأى نفسه وجهًا لوجه؛ أثارت فيه رعشة عنيفة.

عندما وقع بصره لأول مرة على الصورة اقترب منها يقرأ ما كتب من تحتها وليتأكد من شخص نوزاد الذي لم يره منذ زمن بعيد، ولفت انتباهه تاريخ الصورة وهو حزيران ١٩٩٢، أي أنه يكون حينها قد مضت سنة على وفاة أبيه تقريبًا وقرب وجهه أكثر ساعيًا إلى قراءة النقش المحفور على الخاتم فلم يفلح.

وبعد مرور الزمن أصبحت الصورة شغله الشاغل فأخذ يحلل ويدرس الترابط بين الأشخاص وفق ما تمليه عليه وضعية الصورة: فرهاد أقصى اليسار، سها أقصى اليمين، ومن التاريخ واسم الطفل الصغير استنتج أنها أخذت في زمن عاشرها فرهاد معاشرة الزوج للزوجة.

والحقيقة أن أول ما جلب انتباهه حين دخل المنزل لأول مرة كانت صورة الشاب الأسمر الحلو الحزين، والخدوش الثلاثة المتوازية المحيطة كهالة نصف دائرية حول عينه اليمنى، فأخذ يحدق فيها طويلًا يقرأ اسمه بوجل: سامان عبد الرحيم، أثارت الصورة في نفسه ذكريات وأحاسيس شتى، مؤلمة في معظمها، فلم يطق وجود الصورة والاسم فأسرع في انتزاعها من الحائط بتودة واحترام معتذرًا مغمغمًا: وجودك يضايقني، أخذها ووضعها تحت كومة ملابس قديمة في خزان في ركن بعيد من المنزل.

نهض ليتفحص الطابق الثاني كعادته كل يوم بعد العودة من العمل، ولم يكد يمد يده لسحب المزلاج حتى سمع طرقًا على الباب خفيًا، أعقبته ثلاث طرقات متتالية سريعة، قال في نفسه ربما يكون غازي أو آري فتى اللبن.

رفع رأسه إلى الساعة المعلقة على الحائط بمقابلة الصور فرأها تشير إلى الرابعة بعد الظهر، التقط نظاراته وطاقية رأسه من على المنضدة وانطلق إلى الخارج، على الباب وجد نفسه أمام وجه رجل مألوف في ذاكرته بغموض، فتح الباب بعد تردد فلم يكن قد اعتاد بعد على رؤية الزوار.

كان يقف خلف الباب شاب يمسك بيده يد طفل، طويل نحيف، مقدمة رأسه أجرد من الشعر، وشعره مزيج من البني الفاتح والأحمر، عصي عن الوصف الدقيق، أنف طويل رفيع، عيان واسعتان مائيتان، ارتعش أولاً، وتولد في نفسه تساؤل وهو يحملق في وجهه المفتر عن ابتسامة خجولة.

- لا يبدو أنك تعرفني؟

جاء صوته الرخيم.

- أظن أنني رأيتك.

رد عدنان وهو يتأمل الوجهين بعناية.. وفجأة انطلق لسانه كالرعد:

- تذكرت رأيتك في الصورة مع فرهاد والأسرة!

وعلت وجهه صفرة كصفرة الزعفران، وقال في نفسه مرتاباً سينكشف أمري، إنه نوزاد..

- اسمي نوزاد.

قال الشاب يمد يده إليه، ثم واصل قائلاً بأدب جم:

- تشرفت بمعرفتك أنت الحارس كما أظن، أخبرني عنك غازي؟

تناول عدنان يده يصافحها ثم سحبها على عجل وقال يحدق في ملامح وجهه بدقة أكثر:

- تشرفنا نوزاد، تفضل ادخل.

وخطا الزائر إلى الداخل وفي أثره الطفل يتبعهما عدنان، وهناك جلسوا على الكنب الطويلة، بدأ الزائر الكلام قائلاً بمنتهى الهدوء والدمائة:

- جئت خصيصاً إلى البلدة من أجل أن أسلم كاتي رسالة قديمة من فرهاد ناولني إياها من داخل تركيا، ورسالة شفوية، ومررت كي أتقصد البيت الذي تركه في رعايتنا، كي أنبه الحارس - وظهر أنه أنت - أن ينتبه ويشدد الحراسة، فقد كثرت اللصوص في الآونة الأخيرة.

سرت رعدة في بدنه، الوجه هو إذن نوزاد، إنه لم يلتق به منذ أقرّ أبوه قانون حظر التقارب من الأقارب لأنهم عقارب على حد زعمه، تطلع المدعو نوزاد إلى عيني محدثه اللتان لمعتا من وراء نظاراته الخضراء وتحت طاقيته البيضاء ثم قال متحولاً إلى موضوع بدا له ذا أهمية خاصة:

- هناك شحة خطيرة في النفط، وسمعت أنك بائع النفط، فهل يمكنك تدبير برميل من النفط لي لقاء سعر السوق لا أقل ولا أكثر؟

أحنى رأسه بالإيجاب ولم ينبس، وبدلاً ارتسمت على وجهه الطويل الضيق المصفر ابتسامة عريضة، أوجس خيفة، قلبه يخبره أن هناك أمر فظيع سيقع حالاً يغير وربما يفسد كل شيء.. سأله باشتياق:

- قلت رافقت الأستاذ فرهاد وأسرتة إلى داخل تركيا؟
- وهو كذلك.

وأضاف بعد أن رأى الاهتمام المتزايد على وجه محدثه:
- وهناك ركبا الباص باتجاه اسطنبول.

- هل لي أن أعرف لماذا هذا التأخير في تسليم الرسالة، أظن أن وقتاً طويلاً قد مر على سفرهم.

نظر إليه باستغراب وأجاب:

- لو سمحت لي، أظن أن هذا ليس من شأنك.

- وهل لي أن أعرف من هذا الصغير؟

سأل عدنان مشيراً إلى الصبي.

- عدنان اسمه عدو أو إن شئت سمه دلغاً ودلالاً: عدنانوكه.

سكت هنيهة ثم واصل مشيراً إلى الطفل الذي ما انفك يرفع رأسه يحرق في صورته المنعكسة على نظاراته:

- أبى إلا أن يصاحبني، ذهبت أمه في زيارة قصيرة.

- أعتقد أنه هو نفسه الذي يقف في الصورة؟

سأل عدنان ماداً سبابته نحو الصورة الكبيرة في الوسط.

- وهو كذلك.

- إنه يشبه ابن خالتك دادة جميلة.. ألسنت ترى؟
- بالضبط.

- من أين تعرفه؟
- وأعرفك أنت كذلك.
- من أين تعرفني؟

جعل يردد بنبرة كمن يعايش كابوساً..
- ومن أنت؟

- وهل هذا ضروري؟ أليس أبي يقول الأصدقاء خير من الأقرباء؟
أجاب عدنان ببرود.

أمال الزائر إليه رأسه يتأمله متمعناً في النظر إلى كل جسده من فوق إلى تحت، من قبعته مروراً بنظاراته الخضراء التي تخفي حواجه وصدره الواسع تحت قميصه الأصفر المقلم وينطلقونه القهوائي الغامق ثم حذائه الأسود القديم، ثم أخذ يردد مع نفسه في حيرة متفكراً وبصوت سمعه عدنان:

- من أين سمعت هذا الصوت يا ترى؟
- أنا مثلك أحد أقاربه، بل من أقرب الأقارب إليه.

أعلن عدنان وفي نفسه هلع غامض، ابتلع المدعو نوزاد ريقه وسأله مختبراً نفسه وحده:

- أظن أنني رأيتك مرة في مراسيم العزاء لأخيه الشهيد.

قالها بصوت متقطع تنقطع الحسرات، وغلبه البكاء وأردف يفصح عن عواطفه المكتومة:

- كان شاباً يافعاً، كم كان حب القوم والأهل له جميعاً عميقاً، ماتت خالتي حزناً عليه، أصيبت بمرض عضال في الكبد.
- متى توفيت رحمها الله؟

- في الشتاء الفائت كان يوماً مثلجاً ومصقلاً، وبعد وفاتها أصيب فرهاد بنكسات نفسية كثيرة، فلم يطق الحياة هنا، فارتحل إلى المجاهيل.

مضت فترة صمت لم يسمع خلالها إلا حفيف الغصون وخشخشة أوراق جافة متناثرة وزقزقة عصفور، بعدها عاود الزائر كلامه قائلاً:

- سمعت عن فرهاد أنهم كانت لهم مشاكل مع أم زوجته سها، ولم تكن مهمة التهيؤ للسفر مهمة سهلة، وأنا ساعدته في كل شيء، كم بكيت على فراقه، فقدت أخي الثاني برحيله.

خفض عدنان رأسه يحدق في عيون الطفل الواسعتين وحاجبيه المتقاربين وشعره المجعد الملفوف، والذي كان يجلس على الأرض ينبش بعينيه في الصور نبشاً، ثم رفع رأسه إلى محدثه قائلاً متسائلاً بالحاح:

- أظن أنني رأيت صورة هذا الطفل في مكان آخر، يجلس في حضن زوجة أخي سها، وعلمت أنه يدعى كذلك عدنان الصغير وعدنانوكه.

- وهو كذلك.

- يا ربي ما أوجه التقارب إنهما متطابقان.

- أتدري لماذا؟

سأل نوزاد ثم أجاب بنفسه:

- لأنهما صورة واحدة.

- ماذا تعني بالله عليك؟

تساءل عدنان وقد كادت عيناه تفلتان من محجريهما.

- أعني إنه في كلا الصورتين ابني.

- ابنك!

صاح عدنان يرتجف ارتجافاً، وينهض وهو يتراجع إلى الوراء فاغر الفم، مرتعشاً كالمصعوق.

- نعم كان ينادي فرهاد أبي طوال الوقت.

ثم قال وهو يقف ويهم بالانصراف:

- ما اسمك؟ ولماذا كل هذه الأسئلة الشخصية؟ شكراً لك على النفط، إنك إنسان كريم، لكن أرجوك أن تعلم أن هذه مسائل شخصية حتى وإن تكن قريباً منه.

اعتذر عدنان له بكلمة واحدة: العفو، ثم صمت كثيراً في وجوم يستجمع شتات أفكاره في حيرة وارتباك، في تلك اللحظة استدار المدعو نوزاد وأدار الطفل معه، لكن هذا استوقفه راجياً متسائلاً متقطع العبارات:

- لي لك سؤال أخير، أرجوك أن تتقبله مني، أردت فقط أن أتأكد... لا تؤاخذني.. إنه مجرد سؤال واحد..

- تفضل وعدني.

- أعدك.

- إذن هاته.

نهض عدنان من مكانه ومضى يقف أمام الصورة ورفع سبابته ينقلها بين رأس عدنانوكه على الصورة ورأس عدنانوكه على الأرض:

- هل هذا عدنانوكه؟

- نعم.

ثم قام إلى الصورة التي يجلس فيها الصغير على حضن سها على أقصى اليمين من الحائط وسأله:

- وهل هذا عدنانوكه؟

- نعم.

ثم عاد وانحنى أمام الصغير ووضع يده على رأسه وسأله:

- هل هذا هو عدنانوكه؟

- نعم.

وذاب الجليد كمن صب عليه نار حامية، بعد لحظات مرّت كدهور، استفاق عدنان من الصدمة وتساءل بصوت كصوت الأشباح:

- ولماذا لم يأخذه فرهاد معه إذن؟

- لا تتدخل أرجوك، هذا ليس من شأنك.

ثم مد يده إليه يصافحه شاكرًا على عجل وانطلق إلى باحة البيت، ثم عاد يقول:

- انتبه للبيت وهذا رقم هاتفي تفضل.

تناول القصاصه ووضعها في جيب قميصه، ورافقه إلى الباب وهناك التفت إليه قائلاً:

- أحتاج لنفط بالاحاح، سأعود إليك غدًا مع برميل.

لم ينم ليلته، أخذ عدنان يتقلب في فراشه ويقلب الأفكار، وأكثر من مرة نهض يقف أمام الصور يقارن الصورتين بعضهما ببعض، ما يراه الآن على الصورة وما رآه على الأرض، فأصبح بمرور الوقت واثقاً من أنهما متطابقان بما لا يقبل الشك، فقال في نفسه أخيراً: تماماً إنه هو، أمران اثنان ما برحا يشغلان باله؛ إنه يحمل رسالة قديمة لكاترين من أخيه فرهاد يريد أن يسلمها إياها بيدها شخصياً، وأن عدنان الصغير المدلل بـ (عدنانوكه) هو ابن نوزاد لا ابن فرهاد.

اجتاح الفزع كل أوصاله، هل حدث لأخي مكروه؟ اقشعر بدنه، فقد أعصابه، لا خبر عنه، هل هناك خطر يحيق بحياتهم؟ أين أنت يا كاتي أحتاجك الآن أكثر من أي وقت مضى.. وجعلت شفتاه ترتعشان تلقائياً.

في الصباح الباكر خرج من البيت يحده الأمل بملاقاتها، توجه إلى الساحة الصغيرة التي تقابل مدرسة الفراشة البيضاء، والتي كانت يوماً المدرسة التي تعمل سها معلمة فيها، اكتظت جنباتها بالباعة والشارين، يقف هؤلاء وراء هؤلاء أمام براميل ضخمة رصت على جوانبها شتى القناني بجميع أحجامها وصنوفها، كان النفط في فترات اشتد فيه البرد يباع بسعر الذهب، حتى صار حديث الناس، أزمة النفط هذه ازدادت تفاقمًا بمرور الوقت في زمن الحصار الاقتصادي، حتى حدا ببعضهم أن يعلق قائلًا: إن النفط اختفى وانقرض كالديناصور، ومن يريد رؤية آثاره فعليه بمراجعة مبنى المتحف الوطني.

أمّا الأسعار فقد تراوحت في الارتفاع والانخفاض بحسب الكمية التي تسمح لهؤلاء الباعة لشرائه على الحد الفاصل بين الحكومتين المركزية واللامركزية الكردية، فقد كان بيع النفط حكرًا على الحكومة المركزية، وكان البائعون في ذاك الطرف يجنون من وراء هذه الصفقات السوداء أرباحًا طائلة، كان استغلالاً بالمعنى الإجمالي، وحكرًا بغيضًا، فبسبب غلاء الثمن اضطر بعض الأهالي غير الموسورين إلى جمع الأغصان اليابسة وقطع الأشجار من الساحات العامة لاستخدامه كحطب بديلاً عن النفط، وبين الفينة والفينة ترد أنباء مفادها أن بيتاً احترق بسبب اشتعال النار في الغرفة التي تنام فيها الأسرة وقد أصيب كذا عدد منهم بحروق وجروح، وكانت

حادثة اختناق أسرة مكونة من ستة أطفال وأهمهم أثناء النوم أشدها وقعًا وإيلامًا في النفوس، وظلت عالقة لأعوام عدة في الأذهان.

الجدير بالذكر أن هؤلاء الباعة كان لزامًا عليهم أن يتوجهوا مرتين على الأقل في الأسبوع بسيارات البيك أب إلى نقاط السيطرة والتفتيش المقامة بين الحدين، وكان لزامًا عليهم الانتظار لساعات طوال حتى تصل تجار النفط من الجهة المقابلة، فتتم الصفقات تحت أنظار الحراس، ويضطر البائعون إلى دفع ضعف السعر الرسمي للبرميل الواحد يضاف إليه الإتاوة، أي ما يسمى تدهين شوارب رجال الأمن والشرطة المكلفين بحراسة الحدود ومراقبة سير التبادل التجاري، فيضطر هؤلاء بعد عودتهم أن يضيفوا الزيادة على سعر البيع، فالزبون العادي هو الذي كان سيدفع الزيادة بالمحصلة يضاف إليها سعر النفط وكلفة النقل.

هذا ما كان عدنان يتألم له؛ كان يحز في نفسه أن يخيب آمال امرأة أو أم لسبعة أطفال لا تقدر على دفع ثمن قنينة نفط يضيء به غرفة نوم أطفاله في الليل الحالكة، فاستخدام النفط كمادة للتدفئة في البيوت الفقيرة صار من خبر كان، فكان يقع في كثير من الأحيان في صراع مع ذاته وضميره، وخز الضمير، فينادي المرأة التي أدارت له ظهرها متحسرة تحمل بيدها قنينتها فارغة: عودي عودي خذي هذه القنينة لأطفالك هدية، فتهرع إليه والفرحة تغمر محياها تمد إليه يداً مرتعشة تعجز عن تصديق ما ترى، وتعجز بالتالي عن إيجاد كلمات الشكر والعرفان بالجميل، وحالما تتوارى المرأة يهب زملاؤه الباعة بالاستهزاء منه وإسداء نصيح له من قبيل: "هكذا لا تجني ربحاً" فيجيب بقناعة متمثلة بالآية الكريمة: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ" و"مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا".

كان يحظى رغم ذلك بشعبية بالغة بين الباعة والزبائن على السواء، ففي فترة قصيرة لا تزيد على أسبوعين كسب الكثير من الأصدقاء، وصار معروفاً مشهوداً به بين الجمع، والأمر الذي ساعده على اكتساب هذه الحفاوة والشهرة؛ هو أنه كان يجيد التعامل في الشراء من الطرف الحكومي، كونه يتكلم اللغة العربية بطلاقة، يضاف إلى ذلك براعته في الإقناع، وقد اختلى عدة مرات برئيس الحرس وقدم نفسه كمعوق حرب، فكسب عطفهم وإعجابهم به، وأخفى هذه الحقيقة عن

رفاقه الباعة، هذه الميزة جذبت إليه زملاؤه، فوضعوا سيارتهم في خدمته على مبدأ
أخدمني أخدمك.

حالما وصل إلى الساحة ارتفعت الأصوات بالترحاب وتبادل الكلمات الطريفة
والمزاح، فاتخذ موضعه خلف براميل نفطه، وقدم شكره لزميله الذي ساعده في
رص البراميل، ثم ذهب يأتي بالقناني والصفائح المعدنية ورصها حول برميله على
شكل دائري، كانت رائحة النفط والبنزين تتركم الأنوف، والعجيب أن عدنان أبدى
أكثر من مرة لصاحبه أن له علاقة خاصة مع النفط، يذكره بطولته السعيدة،
فيسحب نفساً بارداً ويغمغم بصوت شجي:
- آه يا زمن.. آه لهذه الرائحة الزكية.

هذا اليوم منعه الارتباك والاضطراب من أداء عمله بالمهارة المعهودة، فترجع إلى
الوراء حتى التصق بالحائط، ثم تزحزح إلى الأرض مسنداً ظهره إلى الحائط
الكونكريتي، رفع رأسه ينظر إلى السماء الزرقاء؛ عدا عن قطع سحب متفرقة هنا
وهناك شعر بدفء الشمس اللذيذ يدب في أوصاله، وأخذ يراقب الداخلين والخارجين
من الساحة بدقة، ويتساءل بحذر هل يظهر؟ أم كان نوزاد محض خيال أو سراب أو
حلم أو ربما كابوس؟، لم يظهر إلا بعد أن فقد الأمل أو كاد، دبّت فرحة عارمة في
قلبه حين لاحظ له سيقان نوزاد الطويلة وسيقان عدنانوكه القصيرة.

كان الصغير محاطاً بشلة من الأطفال من عمره يهتفون بصوت واحد في كورس
غنائي: جاء عدو، عاد عدنانوكه، انتصب قائماً بخفة الأرنب وهرع نحوه وأخذ
يناديه من بعيد ملوحاً له، تفرق لصوته وسرعته في التقدم جمع الصغار، بعضهم
كانوا حفاة، وقبل أن يصل إليه مد يده، تناول نوزاد يده يشد عليها، وهو يلتفت
مبتسماً ويشير إلى الأطفال الذين وقفوا وراء حائط يسترقون النظر إلى الصغير
ويلوحون إليه بأيادهم الصغيرة، قال عدنان موضحاً:

- إنهم رفاق صفة من أطفال الروضة، من العام المنصرم.

أحنى عدنان رأسه علامة أنه فهم العلاقة ثم مد يده في اتجاه مدخل الساحة قائلاً:

- نوزاد أظن أنه من الأفضل التكلم في البيت، الازدحام والضجيج هنا لا يطاقان،
نجلس قليلاً هناك ثم نعود معاً إلى الساحة.

ثم وهو يشير إلى سيارة تاكسي أبيض وأحمر:

- هل هذه الـ (فولكس واغن) تاكسي سيارتك؟

أجاب نوزاد مؤكداً:

- نعم إنها سيارتي والبرميلان كذلك.

وقال عدنان متكلفاً ابتسامة:

- نحن نعطي نصف برميل، ولك برميلان لأنك ابن خالة ماموستا فرهاد.

* * *

جلسا على كنبه واحدة بمواجهة الصور، قدم عدنان شايًا لضييفه وبعض الحلوى للصغير، ثم دخل إلى الموضوع مباشرة وعينه على الصورة التي وضعها في وسط الصور، ووجه له السؤال الأول مشيرًا إلى الصغير في الصورة:

- من هذا.

- عدنانوكه؟

ثم مد سبابته الملطخة نحو الصغير الذي جلس يمضغ الحلوى بنهم، والذباب يحلق فوق أنفه وسأل:

- ومن هو هذا؟

- هو نفسه، عدنانوكه كذلك.

علت ابتسامة شاحبة وجهه الأحمر، ثم أخذ يتمتم بصوت سمعه عدنان:

- إنه يكرر الأسئلة نفسها! ماذا يحدث هنا؟ ومن أين أعرف هذا الشخص يا ربي؟ أين التقيت به؟

ثم قام واقترب من الصورة ووضع يده على موضع منها وسأله مستوضحاً:

- أهذا أنت تمسك هنا بيد الصغير بينك وبين فرهاد؟

- وهو كذلك.

عاد وجلس عدنان منتصباً في جلسته، يجيل ويمعن النظر في الصورتين فيزداد دهشة وحيرة، فقرب وجهه من وجه محدثه وقال بنبرة أشبه بالتضرع متلعثماً:

- لا أفهم.. معذرة.. لا أفهم تمامًا.. وأحاول أن أفهم.. الاسم مطابق والوجه مطابق..

يجب أن تقول لي ما تحت الصورة وما وجه العلاقة وبوضوح، فأنا أكاد أحس أن

هناك أشياء جرت في غيابي....

نظر نوزاد في عينيه فلاح له الاحمرار بادياً ثم تساءل مستطلاً:

- ماذا قلت؟ أقلت في غيابك!!

ولما أنس من عدنان صمت مطبق لزم هو جانب الصمت أيضاً، عدنان غرق في متاهة وأخذ يفتش عن رأس الخيط، لاحظ نوزاد ارتبأكه واختطاف لونه فبادره برجاء:

- قلت لك كفاك أسئلة.. تبدو متعباً.. خذ قسطاً من الراحة وأنا سأذهب وأعود إليك بعد ساعة.. حسناً؟

حملق عدنان في عينيه طويلاً وأخذ يمسح العرق المتصبب من على جبينه ثم قال له برصانة غير معهودة:

- نوزاد أنا لست منهكاً ولا متعباً، وإنك ليس لك الحق أن تطلب مني الكف عن الأسئلة، يجب أن أسمع من فمك الحقيقة كاملة دون نقصان، يبدو لي أن هناك لغز غامض، ضباب يحجب الضوء عن أحداث وقعت بعد....

قطع كلامه ولم يزد، ثم بادره بسؤال أجفل محدثه بدأه بمقدمة:

- أنا لي كل الحق أن أسأل، فما أنا أسألك، هل كان أخوه، أعني أخو فرهاد شهيداً؟
- نعم.

رد بكلمة واحدة وزاد احمراراً على حمرة.

- وتزوج أرملة أخيه؟

- وهو كذلك.

- وارتحل ماموستا فرهاد عن البلد وأخذ معه أرملة أخيه وطفليه؟

- نعم كان أزمع ألا يسافر ما دامت أمه مريضة، وسافر في بداية الصيف.

- إذن انتهت أسئلتي، قلت أخذ الطفلين معه؟

- لا طفلين بل طفل واحد.

ثم أحس وكأنه أخطأ في الجواب فأخذ يلاحقه بسيل من التساؤلات:

- من أنت؟ إنك، صوتك، حركاتك كل شيء يدل على أنني أعرفك بطريقة أو

بأخرى، قل، قل لي.. قلبي يخفق.. هناك أمور تخفيها عني، هناك أمر مريب فظيع،

سر خطير تخفيه عني، إنني أشم منك رائحة أخي فرهاد.. من أنت حقاً؟

انسحب مذعوراً وهو يردد:

- من أنت؟ قل بسرعة..

قاطعہ عدنان یطمئنہ:

- تمالك...

قالها وهو یغمغم مع نفسه (لا طفلین بل طفل واحد)

- لا أتمالك، يجب أن تقول لي حالاً..

أخذ صوت نوزاد في الارتفاع..

- حسناً.

بدا له أنه حان الوقت، أزاح قبعته من رأسه أولاً وهو یغمغم في حالة هستيرية أفزعت زائرہ: (أخذ معه طفلاً واحداً لا طفلین)، ألقاها على المنضدة المنتصبة وسط الغرفة، ثم ثبت عينیه اللتين شابهما احمرار بلون الدم على عیون نوزاد الحائرتین وأخذ یكلمه بلهجة الأمر:

- قل الحقيقة هناك أشياء حدثت في غيابي.. كما أرى.. قل الآن وحالاً..

أخذ نوزاد یتراجع ویردد بألفاظ مبہمة بشفتین مرتعشتین وكل ما تبينه عدنان كان عبارة عن كلمتين:

- من أنت؟

وبغثة التفت بعصبية إلى الجهة التي كان الصغير یجلس فيه فإذا هو قد اختفى، بحث عنه وناداه والخوف یعقد لسانه، فجاءه صوته من فوق الدرج.
- انزل بسرعة..

فأخذ یصعد السلم أربعاً أربعاً وعاد یحمل الصغير بكلتا یدیه معتذراً:

- اعتاد أن یلعب مع أسو هناك في الغرفة الصغيرة..

اقترب منه عدنان مطمئناً وقد زادت حدقته توسعاً، بعدما زادت رقعة الدلائل والحقائق الخفية توسعاً، وكلما اقترب عدنان منه خطوة تراجع ذاك خطوة إلى الوراء، وتراخت یدیه حتى فلت الصغير من یدیه وأخذ یحرق في رأسه الذي أزاح عدنان شعره الكثيف عن البقعة الحساسة فيه، تراجع إلى أن التصق بالحائط یحملق في وجه عدنان بعینین تشبهان عیون النسر في تلك اللحظة، وقد لاحت على ملامحه بؤادر انفراج رهيبه مستعصية عن البیان والتفسير، مد سبابته المرتعشة إلى وجهه یقول بإصرار وبصوت مهتاج:

- لا تخدعني أكثر من ذلك.. بدأت أشك أنك هو.. يا ويلك إن كنت هو!
وشرع يفرك عينه وينظر شذراً إلى حيث الصغير الذي كان يراقب بمتعة ذبابة
تعلقت بين الستارة وزجاج النافذة، ناداه هاتقاً به وهو يتحدث مع نفسه بصوت
مرتفع وبعبارات متقطعة ولغظ متموج:
- البيت مسكون.. قصص الأشباح.. قال ماموستا فرهاد قبل رحيله أنه كان يسمع
صوت المرحوم ينبعث من مكان مجهول في ركن قصي من البيت وهو يردد في
أنات مكتومة: أنا لم أمت.. أنا حي، فيذهب إلى مصدر الصوت فإذا الصوت
اختفى..

في تلك اللحظة كان نوزاد في وضع لم يقوَ معه على التواصل، فاكتفى بالاستماع
والمشاهدة متأهباً للفرار إن دعت الحاجة إلى ذلك، رفع عدنان نظارته من على أنفه
بتؤدة، ووضعها برفق على المنضدة.
- هل عرفتني الآن؟

جاء صوته بارداً كالجليد وهو ينظر بعينين تختلف إحداها عن الأخرى تماماً،
كاشفاً عن خطوط متوازية باهتة نصف دائرية تحيط كهالة بإحداها لم تخفها
العملية الترقيعية التي أجريت له.
كان نوزاد أسرع من أن يتمكن عدنان عرض بقية مشهده الرهيب، فما هي إلا
لحظات حتى هب إلى ابنه يلتقطه من الأرض يحمله وينطلق به إلى خارج البيت
يعدو، يلاحقه عدنان منادياً:
- صدقني أنا عدنان...

ولم يزد ذلك النداء إلا سرعة فوق سرعته، أخذ يعدو وسط أنظار المارة الذاهلين
المتسائلين، طار اللون من وجه عدنان وجف الريق من حلقه، وهو يطل من على
سياج البيت يتابع الهارب بعينه إلى أن توارى وراء المنعطف، أخذ يغمغم بحسرة:
- خرج الصيد من يدي، إنه يعرف جميع الأسرار.. لحسن الحظ أعطاني رقم هاتفه.
عاد إلى البيت ترتجف كل اوصاله وهو يردد مع نفسه كالمخبول مستحضراً صورة
نوزاد الفار:

- عدنان الصغير ابنه! من يصدق هذا؟

ألقى بنفسه إلى أول كنبه اعترضت سبيله داخل البيت، تسارعت أنفاسه وتسارعت ضربات قلبه، غرق في محيط من الأفكار المتلاطمة كالأمواج الهائجة، وفي زحمة هذه اللجج وردت ذهنه فكرة رآها معقولة ومنطقية.

- قال إنه يحمل رسالة لكاترين؛ خير لي أن أذهب إلى سستر وردة.

قبعث على صخرة دادة ووضعت رأسها بين ركبتيها، أحست أن روح دادة جميلة ترفرف عليها وتحلق فوقها مثل الفراشة الربيعية.. الصخرة لم تتغير بمرور الزمن عدا عن اكتسائها بالطحالب من أطراف ثلاثة، فالواجهة مسحتها أرجل كاترين من طول الجلوس والاحتكاك، فكلما داهمتها أفكار حزينة أو عصفت بها مشكلة؛ آوت إليها لتتسي شيئاً من همومها العاطفية.

كانت الشمس دافئة ونسمات أيلول المعبقة برائحة العشب الندي تداعب خدها الوردي، والهواء يهفو بأهداب فستانها ويتخلل، ركزت تفكيرها على عدنان في اللحظة فتساءلت في نفسها بشيء من اليأس: أيعمل ويرهق نفسه مرة أخرى لإثبات رجولته ولياقته البدنية؟ والأهم والسؤال هل هو الرجل المناسب الذي سيشاركها حياتها ما تبقى منها وحياة ابنها؟.

تتجاذبها فكرتان متضادتان بين نعم ولا، لقد قضت ليلة ساهرة أمس لم يغمض لها جفن حتى الهزيع الأخير من الليل، رفعت رأسها تنتظر إلى الصخرة التوأم التي بدت لها من بعيد وقد علا الاصفرار جسدها البيضاوي، أصارت جزء من الماضي؟.

هجم عليها سيل من الصور المتلاحقة، ليسقر ذهنها أخيراً على صورة فرهاد في جاكته النيلي اللون فوق بنطلونه الرصاصي وشاربه الرفيف الرقيق كرقعة نفسه وروحه، وابتسامته العريضة تكشف أحياناً عن سن العقل، ووخزة تحزها بين الفينة والأخرى على شكل تساؤل: هل يعقل أن تبقى هوية الأخ العائد من القبر مخفية عن الأخ الشقيق مهما كانت الأسباب والدوافع؟.

بغثة وصلت أولى الطلائع للطلاب الخارجين من المدرسة، أدارت رأسها صوب اليمين حيث كانت مجاميع الطلبة تتدفق من خلال البوابة صوب الشارع، ومنها تسلك كل مجموعة طريقها يميناً أو شمالاً، والذين اختاروا اليمين كان ينبغي عليهم إذن المرور أمامها.

أخذت تتأملهم بحقائقهم الجميلة، وتستمتع بفرح غامر إلى ضحكاتهم المجلجلة ولغظهم ومزاحهم ونكاتهم وعفويتهم وأحاديثهم الشيقة المبالغ فيها دومًا، ثم رفعت طرفها إلى النبق لتطلق العنان لخيالها إلى اللامحدود، فقد ظلت أفكارها مشتتة متضاربة منذ اليوم الذي ودعت فيه عدنان إلى المدينة، نقلت عينيها نحو الجبل المنتصب أمامها وهي تحتضن التلال احتضان الأم للوليد، الجبل الشامخ بالخضرة رغم وصول بواذر الخريف، هذا الكم الهائل من الصخور المتراكمة المتجاورة المتفاوتة الأحجام والتي يتجلبب بها ذلك الجرم العملاق الهائل ليل نهار.

ذكرت لعباتهم آنذاك: الركض في أكياس القنب الأسمر والقفز العريض والعالي وتسلق الأشجار بخفة.. استولى عليها شعور بحنين مفرط إلى الزمن الغابر فجعلت تسأل نفسها: أين هم أصدقائي؟ بل أين هم الجميع؟ هل كتب علي أن أحيا وحدي هكذا وأقضي عنفوان شبابي على صخرة دادة رغم اعتزالي بها كاعتزالي بأمي؟ وهل ستجلبب الصخرة لي أخيرًا البركة والهناء والمستقبل المنشود؟

وصل مسمعها صوت من جهة المدرسة، الفتت إلى المصدر فلاح لها من بعيد سونيا وهي تتوسط نبيل ونبيلة أمام بوابة المدرسة، أقبلت سونيا عليها تتقدمها بطنها اللدن بينما انطلق الطفلان يلعبان على الشارع يلاحقان هرة هنا ويركلان ضفدعة هناك خرجت من الساقية فيملأن المكان صياحًا وزعيقًا، وصرخات نبيلة تشق الفضاء كصافرة العم بطرس، افترشت الأرض بجوارها لاهثة تسترجع أنفاسها المتسارعة، وأول ما وقع بصرها على وجه كاترين قالت بارتياح:

- مالك شاحبة هكذا؟ أظن أنك فكرت به طويلاً.

- هذا وأشياء أخرى.

أجابت كاتي وهي لا ترفع بصرها عن الجبل.

- أراك عدت مبكرة؟ سألت سونيا.

- صداع انتابني فأخذت استراحة ساعتين وسأعود إن بقي وقت.

- لا تفكري، هل أستطيع مساعدتك في شيء؟

- تستطيع مساعدتي بالاستماع إلي.

قالت كاتي ثم واصلت وهي تنظر إلى وجه سونيا العريض الذي بان عليه التعب:

- لولاي لعدت إلى البيت كي تتناولى شيء لغدائك، سأجلب لك شطيرة بلحم الغنم الطازج.

- إنك بذلك تقوين حاسة السمع لدي.

قالت سونيا وهي تضع يداً على بطنها ما يدل على الجوع وترفع إليها عيوناً جائعة، ابتسمت كاتي ونهضت واقفة ودلفت إلى الداخل مسرعة، عادت بعد دقيقة تمسك بطبق بين يديها وضعت عليه صمون حار محشو باللحم وشرائح من طماطم الحديقة، قامت سونيا وتناولت منها الطبق مشكورة ووضعت في حضنها العريض، وقالت بصوت تنم عن عدم رضا:

- شهية لا تقبل الوهن.

وضعت سونيا يدها على بطنها المنتفخ ومدت ساقها الممتلئين أمامها وقالت بنبرة تنم عن قلقها:

- أظن أنه زاد وزني في الآونة الأخيرة.. انظري.

نظرت إليها كاتي وقالت بصوت رزين:

- لكنك جميلة رغم بدانتك.

- أنت سيدة الجميلات.

ردت سونيا على عجل تمضغ كلماتها وتقضم فطيرة الخبز باللحم بأسنانها الحادة.

- وأنا أحس بزيادة الوزن ربما بسبب العمر.

- عمرك في الأربعينات الآن كاتي؟

قالت باستطلاع وتحفظ.

- نعم واحد وأربعون بالضبط.

أجابت كاترين ثم حدقت في بنطلونها الجديد وهندامها المنمق وسألتها باسمه:

- كيف تسير الأمور مع الحب والحبيب؟

- إنه يأتي كل يوم خميس من شقلاوة ويعود إلى عمله في صباح السبت.

- أهنأك النية للزواج؟

- لا نية لي أن أتزوج، فالحياة ليس زواج فقط.

- صحيح.

- وأنت؟

- أنا أنظر إلى الجبل وأسترجع جرحي القديم.

تأوهت كاتي..

- أفهم شعورك جيدًا أختي.

- ما أشبهنا نحن بهذا الجبل الذي ينتصب أمامنا.

قالت كاتي بلهجة رصينة، ثم أضافت تشير بإصبعها ناحية الجبل:

- فرغم صلابته ومتانته فالجبل يواكبه اللين والرقّة والطراوة والوداعة في الأشجار والأعشاب والأزهار، والأعشاب تجدها حتى نابذة بإصرار من قلب الصخور، أرى الجبل فإزداد عزيمة، أراها كفتاة ممشوقة القوام جميلة الطلعة مرفوعة الهامة باسمه المحيا زاهية اللون، وهو كرجل مفتول العضلات يقف أمامنا منتصبًا كالسوبرمان، يدين متشابكتين على الصدر: هل من متحدي؟

جالت بنظراتها إلى حيث الأطفال يلعبون أمام باب المدرسة وقد انضم إليهما ثالث، ثم واصلت رافعة عينيها إلى الأعلى:

- إنه عالم التناقضات، عالم يندمج فيه الجمال والجلال، ألا ترين؟ أنا أستمّد منه وسائل القوة والرقّة في آن واحد.
- إنك صاحبة خيال خصب كاتي.

قالت سونيا ثم توقفت لثواني تلحس بلسانها ما علق من فتات الطعام على أسنانها ثم واصلت محممة:

- لم أجد أحد من خلال تماسي بالناس إلا شخص واحد يضاهيك في الجمال والجلال والكمال ألا وهو فرهاد، عرفته جيدًا ودرسته في مدة قصيرة عند معاونتي لهم في نقل بعض أثاث البيت.

صعدت كاترين أنة مكتومة لم تتنبه لها سونيا، لكن صوتها خانها، جذبت نهاية شالها الأخضر لترخي الشد من حول عنقها قليلًا وتسحب فستانها الأسود إلى أسفل، ثم مضت تفصح عن خلجات قلبها:

- لا أحب سواه.. لا.. لا سوف أدعه يعلم، أجعله يفهم ويقدر موقعي.

ثم شرعت في بث سرها:

- عدنان تعلق بي وأنا لا أدري كيف أجعله يفهم، ومن ثم أفهمته مرات ولا أدري هل فهم، وهو له الحق في التعلق بي، هناك شعور غامض وكأن أخوه أخذ زوجته من بين يديه، واقع بين قوتين متصارعتين، وهو من ناحية أخرى يراه مضحياً، أرى أنه باقتربه مني يريد أن يسدي عملاً بالمقابل في احتضان نبيل ومعاملته بالمثل.

حانت منها التفاتة إلى سونيا فرأتها تصغي بانتباه بالغ، فزادت تقول:

- الحقيقة إنني أيضاً ملت إليه قليلاً وخاصة هو من دم ولحم فرهاد، أحسست بنفس الرائحة تنبعث من ثيابهما كليهما، يشبهه حتى في حركاته ونبرات صوته وطريقة أكله وجلسه، ومن ثم نحن أصدقاء الطفولة.

قاطعتها سونيا تبدي رأيها:

- مثلك يشبن ويكبرن بسرعة بهذا الإحساس ورهافة الضمير، وأنا أراك أمامي شابة وتبدين أصغر مني، لأنك تحب ولا تكره وهذا يمنحك راحة البال، فراحة البال تحفظ طراوة الجلد وصحة الجسد، وما يفني النفس والجسد سوى الحقد والكراهة.

بدى على أسارير كاتي الانشراح قليلاً فقالت مضيفة:

- البارحة فتحت ألبوم الصور فوجدت في طياتها رسالة فرهاد التي كتبها لي قبل سفره، قرأتها بدقة هذه المرة، فاكتشفت فيها يا سونيا نقاط جديدة غامضة، إذ رأيت بعض ما ورد فيها أشبه بالطلاسم والألغاز، فمن جهة يقول: أمّا زواجي منها - يقصد سها - فشكلية أي كما ذكرت في الرسالة السابقة؛ مجرد حبر على ورق، فأنا لا أزال على العهد الذي قطعته على نفسي بحضور دادة وسها، وفي رسالة أخرى يقدم لي مقترحه بالزواج مني، ويتساءل: ولم لا؟ فالزواج من امرأتين جائز شرعاً وخاصة في حالتنا المتميزة، أرى فيهما تناقضاً كالتناقضات الموجودة في الجبل.

صمتت لحظة ثم واصلت مستدركة:

- لا أدري كيف يكون هناك زواج شكلي وبقاء على العهد بعد أن يكون قد أنجب طفلاً منها.

نظرت إلى سونيا التي طفح البشر على وجهها العريض المحمر والتي رفعت إليها طرفها قائلة بثقة:

- أستاذ فرهاد يعني ما يقول.

وردت كاترين بثقة مقابلة:

- إنه لا يأتي بجديد، إنما هو نفس مقترحه الذي عرضه أكثر من مرة عليّ ورفضته.

ثم وهي تحيط ركبتيها بذراعيها:

- لا جديد كما أظن.

- تريثي وتفانلي أختي كما عهدناكِ.

قالت سونيا مشجعة ثم اندفعت إلى الشارع فجأة ودون مقدمات ترفع يدها تطالب وتهيب بالأطفال أن يرسلوا كرة إليها، ومن مكانها انفجرت شفتا كاتي عن ابتسامة خفيفة أمام مشهد سونيا بصدرها الصاعد والهابط واهتزاز بطنها العظيم مع كل طفرة أو حركة، وتلاطم لحم وشحم عضديها وساعديها البضتين البيضاوين اللدنتين كالجن الكردي.

عادت إليها بعد دقائق وهي تلهث وتتنفس بصعوبة بصوت أشبه بالحشجة، استلقت على ظهرها تواجه السماء الزرقاء وتبدي إعجابها:

- سماء أيلول بهذا الصفاء نعمة كبرى.

- الحقيقة إنني حائرة لا أدري كيف أتصرف.

عادت كاتي تقول دون أن تنتظر إليها وكأنها تهمس في سرها:

- عاجزة عن اتخاذ قرار تمامًا، تتجاذبني وتنقادفني الأفكار، محتارة كيف باستطاعتي التوفيق بين حبي لفرهاد وحبي لابني الذي بدأ يتعلق بعمه كثيرًا، والسؤال الذي يؤرقني هو: وماذا لو تزوجت من أخيه وهو قد عاد ليتلقاني في حضن أخيه نائمًا، ماذا تظنين؟ ماذا سيكون رد فعله؟ سأكون أنا الملامة وأكون شريكة في إخفاء هوية أخيه... ألسن تريين؟

ألقت نظرة خاطفة على الأولاد ثم سونيا واستأنفت تقول بمرارة:

- أمس وقع نظره على ألبومي وأخذ يتصفحها ويتأمل الصور، ثم ثبت نظره على صورة من الصور طويلاً فإذا هو يصيح بي: ماما هذا هو أبي.. هذا هو بنفسه الرجل الذي رفعتني إلى فوق وقبلني في المتنزه أين أبي؟ قل لي أين هو؟ صمتت لحظة تزدرد ريقها ثم قالت في شبه ضجر:

- كلام جديد ونغمة جديدة... طفل لا ينسى.. ابن فرهاد يملك ذاكرة من حديد.. ثم هو فجأة يذكر محاسن عمه ويقول بمرح: إنه عمي، يلعب معي ويصطاد العقارب ويقلد الطيور، ثم هو يحتضن القبجيتين ويطعمهما بنفسه أمام زملائه، ويتفاخر به إنه من عمي، إنه صياد ماهر.

ساد السكون وجعلت المرأتين تنتظران جهة الأطفال بابتسامة حيث لعبهم ولهوهم ولغطهم يملأ الفضاء، ثم عادت كاترين تقول ولا تحديد قيد أنملة عن موضوعها الشاغل:

- إنه يبحث عن عمل، أظنه بائع النفط فهي مهنة صعبة لكنه يحبها.
- تحبينه؟

سألت سونيا فجأة وعيناها لا تزالان على الأطفال.

- أحبه كرفيق العمر كما أحببت بنيامين.

جاء جواب كاترين سريعاً، ثم أردفها بتعقيب:

- من أحب مرة لا يحب مرتين.

ثم جاءت بتبرير:

- لا يرقى إلى مستوى أخيه، لكنني لو فكرت في الزواج بجديّة فلن أجد خيراً منه، لكنني لا أفكر بالزواج، وحتى لو تزوجت منه لو فرضنا....

لم تكمل الجملة وأتمتها في نفسها: فإنه ليس ب (زرباب).. قطبت سونيا فقالت متعمدة تحويل الموضوع:

- هناك رجل عجوز يسكن في أقصى البلدة يتحدث كثيراً عن مسابقة جرت هنا في بداية الستينات وذكر اسم عدنان، وأنا لم أسمع أن أقول إن البطل عاد.

سكتت تنظر إلى وجه كاتي التي عادت إليها بعض نضارتها ثم أردفت:

- صورتكم تتوسط الحائط في غرفة الإدارة وقد كتبت تحتها أسماء: كاترين وفرهاد وعدنان وبنيامين بخط عريض وبألوان زاهية.

لفظت اسم بنيامين بصعوبة، وقالت كاترين دون أن تلاحظ وجه سونيا المنقبض:

- لم أدخل غرفة الإدارة بعد، هذه المرة سأقوم بذلك.. المعلمون الجدد لا يعرفوني.

ثم تنهدت وهي تحملق في فضاء النبق الواسع وقالت بحنان:

- كم كانت الحياة بسيطة عذبة.

وقالت سونيا بعد أن رأت تبدل نبراتها:

- كوني متفائلة كما كنت وكما عودناك، فستعود المياه إلى مجاريها.

ثم نهضت تنادي ابنتها، واعتذرت تقول:

- اقتصر اليوم، وددت لو جلست أطول ولكن هناك من ينتظرني في البيت.

ثم وجهت كلامها لابنتها:

- أنت تبقي هنا في رعاية سسטר كاترين ولا تذهبوا بعيداً.

قالت كذلك تبتسم ابتسامة فهمت كاترين مغزاها ولم تنبس، وانطلقت باتجاه المرتفعات سالكة الطريق الضيق بمحاذاة المرعى، وعادت كاترين تتأمل الأطفال وهي تردد مع نفسها:

- وقت سعيد مع الحبيب يا سوني.

ثم همست مع نفسها بمودة وهي تتابع مشيتها الحثيثة رغم الضخامة، وضميرتها تتدلى على ردفها المستدير:

- يا لبساطتك يا صديقتي الوحيدة، فلولاك لكانت الحياة لا تحتمل.

رفعت رأسها في دعاء، ورأت الشمس تراوح بين الظهور والاختفاء، وتجمعات السحب بدأت تنتشر في آفاق السماء، وثمة راع يسرح أغنامه بعيداً، وثغاء الحملان يتعالى أمامها في مرعى المطران، وفي غمرة هذه الأصوات البديعة والجو السحري الذي أضفته على ما حولها، توقفت سيارة تاكسي أمامها فجأة، عرفتها من لونها، إنه السائق نوئيل.. خرج محيياً؛ نهضت هي بسرعة تستقبله بلهفة، تقدم نحوها وناولها مظروفاً بريدياً مغلفاً.

وصلت كاترين في اليوم التالي عند الظهر؛ تركت نبيل في رعاية سونيا، طرقت الباب ولم تجده هناك فقررت أن تبحث عنه في ساحة بيع النفط، وبحث هناك طويلاً فلم تتمكن من العثور عليه، سألت عنه بعض الباعة فأخبروها أنه كان هنا قبل دقائق، وربما ذهب لبعض أموره الخاصة، ظلت واقفة تنتظره، رائحة النفط والبنزين أصابتها بدوار، تقدمت من الرجل نفسه راجية منه أن يخبره أن كاترين قد جاءت هنا تبحث عنه وأنه يعرف أين يجدها.

في طريقها إلى البلابل العاشقة لمحت رجلاً في بدلة زرقاء طويلة تغطي عنقه إلى قدميه يسير حثيثاً في اتجاهها، لوحته له وأسرعت الخطى نحوه وابتسامة طفيفة عذبة تزين ثغرها الجميل، حالما اقتربت منه مدت إليه يدها، تناول يدها بين راحتيه بشوق يشد عليها برفق.. هتفت كاترين بتحمس:

- ها أنت بائع نفط محترف، عمل لائق بك تماماً.

كانت ترتدي بنطلون جينز ضيق على غير عادتها في زياراتها للبلدة، فقد كان يُنظر إلى الجينز باعتبارها أنها ملابس الشباب والمراهقين، ارتدت فوقه جاكيت قصير وردي يصل إلى الخصر، ظهرت محاسنها كاملة فبدت كابنة العشرين رغم ارتفاع بطنها الضئيل، وقد أرسلت شعرها المصفف بعناية على كتفيها، خصلات منها تلمع في ضوء الشمس الساطع وتتموج في النسمة الدافئة المنعشة، برزت التجعيدة الواحدة - التموج - في الوسط بوضوح هذه المرة كما كانت في زمن صباها.

- ما غيرك هكذا كاتي، لم أشاهد نظيراً لك بهذا الشكل إلا في فيلم جيمس بوند.

قال عدنان يتفحص ملامحها بفضول.

- شكراً لك، هذا هو الملبس المفضل.. ملابس خفيفة عملية.. كما تفعل النساء الأوروبيات.

- أنت مكانك أوروبا لا سها.

قالها وابتسامة ذات مغزى على ثغره اليايس، أيدته وأضافت وهما لا يزالان يقفان على طرف الشارع:

- أوروبا مكان الكل، لأن هناك حرية واحترام لمشاعر الناس وطرق حياتهم، صدق لو عادت سها في زيارة ستقول لك إنها حتى في حجابها حظيت باحترام يفوق ما تلقته هنا تحت رحمة تقاليد وعادات لا صلة لها بالواقع، وتناقض في مجملها العقل السليم، وأعتقد أنها ستحب أوروبا ولن تعود إلا في زيارة، أو لأمر مهم ملح. أولاً وتمتم في شرود:

- ومن يدري لعلها تعود ويطيب لها المقام ولعلها لن تعود حتى في زيارة!

لم تنتبه لما كان يحمل تعقيبه من معنى ضمنى فقالت له متسائلة:

- الآن قل لي ما الخطب؟ جئت مسرعة مع نفس السائق الذي حمل الرسالة.

- أولاً نذهب إلى البيت.

- عين الصواب.

سارا بخطى حثيثة يتبادلان كلمات قليلة، كان الوقت منتصف النهار وقت استراحة للعمال، وفي نهاية الشارع انحرفا صوب اليمين ليدخلا طريقاً مكسواً بالحصى والحجارة، توقفا عند باب المنزل قبل الأخير في التسلسل، فتح عدنان الباب بالمفتاح وأشار لها بالدخول، فدخلت ودخل على أثرها، اجتازا ممراً قصيراً ضيقاً يقع على يساره حديقة صغيرة يغطي معظمها عشب مصفر، وتكتنفها من ثلاثة جهات أشجار الورود قصيرة القامات، والذبول دب في القسم الأكبر منها، وكان الباب الداخلي قديماً ومصنوعاً من الخشب، وعن يمين الباب انتصب جهاز تبريد بدا من هيئته أنه معطل عن العمل، فتح الباب بالمفتاح وأشار إليها بالدخول فدخلت شاكرة.

الظلام كان مخيماً رغم الشمس، لقد أسدل عدنان الستائر قبل الخروج، أول ما وضعت قدمها في الداخل رأت على يمينها باباً منتصباً فوق قامتها فجفلت للمنظر، وقفت واجمة متجمدة للحظات ثم تساءلت بدهشة:

- ما أرى هنا؟

- إنه الباب الذي يؤدي إلى الطابق الثاني.

- هل كان دائماً هكذا؟

- نعم قال غازي.

- آه تذكرت، فقد سمعت سونيا يوماً تقول حول هذا الباب تحت السلم الصاعد نحو الطابق العلوي، ربما كان في نيته تأجيله كما يفعل الكثير هذه الأيام.

- هذا ما أظنه.

اجتازا الممر ومنه عرجا جهة اليسار ودخلا غرفة طويلة أرضها من إسمنت لامع أملس، تتبعثر فيها هنا وهناك شقوق وخاصة في الزوايا، وللرائي من هناك يلوح جبل سفين الأزرق في الأفق.

أجالت كاترين نظرة شاملة سريعة في الغرفة فلم تجد سوى كنبات ثلاث وجهاز تلفاز صغير وثلاجة صغيرة، وسجادة قديمة بالية حمراء مستطيلة الشكل تغطي وسط الغرفة، جلست على إحدى الكنبات المقابلة للصور، إذ بهرها منظرها وكثرتها، فنهضت تتفحصها بفضول متزايد وتسمي الأشخاص بمسمياتها: دادة جميلة مع الأفندي، سها مع عدنان ثم سها مع فرهاد وآسو وعدنانوكه، وصورة أخرى يظهر فيها عدنان وهو يتكى بمرفقه على مقدمة سيارة النقل البري الطويلة وهو يضيق عينيه أمام نور الشمس ويكشف عن أسنانه في ابتسامة عريضة، ويضع بيريته العسكرية على رأسه، كانت هناك صور أخرى لكنها عادت إلى الصورة التي تتوسط الصور، فقالت لعدنان الذي وقف بجوارها مشيرة إلى رأس أحمر:

- في الصورة هذه شخص لا أعرفه تماماً من سيكون هذا يا ترى؟

ثم أجابت بنفسها:

- أظن أنه أحد أقاربكم فقد رأيت له شبيهاً في يوم التعزية - الفاتحة.

- صدقت.. قال عدنان بهدوء مضيئاً: إنه نوزاد وهو الشخص الذي جاء يتفقد البيت وقدم إرشاداته.

- بأي حق؟ من كان هذا؟

تساءلت في دهش

- إنه نوزاد ابن خالتي.

- أواه ! لقد نسيت لقد قالت عنه سونيا إنه قدم كل العون لأخيك كثيراً قبل رحيله.

- وهو كذلك.

- أعتقد أن زيارة هذا الشخص كان السبب في طلبك إياي بالحضور.

- ذكائك يحيرني كاتي..

وأضاف:

- وإن هذا هو الشخص الذي تفوه بكلام غريب.

- وماذا قال؟

- أولاً تفضلي نجلس.

قدم لها كوباً من العصير، ثم استوى قاعدًا وقال جوابًا على سؤالها:

- قال ضمن ما قال إن عدنانوكه هذا (يشير إلى الصغير في الصورة) - هو ابنه أي

ابن نوزاد وليس ابن فرهاد كما ظننا!

انتفضت كاترين للخبر وسألت تستزيد والاهتمام يعلو محياها:

- ماذا قلت؟ أعد أرجوك.. لم أفهم جيدًا.

- قال نوزاد إن هذا الصبي أي عدنانوكه ليس ابن فرهاد من سها بل ابنه هو.

لما أنس أن كلامه لم يلقَ منها ملقى حسناً زاد وأفاد:

- أي بمعنى آخر إنهما لم يصحبا معهما الصغير.

ومد يده مرة أخرى إلى الصبي على الصورة، أجفلت كاترين للخبر وبقيت لثواني

تتنقل النظر بين وجه عدنان الصارم والصورة، وقالت بعد أن ثبتت نظرها في وجه

عدنان الذي اعتراه الشحوب:

- أمر مستغرب كالخيال، أيعقل أن يكون عدنانوكه موجود هنا؟!

بللت شفתיها اليابستين ثم تساءلت مرتابة بصوت أبج:

- وأين هو هذا المدعو نوزاد؟

- غادر وكان على عجل ولحسن الحظ ترك رقم هاتفه، وقال إنه سيعود غدًا وقد

ترك عندي في الساحة برميلين فارغين للنفط.

- وهل عاد؟

- نعم وعدنا معًا إلى البيت بناء على طلبي.

سكت ثم قال بعد أن ملأ رئتيه بالهواء:

- هو لم يعرفني وأنا تعرفت عليه بصعوبة لأنني لم ألتق به منذ زمن الطفولة، ولكنه

كان على صلة متواصلة مع أخي...

اختلس نظرة خاطفة من وجه كاترين الذي طار اللون منه ثم واصل كلامه:

- وقد اصطحب معه الصغير ولاحظت وجه الشبه بينه وبين هذا الذي يقف على الصورة، ونتيجة للسؤال والجواب توصلت إلى معرفة أن الصغير ليس ابن أخي بل ابن نوزاد.

وضعت كاتي رأسها بين يديها واستغرقت في تفكير طويل، ثم رفعت رأسها وعادت تسأله بنبرة صارمة جادة:

- قل لي أين هو؟

- من؟

- ابن خالتك نوزاد؟

- قلت لك إنه هرب.

- هرب؟ لماذا؟

- حين عرفته بنفسي، كشفت له عن نفسي وهويتي، بمعنى آخر: اعترفت له إنما أنا عدنان ابن خالته.

- يا ويلك ماذا تفعل؟

ثم غيرت لهجتها تتكلف ابتسامة باهتة فقالت:

- حسناً ما فعلت كفاك اختفاء.

- كان علي ألا استعجل.

ندت عن رأسه حركة تدل على الندم، وجاءه صوت كاترين المحتار في كلمة:

- كيف؟

- حالما عرف أنني عدنان لاذ بالفرار.

ندت عنها حركة توشي بالاحتجاج، ثم تحولت نبرتها إلى اللين:

- مسكين، وله الحق.. أما لذتُ أنا بالفرار منك أيضاً؟

- فر صائحاً أن المنزل صار بيتاً للأشباح.

ضحكت كاترين ضحكة مقتضبة لطيفة، ثم ساد صمت طويل لم يسمع فيه سوى صوت الأنفاس، وفجأة ارتفع صوت عدنان كمن تذكر شيء فقال لها مقرباً وجهه من وجهها:

- والأهم من كل ذلك أنه جاء ليقول لي إنه يحمل رسالة قديمة لك من أخي فرهاد، وأنه يريد أن يسلمها إياك بيده وشفاهاً.

- أكان هذا سبب زيارته؟
- أبدأ، إنه جاء يتفقد البيت ويبلغ الحارس، أي أنا، بضرورة تشديد الحراسة نظراً لتزايد عدد اللصوص.

جعلت تردد بحيرة:

- عدنانوكة ابن نوزاد لا ابن فرهاد؟

ثم زمت شفيتها وغمغت بصوت كحفيف الورق:

- إنه خبر لو ثبتت صحته لتغيرت الموازين، ألسنت ترى؟

أوماً عدنان وقال بحماس بالغ:

- قارنتهما، الصورة والأصل أي الطفل، فكانتا متطابقتين تماماً، ثم أكد هو بفيه أنه ابنه لا ابن فرهاد، وأن الأمر لا يحتاج إلى مزيد من التوضيح.

- يا مريم العذراء!

ارتسمت على وجه كاتي المستدير إمارات ذهول، وانتابها شعور مزدوج من الشك واليقين والانقباض والارتباك، وغرقت في صمت طويل تسعى إلى ربط الأحداث مع بعضها وفقاً لتسلسلها المنطقي، ثم نهضت واقفة تردد مع نفسها:

- رسالة قديمة؟

- عدنانوكة ليس ابنه.

- يا إلهي! هيا قم لنبحث فوراً عن ابن خالك هذا.

ثم عادت تقول معبرة عن تعذر البحث:

- ولكن كيف؟ وأين؟

- لقد ترك نوزاد رقم هاتفه عندي في اليوم الأول من زيارته.

لم يكن هناك جهاز هاتف لا في بيته ولا في بيت عمه كاترين؛ فاضطرا إلى التوجه إلى مكتب الهواتف الكائن في أقصى البلدة سيراً على الأقدام، لم يكن ذلك صعباً لكليهما لكن عرج عدنان الطفيف جعله يتأخر قليلاً في السير عنها، والتي كانت أشبه في مشيتها بقبجة الجبل.

- من أحد محاسن بنطلون الكابوي أنه يمكنك أن تسير بخفة ومتانة.

قالت كاترين ثم جعلت تمعن النظر في بنطلونه:

- حسناً ما فعلت أظن أنه نفسه.

- الذي أهديته لي في حرير.

كان يرتدي كابوي بلونه المفضل قهوائي غامق يتوارى أعلاه في قميصه الأصفر الطويل الممتد إلى ما فوق ركبته.

قالت له مداعبة:

- من يراك يظنك كلنت.

ضحك بأنفه وتكلم بغمه:

- لقد كشفت عن نفسي أخيراً فليكن ما يكن.

- حسناً ما فعلت، لا يصير إلا الخير، قلبي يخبرني، قلبي لا يخطئ.

- قلب ملاك.

- أنت ملاك كذلك وفرهاد ملاك من طراز آخر، الحمد لله، لا شرير بيننا، إنها نعمة ربانية.

ثم بعد صمت:

- يقول إنه يحمل رسالة من فرهاد قديمة، أمّا سألت لماذا كل هذا التأخير في تسليمها.

- سألت لكنه قال لي إن هذا ليس من شأنك.

- وله الحق، إنها لا تخصك، حتى اللحظة يظنك غريباً.

- وهو كذلك.

وافقها الرأي ثم قطب متسائلاً:

- ماذا ترين من ادعاء نوزاد، أمّا ترين أن هناك غموض في الأمر؟ قلبي يحدثني أن أمراً ما حدث لهم.

- لا تقلق.

- كيف لا أقلق أخي وزوجتي وابني انقطعت أخبارهم، هل سألت أم عاشور؟ هيا نذهب إليها، ماذا ترين؟

- كنت حتى يوم أمس تخفي هويتك عن نفس الأشخاص الذين ذكرتهم، أمّا اليوم فيحق لك أن تكلمهم بنفسك.

- هناك في حرير سمعت منك وعلى لسان أم عاشور أنهم وصلوا بسلامة، ثم اليوم ظهرت حقيقتان خطيرتان مقلقتان مثيرتان للشكوك دفعة واحدة:

أولاً: إنه لم يأخذ عدنان الصغير معه وهذا يبعث عن التساؤل والخوف.

ثانياً: إنه يحمل لك رسالة قديمة.. لماذا قديمة؟

- قلقك مشروع وأنا بدأت أشعر بالقلق بشأنهم لقد انقطعت أخبارهم، هذا أمر محير.

صعد عدنان شهقة وقال ينظر إليها من فوق كتفه:

- الآن أشتاق إليهم أكثر من أي وقت مضى، صورهم الجديدة يظهر فيها آسو في مراحل نموه؛ هنا يدفع بعربة ويبيكي متعثراً، وهناك يضحك ابتسامة عفوية في لباسه القصير الوردى، يتقطر وجهه الصبيح براءة وصحة وشعره المتموج القصير وساعديه الممثلنين، كل هذه أثارت في حنيئاً وتوقاً لا يوصفان، أكاد أن أقول كان مجيئي إلى هنا خطأ.

ربتت كاترين على كتفه وقالت مهدئة شوقه:

- هل تقول خطأ؟ وقد عرفنا اليوم بالذات بوجود حقيقتين كانتا خافيتين عنا طيلة الوقت؟

ثم تساءلت بصوت أعلى نبرة:

- هل أنت متأكد من كلام ابن خالتك؟

أطبق عدنان شفتيه مُشكلاً التواء طفيف، وهز رأسه هزتين ما يدل على ثقته به وأجاب:

- نوزاد مشهود له بالورع والتقوى، يصلي ويصوم ويزكي وذو خلق كريم، حتى لقد استثناه أبي من قائمة الممنوعين من زيارتنا، فقد قال عنه إنه ولد صادق وخلق وتقي، وهو إن لم يأت لزيارتنا إلا قليلاً فكان ذلك مرجعه أمه وخلافاتها مع أبي.

سكن ونكس رأسه ثم رفعها يهز كتفيه مردداً:

- لا.. لا يكذب أنا واثق كل الثقة، أضمن لك هذا.

للحظات لم يسمع سوى وقع أقدامهما وقد دخلا طريقاً لم يألفاه، فنبهته كاترين إلى ذلك:

- ألا نزال نمشي على الطريق الصحيح؟

- اقتربنا.

تنفست الصعداء وقالت:

- أنا مثلك، بدأت أفكار غريبة تراودني.

- كيف؟

سألها عدنان بشغف، ملأت رئتيها بالهواء ثم أطلقتها خارجاً وقالت مقطبة:

- كما علمت من سونيا أن فرهاد قد أخذ هاتف أم عاشور معه، وقبل أيام سمعت من سونيا نفسها أنها التقت بالصدفة أم عاشور وسألت عنه فقالت إنه لم يتصل بها منذ رحيلهم، وتقول إنها هي قلقة كذلك، وتساءلت: وهل يعقل أنهم وصلوا ولم يتصلوا؟!

ثم وهي تداري توترها واضطرابها وتهدي من روع صاحبها:

- فلننتظر ونرى ونصل بنوزاد ونستدرجه، أنا أحاول إقناعه كي يقبل بمجالستنا والتحدث إلينا، وحينها تتوضح لنا كثير من الأمور الخفية، ما يمكننا من حل الألغاز العالقة والتي لا قبل لنا حتى بتصورها.

ثم وهي تضع يداً على قلبها:

- قلبي يخفق بقوة وفي عيني اليسرى خلجات متسارعة.

ومن هنا أبطأت كاترين في سيرها وقالت وهي تشير إلى بناية انتصبت فجأة أمامهما:

- ها قد وصلنا.

وجدا أنفسهما على مقربة عشرين مترًا من مكتب الاتصالات المطلي بطلاء أصفر لماع، وثمة عمود عالي شاهق ينتصب عاليًا في الفناء الواسع، وعلى لوحة كتبت بخط عريض: مكتب تليفونات كاوه.. أسرعا الخطى ولم يتوقفا إلى أن وجدا أنفسهما وجهًا لوجه مع موظف شاب، الذي قام يرحب بهما، قدم عدنان الرقم المطلوب وتم إيصالهم على الفور، وصله صوت نسائي عبر الخط:

- معك نرمين.

- هل يمكن التحدث إلى نوزاد؟

- إنه لم يعد من العمل.

- لطفاً ومتى سيعود؟

- بعد نصف ساعة من الآن تقريبًا.

اتخذتا لهما كرسيين في صالة الاستقبال، جلسا كلاهما تائهيْن في أفكارهما المتشابكة، شغلت كاتي نفسها بعض الوقت بالإلهاء بالقراءة في إحدى المجلات القديمة المتراكمة فوق بعضها على المنضدة بجانبها، أمّا عدنان فقد دأبته نوبة تتأوَّب طويلة، نهضا بعد مضي نصف ساعة بالضبط وتقدما إلى منصة الهواتف من جديد، وجاءهم هذه المرة صوت رجالي عرفه عدنان، فأشار إلى كاتي ما يدل على أنه هو، فأمسكت كاترين بالسماعة وأصقته بأذنها بقوة اختفى القرط على إثرها:

- معك كاترين، وأود أن أتكلّم معك.

- معك نوزاد، مرحبًا بك كاترين، من أين تتكلمين؟

- من عنكاوة من مكتب تليفونات كاوه.

- أين أراك؟

- أينما تشاء.

ثم بعد تردد:

- أفضل في بيت فرهاد.

- والحارس؟

- إنه هنا معي.

- قبل كل شيء هلا أخبرتيني رجاء هل هذا هو عدنان عينه الذي قرأت الفاتحة عليه عشرات المرات وحضرت مراسم كفنه ودفنه؟

- لك الحق أن تتدهش بل تصعق من المفاجأة، هذا ما حدث لي قبلك، فقد صعقت وكاد أن يغمى علي وهربت منه أول الأمر، وأعلم أنه قد أخفى نفسه عن الخلق لأسباب ستسمعها مني.

ثم بنبرة اطمئنان:

- لا تخف أنا سأكون موجودة معه، وأعلم أنه الحقيقة، إنه الواقع، فلا أشباح ولا عفاريت.

نوزاد وقد تبدلت لهجته:

- حسناً، أنا أصدقك، ومع ذلك لا أزال أشك في الأمر، وشكوكي مشروعة، وسأتي لأتحقق.

ثم بعد تريث:

- إلى اللقاء بعد حوالي ساعة من الآن إذن.

وقفت فولكس واغن أمام منزل فرهاد في عنكاوة، خرج منها نوزاد وعدنان الصغير، رأهما بعض أطفال الحارة فركضوا في اتجاههما صائحين بصوت واحد: جاء عدو، عدنانوكه.. وذلك تحت أنظار كاترين التي كانت تراقبهما من الباب بعيونها الباسمة، تقدم نوزاد ممسكاً بيد الصغير نحو كاترين ومد يده إليها:

- نوزاد وهذا عدنان أو شئتِ عدو.

شدت على يده مقدمة نفسها:

- كاترين، أظنك سمعت بالاسم مسبقاً؟

أوماً نوزاد برأسه الصغير الطويل اهتزت لها شعيرات صفراء على مقدمة رأسه وقال مبتسماً:

- حتماً وأعرفك جيداً، أنت غنية عن التعريف.

ارتسمت ابتسامة امتنان على شفثيها المتوردتين، سحبت يدها برفق لتمسك بيد الصغير تساعد على الدخول، رفع الصغير رأسه بخجل ثم خفضه على عجل، أخذت كاترين تتأمل من الباب والدهشة تغمر محياها المنشرح، ثم أشارت لنوزاد بالدخول قائلة:

- تفضل، إنه ينتظرك في الداخل.

قادته إلى صالة الجلوس، كان عدنان واقفاً أمام النافذة وقد رأى وسمع ما جرى من حديث قصير أمام الباب، فحالما رأى نوزاد داخلاً تقدم نحوه يمد له يده، تناول نوزاد يده بنوع من الترقب وبارتعاشة ضئيلة أحست بها كاترين.. ثم اتخذ الزائر مكانه على كنبه منفردة، وجلست كاتي وعدنان على الكنبه (الأريكة) الثنائية المواجهة للصور، بينما ألهى الصغير نفسه بقطار صغير مطروح في ركن من الغرفة.

نظر نوزاد إلى كاترين أولاً ثم إلى عدنان، والذي نزع طاقيته حال دخول نوزاد محتفظاً بالنظارات، تنحنح قليلاً وقد ازداد وجهه حمرة على حمرة.. لم يكن الدفء قد وصل إلى المقعد من تحته حين طرح نوزاد سؤاله الحيوي:

- أولاً وقبل كل شيء يجب أن أعرف كيف أنه لا يزال حيًا، لا يزال حيًا لم يمت؟ ومنذ متى عاد إلى الظهور؟ فأنا لا أزال أعتقد أن روحه هي التي عادت لا جسده.

وأخذ يحملق في رأس عدنان الحاسر حال من يريد التأكد من علامة فارقة فوجدها، إذ سرعان ما خفض بصره يهز رأسه في حالة من الحيرة والارتباك، ثم وكأنه يحدث نفسه:

- لو كان الأمر كذلك يجب أن نعلن على الجميع وأن نتصل بأخيه بأصدقائه ولنقم حفلة بالمناسبة، لم كل هذا الخفاء ولماذا لا تدع أخوك يعلم، فقد تحمل الوليات من أجلك.

ثم وهو يرنو إلى وجه عدنان من جديد يضيق قسما وجهه وعينه كي تتم له الرؤيا واضحة، أمّا عدنان فقد تكلف ابتسامة باهتة خجولة، حدق نوزاد بعينين حائرتين في عينيه من تحت العدسات الخضراء وقال له بنبرة رصينة:

- عدنان أنا لا يزال عندي شكوكي، فقد غبت عن الوجود قرابة ثمان سنوات، كفنوك أمامي دفنوك أمامي، وضعوك في التابوت أمامي، ولفوا تابوتك بالعلم العراقي...

عجز عن التكملة وقد علت وجهه الأحمر صفرة، ثم أخذ يغمغم في ذهول:

- يا رب أعطني على الصبر، يا خالق المعجزات.

ابتلع عدنان ريقه، وجد نفسه فجأة راقداً تحت التراب، لاحظت كاترين تبدل لون بشرته فحاولت قدر الإمكان أن تداري الطرفين.. لم يتمالك نوزاد إلا وخفض رأسه يمسكه بين يديه المرتعشتين، ولما رفعه مرة أخرى شاهدت كاترين أن عينيه الواسعتين امتلأتا وفاضتا دموعاً، وسمعته يتمم مع نفسه: "يا رب إنك تحيي من تشاء وتميت من تشاء وترزق من تشاء بغير حساب، ولك الأمر من قبل ومن بعد".

مسح عينيه؛ نظر ملياً في رأس عدنان وجهه ثم خفض عينيه يحدق في عينه اليسرى فثبت نظره هناك لبرهة، وفجأة وكمن دفعته هبة هواء من العواطف وحركته تداعيات الذكريات، نهض قائماً يفتح ذراعيه، وكان عدنان أسرع في الارتقاء بين ذراعيه يحيطه بذراعيه المفتولتين، بكيا على كتف بعضهما البعض طويلاً، وشهقت كاتي من مكانها تمسك برأسها بين يديها وتبحر في لجة من العواطف ومزيج من المشاعر.

استفاقت من أفكارها المتضاربة على صوت نوزاد المتقطع وهو يقول بنبرة تخنقها العبرات:

- لقد كابدت كثيراً في حياتك أخي، فقد متّ أكثر من مرة، وعدت إلى الحياة أكثر من مرة، إنك أعظم من أن توصف، كأنك خلقت من جديد، كأنك كتب لك الخلود أخي عدنان.

تراخت يدها فتراجع إلى مقعده، وجلس هكذا طويلاً بلا حراك، ظل عدنان واقفاً بطوله وعرضه ينظر إلى ما حوله بشرود، كمن عاد إلى الحياة للتو، قامت كاترين وجلبت لهما ماء ومناديل ورقية، مسح عدنان عينيه وهو ينظر بطرف عينيه إلى نوزاد الذي اعتدل في جلسته وعاد إلى حالته الطبيعية مع احمرار أني ملحوظ في عينيه، وراح يربت على كتف الصغير الذي كان يدفع قطاره يمر من الفرجة ما بين رجليه في تلك الأثناء، مضى إلى خزان خشبي في زاوية من الغرفة، فتح مجرة وأخرج منها بعض الحلوى ووضعتها في يد الصغير، ثم التفت إلى نوزاد قائلاً له بصوت هادئ خاشع:

- عدت ولكن بعدما تغير كل شيء، عدت كشجرة عصفت بها العواصف، عارية من الغصن والورق.

قاطعته نوزاد وقال مشجعاً بلهجة جادة:

- عدت وكل شيء بخير، لك أخوك وزوجتك، وسوف يطيران من الفرح لو عرفا بعودتك.

وقال عدنان بصوت مرير:

- زوجتي اختفت، أمي أين هي؟ أخي تلاشى؟ أبي مات، وأين ابني؟ لم يبقَ لي سوى هذه.

يشير إلى كاترين التي احمرت وجنتاها ورأس أنفها الدقيق وقد زادت شفتاها حمرة على حمرة وكانت لا تزال في وضع عاطفي ونفسي متقلقل، وبعد أن هدأت الثورة التي اشتعلت في النفوس بغتة قالت كاترين تخاطب نوزاد رداً على ما قاله عن اختفاء عدنان كل هذه الفترة وهي تنقل النظر بينه وبين عدنان:

- أرجوك أن تكف عن موضوع الاختفاء والعودة والموت والدفن، فإنه لا طائل تحته وستعلم كل شيء بالتفصيل، ولكنك محق في تساؤلاتك ولك الحق أن تعرف

كيف أنه لا يزال حيًا يرزق، وأرى لذلك التزامًا علي أن أجمل لك ما حدث له منذ ذلك اليوم النحس، فلكي ترتاح قليلاً ألخص لك القصة ريثما يتوفر وقت كافي لتقف على الأحداث مفصلة مستقبلاً؛ اعلم أنه كان في الأسر، ثم عاد بعد انتهاء الحرب، وقبض عليه على الحدود من قبل عناصر أمن الدولة، ففضى بقية الوقت في سجون النظام الفاشستي، عاد وعلم أن أخاه سافر بعد أن تزوج من أرملة أخيه، جاء إلي يبحث عن حقيقة ما جرى في غيابه، ولم أقصر في مساعدته، جاء إلى هنا على رغبة سونيا وأخيه المكلف بالحراسة، ويجد عملاً مناسباً لنفسه، إنه أراد أن يعمل من أجل الكسب وإلهاء نفسه بدلاً من الجلوس والحزن.

ثم تواصلت متشجعة بعد أن رأت أنه بدا مقتنعاً أكثر، فاعتنمت الفرصة لتفتح صفحة أكثر أهمية فقالت مردفة:

- ذهب فرهاد منذ أشهر ولا أثر له ولم نسمع عنه شيئاً، وكل ما سمعناه هو حكاية عن أم عاشور عن المهربين أنهم وصلوا إلى بر الأمان في هولندا، كما أظن، وطلب اللجوء، والغريب في الأمر أنه لم يتصل بها رغم أن فرهاد أخذ رقم هاتفها واعدًا إياها أنه سيتصل بها حالما تطأ قدمه أرض أوروبية..

قاطعها نوزاد معقّباً:

- لا تسمعوا كلامهم ووعودهم، أعني كلام المهربين وكلام الناس، الحقيقة التي لا تقبل الغلط هي أنهم وصلوا قبل أسبوعين أو ثلاثة واتصلوا بالبيت هاتفياً في وقت لم أكن موجوداً، كنت موقوفاً.

- في السجن؟ أين؟

- ستسمعان ذلك مني حالاً..

رد باقتضاب على تساؤلها ومضى في حديثه:

- زوجتي ردت على مكالماتهم ولم تستطع التكلم والإفصاح واكتفت بالبكاء وسدت الخط.

- أنت كنت موقوفاً؟!

ارتفع الصوتان من جديد.

- طيلة الوقت، منذ اليوم الذي غادر فيه فرهاد وأسرته.

ارتكزت عيون أربعة عليه في دهشة فواصل كلامه موضحاً:

- أنا عدت قبل ثلاثة أيام من السجن في تركيا، أوصلتهم حتى بلدة هي الأقرب داخل تركيا، اسمها سلوبي كما أعتقد، كانت هناك أسرة معنا في سيارتهم من أصدقاء فرهاد رافقونا حتى تلك القصة التركية وكانوا في طريق العودة إلى ألمانيا، فضّل فرهاد أن يسافر معهم كونهم اعتادوا على الطريق وكذلك بسبب أن الرفقة في السفر تطرد الوحشة، وحالما وصلنا إلى داخل تركيا واصلوا هم مسيرتهم.

العيون زادت توسعاً، وتوغل هو في التفاصيل:

- وبقينا نحن ننتظر الباص، وبعدما غادر الباص الذي يقلهم إلى اسطنبول تقدم شخصان يرتديان ملابس حراس الحدود كما أظن، أشارا إلى السيارة وطلبا مني إجازة من نقطة السيطرة، أريتهما إياها: ورقة مختومة موقعة، أعادها إلي وقالوا إنها مزورة ليست أصلية، قلت استلمتها على الحدود، قالوا إنها خدعة: نحن نحرر هذه التراخيص في قسم الجمارك داخل أراضينا وهذه الورقة من الطرف الآخر لا من طرفنا، كم حاولت أن أوضح أنني لم أعلم وكيف لي أن أعرف، وشرحت لهما مدافعاً أنها ورقة استلمتها من يد حارس بزي عسكري وعليها ختم رسمي.. لم تنفع التوسلات، فقادوني وألقوني في غرفة توقيف شاركني فيها اثنان، قال لي أحدهم ادفع لهم رشوة يخرجونك، قلت حرام، ومن ثم لم يكن في حوزتي مال في ذلك اليوم.

تبادلت كاترين وعدنان نظرات تنم عن الوعي، الأحداث تلاحقت فوجهت له سؤالاً تريد به فكها بعضها عن بعض والاستزادة من المعلومات في نفس الوقت:

- رافقتهم في سيارتك إلى الحدود ومنها حصلت على ترخيص الدخول.

- نعم.

- توقفت في أولى البلدات التركية، أنت وسها وفرهاد وآسو، بدون هذا الصغير، أي أنتم الأربعة في انتظار باص.

ضغطت على عبارة (بدون هذا الصغير).

- وهو كذلك.

- هل كان الصغير يرافقكم ثم عاد معك أو لم تصحبه معك أصلاً؟.

- لم أصطحبه معي، لم يكن معنا.

- وسلمك فرهاد رسالة هناك.

- نعم.

- تحرك الباص الذي كان سيقلمهم إلى اسطنبول، وحينها قبضوا عليك بتهمة التهريب، وتزييف الأوراق.

- نعم هذا ما حصل تمامًا.

- وبقيت في التوقيف كل هذه المدة؟

- تمامًا.

- ولم تسمع عنهم شيء منذ ذلك اليوم؟

- نعم، وعدت قبل ثلاثة أيام وحينها أخبرتني زوجتي نرمين أن ابن خالتك اتصل بك وفجأة انقطع صوتي أخفي نحبي، ولم ألقه شيء مما ذكره في مكالمته.

- تلاقت النظرات الذاهلة، وحينها سحب نوزاد نفساً عميقة ودس يده في جيب معطفه وأخرج منها مطروفاً بريدياً ناوله إلى كاترين:

- تفضلي إنها لك وآسف على التأخير.. لم يكن ذلك القصد...

- وهي تتناول الظرف قالت بدهشة غامرة:

- شيء لا يصدق أمر غريب للغاية وخطير.. أخشى أن يكون حصل لهم مكروه...

قال معقّباً:

- كان الهدف هو أن ألتقي بعمتك من أجل الحصول على عنوانك ثم تسليم الأمانة إليك مباشرة، وأسلمها الرسالة بعد عودتي مباشرة.

فضت الظرف بيد مرتعشة فوجدت فيه ورقتين، سحبت الورقة الأولى من فوق، رفعتها أمام عينيها بكلتا يديها، تقافزت عيناها على السطور، راقبتها عيون عدنان بعناية مفرطة كأنه يريد ابتلاع كل لفظة صدرت بهمس من شفاهها المتحركة بلا تصويت.

لما فرغت من قراءتها صدر عنها صوت أشبه بأنين متوجع، وظلت في حالة سكون هكذا لثوان طويلة، ثم ألقت بذقنها فوق يديها المتشابكتين، وبقيت هكذا تنظر إلى أرض الغرفة في شبه غفلة.

لما رفعت رأسها وجدت عدنان جاثياً على ركبتيه أمامها وفي عينيها بريق رجاء وأمل وخوف، ربتت بيدها على كتفه برقة تطمئنه، وهي إلى الاطمئنان أحوج، وضعت في يده الرسالة وقالت له:

- اقرأها جهراً فليس ثمة ما نخفيه بعد الآن، ومن ثم فنوزاد ليس غريباً.

وقرأ عدنان:

((حبيبتي كاترين

حياتي،

روحي،

ألمي،

لم يتح لي فرصة لقائك وكان الوقت متأخراً فلم يتوفر الوقت الكافي للبحث عنك، وأنت ومع الأسف لم تقبلي رجائي بالحضور في المنتزه يومذاك، كنت أريد أن أخبرك بموضوع مهم شخصي ولكنك لسوء الحظ لم تأتي، يبدو أنك حانقة علي ولك الحق، وهذا الذي كنت أريد إيصاله إليك كي تكوني على علم بكل شيء وتتوضح الأمور، عدم حضورك كان مسماراً في نعشي لم أفق من صدمته إلى هذا اليوم، لم أتصور أن كاتي سترفض رجاءً بسيطاً مني؟ لا يعقل، حتى صرت أشك في تلقيك الرسالة الأخيرة، فكتبت رسالة وضعتها في جيبتي وكان في النية تسليمها إلى عمك في اليوم التالي، رغم تحفظي من أن أضع هذه الأمور الخطيرة الحياتية على الورق ففعلت مضطراً، كي أوضح الأمور أكثر بحيث لا تحتل التأويل، لكن حدث ما ليس بالحسبان، فقد جاء خبر من الأسرة التي أزمعنا السفر معاً إلى داخل تركيا أن ننتهياً فأعطيت الرسالة إلى نوزاد، ها هي أضعها في نفس المظروف.

٩- مايس - ١٩٩٣ تركيا.

فتح عدنان الرسالة الصغيرة وقد بان عليها القدم بتجاعيدها ولونها وأخذ يقرأها جهراً:

(حبي كاتي، أعز إنسانة لدي في الحياة

أمل أن تكوني بخير وصحة، وبعد،

أردت أن أقر بحقيقة تهمنا نحن الاثنين أكثر من غيرنا، إنني طلقت سها ثلاثاً في نفس اليوم الذي تم عقد قراننا فيه وبحضرة أمي التي باركت لي المبادرة، الزواج كان مجرد ذر الرماد في العين، أنا أبعد من أن أنام في فراش امرأة كانت يوماً زوجة أخي، أجده حراماً ولو أجازة الإسلام، ولهذا الغرض قسمت الدار بعد وفاة

أمي إلى شطرين فأقمت في بيتي في شقة للإيجار كما كان يفعل الكثيرون من أهل بلدي هناك.. ترقبي عودتي وادعي لنا بسلامة الوصول،
تحياتي وقبلاتي،

فرهاد عمر ٥ مايس - ١٩٩٣

بعدما انتهى من قراءة الرسالة نظر صوب كاترين فوجدها تغطي وجهها بكتا يديها، ثم رفعت رأسها وصعدت زفيراً طويلاً ونهضت متثاقلة إلى حيث عدنان الذي نهض على قدميه يمد لها يده بالرسالة، تناولتها منه وطوتها بعناية ثم وضعتها ضمن مقتنياتها في داخل حقيبتها اليدوية، ثم قالت بمرارة:

- أكبر حماقة اقترفتها في حياتي أنني امتنعت عن مقابلته في المتنزه.

وبعد أن استعادت توازنها وهدوءها بعد إطلاق اعترافها قالت لنوزاد متسائلة:

- الآن السؤال المهم هو: كيف أصبح هذا الطفل فجأة ابن نوزاد بعد أن كان ابن فرهاد طوال الوقت؟!.

سحب نفساً طويلاً ووضع الطفل على الأرض والذي هرع إلى حيث القطار الذي جلب لونه وشكله وقدمه نظر عدنان، نهض ومضى إليه، التقطه ورفعته إلى عينيه، ولشد ما كان دهشته حين رأى أنه القطار نفسه الذي جلبه يوماً لآسو من وراء الحدود يوم كان يعمل في منشأة النقل البري لصالح المجهود الحربي، ودليله في ذلك وجود اسم آسو محفوراً برأس سكين مدبب فوق الواقية من تحت، أعاده إلى الأرض لتلتقطه عيون الصغير قبل يديه، ربت على رأسه وعاد إلى مجلسه، ابتسم إليه نوزاد وهو يحتل مجلسه من جديد، ثم ألقى نظرة خاطفة نحو الصغير وقال يجب على تساؤل كاترين:

- انتقل فرهاد بسبب مرض خالتي جميلة وسوء المواصلات أثناء الحرب والحصار إلى حي آخر بعيد من هنا اسمه حي كردستان، حيث نسكن نحن أيضاً، والسبب الأهم كان قرب المسكن من مستشفى اسمه مستشفى الشفاء، توطدت العلاقة بين زوجتي وسها ودادة بسبب الجوار والقراية بدرجة متينة، فصارت خالتي محل عناية الجميع في البيت، نعتني بها كلنا، نسهر عليها جميعاً بالتناوب، توطدت علاقة الصغير بها فبدأت تميل إليه وهو إليها، وقد سميت عدنان سميت تيرگا وتخليداً لابن خالتي عدنان هذا الذي استشهد غداً، فلم يفت يوم إلا وكان عدنان عند دادة جميلة يلعب مع آسو وتلعب دادة معهما، فصارا بمرور الزمن سلوتها الوحيدة، ودون سابق إنذار مرضت زوجتي أثناء الولادة فتكفلت سها، كونها قابلة وممرضة، العناية بها إلى جانب العناية بخالتي، فكانت تأخذه معها إلى البيت فقد أحبها حباً يفوق حب دادة له وكانت تتذوق بنطق اسمه وتتلذذ، سمته دادة عدنانوكه تدليلاً (اسم دلع كما يقال)، وهكذا صارت عدنانوكه شغلها الشاغل، وجدت عدنان الابن في شخص عدنان الطفل، وللعلم فقد دخلت سها دورة تمريض قرب مستشفى الشفاء وتخرجت بعد سنة فنالت شهادة التمريض بجدارة، ذكية.. كانت في الليل تتناوب السهر على خالتي وتعمل في النهار.

سكت عن الكلام وألقى نظرة للاطمئنان على الطفل ثم عاد يواصل:

- كانت أم سها تكره فرهاد لا لسبب إلا لكونه سبباً حال بينها وبين تزويجها لرجل ثري من أقاربها، كما سمعت من فرهاد، كان ملا عبد الرحيم، رحمه الله، سنداً لها، وكان فرهاد يضع كل اهتمامه في رعاية والاعتناء بابن أخيه، ويقول إن أسو أمانة على عاتقه وسيحمله من كل سوء ما قدر الله له من الحياة، وتعلق الصبي به كثيراً، وكان في الآونة الأخيرة يأخذه معه أنى ذهب، وأكاد أجزم أنني لم أرَ في حياتي أباً متعلقاً بابنه مثل أخيك، يوماً باح لي سرّاً أنه يشعر بعقد نفسية تجاهك كأخ أكبر، قصر بحق أخيه الأصغر في لحظات حرجة، وكان يتعذب، وأباح لي سرّاً آخر أنه خطب من مسيحية، خالتي كانت راضية جداً على سها، روى سبى بي، الله يبيض وجهها، كانت تقول بحقها، إنها تصلي وتدعي له، وكانت تزور ضريحه كل يوم جمعة، كانت دادة تعرف بفكرته على الرحيل، فباركت الفكرة ودعت له بالنجاح، ولكنه ظل ثابتاً لا يتزعزع من مكانه حتى وافت دادة المنية في البلدة في منزلهم هذا، فقد كانوا حينئذ قد عادوا إلى هنا، وبعد وفاة خالتي غفر الله لها؛ بدأ بالاستعداد والتهيئة للسفر، وكان عملاً مضمناً شاقاً متواصلاً متفرعاً: استخبار، تحديد الوقت، البحث عن مهرب أمين موثوق به، وعملية بيع الأثاث التي استغرقت طويلاً حتى اضطر فرهاد أن يبيت في بيتنا أحياناً نظراً لقربه إلى السوق ومركز المدينة.

توقف لحظات، تجرع قطرات ماء، نظف حلقه وعاد يتكلم:

- عادت نرمين زوجتي من السوق يوماً ما ومعها عدنانوكه وقالت لي: رأيتني أم سها في السوق صدفة وقالت إنهم يسكنون في الحي العسكري في أقصى الغرب وسخرت من فرهاد قائلة إن عدنانوكه ليس ابن فرهاد وأنه عقيم، وقالت بالحرف الواحد: "إنه سرق مني ابنتي... أين ولى؟".

تبادلت كاترين وعدنان نظرات خاطفة، ثم قال عدنان ينقل بصره بينهما:

- بفضل كاتي عرفت كثيراً من هذه التفاصيل.

نظر نوزاد إليه ولم يعقب نوزاد على مداخلة عدنان واستطرد في سرد حكايته:

- انتقلا إلى عنكاوة بعد أن فقدوا الأمل في شفائها، وأخذت الصغير معها، نحن أردنا إرضاءها بكل الوسائل، كان ذلك قبل حوالي عام من الآن وتوفيت في فجر يوم لم ترَ المدينة يوماً أشد برودة منه، وصلني خبر النعي فهرعت إليهم، أقدم كل ما يمكن من مساعدة، وبقي الصغير هناك حيث تلائم مع المحيط واعتاد على

المدرسة ورغبة من الجانبين، ومن جانب الطفل كانت الرغبة أشد وأقوى من أن تقاوم، فقد اعتاد أن ينادي آسو بـ (كاكه).

- إنه كان استعارة إذن؟

تساءلت كاترين وهي واثقة من الجواب.

- نعم ولكن لأمد معلوم.

جر نفساً طويلاً ثم قال يختتم:

- أعاد ابني إلينا في نفس الليلة التي سبقت الرحلة.

تلفتت إلى عدنان الذي بدا مشدود الأعصاب وقد تسمر نظره التائه على الصور كمن يربط الصوت بالصورة والحاضر بالماضي، نبهته كاترين إليها فانصاع لها وأدار رأسه صوبها، فقالت له بصوت متهدج تخنقه العبرات:

- عدنان.. كان أخوك يواجه الموت من أجل إنقاذ أسرته، بينما كنا نحن تحت أقدام الجبل الأسود نتحدث ونحلل ونبحث عن الحلول والبدائل!!

تبادلا نظرات ملغزة غريبة عليهما، اعتراه ارتباك حتى اختطف لونه، فـ "كلمة" "بدائل" التي خرجت من فمها بصورة عفوية كانت لها أثراً ذا حدين، حاول أن يخفف من وطأة الكلام عليه فابتسم ابتسامة أشبه بتكشيرة وهو يطالع بعينه النافذتين وجه نوزاد كأنما يحفر في رأسه تنقيباً عن معلومات وإمدادات إضافية تقربه من النور الذي كاد أن يطل عليهم من كهف المتاهات ودهاليز العتمة المحيطة بهم طوال الوقت.

مضى إلى الصور حتى التصق ذهنه بالحائط، توقف أمام الصورة التي يجلس فيها آسو ومن ورائه سها ويقف هو بجانبها، إنها أشبه بصحوة الحياة بعد الموت واستفاقة بعد الغفوة، القلب له سباته أيضاً، فالقلب ليس حديداً في الصلابة لكنه يصدأ كما يصدأ الحديد في الرطوبة، إنه عاش مع زوجته وابنه لفترة أقصر مما عاشه أخوه، هذه الصور أفقت مخزونات ذاكرته التي وهنها الانتظار في نفق مظلم.

انتزع الصورة من الحائط وألقها بصدرة وقال بصوت أشبه بصوت طائر عجز عن الغناء من العطش:

- أريدهما الآن وليس غداً.. الآن أريدهما.. نوزاد ساعدني.. لم أعد أحتمل...

تنفست كاترين الصعداء، كانت تخشى أنه قد علا قلبه الصدا بتقادم العهد، تخشى أنه لا يزال جزء منه مدفون تحت تأثير جاذبيتها هي وتأثره بها، خافت حقًا من تقلبات مزاجه، خافت أن تكون عقدة الأخ الشهيد لسهل وإخفاقه في امتحان اللياقة، لولا وجه الشبه بأخيها، سببًا بل مدخلًا لعزوفه عنها.

- سأبقى هنا، قالت كاتي، عند عمتي وسأكلف السائق نوبيل أن يحضر نبيل إلى هنا. ثبتت العيون على عيني وشففتي نوزاد في انتظار ما يقترحه وما يقدمه من رأيه الشخصي.

- اتركوا الاتصال بهم على عاتقي.
قال نوزاد أخيرًا، ثم نهض قائمًا والتقط الطفل من على الأرض.

وقالت كاترين بابتهاج منقطع النظير:
- فكرة جيدة.

رافق عدنان وكاترين نوزاد إلى أمام البوابة حيث السيارة، وحالما جلس كل منهم بمقعده؛ أدخل عدنان رأسه في داخل السيارة وطبع قبلتين على وجنتي الطفل يشمه شمًا هامسًا:

- يا لطيب رائحتك! كم تلقيت من قبلات دادة على وجنتك؟!.

مرَّ أسبوع لم يصل خلالها أي خبر عن نوزاد، فعادت كاترين مضطربة كاسفة البال إلى مكان عملها وبيتها، وبعد مضي أسبوعين آخرين عادت كاترين في زيارة خاطفة استخبارية إلى البلدة، وبعد زيارة قصيرة لعمتها توجهت إلى ساحة بيع النفط، كانت ترفل في بنطلونها الجينز الأزرق وقميصها الوردي المسترسل فوقه وشعرها المشدود من الخلف على شكل عقدة تتأرجح كذيل حصان بين لوحى كتيها عند المشي، وترتكز فوق أنفها المستقيم نظارات بأطر مذهبة، وقرطين من ذهب يتدليان من أذنيها الصغيرتين، والصليب يتدلى فوق عنقها، وتمسك بيدها حقيبة يد سوداء صغيرة، وتشد شالاً أخضر حول عنقها، ممشوقة القوام، تمشي الهويناء.

كل شيء فيها كان رائعاً بهيئاً بديعاً عدا تعابير وجهها وخديها، فلا أثر للتورد ولا أثر لحرمة الشفاه، بدا عليها التعب والسهر، رأت عدنان من بعيد يقف أمام أربعة براميل نفط فسارت إليه مسرعة، كان الجو معبئاً برائحة النفط والبنزين النفاذة، وأصوات البراميل المتدرجة والصفائح المتصادمة ولغط الباعة تملأ الفضاء ضجيجاً، كان يقف في مكانه المعتاد المخصص له، بدا عدنان في منتهى القنوط والترقب الحذر، استقبلها بابتسامة تحت شاربيه الرفيعين، وبعد السؤال عن الأحوال أشار إلى برميلين مطلين بصبغ أحمر قاني قائلاً لها:

- تركهما هنا فعبئتهما له نفطاً خالصاً.

- من؟

- نوزاد.

- متى؟!

- في اليوم الأول، ما كان قد تعرف عليّ بعد.

توقف ثم واصل وهو يتأمل وجه كاترين الشاحب:

- ما باليد حيلة سوى الانتظار.

قال عدنان وهو يدفع ببرميل نفط ليفسح لها مجالاً للتقرب منه، وبعد أن اتخذت مكاناً بالقرب منه قال لها:

- اتصلت به أول أمس قال لا خبر بعد، ولكنه أكد لي أنه سيتصل حتماً فلا تهتم.

شعاع وميض في عيني كاتي تحت عدسة نظاراتها القهوائية الخفيفة فتجاوب معه شعاع أخضر انبعث من عدسات عدنان في المقابل، قال عدنان مكماً:

- سألته وبراميلك؟ قال: انتظر حتى يعودوا!

في انكماش وجهها استنتج أنها انزعجت بالروائح النفاذة الحادة فأشار إليها قائلاً:
- فلنخرج من هذا الزحام.

سارا معاً إلى أن بلغا الطريق المفضي إلى الحزام المرتفع الترابي، هناك جلسا وبسطا أرجلهما أمامهما قبالة الحقول المنبسطة المرصعة بالعاكول والخروب والأعشاب وأصوات الرعاة من بعيد تنادي حملانه، وثمة كلاب سائبة تهر وقطط تموء وحمار ينهق وحصان يصهل، التقت عدنان إلى الورا ففعلت بالمثل، فجعل يشير إلى بيت من الطين محاط بسياج من النبات والشجر من ثلاث جهات، وقال موضحاً بلهجة العارف:

- ذاك هو بيت آري بائع النفط ومن ورائه...

رفع يده إلى أبعد ثم استأنف:

- انظري تلك الخرابة البعيدة، هذه كانت يوماً مقام السيد، سيد حسن، قال إنه من أحفاد الرسول وكان يفتخر كثيراً بنسبه العربي رغم كونه كردياً، كنت أزوره للتبرك، كان شخصاً عالمًا وبائع نفط يجوب البلدة بعربته، وهو الذي صنع نوشتي لدادة علقت أحدهما في داخل مقصورة سيارتي (الشاحنة - اللوري) وذلك ليدفع الله عني البلاء والمصائب وعين الحاسد.

- ألم يشكو أملك الحرب والوضع وكل هذه الاعتقالات؟

تساءلت كاترين بدهاء الساسة، فقد كان الجواسيس يستدرجون العامة بهذه الوسائل، فبعد رحيل السيد بعد الانتفاضة المليونية وجدوا في خربته تحت الأرض أدوات ومعدات تنصت وأجهزة تسجيل أصوات متناهية في الصغر وصور وأوراق وتقارير ومواد استخباراتية أخرى.

- بلى، أجاب عدنان، وكان يعارض الحرب، يصفها بحرب أمريكا والسعودية، الدم منا والنفط منا والسلاح منهم.

- وماذا كان ردك؟

- السكوت.

- أحقًا ما تقول؟

- أبي رحمه الله علمني ألا أثق حتى بالملائكة.

- أبوك كان عاقلاً فوق المعتاد.

نظرا إلى أبعد حيث تنتصب سلسلة جبل سفين الطويلة، وقد اختفت زرقته تحت غلالة كثيفة من الغبار تكتنفه سماء وسحب متفرقة، ولم يلبث أن عادا بناظريهما إلى الأمام حيث الحقل ومن ورائه سلسلة البيوت المتراسة وأشجار البرتقال المكتنفة لأسيجتها، ومن بعيد لاح لهما برج الكنيسة المخروطي المتوسط القامة، ثبت عدنان نظره على الباب الأزرق الذي استثار فيه ذكريات مريرة مر بها عند دخوله البلدة لأول مرة، وفتح فاه ولكنه لم ينبس واكتفى بهز رأسه يمنة ويسرة لحين، وساد سكون طويل نسبياً، قطعه صوت عدنان المتهدج، فقال وهو يدق بكعب حدائه الجليدي المتين الأرض المنبسطة أمامه الصلبة:

- أتساءل بشغف وشوق وخوف: ماذا يقف وراء كل هذا السكوت من أهلنا الراحلين؟ سلامتهم الآن فوق كل اعتبار، أليس كذلك؟

ندت عنها تنهيدة مقتضبة واكتفت بذلك، وأخذ عدنان يبيت هواجسه وهواجسها في الوقت نفسه على الهواء بلهجة خلت من كل لين:

- سألت عنه في السوق وخاصة في شارع الكنيسة المكتظ، والكل يعرف الأستاذ فرهاد، فقد أكد لي أناس كثيرون ممن عادوا من الخارج أنهم التقوا بهم هم الثلاثة في الطريق، وبعضهم قال إنهم رأوهم في ألمانيا في طريقهم إلى هولندا.

صمت لحظة يزدرد ريقه ثم أضاف معقّباً:

- نوزداد كما أعرفه رجل تقي مؤمن صادق، وأثق بكل كلمة قالها، ولكنني في نفس الوقت سمعت حكايات من بعض الناس الذين كلمتهم تناقض ما سمعته عنه، حتى سمعت أحدهم يقول إنهم وصلوا فعلاً إلى هولندا.

قالت كاترين وقد لاح بعض الضيق على وجهها:

- هذا ما سمعته أنا من أم عاشور وهي قد سمعته من أشخاص آخرين، وكل من ينقل خبر يضيف إليه بعض الشيء حسب أهوائه، الشيء الوحيد الذي أذكره جيداً هو أن فرهاد كان قد عبر أكثر من مرة أنه لو هاجر إلى بلد ما فإنه سيختار هولندا،

بلد الخضرة والطبيعة والزهور والورود، كان معجباً باللون البرتقالي رمز اللاعبين أمثال.. لا أنذكر أسماؤهم، كان يصف أحدهم باللاعب الطائر..

قاطعها عدنان برفق قائلاً:

- هذه الأخبار وصلتني من أناس التقيت بهم وهم كثيرون والتقيت حتى بعض المهربين، فأكد لي بعضهم أنهم ساعدوهم على الخروج من اليونان متوجهين إلى روما عبر البحر.

لمحت علامات القنوط على وجهه، فقالت له بصوتها الأبح:

- يجب ألا نياس، أقول هذا والحسرة تملأ قلبي، ورغم ذلك فقلبي ينبئني أن حدثاً سعيداً ينتظرنا.

ثم رفعت رأسها إلى السماء حيث قطع السحاب السوداء المتحركة وقالت مستدركة:

- ولكن قلبي المتحير يصيبيني أحياناً بالإحباط.

تنهدت ثم استأنفت بنفس النبرة الحزينة:

- أحياناً ينتابني أنا كذلك يأس شديد، ينتابني هاجس أنني لن أراه مطلقاً، ها قد مضت أكثر من أربعة أشهر وليس هناك أي خبر وثيق عنهم، بأذني سمعت سونيا تقول إن فرهاد كلف خيرة المهربين بتهريبهم، ودفع أضعاف ما دفع غيره بشرط أن يصلوا بأقصر وقت وبطريقة أكثر أماناً، وترك المال عند المحامي مع عقد موقع من قبلهما إنه لن يسلم المهرب ثمن أتعابه إلا بعد وصوله إلى الجهة المنشودة.

انقطعت لحظة تنظر إلى برج الكنيسة ثم واصلت:

- ثم أعود وأقول لو كان قد وصل لأبلغ أم عاشور بذلك فهو قد حمل رقم هاتفها معه وكتب في رسائله أنه متى ما يصل سيتصل بها حالاً، والتي بدورها ستخبر عمتي.

رفع رأسه إليها كمن تذكر شيئاً فقال لها:

- سأقرأ دعاء كاكه شيخ قرأه أبي عليّ يوم النكسة، وقالت لي أمي إنه دعاء مجرب مستجاب.

- اسمعني رجاء.

قالت كاترين وضمت يديها في تشابك، وجعل يتلو بصوت مرتفع خاشع:

((يا غلام احفظ ربك يحفظك، أحفظ ربك تجده أمامك، واعلم أنه إن اجتمع الجن والإنس أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا أن يضروك بشيء فلن يضروك إلا بما كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف، لا حول ولا قوة الا بالله))

بعدما انهى الدعاء التفت إليها فرأها غارقة في تأمل طويل وخشوع كمن تصلي، رفعت رأسها بعد قليل وهي تقول بصوت رخيم:
- دعاء جميل صادق أصاب صميمي.

كان الوقت قد قارب الظهيرة، الشمس مالت إلى الزوال، نهضت قائمة بخفة، شدت الشال الأخضر حول عنقها ورأسها، رتبت شعر رأسها، ونفضت ما علق من غبار على بنطلونها، وقميصها الوردي اللامع، وقفت على رجليها منتصبه كما كانت دائماً، وقام عدنان واستدار ليقف وجهاً لوجه معها على الحزام الترابي المرتفع.
- عزيمتنا لا تلين، نحن من الصخر لا تنس.

قالت وقد تبدلت نبرات صوتها، لمح عدنان بريقاً رقيقاً بدأ يتحرك ويبدأ من تحت عدساتها، وعادت تقول بصوت متقطع:
- يا صديقي الوحيد في هذه الدنيا، لقد أثبت أنك أنت أقوى من الصخر، فتنت الصخر وأنت لم تنفتت، قل لي كيف كان شكل المطرقة التي هشمت بها شاهد قبرك؟

ابتسم عدنان رغماً عنه، وجاءت بفكرة فقالت له بصوت طافح بالبشر:
- فكرت أن تقوم بتصليح الكشك أمام المدرسة، فهذا أسهل لك، أنت أضعف من أداء هذه الأعمال الشاقة، ألسنت ترى؟

كان رده سريعاً:

- نعم ولكن أحب هذا العمل.

رنت إليه مستذكرة وقالت له بصوت متهدج:

- أنت والنفط أصدقاء منذ الطفولة.

أراد أن تمضي في عزائها والشد من عزيمته وأزرها إلا أنها انهارت، خارت عزيمتها، وعادت تجلس كما كانت لكن هذه المرة دفنت رأسها بين ركبتيها.

منذ معرفته إياها وتواجهه بجوارها لم يرها تبكي إلا في قليل من المواقف وبلا دموع، أمّا هذه المرة فقد بكت بحرارة ولوعة وبصوت أشبه بالحسرة.. كان اللقاء الأخير مع نوزاد بمثابة فتح موضع لإجراء عملية ترقيعية مضمونة النجاح ولكن العملية لم تجر بسبب انقطاع الكهرباء المفاجئ وهي الآن تنتظر بألم عودة التيار. فبكت كاترين، وبكت طويلاً وغزيراً هذه المرة..

الشارع المَار أمام مدرسة الفراشة البيضاء والذي يفضي إلى السوق يكتظ بالمواصلات نهارًا، وتختفي وتسكن الحركة مساءً، لأنه كان شارعًا من النوع الذي تصدق عليه تسمية شارع العمل، على عكس الشارع التالي له والذي سمي بشارع الكنيسة نسبة إلى الكنيسة الكلدانية المنتصبة بجوارها، فلقد كان فارغًا خاليًا من المارة إلا من الواردين إلى الكنيسة أو محلات أزياء النساء أو محلات بيع المشروبات الكحولية، وهذه النشاطات كانت تقع في مجملها ليلاً لا نهارًا.

هذا الشارع، أي الشارع الأول، كان من أحب الشوارع إلى نفس عدنان لأنها تمر أمام الروضة التي كانت سها معلمة فيها، وكان من ضمن ما خطط له أنها ستكون المدرسة المستقبلية لابنهما: آسو.. "ها هي أم موسى تأخذ أجراها وترضع وليدها"، قال لها آنذاك مستشهدًا بالآية الكريمة وهما يرقدان تحت لوحة الحمامات البيضاء المرسومة على صفحة السقف الأزرق في غرفة نومهما في الطابق الثاني من بيت الأبوة.

الموقع هذا هو الذي حَبَّب الساحة إلى نفسه، يستذكر فيه طلعاته وجولاته أيام عودته في إجازاته الروتينيه كيف كانا يتجولان يد بيد مع سها ملقياً آسو على كتفيه ممسكًا بكلتا يديه من الأمام فيجلس على رقبته كالراكب، وهما يشقان طريقهما وسط النساء والفتيات العاريات الصدور والأرجل في ملابسهن القصيرة والضيقة والشفافة ولا يرف لهما جفن إزاء ما رأيا، فقد كانا يحلمان ويسبحان في فضاء آخر، وكانا حريصين أن يغض الطرف عما وقعت أعينهما عليه من مظاهر التبرج والمفاتن والعري، كان أبوه مطمئنًا منه في هذا الجانب: "إنه يخاف ربه وقد عصمه الزواج من النظر إلى المحارم"، شقيقه كان بحسب رأي أبيه هو مصدر الإزعاج الوحيد للعائلة، والذي أثبت عكس ما توقعه تمامًا، صار أبًا وابئًا وأخًا وزوج وعمًا وحاميًا ومضحياً في آن واحد، "فيا أبتي كم كانت حكمتك بليغة وعلمك غزيرًا ولكنك، واغفر لي طول لساني، قد اخطأت بحق أخي".

كانت هذه الصور تراود أفكاره مدعومة بالأحداث والتطورات التي آلت إليها الأمور، وهو يقف وراء براميله وصفائح نبطه في ساحة النفط، فكل امرأة تسير

برداء رمادي وحجاب استحالت في عينيه إلى سها، وكل طفل متموج ملفوف الشعر
أسمر البشرة كان أسو.

مر به أصدقائه القدامى ولم يتعرفوا عليه وعرفهم هو، منهم عاشور برجل واحدة
قاعدًا في عربة المعوقين، والذي كان يرفعها إلى أعلى بين الفينة والفينة مستهزئًا
لافظًا بكلمات ساخرة، الصورة نفسها رآها مع كاترين بعد عودته وفي طريقهما إلى
شقة البلابل العاشقة، ها هو يشفي غليله بالسب بعد أن عجز عن العمل وبعد أن
انحسر ظلام الرفاق من الطرق وحل النور محل الظلام في الطرقات، ورأى أمير
فحز له فؤاده، "إنه يقيم في كندا"، سمع ذلك من بعض رفاقه في العمل.

كم ود لو تقدم إليه يعرفه بنفسه ويحدثه بأحاديث البريصي (السحالي) ومقصلة
ماري أنطوانيت ورمي الحجارة، ولكنه سرعان ما طرح الصورة الأخيرة جانبًا،
لفظها من رأسه كمن يلفظ ذبابة قذرة من فيه، وبدلاً أخذ يشم رائحة اللحم الطازج
تنبعث من دادة لدى مرورها هنا في هذا الشارع في طريق عودتها من محل
القصاب والتي كانت دائماً تحظى بأجود اللحوم لمجرد كونها امرأة مدير مدرسة،
كم كانت تفرح وتغتبط بهم.

كم مرة وقف بعيدًا عن دارهم القديمة المحاطة بأشجار البرتقال الخضراء المتشابكة
أغصانها المزينة بالمصابيح الصفراء، ورفع رأسه إلى قمة اليوكالبتوس الضخمة
الباسقة وهي تشق السماء سموخًا، والتي شهدت موته وكفنه ودفنه، وأنصنت
بأعصاب فائرة وأسى إلى عويل أمه وهي تسف التراب على رأسها وتصرخ:
أعيدوا لي ابني، قرّة عيني، فلذة كبدي.

كان يناجي نفسه أحيانًا بمسمع من زملائه ويقول: "يا رب: لم تكن منصفًا في خلقك
للإنسان، لو كنت منصفًا لمنحت كل واحد منهم فرصة سانحة ليعود ولو لسويغات
قليلة إلى محبيه، ليُريهم وجهه، يعانقهم، يضمهم إليه، يشمهم، ويطبع آخر قبلاته
على من تركهم، وبعد أن يشبع من التأمل في وجوههم واستنشاق عبقهم وريحهم
وبعد أن يتفقد غرفته ويلم ولأخر مرة متاعه؛ يتأهب للسفر الطويل، سفر الوداع
الأخير، يلوح بيده لهم عند مفرق الطرق ثم يتوارى في ظلمات اللحد الأبدية" ..

في وسط لجة الأفكار وتلاطم الصور لاح في الأفق شخص عرفه من مشيته، ترك براميله يركض بأقصى سرعة إليه وسط نظرات الحشد الغفير من باعة وشارين، بعد المصافحة أخبره نوزاد ببشاشته المعهودة قائلاً:

- أتيت مسرعاً كي أخبرك أن فرهاد اتصل بنرمين في الوقت الذي كنت خارج البيت في العمل، ومن يعيش ستة أطفال يجب أن يوصل الليل بالنهار لتأمين قوتهم وملبسهم..

قاطعه وأمسك بخصره بين يديه يرفعه كالريشة في مهب الريح إلى أعلى وهو يردد بالحاح:

- قل لي ماذا قال؟ ماذا قال؟

لم يلتفت لنظرات الناس من حوله الفضولية، أمسك نوزاد بيده وتحنى به جانباً والذي لم ينفك يطره بوابل من الأسئلة، وأخبره بكل هدوء نوزاد:

- قال لها إن سها مريضة ترقد في المستشفى، وقال إنه سيتصل بي متى ما عادوا إلى الكامب (معسكر اللاجئين).

تنفس الصعداء وطوق نوزاد بيديه يعانقه ويمطره بالقبلات، وبعد أن خف جموحه من الإثارة وصرعة السرور، نظر في عيني نوزاد وقال له مداعباً مشيراً إلى حيث موضعه في الساحة:

- براميلك مملوءة حتى الحلق، أريد أن أبلغ كاتي قبل أن تعود إلى بيتها.. أرجو أن تحملني إليها بسيارتك.

عاد نوزاد بالبرميلين جذلاً إلى البيت وأخبر زوجته بتباهي:
- إنها من ابن خالتي عدنان.

زغردت نرمين من الفرح زغرودتين وقف إزائها ينظر بدهشة وسألها مشدوهاً:

- عهدتك تزغردين زغرودة واحدة فمالك اليوم تزغردين كرتين اثنتين؟

أجابت المرأة الشابة بصوت نقي ووجه منشرح:

- أولاً للنفط، فلنا ما نتدفأ به في الشتاء ما يكفي لشهرين مع التقشف، أمّا الزغرودة الثانية فللخبر المفرح.

- ما هو؟

- أنهم جاؤوا من مكتب الهواتف وأبلغوني أن فرهاد يريد أن يكلمك وترك رقم هاتف في ذمتهم إن أردت الاتصال به.

طار من الفرع وطار إلى المكتب، في الطريق تذكر كلمات كاترين: "أقترح عليك ألا تدع سها تعرف وإلا لأصابها صدمة، فهي لا تحتل المفاجآت، ومن ثم إنها لن تصدق لو حلفت لها بأغظ الأيمان، كل هذا وأكثر سيكون سبباً في عرقلة فرهاد والتشويش على المكالمات، وبعد الانتهاء سيقص عليها ما حدث من تطورات في الموقف وبهدوء وتروي"، أدار له أحد العاملين الرقم المطلوب ودقات قلبه في ازدياد، سلمه السماعة قائلاً:

- إنه يرن.

جاء صوت نسائي أولاً تتكلم بلغة أجنبية لكن غير انجليزية، قرب فاه من المايكروفون ولفظ كلمة واحدة:

- فرهاد.

- بيس.

هذا كل ما لفظته السيدة ربما الهولندية، بعد ثواني جاء صوت غريب من الأفق صدى صوت مألوف لكن بنبرة مختلفة وبحة وخشونة.

- معك فرهاد.

- معك نوزاد.

- كيف حالك؟ بخير الحمد لله؟

سكت لحظة ثم عاد الصوت:

- نوزاد أنا ترجيت من سكرتيرة المستشفى أن تدير لي على هذا الرقم بعد أن شرحت لها وضعي باللغة الانجليزية فيجب أن أختصر، وحالما أعود للمكتب سأصل بك ثانية.. اسمع.

توقف لحظة ثم أردف يقول على عجل:

- نوزاد أبلغ كاترين على جناح السرعة أولاً بسلامة الوصول إلى هولندا قبل ثلاثة أسابيع وأنا نحن الثلاثة نسكن الآن في كامب.

- الحمد لله.
- وقل لها إنني قدمت معاملتين للجوء منفصلتين، أحدهما لسهها وآسو كعائلة مستقلة، وسجلت اسم كاترين ونبيل معي في أوراق المعاملة.
- هل أنت وحدك؟
- سأل نوزاد.
- نعم.
- سها لا تسمعك؟
- لا.. تفضل.. خير؟
- خبر عاجل.
- حصل خير إن شاء الله؟
- عدنان أخوك..
- رحمه الله ماذا عنه؟
- إنه حي لم يمت!

قام عدنان برصف الكراسي الحديدية بمحاذاة صخرة دادة منذ الصباح الباكر، وقام بتنظيف مجرى الماء وأزال ما وقع فيه من عوالق وأعشاب، أزال عش زنبور من على غصن شجرة رمان قصيرة خارج السياج، أطلقت عليها كاترين تسمية (الرمانة الحرة) لأنها أثبت بحسب رأيها أن تحاط بأسوار، وقد كان نوزاد قد أبلغه أن أخاه يفضل اللقاء بهم في حرير حيث الطبيعة الجميلة والبعيدة عن عيون الفضوليين من أهل المدينة.

بعدما تم له ذلك مضى إلى الغابة بخطى حثيثة، وهناك جلس على صخرة التوأم بهيئة جديدة، تمتد أمامه غابة النبق الكثيفة، كان قضى ساعات في التزيين والحلاقة والتنظيف، تساعده في ذلك كاتي التي كانت قلقة تترقب، فقد قضت ساعاتها تمشي إلى عمق الغابة مع نبيل بعد المدرسة ترافقها الأحلام والهواجس والكوابيس، أخذت إجازة من الدائرة بسبب هذا الاضطراب المشروع.

ارتدت الملابس التي رأتها منسجمة مع ذوق فرهاد، ومنذ الصباح الباكر بدأت معه حملة تنظيف البيت وترتيب الأثاث وتزيين واجهة البيت بالزهور وعناقيد النبق الجافة، وقد تم تزيين ما حول الدار من قبل بعض الطلبة في اليوم الفائت، وجهها طلق، شالها الأخضر الربيعي يشي بربيع قلبها المفعم بدم جديد، الهواء اللطيف الخريفي المعبق برائحة أعشاب الجبل والمشوب برائحة جلود الماعز والغنم التي بللتها أمطار اليوم الماضي وندى الصبح القريب تملأ مشامها وتبعث فيها حيوية تدفعها إلى الطيران في أوج السماء القائمة.

أن تعيش في بيئة مستعصية ومتوحشة يعني أنك تتعامل مع بيئة تتحدّك، وكي تحتفظ بالبقاء فيها عليك أن تقبل التحدي، وأن تكون في مستوى التحدي جسدياً وذهنياً ونفسياً، وإلا فإن مكانك المناسب هو الانحدار إلى السهول، وكي تكون في مستوى التحدي ينبغي أن تتّصف بقدر كاف من الصلابة والقوة والقسوة، وبقدر مماثل من الصبر والجَلَد والعناد، وكي نعي دلالات الاستعصاء والتوحش والتّحدي في البيئة الجبلية دعونا نستحضر الفارق بين رجلين يرغبان في اتخاذ بيت؛ الأول يقطع حجارة من صخور الجبل، وآخر يصنع طوباً من تربة السهل.

أليس من الحق إطلاق تسمية قطاع حجارة صخور الجبل على هؤلاء الأصدقاء الأحباء؟.

كان يوم دافئاً من أيام تشرين الأول، الشمس ترسل أشعة ذهبية من فوق جباى ره ش، الجبل الأسود، والهواء يحمل عطر المطر الهائل ليلة البارحة، فتضفي على الأرواح سكونية ودعة ودفء لذيذ، في السماء سحب متفرقة، وثمة راع يسرح أغنامه بعيداً وثغاء الأغنام تتعالى من خلفه على مرعى المطران، ثمة قطط تموء وكلاب تهر، ارتفع صوت الراعي وهو ينادي أغنامه ويركض نحوها متأبطاً عصاه الطويلة، ثم ترمى عنه لحن غناء غير واضح، في الجو تتبعث رائحة عشب يفقد ما تبقى في الأنساغ من ريق، والشمس تراوح بين الظهور والاختفاء تختلس النظر عن كيفية تناثر جمان الندى على وجنات الورد.

وهو يرقب قطعان الماشية خلال رحلتها إلى الأودية والهضاب المحيطة بالقريبة يترامى إلى سمعه جريان الينابيع على السفح وتدفق الأنهار في الوديان، من يقول إن الجبل عالم تناقضات؟ أليس هو عالم يندمج في الجمال والجلال؟ من يقول إن الجبل عالم القساوة؟ أو أليست الينابيع الرقراقة المياه تروي عطش الأشجار الوارفة الظلال والأعشاب الناضرة الزاهية بلا حساب ولا سؤال؟ ومن يتشدد بصلابة الجبال فهو قصير النظر، أو ليس الجبل يشبه كائناً حياً تتجاوز فيها القوة والضعف، والقسوة والدمائة والهدوء والعنف والوقار والثوران، والجّد والمرح والعبوس والبشاشة؟.

أمام هذا البهاء وردت مخيلته صور، ظهر أمامه طيف، وصل إلى مسمعه صوتان: قريب خشن وبعيد ناعم حالم امتزج صداه بموسيقى الماء الجاري تحت أقدام الجبل، صوت رخيم أنصت إليه بكل جوارحه، نغمة حزينة شاعرية أفقدته الاتصال بما حوله من نبات وطيور وبني البشر، سها إنها ترنو إليه من وراء الشجرة بعينيها السوداوين الساجيتين وحاجبيها المقرونين وأنفها السوي اللطيف وجيدها الطويل وقامتها الهيفاء الشديدة الشبه بنجمة فيلم دو بدن الهندي الذي شاهده مع أخيه أيام الصبا:

- لو ولدت بنتاً اسمها جميلة لو كان ولد أسميته آسو؟

- وماذا أجلب للطفل من الخارج؟ فستان أو بنطلون؟

تضع قبلة على جبينه وتدفعه دفعة في صدره يقعان من جرائها على ظهريهما في الفراش كليهما، ينقلبان على جنبيهما ويتكآن على مرفقيهما وجهًا لوجه، عبر لها عن أمنيته:

- أريدهما توأم إن شاء الله.

ثم يضع قبلة خاطفة على شفتيها المتوردتين ويعود يسألها:

- وماذا أجب لك أنت؟

- معطف طويل أسود يصل إلى الركبة وبنطلون أبيض.

- فكرة جيدة فهذه التشكيلة أفضل من هذا الرداء الطويل، وهي محتشمة كذلك.

- سرحت شعري هكذا أيعجبك؟

يسحبها إليه يشم رائحة شعرها ويقول بانتشاء:

- عطر ممتاز.

- العطر الذي جلبته هذه المرة رائع من النوع الفاخر الفرنسي.

- سأجلب لك عطور الدنيا رغم أن عطرك أزكى.

يحملق في عينيها مستغربًا ويسألها:

- هل كحلت عينيك؟

- هي هكذا كما كانتا دائمًا، كأنك تراها لأول مرة!

- وشعرك المسترسل؛ اصنعي منه ضفيرة طويلة أو ضفيرتين.

- أراه هكذا أجمل.

- لكنك لو صنعت منه ضفيرة يسهل علي إمساكي بك ولن تتمكني من الفرار مني

أو تفلت من يدي يا غزالتى.

تنصاع للأمر:

- أمرك.

- ومن ثم قرطك هذا اخليه وألقه على الفراش.

- أمرك، لكن هل لي أن أعرف لماذا؟

يمد رأسه إلى ما تحت أذنها اليمنى يطبق بشفتيه عليها يعضها عضًا خفيًا ويغمغم

بصوت مكتوم:

- لهذا السبب، فلا أريد شيئًا يقف حاجزًا أمام فمي.

- أمرك وماذا بعد؟
- أريد أن تصبغي شفتيك أحمر قانيًا.
- هي حمراء من ذاتها.
- أريدها طرية مشوية كالشواء، حمرك هذه باهتة أريدها قانية غامقة.
- ولماذا حمرة قانية؟

يستقيم ويتظاهر بالامتناع:

- أو ما تعرفين كم أحب العناب الناضج؟
- ويطبق شفتيه على شفتيها ويستغرقان في قبلة طويلة..

استفاق على صوت محرك سيارة، صوتان متلاحقان لباب يفتح وباب يغلق، التفت على عجل إلى الوراء، التفت فإذا سيارة فولكس واغن تاكسي تقف أمام الباب المشبك بالأسلاك قبالة صخرة دادة، ينزل منها ثلاثة أشخاص: رجلان وامرأة ترتدي معطفًا أسود طويل يصل الركبة فوق بنطلون أبيض، المرأة تضع نظارات تشع في الشمس، في يدها حقيبة متوسطة الحجم سوداء.

- نهض ملوحًا وجعل يصيح بأعلى صوته:
- أنا هنا.. نحن هنا..

كانا على وشك الدخول عندما تنبهوا إلى الصوت الهادر كالرعد، واستداروا دورة كاملة على عجل، رفعوا أعينهم إليه، ارتفعت راحتهم تظلل أعينهم من الشمس، لمحوه.. الأيدي امتدت في اتجاهه، وما هي لحظة حتى أطلقت السيقان للريح، تسابقا، وتحركت أرجل عدنان يسابق الريح في الاتجاه المعاكس، من الطرف المقابل فرهاد يجري في المقدمة، اتجهت الأنظار إلى تلك الناحية جميعًا، صراخهم مزق السكون، وتوالى الصراخ متتابعًا متواصلًا، الراعي توقف عن الصفير ووضع ناياه جانبًا وأهاب بحملانه على الكف عن الثغاء والرغاء وحذر كلبه من النباح وأخذ ينصت بانتباه ويترقب ما سيتولد عن هذا البرق والرعد، الطيور هاجرت أعشاشها ملتاعة، خرج موظفوا المستوصف وأخذوا ينظرون من على الشرفات والأفنية والمدارج والأيدي تظلل العيون لتحسين الرؤية، أصوات هزت الأرجاء.

خرج الفراشون من المدرسة يتبعهم المدير في تلك الظهيرة الدافئة، ساد اللغط والصخب والصياح، الناظرون يتجادلون يتشاورون، يتساءلون، يتحاورون ويحللون ويتهامسون كل بما يمليه عليه رأييه فيما يرى ويحكم عقله فيما يحدث.

ثم خرج المعلمون وعلى أثرهم الطلاب واتخذوا من أمام بوابة الأفندي ولوحة الطائر والطالب الساعي لنيل الشهادة موضعاً للتفرج على ما يجري في الكون الخارجي، شاهدت العيون العدائين يعدوان في الاتجاه المقابل، صاروا ثلاثة رجل وامرأة في مقابل رجل، ويصطدم الرجلان في منتصف المعطف المفضي إلى النبق والصخرة التوأم، الرجل في القميص القهوائي يلقي بنفسه على الآخر، يتعانقان يتقلبان يتدحرجان على الأرض، المرأة في المعطف الأسود والنظارات لا تزال تركض وتصرخ، كانت تضغط بيدها على صدرها فاستدل الراؤون من هذه الحركة أنها أصابها الإنهاك والإرهاق وضيق التنفس، وحينما وصلت وقفت وانحنت فوقهما تزيح بيدها الرجل الجاثم فوق الآخر، وعندما تم لها ذلك ألقت بنفسها على الراقد، وهي تحيط بذراعيها حول عنقه رفعت رأسها وأدارته جهة اليسار، رأت الجمع المحتشد من بعيد فارتعدت للمفاجأة، نهضت تجذبه من يده وجعلا ينطلقان يد في يد باتجاه الأشجار الكثيفة.

ارتفع اللغط والصخب وحركات باليد والرأس وامتدت الأعناق من أمام بوابة الأفندي، رأى المتفرجون أن الرجل في المعطف النيلي ينهض ويلاحق الزوجين المنطلقين كالسهم نحو الغابة، ومن حركة يده يستدل المتفرجون أنه يسأل عن مكان تواجد شخص، التفت إليه الرجل في المعطف القهوائي وأشار بيده في اتجاه النبق ويصرخ به: من هنا من هنا، وهناك يختفي المشهد الأول، تبتلعهما الغابة.

تردد هذا قليلاً ثم انطلق في أثرهم كالسهم ينادي صائحاً: كاترين.. وصدى صوته تكاد تهتز له الجبال، دوى صراخه فتجاوب معه الجبل فارتدت إليه صرخته ومعها حفيف أوراق وأغصان تساقطت من الأشجار، فجأة ظهر انفراج في صفوف أشجار النبق المتاخمة للغابة وانبثقت عنها صورة امرأة، برزت للشمس والعيان، كاترين!! وثب بجسمه الطويل الضخم عليها فالتحم الجسدان التحاماً والتصقا على الأرض المتاخمة للأشجار، في غمرة الالتحام ودوران الجرمين الملتحمين انزلق قدمها فوقعت على الأرض، فأوقع نفسه جنبها ثم أدار جسده نحوها، واشتبكت

الأيادي، تماسكا تجاذبا، ثم تراخت قليلاً فتعانقا، وثبا على أقدامهما قائمين يلهثان، جذبها من يدها فسارا معاً مسرعين متوغلين في عمق الغابة العميقة، تواريا في ظلام الغابة، ابتلعتهما، عادا بعد دقائق، الهرج والمرج لا يزالان سيد الموقف، والمشاهدون لا يزالون يقفوا ينظرون بشوق وشغف ما تؤول إليه الأمور.

وبغثة دبّت حركة غير عادية من أمام بوابة الأفندي، بذهول تحولت العيون إلى مدير المدرسة الحليق الذقن والشاربين، أطل بوجهه المستدير المنتفخ على الملاء، فأفسح الحشد له الطريق باحترام بالغ، فاقترب هذا في بدلته الأنيقة ورباط عنقه اللامع من نوزاد الذي كان يقف على ساقين طويلتين هزيلتين على حافة الشارع أمام بوابة الأفندي وسأله يستخبره:

- ما الذي يحدث هنا يا أخي؟

جفل نوزاد للمفاجأة لكنه سرعان ما تمالك، فاستدار وأجاب:

- إنهم أبناء عمر أفندي رسول.

حدجه المدير الكهل كمن يستزيد، فقال نوزاد موضحاً:

- عاد ابنه الشهيد إلى أهله بعد إعلانه ميئاً قبل أكثر من سبع سنوات، هؤلاء هم أخوه وزوجتهما.

- كاترين؟

تساءل المدير بنبرة تنم عن الدهش.

- نعم، انتظرت عودته من الخارج.

- علمنا من ابنه أنه سافر بعيداً ولن يعود.

نظر إلى نوزاد جنباً متفحصاً هيئته ثم أضاف قائلاً:

- نحن نعرفهما أحدهما هو البطل عدنان كما أظن.

مد نوزاد يده إلى البعيد:

- ذاك الذي في البنطلون القهوائي الغامق والقميص الأصفر الغامق هو عدنان، وتلك المرأة في المعطف الأسود والبنطلون الرمادي والحجاب هي زوجته واسمها سها، وتلك التي في الفستان الأحمر والبلوزة الخضراء هي كاترين مع زوجها فرهاد.

لم يكد المدير يستدير مغادرًا حتى شعر نوزاد بيد تلامس يده بحذر شديد، التفت إلى أصل اليد فإذا هو نبيل قد أطل أخيرًا من الظلام إلى النور، كان يرفل في بنطلونه الأخضر وقميصه الأصفر الغامق، وكان يقف متفرجًا كغيره ويصد أشعة شمس الظهيرة عن عينيه براحتيه الصغيرتين، لم يكد نوزاد يفتح فاه حتى بادره الطفل يسأله بخجل:

- أنت أبي؟

خفض نوزاد رأسه وقال دون أن ينظر إليه:

- كلا.

وفجأة تذكر إنما المتكلم كان طفلاً، فالتفت إليه بكليته فرأى ما انبهرت له أنفاسه، باعد بين رجلبيه وسأله بفضول:

- ومن تكون انت؟

- أنا ابن فرهاد.

تلعثم الصبي وأخذ ينظر إلى وجهه مليًا ثم قال بوجه متورد:

- أنت تشبهه.

- كيف عرفت؟

- من الصورة.

وهو يمد يده إلى الأربعة المتعانقين على الأرض، الذين بدا عليهم أنهم لم يتنبهوا أو لم يكثرثوا للحشد المتألف في مجمله من معلمي وطلاب المدرسة وموظفي المشفى، فكانوا يفترشون الآن الأرض ويتبادلون القبلات والأحاديث الشيقة والحركات الانفعالية كمن هم في عالم آخر غير مرئي، غير منظور.

- أيهما أبي؟ سأل الصبي بخفوت واستحياء.

- أيهما يجلس مع أمك، أتعرف من هي أمك؟

يضحك ويكتم ضحكته بيده، ثم يشرح:

- نعم أبي يرتدي معطف أزرق وبنطلون رصاصي كما رأيته في الصورة.

في الصورة؟ ردها نوزاد في دخيلته، تداعت الصور وتحركت وتلاحقت في رأسه، في حي كردستان في البيت الصغير النظيف الجديد، دادة مستلقية على

الفرش، سها تجلس بجانبها تقدم لها كل ما تطلبها: ماء، دواء غذاء وتذلك رجليها، هناك في الركن القصي من الغرفة الطويلة المفروشة بالسجاجيد مدفأة كهربائية وسرير، بالإضافة إلى سرير دادة المنتصبة قرب الباب، فرهاد يسمع بوصوله، ينزل من الدرج ناعساً مثقلاً لم يحلق لحيته ولم يشذب شاربيه، يتثائب بخمول ويقول بصوت منخفض:

- نوزاد كانت ليلة صعبة لم أنم فيها، نقلتها بعد منتصف الليل إلى المشفى قسم الإنعاش، ضربها المضمد الخفر إبرة كي تنام.

ثم نحاه جانباً:

- يقول اختصاصي الباطنة أنها لن تعيش أكثر من أشهر قلة.

ترقرقت الدموع في عينيه مسحها بسرعة، نوزاد يمسك بيد دادة ويهمس لها هل تسمعيني خالتي جميلة؟ هل تسمعيني؟ تنفتح عينيها عن فرجة ضئيلة وتهمس بالمقابل:

- أهذا أنت؟ نوزاد لم أعرف بمجيتك.. اجلس حبيبي كم أتوق لرؤيتك، أين عدناني الصغير، عندناوكة؟

يهرع إلى الحوش يجلبه إليها، تضع يدها المرتعشة على رأسه وتقول بنبرة مرتجة:
- إن الرحمن الرحيم عوضني بهذا عن المرحوم، انظر فرهاد.. انظر شعره، وجهه، سمرته، مشيته كله هو هو.

ثم فجأة تنتقل إلى موضوع يهمها فتقول مستفسرة:

- سنعود إلى البيت الكبير، متى؟ أشتاق إلى الهواء النقي هناك؟

يجيب فرهاد وهو يجثو على ركبتيه أمامها:

- بعد يومين، وبعد إجراء فحوصات أخيرة واستلام أدوية جديدة.

وتسأل دادة وشعاع من الريبة ينبعث من عينيها المائيتين الخاملتين:

- وعدناوكة؟

يلتفت فرهاد إلى نوزاد، تاركا الكلام له:

- لا تحزني إنه سيأتي معكم، إنه ينادي فرهاد بابا كما يناديني.

يستفيق من أفكاره وذكرياته على صوت الطفل.

نبيل:

- لماذا تبكي؟

نوزاد:

- أبكي من الفرح.

في اللحظة ذاتها انبرى آسو من بين الزحام، كان طوال الوقت يغرز إصبعه في قفص القبجتين وراء باب المشبك، يشاركه في ذلك وفي اللعب نبيل دون أن يعرف من هو ومن أين أتى، في لحظة ما لم يجد نبيل بجواره فجاء يبحث عنه، فعثر عليه هناك يكلم الرجل الطويل.

تقدم آسو بقامته المدمجة وشعره المتجدد ووجه الممتلئ الأسمر منهما وقال ماذا يده صوب الغابة حيث الأربعة يقعدون:

- أنا أعرف من هو أبي، أبي هو ذاك في المعطف القهوائي، وقعت نظاراته على الأرض فراح يبحث عنها، نظاراته جميلة، لونها أخضر، قالت أمي إنه يحب وضع النظارات..

ضحك نوزاد وجهه في كبت دموع كادت أن تنهمر لكنها انهمرت أخيراً، وبدون سابق إنذار انطلق نبيل لا يلوي على شيء، رأى آسو ذلك فاحتذى حذوه، وعلا تصفيق الطلبة الهادر، وعم الصخب واللغط والآراء المتباينة والرهان من جديد:

- آسو في المقدمة وسيصل أولاً، لا نبيل سيصل أولاً، لا نبيل أطول لكن آسو أقوى، هما وصلاً.. نبيل فاز هو الذي وصل أولاً.

يتعثر نبيل، يهب أحد الرجلين لنجدته، وضحت معالم الصور أكثر كلما تقدم الزمن وكلما تقرب الجمعان؛ سها تفترش الأرض تنظر في ذهول إلى ما حولها، تدير رأسها دوراً كالمستفيق من حلم ثقيل، فرهاد يرفع نبيل كمن يرفع ريشة دجاجة فوق رأسه ثم يهبط به ليركب على كتفيه ويسير هكذا على المنحدر الترابي المفضي إلى شارع الأحياء الأربعة، يلحق به عدنان وعلى كتفيه يركب آسو، ومن ورائهما كاترين تمسك بيد سها ويسيران هكذا كتفاً لكتف وراء الرجال، وبين الفينة والفينة تتمايلان وتقفان لتتعانقان، تتوقف سها وتقف كاترين تباعاً على المنحدر، تنحني سها أمام كاترين وتطبع قبلة طويلة على يديها اليمنى، الواقفات في الجوار سمعنهما تقول:

- سيدتي مولاتي، يا إلهة الحب والوئام والطهر والعفة والحب والجلال والشجاعة وكل أصناف العمل النبيل، لولاك لما شهدت هذا البقعة ما شهدت اليوم، بفضلك لم شمل الأحبة بعد أن صار لم شملها ضرباً من المستحيل.

ووراء رأس فرهاد السائر في مقدمة الركب العائد من جبهة اللقاء العاصف يرفع نبيل رأسه حالماً يطأ أبوه أرض المفرق، يرفع كلتا يديه الصغيرتين إلى أعلى مدى ممكن، يهيب بزملائه أن ينتبهوا إليه، ثم يهتف بصوت حاد متحمس تكاد حنجرته من حدته تنقذ:

- ألم أقل لكم إن أبي سافر بعيداً وسيعود.

تعال أيها الساقى فاملأ هذا الجام خمراً... املأه من تلك الخمرة الوردية التي اعتصرت من جنى الروح، واستخلصت من ذوب سر القلوب ثم اسقنيها من شفاه كؤوسك الدرية المجوهرة أقداحاً إثر أقداح، اسقنيها نشوة تهيج مني فؤادي الغافي وتسكر عقلي الحيران، وأنت أيها الشادي.. تعال فاجلس إلى جانبي لتتم سكرة الروح بشجي من غنائك، أسمعني أنغام الناي والكماني، أطربني بوقع الدفوف والألحان.

أبهجوا عيني بمرآى الورود الفاتنة والأغصان المتمائلة، دعوا كل هذا يأخذ بمشاعري وإحساسي ليسكرني عن هذا الوجود الذي حولي، فعسى أن تضمحل مني كثافة هذه المادة والجسم فأظل قلباً وروحاً، وأبقى معنى وإحساساً، وعسى أن يدركني إذ يدركني إذ ذاك فيض من نور القدس، فيعكس إلى نفسي قبساً من إشراقه ويقذف فيها نوراً من ضيائه، فيصفو مني القلب وتجلو أمام عيني أسرار هذه الحياة، لكي أغدو مع كل صباح فأترجم للناس حديث النسيم مع الأغصان، وأشرح لهم مغزلة الطيور للأزهار، ولكي أسير مع الأصائل فأقرأ لهم آيات الشمس المنبسطة فوق صفحة الخمائل والغدران، وأردد مع العنادل والبلابل أنغام الحب والجمال، ولكي أسكرهم من جمال هذا الكون بخمر من مداد قلبي، وأطربهم من ألحانه ببيان قلبي ولساني.

منظرها يشعشع بالنور روحه، أنغام نبراتهما تسكر جوارحه، من كاترين انبثق نور تتبدى فيه الكائنات خلقاً جديداً، الياسمين واللباب من بعد صمت وبعاد يتلاقيان، المآذن والقباب تطير فوق بساط الشفق صوب السماء الصافي المزخرف بورود من جمان، الحنان يفيض من كل مكان، الأناقة تزخرف الأزقة والدروب والوديان والكثبان، عصافير الغبطة تزقزق فوق السطوح والأغصان، الجمادات تنثيه في صمت التأملات وتسمى فوق الشرائع والأديان، هذه دنيا معبودتي كاتي فأنا اليوم سلطان الزمان.

- متى سنعود؟

همس في أذنها فرهاد الذي كان يحيط عنقها بذراعه وهما قابعين على أريكة الطارمة (الفناء المسقوف) في البيت الحجري.

- هل نترك هذه الجنة؛ الأرض والماء والطبيعة والنبق والحطب؟ هنا ولدت وهنا أموت وهنا أبعث حيًّا.

- يا مريم العذراء.

- عذراء قبل أن ألتقيك ولا أزال أشبه بعذراء.

- العفة لهي أجلّ ملابس للمرء والمرأة.

- الوقار والحنان والمشاعر الرقيقة فيك يملأ فراغ روحي يا روحي، شاعر رقيق أحبك اليوم كيوم قبلتك على الصخرة ولمّا يرتفع نهدي بعد، منذ متى لم تشاهد حرير؟

- منذ انتقلنا من هنا في بداية الستينات، تغير كل شيء عداك وعدا النبق والجبل وعدا عن حبنا.

- هنا وعش هنا في أمان، لا حصار ولا خوف، لا رفاق ولا لصوص.

جفل فرهاد لقفزة نبيل الفجائية.

- ألم أقل لك نبهني قبل أن ترمي بنفسك علي.

يلقي نبيل بنفسه في أحضانه، يضع قبلة على وجنتيه المتوردتين، ذراعه يحيط بخصرها، قالت وهي تضع رأس سبابتها في مفرق رأس الصبي:

- إنه بحاجة إلى أخ.

فرهاد يضحك جذلاً ويهتف وقد تهلل وجهه:

- وأنا بحاجة إلى أخي.

يثب الطفل على قدميه وينطلق إلى الداخل، يمد فرهاد يده في اتجاه الدور البيضاء المتراسة فوق المرتفع الصخري على الطرف الآخر المحاذي لمرعى المطران:

- انظري إلى تلك الدور.

ونظرت كاترين وعلقت قائلة:

- التي في الوسط كانت يوماً بيتنا أتتذكر؟ إنها ستفرغ بعد أيام.

- إنها مقابل بيتنا الحجري تماماً.

قال فرهاد ثم ينقل بصره مرة أخرى إلى البعيد حيث صف الدور البيضاء الطويل،
أحكم الشد على خصرها وقال يرنو إلى وجهها الصبوح من تحت إبطه، عيناها
الناعستان غلب عليهما سلطان النوم، خفض عينية فإذا هي قد أطبقت أجفانها
وحسيس نفس خفيف يخرج من منخريها الضيقين، ويطوف خياله في فضاء
الماضي البعيد.

(كاترين الطفلة تقف في فستانها الأحمر على عتبة بيتها من الطرف الآخر من
مرعى المطران، بيدها كسرة مرآة تعكس أشعة الشمس وتصوبها إلى وجهه، بعد
قليل يسيران حثيثًا باتجاه النبق، يتأبط كل منهما ذراع الآخر، في الطريق يختبئ
على حين غفلة منها وراء الحشائش وأحراش الخشخاش العالية، هي تبحث عنها
بوجل، فيظهر لها فجأة من ورائها فتجفل وتتفقر هلعًا، لا يأبه بها وبدلاً يلوح بعصاه
رافعًا طرفها المعقوف إلى الأعلى يرميها إلى أعلى ويتلقفها، المرة تلو المرة، تتقدم
إليه تضع يدها الناعمة في يده وتقرب رأسها من رأسه وتهمس في أذنه قائلة:

- أريد أن نكون أصدقاء فهل تود أن تكون صديقي؟ لا أدري ما هذا الشعور الغريب
الذي ينتابني كلما جلست إلى جانبك، أحيانًا أقول لنفسي حبذا لو كنا نسكن معًا تحت
سقف واحد.

تنبتهت كاترين إلى صوت نبيل وفتحت عينيها، كان يقف بالباب ويمسك بيده ورقة،
قدمها إلى أبيه تلحقها منه، نظر فيها مليًا، رفع رأسه وسحب برفق إليه وطبع قبلة
على خده الطري:

- عشرة على عشرة في درس اللغات.. إنك ابن أبيك.

بفخر وتباهي عاد الولد إلى اللعب وهو يسير بميلان؛ عين على الطريق وعين على
أبيه يستلذ بمدحه وإطرائه، بعدما ابتعد الطفل وكزته في خصره وكزة خفيفة وقالت
له بصوت خفيض:

- إنه يخفي عليك ورقة امتحان الرياضيات.

ضحك فرهاد وهتف بمرح:

- ومن يشابه أباه فما ظلم.

ساد صمت عميق المكان، خلا عن كل صوت عدا عن رفرفات الطيور وأصوات
قطعان الماشية خلال رحلتها الأزلية إلى الأودية والهضاب المحيطة بالقرية، تأمل

وجهها الناصع، دغدغ بيديه قرطها اللامع، دس يديه في شعرها القصير ذي التموج
الواحد، همس في أذنها:

- قبجتي كاترين كه و، كان شعرك طويلاً في شقة البلابل العاشقة.

رفعت رأسها من تحت عنقه وطبعت قبلة على ذقنه الصغير تاركة أثراً أحمر عليه
وقالت بنبرة العاشقة الرخيمة:

- عدت صغيراً، أريد أن ألتذ بعشق الطفولة، هكذا رأيتني وأريدك أن تراني اليوم
بهذه الصورة.

- وصليبك هو نفسه لم يتغير.

- وهل تغير حبنا؟

تنفس فرهاد بعمق وقال وقد أخذته المشاعر السامية:

- لقد منحتك الآلهة جمال النفس مشفوعاً بجمال الجسد، هذه الحقيقة ظاهرة غامضة
لا نفهمها سوى بالمحبة ولا نلمسها إلا بالطهر والوفاء لمن نحب.

وضعت رأسها على صدره واستسلمت لكلماته الرومانسية وهي في حالة خدر
وسكر ونشوة، وجاءها صوته الهادئ:

- جماك ليس في شعرك الحريري بل في هالة الطهر المحيطة بوجهك ومحياك،
وليس في عينيك الخمريتين بل في النور المشع منهما، جماك في روحك، في
نفسك، في سريرتك النظيفة نظافة الإيمان في قلب العابد الناسك.

طالعه من تحت بعينين دامعتين، ثم حدقت في عينيه الברاقنتين وقالت تسترجع
الماضي القريب:

- أنت شاعر، أما...

لبثت لحظة تنتظر الكلمة المناسبة ثم:

- أمّا أخوك ففيلسوف.

توسعت حدقتاه وتساءل:

- كيف؟ عدنان والفلسفة بعيدان كل البعد.

ثم عدل حكمه بنفسه معزراً بسبب:

- صحيح، فإن الخشونة والقسوة والتجارب المريرة والمحن والنكسات تحنك المرء وتزيده خبرة وحكمة ومعلومات وثقافة وفكر.

- فلسفته حول السلاح مثيرة للإعجاب.

أضافت كاترين بنبرة جادة، ثم وهي تتأوه تتمتم ببعض كلماته لفرهاد:

- فللبندقية ماسورة ناطقة كالقم يقول من يحملني قاتل أو مقتول لا محالة.

- هل هذا الكلام من عدنان؟

هتف فرهاد وقد أخذته الدهشة، أجابت بتلعثم كأنها تفتقت في قلبها جرح حديث الالتئام:

- سجلت بعض أقواله وحكمه في دفتر الملاحظات وحفظت بعضها عن ظهر غيب، عدنان صار إنساناً آخر.

- بفضلك أنت.

- بل بفضل هو وبتفانيه وخُلقه الكريم، زدت حباً لك كلما عرفته أكثر.

ثم وهي ترمقه وقد انشرح وجهها بعد انقباض:

- لنا هنا ثلاث فلاسفة ومفكرين إذن.

زادت عيناه توسعاً وظهرت علامة سؤال على ثغره الصغير، وأضافت وقد ترقرت الدموع في عينيها:

- أنت وأخوك، والثالث سأتركه للمفاجأة.

مسح عينيها بطرف لسانه وهو يهمس في أذنها:

- معبودتي دموعك مقدسة.

ضم رأسها إلى صدره نظر في عينيها طويلاً يرتشف من خمرها، وجهه وشى بأساريه بالفرحة التي غمرت قلبه، حينها زفر في وجهها زفرة حركت ذؤابات من شعرها المستقر على جبينها الرخامي:

- روعي كاتي سمعت القسم الأول من قصة عودة أخي، وأتوق الآن إلى سماع خلاصة لبقية القصة المرة من ثغرك الحلو.

كان الليل قد تجاوز نصفه عندما جذبته من يده وأنهضته من مكانه ثم قادته إلى الغرفة الصغيرة الملاصقة لغرفة نبيل والمطلة على الحديقة الصغيرة الأمامية

والتي كانت في الزمن الغابر غرفة للضيوف، سحبته برفق إلى منضدة صغيرة تنتصب في زاوية بجانب خزانة الملابس، وقفا أمامها، لمعت عيناه لرؤية الكتاب المقدس موضوع فوق قطعة قماش أبيض نظيف تغطي شيء طويل ارتفع قليلاً في نهايته العليا.

رفعت الإنجيل من فوق الغطاء بتؤدة وخشوع ثم أشارت له نحو الغطاء، أدرك ما تريد فسحب الغطاء برفق من على الشيء الطويل الرفيع، انبهر فاغر الفاه وظل يقف هكذا يتأمل ملياً للحظات ما رأت عيناه، ثم غمغم مع نفسه:

- عصا من أين؟

- ارفعها لترى.

رفعها.. قلبها بين يديه، تفحصها ملياً من أسفلها إلى أعلاها، وفوق مقبضها تسمرت عيناه، قرأ بعينه دون فيه الكلمات المنقوشة عليه: فرهاد الشجاع، حرير ١٩٦١، همست في أذنه:

- لم يلمسه أحد سوى أخوك فقد كانت له سنداً في مشيته، اتكأ عليها وذكرك بالخير.

أعادها برفق حيث كانت، قطب جبينه وحقق في وجهها لثواني، رجعت الصورة من قديم العهد واضحة أمام عينيه بغموض، ثم توضحت قليلاً قليلاً: كاترين تنطلق كالسهم من بين الصفوف تلاحقهم وتلوح لهم بقوة وهي مشمرة عن فستانها الأبيض، ثم تتوقف في وسط الطريق منقبضة حزينة تنتحب تنظر بعيون دامعة إلى السيارة التي تقلهم والتي وصلت في تلك الأثناء أجمة (اسبيندار) الصفصاف، هو يخرج يده الصغيرة الممسكة بالعصا، يقذف بها بكل ما أوتي من قوة باتجاهها في وسط الشارع، تطير العصا ثم تقع أخيراً تحت قدميها، تلتقطها، تقربها من فيها ثم تطبع ثلاث قبلات خاطفة على مقبضها دون أن تحول عينيه عن عينيها الجزعتين اللامعتين من وراء زجاج السيارة العتيقة، ظلت واقفة متجمدة هكذا تشيعهم بعينيها وترفع بيديها ملوحة وشفثاها تلفظان بأخر كلمة في عهد الطفولة السعيدة: الوداع.

وقف متمسراً مكانه تعصف به عواصف العواطف الجامحة الملتهبة، مشهد العصا كان أقوى من أن يتحملها بحسه المرهف، ظل لثواني مطبقاً فاه يحرك شفثيه كمن يهذي، إنه البركان الخامد لحين، انفصال بعد حين، يستهضم المشهد، يلتهم المنظر، هي طفلة فارعة الطول لاحت له من بعيد شفثاها نظراً لصغر وجهها، وهو الآن

رجل وهي امرأة، أخذ يتساءل مع نفسه: كيف تكون العاطفة بهذا الجموح وفي ذاك العمر، أيعشق الطفل؟ هل نحن عاشقان بالفطرة؟.

ارتجفت شفتاه لبرهة، انفرج فمه عن شق صغير أراد أن يتكلم من خلاله فلم يطاوعه لسانه، انعقد لسانه فأخذ يلوك كلماته في بطانة فيه، ينظر بثبات بعينه الحائرتين إلى قسمات وجهها الجميل، وها هو المتحجر يتحرك، هي تنظر ولا ترى، ذابت من تحت لهيب عينيه، تهشمت تحت طرقات نظراته الثقيلة، شعرت أنه لم يعد يحتمل كل هذا الكم من المشاعر الجياشة التي اجتاحت كيانه في هذه الليلة المباركة.

دنت منه أكثر، مدت يديها تطوقه من وسطه، جذبته إليها، استسلم لها وهو في شرود، وضع رأسه على صدرها، تماسكا تلاصقا تحت ضوء المصباح الأحمر، فراشات منقطة صغار تحوم وتحلق فوق رأسيهما، ظلا هكذا يدوران ببطء كلقطة فيلم بطيء الحركة (سلو موشن)، غارقين في صمت رهيب، محلقيين في أجواء الهيام والغرام، مأخوذين بنشوة الوجد وحلاوة شهد اللقاء بعد الشقاء الطويل.

ككتلة من جسد واحد؛ التحما نفساً وروحاً واحدة، لو رأهما روميو أو جولييت لنالهما الحسد، ولشعر مهم وزين أمامهما بالغيرة ولغضا طرفهما خجلاً واستحياء، هل سيسجل سفر الأدب ملحمة كاترين وفرهاد على غرار ملحمة شيرين وفرهاد؟ أو مجنون وليلي؟.. عصاه لا تزال هناك، وفجأة عاد إلى صحوه، مد يده إلى العصا رفعها إلى فيه، وطبع قبلة على الموضع الذي وضعت قبلتها عليه، ودون أن يرفع عيناه عن عينيها انحنى أمامها جاثياً على ركبتيه وطبع ثلاث قبل على يدها اليمنى الممتدة إليه وهو يتمتم بعاطفة جياشة:

- كنتِ العيون للأعمى والأرجل للأعرج، في أحيان كثيرة سألت نفسي أنك قد أدريت الخد الأيسر للزمان حينما صفعك على خدك الأيمن.

نظر إلى الساعة المعلقة بين صورة دادة موناليزا واليسوع المسيح الطفل والخزان الخشبي الذي انتصب فيه كأس بطولة مكافحة العقارب، فإذا هي تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل.

رفع عينيه الناعستين إلى صورة دادة الحقيقية المكبرة التي جاء بها فرهاد معه، وهي تجلس بملابسها الكردية الزاهية تغطي رأسها بشال أبيض طويل ألقت أذيالها على صدرها، تبتسم بوجهها ابتسامة صغيرة مع انفراج ضئيل بين شفثيها الرقيقيتين الشاحبتين، وتضع يدها اليمنى كعادتها على اليسرى في حضنها، وقد بدا عليها هزال ملحوظ.

قال فرهاد بمرارة وهو يتأمل قسمات وجهها المريض:
- مسكينة، قهرها الحزن فساءت صحتها واعتصرها الضمور.

ثبتت كاتي نظرها عليها وقالت بعد تفكر:
- في زيارتي الأولى لدادة رأيته بحالة لا بأس بها وقالت بهمس كمن يستودعني سرًا، قالت إنها هي التي تبنت فكرة الولد الثاني لفرهاد وسها.

أوما فرهاد وهو يعصر يدها في يده عصرًا:

- نعم في الحقيقة يا كاتي كانت هناك أسباب منها كلام الناس والقليل والقال؛ إنه عقيم ليس رجلاً، حتى تهامس بعض زملائي فيما بينهم، وكل واحد منهم يملك نصف درزن من الأطفال من مختلف الأعمار، ومن ثم عدنانوكه الطفل فقد بدأ يناديني بابا وعمره سنتان، لا يعي شيئاً وأحياناً كان يناديني بابه كه وره، الأب الكبير، وجدني أكبر حجماً من ابن خالتي نوزاد، فوق ذلك كانت أم سها بالمرصاد، كنا نخاف كثيراً من لسانها، لا أدري كيف قضى هذا المسكين الطيب ماموستا عبد الرحيم جل عمره مع هذا الضجيج؟!

جرت كاتي نفساً طويلاً وأضافت معقبة:

- عمتي قالت إنه أنجب ولد، وقد وصلني الخبر مؤخراً، وحينها تيقنت أن العهد انتهى مفعوله وأن حبيبي راح من يدي دون عودة.

ورد فرهاد معقبًا:

- كما قلت هذه الدعاية كانت لصالحنا ولهذا السبب غديناها وساعدنا في نمائها.

تنهد تنهيدة عميقة ثم أخذ ينظر في ظلام الغرفة إلى السرير الذي كان ينام فيه الطفل، وقال وعلى شفثيه ابتسامة باهتة:

- سبحان الله هناك كنت أنام طفلاً، وهناك ينام ابني الآن طفلاً.

أطال النظر في ظلمة الغرفة ثم قال:

- عدت إلى موطن طفولتي، من كان يظن أو يحلم أن أعود إلى حرير بعد كل هذه التغيرات والسنوات، لألقى في كل بقعة وعلى كل صخرة فيها لقطة من مسرح ذكرياتي، أكاد أشم رائحة حليب الفراشين والتمر المحشو بالجوز واللوز، وأرى أمامي العم بطرس هناك في الطارمة ثانيًا رجله اليمنى تحته طارحًا الأخرى على الأرض وسط الدخان المتصاعد من سماور دادة.

ثم مد يده إلى باب غرفة ابنه:

- هناك في الركن قتلنا أنا وعدنان أول عقرب أصفر يدب على حافة الخشبة، مضى على هذا المشهد ثلاثين عامًا أنكره كأنه حدث بالأمس.

لمح من وراء باب المدخل قفص القبج فقال منتهزًا الفرصة ليبيدي عن رأي سبق أن تبناه منذ دخوله البيت لأول مرة:

- لا أطيق رؤية كاترين في السجن؟

جفلت حتى ارتطم رأسها بذقنه، فأخذت تردد:

- من كاترين؟ ماذا قلت هل أنا في السجن؟

- أنسيتي؟

تطلعت إليه مستفهمة، أمّا هو فأمسك بيدها يضعها فوق صدره:

- اسمعي إلى خفقان قلبي، كأني أشارك الآن في مسابقة عدو مائة متر، ارحمني أنا أموت من الحب.

أصرت تستفسر:

- أنا في قفصك؟

وردت ابتسامة هازئة على وجهه الطويل وقال يعصر يدها في يده:

- هيا يا قبحتي الجبلية، فكري، اعلمي ذهنك، اتذكرين أين قابلتك لأول مرة وأنت امرأة ناضجة وقبل عقد من الزمن في تلك الأمسية، هناك في شارع ترابي في عنكاوة؟ أنسيت ماذا كان سؤالي للتحقق من هويتك؟ قولي؟ انهضي وامشي قليلاً جيئةً وذهاباً، يا قبحتي الشهية.

تذكرت وهتفت:

- أنا كاترين كه و.

وهمست تنفخ في وجهه:

- ماذا تريد أن تفعل بهما؟

- سأطلقهما، خُلقا أحراراً ولا يحق لنا استعبادهما.

- ونبيل؟ ماذا سيقول؟

- أجعله هو يطلق سراحهما كي يتعلم.

- يخرجان وأنا أدخل في قفصك.

ورودته ذكرى محزنة فقال لها مستطعاً:

- منذ متى لم نلتق كاتي؟

- منذ كنت في أيامي الأخيرة قبل الوضع.

- صورتك لم تغب عن بالي لحظة حين مضيت إلى الباب ثم عادت تطبعين قبلة على خدي ثم عدت إلى الباب، ومن هناك وضعت يدك على بطنك والدموع تتحدر على خديك وقلت لي: لن أنساك.

- وبعد أن اختفيت من حياتك ماذا فعلت؟

- اعتزلت الدنيا قرابة شهرين: شهران من الشقاء والألم لم يكن أنيسي سوى القلم، ولم تكن أنيستي سوى أُمي.

سكت وفي وجهه انقباض كمن يتجرع السم، نظر في الفراغ يستذكر الأحداث ثم استأنف قائلاً بصوت كالأنين:

- تحت اللحاف وفي غرفة النقاهاة التي كانت يوماً غرفة أخي في محنته كنت ألوك كلماتك، أمضغها حيناً بعد حين، أحللها كمن يحلل الموشور ألوان الطيف المائي.

سحب نفساً طويلاً ثم أضاف:

- قلت لي في لحظة الفراق: "الناس تبحث عن ملاجئ بسبب الحرب وأنا أتخذ من الحرب ملجأ من الناس"، هذه الكلمات ظلت ترن في أذني لأنها كانت نابعة عن قلب أم مقدسة قدسية العذراء، وأنا النافخ فيها من روحي.

نظرت في عينيه نظرة إشفاق وقالت له:

- لم يكن عذابك بأقل من عذابي يا روحي.

ضمته إلى صدرها وقالت له وقد انجلى ثغرها عن بسملة حلوة:

- "أنت معي مادام قلبي معي لأن في قلبي سكنائك، كاتي، لم تفارق أحداقي ولو للحظة محياك"، هذه الكلمات التي ختمت بها رسالتك كانت لي بلسماً لجراحي.

غشى السكون المكان، ومن خارج المكان لم يسمع سوى حفيف بعض أوراق الأغصان المتساقطة على الأرض، ورفرفة أجنحة طير هنا وأصوات بعيدة للحشرات ونقائق الضفادع منبعثة من السواقي الجارية خلال أجمة الـ (اسبيندار)- الصفصاف، وبين الفينة والفينة تهب نسمة باردة معبقة برائحة الأعشاب الجبلية من خلال النافذة المشرعة وتداعب وجهيهما، ومن الداخل لم يسمع صوت سوى أصوات أنفاسهما المتسارعة وكلماتهما الناعمة.

طال الحديث في حضرة دادة موناليزا، في ليلة أعقبت نهاراً مفعماً بالأحداث والمفاجآت، وقد زارهما نوزاد في الصباح يحمل حقيبة فرهاد معه وأخبرهما أنه زار عدنان وسها في بيت الأبوة - بيت دادة كما أحب فرهاد تسميتها - وسأل عن أحوالهم ونقل تحياتهم ووعودهم بالزيارة في أقرب فرصة.

اتكأ فرهاد على مرفقه وأدارت كاترين له وجهها الصبوح متكئة هي بدورها على مرفقها، فصدر عن أساورها رنة خفيفة عذبة، حلق في عينيها الخمريتين يتأملها بلذة غريبة وقال رافعاً عينيه إلى صورة المسيح الطفل:

- كاترين في المدة القصيرة التي قضيتها في أوروبا أدركت وبسرعة أن للإنسان قيمة كبيرة خاصة النساء، فحالما سمعت المحققة كلمة اضطهاد وقصة تزويج سها القسري اختلفت نبرتها من شدة ورسالة إلى لين، ولم تدم مقابلتها طويلاً، لا أكثر من ساعة بينما أنا والآخرين دامت مقابلتنا أكثر من أربع ساعات.

ثم سحب نفساً كالمتمحسر:

- وأدركت حينها أن التواضع سر تقدم الأمم.

ثم وهو يبتسم ابتسامة:

- سميتها مملكة الكلاب والدراجات والغيوم الداكنة، أرضهم مسطحة كراحة اليد.

ضحك ساخرًا ثم سرعان ما تغيرت لهجته فاستدرك قائلاً:

- لكن الحرية والكرامة فوق كل اعتبار.

ثم وهو يستذكر:

- أتعرفين ماذا قالت لي سها بعد عبورنا الحدود؟

علت على عينيها نظرة تساؤل، ندت عنه تنهيدة خفيفة يستذكر ما أخبرته سها من وراء الحدود:

- كشفت سرًا أخفته عنا طوال الوقت وهو: شكرية هانم ليست أمها الحقيقية، أي أنها (زرداك)، وأنها هي وأخوها الشهيد التوأم هما من بطن الزوجة الأولى لملا عبد الرحيم التي كان قد طلقها لأسباب غامضة ولم يعرف أحد السبب في المنطقة، كونهم كانوا يسكنون في حي آخر بعيد عندما حدث كل ذلك، وتزوج من شكرية هانم بعد عام، ومنها جاءت أختها مها، أخفت شكرية هانم الحقيقة وألزمت أعضاء أسرتها بالكتمان التام.. لأسباب في مقدمتها: العرف السائد القاضي أن الزواج من رجل سبق وأن تزوج يحط من قيمة المرأة وينقص من قدرها ومنزلتها لدى قريناتها، وكان صوتها السليط هو الأمر والناهي فلم يجروا أحد على البوح بالحقيقة، وكشفت سها سرًا آخر بل فضيحة؛ أن شكرية هانم قد احتفظت لنفسها بكل المهر الذي قدمته أسرة عدنان لها وقد سمع نوزاد الحقائق كلها فلا داعي بعد من سترها، وخاصة بعد أن خرجنا من دائرة خطر (زرداك) آخر، أمّا سها فقد انشرح صدرها بكشف الحقيقة كمن أزاح حملاً ثقيلاً من على صدرها، وآلت أن تكرر كل حياتها في سبيل الرعاية والعناية وتنشئة ابنها من المرحوم، ولن تفكر بالزواج إلا بعد أن تزوجه هو أولاً.

خيم الوجوم على وجه كاترين المستدير وظلت للحظات تسترجع تفاصيل ما سمعت بلا حراك كمن أصيبت بصدمة كهربائية، ثم أمالت عنقها بتروي نحوه وقالت هامسة وهي تحقق النظر في الفراغ:

- كفانا ذر الملح على الجرح.

فطن أنه قد مس الموضوع الحساس في حياتها هي أيضاً بذكر لفظة (زرداك)،
فاكتفى بهز رأسه مدعئاً ولم ينبس، مضت ثواني قبل أن يوجه إليها سؤاله الجديد
القديم:

- فماذا تقولين عن الطيران الحر الطليق في سماوات أوروبا وفضائاتها المنورة
المزينة بمصابيح الحرية والأمان والضمان؟

ولم تتمهل كاترين لحظة في الرد فقالت وهي تطبق براحتها على فمها:

- لا تقلها، لا تقل هيا نذهب، أنت سمعت رأيي منذ عقد من الآن وأنا أعيده الآن:
النبقة الأم هذه لا أستبدلها بهولندا وأوروبا كلها.

وسرعان ما جاء رده:

- وأنا بدوري لن أستبدلك بالعالم كله.

ثم بدأ العد التنازلي:

- أرض مسطحة رتيبة، السماء كلها غيوم، يُصاب المرء من ظلمة النهار بالكآبة.

سكت هنيهة ثم ثبت نظره على عنقها العاجي ونقل عينيه العسليتين إلى شعرها
اللماع الحريري، واسترسلت مطلقة ابتسامة رقيقة، متشجعة بتجاوبه:

- ثم إنك هنا بمنأى عن الرفاق، ولك مطلق الحرية، ومن ثم نحن في كنف الجبل لنا
المناعة والحصانة.

اختلست منه نظرة خاطفة وأردفت بعد أن أنست منه إنصائاً مطلقاً:

- ولك هنا مطلق الحرية، تستنشق الهواء النظيف، ولك مركز اجتماعي مرموق،
أمّا هناك فتنتيه، وليس لك من الحظ سوى الضياع وفقدان الهوية.

- وهو كذلك.

قال كذلك ثم نهض قائماً ومضى يمشي على رأس أصابعه إلى حيث سرير ابنه،
وقف أمامه يتأمل وجهه الصبوح البريء، استقر ساعده الأيمن على صدره وبجانبه
كومة من القرطاسية ودفاتر الرسم وأقلام ملونة اشتراها له، وانبسبت تحت يده
اليسرى صحيفة ورق رسمت عليها صورة غير كاملة، يبدو أنه بدأ برسمها ولم
يتمها، وعلى المنضدة الصغيرة وضع الحذاء الجلدي الفاخر الذي اشتراه له في
هولندا.

- كم هو شغوف بالرسم.

همست كاتي من ورائه ثم أضافت:

- وكذلك بالكتابة.

ضوء ضئيل أصفر كان ينور الغرفة، ثبت نظره على ملامح الطفل وقال بعد أن سحب نفساً طويلاً:

- كم أكره النوم في جفن الطفل.

أحاط عنقها بساعده وضمها إليه جنباً وأخذا يحذقان بالطفل هكذا رأساً ملاصقاً برأس:

- النوم يسلب أعز ما يملكه الطفل؛ نشاطه وحيويته، يسلب من الطفل الحركة المفرطة والضجيج والصخب التي هي من حق الطفل، يتراءى لي النوم أحياناً وحشاً كاسراً يستغل براءة الطفل فينقض عليه على حين غفلة، فيشله عن الحركة ويفترسه.

سكت وعاد يتمم ما بدأه بشوق:

- على العكس من نوم الشخص البالغ، فنوم الرجل مثلاً يعطيني انطباعاً أنه هو أي الرجل هو الذي أخذ النوم، أرادته بإرادته، على عكس نومة الطفل، فإنها تباعته وتنتزع منه حقه انتزاعاً، فيزداد الطفل في عيني براءة ورقة ووداعة وهو نائم.

قال كذلك ثم أحنى رأسه طبع قبلة خفيفة على جبينه الناصع، وفجأة أحس الطفل، كان نوماً خفيفاً، يمكن تسميته نوماً (رغمًا عنه)، رفرفت جفونه بوهن، انفرجتا وئيدة، دارت عيناه، توسعت محجراه، تحركت يداه، وقعت الورقة من يده على الأرض، تفتقت رموشه الطويلة عن عينيهِ الواسعتين، وبرفرفة سريعة أخرى امتدت يده اليمنى بكسل إلى عينه اليسرى، صدرت عنه أنة خافتة، ورفع رأسه من على الوسادة وتفتقت شفتاه الرقيقتين أخيراً عن كلمة خافتة:

- بابا؟!

وضع يده على جبينه العريض، قرب رأسه من وجهه يهمس له:

- هذه الكلمة تروي ظمأي ابني، قلها مرة ثانية أرجوك.

أحاط عنقه بيده الصغيرتين فأحنى له رأسه، من خلال الفرجة بين ساعد أبيه ويده رأى أمه:

- ماما!

أحنت رأسها إليه، وفجأة استوى قائماً يعاينهما بتقطب أعقبه عتاب:

- ماما لم جعلتني أنام، ألم تعديني ألا أنام حتى الصباح؟

وضع كلتا يديه تحته وحمله هكذا في منامته الحمراء المخططة إلى الهول، وهناك على أول مقعد أجلسه في حضنه وطبع قبلة على خديه واضعاً رأس الصبي على صدره، وأخذ ينتحب على كتف الصبي ويكلمه:

- لم أشهد ولادتك ولا نشأتك، وها أنت الآن ولد كبير، ما شاء الله.. لقد عانيت ابني.

فجأة تزحزح الصبي إلى الأرض وواجه أبيه، نظر في عينيه نظرة عتب وتشكي:

- لماذا بكيت ذلك اليوم في المتنزه؟

اهتز فرهاد، اعترته دهشة عارمة، أطبقت كاترين بكفها على فمها، توسعت عيناها:

- كيف عرفت؟

سأله أبوه متكللاً ابتسامة.

- رأيتك بعيني.

- كيف؟

- رأيتك تجلس على ركبتيك، أدت ظهرك لي، وضعت يديك على عينيك، اهتزت

كتفك رأيتهما من وراء، ثم دسست يدك في جيبك تبحث عن منديل ولم تجده، ومسحت عينيك بيدك، فأدركت أنك كنت تبكي.

ثم استدار متحدياً كمن يهزأ:

- أيجوز للرجال أن يبكوا؟

وقف هكذا ينقل النظر بين أبويه وهما في وضع يرثى لهما، ثم قال بنفس الروح

المتمردة وهو يقاوم سلطان النوم بجفنيه الراخيين:

- قل لي لماذا بكيت كالأطفال؟

- لأنني كنت على وشك السفر.

أجاب فرهاد وقد شحب وجهه.

- ولماذا سافرت؟

- كي أنقذ طفلاً وامراًة.

- وأنا؟

- لهفي ووا ويلي من محقق!

صاح فرهاد ثم خفض صوته، تشاءب الولد، اقترب من أبيه وقد بلغ النعاس به مبلغًا، ضمه إلى صدره وحمله بحنان ورفق إلى فراشه، سحب عليه الغطاء، ألقى عليه نظرة فاذا بجفنيه قد انطبقا بعضهما على بعض إطباقًا محكمًا.. وتمتم وهو يخرج من الغرفة:

- أحلامًا سعيدة.

وهو لم يتجاوز الباب، وإذا بصوته يناديه من ورائه، استدار إليه فأشار الصبي إليه برأس سبابته الصغيرة بما يعني: عد، وعاد.. قرَّب وجهه منه يسأله متعجبًا:

- كيف؟ ألم تتم؟

صفعه على خده بخفة المداعب، ثم مد شفتيه إلى شفتي أبيه، كورهما، يريد قبلة، ثم أطبق جفنيه من جديد، عاد إليها يهتمهم وهو يضغط براحة يده على خده:

- لا تهتمي ألم تسمعي بالمثل القائل: ضرب الحبيب زبيب.

- جلس إلى جوارها، أحاط خصرها بيديه يضمها إليه بقوة:

- الليلة أشتاق أكثر من أية ليلة إلى كأس من النبيذ المعتق.

- سمعًا وطاعة مولاي.. لي لك من شراب الكنيسة الخاص.

ذهبت وعادت بعد دقيقة تحمل بيدها زجاجة قائمة اللون مملوءة إلى فوهتها بالشراب القاني، صبت كأسين ثم رفعت له كأسها وأسكرته أولاً بغمزة من عينيها:

- في صحتك.

وبعد أن ارتشف الكأس الأولى تنهد تنهيدة طويلة وأفصح لها ما جاش به فؤاده زمناً طويلاً:

- حبيبي، روعي، حياتي كاتي، لقد أدركت بمرور السنين أنني لم أكن شخصاً واحداً كما توهمت طوال الوقت، بل شخصان؛ أحدهما يؤمن بوجود حلّ عقدة التقصير تجاه الأخ الأصغر، وتحمل مسؤولية الأخ الأكبر، والآخر يتساءل في حيرة: وابني وحبيبتني؟.

- نوروز ١٩٩٤ - حرير

مشاهد الأطفال المشرقة، والشباب والرعاة بملابسهم الزاهية وأغانهم الشعبية، تحت ضوء أشعة الشمس الساطعة، حيث كان المكان برمته مغطى بطبقة من الخضرة، والجبل كسا حلته الخضراء وامتلاً بضجيج الكائنات الأرضية والسماوية، أمّا ثغاء الحملان والنّعاج، وصفير الرعاة وأغانهم مع الفتیان، فكانت تتجاوب من بعيد، أتى الربيع وتلطف الجو، وهبت النسائم رقيقة منعشة، وبدأت دورة جديدة من التقمص والحلول كما يقول فلاسفة التصوّف، وتحوّلت قطرات المطر وذرات الثلج إلى أعشاب ناضرة زاهية، وإلى أزاهير متنوّعة خلاّبة الألوان، وأشجار وارفة الظلال، وينايع رقراقة المياه.

على طارمة (الباحة ذات السقف) البيت الحجري وفي ظهيرة يوم دافئ جلست كاترين في بنطلونها الجينز وراء سماور دادة البرونزية القديمة، وكانت سها في ملابس كردية تقليدية مزركشة تجلس كتفاً لكتف على حشية من القطن على يمين كاترين وقد عاد إلى وجهها رونقها وإلى قسّمات وجهها الانشراح، ترفع أكواب الشاي (ده ندوكى كه و- منقار القبيج) المترعة من أمام كاترين وتناولها إلى الأخوين الجالسين قبالتها.

فجأة ومن على المرتفع الصخري وراء المرعى انبعثت حزمة ضوئية ناصعة منعكسة عن أشعة الشمس ورفرفت على الوجوه كرفرفة أجنحة الفراشة البيضاء على الزهور الوردية، فأغلقت العيون لقوتها وبياضها النفاذ، أبهرتهم لبرهة، فأخذوا يظللون أعينهم براحتهم.

- أهو آسو؟

تساءلوا فيما بينهم.

- إنه آسو!

انبعث صوت حاد من وراء زجاجة النافذة من داخل الهول (غرفة الجلوس) ليؤكد صدق حدسهم.

وما هي إلا لحظة حتى شاهدوا نبيل يندفع إلى الشارع ويعدو كالغزال في شورته (بنطلونه القصير) وقبعته المكسيكية ويصيح بأعلى صوته: آسو.

تبادلوا الابتسامات والكلمات وحلو الذكريات لا مرها، اليوم عيد قالوا: لا مرارة بعد اليوم شعارنا، بعد شرب الشاي والدرشة لما يقارب الساعة نهضوا وساروا يدًا بيد باتجاه النبق، وتوقفوا عند المفرق، ألقى عدنان نظرة على الكشك وكان قد نقل صفائح النفط منذ الصباح إلى البيت خوفًا من النيران، فقد كانت قد النيران أشعلت منذ الصباح الباكر في المرتفعات وفوق التلال وأسطح المنازل في هذا اليوم السابق لعيد نوروز.

حدث فرهاد أخاه مازحًا:

- في الجبل لا حاجة للنفط.. ألم تسمع أن الجبل هو سوبر ماركت كاملة، وأن الجبل يعدّ دولة عظمى بحد ذاته مكتفية ذاتيًا؟

هز عدنان منكبيه وانفتق ثغره عن ابتسامة ساخرة وقال:

- دعك من هذه السفسطة فما جنيت وراءها سوى الشقاء، ومن ثم هذا النفط للنور لا للنار.

ثم ألقى بنفسه بين أحضان شقيقه الذي طبع قبلتين على جبينه بحرارة وهو يقول له وينظر إلى كاترين الواقف بقربه:

- لك عروسة تساوي وزنها ذهبًا.

- وسها؟

ردّ فرهاد بالمقابل يشير إلى سها التي احمر وجهها الأبيض.

- تساوي وزنين.

ضحك الكل بإعجاب وتورد وجه كاترين التي تنفست الصعداء، راحة بال من جانبها، احتلت قلبه التي هي أهل به بعدما كانت هي قد احتلت فراغه لردح رغبًا عنها ودون وجه حق، وبعدما انفصلا من العناق الطويل جعل عدنان يحرك حاجبيه بصورة عجيبة أضحكهم طويلاً وأسعدهم كثيرًا.

مضوا في سيرهم الحثيث حتى بلغوا منتصف المنعطف الصاعد الترابي، وهناك افترقوا مثنى مثنى، أخذ عدنان بيد سها وسارا إلى الطرف الجنوبي للغابة، وبينما

عرج فرهاد وكاترين نحو اليمين، وعلى الطريق المكسو بالعشب والأزاهير والـ
(كنير) أمسك فرهاد بيد كاتي وأخذ يدندن بأغنية قديمة:
"أستيقظ حينما تشرق الشمس، وأنام حينما تغيب.
أزرع حقلي لآكل، وأحفر بئري لأشرب.
ففيهم يهمني سلطان الإمبراطور؟".

صفقت تهتف مهتاجة:

- وصف رائع حقاً فنحن إمبراطور الزمان.
ضمها إليه من الخاصرة وهمس في أذنها:
- وأنت إمبراطورة الجمال بلا منازع.

كان الوقت أصيلاً وكان الناس منتشرين في كل مكان يودعون يوم ٢٠ مارس
ليستقبلوا من ورائه ربيع سنة جديدة، وكانت أعمالهم وحركاتهم وطرقهم وأسواقهم
قد اتخذت مظهراً لنشاط جلي غير معهود، فقد كان عليهم جميعاً أن يتهياؤوا
ويستعدوا للخروج مع صباح اليوم الثاني إلى ظاهر القرية، ويقضوا بياض نهارهم
فوق المهاد الخضر الوارفة، وفي سفوح تلك التلال.. وذلك جرياً وراء تلك العادة
السارية في جميع أنحاء كردستان من الاحتفال في مثل ذلك اليوم بشروق الربيع
ويومه الجديد، فالطبيعة لها عليهم حق ومنة كبرى، ومن واجبها عليهم أن يحتفلوا
بها في مولدها الجديد، فينطلقوا جميعاً من كبير وصغير ورجل وأنثى تاركين
ورائهم كل آثار التصنع والتكلف التي تعج بها دنيا المدن والعمران، إلى حيث تلوح
صفحات الإبداع الإلهي الساحر، فيخشعون لها وحدها، ويظلون معها في نشوة
ومرح إلى أن تتوارى عنهم شمس ذلك اليوم.

مضيا حتى أتيا صخرة التوأم؛ فرهاد في ملابس ملونة بألوان زاهية: قميص أخضر
طويل نقشت عليه زهور وفراشات وطيور بألوان مختلفة، فوق بنطلون جينز بني
متين يصلح لتسلق الجبال، سمته كاترين (جبلي)، وكانت هي ترفل في بنطلونها
الجينز الأزرق وقميصها الوردي الممتد حتى ردفها، وكان شعرها المشدود من
الخلف على شكل عقدة تتأرجح كذيل حصان بين لوحى كتفها عند المشي، وترتكز
فوق أنفها المستقيم نظارات بأطر مذهبة، وقرطين من ذهب تتدليان من أذنيها
الصغيرتين، والصليب يتدلى من فوق صدرها، وتشد شالاً أخضر حول عنقها.

جلسا فوق الصخرة تظللهم شجرة الـ (شاتوو) - التوت الشامي - المحتضنة للصخرة
كما تحتضن الأم وليدها، تحنو عليها بأوراقها الوارفة وأغصانها المتشابكة الكثيفة
الطرية قائمة الخضرة، وقد بلغت من الكبر عتياً، لكنها احتفظت برونقها وجمالها
مستمدة من الجبل مادتها وقوتها وطاقتها وغذاءها، تعانقا فوق الصخرة ولبثا
ملتصقين غير أبهين لأنظار الفضوليين من البنات المراهقات الولعات التواقات
الخجولات خاصة بمشيتهن المنتصبة، وأقدامهن الثابتة الفخورة، وبأزيائهن الجميلة
جداً، الأنثوية جداً، المتعددة الألوان، ومعظمها طويل الأكمام جداً، وألوان ثيابهن
تمرق من أمام العين منسجمة بشكل ما أزرق وأصفر وأحمر وأخضر وأرجواني،
شيء من الجمال والرقّة.

أمام هذا المنظر الجميل جلسا مبهورين متفرجين، وشت أساريهما بالفرحة التي
غمرت قلوبهما، وارتفع صداها: يا إلهي إنني أفنى من فرط السعادة، ثم تهامسا في
ظلال هذه التوت قد عانق الحب روحينا لأول مرة، بعد دقائق من الصمت واسترجاع
الذكريات حلوها فقط، هبطا إلى الأرض وسلكا طريقاً عرجاء ضيقة نحو العمق،
يسيران بين خطين متوازيين من أشجار النبق حيث تنتصب في وسط أحد الصفيين
شجرة أم النبق الشامخة.

جلسا وأسندا ظهريهما إلى جذعها المتين العريض حيث استقر رأساها على
الموضع الذي نقش فوقه الكلمات الأربعة، أطلقا العنان لعواطفهما ومشاعرهما
المهتاجة لتحلق في فضاء الغابة، في لجة الخيال والذكريات دس فرهاد يده تحت
قميصها من الأسفل، ارتعشت للمسة يده، جذب رأسها الأنيق إليه وقال لها بصوت
دافئ:

- عليك ارتداء ملابس أوسع من هذه من الآن فصاعد.

فتر فوها عن ابتسامه عذبة، وقالت بحلاوة وبنبرة تحمل نكهة التحدي:

- لا أزال رشيقة.

طأطأ برأسه إيجاباً ثم أضاف:

- ورغم ذلك عليك بالحذر.

أطلقا العنان لأحلامهما وذكرياتهما، الفرشات تراقصت فوق رأسيهما، دامت
تأملاتهما لثوان عدة، بعدها دس فرهاد يده في جيب بنطلونه وأخرج منه علبة

طويلة مسطحة كتلك التي تحفظ فيها النظارات الطبية، خفضت عينيها تنتظر ما تفعل يدها، أخرج منها سكينه محددة الرأس، ثم استدار جاثماً على ركبتيه، يواجه الجذع، طبع قبلة لكن هذه المرة على اسم كاترين المحفور على أصل شجرة الأم الخالدة، وقال بنبرة معبرة عن الأسف والأسى:

- جاء دوري من الآن فصاعد لكي أتولى مهمة الصيانة بنفسى.

وقرأ الكلمات بشغف عظيم: كاترين وفرهاد، حرير ١٩٦٣، تمنعت كاترين في السكين هنيهة وفجأة ارتفع صوتها تقول بدهشة:

- إنها سكين لحفر الخضر خاصة بصنع الدولة.

قال برصانة وخشوع الناسك:

- بهذه حفرت هذه الأحرف الخالدة وبهذه أقوم بالحفاظ عليها ضد التلف، أعطيتها طراوة وخضرة وحياة جديدة، أسقيها بدموعي ولو دعت الضرورة بدمي.

غرز الرأس الحاد فبدأ بالحرف (ك)، وبعد أن تم له حفر الكلمات الأخرى، نقش تحتها عبارة: نبيل، ١٩٩٤، ثم وضع يده على بطنها برفق متناه، الحركة هذه أفصحت عن سؤال وعته، فقالت بالمقابل تحقق في وجهه:

- نسميها...

قاطعها:

- أهي بنت؟

اجابت بولع ودلال:

- أريدها (هي).. أنسيت لماذا؟

- أعرف، أذكر جيداً، وهل غابت عن بالي لحظة أمنيائك التي أعلنت عنها في شقة البلايل العاشقة، حين كنا نطلق أمنيائنا وأمانينا المستقبلية في الفضاء ولا ندري أين تتجه؟

- نسميها... هات السكين..

تناولت منه السكين وأخذت تنقش بدقة وبرفق بالغ في قلب الشجرة: (جميلة).

عاد نوروز الربيع في وقته وموعده في الحادي عشر من آذار هذا العام كما في الأعوام الغابرة، خرج النوروز من غلس الدجى فأتى معه الربيع مختالاً ضاحكاً، الورود اللواتي كن بالأمس نوماً أفقن على أصوات الـ (دول وزرورنا) وفتق برد الندى براعم الشجر والزهر، وردّ الربيع لباس الطبيعة بعد أن اعترتها ريح الخريف وصقيع الشتاء.

وجرى الاستعداد لهذا اليوم منذ أسبوع، وها قد حلّ يوم الاحتفال؛ منذ الصباح الباكر ارتدى الجميع أفضل ملابسهم، وزينت الفتيات اللواتي لبسن ملابسهن الزاهية رؤوسهن بالزهور البرية اللّصيرة، وامتأ الكون بثغاء النعاج والحملان؛ وتعريجات الطيور وتحلق النحل والفراشات على الزهور والورود في حلتها الجديدة النظيفة، وضج الهواء بأزيز الحشرات والسواقي بنقيق الضفادع وأغصان الشجر بزقازق العصافير وتغاريد البلابل، بنى اللقلق عشه في مكانه المعهود، على مأذنة القرية اليتيمة، ومد منقاره يطعم فراخه مما أنعم الخالق عليه من قوت الربيع السخي.

وأمام المدرسة بوابة الأفندي، أمام مدرسة حرير الابتدائية المختلطة وقف جمع غفير من الطلبة والمعلمين وآباء وأمهات الطلبة، كما جرت العادة من كل سنة، ولكن كان لنوروز هذا العام نكهة ومذاق مختلف عن سابقاتها، هناك وجوه جديدة قديمة حاضرة كانت غائبة عن المشهد أكثر من ثلاثين عاماً من الزمن.

أمام بوابة الأفندي وقف فرهاد وعدنان وزوجتهما وولديهما صفّاً واحداً كل منهما يمسك بيد زوجته، واللذان بدورهما تمسك كل واحدة منهما بيد ابنه، الفرحة تعم الجميع، فرهاد في سترته النيلية والبنطلون الرصاصي اللامع وعدنان في قميصه الأصفر الغامق وبنطلونه القهوائي الغامق الجديد، وأمامهم يقف مدير المدرسة الحليق الذقن والشاربين بوجهه المستدير المنتفخ.

بدا الأخوان في قمة التألق: هذا بشعره الأملس ووجهه الواضح الأبيض وعينييه الواسعتين الشهلأوين وأنفه المستقيم المرتفع قليلاً في المقدمة وكتفيه العريضتين وقوامه الطويل، وذاك بعينييه الشهلأوين تحت عدستيه الخضراوين بقامتة الفارعة

وقبعته الجديدة من القش اشتراها له فرهاد، وجبينه الضيق وشعرة المسدول على كتفيه تخالطه خيوط بيض.

تكلم مدير المدرسة أمام البوابة مرحباً أولاً بالحضور وتحدث باقتضاب عن الأخوان ودور عدنان وبطولاته في مكافحة العقارب في زمن كانت العقارب تقض مضاجع الأهلين، وتهدد أمن القرية وتلقي في قلوبهم الرعب، وبعد أن أتم خطابه القصير أمام جمع الطلبة والمعلمين وآباء الأطفال وجه سؤالاً للحضور وهو يشير إلى عدنان، الذي طلب منه أن يتقدم ويقف إلى جانبه:

- هل منكم من يتذكر هذا الرجل طفلاً؟

ارتفعت الهمهمات واللغط، ارتفعت بين الحشد أيادي إلى أعلى تصيح:

- نعم نعم نعرفه إنه بطل.

وأصوات هزيلة تنادي:

- رأيناه يفوز بمسابقة قتل العقارب.

وأصوات شابة قوية تصيح:

- سمعنا عنه.

وبغته انبرى بين الحشد رجل قصير القامة رث الثياب أعرج نحيل ويرتدي معطفاً ثخيناً رغم الحر، يوارى كم بنطلونه الباهت المصفر في جواربيه الزيتونية المتهرأة رغم دفء الجو، وعيناه الصغيرتان تجولان في محجريهما بحركة سريعة لا إرادية أضفى إلى هيئته رعباً وريبة، تقدم يقرع بعصاه الأرض إلى وسط الشارع وقال بصوت اجش:

- أنا أعرفه تمام المعرفة.

- كيف؟

سأله المدير متفحصاً هيئته عن كثب، جعل العجوز يتأمل وجه عدنان تأمل الخبير العارف ثم هز منكبيه يقول بلا اكتراث:

- وما الفائدة من معرفته.

ثم عقب قائلاً:

- أعتقد أنني رأيته هناك يومًا أمام البيت الحجري والذي كان يومًا مسكنًا ومقامًا
لأعظم مدير مدرسة ظهر في هذه الربوع اسمه: ماموستا عمر أفندي رسول.
ارتفعت أصوات بالهتاف:

- عاش ماموستا مه لا عمر أفندي.

تبادل فرهاد وعدنان وكاتي النظرات المستفهمة، وعلت على وجه سها الأبيض
وعينيها النجلاوين آيات المحبة والمودة لذكر اسم الأفندي، وجهت الأنظار من على
طرفي الشارع إلى هذا القادم تتفحصه وتتبينه، وفجأة ضج المحتفلون من كل جانب
في صخب ولغط والدهشة والذهول يغمران الوجوه وانهارت الأسئلة:

- ماموستا فيصل؟!

- ماموستا فيصل يتكلم؟

- ألم يكن أخرس كما ادعى؟

- ما أنطقك يا ماموستا؟!

- قل نبي الكرد، فيصل زردشت.

جاء صوته باردًا وهو يحيل عينيه الصغيرين النافذتين على الوجوه الذاهلة إلى ما
حوله، ثم كرر طلبه بثبات يخاطب الجمع:

- قل نبي الكرد، زرادشت.

ثم تقدم أكثر يعرج بقامته الضئيلة متكئ على عصاه حتى وقف أمام المدير مستأذناً،
فواجه الجمهور ونطق بالجواب عاليًا:

- أنطقني خلو كردستان من رفاق الحزب الفاشي.

ثم أجال بعينه الصغيرين على الوجوه الواجمة المترقبة، حمم قليلاً، ثم تكلم
متحدثًا بصوت أجش:

- فرحت وفتحت فمي وتكلمت لكن سأغلق فمي من جديد.

- لماذا ماموستا فيصل؟

هدرت الأصوات المحتجة لا تخلو من هزء مبطن، تجاهل السؤال ولوى فاه ورفع
حاجبيه الكثين وأخذ يدير بعينه كالدعبل على الوجوه وقد انكمشت أسارير وجهه
ووجه سؤاله بتحدي:

- أتعرفون أن هناك معركة في المدينة بين البطيخ والرقى؟

ضج المكان بالضحك حتى كادت جنوبهم تنقذ من شدتها، ومن مكانه صاح مهدداً
يرعد:

- لا تضحكوا، إنها لاحقاً معركة (الراقي والبطيخ).

مرة أخرى انفجر الحشد بالضحك والهتاف، أما هو فلم يأبه كثيراً، عدل بنيقته
المغيرة الملطخة وأجال بعينه الصغيرتين المنتفختين وأهاب بهم بالإصغاء، وبعدما
تم له ذلك صدح صوته في الأنحاء:

- اسمعوا ريثما أصف لكم المعركة الجديدة.

توقف لحظة ينظف حنجرته، ثم عاد يخاطبهم ببرودة من خاب ظنه:

- إنها معركة ليست بين الكرد وأعداءه كما كان المأمول، ولكن المعركة الآن هي
بين الكرد والكرد، فهناك في أطراف المدينة قد شرعوا بحفر السواتر وتهيئة
البنادق استعداداً للقتال، قتال الأخوة، ارتفعت الأصوات من جديد تطالب المزيد من
الإيضاح، أردف مصرّاً:

- إنها معركة البطيخ، والقصة هي: في الآونة منع الحزب الأخضر من دخول
البطيخ الأصفر إلى السوق، ومن الطرف الآخر وبالمقابل أغار الحزب الأصفر
على الرقي الأخضر في الأسواق فحدثت الأزمة المستعصية، وهكذا جردوا السلاح
في وجه بعضهم البعض وهما على أهبة الاستعداد للمعركة القادمة: معركة البطيخ
ضد الرقي.

ساد سكوت شامل على المكان فجأة بعد أن وعى الناس أنه قال الحقيقة المرة، تنفس
عميقاً حتى برز شريان خفي في عنقه الطويل والدقيق كرأس باذنجانة العم بطرس،
ثم تواصل وأفاض:

- والأنكد أن معلماً منتمياً إلى الحزب الأخضر لا يجد طباشير بلون أصفر في
المدرسة إلا يرميها على الأرض ويسحقها بقدمه، وبالمقابل فإن هناك معلم آخر
منتمي إلى الحزب الأصفر يفعل الفعلة ذاتها بالطباشير الأخضر، ثم تراجع ورفع
عصاه في وجوه المعلمين خاصة يخاطبهم بمرارة العليم المغلوب على أمره:

- يقول آينشتاين اليهودي العظيم: الجنون هو أن تفعل الشيء مرة بعد مرة وتوقع
نتيجة مختلفة، هذا ما يفعله قادة الكرد اليوم، يقومون بنفس الأخطاء السابقة
ويتوقعون نتيجة مختلفة.

وبمرارة رفع يده يحمل عصاه يمدّها إلى اليمين مشيرًا إلى كهف خانزاد الذي لاح من بعيد على قمة الجبل الأسود وهو يصيح بحماس، ليعيد بذلك صدى صوته في الصف إلى أذهان فرهاد وكاترين:

- انظرا إلى هذه المرأة هناك، إنها لأشرف وأنبل من كل قادة الكرد في هذا الزمان.

ثم هدر صوته يمزق الفضاء:

- يحيى خانزاد ميري سوران.. أعيّدوا..

فردد الجمهور المتحمسون هاتفين بصوت هادر:

- عاشت الأميرة خانزاد.

ثم أعقبها بهتاف ذي نكهة مختلفة:

- يحيى اهورامزدا الاله الكرد.

فلم يفتح أحد فاهه، وأخذ يصرر على أسنانه وينقل بعينه الدائرتين في محجريهما بين الوجوه الواجمة التواقّة، وفي أثناء ذلك تعالت بعض الأصوات تنادي:

- أبعدوه؛ إنه مجنون.

أما هو فقد اقترب من هذا الشاتم حثيثًا وقف أمامه بتحدي، برز صدره، كشر له كاشفًا عن صف صغير من الأسنان الاصطناعية، ثم كور فاهه فصفر به في وجهه صفير أفقده توازنه فأسنده الذي يليه، واحتدت موجة الضحك الهستيري، ومن مكانه بجوار كاترين وسها التي ظلت تنتظر بذهول بالغ، وبدون سابق إنذار خرج فرهاد من الصف واندفع إلى الشارع، وقف أمام العجوز باحترام.. انحنى، وقبل كلتا يديه.

- من أنت؟

تساءل العجوز وهو يتراجع بخوف ورجاء.

- أنا تلميذك.. فرهاد، فرهاد عمر أفندي.

رفع رأسه عاليًا يتأمل وجهه مليًا يسترجع، يبحث في خزينة ذاكرته الحادة فوجدها..

- فرهاد ابن مديرنا الغالي عمر أفندي الأبّي الكردي المخلص.

ثم واجه الناس مخاطبًا إياهم بنبرة رصينة:

- كان هذا منذ الطفولة طالبًا نبيهاً مثابراً، ابن أبيه بكل معنى الكلمة.

قال هذا واغرورقت عيناه بالدموع، وقف هكذا بمظهر يشي بحزن عميق، وبحركة خاطفة فجائية غير متوقعة مد يده إلى فمه وانتزع طقم أسنانه انتزاعاً وألقاه في جيبه بعصبية شديدة، ثم وبدون أن يرفع رأسه لوى عنقه ومضى في سبيله يضرب مرة بعصاه إسفلت الشارع ومرة أخرى بساقه السليمة.

تبعه فرهاد واستوقفه، أمسك بيده يعاونه في شق الصفوف، العيون مصوبة عليهما من كل جانب، وفي الطريق وبعد الخروج من الزحمة التفت إلى فرهاد وقال له بصوت تخنقه العبرات:

- ابني، كنت قد أزمعت أن أسد فمي من جديد احتجاجاً على معركة الرقي والبطيخ لكنني عدلت عن رأيي فلن أسده بوجودك، أنت كاوه الحداد في العصر الجديد.

قال كذلك وأعاد الطقم إلى فمه ومضى في سبيله، وعاد فرهاد إلى موضعه وهو يشيعه من بعيد بنظراته الحزينة المفعمة بالمشاعر الجياشة، حينها مال إلى كاترين وقال لها بوجه حديدية القسماات وبصوت سمعه من حوله:

- كل العظماء كانوا مجانين أولاً قبل أن يكتشف المجانين أنهم كانوا عظماء!.

ظل مشهد نبي الكرد عالقا في الأذهان لبرهة شغل فيها الحضور عن البرنامج المقرر لليوم لعدة دقائق، ولكن سرعان ما أن توجه الكل إلى الفصل القادم.. أديرت الاسطوانة على الجهاز المسجل، وعلا هدير أنشودة الربيع النوروزي الخالد:

"نه م روزى سالى تازه يه نوروزه هاته وه....".

(هذا اليوم هو يوم نوروز قد عاد من جديد ليملاً القلوب بهجة وسروراً.. إنه لعيد عريق للكرد، وقد عاد بكل عنفوانه وجلب معه بركاته بالنماء والرخاء).

ودب الشارع بالدبكات الشعبية، اصطف الراقصون في صف طويل مختلط، من الذكور والإناث، وصدق أحد المغنين يغني مع الموسيقى، وكالعادة أمسك قائد سرب الراقصين منديلاً زاهياً بيده يهزه مع نغمات الأغنية.

كانت سها طوال الوقت تقف بالقرب من سونيا وكاترين التي لم تنفك تمسك بيد فرهاد، وانطلق الأطفال يلعبون ويقلدون الكبار في أداء الدبكة الكردية (شايى)، وفجأة توقفت الاسطوانة عن الغناء، وما هي إلا لحظات وارتفع صوت أغنية أخرى لم تكن غريبة على فرهاد ولا على كاترين ولا على عدنان الذي كان لا يزال يتكلم بشغف مع هيئة إدارة المدرسة أمام بوابة المدرسة، أنصت الناس إلى هذه النغمة السريعة الإيقاعية الغربية، بعد ثواني من انطلاق الأغنية اندفعت كاترين في فستانها الـ (كلوشة) البيضاء إلى وسط الشارع، والعيون من كل الأطراف توجهت نحوها، وطفقت ترقص على أنغام: ترالا لا لا لا لا لا واحد اثنين ثلاثة أربا (تعني أربعة)، الأغنية الشعبية التي أدت كاترين نفس الرقصة (التي اشتهرت برقص ترالا) على إيقاعها طفلاً وفي نفس المكان، وأداها برشاقة بنت الثلاثين، ارتفعت أصوات إعجاب نسائية تهتف بحماس:

- إنها سستر كاترين ممرضتنا الجميلة.

وأصوات الرجال:

- غزال غزال.

كانت هالة شعرها الأسود تحرق بقذالتها وعارضيتها وتنوس فوق منكبيها وتتموج وبدا من تحته عنقها العاجي الطويل، وفي وسط هذه الهالة بدا وجهها كالبدر في طابع من الحسن والجمال، ومع كل حركة تنبعث رنة خفيفة عذبة من أساورها الذهبية الثلاثة الصفراء اللامعة، والهواء يهفو بأهداب فستانها ويتخلل، وضحكها اللطيفة تجلو جمال ثغرها وعينيها، أمّا وجنتاها فقد اتخذتا لونًا برونزيًا لماعًا.

الأيادي بدأت تصفق لها وهي تزداد تحمسًا وتفننًا في حركاتها الرشيقة، وارتفعت أصوات تهتف:

- إنها الفراشة البيضاء.

رددتها الحناجر:

- كاتي، كاتي فراشة الحقل.

ودخلت سونيا تسحب معها سها في ملابسها الكردية الزاهية التي استحت وتورد وجهها الأبيض وامتنعت معذرة واكتفت بالتصفيق، أثارت رقصة سونيا بجسدها البدين وبطنها العظيم الضحك، لكن العيون جلها سلطت على كاترين، إلا من أراد أن يضحك فحولها إلى سونيا، التي كانت تحب أن تمتع الناس وتلقي النكات، بروحها العفوية البسيطة، وسرعان ما انضمت نبيلة إلى أمها وهنا كف نبيل وآسو عن اللعب وهرعا يقفان إلى جانب سها على حافة الشارع وسط الجموع يتفرجون ويضحكون، ولكن رقصة الصغيرة جذبت أنظار المحتفلين، فقد أدت رقصتها بمهارة ورشاقة، يتدلى من ورائها شعرها الفاحم الطويل في جديلتين غليظتين على ردفها، وهي تميمس وتميل ميلانا في بدانتها وقصر قامتها.

ارتفعت الأصوات من جانبي الطرق:

- نبيلة عروسة الحفل.

- كاترين فراشة الحقل البيضاء.

- وسونيا بطة الساحة والميدان بقذف الثقل.

وكان العرق يتصبب من كل بدنهما، التعليق هذا أضحكها جدًا، فلم تملك إلا أن ألقت بنفسها على طرف الشارع تضحك بملء شديها حتى اهتزت من شدتها بطنها، وما هي لحظات إلا ألقت كاترين بنفسها برفق إلى جانبها وعلى إثرها نبيلة، وانضم فرهاد إلى صف الراقصات القاعدات ثم الأطفال، وأخيرًا جاء عدنان يرفل في

قميصه الأزرق الفاتح الطويل الجديد وبنطلونه الجينز الأزرق الغامق وحذائه الأسود الجديد، وشعره الطويل المسترسل فوق كتفيه، وقد غطى القسم الأكبر من جبينه، اتخذ مجلسه بجانب سها التي لمعت في ملابسها الكردية الطويلة المزركشة وشالها الأخضر الشفاف وقد بان من تحته شعرها الطويل المطلي بالحناء، الوسيلة الوحيدة لإخفاء البياض الذي دب فيه.

جلسوا هكذا على شكل حلقة وانضم إليهم نسوة وأصدقاء آخرون فشكّلوا صفًا ثانيًا، ودون علم أحد غمز عدنان لنبيل وآسو فوثبا إلى أقدامهما واختفيا وسط الجموع، بعد أن اختفى الطفلان عن الأنظار غمز لكاترين وقرب فمه من سها خلسة وطبع قبلة خاطفة على خدها الأيمن طار لها لونها خجلًا واستحياء.

أنقذ حرجها صوت كاتي المرتفع الأبح:

- حلال، إنها القبلة الحلال.

وبصورة تلقائية خفضت بصرها تحقق في حلقة زواج سها المحيطة ببنصرها الأيمن، انعكست أشعة الشمس الساطعة عليها فظهرت النقوش بوضوح، قرأتها بصوت خفيض: س. ع. ١٩٨٥ وتأملت مليًا صورة القلب المحفورة بدقة بين الحرفين، أثارت الصورة هذه ذكرى اللقاء الأول في البيت الحجري مع عدنان، العائد من القبر في كفن متهرأ، ثم نقلت عينيها تحقق في خاتمها، حلقة الخطوبة، الذي ظلت محتفظة بها في مكان أمين من المنزل، والتي نقشت عليها: ك. ف. ١٩٨٦، أي العام الذي وصل خبر استشهاد عدنان، وعالدها في تلك اللحظة صدى كلمات فرهاد الذي أعلن لها حين ما أرتها الخاتم لأول مرة بعد عودته قبل أشهر: "رحلتما وتركتماني وحدي، ذهبتما أنت وأخي معًا وعدتما معًا، يا رب أنك إن أعطيت أعطيت كل شيء، وإن سلبت سلبت كل شيء!".

غرقت في تأمل عميق وعندما رفعت رأسها وجدت عيون عدنان شاخصة عليها فتبادلت معه نظرات مفعمة بالمعاني والأحاسيس المتضاربة المتداخلة، كانت كاترين أحيانًا تراودها أفكار غريبة ترتعب لها، تريد أن تطردها من ذاكرتها طردًا أبدئيًا لأنها لم تفق بعد تمامًا من الأحداث التي مرت بها في الماضي القريب، حينما وصل مصيرهما إلى طريق مسدود اضطررا خلالها أن يفصح كل واحد منهما عما يخالج صدره من عواطف ومشاعر رقت في بعض الأوقات إلى مستوى الإثارة

والتجاذب والتقارب متجاوزة حدود الصداقة المحضة البريئة، فيهتز ويهتاج لهذه الذكرى كيائها وتهب مسرعة إلى محو تلك الصور ولفظها لفظاً مبرماً من حافظتها. أما فرهاد فظل في بدايات لقاءاته بعدنان يتحاشى النظر في عينيه، إذ كلما حدث ذلك وجد نفسه فجأة يقف بائساً منكوداً وحيداً لا حول له ولا قوة مع الرفيق البطين حنون شنشل أمام تابوتين ملفوفين بالعلم العراقي في غرفة ننته تدور فوقهما مروحة عمودية قديمة صديئة دوراناً سريعاً بلا نهاية.

تواصلت الدبكات وضربات الطبل والمزمار وتتابع الأغانى وتعالى الزغاريد، وفي كل مكان وعلى كل لسان كلمة حلوة وعلى كل وجه ابتسامة مستبشرة، وترامت إليهم أصوات لغط وصياح، تحولت الأنظار إلى مصدر الضوضاء فإذا هي صادرة من أمام بوابة المدرسة، حيث اشتد الهرج والمرج، ويتخلل كل ذلك صوت المايكروفون المصم للأذان.

كان الصوت الهادر الصادر من المايكروفون يتلو فقرة جديدة من برنامج الاحتفال:
- السيدات والسادة، هذه السنة نوروزنا صارت نوروزين، وفرحتنا أضحت فرحتين.. أرجوكم الانتباه والتفضل بالاقتراب إلى أمام بوابة المدرسة.

نهض الكل متوجهين صوب بوابة المدرسة، حيث غص الشارع وحواشيه بالرجال والنساء؛ مسيحيات بملابسهن القصيرة، والمسلمات بملابسهن الطويلة عدا الشابات منهن، فقد كان القسم الأكبر منهن متبرجات يرتدين أزياء تكشف عن مفاتن أجسادهن، والازدحام كان شديداً إلى درجة أن اضطر بعض الجماعات إلى التراجع إلى مرعى المطران.

ارتفع الصوت الهادر مرة أخرى:
- انتباه رجاء.. هذا العام عام متميز فقد أعدنا لكم مفاجأة خاصة بالمناسبة لا سابقة لها.

ثم رفع المذيع يده إلى أعلى حد ممكن وصاح في المايكروفون:
- هيا ابدؤوا.

مرت لحظات من الصمت على المكان في انتظار ما سيحدث، احتبست الأنفاس، عدنان يندفع إلى وسط الشارع وفي إثره طفلان، ارتفعت الأصوات:

- إنها نبيل وآسو!

عدنان يقف على مسافة عشرة أمتار منهما، يرفع كلتا يديه إلى أعلى ويعطي إشارة للطفلين ما يدل على التحرك والبدء، ألقى الطفلان بأيديهما إلى الأرض وقدميهما إلى الأعلى وسارا هكذا وسط الشارع كأسطوانة مقلوبة رأسًا على عقب، وفي الطرف الآخر يتصاعد صوت عدنان يرسل اليهما تعليماته والذي بدا على أهبة الاستعداد للتدخل إن حدث أي خلل وفقدان توازن في مسيرة الطفلين، ارتفع التصفيق والهتافات تغطي عليها أصوات طلاب المدرسة الحادة:

- نبيل، آسو، نافرين، برافو.

سارا هكذا إلى أن وصلا إلى حيث يقف عدنان الذي مد يديه إليهما للمساندة في الهبوط وحفظ التوازن، وهناك ألقيا بأرجلهما إلى الأرض بخفة ومهارة أدهشت عدنان قبل الجمهور، وعلا الصفير وزغاريد النسوة من طرفي الشارع مرة أخرى، واندفع بعض المتحمسين وحملوا الطفلين على الأكتاف والأعناق وسط صياح الرجال والأطفال وزغاريد النساء.

ولكن لم تمر دقيقة على هذا المشهد إلا وتحولت الوجوه نحو وسط الشارع مرة أخرى، فقد دبت الحركة هناك من جديد، عدنان يتقدم إلى الأمام، يتراجع الجمع المتقدم مفسحين له، يقف في منتصف الشارع تمامًا بموازية بوابة الأفندي وصورة الطير والطالب والحقيبة المتجددة الطلاء، والعيون مترقبة لهفة، يرفع عدنان رأسه ويدير وجهه على وجوه المشاهدين الوجلة المرتقبة، ينفخ في يديه نفخة قوية، يرفع كلتا يديه إلى ما فوق رأسه، يلقي نظرة أخرى كالمتحدي على الوجوه، يستمد أضعاف ما فقده من طاقة في السجون والمعتقلات والحروب والنكسات والعقد والمحن والمصائب، بغتة يتوقف عن الحركة، صوت خافت يهمس في أذنيه: "عدنان، يا بطلي الصغير، أنا فخورة بك"، يرفع رأسه فتلتقي عيناه بعيني أمه المائيتين تحديقان فيه من بين طيات السحب وعلى شفثيها الشاحبتين ابتسامة واهنة، نظر إلى الأرض وهو يتمتم: "أمي هذه القفزة من أجلك".

ها هو يتراجع بعزيمة خطوتين إلى الوراء وينفخ في يديه مرة أخرى، ثم يلقي بيديه إلى الأرض قاذفًا برجليه إلى الأعلى، وبانحناء طفيفة من وسط الظهر جعل يمشي على راحتيه إلى الأمام بخطوات متوازنة، مشى ذهابًا وإيابًا على يديه في منتصف

الشارع وقدماه يتدليان من فوق رأسه من الخلف، وشعره الطويل يتأرجح يمنة ويسرة أمام وجهه كفرشة زجاج سيارة، ومن تحت ارتفع صوته المضغوط:

- ماذا ترون؟

فانطلقت أصوات ثلاثة تهتف:

- عقرب بذيل وبكلابتين.

التفت الناس إلى مصدر الأصوات الثلاثة فأدركوا أنها لكاترين وفرهاد وسونيا الواقفين بمحاذاة الشارع قبالة المشهد، وبجانبهم سها التي لم تملك إلا أن تطبق بيدها على شفتيها وتردد بصوت مكتوم: ما هذا يا ربي؟ ماذا أرى يا إلهي؟ وها هو عدنان يدع قدميه يهبطان ببطء إلى الأرض حتى تلامسان الأرض، وها هو الآن يسير على أربع بظهر مقلوب ويصيح بصوت عالي مرتج:

- وماذا ترون الآن؟

ومن جديد تهتف الأصوات الثلاثة:

- عقرب بلا ذيل، وبلا كلابتين.

وبعدما وقف أخيراً على قدميه منتصباً فتح ذراعيه إلى أقصى مدى، ورفع رأسه إلى السماء فكانت صافية زرقاء وكانت صورة أمه قد اختفت، وانطلق نبيل وآسو يلقيان بأنفسهما بين ذراعيه، وها هو آسو يرفع رأسه من على حضن أبيه ليواجه الناس ويخاطبهم بشفتين رقيقتين تطفحان بحلاوة شهد الأبوة:

- أرايتم أبي؟ إنه أبي.. إنه أبي.. بابا عدنان بطل.. إنه قاتل العقارب.

وبدوره هتف نبيل بحماس مشيراً بيده الصغيرة إلى صدر عدنان الواقف كالطود الشامخ فوق الإسفلت الصلب:

- إنه عمي قاتل العقارب.

وانفجر حينها الجمهور في كورس صاوح، يصيح صيحة واحدة ارتدت أصداؤها في فضاء الجبل الأسود ودوت كالرعد فوق غابة النبق:

- عدنان قاتل العقارب.

obeyikan.com

obeyikan.com

المؤلف في سطور

- فرياد إبراهيم رسول.
- كاتب وروائي ومترجم عراقي مقيم في هولندا.
- خريج قسم اللغة الانجليزية - جامعة بغداد، في منتصف السبعينات.
- يجيد خمس لغات: العربية، الكوردية، الانجليزية، الهولندية والفارسية.
- كتب وترجم مئات النصوص بين اللغات الخمس، ولا يزال.
- صدر له:
- Hallo op de fiets: رواية بالهولندية.
- De advocaat, de hond en de vreemdeling: رواية بالهولندية.
- السَّمَاق: رواية، شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م.
- حُبُّ تَحْتَ ظِلَالِ النَّبِق: رواية، شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٧م
- له قيد النشر عدة روايات باللغات العربية والهولندية والانجليزية.
- البريد الإلكتروني: high1950@gmail.com

obeyikan.com

obeyikan.com



(+2) 01288890065

www.shams-group.net